Ⲡⲓϭⲱⲙ Ⲛ̀ⲧⲉ Ⲛⲓⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ

بُسْتَانُ الرُّهْبَانِ

عن آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

القديس العظيم

الأنبا أنطونيوس

أب جميـــع الرهـــبان

بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين

القديس أنطونيوس الكبير

قال القديس أنطونيوس: «رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ. كما أنّ الضوءَ إذا دخل إلى بيتٍ مُظلمٍ طرد ظُلمَتَه وأناره، هكذا خوفُ اللهِ إذا دخل قلبَ الإنسانِ طرد عنه الجهلَ وعلَّمه كلَّ الفضائلِ والحِكَمِ».

سيرة القديس أنطونيوس: من أهلِ الصعيدِ من جنسِ الأقباطِ، وسيرتُه عجيبةٌ طويلةٌ إذا استوفيناها شرحاً ... وإنما نذكرُ اليسيرَ من فضائِلِه:

إنه لما توفي والدُه دخل إليه وتأمَّل وبعد تفكيرٍ عميقٍ قال: «تبارك اسمُ اللهِ، أليست هذه الجثةُ كاملةً ولم يتغير منها شيءٌ البتة سوى توقُّف هذا النَّفس الضعيف. فأين هي همَّتُك وعزيمتُك وأمرُك وسَطوتُك العظيمة وجمعُك للمالِ. إني أرى الجميعَ قد بَطُلَ وتركتَه ... فيا لهذه الحسرةِ العظيمةِ والخسارةِ الجسيمة». ثم نظر إلى والدِه وقال: «إن كنتَ قد خرجتَ أنت بغيرِ اختيارِك فلا أعجبَنَّ من ذلك، بل أعجبُ أنا من نفسي إن عملتُ كعملِك». ثم أنه بهذه الفكرةِ الواحدةِ الصغيرةِ ترك والدَه بغيرِ دفنٍ. كما ترك كلَّ ما خلَّفه له من مالٍ وأملاكٍ وحشمٍ، وخرج هائماً على وجهِهِ قائلاً: «ها أنا أخرجُ من الدنيا طائعاً كي لا يخرجوني مثلَ أبي كارهاً». ولم يزل سائراً حتى وصل إلى شاطئِ النهرِ حيث وجد هناك جميزةً كبيرةً وعندها بربا، فسكن هناك ولازَمَ النسكَ العظيمَ والصومَ الطويلَ، وكان بالقربِ من هذا الموضعِ قومٌ من العربِ، فاتَّفق في يومٍ من الأيامِ أن امرأةً جميلةَ الصورةِ من العربِ نزلت مع جواريها النهرَ لتغسلَ رجليها ورفعت ثيابَها وجواريها كذلك. فلما رأي القديسُ أنطونيوس ذلك حوَّل نظرَه عنهن وقتاً ما ظناً منه أنهن يمضين. ولكنَّهن بدأن في الاستحمامِ في النهرِ. فما كان من القديسِ إلا أنه قال لها: «يا امرأة أما تستحين مني وأنا رجلٌ راهب»؟ أمَّا هي فأجابته قائلةً له: «اصمت يا إنسان. من أين لك أن تدعوَ نفسَك راهباً؟ لو كنتَ راهباً لسكنتَ البريةَ الداخلية، لأن هذا المكانَ لا يصلُح لسُكنى الرهبانِ». فلما سمع أنطونيوس هذا الكلامَ لم يَرُدَّ عليها جواباً، وكثُرَ تعجُّبه لأنه لم يكن في ذلك الوقتِ قد شهد راهباً ولا عَرَف اسمَه. فقال في نفسِهِ: «هذا الكلامُ ليس من هذه المرأةِ، لكنه

صوتُ ملاكِ الربِ يوبخني». وللوقتِ ترك الموضعَ وهرب إلى البريةِ الداخليةِ وأقام بها متوحداً. لأنه ما كان في هذا الموضعِ أحدٌ غيرُه في ذلك الوقتِ، وكانت سُكناه في قريةٍ قديمةٍ كائنةٍ في جبلِ العربةِ. صلاته تكون معنا آمين.

وكان يوماً جالساً في قلايتِهِ فأتى عليه بغتةً روحُ صغرِ نفسٍ ومللٌ وحيرةٌ عظيمةٌ، وضاق صدرُه، فبدأ يشكو إلى اللهِ ويقول: «يا ربُّ إني أحبُ أن أخلصَ لكن الأفكارَ لا تتركني، فماذا أصنعُ»؟ وقام من موضِعِهِ وانتقل إلى مكانٍ آخرَ وجلس. وإذا برجلٍ جالسٍ أمامه وعليه اسطوانةٌ ومتوشحٌ بزنارٍ صليبٍ مثال الإسكيم، وعلى رأسِهِ كوكلس (أي قلنسوة) شبهُ الخوذةِ، وكان جالساً يُضفِّرُ الخوصَ. وإذا بذلك الرجل يتوقف عن عملِهِ ويقفُ ليصلي. وبعد ذلك جلس يُضفِّرُ الخوصَ ثم قام مرةً ثانيةً ليصلي، ثم جلس ليشتغلَ في ضفرِ الخوصِ، وهكذا ... أما ذلك الرجل فقد كان ملاكَ اللهِ أُرسِلَ لعزاءِ القديسِ وتقويتِهِ، إذ قال لأنطونيوس: «اعمل هكذا وأنت تستريح»، ومن ذلك الوقتِ اتَّخذ أنطونيوس لنفسِهِ ذلك الزي الذي هو شكلُ الرهبنةِ، وصار يُصلي ثم يشتغلُ في ضفرِ الخوصِ؛ وبذلك لم يَعُد المللُ يضايقه بشدةٍ. فاستراح بقوةِ الربِ يسوع له المجد.

من تعاليم القديس أنطونيوس:

قال: «إنّ أولَ كلِّ شيءٍ هو أن تصلي بلا مللٍ، واشكر اللهَ على كلِّ ما يأتي عليك. وإذا قُمتَ باكراً كلَّ يومٍ اسأل عن المرضى الذين عندك. لا تتحدث مع صبيٍ ولا تعاشره بالجملةِ ولا ترهبنه بسرعةٍ, ولا ترقد على حصيرةٍ واحدةٍ مع من هو أصغر منك، ولا تخالط علمانياً بالجملةِ، ولا تقترب إليك امرأةٌ ولا تَدَعها تدخلُ عندك، فالغَضَبُ يمشي خلفها، ولا تَعُدْ تفتقد أهلَكَ الجَسَدَانيين. ولا تُعطِ لهم وجهَك لينظروك. لا تُبقِ لك أكثرَ من حاجتِك، ولا تدفع أكثرَ من طاقتِك. وصدقتُك أعطِها لفقراءِ دَيرِك. وإذا حدثتْ عثرةٌ بسببِ شابٍ لم يلبس الإسكيمَ فلا تُرهبنه بل أخرجه من الديرِ بسرعةٍ».

حدث أنه لما دخل القديسُ البريةَ الداخلية، أن الشياطينَ نظرت إليه منزعجةً. فاجتمعتْ عليه وقالت له: «يا صبيَ العمرِ والعقلِ، كيف تجاسرتَ ودخلتَ بلادَنا، لأننا ما رأينا بشراً آدمياً سواك». وابتدءوا يجاهدونه كلُّهم. فقال لهم: «يا أقوياءُ، ماذا تريدون مني أنا الضعيفُ المسكينُ.

وما هو مقداري حتى تجمَّعتم كلُّكم عليَّ. ألَاَ تعلمونَ أني ترابٌ ووسخٌ وكلا شيءٍ، وضعيفٌ عن قتالِ أحدِ أصاغرِكم». وكان يُلقي بذاتِهِ على الأرضِ ويصرخُ ويقول: «يا ربُّ أعني وقَوِّ ضعفي. ارحمني يا ربُّ فإني التجأتُ إليك. يا ربُّ لا تتخلَّ عني ولا يَقوَى عليَّ هؤلاء الذين يحسبون أني شيءٌ. يا ربُّ أنت تَعلَمُ أني ضعيفٌ عن مقاومةِ أحدِ أصاغر هؤلاء». فكانت الشياطينُ إذا سمعتْ هذه الصلاةَ المملوءةَ حياةً واتضاعاً تهربُ منه ولا تقدرُ على الدنوِّ منه.

وحَدَثَ أن جمعَ الأركونُ (أي رئيسُ الشياطينِ) كلَّ آلاتِ اللَّهوِ والطربِ واللَّذاتِ والنعيمِ والنساءِ وسائر أنواعِ الزنى ولذَّاتهِ. أما هو فكان يُغمِضُ عينيه ويقولُ: «عجباً منكم. كيف تجعلونَ لي مقداراً وتحتالون في سقوطي، مع إني ضعيفٌ عن مقاومةِ أحدِ أصاغركم. ابعدوا عني وعن ضعفي أنا المسكينُ الترابُ والرماد». وبذلك كانت الأفكارُ تسقطُ عنه بمعونةِ الله، والشياطينُ كانت تحترقُ لكثرةِ اتضاعِهِ. وفي مرَّاتٍ كثيرةٍ كانت الشياطينُ تُحضرُ له جميعَ أنواعِ التخويفِ والإزعاجِ والتهويلِ والعذابِ. وهو يصرخُ إلى اللهِ باتضاعٍ ويقول: «انجدني يا ربُّ بمعونتِك ولا تَبْعُد عن ضعفي». وللوقتِ كانت الشياطينُ تهربُ عنه. ومراراً كثيرةً أيضاً كانت الشياطينُ تهجمُ عليه وتضربهُ ضرباً مؤلماً. وهكذا أقام القديسُ أنطونيوس ثلاثين عاماً إلى أن نظرَ الربُّ يسوعُ المسيح إلى كثرةِ اتضاعِه وصبرِهِ واحتمالِه وكَسَرَ عنه شدةَ الأعداءِ. صلاته تكون معنا آمين.

قال القديس أنطونيوس: «أدِّب بخوفِ الله ولا تُشفق. لا تأخذ بوجهِ كبيرٍ ولا صغيرٍ، بل اقطع بكلامِ الحقِّ باستقامةٍ. احرس ثيابَك لئلا تمشي عُرياناً في يومِ الحُكمِ فتُفتَضَح. كُلْ خبزَك بسَكينةٍ وهدوءٍ وإمساك. وجلوسُك يكونُ بأدبٍ. ولا تتبع جميعَ أفكارِك. إذا ضُرِبَ الناقوسُ لا تتوانَ عن الحضورِ إلى الكنيسةِ، ولا تتقمقم في عملٍ ما. لا تُعيِّر أحداً مهما كانت الأسبابُ. إذا مضَيْتَ إلى أخٍ فلا تُبطئ في قلايتِهِ. لا تتحدث في الكنيسةِ ولا تجلس في أزقَّةِ الديرِ. لا تحلف البتةَ لا بشكٍ ولا بحقٍ. لا تمضِ إلى كنيسةٍ يجتمعُ فيها الناسُ ولا تُلَبِّ دعوةَ وليمةٍ. لا تَقُم بعملٍ من الأعمالِ إلا بعد استشارةِ أبِ الديرِ. لا تُظهر صوتَك إلا في صلاةِ الفرائضِ. والزم الحزنَ على خطاياك كمثلِ من عنده ميتٌ. أَوقِد سراجَك بدموعِ عينيك. لا تتحدث بأفكارِك لجميعِ الناسِ إلا الذين لهم قوةٌ على خلاصِ نفسِك. واشتغل بكلِّ قوتِك ليتمجدَ أبوك الذي في السماواتِ.

أدِّب ابنَك بلا شفقةٍ فدينونتُه عليك. لا تأكل حتى تشبع ولا تَنَمْ إلا يسيراً بقدرٍ. لا تكن مُقاتِلاً باللسانِ. اجعل كلَّ أحدٍ يباركُك، والربُّ يسوعُ المسيح يُعينُك على العملِ بمرضاتِهِ». له المجد إلى الأبد آمين.

وقال أيضاً: «كما أنَّ السمكَ إذا خرج من الماءِ يموتُ، كذلك الراهبُ إذا خرج من قلايتِهِ يموتُ خوفُ اللهِ من قلبِهِ».

قيل: إن بعضَ الإخوةِ في الإسقيط اتفقوا على زيارةِ القديس أنطونيوس، فلما ركبوا المركبَ وجدوا فيها شيخاً من الآباءِ يُريد المضيَ إليه كذلك، ولم يكن الإخوةُ يعرفونه. ثم أنّ الإخوةَ اندفعوا يتحدثون حديثَ الآباءِ وبما جاء في الكتبِ ويذكرون أيضاً صناعةَ أيديهم. والشيخُ جالسٌ يسمعُ صامتاً. فلما صعدوا من المركبِ عَلِموا أن الشيخَ ماضٍ معهم إلى القديس أنطونيوس. فلما وصلوا إليه نظر إليهم القديسُ وقال للإخوةِ: «نِعْمَ الرفيقَ وجدتموه، أعني الشيخَ». ثم قال للشيخِ: «نِعمَ الرفقةَ وجدتَهم أيها الأبُ». فقال له الشيخُ: «أما هم فجيادٌ، ولكن دارَهم ليس عليها بابٌ، فإذا أراد أحدٌ الدخولَ إلى الإسطَبلِ ليحُلَّ الحِمارَ ويأخُذَه، ما كان له مانعٌ. أعني أنهم يتكلمون بكلِّ ما يجري على ألسنتِهم».

قيل: أتى إخوةٌ إلى الأنبا أنطونيوس وقالوا له: «يا أبانا، قُلْ لنا كيف نخلُص»؟ فقال لهم: «هل سمِعتم ما يقولُه الربُّ»؟ فقالوا: «من فَمِكَ أيها الأب». فأجابهم قائلاً: «من لَطَمَك على خدِك الأيمن حوِّل له الأيسرَ». فقالوا له: «ما نطيقُ ذلك». قال لهم: «إن لم تطيقوا ذلك فاصبروا على اللطمةِ الواحدةِ». فقالوا له: «ولا هذه نستطيعُ». فقال لهم: «إن لم تستطيعوا فلا تجازوا من يظلمكم». فقالوا له: «ولا هذا نستطيعُ». فما كان من القديسِ إلا أن دعا تلميذَه وقال له: «أصلحْ مائدةً واصرِفهُم لأنهم مرضى. إن هذا لا يطيقون، وذلك لا يستطيعون، ووصايا الربِّ لا يريدون، فماذا أصنعُ لهم»؟!

قال الأنبا أنطونيوس: «إن للجسدِ ثلاثَ حركاتٍ: الأولى من الطبعِ تتحركُ فيه، ولكنها ليست عاملةً ما لم توافقها النيةُ. والحركةُ الثانيةُ تتولدُ من الراحةِ وترفيه البدنِ وتنعيمِهِ بالطعامِ والشرابِ. فيسخنُ الجسدُ ويهيجُ الدمُ ويُحرِّك إلى الفعلِ. ولذلك قال الربُّ: انظروا لئلا تَثقُل

قلوبُكم بالشبعِ والسُكرِ. والرسولُ يقول: لا تسكروا بالخمرِ الذي منه الخلاعةُ. أما الحركةُ الثالثةُ فإنها تَهيجُ على المجاهدين من حسدِ الشياطين. وعلى ذلك فالحركةُ الأولى طبيعيةٌ والاثنتان الأخريان عرضِيَّتان، وفي استطاعتنا أن نقبلهما أو نرفضهما إذا شئنا».

وقال أيضاً: «الذي يطرُقُ سبيكةً من الحديدِ يسبقُ أولاً فيُمثِّل في فكرِه ما هو عتيدٌ أن يفعلَه، إما منجلاً أو سكيناً أو فأساً وهكذا. فسبيلُنا نحن أيضاً أن نفكرَ في كلِّ شيءٍ نبدأُ في العملِ فيه لئلا يكون عملُنا باطلاً».

وقال أيضاً: «إن الطاعةَ والتمسكنَ يُخضعان لنا الوحوشَ».

وقال أيضاً: «ليكن خوفُ اللهِ بين أعينِكم دائماً، واذكروا من يُميتُ ويُحيي، وأبغِضوا العالَمَ وكلَّ ما فيه من نياحِ الجسدِ، ولا تهتموا بهذه الحياةِ الفانيةِ لتحيوا باللهِ. واذكروا ما وعدتم به اللهَ فإنه سوف يطالبكم به في يومِ الدينونةِ. جوعوا. اعطشوا. اسهروا. تعرَّوْا. نوحوا. ابكوا. تنهدوا واحزنوا في قلوبِكم، هل أنتم مستحقين للهِ؟ تهاونوا بالجسدِ لتحيا أنفسُكم».

سُئل القديس أنطونيوس: «ما هو العملُ الجيدُ»؟ فأجاب وقال: «إن الأعمالَ الجيدةَ كثيرةٌ، لأن الكتابَ يقول: إن إبراهيمَ كان مضيفاً للغرباءِ وكان اللهُ معه، وإيليا كان يؤثِرُ سكنى البريةِ والوحدةَ وكان الله معه، وداود كان متضعاً ووديعاً وكان الله معه، ويوسف كان حليماً عفيفاً وكان الله معه. فالذي يُحبهُ قلبُك من كلِّ هذا اعمله من أجلِ اللهِ واحفظ قلبَك. وإذا قاتلتْكَ أفكارٌ كثيرةٌ فقاتِل أنت رأسَها، فإن هزمتَه انهزم باقيها».

وقال أيضاً: «ينبغي لمن يُشتَم أن يعتقدَ في نفسِه أنه هو السببُ في شتمِهِ لسوءِ فعلِهِ. فيُصبحُ الشاتمُ مذلِّلاً له من الخارجِ، في الوقتِ الذي يُصبحُ هو مذلِّلاً لنفسِهِ من الداخلِ. مثلُه في ذلك مثلُ داود النبي الذي منع أصحابَه من قتلِ شاتِمِهِ إذ قال لهم: دَعُوه فإن الربَّ جَعَلَهُ يشتمُني. دَعُوه حتى ينظرَ الربُّ ذلِّي ويرحمني. وأن يتشبَّه (المشتومُ) بالسيدِ المسيحِ، لأنه لَمَّا شُتِم لم يَشْتِم. وأن تَفتكرَ في شاتِمِك أنه قد عتقَك من السُبحِ الباطلِ إن احتملتَه بمعرفةٍ. وأنه قد أَرسلَ لك على لسانِهِ الدواءَ النافعَ. أَقْسِر ذاتَك وتعوَّد قطعَ مشيئتِك، وبنعمةِ المسيحِ تبلُغُ إلى ممارسةِ كلِّ أمورِك بدونِ قَسْرٍ ولا حزنٍ. أَحسِن إلى كلِّ أحدٍ، وإن لم تقدر فأحبَّ كلَّ أحدٍ. وإن

لم تستطعْ فلا أقلَّ مِن أن لا تبغضَ أحداً. ولن يتيسَّرَ لك شيءٌ من ذلك ما دمتَ تُحبُ العالميات».

وقال أيضاً: «إن حدَّثك أخٌ بأفكارِه فاِحْذَر أن تُظهرها لأحدٍ، بل صلِّ عنه وعنك كي تَخلُصا معاً. إن أُمِرتَ بشيءٍ يوافقُ مشيئةَ اللهِ فاحفظه. وإن أُمِرتَ بما يخالفُ الوصايا فقل إن الطاعةَ للهِ أولى من الطاعةِ للناسِ. واذكر قولَ الربِّ: إن غنمي تعرفُ صوتي وتتبعُني وما تتبعُ الغريبَ».

قالوا له: «هل جيدٌ للراهبِ أن يكتفي بذاتِهِ ولا يأخذُ من الإخوةِ ولا يعطيهم»؟ قال: «إن تَصرَّفَ الراهبُ هكذا فهو يعيشُ بلا اتضاعٍ ولا رحمةٍ، ويَبْعُدُ بذلك من الخيراتِ المعدَّة للمتضعين والرحماءِ».

وسألوه أيضاً: «إن كان جيدٌ أن يكتفيَ الراهبُ بنفسِهِ. إذاً فلا هو يَخدِمُ أحداً ولا يدع أحداً يَخدِمُهُ كذلك»؟ فقال: «إنَّ الربَّ علَّمنا أن نَخدِمَ إخوتنا كما يَخدِمُ العبيدُ سادتَهم. وكما شدَّ هو وَسَطَه وغسل أرجلَ التلاميذِ. ولا نمتنع من أن نُخدَمَ، لأن بطرسَ لما امتنع من غسلِ رجليهِ، قال له المسيحُ: إن لم أغسلك فلن يكونَ لك نصيبٌ معي».

قالوا له: « ما معنى قولُ الرسولِ: افرحوا بالربِّ»؟ قال: «إذا فرحنا بإتمامِ الوصايا فهذا هو الفرحُ بالربِّ. فلنفرح بتكميل وصايا الربِّ وبنجاحِ إخوتنا. ولنحفظ أنفسَنا من فرحِ العالم والضحك إن أردنا أن نكونَ من خواصِ ربِّنا. لأنه قال: إن العالمَ يفرحُ وأنتم تبكون. كما قال أيضاً: الويلُ للضاحكين والطوبى للباكين. ولم يُكتب عنه قط أنه ضَحِكَ بل كُتب عنه أنه حَزِنَ ودمعت عيناه».

سأل أخٌ الأنبا أنطونيوس قائلاً: «ماذا أعملُ لكي أجدَ رحمةَ اللهِ»؟ أجابه القديسُ قائلاً: «كلُّ موضعٍ تمضي إليه اجعل اللهَ بين عينيك، وكلُّ عملٍ تعمله يكونُ لك عليه شاهدٌ من الكتبِ، وكلُّ موضعٍ تسكنه لا تنتقل منه بسرعةٍ. احفظ هذه الثلاثةَ تجدْ رحمةً».

سأل الأنبا بموا القديسَ أنطونيوس عما يصنعُ لخلاصِهِ، فقال له: «لا تتكل على برِّكَ ولا تصنع شيئاً تندمُ عليه. وأمسك لسانَك وبطنَك وقلبَك».

قال الأنبا أنطونيوس لتلاميذِهِ: «أنا لا أخافُ اللهَ». فقالوا له: «ما هذا الكلامُ الصعبُ يا أبانا». قال: «نعم يا أولادي، لأني أُحبُّه، والحبُّ يطردُ الخوفَ».

وقال أيضاً: «إن شِئتَ أن تخلُصَ فلا تدخل بيتَك الذي خرجتَ منه. ولا تسكن في القريةِ التي أخطأتَ فيها. ولا تُبصر أبويك ولا أقرباءَك الجسَدَانيين، وإلا فأنت تقيمُ زمانَك كلَّه بغيرِ ثمرةٍ. لا تأكل مع امرأةٍ. ولا تصادق صبياً البتة. لا يرقد اثنان منكم على حصيرةٍ واحدةٍ. وإذا نمتَ لا تُدخل يدَك داخلك لئلا تخطئ بغيرِ هواك. لا تَحُلَّ مِنطَقَتَك وأنت قويٌ. وإذا تعريت فلا تنظر جسدَك، ولا تمسك خَدَّ قريبك ولا يدَه صغيراً ولا كبيراً. لا تعُد إلى الميناءِ التي أخطأتَ للهِ فيها دفعةً أخرى لئلا تقعَ في فخٍ وعثرةٍ. أتعِب نفسَك في قراءةِ كتبِ اللهِ فهي تُخَلِّصُك من النجاسةِ. إن جلستَ في خِزانَتِك قم بعملِ يديك. ولا تَخَلِّ اسمَ الربِّ يسوعَ، بل أمسكه بعقلِك ورتِّل به بلسانِك وفي قلبك. وقل: يا ربِّي يسوعَ المسيحِ ارحمني. يا ربِّي يسوعَ المسيح أعني. وقل أيضاً: أنا أُسَبِّحُك يا ربِّي يسوعَ المسيح. اختَرَ التعبَ فهو يُخَلِّصُك من جميعِ الفواحش مع الصومِ والصلاةِ والسهرِ. لأنَّ تعبَ الجسدِ يجلِبُ الطهارةَ للقلبِ. وطهارةُ القلبِ تجعلُ النفسَ تُثْمِرُ. لا تجعل نفسَك معدوداً بالجملةِ وأنت تتفرغ لتبكي على خطيئتِك. إياك والكَذِب فهو يطردُ خَوفَ اللهِ من الإنسانِ. لا تتحدث بأفكارِك لكلِّ أحدٍ لئلا تكونَ عثرةً. لتكنْ مُتعَباً في شغلِ يديك فيأتيكَ خوفُ اللهِ. أحبَّ الاتضاعَ فهو يغطي جميعَ الخطايا. لا تكن قليلَ السمعِ لئلا تكونَ وعاءً لجميعِ الشرورِ. ضع في قلبِك أن تسمعَ لأبيك فتحلَّ بركةُ اللهِ عليك».

ادَّعوا مرةً على أخٍ في ديرٍ بأنه زنى. فخرج من ديرِه وجاء إلى جبلِ أنطونيوس. فجاء إخوةُ ديرِه ليردُّوه وبدءوا يوبِّخونه بأنه فعل كذا وكذا. أما هو فأجاب بأنه لم يفعل شيئاً من هذا. واتفق أنّ أنبا بفنوتيوس كان هناك. فقال لهم مثلاً: «رأيتُ رجلاً على شاطئِ النهرِ وقد رموه في الطينِ إلى رُكبتيهِ. فجاءه قومٌ ليساعدوه فغطَّسوه إلى كَتِفَيهِ». فلما أُنبئ أنبا أنطونيوس بكلامِ بفنوتيوس قال: «إن هذا الرجلَ قادرٌ أن يشفي ويُخلِّصَ النفوسَ». فلما سمع الإخوةُ ندموا على الكلامِ الذي قالوه وضربوا المطانية للأخِ وحملوه إلى ديرِه.

قال الأنبا أنطونيوس: «لا تَفترِ على أخيك ولو رأيتَه عاجزاً عن إتمامِ جميعِ الفرائض لئلا تقعَ في أيدي أعدائِك. الخطايا القديمةُ التي فعلتَها لا تفكر فيها لئلا تتجددَ عليك. لا تتوهم

أنك عالمٌ وحكيمٌ لئلا يذهب تعبُك سُدَى وتَمُرَّ سفينتُك فارغةً. عوِّد لسانَك القولَ في كلِّ شيءٍ وفي كلِّ وقتٍ ولكلِّ أخٍ ولله تعالى: اغفر لي، فيأتيك الاتضاعُ. لا تذكر لَهْوَك ولذَّاتِك في زمانِ كسلِك، ولا تتحدث عنها لئلا يصبحَ ذكرُها لك عثرةً. إذا جلستَ في قلايتِك فلا تفارق هذه الأشياءَ: القراءةَ في الكتبِ، التضرعَ إلى اللهِ، شُغلَ اليدِ. اطلب التوبةَ في كلِّ لحظةٍ. ولا تدع نفسَك للكسلِ لحظةً واحدةً. تَفَكَّر في كلِّ يومٍ أنه آخِرُ ما بقيَ لك في العالمِ، فإن ذلك يُنقِذُك من الخطيئةِ. واعلم أن الاتضاعَ هو أن تَعُدَّ جميعَ البشرِ أفضلَ منك، متأكِّداً من كلِّ قلبك أنك أكثرُ منهم خطيئةً. ويكونُ رأسُك منكَّساً ولسانُك يقولُ لكلِّ أحدٍ: اغفر لي. لا تتكلم قط في همومِ الدنيا بشيءٍ. اِحْذَر من أن تحبَّ بلوغَ شهواتِك وأغراضك. اِبغِض الجسدَ وارفض لذَّاتِه فإنها ممتلئةٌ شروراً. ارفض الكبرياءَ واعتبر جميعَ الناسِ أبرَّ منك. لا تكتم خطيَّتَك التي صنعتَها. ارفض الردَّ على من يُغيظك ولا تفكِّر في قلبِك بشرٍّ. لا تقاتل أحداً وإن استفزَّك باطلاً فلا تغضب. اِحْذَر أن تتكلمَ بكلامٍ فارغٍ ولا تسمعه من غيرِك أو تفكر فيه. وليكن كلامُك في ذِكرِ اللهِ واستغفارِه».

وقال أيضاً: «إن قوماً عذَّبوا أجسادَهم في النسكِ ولم يجدوا الإفرازَ. فصاروا بعيدين عن طريقِ اللهِ».

حَدَثَ أن أحدَ الإخوةِ لَحِقَته تجربةٌ من ديرِه فطردوه من هناك. فمضى إلى أنطونيوس إلى الجبلِ وسكن عِندَه مُدةً. وبعد ذلك أرسلَهُ إلى ديرِه فلم يقبلوه وطردوه مرةً أخرى. فرجع إلى الأنبا أنطونيوس وقال له: «إنهم لم يَرضوا أن يقبلوني يا أبي». فأرسل إليهم يقول: «مركبٌ غرق في اللجَّةِ وتَلِفَت حمولتُهُ. وبتعبٍ كثيرٍ سَلِمَ المركبُ وجاء إلى البرِّ. فالذي نجا أتريدون أن تُغرِقوه مرةً ثانيةً»؟ أما هم فحالما رأوْا كتابَ الأبِ قبلوه بفرحٍ.

ثلاثةُ شيوخٍ كانت لهم عادةٌ في كلِّ سنةٍ أن يمضوا إلى الأنبا أنطونيوس. فكان اثنان منهم يسألانَه عن الأفكارِ وعن خلاصِ نَفْسَيهما. أما الثالثُ فلم يسأله زمانَه كلَّه عن شيءٍ البتةَ. وبعد زمانٍ طويلٍ قال له الطوباني: «هذا الزمانُ كلُّه تجئ عندي وما سألتني عن شيءٍ». أما هو فقال له: «يكفيني نظري إليك يا أبي».

قال الأنبا أنطونيوس: «إيَّاك والشَرَه فإنه يطردُ خوفَ اللهِ من القلبِ والحياءَ من الوجهِ، ويجعلُ صاحبَه مأسوراً من الشهواتِ ويُضلُّ العقلَ عن معرفةِ اللهِ. اجعل لك دفعةً واحدةً في النهارِ للقيامِ بحاجةِ الجسدِ لا للشهوةِ. لا تكن كسلاناً فتموتَ بأشرِّ حالٍ. أضعف جسدَك كمثلِ من هو مُلقىً على سريرٍ فتهرُبَ الأوجاعُ عنك. اجعل فكرَك في الوصايا كلَّ حينٍ وداوم على فِعلِها. إيَّاك أن تَعيبَ أحداً من الناسِ لئلا يُبغضَ اللهُ صلاتَك. إيَّاك واللعب فإنه يطردُ خوفَ اللهِ من القلبِ ويجعلُه مسكناً لجميعِ الفواحشِ. أتعب نفسَك في قراءةِ الكتبِ واتِّباع الوصايا فتأتي رحمةُ اللهِ عليك سريعاً. إن الراهبَ الذي يكونُ في خِزانتِهِ غيرَ ذاكرٍ للهِ تعالى ولا قارئاً في الكتبِ فهو يكونُ كالبيتِ الخَرِب خارجَ المدينةِ الذي لا تُفارِقُه الجيفُ النَتنة. وكلُّ من احتاج إلى تنظيفِ بيتِهِ من جِيفَةٍ رماها فيه. صلِّ أبداً صلاةً في قلايتِك أولاً قبلَ صلاتِك مع الإخوةِ. ألزم البكاءَ فيترحَّمَ اللهُ عليك. أبغض كلَّ أعمالِ الدنيا وارفضها، فإنها تُبعِدُ الإنسانَ عن اللهِ. اِحْذَر من أن تكونَ صغيرَ النفسِ لأن صِغرَ النفسِ يجلِبُ الأحزانَ. أحبَّ التعبَ واظلم نفسَك لكلِّ إنسانٍ فتملكَ الاتضاعَ. والاتضاعُ يغفرُ الخطايا كلَّها».

وقال أيضاً: «ينبغي للراهبِ الشابِّ أن يستشيرَ الشيوخَ قبلَ كلِّ خُطوةٍ يخطوها في قلايتِهِ وقبل كلِّ نقطةِ ماءٍ يشربها، لأني رأيتُ رهباناً كثيرين بعد أن تعبوا كثيراً وقعوا في دهشةِ عقلٍ لأنهم توكَّلوا على معرفتِهم فقط. إذ لم يُصغوا إلى الوصيةِ القائلةِ: اسأل أباك فيُخبرك ومشايخك فيقولون لك».

قيل: اجتمع جماعةٌ من الآباءِ عند الأنبا أنطونيوس، وتباحثوا في أيِّ الفضائلِ أكملَ وأقدَرَ على حفظِ الراهبِ من جميعِ مصايدِ العدو. فمنهم من قال إن الصيامَ والسهرَ في الصلاةِ يقوِّمان الفكرَ ويلطِّفان العقلَ، ويُسهلان للإنسانِ سبيلَ التقرُّبِ إلى اللهِ. ومنهم من قال إنه بالمسكنةِ والزهدِ في الأمورِ الأرضيةِ يمكنُ للعقلِ أن يكونَ هادئاً صافياً خالصاً من همومِ العالمِ فيتيسَّرَ له التقرُّبَ من اللهِ. وآخرون قالوا إن فضيلةَ الرحمةِ أشرفُ جميعِ الفضائلِ، لأن الربَّ يقولُ لأصحابها كما وَعَدَ: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكَ المعدَّ لكم من قَبلِ كونِ العالمِ. فَمِن بعدِ انتهائِهم من المباحثةِ والكلامِ، قال الأنبا أنطونيوس: «حقاً إن كلَّ هذه الفضائلِ التي ذكرتموها نافعةٌ ويحتاجُ إليها كلُّ الذي يطلبون اللهَ، ويريدون التقرُّبَ إليه، إلا أننا قد رأينا كثيرين يُهلكون أجسادَهم

بكثرةِ الصومِ والسهرِ والانفرادِ في البراري والزهدِ، حتى أنهم كانوا يكتفون بحاجةِ يومٍ واحدٍ ويتصدَّقون بكلِّ ما يمتلكون، ومع كلِّ ذلك رأيناهم وقد حادوا عن المسلكِ القويمِ وسقطوا وعَدِموا جميعَ تلك الفضائلِ وصاروا مرذولين. وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا الإفرازَ. إن الإفرازَ هو الذي يُعلِّمُ الإنسانَ كيف يسيرُ في الطريقِ المستقيمِ الملوكي وكيف يحيدُ عن الطريقِ الوعرةِ. إن الإفرازَ يُعلِّمُ الإنسانَ كيف لا يُسرق من الضربةِ اليمينية بالإمساكِ الجائرِ المقدار، وكيف لا يُسرقُ أيضاً من الضربةِ الشمالية بالتهاونِ والاسترخاء. إن الإفرازَ هو عيْنُ النفسِ وسراجُها، كما أن العينَ سراجُ الجسدِ. وبخصوصِ الإفرازِ يُحذِّرُ الربُّ قائلاً: اِحْذَر لئلا يكونَ النورُ الذي فيك ظلاماً. فبالإفراز يفحصُ الإنسانُ مشيئاته وأقواله وأعماله. وبالإفرازِ أيضاً يفهمُ الإنسانُ الأمورَ ويميزُ جيِّدَها من رديئها، ونتأكد من ذلك من الكتبِ المقدسةِ. فشاول الملك لما لم يمتلك الإفرازَ أَظْلَمَ عقلُهُ فلم يفطن إلى أهميةِ ما قاله اللهُ له بلسانِ صموئيل النبي. فأغضب اللهَ بذلك التصرفِ الذي به كان يظنُّ أنه يرضي الله، ونسي أن الطاعةَ للهِ أفضلُ من تقريبِ الذبائحِ. والربُّ يُسمِّي الإفرازَ ربّاناً ومدبِّراً لسفينةِ حياتِنا. والكتابُ يقولُ: إن الذين ليس لهم مدبِّرٌ يسقطون مثلَ الورقِ من الشجرِ. وأيضاً يقولُ الكتابُ: كَمِثلِ مدينةٍ غيرِ محصَّنةٍ وكلُّ مَن أرادَ دَخلها وأخذَ كنوزَها، كذلك الإنسانُ الذي يعملُ أمورَه بغيرِ مشورةٍ».

القديس مقاريوس المصري الكبير

جاء عن القديسِ مقاريوس المصري الكبير أنه قال: إني في حالِ شبابي كنتُ جالساً في قلايةٍ في مصرَ، فأمسكوني وجعلوني قساً لضيعةٍ, وإذ لم أؤثر أن أتقلَّدَ هذه الرتبةَ هربتُ إلى مكانٍ آخرَ. حيث كان يأتيني رجلٌ علماني تقي وكان يخدِمُني ويبيعُ عملَ يديَّ. وفي يومٍ من الأيامِ حدث أن بتولاً في ذلك المكانِ سقطت في زنى وحملت في بطنها. فلما أُشهرت سُئلت عمن فعل معها هذا الفعلَ، فقالت: «المتوحد»! وسُرعان ما خرجوا عليّ وأخذوني باستهزاءٍ مريعٍ إلى الضيعةِ وعلّقوا في عنقي قدوراً قذرةً جداً وآذانَ جِرارٍ مكسورةٍ. وشهَّروا بي في كلِّ شارعٍ من شوارعِ الضيعةِ وهم يضربونني قائلين: «إن هذا الراهبَ أفسدَ عفةَ ابنتنا البتول، أخزوه». وهكذا ضربوني ضرباً مُبَرِّحاً قربتُ بسببهِ إلى الموتِ، إلى أن جاءني أحدُ الشيوخِ فقال لهم: «إلى متى هذه

الإهانةُ. أما يكفيه كلُّ ذلك خجلاً»، فكانوا يشتمونه قائلين: «ها هو المتوحدُ الذي شهدتَ له بالفضلِ، انظر ماذا فعل». وأخيراً قال والدُها: «لن نُطلِقَه حتى يأتينا بضامنٍ بأنه يتعهدُ بالقيامِ بإطعامِها». فقال الشيخُ لخادمي: «اضمنه»، فضمنني ومضيْتُ إلى قلايتي ودفعتُ إليه الزنابيل التي كانت عندي قائلاً: «بعها وادفع ثمنَها لامرأتي لتأكلَ بها». وخاطبتُ نفسي قائلاً: «كِدَّ يا مقارة، ها قد صارت لك امرأةٌ». فكنتُ أشتغلُ ليلاً ونهاراً وأتعبُ لأقومَ بإطعامِها. فلما حان وقتُ ولادةِ الشقيةِ مكثتْ أياماً كثيرةً وهي معذبةٌ وما استطاعت أن تلدَ. فقالوا لها: «ما هو هذا»؟ فقالت: «إن كلَّ ما أصابني كان بسببِ أني قد ظلمتُ المتوحدَ واتهمتُه وهو بريءٌ لأنه ما فعل بي شيئاً قط. لكن فلانَ الشاب هو الذي فعل بي هذا». فجاء إليَّ خادمي مسروراً وقال لي: «إن تلك البتولَ ما استطاعت أن تلدَ حتى اعترفتْ قائلة: إن المتوحدَ لا ذنب له في هذا الأمرِ مطلقاً، وقد كنتُ كاذبةً في اتهامي له. وها هم أهلُ القريةِ كلُّهم عازمون على الحضورِ إليك يريدون أن يتوبوا إليك ويسألونك الصفحَ والغفرانَ». فلما سمعتُ أنا هذا الكلامَ من خادمي أسرعتُ هارباً إلى الإسقيطِ. هذا هو السببُ الذي لأجلهِ جئتُ إلى جبلِ النطرون.

قيل عن الأنبا مقاريوس إنه بنى لنفسِه قلايةً غربي الملاحات وسكن فيها. وصار يُضَفِّرُ الخوصَ ويعيشُ من عملِ يديه ويعبدُ الله كنحوِ قوتِهِ. فلما سمع به أناسٌ حضروا إليه وسكنوا معه. فكان لهم أباً مرشداً. ولما سمع بسيرةِ الأنبا أنطونيوس وبأعمالِهِ الفاضلةِ، مضى إليه فقَبِلَه وعزاه وأرشده إلى طريقِ الرهبنةِ، وألبسه الزيَّ ثم عاد إلى موضعِهِ. وكثُرَ الذين يحضرون إليه فكان يُلبسهم الزيَ ويرشدهم إلى طريقِ العبادةِ. فلما كَبُرَ عددُهم بنوا لهم كنيسةً هي الآن موضع البراموس، فلما ضاق بهم المكانُ ولم تعُد الكنيسةُ تسعهم، تحوَّل الأب من ذلك المكانِ وبنى كنيسةً أخرى.

قال الأب مقاريوس: ضجرتُ وقتاً وأنا في القلاية. فخرجتُ إلى البريةِ وعزمتُ على أن أسألَ أيَّ شخصٍ أقابلُه من أجلِ المنفعةِ. وإذا بي أقابلُ صبياً يرعى بقراً. فقلت له: «ماذا أفعلُ أيها الولدُ فإني جائعٌ»؟ فقال لي: «كلْ». فقلتُ: «أكلتُ، ولكني جائعٌ أيضاً». فقال لي: «كلْ دفعةً ثانيةً». فقلت له: «إني أكلتُ دفعاتٍ كثيرةً ولا زلتُ جائعاً». فقال الصبيُ: «لستُ أشكُ في أنك حمارٌ يا راهب، لأنك تحبُّ أن تأكلَ دائماً». فانصرفتُ ولم أردَّ له جواباً.

سُئل القديس مقاريوس: «أيُّ الفضائلِ أعظمُ»؟ فأجاب وقال: «إن كان التكبُّرُ يُعتبرُ أشرَّ الرذائلِ كلِّها حتى أنه طرح طائفةً من الملائكةِ من علوِ السماءِ، فبلا شكٍ يكون التواضعُ أكبرَ الفضائلِ كلِّها لأنه قادرٌ أن يرفعَ المتمسكَ به من الأعماقِ حتى ولو كان خاطئاً. من أجلِ ذلك أعطى الربُّ الطوبى للمساكين بالروحِ».

أتى الأب مقاريوس يوماً من الإسقيط إلى نيرس، فقال له الشيوخ: «قل كلمةً للإخوةِ أيها الأب». فأجابهم قائلاً: أنا لم أصر راهباً، لكني رأيتُ رهباناً. فقد كنتُ يوماً جالساً في الإسقيط في القلاية، وإذا أفكارٌ تأتيني قائلةً: اذهب إلى البريةِ الداخليةِ وتأمَّل فيما تراه هناك. ومكثتُ مقاتِلاً لهذا الفكرِ خمسَ سنواتٍ ظاناً أنه من الشيطانِ. لكني لما وجدتُ الفكرَ ثابتاً مضيْتُ إلى البريةِ فصادفتُ هناك بحيرةَ ماءٍ وفي وسطِها جزيرةٌ، وقد وافت وحوشُ البريةِ لتشربَ. وشاهدتُ بينها رجلين مجرَّدين (أي عاريين)، فجزعتُ منهما لأني ظننتُ أنهما روحان. لكنهما لما رأياني خائفاً جزعاً خاطباني قائليْن: «لا تجزع فإننا بشريان مثلك». فقلتُ لهما: «من أنتما؟ وكيف جئتما إلى هذه البريةِ»؟ فقالا لي: «كنا في كنوبيون وقد اتفقنا على تركِ العالم فخرجنا إلى ها هنا. ولنا منذ ذلك الوقتِ أربعون سنةً. وقد كان أحدُهما مصرياً والآخر نوبياً. فسألتُهما كيف أصيرُ راهباً. فقالا لي: «إن لم يزهد الإنسانُ في كلِّ أمورِ العالمِ فلن يستطيعَ أن يصيرَ راهباً». فقلت لهما: «إني ضعيفٌ فما أستطيعُ أن أكونَ مثلَكما». فقالا لي: «إن لم تستطع أن تكونَ مثلنا فاجلس في قلايتك وابكِ على خطاياك». فسألتُهما: «هل ما تبردان إن صار شتاءٌ. وإذا صار حرٌ أما يحترقُ جسداكُما»؟ فأجاباني بأن اللهَ قد دبَّر لنا ألا نجدَ في الشتاءِ برداً ولا يضرُّنا في زمنِ الحصادِ حرٌ. وأخيراً قال القديسُ للإخوة: «لذلك قلتُ لكم إني لم أصر بعدُ راهباً، بل رأيتُ رهباناً. فاغفروا لي».

وحدث مرة أن مضى الأنبا مقاريوس إلى القديس أنطونيوس في الجبلِ وقرع بابَه. فقال الأنبا أنطونيوس: «من يقرعُ البابَ»؟ فقال: «أنا مقاريوس أيها الأب». فتركه الأنبا أنطونيوس ودخل ولم يفتح له البابَ. لكنه لما رأى صبرَه فتح له أخيراً وفرح معه وقال له: «منذ زمانٍ وأنا مشتاقٌ أن أراك». وأراحه لأنه كان مجهداً من أثر تعبٍ شديدٍ. فلما حان المساءُ بلَّ أنطونيوس قليلاً من الخوصِ لنفسِهِ. فقال له مقاريوس: «أتسمح أن أبلَّ لنفسي أنا أيضاً قليلاً من

الخوصِ»؟ فقال له: «بلىّ». فأصلح حُزمةً كبيرةً وبلّها وجلسا يتكلمان عن خلاصِ النفسِ. وكانت الضفيرةُ تنحدرُ من الطاقةِ. فرأى أنبا أنطونيوس باكراً أن مقاريوس قد ضَفَّرَ كثيراً فقال: «إن قوةً كبيرةً تخرجُ من هاتين اليدين».

ومرة نزل الأب مقاريوس من الإسقيط إلى الحصادِ وصَحِبَه سبعةُ إخوةٍ. وكانت امرأةٌ تلتقطُ خلفَ الحصَّادين وهي لا تكفُّ عن البكاءِ. فاستفهم الأب من رئيسِ الحصَّادين عن أمرِ هذه العجوز وعن سببِ بكائها دائماً. فأجابه: «إن رجلَها عنده وديعةٌ لإنسانٍ مقتدرٍ. وقد مات فجأةً ولا تعلم المرأةُ موضعَ هذه الوديعةِ. وقد عَزِمَ صاحبُها على أخذِ أولادَها عبيداً». فلما استراح الحصَّادون من الحرِّ، دعا الشيخُ المرأةَ وقال لها: «هلمي أريني قبرَ زوجِك». فلما وصل إليه صلى مع الإخوةِ. ثم نادي الميتَ قائلاً: «يا فلان، أين تركتَ الوديعةَ»؟ فأجابه: «إنها في بيتي تحتَ رِجلِ السريرِ». فقال له القديسُ: «نَمْ أيضاً». فلما عاين الإخوةُ ذلك تعجبوا. فقال لهم القديسُ: «ليس من أجلي كان هذا الأمرُ لأني لستُ شيئاً. بل إنما صنع اللهُ هذا من أجلِ الأرملةِ واليتامى». ولما سمعت المرأةُ بموضعِ الوديعةِ، انطلقتْ وأخذتها وأعطتها لصاحبها. وكلُّ الذين سمعوا هذا سبَّحوا الله.

قيل عن الأب مقاريوس: إنه كان قد جعل لنفسِه قانوناً وهو أنه إذا قدَّم له الإخوةُ نبيذاً كان لا يمتنع من شربِهِ، لكنه عِوض كلِّ قدحِ نبيذٍ يشربه، كان يصومُ عن شربِ الماءِ يوماً. فأما الإخوة فلكي ما يكرِّموه كانوا يعطونه، وهو لم يمتنع بدورِهِ إمعاناً في تعذيبِ ذاتهِ. أما تلميذُهُ فلمعرفتِهِ بأمرِ معلمِه، طلب من الإخوةِ من أجلِ الربِّ ألا يعطوا الشيخَ نبيذاً لأنه يعذِّبُ ذاتَه بالعطشِ. فلما علموا الأمرَ امتنعوا من إعطائهِ نبيذاً منذ ذلك الوقتِ.

صعد الأب مقاريوس مرةً من الإسقيط إلى البريةِ. فأتى إلى ناووس (أي هيكل وثني) حيث كانت هناك جثثٌ يونانيةٌ قديمةٌ. فأخذ القديسُ جمجمةً ووضعها تحت رأسِهِ. فلما رأى الشياطينُ جسارتَه حسدوه وأرادوا أن يُزعجوه. فنادوا بصوتٍ عالٍ باسمٍ مستعارٍ لامرأةٍ قائلين: «يا فلانة، قد أخذنا الصابونَ والأشنانَ وأدواتِ الحمامِ، وها نحن في انتظارك لتكوني معنا». فخرج صوتٌ من الجمجمةِ من تحتِ رأسِهِ قائلاً: «إن عندي ضيفاً وهو رجلٌ غريبٌ متوسدٌ عليَّ فلا يمكنني المجيء، امضوا أنتم». أما القديسُ فإنه لم ينزعج ولكنه رفع رأسَه عنها وحرَّكها

بيدهِ قائلاً: «ها أنذا قُمتُ عنكِ، فإن استطعتِ الذهابَ فانطلقي معهم إلى الظلمةِ». ثم عاد ووضع رأسَه عليها. فلما رأي الشياطينُ ذلك منه تركوه بخزيٍ عظيمٍ وصرخوا قائلين: «امضِ عنا يا مقاريوس»، وهربوا.

انطلق الأب مقاريوس مرةً من الإسقيط حاملاً زنابيل فأعيا من شدةِ التعبِ، ووضع الزنابيلَ على الأرضِ وصلَّى قائلاً: «يا ربُّ، أنت تعلمُ أنه ما بقي فيَّ قوةٌ»، وإذ به يجدُ نفسَه على شاطئ النهرِ.

أتى أخٌ إلى الأب مقاريوس وقال له: «يا معلم قل لي كلمةً تنفعُني». فقال له القديسُ: «امضِ إلى المقابرِ واشتم الموتى». فمضى الأخُ وشتمهم ورجمهم وعاد وأخبر الشيخَ بما عَمِله. فقال له الشيخُ: «أما خاطبوك بشيءٍ»؟ فقال: «لا». فقال له الشيخُ: «امضِ غداً وامدحهم». فمضى الأخُ ومدحهم قائلاً: «يا قديسينَ، يا أبرار، يا صديقين». وعاد وأخبر الشيخَ بما صنعه. فقال له: «أما أجابوك بشيءٍ»؟ قال: «لا». قال الشيخُ: «إن كنتَ حقاً قد مُتَّ مع المسيحِ ودُفنتَ معه فاصنع هكذا مثلَ أولئك الأمواتِ، لأن الميتَ لا يحسُ بكرامةٍ ولا بإهانةٍ. وبذلك تستطيعُ أن تخلصَ». فانتفع الأخُ بذلك.

قال الأب مقاريوس: حدث يوماً وأنا جالسٌ بالإسقيط أن أتاني شابان غريبان. أحدُهما متكاملُ اللحيةِ، والآخر قد بدأت لحيتُه. فقالا لي: «أين قلاية الأب مقاريوس»؟ فقلتُ لهما: «وماذا تريدان منه»؟ أجاباني: «نريدُ مشاهدته». فقلت لهما: «أنا هو». فصنعا مطانيةً وقالا: «يا معلم نشاءُ أن نقيمَ عندك». فلما وجدتُ أنهما في حالةِ ترفٍ ومن أبناءِ نعمةٍ وغنىً، أجبتُهما: «لكنكما لا تحتملان السكنى ها هنا». فأجابني الأكبرُ قالاً: «إن لم نحتمل السكنى ها هنا فإننا نمضي إلى موضعٍ آخر». فقلتُ في نفسي: «لماذا أنا أطردهما وشيطانُ التعبِ يشكِّكهما فيما عزما عليه»؟ فقلت لهما: «هلما فاصنعا لكما قلايةً إن قدرتما». فقالا: «أرنا موضعاً يصلح». فأعطيتُهما فأساً وقُفّةً وكذلك قليلاً من الخبزِ والملحِ وأريتهما صخرةً صلبةً، وقلتُ لهما انحتاها هنا، وأحضِرا لكما خُصّاً من الغابةِ وسقِّفا واجلسا. وتوهمتُ أنهما سوف ينصرفان من شدةِ التعبِ. فقالا لي: «وماذا تصنعون ها هنا»؟ فقلتُ لهما: «إننا نشتغلُ بضَفرِ الخوصِ». وأخذتُ سعفاً وأريتُهما بدءَ الضفيرةِ وكيف تُخاط، وقلت لهما: «اعملا زنابيل

وادفعاها إلى الخفراءِ ليأتوكما بخبزٍ»، وعرَّفتهما ما يحتاجان من معرفةٍ ثم انصرفتُ عنهما. أما هما فأقاما ثلاثَ سنواتٍ ولم يأتياني. فبقيتُ مقاتِلاً الأفكارَ من أجلِهما، إذ لم يأتيا إليّ ولا سألاني في شيءٍ. ولم يحاولا الكلامَ مع أحدٍ قط. ولم يُبارِحا مكانَهما إلا كلّ يومِ أحدٍ فقط، حيث كانا يمضيان إلى الكنيسةِ لتناول القربان وهما صامتان. فصليّتُ صائماً أسبوعاً كاملاً إلى الله ليُعلنَ لي أمرَهما. وبعد الأسبوعِ مضيتُ إليهما لأفتقدَهما وأعرف كيف حالهما. فلما قرعتُ البابَ عرفاني وفتحا لي وقبّلاني صامتيْن فصليتُ وجلستُ. وأومأ الأكبرُ إلى الأصغرِ بأن يخرجَ. أما الأكبرُ فجلس يُضَفِّرُ في الضفيرةِ ولم يتكلم قط. فلما حانت الساعةُ التاسعةُ أومأ إلى الشابِ فأتاه وأصلحا مائدةً وجعلا عليها ثلاثَ خبزاتٍ بقسماطات وداما صامتيْن. فقلتُ لهما: «هيا بنا نأكلُ». فنهضنا وأكلنا وأحضرا كوزَ ماءٍ فشربنا. ولما حان المساءُ قالا لي: «أتنصرف»؟ قلتُ لهما: «لن أنصرفَ. لكني سوف أبيتُ ها هنا الليلةَ». فبسطا حصيرةً في ناحيةٍ وبسطا أخرى لهما في ناحيةٍ أخرى. وحلا إسكيميهما ومنطقتيهما ورقدا قدامي على الحصيرةِ. فصليتُ إلى اللهِ أن يعلنَ لي ماذا يعملان. وإذ كنتُ راقداً ظهر فجأةً في القلايةِ ضوءٌ كضوءِ النهارِ قدامي، وكانا يشاهدانه، فلما ظنَّا أني نائمٌ، نَخَسَ الأكبرُ الأصغرَ وأقامه. وتمنطقا وبسطا أيديهما إلى السماءِ. وكنت أراهما وهما لا يبصرانني. وإذا بي أرى الشياطينَ مقبلين نحو الأصغرِ كالذبابِ. فمنهم من كان يريدُ الجلوسَ على فمِهِ، ومنهم من كان يريدُ أن يجلسَ على عينيه. فرأيت ملاكَ الربِ حاملاً سيفاً نارياً وهو يحيطُ بهما ويطردُ الشياطينَ عنهما. أما الأكبرُ فلم يقدروا على الاقترابِ منه. فما أن حان الفجرُ حتى وجدتهما وقد طرحا نفسيهما على الأرضِ وناما. فتظاهرتُ كأني استيقظتُ وهما كذلك. فقال لي الأكبرُ هذه الكلمةَ فقط: «أتشاءُ أن نقولَ الاثني عشرَ مزموراً». فقلتُ: «نعم». فقرأ الصغيرُ خمسةَ مزاميرَ وفي نهايةِ كلِّ ستةِ استيخونات الليلويا واحدة، ومع كلِّ كلمةٍ كان يقولها كان يبرزُ من فمِهِ شِهابُ نارٍ يصعدُ إلى السماءِ. كذلك الكبيرُ إذ كان يفتحُ فمَه ويقرأ كان مثلُ حبلِ نارٍ خارجاً وصاعداً إلى السماءِ. فلما انقضت الصلاةُ انصرفتُ قائلاً: «صلِّيا من أجلي». فصنعا لي مطانيةً وهما صامتان. وبعد أيامٍ قليلةٍ تنيح الأكبرُ وفي ثالثِهِ تنيح الصغيرُ كذلك. ولما كان الآباءُ يجتمعون بالأب مقاريوس كان يأخذهم إلى قلايتهما ويقول: «هلموا بنا نعاين شهادةَ الغرباءِ الصغار».

كان الأب مقاريوس يقولُ للإخوةِ: «إذا سُرِّحت الكنيسةُ فرُّوا يا إخوةُ فرُّوا». فقال أحدُ الآباءِ: «أيها الأب، إلى أين نفرُّ أكثرَ من هذه البريةِ»؟ فضرب بيدِهِ على فمِهِ وقال: «من هذا فرُّوا».

أتى إلى القديسِ مقاريوس يوماً أحدُ كهنةِ الأصنامِ ساجداً له قائلاً: «من أجلِ محبةِ المسيحِ عمِّدني ورهبني». فتعجب الأبُ من ذلك وقال له: «أخبرني كيف جئتَ إلى المسيحِ بدونِ وعظٍ». فقال له: كان لنا عيدٌ عظيمٌ وقد قُمنا بكلِّ ما يلزمنا. ومازلنا نصلي إلى منتصفِ الليلِ حتى نام الناسُ. وفجأةً رأيتُ داخلَ أحدِ هياكلِ الأصنامِ ملكاً عظيماً جالساً وعلى رأسِهِ تاجٌ جليلٌ وحوله أعوانه الكثيرون. فأقبل إليه واحدٌ من غلمانِهِ فقال له الملكُ: «من أين جئتَ»؟ فأجاب: «من المدينةِ الفلانية». قال: «وأيَّ شيءٍ عملتَ»؟ قال: «ألقيتُ في قلبِ امرأةٍ كلمةً صغيرةً تكلمتْ بها إلى امرأةٍ أخرى لم تستطع احتمالها، فأدى ذلك إلى قيامِ مشاجرةٍ كبيرةٍ بين الرجال، تسبَّب عنها قتلُ كثيرين في يومٍ واحدٍ». فقال الملكُ: «أبعدوه عني لأنه لم يعمل شيئاً». فقدَّموا له واحداً آخر فقال له: «من أين أقبلتَ»؟ قال: «من بلادِ الهندِ». قال: «وماذا عملتَ»؟ أجاب وقال: «دخلتُ داراً فوجدتُ ناراً قد وقعت من يدِ صبي فأحرقت النارُ الدارَ، فوضعتُ في قلبِ شخصٍ أن يتهمَ شخصاً آخر، وشهد عليه كثيرون زُوراً بأنه هو الذي أحرقها». قال: «في أيِّ وقتٍ فعلتَ ذلك». قال: «في نصفِ الليلِ». فقال الملكُ: «أبعدوه عني خارجاً». ثم قدموا إليه ثالثاً. فقال له: «من أين جئتَ»؟ أجاب وقال: «كنتُ في البحرِ وأقمتُ حرباً بين بعضِ الناسِ. فغرقتْ سفنٌ وتطورت إلى حربٍ عظيمةٍ، ثم جئتُ لأخبرك». فقال الملك: «أبعدوه عني». وقدموا له رابعاً وخامساً، وهكذا أمر بإبعادِهم جميعاً بعد أن يصفَ كلٌّ منهم أنواعَ الشرورِ التي قام بها حتى آخرِ لحظةٍ. إلى أن أقبل إليه أخيراً واحدٌ منهم فقال له: «من أين جئتَ»؟ قال: «من الإسقيط». قال له: «وماذا كنتَ تعملُ هناك»؟ قال: «لقد كنتُ أقاتِلُ راهباً واحداً، ولي اليوم أربعونَ سنةً وقد صرعتُهُ في هذه اللحظةِ وأسقطتُّه في الزنا وجئتُ لأخبرَك». فلما سمع الملكُ ذلك قام منتصباً وقبَّله ونزع التاجَ من على رأسِهِ وألبسه إياه، وأجلسه مكانَه ووقف بين يديه وقال: «حقاً لقد قمتَ بعملٍ عظيمٍ». فلما رأيتُ أنا كلَّ ذلك وقد كنتُ مختبئاً في الهيكلِ قلتُ في نفسي: «مادام الأمرُ كذلك فلا يوجد شيءٌ أعظمَ من الرهبنةِ».

وللوقت خرجتُ وجئتُ بين يديك. فلما سمع الأبُ منه هذا الكلامَ عمَّده ورهبنه. وكان في كلِّ حينٍ يَقصُّ على الإخوةِ أمرَ هذا الرجلِ الذي أصبح بعد ذلك راهباً جليلاً.

جاء عن القديس مقاريوس أنه كان في وقتٍ ما سائراً في أقصى البريةِ. فأبصر شخصاً هرماً حاملاً حملاً ثقيلاً يُحيطُ بسائرِ جسمِه، وكان ذلك الحملُ عبارةً عن أوعيةٍ كثيرةٍ في كلٍّ منها ريشةٌ، وكان لابساً إياها بدلاً من الثيابِ. فوقف مقابله وجهاً لوجه يتأمَّله. وكان يتظاهر بالخجلِ تظاهُرَ اللصوصِ المحتالين. فقال للبارِّ: «ماذا تعملُ في هذه البريةِ تائهاً وهائماً على وجهِك»؟ فأجابه الأبُ قائلاً: «أنا تائهٌ طالبٌ رحمةَ السيدِ المسيحِ. ولكني أسألُك أيها الشيخُ باسمِ الربِّ أن تعرِّفني من أنت؟ لأني أرى منظرَك غريباً عن أهلِ هذا العالمِ، كما تُعرِّفني أيضاً ما هي هذه الأوعيةُ المحيطةُ بك؟ وما هو هذا الريشُ أيضاً»؟ وقد كان الثوبُ الذي عليه مثقّباً كلَّه، وفي كل ثقبٍ قارورةٌ. فأقرَّ العدوُ بغيرِ اختيارهِ وقال: «يا مقاريوس، أنا هو الذي يقولون عنه شيطانٌ محتالٌ. أما هذه الأوعيةُ فبواسطتِها أجذبُ الناسَ إلى الخطيةِ، وأقدِّمُ لكلِّ عُضوٍ من أعضائهم ما يوافقه من أنواعِ الخديعةِ. وبريشِ الشهواتِ أُكحِّل من يُطيعُني ويتبعُني. وأُسَرُّ بسقوطِ الذين أغلبهم. فإذا أردتُ أن أُضِلَ من يقرأ نواميسَ اللهِ وشرائعَه، فما عليَّ إلا أن أدهنَه من الوعاءِ الذي على رأسي. ومن أراد أن يسهرَ في الصلواتِ والتسابيح فإني آخذ من الوعاءِ الذي على حاجبي وألطِّخُ عينيه بالريشةِ وأجلِبُ عليه نُعاساً كثيراً وأجذبه إلى النومِ. والأوعيةُ الموجودةُ على مسامعي فهي مُعدةٌ لعصيانِ الأوامرِ وبها أجعلُ من يسمعُ إليَّ لا يُذعن لمن يشيرُ عليه. والتي عند أنفي بها أجتذبُ الشابَّ إلى اللّذةِ. أما الأوعيةُ الموضوعةُ عند فمي فبواسطتها أجذِبُ النساكَ إلى الأطعمةِ، وبها أجذِبُ الرهبانَ إلى الوقيعةِ والكلامِ القبيحِ. وبذورُ أعمالي كلُّها أوزعُها على من كان عاشقاً، ليعطي أثماراً لائقةً بي. فأبذرُ بذورَ الكبرياءِ، وأغلُّ من كان على ذاتِهِ متكلاً، بالأسلحةِ التي في عنقي. والتي عند صدري فهي مخازن أفكاري ومنها أسقي القلوبَ مما يؤدي إلى سُكر الفكرِ، وأشتِّتُ وأُبعِدُ الأفكارَ الصالحةَ من أذهانِ أولئك الذين يريدون أن يذكروا مستقبلَ حياتِهم الأبدية. أما الأوعيةُ الموجودةُ في جوفي فهي مملوءةٌ من عدم الحسِّ وبها أجعلُ الجهالَ لا يحسون، وأُحسِّن لهم المعيشةَ على نهجِ الوحوشِ والبهائمِ. أما التي تحت بطني من شأنها أن تسوقَ إلى فعلِ سائرِ أنواعِ وضروبِ الزنى والعشقِ واللّذاتِ القبيحة. والتي على يدي فهي

معدةٌ لضروبِ الحسدِ والقتلِ. والمعلقةُ وراء ظهري ومنكبيَّ فهي مملوءةٌ من أنواعِ المحنِ المختصة بي وبها أُقارع الذين يرومون محاربتي، فأنصبُ خلفهم فخاخاً. وأُذِلُّ من كان على قوتهِ متكلاً. والتي على قدمي فهي مملوءةٌ عثراتٍ أُعرقِلُ بها طرقَ المستقيمين. ومن شأني أن أخلطَ في بذورِ فلاحتي صنوفاً من الحسكِ والشوكِ. والذين يحصدون منها يُساقون إلى أن يُنكروا طريقَ الحقِ». وبعد أن قال هذا صار دخاناً واختفى. وأن القديسَ ألقى بنفسِهِ على الأرضِ وابتهل إلى اللهِ بدموعٍ لكي يحاربَ بقوتهِ عن الضعفاءِ سكانِ البريةِ ويحفظهم.

قيل عن القديس مقاريوس إنه كان يوصي تلاميذَه قائلاً: «اهربوا من كلامِ النساءِ المؤدي إلى الهلاكِ». وكان يقول: «احذروا ألا تكون بينكم وبين صبيٍ دالةٌ، لأن الصبيَ إذا رأيتَه صاعداً إلى السماءِ فهو سريعُ السقوطِ. فما عليكم إلا أن تطلبوا من المسيحِ إلهِنا أن يُعينَه».

بلغ الأب مقاريوس عن راهبٍ متوحد داخل البريةِ منذ خمسين عاماً لم يأكل خبزاً قط. وقد كان يقول عن نفسِه إنه قتل ثلاثةَ أعداءٍ: الزنى وحب المال والسُبح الباطل. فمضى الأب مقاريوس إليه، فلما رآه المتوحد فرح كثيراً وكان رجلاً ساذجاً. فسأله الشيخُ عن عزائِهِ وعن أحوالِهِ وعن جهادِهِ، فقال له: «إنه استراح من قتالِ الزنى وحبِّ المالِ والسُبحِ الباطلِ». قال له الأب: «لي بعضُ أسئلةٍ أريدُ أن أوجهها إليك فأجبني عنها، وهي: إذا اتفق لك أن عثرتَ على ذهبٍ ملقى وسط حجارةٍ فهل يمكنك أن تميزَ الذهبَ من الحجارةِ»؟ قال: «نعم، ولكني أتغلبُ على فكري فلا يميلُ إلى أخذ شيءٍ منه». قال: «حسناً. وإذا رأيتَ امرأةً جميلةً أيمكنك ألا تفكرَ فيها أنها امرأةٌ»؟ قال: «لا، لكني أُمسكُ فكري ألا يشتهيها». قال: «مباركٌ. وإن سمعتَ أن أخاً يحبُّك ويمجدُك وعن آخرٍ يبغضُك ويشتمُك، واتفق أن حضر إليك الاثنان، أيكونا أمامك في منزلةٍ واحدةٍ»؟ قال: «لا. لكني أُمسكُ أفكاري فلا أكافئه حسب أعمالهِ وأقوالهِ وشتيمتهِ، بل أُظهرُ له المحبةَ». أخيراً قال له الأب مقاريوس: «اغفر لي يا أبي فإنك حسناً جاهدتَ وقاتلتَ وصبرتَ من أجلِ المسيحِ، لكن أوجاعَك ما ماتت بعد، بل ما زالت حيةً لكنها مربوطةٌ. فتُب واستغفر اللهَ، ولا تَعُد إلى ما كنتَ تصفُ به نفسَك لئلا تثورَ عليك الأوجاعُ بالأكثرِ». فلما سمع المتوحدُ ذلك الكلامَ انتبه من غفلتِهِ وسجد بين يدي الشيخ قائلاً: «اغفر لي يا أبي، فلقد داويتَ جراحَ جهلي بمراهمِ وعظِك الصالحِ».

قيل عن الأب مقاريوس مرة إنه مضى إلى البهلس ليقطع خوصاً، فأتاه الشيطانُ وأخذ منه المِنجلَ وهمَّ ليضربه به. أما هو فلم يفزع بل قال له: «إن كان السيدُ المسيح قد أعطاك سلطاناً عليَّ فها أنا مستعدٌ لأن تقتلَني»؛ فانهزم الشيطانُ وانصرف عنه هارباً.

قيل عن الأب مقاريوس إنه كان يوصي تلاميذَه بأن لا يقتنوا مقتنياتٍ البتة. فقد كان يخاطبهم بقوله: «إن الراهبَ له جبة مع أنه لا يساوي عند نفسِه جبة». وكان يقول أيضاً: «إن محبي المسيح الذين أرادوه قد تركوا نعيمَ الدنيا ولذَّاتها. وصارت منزلةُ العالم عندهم كمنزلةِ العُوَيْد الصغير، فلم يتألموا على فقدِ شيءٍ منه. إن الإنسانَ الذي يأسف على فقدان شيءٍ منه فليس بكاملٍ بعد. فإن كنا قد أُمرنا أن نرفضَ أنفسَنا وأجسادَنا فكم بالحري المقتنيات. إن الشياطين تحترقُ بهذه الفضيلةِ وأمثالها عندما يرون إنساناً غيرَ ملتفتٍ إلى الأشياءِ وليس بمتأسفٍ عليها إذا فقدها، لا سيما إذا علموا أنه يمشي على الأرضِ بغيرِ هوىً أرضي. إن نيَّاتِ الناسِ مختلفةٌ حتى أنه يمكن لإنسانٍ بنيةٍ نشيطةٍ وحارةٍ أن يتقدمَ في ساعةٍ واحدةٍ ما لا يمكن لغيرِهِ أن يتقدَّمه في خمسين سنةً إذا كانت نيَّتهُ متوانيةً. والشياطينُ إذا رأوْا إنساناً قد شُتم أو أُهين أو خسر شيئاً ولم يغتم، بل احتمل بصبرٍ وجَلَدٍ فإنها ترتاع منه، لأنها تعتقد وتعلم بأنه قد سلك في طريقِ اللهِ».

وحدث مرةً أن أرسلَ شيوخُ الجبلِ إلى الأنبا مقاريوس يقولون له: «سِرْ إلينا لنشاهدَك قبل أن تنصرفَ إلى الربِّ ولا تضطرَّ الشعبَ إلى المجيءِ إليك». فلما سار إلى الجبلِ اجتمع إليه الشعبُ كلُّه. وطلب إليه الشيوخُ قائلين: «قل للشعبِ كلمةً أيها الأب». فقال: «يا أولادي الأحباء، عظيمٌ هو مجدُ القديسين، فينبغي أن نفحصَ عن تدبيرِهم الذي نالوا بواسطتهِ هذا المجدَ، وبأي عملٍ وفي أي طريقٍ وصلوا إليه. وقد علمنا أنهم لم يشتروه بغنى هذا العالم ولا حصَّلوه بصناعةٍ ما أو بتجارةٍ ما. ولا اقتنوه بشيءٍ مما يملكون، إذ أنهم تمسكنوا وتغربوا عن هذا العالم، وجالوا جياعاً فقراءَ، فعلى ما أراه أجدُ أنهم نالوا ذلك المجدَ العظيمَ بتسليمهم ذواتهم وتدبيرِ أمورِهم ونيَّاتهم للهِ، فأخذوا إكليلَ المجدِ السمائي، فما الذي كان لهم وليس هو لنا سوى أنهم تركوا أهويتهم كلَّها من أجلِ الربِّ وتبعوه حاملين الصليب؛ ولم يفصلهم حبُّ شيءٍ آخر عن محبتهِ تعالى. لأنهم لم يحبوه أكثرَ من الأولادِ فقط مثل إبراهيم، بل وأكثر من ذواتِهم أيضاً، كما يقول بولس الرسول لا شيء يستطيعُ أن يفصلَه عن حبِّ الله.

فالآن أيها الأحباء جاهدوا واصبروا إلى الموتِ كالقديسين لتصيروا مسكناً للهِ. إن أحببتم بعضُكم بعضاً فإن اللهَ يسكنُ فيكم. وإن كان في قلوبِكم شرٌ فلن يسكنَ اللهُ فيكم. احذروا الوقيعةَ لئلا تصيروا كالحيةِ أوانيَ للشيطانِ. احفظوا أسماعَكم من كلامِ النميمةِ فتكون قلوبُكم نقيةً. واهربوا من كلِّ ما ينجِّسُ القلبَ. أكرموا بعضُكم بعضاً ليكونَ السلامُ والمحبةُ بينكم. إن غضب أحدٌ على أخيه وأحزنه فلا يستريح له بالٌ قبل أن يصالحَه بحلاوةِ المحبةِ. فقد كُتب: لا تغيب الشمسُ على غيظِكم. قبّلوا بعضُكم بعضاً بقبلةِ السلامِ، وذلك ليخزى عدو السلامِ ويفرحَ إلهُ السلامِ، وتكونوا له بنين، لأنه قال: إن فاعلي السلام يُدعوْن أبناءَ اللهِ. صلُّوا بالروحِ دائماً كما أمر الرسولُ. اتَّضعوا لإخوتكم واخدموهم حسب قوتِكم لأجلِ المسيحِ لتنالوا منه الجزاءَ، فقد قال له المجد: ما تصنعون بهم فبي تصنعونه. إن كلَّ أعمالِنا نجدها ساعةَ مفارقةِ أنفسنا لأجسادنا. فقد كُتب: إن الله ليس بظالمٍ حتى ينسى عملَكم وودَّكم الذي أظهرتموه باسمِهِ إذ خدمتم الأطهارَ وتخدمونهم أيضاً. ليكن تعبُ أجسادِكم هَوَاكُم ومُشتهاكم ومحبوباً لديكم. ولا تستسلموا للانحلالِ والكسلِ فتندموا يومَ القيامةِ. بينما يلبسُ أكاليلَ المجدِ أولئك الذين قد أتعبوا أجسادَهم، وتوجدون أنتم عراةً بخزيٍ أمام منبرِ المسيح بمحضر الملائكةِ والناسِ جميعاً. لا تُنَعِّموا أجسادَكم في هذا الزمنِ اليسيرِ بالطعامِ والشرابِ والنومِ لئلا تُعدموا الخيرات الدائمة التي لا توصف. فمن ذا الذي تكلَّل قط بدونِ جهادٍ؟ ومن استغنى بدونِ عملٍ؟ ومن ربح ولم يتعب أولاً؟ أيُّ بطَّالٍ جمع مالاً؟ أو أيُّ عاطلٍ لا تنفذ ثروتُه؟ إنه بأحزانٍ كثيرةٍ ندخلُ ملكوت السماوات. فليحرص كلٌّ منكم على قبولِ الأتعاب بفرحٍ عالماً أنَّ مِن ورائها كلَّ غنى وكلَّ راحة. أما الذي لا يستطيعُ أن يحتملَ الأتعابَ لضعفٍ أو أمراضٍ، فليمجِّد أولئك الذين يتعبون ويغبِّطهم كما يفرحُ معهم في خيراتِهم.

لا تقبلوا في فكرِكم ولا تَصِفوا في كلامِكم أيَّ إنسانٍ بأنه شريرٌ، لأن بطرسَ الرسولَ يقولُ: إن اللهَ أراني وأوصاني أن لا أقولَ عن إنسانٍ إنه نجسٌ أو رجسٌ. فالقلبُ النقي ينظرُ كلَّ الناسِ أنقياءَ. فقد كُتب: إن كلَّ شيءٍ طاهرٌ للأطهارِ والقلبُ النجسُ ينجِّسُ كلَّ أحدٍ، لأن كلَّ شيءٍ للأعمى ظلامٌ. هو ذا الربُّ قد حَلّنا من عبوديةِ الشيطانِ فلا نعودُ نربطُ أنفسَنا أو نستعبدها بسوءِ رأينا.

احفظوا ما كلمتُكم به ليكونَ لأنفسِكم منه دواءٌ وصحةٌ، ولا تجعلوه شاهداً عليكم، لأنه سيأتي وقتٌ فيه تُطَالبون بالجواب عن كلامي هذا. تمسَّكوا بالتوبةِ واحذروا لئلا تُصطادوا بفخِ الغفلةِ. لا تتهاونوا لئلا تكونَ الطلبةُ من أجلِكم باطلةً. داوموا على التوبةِ ما دام يوجدُ وقتٌ. فإنكم لا تعرفون وقتَ خروجِكم من هذا العالمِ. لنعمل ما دام لنا زمانٌ لنجد عزاءً في وقتِ الشدةِ. فمن لم يعمل ويتعب في حقلِهِ في أوانِ الشتاءِ لن يجدَ في الصيفِ غلَّةً يملأُ بها مخازنَه ليقتاتَ بها. فليحرص كلُّ واحدٍ على قدرِ طاقتِهِ، فإن لم يمكنه أن يربحَ خمسَ وزناتٍ فليجاهد كي يربحَ اثنتين. أما العبدُ الكسلانُ الذي لا يعملُ ولا يربحُ فمصيرُهُ العذاب. طوبى لمن يجاهدُ بكلِّ قوَّتِهِ فإن ساعةً واحدةً في نياحه تنسيه جميعَ أتعابِهِ. فويلٌ وويلٌ لمن تغافل وكسلَ لأنه سيندمُ حيث لا ينفعُ الندمُ. لا تكمِّلوا شهوةَ الجسدِ لئلا تُحرموا من خيراتِ الروحِ. فإن الرسولَ قد كتب: إن اهتمامَ الجسدِ هو موتٌ، واهتمامَ الروحِ هو حياةٌ. افرحوا بكمالِ إخوتكم وضعوا نفوسَكم لهم وتشبَّهوا بهم واحزنوا على نقصِكم. اصبروا للتجارب التي تأتي عليكم من العدو واثبتوا في قتالِهِ ومقاومتهِ، فإن اللهَ يعينُكم ويهبكم أكاليلَ النصرةِ، فقد كُتب: طوبى للرجلِ الذي يصبرُ للبلايا ويصبحُ مجرَّباً فإنه ينالُ إكليلَ الحياةِ. لا غَلَبة بدونِ قتالٍ ولا إكليل بدونِ غَلَبةٍ. اصبروا إذاً فقد سمعتَ قولَ الربِّ لأحبائِه: أما أنتم الذين صبرتم معي في تجاربي، ها أنا أُعدُّ لكم الملكوتَ كما وعدني أبي. وقوله أيضاً: إن الذي يصبرُ إلى المنتهى فهذا يخلصُ. وقد قدم لنا نفسَه مثالاً كيف نصبرُ إلى المنتهى. ففي الوقت الذي كان فيه يُسَبُّ ويُعَير ويُهان من اليهودِ نراه يتراءف عليهم ويحسنُ إليهم ، فكان يشفي أمراضَهم ويعلِّمهم. وقَبِلَ الآلامَ بجسدهِ وصبر حتى الصلبِ والموتِ. ثم قام بالمجدِ وصعد إلى السماءِ وجلس عن يمينِ اللهِ.

اشكروا الربَّ في تعبكم من أجلِ الرجاءِ الموضوعِ أمامكم. اصبروا في البلايا لتنالوا أكاليلَ المجاهدين. اغفروا لبعضِكم بعضاً لتنالوا الغفرانَ. فقد قال الربُّ: اغفروا يُغفر لكم. داوموا على حفظِ هذه الوصية فإن ربحَها عظيمٌ ولا تعب فيها. كونوا أبناءَ السلامِ ليَحُلَّ سلامُ الربِ عليكم. كونوا أبناءَ المحبةِ لتُرضوا مُحبَّ البشرِ. كونوا بني الطاعةِ لتنجوا من المحتالِ. إن أولَ العصيانِ كان من آدم أبينا في الفردوس لسببِ شهوةِ الطعامِ. وأولُ الجهادِ من سيدنا المسيح كان في البريةِ في الصيام. وتعلَّمنا من التجربةِ أن الراحةَ والطعامَ هما أسبابُ الضلالِ. والصومُ هو سببُ الغَلَبةِ

والنُصرةِ. فصوموا مع المخلصِ لتتمجدوا معه وتغلبوا الشيطانَ. والصيامُ بدونِ صلاةٍ واتضاعٍ يُشبه نسراً مكسورَ الجناحين. احتفظوا بحرصِكم ولا تهربوا من أتعابكم. فإن الطوبى لمن لازم التوبةَ حتى يمضى إلى الربِّ. لازموا السهرَ وقراءةَ الكتبِ وثابروا على الصلاةِ وأسرعوا إلى الكنيسةِ، ونقُّوا قلوبَكم من كلِّ دنسٍ لتستحقوا التناولَ من جسدِ السيد المسيح ودمهِ الأقدسين فيثبُتَ الربُّ فيكم. فبهذا السرِّ العظيم تُحفظون من الأعداءِ. فمَن يتهاون بهذا السرِ فإن قوات الظلمةِ تقوى عليه فيبتعدَ عن الحياةِ بهواه. فلنتقدم إلى الأسرارِ المقدسة بخوفٍ وشوقٍ وإيمانٍ تام، ليبعُدَ عنا خوفُ الأعداءِ بقوةِ ربنا يسوع المسيح، الذي له المجد إلى الأبد آمين».

وقال أيضاً: «من يريدُ أن يأتي إلى اللهِ ليستحقَ الحياةَ الدائمة، وليكونَ مسكناً للسيدَ المسيح، ويمتلئ من الروح القدس، ينبغي له أولاً أن يكون له إيمانٌ ثابتٌ باللهِ، وأن يتفرغَ لعملِ وصاياه، ويرفض العالمَ بالكمالِ. فإذا كان عقلُه مشغولاً بشيءٍ مما يُرى فحينئذ عليه أن يلازمَ الصلاةَ، ويكلِّف نفسَه بالقيامِ بكلِّ عملٍ صالحٍ. وإن كان قلبُه لا يريدُ، إما بسببِ قتالٍ أو لتأصُّل عادةٍ رديئةٍ أو لعجزٍ وقلةِ صبرٍ، فليجاهد ليختطفَ ملكوتَ السماوات، لأن الغاصبين يختطفونه. وليحرص أن يدخلَ من البابِ الضيقِ ويسير في الطريقِ الكربةِ الموصلة إلى الحياةِ الأبدية، ويجعل اللهَ بين عينيه دائماً أبداً، مداوماً على عملِ ما يرضيه وحده. فإذا درَّب الإنسانُ نفسَه على أن تتعودَ على ذلك، ذاكراً الربَّ دواماً مترجياً إياه بشوقٍ كثيرٍ، فحينئذ يخلِّصه الربُّ من الأعداءِ ومن الخطيةِ الساكنةِ فيه، ويملأه من نعمةِ الروح القدس. وهكذا يستطيعُ أن يعملَ الفضائلَ بالحقيقةِ بدون تعبٍ ولا تكلُّفٍ لأن الربَّ يعينه».

وقال أيضاً: «لنبكِ أيها الإخوةُ ولتَسِل دموعُنا من أعيننا قبل أن نمضي إلى حيث تَحرِقُ دموعُنا أجسادَنا بدونِ نفعٍ». فلما قال هذا بكى وبكى الكلُّ معه، وخروا على وجوهِهم قائلين: «أيها الأب صلِّ من أجلنا».

سأله الشيوخُ مرة: «كيف نصلي»؟ فقال: «نبسط أيدينا إلى الله ونقول: يا الله أهدنا كما تحبُّ وكما تريدُ. وإن أصابتنا ضيقةٌ قلنا: يا ربُّ أعنا. فهو يعرف ما هو خيرٌ لنا ويصنع معنا كرحمتِه ومحبتِه للبشرِ».

وقال أيضاً: إن الذي يلازمُ الصلاةَ يقتني أفضلَ الأعمالِ، إذ هو محتاجٌ إلى جهادٍ أكثر من سائرِ الأعمالِ. لذلك ينبغي له الحرصُ الدائم والصبرُ والتعبُ دائماً، لأن الشريرَ يناصبه العداءَ، ويجلبُ عليه نعاساً وكسلاً وثقلَ جسدٍ، وانحلالاً وضجراً وأفكاراً مختلفة، وطياشةَ عقلٍ وحيلاً كثيرةً محاولاً إبطال الصلاة. لذلك يلزمه الجهادُ إلى الدمِ مقابل أولئك الذين يطلبون إبعادَ النفسِ عن اللهِ. وليتيقظ مراقباً ذهنَه. مطارداً الأفكارَ المضادة بشدةٍ. وطالباً من اللهِ عوناً وفهماً».

وقال أيضاً: «إن أردتَ أن يقبلَ اللهُ دعاءَك فاحفظ وصاياه. أنت عبدُ اللهِ فلا تعمل لغيرِه، ولا تتكل على غيرِه، ولا تَدْعُ غيرَه. وإذ قد علمتَ أنك ستأتي للدينونةِ، فاسْعَ فيما يخلِّص نفسَك منها. اذكر الموتَ وتأهب لموافاته. الوحدةُ هي حفظُ العينين والأذنين واللسان والاشتغالُ بالقراءةِ والصلاةِ. الوحدةُ هي مرآةٌ تُبيِّنُ للإنسانِ عيوبَه. كما أن عصا هرون أزهرت وأثمرت في ليلةٍ واحدةٍ، كذلك الراهب إذا حلَّ فيه الربُّ فإن نفسَه تُزهرُ وتُثمرُ أثمارَ الروحِ القدس بمعونةِ خالقِها السيد المسيح له المجد».

وقال أيضاً: «داوم ذكرَ الاسم القدوس، اسم ربنا يسوع المسيح، فهذه هي الجوهرةُ التي من أجلِها باع التاجرُ الحكيمُ كلَّ أهويةِ قلبِهِ واشتراها، وأخذها إلى داخلِ بيتِهِ فوجدها أحلى من العسلِ والشهدِ في فمِهِ. فطوبى لذلك الإنسان الذي يحفظُ هذه الجوهرةَ في قلبِهِ فإنها تعطيه مكافأةً عظيمةً في مجدِ ربنا يسوع المسيح».

قال له أخٌ: «إني جبانٌ بسبب خطاياي فماذا أعمل يا أبي»؟ قال له الشيخُ: «تقوَّ وتمسك برجاءِ الحياةِ والرحمةِ التي لا حدَّ لها، الذي هو اسمُ ربنا يسوع المسيح».

حدث أنْ زار الأنبا بيمين الأنبا مقاريوس، فقال الأنبا بيمين: «يا أبي ماذا يعملُ الإنسانُ كي يقتني الحياةَ». فقال الأنبا مقاريوس: «إن داومتَ كلَّ حينٍ على طعامِ الحياةِ الذي للاسمِ القدوس، اسم ربنا يسوع المسيح، بغير فتورٍ، فهو حلوٌ في فمِك وحلقِك، وبترديدك إياه تَدْسَمُ نفسُك وبذلك يمكنك أن تقتني الحياةَ».

قال شيخٌ: «إن كان كلُّ ملءِ اللاهوت قد حلَّ في السيدِ المسيح جسدياً كقول الرسول، فلا نقبلُ زرعَ الشياطين الأنجاس عندما يقولون لنا: إنكم إذا صِحتُم باسمِ يسوع فلستم تدعون

الآبَ والروح القدس. لأنهم يفعلون ذلك مكراً منهم لكي يمنعونا من الدعاءِ بالاسمِ الحلو الذي لربنا يسوع المسيح، لعلمِهم أنه بدونِ هذا الاسم لا ولن يوجد خلاصٌ البتةَ، كقولِ الرسول بطرس: إنه ليس اسمٌ آخر تحت السماءِ أُعطي للإنسانِ به ينبغي أن نخلصَ، ونحن نؤمنُ إيماناً كاملاً بأننا إذا دَعوْنا باسمِ ربنا يسوع إنما ندعو الآبَ والابنَ والروحَ القدس، لأننا لا نقبلُ البتة فرقاً ولا انقساماً في اللاهوت، ونؤمن أيضاً أن ربَّنا يسوع المسيح هو الواسطةُ الذي به يحصلُ الناسُ على الدنو من الله والحديثِ معه، كقولِ الرسول: وفي هذه الأيامِ كلَّمنا في ابنِهِ».

قال **شيخٌ مثلاً**: «كان لإنسانٍ في قريةٍ أختٌ جميلةٌ. ولما كان يومُ عيدِ تلك القريةِ، سألته أختُه أن يأخذها إلى موضعِ ذلك العيد. وإذ كان أخوها يخافُ أن يرسلَها وحدها لئلا يحصلَ لقومٍ عثرةً بسبب شبابِها، فقام ومضى بها إلى مكانِ عيد القريةِ وهو ممسكٌ بيدها. وكان ينتقلُ بها من مكانٍ لآخر وهو ممسكٌ بيدها، لأنه قال: إن هي مالت إلى فعلِ جَهالةٍ فإنها لن تستطيعَ لأني ممسكٌ بيدها. وهكذا فقد كان الكثيرون ينظرون إلى الصبيةِ ويشتهونها من أجلِ جمالِها ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا بها شيئاً لأن أخاها كان ممسكاً بيدها. وهي كذلك كانت تنظرُ إلى الصبيانِ الذين يشتهونها وتميلُ بضميرِها للَّذةِ، ولكنها لم تتمكن من إكمالِ شهوتها لأن أخاها كان ممسكاً بيدها. ثم قال الشيخُ الذي ذَكَرَ هذا المثلَ: ما دامت النفسُ ذاكرةً اسم ربنا يسوع المسيح الذي صار لنا أخاً بالتدبير، فإنه يكون في كل وقتٍ ممسكاً بيدِها. وإن أراد الأعداءُ غيرُ المنظورين خداعَها فلا يستطيعون أن يفعلوا بها شيئاً لأن أخاها ممسكاً بيدِها. وإن هي خضعت للأفكارِ ومالت لِلَذّات العالمِ، فلن تستطيعَ إكمالَ الخطية لأن أخاها ممسكاً بيدها إن هي تمسكت في كلّ وقتٍ بالاسمِ المخلص الذي لربنا يسوع المسيح ولم تُرخِهِ. أرأيتَ يا حبيب كيف أن التمسُّكَ بهذا الذِكرِ الصالحِ الذي لاسمِ ربنا يسوع المسيح هو خلاصٌ عظيمٌ وحصنٌ منيعٌ وسلاحٌ لا يُقهَر وخاتمُ خلاصِ النفسِ؟ فلا تتوانَ عن أن تقتني لنفسِك هذا الكَنزَ الذي لا يُسرق، وهذه الجوهرةَ الكثيرةَ الثمن التي هي اسم ربنا يسوع المسيح، ذلك الاسم المخلِّص. فإن سألتني قائلاً: وكيف أقتني هذا الكنزَ العظيم؟ أجبتُك قائلاً: بالعزلةِ عن كلِّ أحدٍ، وعدم الاهتمام بكافةِ الأشياء. وإتعاب الجسد بقدرٍ، والصوم بمداومةٍ، فهذه كلها تَلِدُ الاتضاعَ والدموعَ الصادقة. وتجعلُك أن تكونَ تحت كلِّ الخليقةِ. فإذا ما حصلتَ على كلِّ ذلك صرتَ ابناً

لله وأنت على الأرضِ. وتنتقلُ من الأرضِ إلى فوق السماءِ وأنت كائنٌ في الجسدِ. كلُّ نعمةٍ هي منك ولك يا ربُّ. إنك تصنعُ الرحمةَ مع ضعفِنا حتى تنقلنا إلى ملكوتِك».

قال شيخٌ: «الأنبياءُ والرسلُ دوَّنوا ما في الكتبِ، فَعَمِلَ بها آباؤنا ومَن أتى بعدهم. فلما جاءت هذه القبيلةُ وهذا الجيلُ، كتبوها ووضعوها في الكُوَى بغيرِ فائدةٍ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «يا أبي، ماذا أعملُ بهذه الحروب الكائنةِ معي»؟ فقال له الشيخُ: «إن مداومةَ اسم الرب يسوع تقطعُ كلَّ آكِلَةٍ».

قال شيخٌ: «ليس هناك فضيلةٌ من الفضائلِ تشبه فضيلةَ مداومة الصلاةِ والتضرع باسمِ ربنا يسوع المسيح في كلِّ وقتٍ، إما بالعزلةِ بالشفتين، وإما بالقلبِ بغيرِ تنزه».

قال شيخٌ: «إذا ما رفض الذهنُ أوامرَ الروحِ القدس تَبعُد القوةُ ذاتها، وتثور أوجاعُ القلبِ. فإذا ما رجع القلبُ إلى اللهِ وحفظ أوامرَ الروحِ القدس كان عليه سِترٌ، وحينئذ يعلمُ الإنسانُ أن مداومةَ ذكرِ اسمِ القدوس ربنا يسوع المسيح هو الذي يحرسه تحت سِترِ رحمتِهِ».

سأل أحدُهم شيخاً قائلاً: «يا أبي عرِّفني كيفيةَ الجلوسِ في القلايةِ». فقال له الشيخُ: «هذا هو ما يُعمَلُ في القلايةِ: كُلَّ مرةً واحدةً كلَّ يومٍ مع عملِ اليدين وكمالِ الصلوات الفرضية. وأفضل الجميع أن تكونَ مداوماً ذكر اسم ربنا يسوع المسيح بغير فتور. وفي كلِّ لحظةٍ ارفع عينيك إلى فوق وقل: يا ربي يسوع تحنن عليَّ، أنا أسبحُك يا ربي يسوع المسيح».

قال شيخٌ: «إذا كنتَ جالساً في القلايةِ نشِّط نفسَك. لتكن خدمةُ القلبِ عندك أفضلَ من خدمةِ الجسدِ، لأن اللهَ يريدُ القلبَ أن يكونَ ملازِماً اسمه القدوس كلّ حينٍ مثل عبدٍ ملازمٍ سيده وخائفٍ منه».

سأل أخٌ شيخاً: «كيف أجدُ اسمَ ربي يسوع المسيح»؟ قال له الشيخُ: «إذا لم تحب الأتعابَ أولاً لا تستطيع أن تجده».

وسأله أخٌ آخر قائلاً: «كيف تقتني النفسُ خوفَ اللهِ»؟ أجابه: «إذا لم تنظر النفسُ اللهَ لا تخافه». قال له: «وبماذا يظهرُ اللهُ للنفسِ»؟ أجابه: «بالعزلةِ والضيقةِ والصراخ كلِّ حينٍ

بشوقٍ، ولا يَفْتُر عن أن ينادي قائلاً: يا ربي يسوع المسيح. فإذا ما كان ذِكرُه دائماً في قلبِك كلّ حينٍ فإنه يجيءُ ويسكنُ فيك، ويعلِّمك كلَّ الأعمالِ الصالحة».

وأيضاً سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «أتريدُني أن أتركَ قلبي عند خطاياي». قال: «لا». قال: «فهل أتركُه عند جهنمٍ»؟ قال: «لا. بل اتركه عند يسوع المسيح فقط، والصق عقلَك به لأن الشياطين يريدون أن يأخذوا ضميرَك إلى حيث يُبعدونك عن الربِّ يسوعَ المسيح». فسأله: «وبأي شيءٍ يلتصقُ الضميرُ بالربِ يسوعَ المسيح». قال له: «بالعزلةِ وعدمِ الهمِّ، والتعبِ الجَسَدَاني بقدرٍ».

قال أنبا يعقوب: إنني زرتُ أنبا إيسيذوروس دُفعةً، فوجدتُه يَنسخُ، وإني جلستُ عنده فرأيتُه في كلِّ وقتٍ قليلٍ يرفعُ عينيه إلى السماءِ وتتحرك شفتاه، ولا أسمعُ له صوتاً البتة. فقلتُ له: «لماذا تعمل هكذا يا أبي»؟ قال لي: «إن لم تفعل أنت هكذا، فما صرت بعدُ راهباً ولا ليومٍ واحدٍ». وهذا هو ما كان يقولُه: «يا ربي يسوع المسيح أعني، يا ربي يسوع المسيح ارحمني، أنا أسبِّحُك يا ربي يسوع المسيح».

سأل أخٌ شيخاً: «عرِّفني يا أبي كيف أتمسكُ باسمِ الربِّ يسوع المسيح بقلبي ولساني؟» أجابه الشيخُ: «مكتوبٌ أن القلبَ يؤمَنُ به للبرِّ، والفمَ يُعتَرفُ به للخلاصِ. فإذا هدأ قلبُك فإنه يرتلُ باسمِ الربِ يسوعَ دائماً. أما إن أصابه عدمُ هدوءٍ وطياشةٌ، فعليك أن تتلو باللسانِ حتى يتعودَ العقلُ. فإذا نظر الله إلى تعبِك أرسل لك معونةً عندما يرى شَوْقَ قلبِك. فيبدد ظلمةَ الأفكارِ المضادة للنفس».

الأنبا باخوميوس

جاء عن القديس باخوميوس: كان والدُه من الصعيدِ الأعلى عابداً للأصنامِ. ففي ذاتِ يومٍ تجنَّد باخوميوس ضمن جنودِ الملكِ. فحدث بينما كانوا مسافرين وهم بحالٍ سيئةٍ للغايةِ، أن أتاهم قومٌ مسيحيون من إسنا بطعامٍ وشرابٍ في المعسكر. فسأل باخوميوس: «كيف أمكن لهؤلاءِ الناسِ أن يتحنَّنوا علينا وهم لا يعرفوننا قط»؟ فقيل له: «إنهم مسيحيون، وإنهم يفعلون

ذلك من أجلِ إلهِ السماءِ». فلما سمع باخوميوس هذا الكلامَ قرَّر في نفسِهِ أنه لو أُتيحت له فرصةٌ يصيرُ مسيحياً ويخدم المحتاجين. وبتدبيرِ اللهِ غلب الملكُ أعداءَه وأصدر أوامرَه بتسريح الجنودِ. فرجع باخوميوس وتعمَّد. وبعد ثلاث سنين ترهبن عند راهبٍ قديس اسمه بلامون. ولوقته شَرَعَ في إقامةِ شركةٍ حتى يساعدوا بعضُهم بعضاً، ويقوموا بإعالةِ المحتاجين والضعفاء. فاجتمع إليه كثيرون وبنوا أديرةً واتخذوا لهم عيشةً مشتركةً. وكان القديسُ يرسل لهم قانونَ العبادةِ وشُغلَ اليدِ والتصريفَ اللائق، ويدبِّرهم في الجلوسِ والقيامِ والسكوتِ والكلامِ. ويتشدد في ذلك إلى أبعدِ حدٍ.

قيل عن القديس باخوميوس: إنه مضى دفعةً في أمرٍ مع الإخوةِ وكان ذلك الأمرُ يحتاج إلى أن يحملَ كلُّ واحدٍ منهم كميةً من الخبزِ. فقال له أحدُ الشبانِ: «حاشاك أن تحملَ شيئاً يا أبانا، هوذا أنا قد حملتُ كفافي وكفافك». فأجابه القديسُ: «هذا لا يكون أبداً. إن كان قد كُتب من أجلِ الربِ أنه يليقُ به أن يتشبّهَ بإخوتهِ في كلِّ شيءٍ، فكيف أُميِّزُ نفسي أنا الحقير عن إخوتي حتى لا أحملَ حملي مثلهم. وهذا هو السببُ في أن الأديرةَ الأخرى كائنةٌ بانحلالٍ لأن صغارَهم مستعبدون لكبارِهم وليس من اللائقِ أن يكونَ هذا، لأنه مكتوبٌ: من يريدُ أن يكونَ كبيراً فيكم فليكن لكم عبداً».

قال القديس باخوميوس: «اسمع يا ولدي وكن مُتأدِّباً واقبل التعليمَ. كن مطيعاً مثلَ إسحق الذي سمع لأبيهِ وأطاعه كخروفٍ ساذجِ القلبِ، وتشبَّه بعفةِ يوسف وحكمتِهِ وصبرِهِ واحسد سيرتَه وكن عَمّالاً ولا تكسل، وتمم نذرَكَ الذي قرَّرتَه مع اللهِ خالقك وربِك. كن صبوراً وتجلَّد لأن القديسين صبروا فنالوا المواعيدَ. كن واسعَ القلبِ لتُكلَّل مع عساكرِهِ الأطهار. داوم على الصومِ وصلِّ ولا تمل واصبر للبلايا حتى يرفعها الربُ عنك. اجعل السلامَ بينك وبين إخوتِك فيسكنَ الربُ في قلبِك. الزم البكوريةَ في أعضائك والطهارةَ في قلبِك وجسدِك. ليكن رأسُك منكَّساً ونظرُك إلى أسفل، واتضع بقلبِك واهزم الكبرياءَ وابتعد عن الهمِّ. التصق بمخافةِ اللهِ وكن متواضعاً لتكونَ فرحاً. لأن الفرحَ رفيقُ الاتضاعِ. كن متضعاً ليحرسَك الربُ ويقويك. فإنه يقول إنه ينظرُ إلى المتواضعين. كن وديعاً ليحكّمك الربُ ويملأك معرفةً وفهماً، لأنه مكتوبٌ: إنه يُهدي الودعاءَ بالحكمِ ويعلم المتواضعين طرقَه. وحينئذ يثبتك أمامه ويهيئ لك

السلامةَ في جميعِ سبلِك. لا تُعطِ لعينيك نوماً ولا لأجفانِك نعاساً لتنجوَ من الفخِ مثل الطائرِ. كن قويَ القلبِ واقتنِ لك شجاعةً منذ الابتداءِ لتقدرَ على الوقوف قبالة غضبِ التنين. لأنه يُصعِّب قتالَك منذ الابتداءِ لا سيما إذا وجدَك غيرَ مستعدٍ لمقاومتهِ وذلك ليجعلَك جزعاً من أولِ الطريقِ، كي لا تستطيعَ الوصولَ إلى منتصفِها. لا تحتقر أحداً من الناسِ ولا تدينه ولو رأيتَه ساقطاً في الخطيةِ، لأن الدينونةَ تأتي من تعاظمِ القلبِ، أما المتضعُ فإنه يَعتبرُ كلَّ الناسِ أفضلَ منه. فبأيِّ حقٍ تدينُ عبداً ليس لك، فإن سقط فلربِهِ، وربُه قادرٌ أن يُقيمَه. إن كنتَ غريباً فاعتكف ولا تدخل عند أحدٍ ولا تختلط بصنائعِ الدنيا. وإن كنتَ بائساً فداوم على العملِ بدونِ مللٍ. أحبَّ الذي يؤدِّبك بخوفِ اللهِ. واجعل جميعَ الناسِ يستفيدون منك وابنِهِم بفضائلِ الأعمالِ والكلامِ الصالحِ».

وقال أيضاً: «يا ابني إذا جعلتَ توكُّلَك على اللهِ فإنه يصيرُ لك ملجأً ويخلِّصك من جميعِ شدائدك. إن سلَّمتَ كلَّ أمورِك إلى اللهِ فآمن أنه قادرٌ أن يُظهِرَ عجائبَه لقديسيه. جميعُ المعلمين والآباء والكتبُ المقدسة تأمُرُ بالصبرِ الكثيرِ وتُحِثُّ عليه. وانظر لأيِّ درجةٍ حتى اللعابَ الذي ييبس في فمِك وأنت صائمٌ لا ينساه اللهِ. وتجد ذلك عند شدَّتِك في وقتِ انتقالك. اتضع في كلِّ شيءٍ وإذا كنتَ تعرفُ جميعَ الحكمةِ فاجعل كلامَك آخرَ الكلِّ، لأنك بذلك تكمِّلُ كلَّ شيءٍ. تقبَّل كلَّ التجاربِ بفرحٍ، عالماً بالمجدِ الذي يتبعُها، فإنك إن تحققتَ من ذلك فلن تملَّ من احتمالها. لدرجةِ أنك تطلبُ من اللهِ أن لا يصرفها عنك. جيدٌ لك أن تتنهدَ وتبكي فتخلص، لأن الراحة تضرُّك وتفرِّح أعداءَك. لا تترك قلبَك يُسبى مع الغرباءِ لئلا يقال لك: لأنك لم تثق بالربِ فأقم الآن في أرضِ العبوديةِ. لا تُخلِ قلبَك من ذِكرِ اللهِ أبداً لئلا تغفل قليلاً فيظفرَ بك الأعداءُ المترصدون لاصطيادك، بل اغلبهم بتركِ الكبرياء واحذر من طلبِها لئلا تُفرِّح أعداءَك. اسلك طريقَ الاتضاع لأن اللهَ لا يردُّ المتواضع خائباً. لكنه يُسقط المتكبرَ وتكون سقطتُه شنيعةً.. إذا ضَعُفتَ عن أن تكون غنياً باللهِ فالتصق بمن يكونُ غنياً به لتسعَد بسعادتِه وتتعلم كيف تسيرُ حسبَ أوامرِ الإنجيل. ما أكثر فخر الصابرين على التجارب، فكن صبوراً وقاتل جميعَ أفكارِك ليعطيكَ المسيحُ المواعيدَ التي أعطاها للقديسين. احفظ نفسَك من الشهوةِ فهي أمُّ جميعِ الخطايا والشِباك، والمقتنَصُ بها يَضِلُّ عقلُهُ فلا يعود يعلمُ شيئاً من أسرارِ اللهِ. احرس نفسَك من الامتلاءِ

بالطعامِ، لأن الطريقَ المؤديةَ إلى الحياةِ كربةٌ، والبابَ ضيقٌ، والامتلاءَ يجعلُك خارجَ الجنةِ. إياك والنجاسة فهي تفصلُ الإنسانَ عن اللهِ. احذر من تكبر القلبِ لأنه أشنعُ الرذائلِ كلِّها. تيقَّظ بكل قوتِك كي تكونَ أميناً على مالِ سيدِك وتدخلَ إلى ملكوتِهِ بفرحٍ، له المجد دائماً أبدياً آمين».

وقال أيضاً: «سألني أحدُ الإخوةِ مرةً قائلاً: قل لنا منظراً من المناظر التي تراها لنستفيدَ منه. فأجبته قائلاً: إن من كان مثلي خاطئاً لا يُعطَى مناظر، ولكن إن شئتَ أن تنظرَ منظراً بهياً يفيدُك بالحقِ فإني أُدِلُّكَ عليه وهو: إذا رأيتَ إنساناً متواضعَ القلبِ طاهراً فهذا أعظمُ من سائرِ المناظر. لأنك بواسطتهِ تشاهدُ اللهَ الذي لا يُرى. فعن أفضلِ من هذا المنظرِ لا تسأل».

وقال أيضاً: «يا ابني، في كلِّ شيءٍ اطلب اللهَ بطولِ روحٍ مثل الزارعِ والحاصد فإنك تملأ أهراءَك من نِعمِ اللهِ. ارفض إرادتَك بالكليةِ وافلح للهِ بكلِّ قدرتِك. إذا جاءك فكرٌ بخصوصِ حبِّ الأجسامِ أو بغضٍ أو غضبٍ أو أيِّ رذيلةٍ من الرذائلِ، فكن قويَ القلبِ، وقاتل كالجبارِ حتى تهزمها مثل عوج وسيحون وباقي ملوك الكنعانيين، وحينئذ ترثُ جميعَ مدنِ أعدائك. اطرح عنك ضعفَ القلبِ لئلا يتملكك الكسلُ وقلةُ الإيمانِ فيطمع فيك أعداؤك. اجعل قلبَك كقلبِ سَبْعٍ واصرخ كبولس وقل: من ذا الذي يستطيعُ أن يفصلني عن محبةِ اللهِ ربي؟ إن كنتَ في البريةِ فقاتل بالصلواتِ والتنهدِ والصوم، وإن كنتَ في وسطِ الناس فكن وديعاً كالحمامِ وحكيماً كالثعبانِ. إن افترى عليك أحدٌ فلا تفترِ أنت عليه. بل افرح واشكر اللهَ. وإذا أكرمك إنسانٌ فلا يفرح قلبُك، بل احزن، لأن بولس وبرنابا لما أكرمهما الناسُ شقَّا ثيابهما. وبطرس وباقي الرسل لما افتروا عليهم وجلدوهم فرحوا لأنهم حُسبوا أهلاً لأن يُهانوا من أجلِ الاسمِ الأعظم. يا ابني اهرب من مجدِ الناسِ ومن جميع ملذاتِ الدهرِ الحاضر، ولا تَكسَل، ولا تؤجِّل التوبةَ لئلا يفاجئك المرسَلون ويأخذونك وأنت غيرُ مستعدٍ فتصيبك شدةٌ عظيمةٌ وتعاين حينئذ الوجوهَ الشنيعةَ التي تحيطُ بك بقسوةٍ وتمضي بك إلى المنازلِ المظلمةِ المملوءة فزعاً ونيراناً. لا تحزن إذا افترى الناسُ عليك، بل بالحري احزن إذا أخطأتَ إلى اللهِ. لقد طلبتْ حواءُ مجدَ الألوهيةِ فتعرَّت من المجدِ الإنساني. كذلك من يلتمسُ مجدَ الناسِ يُحرم من مجدِ اللهِ. تلك لم يُكتب لها كتبٌ، ولا رأت مثالاتٍ فاختطفها التنينُ، أما أنت فقد علمتَ بهذه الأمورِ من الكتبِ المقدسةِ ومن كافةِ الذين

تقدموك، فلن تستطيعَ أن تدافعَ عن نفسِك وتقول: لم أسمع. لأن أصواتَهم خرجت إلى كلِّ الأرضِ وكلامَهم بلغ إلى أقصى المسكونةِ. إذا رذلك الناسُ وافتروا عليك فلا تحزن لأن ربَك دُعيَ ضالاً وبعلزبول وبه شيطان ولم يتذمر. فاقتنِ لك وداعةَ القلبِ واذكر أن ربَّك وإلهَك سِيقَ كخروفٍ للذبحِ ولم يفتح فاه، له المجد إلى الأبدِ».

قيل إنه في أحدِ الأيامِ سمع الأبُّ باخوميوس أحدَ الإخوةِ يخاطبُ صبياً قائلاً: «الآن أوانُ العنبِ». فانتهره الأبُ قائلاً: «هو ذا أجسادُ الأنبياءِ الكذبةِ قد ماتت، ولكن أرواحَهم الآن تطوفُ بين الناسِ تلتمسُ مسكناً فيهم. وأنت الآن لماذا أعطيتَ للشيطانِ موضعاً كي يتكلمَ من فيك. أما سمعتَ الرسولَ قائلاً: كلُّ كلمةٍ رديئةٍ لا يجب أن تخرجَ من أفواهِكم، بل لتخرج كلُّ كلمةٍ صالحةٍ لبناءِ الجماعة، لكي تعطيَ السامعَ نعمةً. ألا تعلم أن الكلمةَ التي قُلتَها لا تبني رفيقَك بل تهدمه. ولماذا نطقتَ بها؟ ألم يُكتب: نفسٌ بنفسٍ؟ ألم تعلم أن نفسَك تؤخذُ عِوضاً عن نفسِه. فإني الآن أشهدُ لكم أن كلَّ كلمةٍ بطالةٍ أو استهزاءٍ أو لعبٍ أو مزاحٍ أو جهلٍ هذه كلها زنى للنفس. ولكي أبينَ لكم مقدارَ غضبِ اللهِ الذي يكونُ على ذلك الإنسانِ الذي يتكلمُ بالكلامِ البطالِ وبكلامِ الاستهزاء، أقول لكم المثلَ الآتي: دعا رجلٌ غنيٌ أناساً إلى وليمةٍ لكي يأكلوا ويشربوا ويفرحوا. وفي أثناءِ الوليمةِ قام بعضُ المتكئين يمزحون، فكسروا الأواني الموجودةَ في بيتِ ذلك الغني. تُرى ماذا عمل الغنيُ؟ إنه غضب عليهم ووبخهم قائلاً: يا عديمي الشكر، لقد دعوتُكم لكي تأكلوا وتشربوا، فكيف تمزحون وتكسرون الأواني؟ هكذا يغضبُ الربُّ على أولئك الذين دعاهم لدعوتِهِ قائلاً لهم: دعوتُكم لكي تتوبوا عن خطاياكم وتخلصوا، ولكنكم هدمتم نفوسَكم ونفوسَ الذين جمعتُهم لي ليخلصوا، بالضحكِ والكلامِ الباطلِ».

وقال أيضاً: «يا بُني، لا تميز موضعاً عن موضعٍ قائلاً: سوف أرى اللهَ هنا أو سوف أراه هناك، لأن اللهَ في كلِّ موضعٍ. لأنه يقول: أنا أملأُ السماءَ والأرضَ. إن أحببّتَ أن تعبرَ مياهاً كثيرةً فاحذر لئلا تغمرك. لا تفتش على اللهِ لئلا تُتلف حياتَك. احفظ القدسَ فقط فهوذا اللهُ داخلك. انظر أين كان اللصُ فورث الجنةَ، أو أين كان يهوذا فاستحقَّ المشنقةَ، أو كيف حُسِبت الزانيةُ مع الأطهارِ، أو كيف أَغوى الشيطانُ حواء في الفردوس، أو كيف أُصعد إيليا إلى السماءِ، أو كيف سقطت الملائكةُ من هناك. فاطلب ولا تكسل. اطلب اللهَ فتجدَه. لا تقضِ أيامَك

بالتواني، كما مرَّ العامُ الماضي كذلك هذا العام. وكما مرَّ أمسُ كذلك اليوم. فإلى متى تكسل؟ استيقظ وأيقظ قلبَك قبل أن يوقِفَك مُكرهاً في يومِ الحكمِ لتعطي الجواب عن جميعِ ما صنعتَ. إن صرتَ في حربِ الموتِ لا تجزع، فإن روحَ الله يُنقذُك. لأنه مكتوب: إني لا أخشى شراً لأنك معي».

وقال أيضاً: «يا ابني لا تسكن حيث توجد امرأةٌ لأن هُوَّةَ الهلاكِ كائنةٌ في شفاهِها, وإن تملَّقك الجسدُ قائلاً: إننا منذ زمانٍ طويلٍ قد تحنَّكنا بالتجربةِ، أو إنني قد صرتُ ضعيفاً أو عجوزاً، أو إن الحزنَ والصومَ قد أذلني ولا أستطيعُ مخالفة أمرك. فإياك أن تغترَّ به، لأن الأعداءَ داخله يَكمُنونَ لك، لئلا يَحلِقونَ شعرَ رأسِك أي أفكارَ عقلِك، فيفارقَك روحُ الله وتضعف قوتُك، فيأتي الغرباءُ ويربطونك ويذهبون بك إلى موضعِ الطحنِ حيث تُصبحُ أضحوكةً وألعوبةً، فيقلعون عينيك ويصيِّرونك أعمى لا تعرف طريقَ الخلاصِ. ولن تنفكَّ من أسرِك حتى تموتَ عند الغرباءِ بحزنٍ عظيم. فالآن يا ابني استيقظ واعرف مواعيدك واهرب من القاسي القلب الغاش لئلا يقلع عيني عقلك. تحفَّظ من الزنى واذكر العذابَ المعدَّ للدنسين. اهرب من مصرَ ولا تشرب مياهاً من جيحون التي هي الأفكارُ العاهرة. إذا أحببتَ الأطهارَ فإنهم يكونون لك أصدقاءً ومعهم تصل إلى مدينةِ الله المملوءة نوراً».

في أحدِ الأيامِ جمع الأب باخوميوس الإخوةَ وقال لهم: «أريدُ الآن أن أقولَ لكم وصايا لكي تحفظوها كلُّكم خلاصاً وثباتاً لنفوسكم، لا سيما لأولئك الذي لم يقووا بعد في الإيمانِ والأعمالِ حتى لا يقعوا في فخِ إبليس، وإياكم أن يشكَ أحدٌ منكم في هذا الكلامِ الذي أقولُه لكم، واذكروا الكلامَ المكتوب: إنكم لا تؤمنون ولا تفهمون. وهذا هو الكلامُ الذي أريدُكم أن تحفظوه: لا يرافق أحدُكم آخرَ لقضاءِ الحاجةِ معاً في مكانٍ واحدٍ. لا يمسك أحدٌ منكم يدَ رفيقِهِ أو يلمس أيَّ شيءٍ من جسدِهِ من غير أمرٍ ضروري إلا في حالةِ رجلٍ مريضٍ أو في حالةِ وقوعِ أحدٍ فيساعدَه آخر حتى يقوم، ويحتاجُ الأمرُ حينئذ أن يمسكَه حتماً ويلمسه. على أنَّ ذلك أيضاً يكونُ بحرصٍ وحَذَرٍ. لا يجلس أحدٌ منكم مع رفيقِهِ في متكأ في عزلةٍ ليتهامسا معاً، بل كونوا بعيدين بعضُكم عن بعضٍ قليلاً حين الكلام مع بعضِكم البعض. لا يرقد أحدُكم على مرقدٍ ليس هو له. لا يَدخل أحدٌ منكم إلى موضعِ رفيقِهِ بغيرِ رسالةٍ أو حاجةٍ، كي لا يجدَ العدو له

فينا موضعاً البتةِ».

وقال أيضاً: «يا ابني جرِّب كلَّ شيءٍ واختَر لنفسِك الأفضلَ. لا تكن متعظمَ العينِ بل كن متواضعاً. اجتهد في شبابِك لتفرحَ في كِبرك. احتفظ بالقدسَ لئلا تُفتضح في موضعِ الحكمِ. فيبصرَك معارفُك ويعيرونك قائلين: كنا نظنُّك حملاً فوجدناك ذئباً. أين تستر وجهَك وكيف تفتح فاك. وبماذا تتخلَّص من عملِك الملتصق بك كالصبغةِ بالثوبِ وماذا تصنع؟ حينئذ تبكي ولا ينفع البكاءُ. تسأل ولا يُسمع منك. الآن يا بُني ارفض هذا العالم وارذله وامشِ مستقيماً. لا تصادق صبياً ولا تحادث امرأةً ولا تدخل عندها. لأن الحديدَ إذا وقع على الحجرِ قَدَحَ ناراً. احرص على طهارةِ جسدِك وسلامةِ قلبِك. فإنك إن تحقَّقت من نوالِهما أبصرتَ اللهَ ربَك. لا تحقد على الناسِ لئلا تصبح مرذولاً من اللهِ. اجعل لك سلاماً مع أخيك لتكونَ محبوباً من ربِك. إذا صرتَ طاهراً في كلِّ شيءٍ ولكن بينك وبين أخيك عداوةً فأنت غريبٌ عن اللهِ. لأنه مكتوبٌ: اتبعوا السلامةَ والقداسةَ اللتين بدونِهما لا يعاينُ أحدٌ اللهَ. وقد قال الربُّ: اغفروا يُغفر لكم. فإن لم تغفر لأخيك لا يغفر هو لك. لأنه يقول: هكذا يصنعُ بكم أبي السماوي إن لم تغفروا لإخوتِكم من كلِّ قلوبِكم. فإن حقِدتَ على أخيك فهيئ نفسَك للعذابِ، لأنه يقول: إنه أسلمه للمعذِّبين. الآن قد صرنا مسكناً للإلهِ الصالح بالعمادِ، فلا ندعه يتركنا بأعمالِنا السيئة. لأنّ كلَّ الذين جازوا في البحرِ الأحمرِ تبدَّدوا في القفرِ لأنهم قاوموا إرادةَ اللهِ وتبعوا أغراضَ قلوبِهم. الرهبنةُ هي: الصومُ بمقدارٍ والصلاةُ بمداومةٍ وعفّةُ الجسدِ وطهارةُ القلبِ وسكوتُ اللسانِ وحفظُ النظرِ والتعبُ بقدرِ الإمكان، والزهدُ في كلِّ شيءٍ. جميعُ آبائنا القديسين بجوعٍ وعطشٍ وحزنٍ كثيرٍ أكملوا سَعيَهم ونالوا المواعيدَ. إن كنتَ قد نذرتَ للهِ بكوريةً بمحبةٍ واشتياقٍ، فاطلبه من كل قلبِك واسلك حسبَ وصاياه. وحينئذ يجعلُك اللهُ ابناً له ويباركك. ويصيِّر بِرَكَتُك نهراً ونهرُك بحراً، ويجعلُك كبِركَةِ نارٍ، وسراجُه يضيءُ عليك. وتمتلئُ نوراً من الإشراقِ الإلهي. ويُعطيك الإلهُ مجداً مثلَ مجدِ القديسين. فتضعُ ثِقلاً على أراكنةِ الظلمةِ وترى قوةَ اللهِ في يمينك، وتُغرق فرعون وجنودَه في بحرِ الملحِ، وتُخَلِّص شعبَك من عبوديةِ الغرباءِ، وتورِّثهم أرضَ الخيراتِ التي تفيضُ لبناً وعسلاً. التي هي كمالُ سعيِّك وخروجِك من هذا العالمِ بسلامٍ، آمين».

قيل عن الأب باخوميوس إنه كان يديمُ الصلاةَ بنسكٍ زائدٍ وسهرٍ. وإذا أراد أن يرقدَ لم

يكن يرقدُ ممتداً، ولا على مصطبةٍ، بل كان يجلسُ مستنداً إلى الحائطِ. وكان إذا مضى إلى موضعٍ خارجِ الديرِ مع الإخوةِ واضُطروا إلى المبيتِ هناك، كان يأمرهم أن يحفرَ كلُّ واحدٍ منهم لنفسِهِ حفرةً في الأرضِ مثل مراقدهم في الدير، قائلاً لهم: «إنه من الواجبِ على الإنسانِ الراهبِ أن يُتعبَ نفسَه في مَرقَدِهِ لكون روحُ الزنا تقفزُ على الرجلِ لتجرِّبَه بشدةٍ، لا سيما إذا رقد على فِراشٍ، ممتداً براحةٍ».

وقال أيضاً: «يا ابني احفظ قلبَك كي لا يفرحَ أعداؤك، لأن الإنسانَ إذا لم يحفظ قلبَه وقع في الشَرَكِ. لا تكسل عن أن تتعلَّم خوفَ اللهِ كطفلٍ صغيرٍ. كن رجلاً قوياً جباراً في جميعِ تدابيرك، ولا تُفسد يوماً واحداً من عملِك وتحقَّق مما تقدمُه للهِ الحقيقي كلَّ يوم. اجلس وحدك مثلَ والٍ حكيمٍ ودِنْ أفكارَك، فما كان نافعاً وموافقاً أبقِهِ واحفظه، وأما ما كان ضاراً فاطرده عنك. الآن يا ابني اجعل ناموسَ اللهِ في قلبِك والزم البكاءَ واجعله لك صديقاً. وليكن جسدُك قبراً لك حتى يقيمك اللهُ ويعطيك تاجَ الغَلَبةِ».

حَدَثَ بينما كان الإخوةُ يقومون بالحصادِ وتادرس يعملُ معهم وهو صائمٌ، أن لَحِقه حرٌ في رأسِه. ومن بعد فروغ العمل جلس يستظلُّ؛ فجاز به الأب باخوميوس وقال له بوجعِ قلبٍ: «يا تادرس، أتستظل»؟ فقام تادرس بسرعةٍ. ولما كان المساءُ تقدم تادرس إليه وقال: «يا أبي إني أشعرُ بألمٍ في رأسي بسبب ضربةِ الشمسِ». قال له الأب: «يا تادرس، رجلٌ راهبٌ يسلكُ طريقَ الكمالِ إذا مكث يعاني مرضاً في جسدِهِ عشرين عاماً وهو متألمٌ، لا يجبُ أن يشكوَ لأحدٍ من الناسِ إلا من تلك الأمراضِ التي لا يمكنه أن يخفيها. وهذه الأخرى أيضاً عليه أن يحتملَها على قدرِ قوتِهِ وألا ينيحَ نفسَه إلا في أمرٍ يفوق طاقته، لأنه مكتوبٌ: إن الروحَ مستعدةٌ والجسدَ ضعيفٌ. هل تظن أن تقطيعَ الأعضاءِ والحريقَ وحدَه شهادةٌ؟ لا! بل تعبُ النسكِ والضرباتِ التي من الشياطين والأمراض. فمن يحتملُ كلَّ ذلك بشكرٍ فذلك هو الشهيد، وإلا فما الحاجةُ لأن يكتب بولس الرسول: إني أموتُ كلَّ يومٍ. فإنه لم يكن يموت في الظاهرِ كلَّ يومٍ، بل كان بصبرٍ يحتملُ ما يأتي عليه. وكذلك رجالُ اللهِ اليومَ إذا كانوا في أمراضٍ ويُخفونها عن الناسِ فإنهم يُعتبرون شهداءً أيضاً».

وقال أيضاً: «إذا توبَّخ أحدُنا من أحدِ إخوانِه ولم يقبل، بل حقد عليه، فقد اغتال

الشياطينُ نفسَه. ولستُ أقولُ ذلك فقط، بل وإن لم تعتبره كطبيبٍ معالجٍ فقد ظلمتَ نفسَك، لأنه ماذا تقولُ فيما أصابك. ألستَ تعلمُ أنه قد نظَّف أوساخَك؟ فسبيلُك أن تعترفَ له كطبيبٍ أرسله المسيحُ إليك. فإن كنتَ تُحبُّ المرضَ فلا تحتجَّ على الربِّ. أما هذا الوجعُ الذي ظهر لك فذلك دليلٌ على ضعفِ نفسِك. ولولا ذلك ما كنتَ تحزنُ من الدواءِ. لذلك ينبغي أن تعترفَ بالفضلِ للأخِ لأنك به عرفتَ مرضَك القاتل. فعليك أن تقبلَه مثلَ دواءٍ شافٍ مُرسَل من عند يسوع المسيح، ولو أنك لم تقتصر على عدمِ شكرِه فقط بل خلقتَ حوله شكوكاً، وقد كان الأحرى بك أن تقولَ ليسوع المسيح: لستُ أريد أن تشفيني، ولا أشاءُ أن أقبلَ شيئاً من أدويتك. الأحزانُ هي مكاوي يسوع، فمن أراد أن يبرأ من أسقامِه، يلزمه حتماً أن يصبرَ على ما يَرِدُ عليه من الطبيبِ. ولعمري أن المريضَ ليس من شأنِه أن يستلذَّ الكيَ والبترَ أو شربَ الدواءِ المنقي، بل من طباعِهِ أن يُبغضَ الأدويةَ، ولكنه لإيقانِه أنه بلا علاجٍ لن يحصلَ على الشفاءِ، ولذلك نجده يدفعُ ذاتَه للطبيبِ عالماً أنه بالأدويةِ المرةِ يتخلَّص من الأخلاطِ الضارةِ الرديئةِ. فمكوى يسوع هو ذاك الذي يُهينُك، لأنه إن كان يشتمُك إلا أنه يريحُك ويخلِّصُك من السبحِ الباطل. ودواءُ يسوع المنقي هو من يُرذلك ويوبخك، لأنه يريحك من التنعم، فإن لم تحتمل شربَ الأدويةِ تَظلِمُ نفسَك وحدَك. أما الأخ فلم يسبب لك ضرراً ما».

وقال أيضاً: «سبيلُ الراهبِ ألا يكتفي بنسكِ الجسدِ وتعبِه وحده، بل عليه أن يحصلَ على خوفِ اللهِ ساكناً فيه، فإنه هو الذي يحرقُ الأفكارَ الرديئة ويُفنيها، كمثلِ النارِ التي تحرقُ الصدأ وتنظِّفُ الحديدَ من الشوائبِ. كذلك خوفُ اللهِ يطردُ كلَّ رذيلةٍ من الإنسانِ ويجعله إناءً للكرامةِ يصلُحُ لعملِ اللهِ».

وقال أيضاً: «الأكلُ بقدرٍ ليس خطيةً، وإنما هزيمةُ الرهبانِ هي أن تَسُودَ عليهم الحنجرةُ ويتعبَّدوا للشهوةِ».

القديس إكليمادوس

من قولِ القديس اكليمادوس، وصيةً لمن يريدُ الدخولَ في سلكِ الرهبنةِ: «اسمع يا ابني

كلامي واحفظه. واعلم أنك منذ الآن قادمٌ لتقاتلَ السباعَ والتنانين والأراكنة الشياطين في طريق التوبةِ التي هي كربةٌ وصعبةٌ. واعلم أنك قد نصَّبت نفسَك هدفاً للشدائدِ والأحزانِ يوماً بعد يومٍ إن أردتَ أن تكون راهباً. لأنه مكتوبٌ: توقّع يا ابني الشدةَ بعد الشدةِ من وقتٍ لآخر، وهيئ نفسَك لذلك. لا تتوانَ لئلا تندمَ أخيراً وتُصبحُ رهبانيتُك باطلةً. لا يوجد ها هنا طعامٌ أو شرابٌ، بل جوعٌ وعطشٌ دائمٌ. ومنذ الآن لن يكونَ لعبٌ أو ضحكٌ أو قهقهةٌ أو انحلالٌ. بل انكر نفسَك في كلِّ شيء ولا تكمِّل أغراضَك الجَسَدَانية، ولازم الحزنَ والبكاءَ عوضَ الانحلالِ واللعبِ. داوم على السهرِ والصومِ إلى المساءِ في كلِّ زمانِك، إلا في حالةِ مرضٍ يلحَقُك أو ضعفٍ يصيبُك. هذا ما يجبُ أن تمارسَه إن آثرتَ أن تكونَ راهباً. لأنك إن كَسَلْتَ في إتمامِ إحدى هذه الوصايا فما أكملتَ الواجبَ، ويكونُ وعدُك كاذباً وآراؤك عن الرهبنةِ ليست صحيحةً، ومالُك الذي وزعتَه قد أضعْتَه سُدى إذ تصبح طلباتُك فارغةً، لأنك لم تستيقظ بقوةٍ ولم تُقبل على السيرةِ الرهبانيةِ باجتهادٍ، ولم تربط وسطَ قلبِك بالكمالِ، ولم تستعد للقتالِ الشديدِ ضد الشياطين غير المنظورين، كما يقول الرسولُ بولس: إن قتالَنا ليس مع لحمٍ ودمٍ، بل مع الرؤساءِ والسلاطين ومع أجنادِ الشرِّ في عالمِ الظلمةِ ومع الأرواحِ الخبيثة. فافحص قلبَك قبل أن ترفضَ الدنيا وتهيئ ذاتَك جندياً للسيد المسيح.

اعلم أنك ذاهبٌ لتُقاتلَ الذئابَ والنمورَ والسباعَ والوحوشَ الضارية، وليس ذلك لأيامٍ ولا لشهورٍ ولا لسنين قلائل، بل حياتك كلها حتى تظفرَ بالعدو. إن أردتَ أن تكون راهباً فانزع جميعَ أفكارِ العالمِ من قلبِك. الراهبُ هو ذاك الذي يستعدُ ليصيرَ مثل الملائكةِ بدونِ همٍّ، ويشقُّ عنه ثوبَ العالمِ. لا تظن أن معاشرات القديسين وحدها أو السُكنى في مواضعِ الصديقين فقط تنفعُك، بل ارفض جميعَ هذه الخرافات لأنه لا تؤخذ أُجرةُ المجاهدين لتُعطى للكسلان، لأن الأخَ لا يفدي فداءً. إذ يقول: إنك تجازي كلَّ واحدٍ حسب عملِهِ. فلا تتخلَّ عن كبيرةٍ ولا عن صغيرةٍ من جميعِ الوصايا. بل قم بجميعها بثباتٍ وإلا فالأفضل لك أن تقيمَ مع العلمانيين. لأن الرهبنةَ هي درجةُ الملائكةِ الذين لا يفترون لا ليلاً ولا نهاراً عن خدمةِ ملكِهم، فَمَن دخل فيها بانحلالٍ وكسلٍ، فقد صيَّر نفسَه أشقى حالاً مما لو كان بانحلالٍ في العالمِ. وإذ لبستَ إسكيمَ الرهبنة فلا تتعظَّم بل بالأكثر اتضع لأنك قد أخذت خاتمَ الجنديةِ للمسيحِ، وأخضِعْ عُنقَك

تحت نيره ولا تكن مقاوماً له ولا محارباً.

لا تَكسَل في الذهابِ إلى الكنيسةِ وقت الصلاةِ الجامعةِ وأَكمِل عبادَتَك لله بخوفٍ، وتأدَّب في صلاتِك ولتكن من كلِّ قلبِك وعقلِك. وإذا ضرب الناقوسُ في نصفِ الليل لا تَكسَل بل قم وصلِّ بحرص ولا تتلُ صلاتَك بفمِك وحدَه، بل ليكن فكرُك وعقلُك وجميعُ حواسِك متضرعةً لله وناظرةً إليه. وإذا مضيْت إلى الكنيسةِ فإياك أن تجلسَ عند البابِ وهم داخلون للصلاةِ. احفظ نفسَك وكن خائفاً من الله. وإذا أتاك أخٌ وكلَّمك فيما لا يجب فلا تخف البتة، بل اجعل نفسَك أخرسَ وأطرشَ ولا تسمع لقولِه ولا تَلُمهُ في قلبِك، بل كن مثلَ طفلٍ صغيرٍ لا يعرف شراً ولا شيئاً من المكرِ. إياك أن تُجيبَ أو تحدِّثَ أحداً حتى ولو كان بكلامٍ جيدٍ ما دمتَ في الكنيسةِ. وإذا خرجتَ إلى قلايتِك اهتم بقراءةِ الكتبِ الإلهية والصلاةِ ولا تتفرغ لشغلِ اليدِ وحده فتنسى الله خالقَك. إذا جلستَ على المائدةِ لتأكلَ مع الإخوةِ فلا تتحدث مع أحدٍ. وإن حدَّثوك فلا تُجبهم حتى تفرغَ من الأكلِ، واشكر الله سبحانه وتعالى على جميع أفعالِهِ وما أنعم به علينا بالرغم من عدمِ استحقاقنا. واندم على خطاياك واجعل قلبَك مع اللهِ في كلِّ وقتٍ لتستحقَ نعمتَه. إذا جلستَ في خِزانتِك فاقرأ بتعقُّلٍ وفهمٍ، وفكِّر في تمجيدِ اللهِ. وهكذا تفعل كلَّ أيامِ حياتِك أمام الله لتكون لك الطوبى أي الحظ الشريف مع القديسين. ومع هذا كلِّه عليك أن تتحققَ أنه لا يلبسُ الإكليلَ إلا من جاهد وصبر على الشدائد وغلب الأعداءَ وهزمهم، وظهرتْ شجاعتُه فيهم أمام الملكِ العظيمِ الربِّ يسوع المسيح، الذي استحققتَ أن تحاربَ من أجلِ اسمِهِ القدوس فتغلب كما غلب هو، إذ يساعدُك بقوّتِهِ العظيمة. لأنه قال: ها أنا معكم كلَّ الأيامِ إلى انقضاءِ الدهرِ له المجد، آمين».

مار إسحق

من قولِ مار إسحق: «الراهبُ هو إنسانٌ قد ترك العالَمَ بالكليةِ وكذلك بلدَه وأقاربَه وانتقل إلى الأديرةِ أو البراري، ليجلسَ في الهدوءِ ويعملَ بيدِهِ ويُقيتَ نفسَه ويعبدَ اللهَ ليلاً ونهاراً. وأما عملُه فهو: الصومُ من العشاءِ إلى العشاءِ، والسهرُ لنصفِ الليلِ، وصلواتٌ لا تنقطع ليلاً ونهاراً، وضربُ المطانيات والسجودُ وخدمةُ المزاميرِ وقراءةُ الكتبِ، والمسكنةُ والتجرد، والبعدُ عن كلِّ شَرَهٍ

ورغبةٍ، والزهدُ في كلِّ شيءٍ ما خلا الخبز والماء، والرقادُ على الأرضِ إلى وقتِ الشيخوخةِ إلا في حالةِ المرض، وثباتٌ داخل القلاية في الدير. ولغير سببٍ هام لا يخرجُ إلا للصلاةِ أو لأمرٍ ضروري للجميع. البكاءُ والنوحُ والتنهد. لبسُ المسوحِ. الرحمة، خدمة الغرباء، الطاعة لسيدنا بحفظ وصاياه. الخضوع للآباء، الاتضاع، تحقير نفسه في كل شيء، المحبة للرهبان. السكوتُ والصمتُ. اعتبار الراهب نفسه كلا شيءٍ. الامتناع من شربِ الخمرِ إلا في حالةِ مرضٍ أو واجب ضيافة، وهذا إذا ما عرض فلا يزيد عن ثلاثة أقداحٍ فقط لا غير. خدمةُ الضعفاءِ. عملُ اليدين. حفظُ الحواسِ، العفةُ، الاحتراسُ من طياشةِ الأفكارِ، الصبرُ، عدمُ الغضبِ. الصفحُ عمَّن يضرُّه أو يُحزنه. التعري من الآلام. الهذيذ في الصلواتِ. تضرُّع القلبِ. بسطُ اليدين نحو السماءِ. وباختصارٍ: النسكُ والتوبةُ ومحبةُ الأعمالِ مع بغضةِ الذاتِ، والوقوفُ بثباتٍ ليلاً ونهاراً مقابل الآلام والشياطين والعالم والنفسِ والجسدِ حتى الموت. هذا هو الراهبُ وهذه هي سيرتُه، وكلُّ راهبٍ لا يمارسُ كلَّ ذلك في ذاتِهِ فهو لا يزالُ في رتبةِ العلمانيين. طوبى للذين يحفظون ويعملون. لا تفتخر بالاسمِ بل اجتهد في الأعمالِ، لأن العملَ هو الذي يبررُ ولو كان بلا شكلٍ ولا اسمٍ».

وقال أيضاً: «طوبى لمن يغصِبَ نفسَه كلَّ أيامِ حياتهِ، لأنه من مزبلةِ الفقرِ يتكرَّم بجنسِ المملكةِ العظمى. طوبى لمن يغصِبَ نفسَه دائماً في طريقِ الله لأنه يصيرُ وهو من الجنسِ الحقيرِ مناسباً للجنسِ العظيمِ الشريفِ المعقول. التغصُّب هو مُغني الفقراء ومُكَرِّم المرذولين. التغصُّب هو مبدأ طريق الوحدةِ وبه يسعد النشطون في طريقِ ملكوت الله، فيتوَّجون بالتيجان من القوي القاهر. وإن كنتَ تسأل وتقول: إلى أين ولأيِّ حدٍ أغصِبُ ذاتي؟ فإني أقولُ لك: إلى حدِّ الموتِ اغصب ذاتَك من أجلِ الله. اغصب نفسَك في صلاةِ الليل وزدها مزاميرَ، لأن رجاءً عظيماً ومعونةً في الجهاد من أجل الله، له المجد إلى الأبد، آمين».

الأنبا أرسانيوس

جاء عن القديس أرسانيوس إنه كان من روميا العظمى، وكان من أفاضلِ فلاسفتِها. وكان والدُه من أكابرِ البلاطِ المقرَّبين إلى الملكِ. فلما ملك ثاؤدوسيوس أرسلَ إلى الملكِ والبابا بروما طالباً رجلاً فيلسوفاً يُحسن اللغتين الرومية واليونانية لكي يعلمَ أولادَه الحكمَةَ والأدبَ. فلم يجدوا في كلِّ فلاسفة روما رجلاً يشبه أرسانيوس في الحكمةِ والفضلِ ومخافةِ الله. فأرسلوه إلي الملكِ بالقسطنطينية، ففرح به الملك وأحبه لفيضِ معرفتِهِ، ولأجلِ نعمةِ الله التي كانت عليه، فسلَّم له الملكُ أولادَه وقدَّمه على أكابرِ مملكتِهِ. وكان إذا رَكِبَ يكونُ قريباً من الإمبراطور. وكان له أمرٌ نافذٌ وعبيدٌ كثيرون يقومون بخدمته. ولم يتخذ في بيتهِ امرأةً. فلما بلغ مركزاً عظيماً هكذا بدأ يفكر في نفسِهِ قائلاً: «إن كلَّ هذا لا بدَّ له من أن يتلاشى كما ينحلُّ المنامُ، وإن كلَّ غنى الدنيا ومجدِها وجاهِها عبارةٌ عن حلمٍ، ولا يوجد شيءٌ ثابتٌ غيرُ قابلٍ للتغيير، وأنه لا ينفعُ الإنسانَ إلا خيرٌ يقدمه قدامه». فزهدتْ نفسُه كلَّ شيءٍ، وصار يطلبُ من الله كلَّ وقتٍ قائلاً: «عرِّفني يا ربُّ كيف أخلُص». فجاءه يوماً صوتٌ يقول له: «يا أرساني اهرب من الناس وأنت تخلص». فقام لوقتِهِ وترك كلَّ شيءٍ ونزل إلى البحرِ فوجد سفينةً إسكندرية تريد السفرَ، فركب فيها وجاء بها إلى الإسكندرية، ومن هناك أتى إلى الإسقيط إلى الأب مقاريوس، ذاك الذي أسكنه في إحدى القلالي الخارجةِ عن الديرِ لأنه وجده عاشقاً للهدوءِ. وبعد حضورهِ بأيامٍ قلائل تنيَّح الأب مقاريوس. وقد بدأ أرسانيوس حياتَه الرهبانية بنسكٍ عظيمٍ وصلاةٍ وقداسةٍ وزهدٍ حتى فاق كثيرين. وسمع بفضلِهِ أولادُ أكابر القسطنطينية ودواقستها، وابتدأ كثيرون منهم يتزهدون ويجيئون إلى ديارِ مصر ويترهبون.

فسمعتْ بخبرِهِ عذراءُ من بناتِ رؤساءِ البلاطِ في روما. وكانت غنيةً جداً وخائفةً من الله، فلما جاءت لتُبصرَه ومعها مالٌ كثيرٌ وحشمٌ وجنودٌ، تلقاها البابا ثاؤفيلس البطريك بوقارٍ كثيرٍ وأضافها. فسألته أن يطلبَ إلى الشيخِ بأن يُفسِحَ لها الطريقَ للمضي إليه. فكتب يقول له: «إن السيدة لارية السقليكي ابنه فلان من بلاطِ ملكِ رومية تريدُ أن تأذنَ لها برؤيتِك لأخذِ بركتَك». وكتب كذلك لمقدمِ الأديرةِ بأن يُمكِّن السيدةَ السقليكي من زيارةِ الآباءِ القديسين وأخذ بركتهم. فلم يشأ الأنبا أرسانيوس أن تأتي إلى البريةِ، وأنفذ لها بركةً من عندِهِ وقال لها: «هو ذا قد علمتُ بتعبِك وسفرِك، ونحن مصلين لأجلِك. فلا تحضري لأني لا أشاءُ أن أُبصرَ وجهَ امرأةٍ». أما هي

فلم تقبل وقالت: «إن ثقتي باللهِ أن أُبصرَ وجهَك الملائكي، لأني ما تعبتُ وجئتُ لأنظرَ إنساناً، فبلدي كثيرةُ الناسِ، بل أتيتُ لأعاينَ ملاكاً». وأمرتْ أن يشدُّو على الدوابِ حتى أتت إلى البريةِ. فلما وصلت إليه كان القديسُ أرسانيوس خارجَ قلايته. فما أن أبصرته حتى خرَّت عند قدميهِ، فأقامها بغضبٍ وقال: «لقد آثرتِ أن تُبصري وجهي، وها أنت قد أبصرتِه فماذا استفدتِ»؟ أما هي فمِن حِشمتها لم تستطع النظرَ في وجههِ. فقال لها: «إذا سمعتِ بأعمالٍ فاضلةٍ فاعملي على أن تمارسيها ولا تجولي طالبةً فاعليها. كيف تجرأتِ فعبرتِ هذه البحار؟ أما تعلمين أنك امرأةٌ ولا يليقُ بك الخروج إلى مكانٍ ما. أتريدين المضي إلى رومية قائلةً للنساءِ الباقيات إنني رأيتُ أرساني، فتُحوِّلين البحرَ طريقاً للنساء ليأتوا إليَّ». فأجابته السيدةُ قائلة: «إني لإيماني يا أبي أتيتُ إليك وإن شاء اللهُ لن أَدَعَ امرأةً تأتي إليك، فصلِّ من أجلي واذكرني دائماً». فأجابها منتهراً قائلاً: «لا. بل إني أصلِّي إلى اللهِ أن يمحوَ خيالَكِ واسمَكِ وذِكرَكِ وفكرَكِ من قلبي». وتركها ودخل قلايته. فلما سمعت ذلك لم تَرُدَّ له جواباً ورجعت وهي قلقةُ الأفكارِ. ولما دخلت الإسكندرية اعترتها حمى لفرطِ حزنها. أما البابا البطريرك فإنه استقبلها بإكرامٍ جزيلٍ، وسألها عن أمرِها. فقالت: «يا أبتاه، ليتني ما قابلتُ الشيخَ لأني لما سألتُه أن يذكرَني أجابني: إني أصلِّي إلى الله أن يمحوَ خيالَكِ واسمَكِ وذِكرَكِ وفكرَكِ من قلبي. وهو ذا عبدتُك تموتُ من الحزنِ». فقال لها البابا البطريرك: «ألا تعلمينَ أنكِ امرأةٌ، وأن العدوَ يُقاتلُ الرهبانَ بالنساءِ. فإلى ذلك أشار الشيخُ. وأما عن نفسِك فهو يصلِّي دائماً وغيرُ ناسٍ تعبَك وسفرَك». فطاب قلبُها ورجعت إلى بلادِها مسرورةً.

جلس **الأب أرسانيوس** في بعضِ الأيامِ يأكلُ فولاً مسلوقاً مع الإخوةِ، وكانت عادتهم أن لا ينقُّوه. أما هو فكان يُنقِّي الفولَ الأبيضَ من بين الأسودِ والمسوِّس ويأكلُه. فلم يوافق رئيسُ الديرِ على ذلك، وخشي أن يَفسدَ نظامُ الديرِ. فاختار رئيسُ الديرِ أحدَ الإخوةِ وقال له: «احتمل ما أفعله بك من أجلِ الربِّ». فأجابه الأخُ: «أمرُكَ يا أبي». قال: «اجلس بجانب أرسانيوس ونقِّ الفولَ الأبيضَ وكُلْهُ». فعمل الأخُ كما أمره رئيسُ الديرِ، الذي فاجأهُ بلطمةٍ مُرَّةٍ على صدغِهِ وقال: «كيف تنقي الفولَ الأبيضَ لنفسِك وتترك الأسودَ لإخوتك»؟ فسجد أرسانيوس للرئيسِ وللإخوةِ وقال لذلك الأخ: «يا أخي، إن هذه اللطمةَ ليست لك ولكنها موجهةٌ لخَدِّ

أرسانيوس». وأردف قائلاً: «هوذا أرسانيوس معلمُ أولادِ الملوكِ اليونانيين لم يعرف كيف يأكلُ الفولَ مع رهبانِ إسقيطِ مصرَ، وهكذا ازداد فهماً واحتفاظاً بموهبتِهِ».

قيل إن أحدَ الإخوةِ المجاورين لقلاية أنبا أرساني خرج يوماً ليقطع خوصاً. وكان يوماً حرُّه شديدٌ. فلما قطع الخوصَ ورجع أراد أن يأكلَ، فلم يمكنه أن يبلعَ الخبزَ اليابسَ لأن الحرَّ كان قد يبَّس حلقَه. وفي ذلك الوقتِ كان الإخوة بالإسقيط يسلكون بتقشفٍ عظيمٍ ونسكٍ زائدٍ، فأخذ الأخُ وعاءً به ماء وأذاب فيه قليلاً من الملح، وبلَّ فيه الخبزَ وبدأ يأكلُ. فدخل إليه الأب إشعياء ليفتقِدَه، فلما أحسَّ الأخُ بالأنبا إشعياء رفع الوعاءَ وخبَّأه تحت الخوصِ. وكان أنبا إشعياء رجلاً ذكياً حاراً في الروحِ جداً. وكان يعلمُ بأن أنبا أرسانيوس يعمل صِنفَين من الطعامِ: بَقلاً وخلاً، ولكن لأجلِ احتشامِهِ لم يُرِدِ الآباءُ أن يكسروا قلبَه سريعاً. فوجد أنبا إشعياء أنها فرصةٌ مناسبةٌ لأن يؤدِّبَ أنبا أرسانيوس بواسطةِ هذا الأخ. فقال للأخِ: «ما هذا الذي خبأته مني»؟ فقال الأخُ: «اغفر لي يا أبي من أجلِ محبةِ السيد المسيح. لقد دخلتُ البرية لأقطعَ خوصاً فاشتدَّ عليّ الحرُّ جداً لدرجةِ أنه سدَّ حلقي. فلما دخلتُ القلايةَ أردتُ أن آكُلَ فلم أستطع بلعَ الخبزِ لجفافِ فمي وحلقي، فأخذتُ ماءً وأذبتُ فيه قليلاً من الملح وبللتُ به القراقيش ليَسهُلَ لي بلعه». فأخذ الأنبا إشعياء الوعاءَ وخرج ووضعه قدام قلاية أنبا أرسانيوس وقال للمراقب: «دُقَّ الجرسَ كي يحضرَ الإخوةُ ليبصروا الأخ زينون كيف يأكلُ مَرَقاً»، فلما حضروا التفتَ إلى الأخِ وقال له أمام الإخوةِ: «يا أخي، لقد تركتَ تنعمَك وكلَّ ما لك وجئتَ إلى الإسقيط حباً في الربِّ وفي خلاصِ نفسِك. فكيف تريدُ الآن أن تُلذِّذَ ذاتَك بالأطعمةِ؟ إن كنتَ تريدُ أن تأكلَ مَرَقاً امضِ إلى مصرَ لأنه لا يوجد في الإسقيط تنعمٌ». فلما سمع الأنبا أرسانيوس قال لنفسِهِ: «هذا الكلام موجَّهٌ إليك يا أرساني». وفي الحال أمر خادمَه أن يعملَ له بقولاً فقط. وقال: «ها أنا قد تأدبتُ بسائرِ حكمةِ اليونانيين أما حكمةُ هذا المصري بخصوصِ الأكلِ وحُسنِ تدبيرِه فإني لم أصل إليه بعد. لقد صدق الكتاب إذ يقول: وتأدَّب موسى بكلِّ حكمةِ المصريين».

قيل عن أنبا أرسانيوس إنه بعد ما هرب من القسطنطينية وأتى إلى الإسقيط كان يداوم الصلاةَ والتضرعَ إلى اللهِ أن يرشدَه إلى ما ينبغي له أن يعملَ وكيف يتدبَّر؟ وبعد مضي ثلاث سنين جاءه صوتٌ يقول له: «يا أرسانيوس الزم الهدوءَ والبعدَ عن الناسِ واصمت وأنت تخلص،

لأن هذه هي عروق عدم الخطية». فما أن سمعَ الصوتَ دفعةً ثانيةً حتى كان يهرُبُ من الإخوةِ ويُلزِمِ نفسَه الهدوءَ والصمتَ.

وقيل عنه: قَصَدَه الشياطين مرةً ليجرِّبوه. فلما جاءه الذين يخدمونه سمعوا صوتَه وهم خارج القلاية وهو يصرخُ إلى اللهِ ويقول: «يا ربُّ، لا تخذلني فإني ما صنعتُ قدامك شيئاً من الخيرِ. لكن هَبني من فضلِك أن أبدأ في عملِ الخيرِ».

وقيل عنه: «كما أنه لم يكن أحدٌ في البلاطِ الملكي يلبسُ أشرفَ من لبسِهِ، كذلك بعد خروجهِ إلى الرهبانيةِ لم يكن أحدٌ يلبسُ أحقرَ من لبسِهِ».

وقال عنه دانيال أحدُ تلاميذه: «إن مَئونتَه في السنةِ تليس قمح. وإذا جئنا إلى عندهِ كنا نأكلُ منها». وما كان يجدِّدُ ماءَ الخوصِ إلا دفعةً واحدةً في السنةِ، فكلما نَقُصَ الماءُ أضاف إليه قليلاً منه، وهكذا صارت له رائحةٌ كريهةٌ جداً ونتن لا يُطاق، وكان يعمل الضفيرةَ ويُخيِّط إلى ست ساعات. وحدث أن زاره الأب مقاريوس الإسكندري، فلما اشتمَّ الرائحةَ قال له: «يا أبانا أرسانيوس، لِمَ لا تغيِّر هذا الماء لأنه قد أنتن»؟ فأجابه أنبا أرسانيوس قائلاً: «الحق إني لا أستطيعُ أن أطيقها، لكني أكلِّف نفسي باحتمالِ هذه الروائح الكريهة وذلك عوض الروائح الذكية التي تلذَّذتُ بها في العالمِ». فلما سمع الإخوةُ الموجودون ذلك انتفعوا.

وقيل عنه: إنه إذا جلس يُضفِّر الخوصَ كان يأخذ خِرقةً ويضعها على ركبتيه لينشفَ بها الدموعَ التي كانت تتساقط من عينيه. وفي زمانِ الحرِّ كان يرطِّب الخوصَ بدموعهِ وهو يُضفِّر. ولما سمع الأنبا بيمين بنياحتِهِ تنهد وقال: «طوباك يا أنبا أرسانيوس، لأنك بكيتَ على نفسِك في هذا العالم. فإنَّ مَن لا يبكي على نفسِهِ ها هنا زماناً قليلاً، فسوف يبكي هناك زماناً طويلاً. فإن كان ها هنا بكاءٌ فبإرادتنا، وأما هناك فالبكاءُ من العذابِ. وعلى تلك الحالتين لن ننجوَ من البكاء. وعلى ذلك فما أجدا أن يبكي الإنسانُ على نفسِهِ ها هنا».

قيل: كان أنبا أرسانيوس دفعةً يسأل أحدَ الشيوخِ المصريين عن أفكارِهِ، فرآه شيخٌ آخر وقال له: «يا أبتاه أرسانيوس كيف وأنت المتأدّب بالرومية واليونانية تحتاج إلى أن تسألَ هذا المصري الأمي عن أفكارِك»؟ أجابه أنبا أرسانيوس قائلاً: «أما الأدب الرومي واليوناني فإني

عارفٌ به جيداً. أما ألفا فيتا التي أحسنها هذا المصري فإني إلى الآن لم أتعلَّمها»، وهو يقصدُ طريقَ الفضيلةِ.

قيل: «أتى ذات يومٍ البابا ثاؤفيلس البطريرك ومعه والي البلادِ إلى أنبا أرسانيوس وسألوه كلمةً، فسكت قليلاً ثم قال لهم: «إن قلتُ لكم شيئاً فهل تحفظونَه»؟ فلما ضَمِنَ له البابا البطريرك أمرَ حفظِهِ، قال لهم: «أينما سمعتم بأرساني فلا تدنوا منه».

وحدث مرة أن اشتهى البابا البطريرك أن يراه، فأرسل إليه يستأذنه إن كان يفتحُ له. فأجاب: «إن جئتَ فتحتُ لك، وإن فتحتُ لك فلن أستطيعَ أن أغلقَه في وجهِ أحدٍ. وإن أنا فتحتُ لكلِّ الناسِ فلن أستطيعَ الإقامةَ ها هنا». فلما سمع الأب البطريرك هذا الكلام قال: «إن مضينا إليه فكأننا نطردُه. فالأفضل ألا نمضي إليه».

وأيضاً سأله الأخُ أن يقولَ له كلمةً. فقال له الشيخُ: «جاهد بكل قوّتِك أن يكونَ عملُك الجواني باللهِ لتستطيعَ أن تغلبَ الأوجاعَ البرانية».

وقال آخر: «ماذا أصنعُ، فإن الأفكارَ تحزنني وتقول لي: إذا لم تستطع الصومَ أو العملَ فلا أقل من أن تذهبَ لافتقادِ المرضى، فهذه هي المحبةُ». فقال له الشيخُ: «امضِ وكُلْ واشرب وارقد ولا تخرج من قلايتك». لأن الشيخَ عرف أن الصبرَ في القلايةِ يردُّ الراهبَ إلى طقسِهِ. فذهب ذلك الأخُ إلى قلايته. فلما استمر ثلاثةَ أيامٍ كما أمره الشيخُ ضجر، فأخذ قليلاً من الخوصِ وشقّقه وبدأ يُضفِّرُ. فلما جاع قال لفكرِهِ: «لنفرغ من هذا الخوصِ القليل الذي معنا ثم نأكلُ». فلما فرغ من الخوصِ قال أيضاً: «لنقرأ في الإنجيلِ ثم بعد ذلك نأكلُ». فلما قرأ قال: «لأتلوَ مزاميري ثم بعد ذلك آكل بلا همٍّ». وهكذا قليلاً قليلاً بمعونةِ اللهِ كان يفعلُ حتى رجع إلى سيرتِهِ الأولى وأخذ سلطاناً على الأفكارِ وكان يغلبُها.

وسأله آخر: «لأيِّ شيءٍ أضجرُ إذا ما جلستُ في قلايتي»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «لأنك إلى الآن لم تبصر ولم تتيقن من نياح الآخرةِ ولا عذابها. لأنك لو تيقَّنتَ من ذلك حقاً وكانت قلايتُك مملوءةً دوداً وأنت غارقٌ فيه إلى عنقِك لما ضجرت بالمرةِ».

وسأله مرقس أحدُ تلاميذهِ مرةً قائلاً: «لماذا تهرب منا يا أبتاه»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «الله

يعلمُ إني أحبُكم، ولكني لا أستطيع أن أكونَ مع اللهِ ومع الناسِ. لأن ألوفَ الملائكةِ والربوات العلوية لهم إرادةٌ واحدةٌ، أما الناسُ فلهم إرادات كثيرة، وهكذا لا أستطيعُ أن أتركَ اللهَ وأصيرَ مع الناسِ».

وأيضاً قيل عنه: إنه كان يستمرُ الليلَ كلَّه ساهراً. فإذا كان الغد كان يرقد من أجلِ الطبيعةِ مستدعياً النوم قائلاً: «هلمَّ يا عبدَ السوءِ». وكان يغفو قليلاً وهو جالسٌ، ولوقتهِ يقوم، وكان يقولُ: «يكفي للراهب أن يرقدَ ساعةً واحدةً من الليلِ إن كان عمَّالاً».

جيء إلى الإسقيط مرةً بقليلٍ من التين، فاقتسمها الرهبانُ فيما بينهم. ولأجلِ أنه شيءٌ ضئيلٌ استحوا أن يرسلوا له منه شيئاً قليلاً وذلك لجلالِ منزلته. فلما سمع الشيخُ امتنع عن المجيء إلى الكنيسةِ وقال: «أفرزتموني من الإخوةِ، ولم تعطوني من البركةِ التي أرسلها الله كأني لستُ أهلاً لأن آخُذَ منها، ولوجهِ آخر نسيتموني بسبب كبريائي». فلما سمعت الجماعةُ انتفعوا من اتضاعِ الشيخِ وانطلق القسُّ وأتاه بنصيبٍ من التينِ، ففرح وجميعُهم سبَّحوا الله وجاء معهم إلى المجمع.

مرض الأنبا أرسانيوس مرةً واحتاج إلى شيءٍ قيمته خبزةً واحدةً، وإذ لم يكن له ما يشتري به، أخذ من إنسانٍ صدقةً وقال: «أشكرك يا إلهي يا من أهلتني لأن أقبلَ الصدقةَ من أجل اسمِك».

وقيل إن قلايته كانت على بعدِ اثنين وثلاثين ميلاً وما كان يأتي بسرعةٍ، وكان آخرون يهتمون به. فلما خرب الإسقيط خرج باكياً وقال: «أهلك العالَمُ رومية وأضاع الرهبانُ الإسقيط».

جاء دفعةً الأب أرسانيوس إلى ألكسندروس أحد تلاميذهِ وقال له: «إذا أنت شققتَ خوصَك، هلمَّ إلينا لنفطرَ، وإن أتوك غرباءُ فكُلْ معهم». فلما جاءت الساعةُ ولم يحضر لأنه لم يكن قد أتم تشقيق الخوصِ، فظن أنبا أرسانيوس أنه قد جاءه غرباءٌ فأكل معهم. ولما أتم ألكسندروس عملَه، أتى إليه، فقال له الشيخ: «هل كان عندك غرباء»؟ قال: «لا». فقال له: «فلماذا لم تأتِ بسرعةٍ»؟ فأجابه: «لأنك قلتَ لي إذا فرغتَ من تشقيقِ الخوصِ هلمَّ إليَّ، والساعةُ فقط أكملتُهُ». فتعجَّب الشيخُ من أقصى طاعتِهِ وقال: «قم أسرع وخذ طعامَك».

ومرةً أتى إلى مكانٍ به قصبٌ، فتحرَّكَ القصبُ من الريحِ، فقال الشيخُ للإخوة: «ما هذا الزلزال»؟ قالوا له: «إن هذا قصبٌ يا أبانا». فقال الشيخُ: «إن من كان جالساً في سكوتٍ وهدوءٍ وسمع صوتَ عصفورٍ فلن يكون لعقلِهِ نياحٌ. فكم بالحري إذا سمعتم هذا الزلزالَ من القصبِ».

ودفعةً أتى إليه رجلٌ يُدعى جسريانوس بوصيةٍ من رجلٍ شريف من جنسِهِ مات وأوصى له بمالٍ كثيرٍ جداً. فلما علم القديسُ بذلك همَّ بتمزيقِ الوصية، فوقع جسريانوس على قدميه وطلب إليه ألا يمزقها وإلا فرأسه عوضها. فقال له القديسُ: «أنا قد متُّ منذ زمانٍ، وذاك مات أيضاً». وبذلك صرفه ولم يأخذ منه ولا فلساً واحداً.

وقيل عنه: «إن أحداً لم يُدرك ولم يصل إلى معرفةِ كيف كان تدبيرُه وجهادُه».

وقيل عنه: «إنه في ليلةِ الأحدِ كان يخرجُ خارج قلايته ويقف تحت السماءِ ويجعلُ الشمسَ خلفه ويبسط يديه للصلاةِ حتى تسطع الشمسُ في وجهِهِ ثم يجلس».

قيل عن أرسانيوس وتادرس الفرمي إنهما كانا مُبغضَيْن للسُبح الباطلِ جداً أكثر من غيرهم من الناس. أما أنبا أرسانيوس فلم يكن يلتقي بالناسِ كيفما اتفق. وأما أنبا تادرس فإنه وإن كان يلتقي بهم لكنه كان يجوزُ بسرعةٍ كالرمحِ.

تحدَّث القديسُ أرسانيوس عن إنسانٍ وفي الحقيقةِ كان يتحدثُ عن نفسِهِ، فقال: «كان أحدُ الشيوخِ جالساً في قلايته متفكراً، فأتاه صوتٌ قائلاً: هلمَّ فأريكَ أعمالَ الناسِ. فنهض إلى خارجٍ فرأى رجلاً أسودَ يقطعُ حِملاً من الحطبِ، وبدأ يجرِّبُ إن كان يستطيعُ حملَه فلم يستطع. فبدلاً من أن يُنقص منه، قام وقطع حطباً وزاد عليه. وهكذا صنع مراراً كثيرةً. ثم أنه مشى قليلاً فرأى رجلاً آخر واقفاً على حافةِ بئرٍ يتناول منه الماءَ ويصبُّه في جرنٍ مثقوبٍ، فكان الماءُ يرجع إلى البئرِ ثانية. وجاز قليلاً فرأى رجلين راكبين فرسين حاملَيْن عموداً على المجانبةِ، كلٌّ من طرفٍ وسائرَيْن بعرضِ الطريق، فلم يتضع أحدُهما ليكونَ خلفَ الآخرِ فيُدخلان العمودَ طولياً. وعلى ذلك بقيا خارج الباب». وأردف قائلاً: «هؤلاء هم الحاملون نير ربنا يسوع المسيح بتشامخٍ ولم يتواضعوا أو يخضعوا لمن يهديهم. لذلك لم يستطيعوا الدخولَ إلى ملكوتِ السماوات. أما قاطعُ

الحطبِ فهو إنسانٌ كثيرُ الخطايا، فبدلاً من أن يتوبَ، يُزيد خطايا على خطاياه. وأما المستقي الماءَ فهو إنسانٌ يعملُ الصدقةَ من ظلمِ الناسِ فيَضيعُ عملُهُ».

قيل عن الأنبا أرسانيوس: أتى أناسٌ من الإسكندريةِ في بعضِ الأوقاتِ لينظروه، وكان أحدهم خال تيموثاوس بطريرك الإسكندرية، وكان الشيخُ في ذلك الوقت مريضاً. فلم يشأ أن يلقاهم لئلا يأتي آخرون فيسجسوه. وكان الشيخُ يسكنُ في طرواوس. فرجع الإخوةُ حزانى. فاتفق حضور البربر، فجاء وسكن في الأرض السفلى. فلما سمعوا عنه جاءوا إليه أيضاً ليبصروه فقبلهم بفرحٍ. فقالوا له: «هل عرفتَ يا أبانا أننا جئنا إلى طرواوس ولم تقبلنا»؟ فأجاب الشيخُ: «أنتم أكلتم خبزاً وشربتم ماءً. وأما أنا يا أولادي فما أكلتُ خبزاً ولا ذقتُ ماءً، بل كنتُ جالساً معذِّباً نفسي حتى علمتُ أنكم وصلتم إلى مواضعكم. لأن تعبَكم كان من أجلي، لكن الآن اغفروا لي»، فرجعوا مسرورين.

وحدث وهو في الإسقيط أن مرض فمضى القسيسُ وجاء به إلى الكنيسةِ ووضعه على فراشٍ صغير، ووضع تحت رأسهِ وسادةً من جلدِ الغنم. فلما جاء بعضُ الشيوخ ليفتقدوه ورأوا الفراشَ والوسادةَ قالوا: «أهذا هو أرسانيوس المتكئ على هذا الفراش»؟! فما كان من القسيس إلا أن يختلي بأحدهم ويسأله قائلاً: «ماذا كان عملُك في بلدتِك قبل أن تترهبن»؟ قال: «راعياً». قال له: «وكيف كان تدبيرُك في معيشتك»؟ أجابه: «تدبيرٌ كثيرُ المشقةِ والتعب». ثم سأله: «والآن كيف حالُك في قلايتك»؟ فأجابه: «بكلِّ ارتياحٍ، أفضلُ مما كنتُ في العالم». فقال له القسيس: «ألا تعلم أن أنبا أرسانيوس هذا كان في العالم أبَ الملوكِ. وكان له ألفُ غلامٍ من أصحابِ المناطق الموشاةِ بالذهبِ وأطواق اللؤلؤ. وكان له عبيدٌ وخدمٌ يقومون بخدمتهِ وهو جالسٌ على الكراسي الملوكية وتحته البرفير والحرير الخالص الملون. فأما أنت فقد كنت راعياً ولم يكن لك في العالم ما هو لك الآن من النياح. أما هذا فليس له شيءٌ من النعيمِ الذي كان له في العالم. فالآن أنت مرتاحٌ أما هو فمتعَبٌ». فلما سمع الشيخُ ذلك ندم وصنع مطانية قائلاً: «اغفر لي يا أبي فقد أخطأتُ. بالحقيقةِ هذا هو الراهبُ لأنه أتى إلى الاتضاع، وأما أنا فقد أتيتُ إلى نياحٍ»، وانصرف منتفعاً.

ودفعة أتاه أحدُ الإخوةِ وقرع بابَه، ففتح ظاناً أنه خادمه، فلما رآه أنه ليس هو وقع على

وجهِهِ. فقال له الأخُ: «قم يا أبي حتى أسلِّمَ عليك ولو على البابِ». فقال له الشيخُ: «لن أقومَ حتى تنصرفَ». وألح الأخُ في الطلبِ فلم يقُم. فتركه الأخُ وانصرف.

وحدث مرةً أن جاء أخٌ غريب إلى الإسقيط ليبصرَ الأنبا أرسانيوس، فأتى إلى الكنيسة وطلب من الإكليروس أن يروه له، فقالوا له: «كُلْ كِسرة خبزٍ وبعد ذلك تبصره». فقال: «لن أتذوقَ شيئاً حتى أبصره». فأرسلوا معه أخاً ليرشده إليه لأن قلايته كانت بعيدةً جداً. فلما قرع البابَ فتح له فدخل وصليا وجلسا صامتين. فقال الأخُ الذي من الكنيسةِ: «أنا منصرفٌ فصلِّيا من أجلي». أما الأخُ الغريبُ لما لم يجد له دالةً عند الشيخِ قال: «وأنا منصرفٌ معك كذلك». فخرجا معاً. فطلب إليه أن يمضي به إلى قلاية أنبا موسى الذي كان أولاً لصاً. فلما أتى إليه قبله بفرحٍ ونيح غربتَه وصرفه. فقال له الأخُ الذي أرشده: «ها قد أريتُك اليوناني والمصري، فمَن مِن الاثنين أرضاك»؟ أجابه قائلاً: «أما أنا فأقولُ إن المصري قد أرضاني». فلما سمع أحدُ الإخوةِ ذلك صلَّى إلى الله قائلاً: «يا ربُّ اكشف لي هذا الأمرَ، فإن قوماً يهربون من الناسِ من أجلِ اسمِك، وقوماً يقبلونهم من أجلِ اسمِك أيضاً. وألحَّ في الصلاةِ والطلبةِ، فتراءت له سفينتان عظيمتان في لُجَّةِ البحرِ. ورأى في إحداهما أنبا أرسانيوس وهو يسير سيراً هادئاً وروحُ الله معه. ورأى في الأخرى أنبا موسى وملائكةُ الله معه وهم يُطعمونه شهدَ العسلِ.

زاره مرةً بعضُ الشيوخِ وسألوه عن السكوتِ وعن قلةِ اللقاءِ، فقال لهم: «إن العذراءَ ما دامت في بيتِ والديها فكثيرون يريدون خطوبتها. فإن هي دخلت وخرجت فإنها لن تُرضي كلَّ الناسِ لأن بعضَهم يزدريها وبعضَهم يشتهيها، ولن تكون لها الكرامةُ إلا وهي مختفيةٌ في بيتِ أبيها. هكذا النفسُ الهادِئةُ المعتكفةُ، متى اشتُهِرت تبهدلت».

قال أنبا أرسانيوس هذا التعليمَ لتلاميذِهِ قبل نياحته: «ثلاثةُ أشياءٍ تكونُ من جودةِ العقلِ: الإيمانُ باللهِ والصبرُ على كلِّ محنةٍ وتعبُ الجسدِ حتى يُذَّل. وثلاثةُ أمورٍ يفرحُ بها العقلُ: تمييزُ الخيرِ من الشرِ والتفكر في الأمرِ قبل الإقدامِ عليه والبعدُ عن المكرِ. وثلاثةُ أشياءٍ يستنيرُ بها العقلُ: الإحسانُ إلى من أساء إليك، والصبرُ على ما ينالك من أعدائك، وتركُ النظرِ أو الحسد لمن يتقدمك في الدنيا. وستةُ أشياءٍ يتطهرُ بها العقلُ: الصمتُ، حفظُ الوصايا، الزهدُ في القوتِ، الثقةُ باللهِ في كلِّ الأمورِ مع ترك الاتكال على أيِّ رئيسٍ من رؤساء الدنيا، قمعُ القلبِ عن الفكرِ

الرديء وعدم استماع كلام الأغنياء والامتناع من النظر إلى النساء. وأربعةٌ تحفظُ النفسَ: الرحمةُ لجميعِ الناسِ، تركُ الغضب، الاحتمالُ، إخراج الذنب وطرحه من قلبك بالتسبيح. وأربعةٌ تحفظُ الشابَّ من الفكرِ الرديء: القراءةُ في كتبِ الوصايا، طرحُ الكسلِ، القيامُ في الليلِ للصلاةِ والابتهال، والتواضع دائماً. وثلاثةٌ تُظلم النفس: المشي في المدن والقرى، النظرُ إلى مجد العا لم، الاختلاطُ بالرؤساءِ في الدنيا. من أربعةِ أمورٍ تتولد للجسد النجاسةُ: الشبع من الطعامِ، السُكر من الشرابِ، وكثرة النوم، نظافةُ البدنِ بالماءِ والطيبِ وتعاهد ذلك كل وقت. وأربعةٌ تُعمي النفس: البغضةُ لأخيك، والازدراءُ بالمساكين خاصةً، الحسدُ، والوقيعةُ. وأربعةٌ يتولد عنها هلاكُ النفسِ وخسارتُها: الجوَلان من موضعٍ إلى موضعٍ، محبةُ الاجتماعِ بأهلِ الدنيا، الإكثارُ من الترفِ والبذخِ، كثرةُ الحقدِ في القلبِ. من أربعةِ أمورٍ يتولد الغضبُ: المعاملةُ، المساومةُ، الانفرادُ برأيك فيما تهواه نفسُك، عِدولك عن مشورةِ الآخرين واتِّباع شهواتك. وثلاثةٌ إذا عَمل بها الإنسانُ يسكنُ في الملكوتِ: الحزنُ والتنهدُ دائماً، البكاءُ على الذنوبِ والآثامِ، وانتظارُ الموتِ في كلِّ يومٍ وساعةٍ. وثلاثةٌ تحاربُ العقلَ: الغفلةُ، الكسلُ، وتركُ الصلاةِ».

ولما قَرُبَ وقتُ نياحته دعا تلاميذَه وعزَّاهم ووعظهم وقال لهم: «اعلموا أن زماني قد قَرُبَ، فلا تهتموا بشيءٍ سوى خلاصِ نفوسِكم ولا تنزعجوا بالنحيبِ عليَّ. ها أنذا واقفٌ معكم أمام مِنبرِ المسيحِ المهاب، فإذا جاءت الساعةُ رجائي ألا تُعطوا جسدي لأحدٍ من الناسِ». فقالوا له: «فماذا نصنعُ لأننا لا نعرف كيف نكفِّنه»؟ فقال لهم الشيخُ: «أما تعرفون كيف تربطون رجليَّ بحبلٍ وتجرونني إلى الجبلِ لتنتفعَ به الوحوشُ والطيورُ». وكان الشيخُ يقول لنفسِه دائماً: «أرساني أرساني تأمَّل فيما خرجتَ لأجلِهِ».

وقال: «كثيراً ما تكلمتُ وندمتُ، وأما عن السكوتِ ما ندمتُ قط».

ولما دنت نياحته نظروه يبكي فقالوا له: «يا أبانا أتفزع أنت أيضاً»؟ أجابهم قائلاً: «إن فزعَ هذه الساعةِ ملازمٌ لي منذ جئتُ إلى الرهبنةِ». وهكذا رقدَ ودموعُه تسيلُ من عينيهِ. فبكى تلاميذُه بكاءً مُرّاً وصاروا يقبِّلون قدميه ويودِّعونه كإنسانٍ غريبٍ يريدُ السفرَ إلى بلدهِ الحقيقي.

وقد أخبر عنه دانيال تلميذُه فقال: «إنه ما طلب قط أن يتكلمَ من كتابٍ، بل كان يصلِّي

من أجلِ ذلك لو أرادَ. وما كان يكتبُ رسالةً. ولما كان يأتي إلى الكنيسةِ كان يقفُ خلفَ العمودِ لئلا يبصرَ إنسانٌ وجهَه. وما كان ينظرُ إلى وجهِ إنسانٍ. وكان منظرُه يشبه منظرَ ملاكٍ. وكان كاملاً في الشيخوخةِ وصحيحَ الجسمِ مبتسماً. وكانت لحيتُه تصلُ إلى بطنِه، وكان شعرُ جفونِه يتساقط من كثرةِ البكاءِ. وكان طويلَ القامةِ، لكنه انحنى أخيراً من الشيخوخةِ. وبلغ من العمرِ سبعاً وتسعين سنةً، أربعون سنةً منها حتى خروجِه من بلاطِ الملك، وباقيها في الرهبنةِ والوحدةِ. وكان رجلاً صالحاً مملوءاً من الروحِ القدس والإيمان. وقد ترك لي ثوباً من الجلدِ وقميصاً من الشعرِ ونعالاً من ليفٍ، وبهذه الأشياءِ كنتُ أنا غيرُ المستحق أتبارك بها».

قيل عن البابا ثاؤفيلس البطريرك لما حضرته الوفاة، قال: «طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك لهذه الساعةِ كنتَ تبكي كلَّ أيامِ حياتك».

مار إسحق

من قول مار إسحق: مثلُ المصوِّرِ الذي يصوِّر الماءَ في الحائطِ، ولا يقدرُ ذلك الماءُ المرسوم أن يبرِّد عطشَه، وكمثلِ المرءِ الذي ينظرُ الأحلامَ، كذلك الإنسانُ الذي يتكلمُ من غيرِ عملٍ. أما الذي من اختباراتِهِ يتكلمُ عن الفضائلِ فيكون مثل ذلك الذي من بضاعةِ تجارتِهِ يُلقي كلمتَه لسامعيه، ومن الشيءِ الذي اقتناه في نفسِه يزرعُ التعليمَ في آذانِ السامعين، ويفتحُ فَمَه بدالةٍ مع بنيه الروحانيين. وذلك كموقفِ يعقوب الشيخ مع يوسف العفيف إذ قال له: هو ذا قد أعطيتُك نصيباً فاضلاً عن إخوتك وهو ما اكتسبتُه من الأموريين بسيفي وقوسي.

كلُّ إنسانٍ تدبيرُه رديءٌ، حياةُ هذا العالمِ عنده شهيةٌ. ويَلي ذلك قليلُ المعرفةِ. حقاً لقد قيل إن مخافةَ الموتِ ترُعب الرجلَ الناقصَ، أما الذي له في نفسِه شهادةٌ صالحةٌ فإنه يشتهي الموتَ كالحياةِ. لا يُعتبر عندك حكيماً ذاك الذي من أجلِ حياةِ هذا العالمِ يستعبدُه فكرُه للأرضيات. كلُّ الملذاتِ والشرور التي تعرضُ للجسدِ لتكن عندك شبهَ الأحلامِ، لأنه ليس بموتِ الجسدِ فقط تنحلُّ منها بل كثيراً ما يمكنك رفضها والهروب منها قبل الموتِ. فإن كان لك منها شيءٌ مشتركٌ في نفسِك فاعلم أنه مكنوزٌ لك إلى الأبدِ. لأنها تذهبُ معك إلى العالمِ العتيد. فإن

كان ما اكتنزتَه من الطالحاتِ الرديئاتِ فاحزن وتنهد واطلب الابتعادَ عنها ما دمتَ في الجسدِ. ليكن معلوماً عندك أن كلَّ خيرٍ لن يكونَ مقبولاً إلا إذا عُمل في الخفاءِ. بالحقيقةِ إن المعموديةَ والإيمانَ هما أساسُ كلِّ خيرٍ، فبهما دُعيتَ ليسوعَ المسيحِ بالأعمالِ الصالحةِ. شُكر الذي يأخذُ يحرِّكُ الذي يعطي إلى بذلِ العطايا التي هي أعظمُ من الأوائل. مَن لا يشكرُ على القليلِ فهو كاذبٌ وظالمٌ إن قال إنه يشكرُ على الكثيرِ.

المريضُ الذي يعترفُ بمرضِهِ شفاؤه هين. كذلك الذي يُقرُّ بأوجاعِه فهو قريبٌ من البَرْءِ. أما القلبُ القاسي فتكثُر أوجاعُه. والمريضُ الذي يُخالفُ الطبيبَ يَزيدُ عذابُه. ليست خطيةٌ بلا مغفرةٍ إلا التي بلا توبة. وليست موهبةٌ بلا نموٍ وازديادٍ إلا التي ينقصها الشكرُ. الجاهلُ جزاؤه دائماً في عينيه صغيرٌ. تذكَّر الذين هم أعلى منك في الصلاحِ كي ما تَحسب نفسَك ناقصاً بالنسبةِ لهم. تأمَّل دائماً في البلايا الصعبةِ وفي الذين هم في شدةٍ ومذلَّةٍ، وبهذا التأمُّل يمكنك أن تقدمَ الشكرَ إزاء البلايا الصغيرةِ التي تنتابُك، وحينئذ تستطيع أن تصبرَ عليها بفرحٍ. في الوقتِ الذي تكون مغلوباً مقهوراً وفي مللٍ وكسلٍ، وقد قيَّدك عدوك بسماجةِ فعلِ الخطيةِ، اذكر الأوقات القديمة التي فيها تنشطَّت، وكيف كنتَ مهتماً حتى بصغائرِ الأمورِ، وكيف كنتَ تتحرك بالغيرةِ على الذين يعوِّقون مصيرك. وتنهَّد على أقلِ شيءٍ فاتك من عملِ الفضائلِ. وكذلك اذكر كيف كنتَ تحظى بإكليلِ الغلبةِ على الأعداءِ. فبمثل هذه التذكارات تتيقَّظ نفسُك كمثلِ مَن في نومٍ عميقٍ وتلبس حرارةَ الغيرةِ. وكمثل مَن في الموتِ تقومُ النفسُ من سقطتِها وتصلب ذاتَها كي تعودَ إلى طقسِها الأول بالجهادِ الحارِ قبالةِ الشيطانِ والخطيةِ. اذكر كيف سقطَ الأقوياءُ لكي ما تتَّضع بصلاحِك. اذكر عِظمَ خطايا القدماءِ الذين سقطوا ثم تابوا ومقدار الشرف والكرامة اللذين نالوهما من التوبةِ بعد ذلك لكي ما تتعزى في توبتِك. كن مضيِّقاً على نفسِك ومحزناً لها لكي ما يُطرد العدو من أمامِك. اصطلح أنت مع نفسِك فتصطلح معك السماءُ والأرضُ.

محبُ الصلاحِ هو الذي يحتملُ البلايا بفرحٍ. استر على الخاطئ من غير أن تَنْفِر منه لكي ما تحملك رحمةُ الربِّ. اسند الضعفاء وعزِّ صغيري النفوس كي ما تسندَك اليمينُ التي تحملُ الكلَّ. شارك الحزانى بتوجعِ قلبِك كي يُفتح بابُ الرحمةِ لصلاتِك. دع الصغارَ تنال الكبارَ. كن ميتاً بالحياةِ لا حياً بالموتِ. لا تطلب الأمورَ الحقيرةَ من العظيمِ القادرِ على كلِّ شيءٍ لئلا تهينَه.

اسأل المواهبَ الكريمةَ من الله فيُنعم عليك بها. لقد سأل سليمان من الله الحكمةَ فأعطاه معها الغنى ودوامَ السلامةِ، وسأل إسرائيل الحقيرات فرُذل لأنه ترك تمجيدَ عجائبِ الله وطلب شهوةَ بطنِهِ، وإذ الطعامُ في أفواهِهم أتى رِجزُ الله عليهم كما هو مكتوبٌ. اطلب من الله ما يلائم مجدَه لتكونَ كريماً عنده، ولا تسأل الأرضيات من السمائي فقد كُتب: اطلبوا ملكوتَ الله وبرَّه وهذا كلُّه تزدادونه. لا تسأل أن تجري الأمورُ حسب هواك لأنه أعرف منك بالأصلحِ لك. لا تكره الشدائدَ فباحتمالها تنال الكرامةَ وبها تقترب إلى الله، لأن النياحَ الإلهي كائنٌ داخلها. قبل البلايا يُصلِّي الإنسانُ للهِ كغريبٍ، فإذا قبِلها من أجلِ حبِ الله، حينئذ يصيرُ من أحبائِه وخواصهِ المحاربين لعدوه حباً في رضاه، ويُصبح كمن وجب حقهُ عليه.

توكَّل على اللهِ وسلِّم نفسَك له وادخل من البابِ الضيقِ وسِر في الطريقِ الكربةِ. فذاك الذي كان مع يوسف ونجاه من الزانيةِ وجعله شاهداً للعفةِ، والذي كان مع دانيال في الجبِّ ونجاه من الأسودِ، والذي كان مع الفتيةِ ونجاهم من أتونِ النارِ، والذي كان مع إرميا وأصعده من جبِّ الحمأةِ، والذي كان مع بطرس وأخرجه من السجنِ، والذي كان مع بولس وخلَّصه من مجامعِ اليهودِ... وبالجملةِ فإن الذي كان في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ مع عبيدِهِ في شدائدهم ونجاهم وأظهرَ فيهم قوَّته، هو يكونُ معك ويحفظك. فخذ لك يا حبيب غيرةَ الأنبياءِ والرسلِ والشهداءِ والقديسين قبالة الأعداءِ الخفيين، واقتنِ غيرةَ الذين ثبتوا قائمين في النواميسِ الإلهية، فطرحوا الدنيا وأجسادَهم إلى ورائهم وتمسكوا بالحقِّ فلم يُهزموا في الشدائدِ التي انتابتهم في أنفسِهم وأجسادِهم، إذ فازوا بالقوةِ الإلهية وكُتبوا في سفرِ الحياةِ، وأُعدت لهم ملكوتُ السماوات التي نؤهَّل لها كلُّنا برأفتِهِ وتحننهِ تعالى. له المجد إلى الأبد، آمين».

ومن كلامهِ أيضاً: النفسُ المحبةُ للهِ سعادتُها في اللهِ وحده. حِلَّ قلبَك من الرباطاتِ البرانية أولاً، حينئذ تقدر أن تربطَه بحبِ الله. مَن لم يفطم نفسَه من حبِّ الدنيا لا يستطيع أن يتذوَّق حلاوةَ محبةِ اللهِ. إن الأعمالَ الروحانية تتولَّد من الأعمالِ النفسانية، والأعمالُ النفسانية تتولَّدُ من الجَسَدَانية. مَن يهرب من سُبح العالم بمعرفةٍ فإنه يكتنز في نفسِه رجاءَ العالمِ العتيد. الذي يفرُّ من نياحِ الدنيا فقد أدرك بعقلِه السعادةَ الأبدية. المرتبطُ بالمقتنيات والملذَّات فهو عبدٌ للأوجاعِ الذميمةِ. بالإيمان يُدرِكُ العقلُ الأسرارَ الخفيةَ كما يُدرك البصرُ المحسوسات. المعموديةُ هي الولادةُ

الأولى من اللهِ. والتوبةُ هي الولادةُ الثانية كذلك. الأمر الذي نلنا عربونَه بالإيمانِ، بالتوبةِ نأخذُ موهبتَه. التوبةُ هي بابُ الرحمةِ المفتوح للذين يريدونه. وبغير هذا الباب لا يدخلُ أحدٌ إلى الحياةِ، لأن الكلَّ أخطئُوا كما قال الرسولُ. وبالنعمةِ نتبرَّر مجاناً. فالتوبةُ إذاً هي النعمةُ الثانيةُ وهي تتولَّد في القلبِ من الإيمانِ والمخافةِ. والمخافةُ هي عصا الآب التي تسوقُنا إلى محبةِ اللهِ. فإذا أدركناها تركتْنا ورجعتْ. محبةُ اللهِ هي فردوس كلِّ النعيمِ الذي فيه شجرةُ الحياةِ وما لم يخطر على قلبِ بشرٍ. فمن يدركه لا يموت، لأنه يغتذي بلا تعبٍ من الخبزِ الذي نزل من السماءِ الذي يهبُ الحياةَ للعالمِ. فمن عاش في هوى حبِ المسيح فقد استنشق من ها هنا نسيمَ نعيمِ الأبرارِ بعد القيامةِ. الحبُّ هو هذا الملك المعدُّ الذي وَعَدَ به السيدُ المسيح لمحبيه. والحبُّ هو المسيح. لأن الرسولَ يقول: إن اللهَ محبةٌ. وكما أنه لا يمكن عبورُ النهرِ بلا سفينةٍ، كذلك لا يمكن لأحدٍ أن يعبرَ إلى حبِّ الله بغير خوفِ الله. لأن التوبةَ هي السفينةُ، والمخافةُ هي مدبِّرُها، والمحبةُ هي ميناءُ السلامةِ والكرامةِ، حيث يلقَى المتعَبون راحتهم، والعمَّالون المجاهدون نياحَهم، والتجارُ ربحَهم، حيث هناك الآب والابن والروح القدس الإله الواحد له المجد.

ومن كلامهِ أيضاً: طوبى للإنسانِ الذي يعرفُ ضعفَه، فإن هذه المعرفةَ تكونُ له أساساً صالحاً ومصدراً لكلِّ خيرٍ. لأنه إذا عرفَ ضعفَه ضبطَ نفسَه من الاسترخاءِ وطَلَبَ معونةَ الله وتوكَّل عليه. أما من لا يعرف ضعفَه فهو قريبٌ من سقطةِ الكبرياءِ، وبلا اتضاعٍ لا يتمُّ عملُ العابدِ. ومن لا يَتِمُّ عملُهُ لا يُختَمُ كتابُ حريتِهِ بخاتمِ الروحِ. ومن لا يُختمُ كتابُ حريتِهِ بخاتمِ الروحِ فإنه يكون عبداً للأوجاعِ ولا يتضع إلا بالبلايا. ومن أجل ذلك يتركُ اللهُ البلايا والتجارب على محبي البرِّ حتى يعرفوا ضعفَهم، إذ أن البلايا تولِّد الاتضاع. وربما كَسَرَ قلبَهم بأوجاعٍ طبيعيةٍ، وربما بشتيمةِ الناسِ لهم وامتهانِهم، وأحياناً بالفقرِ والمرضِ والاحتياجِ. وأحياناً أخرى بالخذلانِ ليأتي عليهم الشيطانُ بأفكارٍ قذرة، وكل ذلك عساهم يحسُّون بضعفِهم فيتضعوا حتى لا يعبر بهم نعاسُ الغفلةِ. فينبغي لكلِّ إنسانٍ إذاً أن يتيقَّظَ دائماً ويفكرَ في أنه مخلوقٌ، وكلُّ مخلوقٍ محتاجٌ إلى معونةِ خالقِهِ، فيطلب حاجَتَه ممن هو عارف تماماً بما يحتاجُ إليه، فهو قادرٌ أن يعطيه احتياجاته. له المجد إلى الأبد، آمين.

الأنبا أغاثون

قيل عن القديس الكبير أنبا أغاثون: إن أناساً مضوْا إليه لما سمعوا بعظمِ إفرازِهِ وكثرةِ دعته. فأرادوا أن يجرِّبوه فقالوا له: «أأنت هو أغاثون الذي نسمعُ عنك أنك متعظمٌ»؟ فقال: «نعم، الأمرُ هو كذلك كما تقولون». فقالوا له: «أأنت أغاثون المهذار المحتال»؟ قال لهم: «نعم أنا هو». قالوا له: «أأنت أغاثون المهرطق»؟ فأجاب: «حاشا وكلا، إني لستُ مهرطقاً». فسألوه قائلين: «لماذا احتملتَ جميعَ ما قلناه لك ولم تحتمل هذه الكلمة»؟ فأجابهم قائلاً: «إن جميعَ ما تكلمتم به عليَّ قد اعتبرتُه لنفسي ربحاً ومنفعةً إلا الهرطقة، لأنها بعدٌ من اللهِ، وأنا لا أشاءُ البعدَ عنه». فلما سمعوا عجبوا من إفرازِهِ ومضوْا منتفعين.

جاءه أخٌ مرةً وقال: «يا أبي أريدُ أن أسكنَ مع أخٍ، فارسِم لي كيف أقيمُ معه»؟ فقال له الشيخُ: «كن معه دائماً كمثلِ اليومِ الذي بدأتَ سكناك عنده. واحفظ غربتَك هكذا كلَّ أيامِ حياتِك، وإياك أن تكون بينكما دالةٌ». فقال له الأخُ: «ولماذا نتحاشى الدالةَ»؟ أجابه الشيخُ: «إن الدالةَ تشبه ريحَ السمومِ. عند هبوبها يهربُ الناسُ جميعاً من أمامِها وهي تُهلك ثمارَ الأشجارِ». فقال الأخُ: «أبهذا المقدارِ تكون الدالةُ رديئةً»؟ أجابه أنبا أغاثون: «لا يوجد وجعٌ آخر أردأ منها، لأنها مصدرُ كلِّ الأوجاعِ. لذلك يجبُ على الراهبِ الحريص أن لا تكونَ له دالةٌ حتى ولا على القلاية ولو كان وحيداً فيها. لأني رأيتُ أخاً يسكنُ في قلايةٍ زماناً، وكان له فيها مضجعٌ، وقال لي: إني خرجتُ من القلاية، ولما عدتُ إليها لم أعرف المضجعَ لو لم يدلُّني آخر عليه.. وهكذا يجبُ أن يكونَ العمَّالُ المجاهدُ».

وقال أيضاً: إن الدلالَ والمزاحَ والضحكَ أمورٌ تُشبه ناراً تشتعلُ في قصبٍ فتُحرقُ وتُهلكُ.

وقال أيضاً: إن الراهبَ هو ذلك الإنسانُ الذي لا يَدَعُ ضميرَه يلومُهُ في أمرٍ من الأمورِ.

وقال أيضاً: بدونِ حفظِ الوصايا الإلهية لا يستطيعُ أحدٌ أن يقتربَ إلى واحدةٍ من الفضائلِ.

وقال أيضاً: ما رقدتُ قط وأنا حاقدٌ على إنسانٍ، ولا تركتُ إنساناً يرقدُ وهو حاقدٌ عليَّ

حسب طاقتي.

وقيل عنه: إنه مكث زماناً يبني مع تلاميذهِ قلايةً، فلما تمت وجلسوا فيها ظهر له في الأسبوعِ الأولِ أمرٌ ضايقه. فقال لتلاميذه: «هيا بنا ننصرفُ من هنا». فانزعجوا جداً قائلين: «حيث إنك كنتَ عازماً على الانصرافِ فلماذا تعبنا في بناءِ القلايةِ؟ ألا يصبح من حقِّ الناسِ الآن أن يشكُّوا قائلين: إن هؤلاءَ القومِ لا ثبات لهم»؟ فلما رآهم صغيري النفوس هكذا، قال لهم: «إن شكَّ قليلون منهم فكثيرون سوف ينتفعون ويقولون: طوبى لأولئك الذين من أجلِ الربِّ انتقلوا واختبروا كلَّ شيء. فمن أراد منكم أن يتبعني فليجئ لأني قد اعتزمتُ نهائياً على الانصرافِ». فما كان منهم إلا أن طرحوا أنفسَهم على الأرضِ طالبين إليه أن يأذنَ لهم بالمسيرِ معه.

وقيل عنه أيضاً: إنه لما كان ينتقلُ، ما كان يرافقُه أحدٌ سوى الجريدةِ التي كان يشقُّ بها الخوصَ لا غير.

وسُئل مرةً: «أيهما أعظمُ؛ تعبُ الجسدِ أم الاحتفاظُ بما هو من داخلِهِ»؟ فأجاب وقال: «إن الإنسانَ يشبه شجرةً، فتعبُ الجسدِ هو الورقُ، أما المحافظةُ على ما هو من داخلٍ فهي الثمرةُ، لذلك فكلُّ شجرةٍ لا تُثمرُ ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النيرانِ. فلنحرص على الثمرةِ التي هي حفظُ العقلِ، كما يحتاجُ الأمرُ أيضاً إلى الورقِ الذي يغطي الثمرةَ ويزينها، وما الورقُ إلا تعبُ الجسدِ كما ذكرنا».

سأل بعضُ الإخوةِ الأنبا أغاثون قائلين: «أيُّ فضيلةٍ أعظمُ في الجهادِ»؟ فقال: «اغفروا لي، ليس جهادٌ أعظمَ من أن نصلي دائماً للهِ، لأن الإنسانَ إذا أراد أن يصلي كلَّ حين حاول الشياطين أن يمنعوه. لأنهم يعلمون بأن لا شيءَ يُبطل قوّتهم سوى الصلاةِ أمام اللهِ. كلُّ جهادٍ يبذُلُه الإنسانُ في الحياةِ ويتعبُ فيه لا بدَّ أن يحصدَ منه الراحةَ أخيراً. إلا الصلاة فإن من يصلي يحتاجُ دائماً إلى جهادٍ حتى آخرِ نسمةٍ».

كان أغاثون القديسُ حكيماً في معرفتِهِ، بسيطاً في جسمِهِ وكُفئاً في كلِّ الأمورِ، في عملِ اليدين وفي طعامِه وفي لبسِه. فقد حدث مرةً بينما كان سائراً مع تلاميذِه؛ أن وَجدَ أحدُهم

جُلْباناً أخضرَ في الطريقِ (أي حمص أخضر). فقال له: «يا معلم هل تأذن لي أن آخذَه»؟ فنظر إليه الشيخُ متأملاً وقال: «هل أنت تركتَه»؟ فقال: «لا». فقال له الشيخُ: «وكيف تأخذ شيئاً ليس لك»؟

أتاه أخٌ مرةً يريدُ السكنى معه، وقد أحضر معه قليلاً من النطرون وجده في الطريقِ أثناء مجيئهِ. فلما رآه الشيخُ قال له: «من أين لك هذا النطرون»؟ قال له الأخُ: «قد وجدتُه في الطريقِ وأنا سائرٌ». فأجابه الشيخُ قائلاً: «إن كنتَ تشاءُ السُكنى مع أغاثون امضِ إلى حيث وجدتَه وهناك ضعه».

قيل عن الأنبا أغاثون والأنبا آمون: إنهما لما كانا يبيعان عملَ أيديهِما كانا يقولان الثمنَ مرةً واحدةً، وما كان يُعطى لهما كانا يأخذانه بسكوتٍ. كذلك إذا احتاجا لشيءٍ يشتريانه كانا يقدمان المطلوب بسكوتٍ ولا يتكلمان.

أخبروا عن الأنبا أغاثون: إنه وضعَ في فمِهِ حجراً ثلاثَ سنين حتى أتقنَ السكوتَ.

وقد كان يقول: «لو أن الغضوبَ أقامَ أمواتاً فما هو بمقبولٍ عندِ اللهِ. ولن يُقبِل إليه أحدٌ من الناسِ».

وقال أيضاً: «إن أنا ربحتُ أخي فقد قدمتُ قرباناً».

وسأله الإخوة بخصوصِ قتالِ الزنى فقال: «امضوا واطرحوا ضعفَكم قدامَ اللهِ فتجدوا راحةً».

وقال أنبا يوسف مرةً بخصوصِ المحبةِ: إن أخاً جاء إلى أنبا أغاثون فوجد معه مَسلَّة خياطة، فأُعجب الأخُ بها لأنها كانت جيدةً، فما كان من الشيخِ إلا أنه لم يتركه يمضي إلا بها.

مضى الأب أغاثون مرةً ليبيعَ عملَ يديه، فوجد إنساناً غريباً مطروحاً عليلاً وليس له من يهتمُ به. فحمله وأجّر له بيتاً وأقام معه يخدمُه ويعملُ بيديه ويدفعُ أجرةَ المسكنِ وينفقُ على العليلِ مدة أربعة أشهر حتى شُفي. وبعد ذلك انطلق إلى البريةِ. وكان يقولُ: «كنتُ أشاءُ لو وجدتُ رجلاً مجذوماً يأخذ جسدي ويعطيني جسدَه».

قيل عنه إنه كان يَحرِصُ على إتمامِ كلِّ الوصايا، ولما كان يعبُرُ النهرَ كان يُمسِكُ المجدافَ بنفسِه. وإذا رافق أخاً كان يهيئُ بنفسِه المائدةَ لأنه كان مملوءاً حلاوةً ومحبةً ونشاطاً.

حدث مرةً أن مضى إلى المدينةِ ليبيعَ عملَ يديه، فوجد إنساناً مجذوماً على الطريقِ، فقال له المجذومُ: «إلى أين تذهبُ»؟ قال له: «إلى المدينةِ». فقال له المجذومُ: «اصنع معي رحمةً وخذني معك». فحمله وأتي به إلى المدينةِ. ثم قال له المجذومُ: «خذني إلى حيث تبيعُ عملَ يديك»، فأخذه. ولما باع عملَ يديه سأله المجذومُ: «بكم بعتَ»؟ فقال: «بكذا وكذا». فقال له المجذومُ: «اشترِ لي شبكةً». فاشترى له. ومضى وباع ثم عاد وقال له المجذومُ: «بكم بعتَ»؟ فقال: «بكذا وكذا». فقال له المجذومُ: «خذ لي كذا وكذا من الأطعمةِ»، فأخذ له. ولما أراد المضي إلى قلايتهِ قال له المجذومُ: «خذني إلى الموضعِ الذي وجدتني فيه أولاً». فحمله وردَّه إليه. فقال له الرجلُ: «مباركٌ أنت من الربِ إلهِنا الذي خلق السماءَ والأرضَ». فرفع أنبا أغاثون عينيه فلم يره لأنه كان ملاكَ الربِّ أُرسِل إليه ليجربَه.

وقيل عنه: إنه كان إذا تصرّف في أمرٍ وأخذ فكرُه يلومُه، فكان يخاطبُ نفسَه قائلاً: «يا أغاثون، لا تفعل أنت هكذا مرةً أخرى»، وبذلك كان يُسكِّن قلبَه.

وقال أيضاً: «إن كان أحدٌ يحبني وأنا أحبه للغايةِ، وعلمتُ أنه قد لحقني نقيصةٌ بسببِ محبتهِ فإني أقطعه مني وأنقطع منه بالكليةِ».

وقيل أيضاً: لما كان الأب أغاثون عتيداً أن ينطلقَ إلى الربِّ، مكث ثلاثةَ أيامٍ وعيناه مفتوحتان لا يتحرك. فأقامه الإخوةُ وقالوا له: «يا أبانا أنبا أغاثون: أين أنت»؟ فقال: «أمام مجلسِ قضاءِ الله أنا واقفٌ». فقالوا له: «أتفزع أنت أيضاً»؟ فأجابهم قائلاً: «على قدرِ طاقتي حفظتُ وصايا الله. إلا إنني إنسانٌ، من أين أعلمُ إن كان عملي أرضى اللهَ». فقالوا له: «ألستَ واثقاً بأن عملَك مرضيٌ أمام اللهِ»؟ فقال الشيخُ: «لن أثقَ دونَ أن ألقى الله، لأن حكمَ الناسِ شيءٌ وحكمَ اللهِ شيءٌ آخر». فطلبوا منه أن يكلِّمهم كلمةً تنفعهم. فقال لهم: «اصنعوا محبةً، ولا تكلموني لأني مشغولٌ في هذه الساعة». وللوقت تنيح. فأبصروا وجهَه كمن يُقَبِّل حبيبَه. فهذا القديس كان متحفِّظاً جداً إذ كان يقول: «بغيرِ تحفظٍ كثيرٍ لا يقدرُ أحدٌ أن يصلَ إلى

الفضيلةِ».

الأنبا إيسيذوروس قس الإسقيط

قيل عن الأبِ الكبير إيسيذوروس قس الإسقيط: إنّ كلَّ من كان عنده أخاً صغيرَ النفسِ أو شتَّاماً أو عليلاً ويطرده من عندِه، كان القس إيسيذوروس يأخذُه إلى عندِه ويطيلُ روحَه عليه ويخلِّص نفسَه.

سأله الإخوةُ مرةً قائلين: «لماذا تفزع منك الشياطين»؟ فقال لهم: «لأني منذ أن صرتُ راهباً حتى الآن لم أَدَعِ الغضبَ يجوزُ حلقي إلى فوق».

وقال أيضاً: «ها أنا لي أربعون سنة، كنتُ إذا أحسستُ بعقلي بالخطيةِ خلالها، لا أخضع لها قط حتى ولا للغضبِ».

وقيل عنه أيضاً: إذا أوعزت إليه الأفكارُ بأنه إنسانٌ عظيمٌ، كان يجيبُها قائلاً: «ألعلي مثل أنبا أنطونيوس أو أصبحتُ مثل أنبا بموا»؟ وإذ كان يقولُ ذلك يستريحُ فكرُه. وإذا قالت له الشياطين: «إنك ستمضي إلى العذابِ». فكان يجيبُهم: «إن مضيْتُ إلى العذابِ فسوف تكونون تحتي».

وكان يقول: «هكذا يجبُ أن يكونَ فهمُ القديسين أن يعرفَ الإنسانُ مشيئةَ اللهِ وأن يكونَ بكليتِهِ سامعاً للحقِّ خاضعاً له، لأنه في صورةِ اللهِ ومثالِه، وأن من أشرِّ الأعمالِ كلِّها أن يطيعَ الإنسانُ إرادَتَه ويخالفَ إرادةَ اللهِ، وأن يكون له هوىً في شيءٍ وفي غيرِهِ هوىً آخر. فأما الذي يجدُ طريقَ القديسين ويمشي فيها فإنه يُسَرُّ بالأحزانِ، لأن سبيلَ الخلاصِ مملوءٌ أحزاناً».

توجّه الأنبا إيسيذوروس مرةً إلى البابا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية، ولما رجع سأله الإخوةُ عن حالِ مدينة الإسكندرية. فقال لهم: «إني لم أبصر فيها إنساناً إلا البطريرك وحدَه». فتعجبوا وقالوا له: «أتريدُ أن تقولَ إن مدينةَ الإسكندرية خاليةٌ من الناسِ». قال: «كلا، لكني لم أسمح لعقلي أن يفكرَ في رؤيةِ أي إنسانٍ».

وقال: إن السيرةَ الصالحةَ بدونِ كلامٍ نافعةٌ، أما الكلامُ بغيرِ عملٍ فهو باطلٌ. لأن أحدَهما بسكوتِه ينفعُ والآخرَ بكثرةِ كلامِهِ يُقلِقُ. فإذا استقام القولُ مع العملِ كَمُلَت فلسفتُه.

وقال أيضاً: إن الشرَ أزاغ الناسَ عن معرفةِ اللهِ. وفرَّق الناسَ بعضهم عن بعضٍ. فلنبغض إذاً الشرَ ولنطلب السلامةَ لبعضِنا البعضِ وبذلك تكمُل فلسفةُ الفضيلةِ.

وقال أيضاً: إن شرفَ التواضعِ عظيمٌ وسقوطَ المتعاظمِ فظيعٌ جداً، وإني أُشير عليكم بأن تلزموا التواضعَ فلن تسقطوا أبداً.

وقال أيضاً: إن محبةَ المقتنياتِ متعبةٌ جداً تؤدي إلى نهايةٍ مريرةٍ لأنها تسببُ اضطراباً شديداً جداً للنفسِ. فسبيلُنا أن نطردَها منذُ البدءِ، لأنها إن أزمَنَت فينا صار اقتلاعُها صعباً.

وقيل عنه: اتفق أن دعاه أحدُ الإخوةِ إلى تناولِ الطعامِ، فرفض الشيخُ قائلاً: «إن آدمَ بالطعامِ خُدع فصار خارجَ الفردوس بأكلةٍ واحدةٍ». فقال له الأخُ: «أبهذا المقدارِ تخشى الخروجَ خارجَ القلايةِ»؟ قال له الشيخُ: «وكيف لا أخشى يا ولدي، والشيطانُ يزأرُ مثلَ سبعٍ ملتمساً من يبتلعه».

وكثيراً ما كان يقول: «من يُذلُّ نفسَه لشربِ الخمرِ لا يمكنه أن يخلصَ من شرِ الأفكارِ وقُبحِ الأعمالِ. فإن لوطاً لما امتلأ من السُكرِ وقع في مجامعةٍ مغايرةٍ للناموس الطبيعي».

وقال أيضاً: «إن كنتَ مشتاقاً إلى مُلك السماءِ، فاترك غنى العا لم. وإن آثرتَ النياحَ هناك، فالزم التعبَ ها هنا، وإن أردتَ الفرحَ هناك، لا تكف عن البكاءِ ها هنا».

وقال أيضاً: لا يمكنك أن تحيا حياةً إلهيةً ما دمتَ محبّاً للَّذاتِ.

وكان إذا مضى إليه إنسانٌ فإنه يدخلُ إلى القلايةِ الداخليةِ ويكلّمه من داخلِ البابِ. فقال له الإخوةُ: «لماذا تفعلُ هكذا»؟ فقال لهم: «إن الوحوشَ إذا أبصرت من يُخيفها هربت إلى جحورِها ونجت».

وقال أنبا بيمين: إن أنبا إيسيذوروس كان يُضَفِّرُ في كلِّ ليلةٍ حزمةَ خوصٍ. فسأله الإخوة قائلين: «أيها الأب، أَرِح نفسَك لأنك قد شختَ». فأجابهم: «لو أحرقوا إيسيذوروس بالنارِ

وذرُّوا رمادَه، فلن يكون لي فضلٌ، لأن ابنَ اللهِ من أجلي نزل إلى الأرض».

الأنبا موسى الأسود

قيل إن الأب الكبير أنبا موسى الأسود قوتل بالزنا قتالاً شديداً في بعضِ الأوقاتِ. فقام ومضى إلى أنبا إيسيذوروس وشكا له حالَه، فقال له: «ارجع إلى قلايتك». فقال أنبا موسى: «إني لا أستطيعُ يا معلم». فصعد به إلى سطحِ الكنيسةِ وقال له: «انظر إلى الغربِ»، فنظر ورأى شياطين كثيرين يتحفَّزون للحربِ والقتالِ. ثم قال له: «انظر إلى الشرقِ»، فنظر ورأى ملائكةً كثيرين يمجّدون الله. فقال له: «أولئك الذين رأيتَهم في الغربِ هم محاربونا، أما الذين رأيتَهم في الشرقِ فإنهم معاونونا. ألا نتشجع ونتقوى إذاً ما دام ملائكةُ الله يحاربون عنا»؟ فلما رآهم أنبا موسى فرح وسبَّح الله ورجع إلى قلايتِهِ بدونِ جزعٍ.

وقيل عنه: إنه لما رُسم قساً ألبسوه ثوبَ الخدمةِ الأبيض. فقال له أحدُ الأساقفةِ: «ها أنت قد صرتَ كلَّك أبيضَ يا أنبا موسى». فقال: «أيها الأب، ليت ذلك يكون من داخلٍ كما من خارجٍ».

وأراد رئيسُ الأساقفة أن يمتحِنَه فقال للكهنةِ: «إذا جاء أنبا موسى إلى المذبحِ اطردوه لنسمعَ ماذا يقول». فلما دخل انتهروه وطردوه قائلين له: «اخرج يا حبشي إلى خارج الكنيسةِ». فخرج أنبا موسى وهو يقول: «حسناً فعلوا بك يا رُمادي اللون يا أسودَ الجلدِ. وحيثُ أنك لستَ بإنسانٍ فلماذا تحضرُ مع الناسِ»؟

قيل: أضاف أنبا موسى أخاً فطلب منه كلمةً. فقال له: «امضِ واجلس في قلايتك والقلايةُ سوف تعلِّمك كلَّ شيءٍ».

وقيل: أخطأ أخٌ في الإسقيط يوماً، فانعقد بسببِهِ مجلسٌ لإدانتِهِ، وأرسلوا في طلبِ أنبا موسى ليحضرَ. فأبى وامتنع من الحضورِ. فأتاه قسُ المنطقةِ وقال: «إن الآباءَ كلَّهم ينتظرونك». فقام وأخذ كيساً مثقوباً وملأه رملاً وحمله وراء ظهرِهِ وجاء إلى المجلسِ. فلما رآه الآباءُ هكذا قالوا له: «ما هذا أيها الأب»؟ فقال: «هذه خطاياي وراء ظهري تجري دون أن أُبصرَها، وقد جئتُ

اليومَ لإدانةِ غيري عن خطاياه». فلما سمعوا ذلك غفروا للأخِ ولم يُحزنوه في شيءٍ.

ومرة أخرى انعقد مجلسٌ وأرادوا أن يمتحنوا أنبا موسى، فنهروه قائلين: «لماذا يأتي هذا النوبي هكذا ويجلس في وسطِنا»؟ فلما سمع ذلك الكلام سكت. وعند انصرافِ المجلس قالوا له: «يا أبانا، لماذا لم تضطرب»؟ فأجابهم قائلاً: «الحق إني اضطربتُ، ولكني لم أتكلم شيئاً».

وحدث مرة أخرى أن أُعلن في الإسقيط أن يُصام أسبوعٌ. وتصادف وقتئذ أن زار الأنبا موسى إخوةٌ مصريون. فأصلح لهم طبيخاً يسيراً. فلما أبصر القاطنون بجوارِهِ الدخانَ اشتكوا لخدامِ المذبحِ قائلين: «هو ذا موسى قد حلَّ الوصيةَ إذ أعدَّ طبيخاً». فطمأنهم أولئك قائلين: «بمشيئة الربِّ يوم السبت سوف نكلمُه». فلما كان السبتُ وعلموا السببَ قالوا لأنبا موسى أمام المجمعِ: «أيها الأب موسى، حقاً لقد ضحيْتَ بوصيةِ الناسِ في سبيلِ إتمام وصية اللهِ».

وقيل أيضاً عن أنبا موسى: إنه لما عزم على الإقامةِ في الصخرةِ تعب ساهراً. فقال في نفسِهِ كيف يمكنني أن أجد مياهاً لحاجتي ها هنا. فجاءه صوتٌ يقول له: «ادخل ولا تهتم بشيءٍ»، فدخل. وفي أحدِ الأيام زاره قومٌ من الآباءِ، ولم يكن له وقتئذ سوى جرَّةِ ماءٍ فقط. فأعدَّ عدساً يسيراً، فلما نفذ الماءُ حزن الشيخُ وصار يخرجُ ويدخلُ ثم يخرجُ ويدخلُ وهكذا.. وهو يصلي إلى اللهِ. وإذا بسحابةٍ ممطرةٍ قد جاءت فوق حيث كانت الصخرةُ. وسرعان ما تساقط المطرُ فامتلأت أوعيتُه من الماءِ. فقال له الآباءُ: «لماذا كنتَ تدخلُ وتخرجُ»؟ فأجابهم وقال: «كنتُ أصلي إلى اللهِ قائلاً: إنك أنت الذي جئتَ بي إلى هذا المكان وليس عندي ماء ليشربَ عبيدُك. وهكذا كنتُ أدخل وأخرج مصلياً لله حتى أرسل لنا الماءَ».

سأل أحدُ الإخوةِ أنبا موسى قائلاً: «ماذا أصنع لكي أمنعَ أمراً يتراءى لي دائماً»؟ فقال له الشيخُ: «إنك إن لم تصبح مقبوراً كالميتِ فلن تستطيع أن تمنعَه، أعني الفكر».

وقال أيضاً: «مكتوبٌ أنه لما قَتل الربُ أبكارَ المصريين لم يكن هناك بيتٌ خالٍ من ميتٍ». فسألوه قائلين: «ما معنى هذا»؟ فقال الشيخُ: «إذا علمنا أننا كلّنا خطاةٌ فلنحذر من أن نتركَ خطايانا وندينَ خطايا القريب، لأنه من الجهلِ حقاً أن يكون لإنسانٍ في بيتِهِ ميتٌ فيتركه ويذهب ليبكي على ميت جارِهِ. فانظر إلى خطاياك أولاً. واقطع اهتمامَك بكلِّ إنسانٍ،

ولا تحتكَّ بإنسانٍ، ولا تفكر بشرٍّ على إنسانٍ، ولا تمشِ مع النمام ولا تصدق كلامَ نميمةٍ بخصوص إنسانٍ».

وقال أيضاً: «من يحتمل ظُلماً من أجل الربِّ يُعتبر شهيداً. ومن يتمسكن من أجل الربِّ يعوله الربُّ. ومن يَصِر جاهلاً من أجلِ الربِّ يُحَكِّمه الربُّ».

وأيضاً من أقوالِ أنبا موسى أرسلها إلى أنبا نومين حسب طَلَبِهِ: «إني أفضِّلُ خلاصَك بخوفِ الله قبل كلِّ شيء، طالباً أن يجعلَك كاملاً بمرضاتهِ حتى لا يكون تعبُك باطلاً؛ بل يكون مقبولاً من الله لتفرحَ. لأننا نجدُ أن التاجرَ إذا ربحت تجارتُه كَثُرَ سرورُه، وكذلك الذي يتعلَّم صناعةً إذا ما أتقنها كما ينبغي ازداد فرحُه متناسياً التعبَ الذي أصابه، وذلك لأنه قد أتقن الصنعةَ التي رغب فيها. ومن تزوج امرأةً وكانت عفيفةً صائنةً لنفسِها فمن شأنهِ أن يفرحَ قلبُه. ومن نال شرفَ الجنديةِ فمن شأنهِ أن يستهينَ بالموتِ في حربهِ ضد أعداء ملكِه وذلك في سبيلِ مرضاة سيدهِ. وكلُّ واحدٍ من أولئك الناس يفرحُ إذا ما أدرك الهدفَ الذي تعب من أجلهِ. فإذا كان الأمرُ هكذا مع شئونِ هذا العالم الفاني، فكم وكم يكون فرحُ النفسِ التي قد بدأت في خدمةِ الله عندما تُتَمِّمُ خدمتها حسب مرضاة الله؟ الحقَّ أقولُ لك: إن سرورَها يكونُ عظيماً، لأنه في ساعةِ خروجها من الدنيا تلقاها أعمالُها وتفرحُ لها الملائكةُ إذا أبصروها وقد أقبلت سالمةً من سلاطين الظلمة، لأن النفسَ إذا خرجت من جسدِها رافقتها الملائكةُ وحينئذ يلتقي بها أصحابُ الظلمةِ كلُّهم ويمنعوها عن المسير ملتمسين شيئاً لهم فيها. والملائكةُ وقتئذ ليس من شأنِهم أن يحاربوا عنها، لكن أعمالَها التي عملتها هي التي تحفظها وتستر عليها منهم. فإذا تمت غلبتها بأعمالِها تفرحُ الملائكةُ حينئذ ويسبِّحون الله معها حتى تلاقي الربَّ بسرورٍ. وفي تلك الساعة تنسى جميعَ ما انتابها من أتعابٍ في هذا العالم.

فسبيلُنا أيها الحبيب أن نبذلَ قُصارى جهدِنا ونحرص بكلِّ قوتِنا في هذا الزمان القصير على أن نصلحَ أعمالَنا وننقيها من كلِّ الشرور عسانا نخلص بنعمةِ الله من أيدي الشياطين المتحفزين للقائِنا، إذ أنهم يترصَّدون لنا ويفتشون أعمالَنا إن كان لهم فينا شيءٌ من أعمالِهم، لأنهم أشرارٌ وليس فيهم رحمةٌ. فطوبى لكلِّ نفسٍ لا يكون لهم فيها مكانٌ فإنها تفرحُ فرحاً عظيماً. لذلك ينبغي لنا أيها الحبيبُ أن نجتهدَ بقدرِ استطاعتِنا بالدموعِ أمام ربنا ليرحمنا بتحننه. لأن الذين

يزرعون بالدموعِ يحصدون بالفرحِ. ولنقتنِ لأنفسِنا الشوقَ إلى الله فإن الاشتياقَ إليه يحفظُنا من الزنا، ولنحبَّ المسكنةَ لنخلُصَ من محبةِ الفضةِ، ولنحبَّ السلامةَ لننجوَ من البغضة، ولنقتنِ الصبرَ وطولَ الروحِ لأن ذلك يحفظُنا من صغرِ النفسِ، ولنحبَّ الكلَّ بمحبةٍ خالصةٍ لنتخلصَ من الغيرةِ والحسدِ، لنلزم الاتضاع في كلِّ أمرٍ وفي كلِّ عملٍ. لنتحمل السبَّ والتعيير لنتخلصَ من الكبرياءِ. لنكرم أقرباءنا في كلِّ الأمورِ لنخلصَ من الدينونةِ. لنرفض شرفَ العالمِ وكراماته لنتخلصَ من المجدِ الباطلِ. لنستعمل اللسانَ في ذِكرِ الله والعدل لنتخلصَ من الكذبِ، لنحبَّ طهارةَ القلبِ والجسدِ لننجوَ من الدنسِ. فهذا كلُّه يُحيطُ بالنفسِ ويتبعها عند خروجِها من الجسدِ. فمن كان حكيماً وعملُه بحكمةٍ فلا ينبغي له أن يسلِّم وديعَته بدونِ أعمالٍ صالحةٍ كي يستطيعَ الخلاصَ من تلك الشدةِ. فلنحرص إذاً بقدرِ استطاعتنا والربُّ يعينُ ضعفَنا، لأنه قد عرف أن الإنسانَ شقيٌّ ولذلك وهب له التوبةَ ما دام في الجسدِ.

لا تهتم بشئونِ العالم كأنها غايةُ أَمَلِكَ في هذه الحياةِ، وذلك لتستطيعَ أن تخلصَ. لا يكن لك رجاءٌ في هذا العالم لئلا يضعف رجاؤك في الربِّ. أبغض كلامَ العالم كي تبصرَ الله بقلبك. داوم الصلاةَ كلَّ حينٍ ليستنيرَ قلبُك بالربِّ. إياك والبطالة لئلا تحزن. أتعِب جسدَك لئلا تخزى في قيامةِ الصديقين. احفظ لسانَك ليسكن في قلبك خوفُ الله. أعطِ المحتاجين بسرورٍ ورضى لئلا تخجل بين القديسين وتُحرم من أمجادِهم. أبغض شهوةَ البطنِ لئلا يحيط بك عماليق. كن متيقظاً في صلاتك لئلا تأكلك السباعُ الخفية. لا تحب الخمرَ لئلا يحرمك من رضى الربِّ. أحبَّ المساكين لتخلص بسببهم في أوانِ الشدةِ. كن مداوماً لذِكر سير القديسين كي ما تأكلك غيرةُ أعمالِهم. اذكر ملكوتَ السماوات لتتحرك فيك شهوتُها. فكِّر في نارِ جهنم لكي ما تمقت أعمالها.

إذا قُمتَ كلَّ يومٍ بالغداةِ، تذكَّر أنك سوف تعطي للهِ جواباً عن سائرِ أعمالِك فلن تخطئ البتة، بل يسكن خوفُ الله فيك. أعد نفسَك للقاءِ الربِّ فتعمل حسب مشيئتِه. افحص نفسَك ها هنا واعرف ماذا يعوزك فتنجوَ من الشدةِ في ساعةِ الموتِ، ويبصر إخوتُك أعمالَك فتأخذهم الغيرةُ الصالحة. اختبر نفسَك كلَّ يومٍ وتأمل في أي المحاربات انتصرتَ ولا تثق بنفسِك بل قل: «الرحمةُ والعونُ هما من الله». لا تظن في نفسِك أنك أجدَّتَ شيئاً من الصلاحِ إلى آخرِ نسمةٍ

من حياتك. لا تستكبر وتقول: «طوباي»، لأنك لا يمكنك أن تطمئنَ من جهة أعدائك. لا تثق بنفسِك ما دمتَ في الجسدِ حتى تعبر عنك سلاطينُ الظلمةِ. ليكن قلبُك من نحو الأفكارِ شجاعاً جداً فتخف عنك حدتها، أما الذي يخاف منها فإنها تُرعبه فيخور. كما أن الذي يفزع منها يُثبت عدم إيمانه بالله حقاً، ولن يستطيعَ الصلاةَ قدام يسوع سيدِهِ من كلِّ قلبهِ ما لم يَسُد على الأفكار أولاً. الذي يريدُ كرامةَ الربِّ فعليه أن يتفرغ لطهارةِ نفسِه من الدنس. إن كنا ملومين فذلك لأن الهزيمةَ دائماً هي منا. من ينكر ذاتَه ولا يظن أنه شيءٌ فذلك يكون سالكاً حسب مشيئةِ الله. من تعوَّد الكلامَ بالكنيسةِ فقد دلَّ بذلك على عدمِ وجودِ خوف الله فيه. وذلك لأن خوفَ الله هو حفظٌ وصونٌ للعقلِ، كما أن الملكَ هو عونٌ لمن يطيعه. أما الذين يريدون أن يقتنوا الصلاحَ وفيهم خوفُ الله، فإنهم إذا عثروا لا ييأسون بل سرعان ما يقومون من عثرتِهم وهم في نشاطٍ واهتمامٍ أكثر بالأعمالِ الصالحة. أهمُ أسلحةِ الفضائل هي إتعاب الجسد بمعرفةٍ، والكسل والتواني يولِّد المحاربات. من له معرفة وهِمَّة فقد هزم الشرَ، لأنه مكتوبٌ أن الاهتمامَ يلازمُ الرجلَ الحكيم. والضعيفُ الهِمَّةِ لم يعرف بعد ما هو لخلاصِه. أما الذي يقهرُ أعداءَه فإنه يُكلَّل بحضرةِ الملك.

لو لم تكن حروبٌ وقتالٌ ما كانت فضيلة. ومن يجاهد بمعرفةٍ فقد نجا من الدينونةِ، لأنه هذا هو السورُ الحصين. أما الذي يدين فقد هدم سورَه بنقصِ معرفتهِ. من يهتم بضبطِ لسانهِ يَدُلُّ على أنه محبٌ للفضيلةِ. وعدم ضبط اللسان يدلُّ على أن داخلَ صاحبهِ خالٍ من أيِّ عملٍ صالح. الصدقةُ بمعرفةٍ تولِّد التأملَ فيما سيكون وتُرشد إلى المجد. أما القاسي القلب فإنه يدلُّ على انعدامهِ من أيِّ فضيلةٍ. الحرية تولِّد العفةَ ومكابدة الهموم تولِّد الأفكار. قساوة القلبِ تولِّد الغيظَ، والوداعة تولِّد الرحمة. نسكُ النفسِ هو بُغض التنعمِ، ونسك الجسدِ هو العوز. سقطة النفس هي مكابدة الهموم وتهذيبها هو السكوت بمعرفة. الشبع من النومِ يُثير الأفكارَ وخلاصُ القلبِ هو السهرُ الدائم. النومُ الكثير يولِّد الخيالات الكثيرة والسهرُ بمعرفةٍ يُزهر العقلَ ويثمره. النومُ الكثير يجعلُ الذهنَ كثيفاً مظلماً، والسهرُ بمقدارٍ يجعله لطيفاً نيّراً. من ينامُ بمعرفةٍ فهو أفضل ممن يسهر في الكلامِ الباطل.

النوحُ يطردُ جميعَ أنواعِ الشرورِ عند ثورانها. إذا تقبل الإنسانُ الزجرَ والتوبيخَ فإن ذلك يولِّد

له التواضع، أما تمجيدُ الناس فيولِّد البذخ وتعاظم الفكر. حبُّ الإطراءِ من شأنهِ أن يطردَ المعرفةَ. وضبطُ شهوة البطن يقلِّل من تأثيرات الشهوات. شهوةُ الأطعمةِ توقظ الغرائزَ والانفعالات والامتناع منها يُقمعها. زينةُ الجسدِ هزيمةٌ للنفس ومن يهتم بها فليست فيه مخافة الله. ذِكرُ الدينونة يولِّد في الفكر تقوى الله. وقلةُ خوفِ الله تُضلُّ العقلَ. السكوتُ بمعرفةٍ يهذِّب الفكرَ وكثرةُ الكلامِ تولِّد الضجرَ والهوسَ. قهرُ الشهوةِ يدلُّ على تمامِ الفضيلة والانهزام لها يدلُّ على نقصِ المعرفة. ملازمةُ خوفِ اللهِ يحفظُ النفسَ من المحارباتِ وحديثُ أهلِ العالم والاختلاط بهم يُظلمُ النفسَ ويُنسيها التأملَ.

محبةُ المقتنياتِ تزعجُ العقلَ، والزهدُ فيها يمنحه استنارةً. صيانةُ الإنسانِ أن يقرَّ بأفكارهِ ومن يكتمها يثيرُها عليه. أما الذي يقرّ بها فقد طرحها عنه. كمثلِ بيتٍ لا بابَ له ولا أقفال يدخلُ إليه كلُّ من يقصده، كذلك الإنسان الذي لا يضبط لسانَه. وعلى مثالِ الصدأ الذي يأكل الحديدَ كذلك يكون مديحُ الناسِ الذي يُفسد القلبَ إذا مال إليه. وكما يلتفُّ اللبلاب على الكرمِ فيُفسد ثمرَه، كذلك السُبح الباطل يُفسد نمو الراهب إذا كثر حوله. وكما يفعل السوسُ في الخشبِ، كذلك تفعل الرذيلةُ في النفسِ. تواضع القلب يتقدم الفضائلَ كلَّها وشهوةُ البطنِ أساسُ كلِّ الأوجاع. الكبرياءُ هي أساسُ الشرورِ كلِّها والمحبةُ هي مصدرُ كلِّ صلاحٍ. أشرُّ الرذائلِ كلِّها هي أن يزكِّي الإنسانُ نفسَه بنفسِه. من ينكر ذاتَه يسلك في سلامٍ. والذي يعتقد في نفسِه أنه بلا عيبٍ فقد حوى في ذاتِه سائرَ العيوب. الذي يخلط حديثَه بحديثِ أهلِ العالم يُزعج قلبَه، والذي يتهاون بعفةِ جسمِه يخجلُ في صلاتهِ. محبةُ أهلِ العالم تُظلمُ النفسَ والابتعادُ عنهم يزيدُ المعرفةَ. محبةُ التعبِ عونٌ عظيمٌ وأصلُ الهلاكِ هو الكسل.

احفظ عينيك لئلا يمتلئ قلبُك أشباحاً خفية. من ينظر إلى امرأةٍ بلذةٍ فقد أكمل الفسقَ بها. إياك أن تسمع بسقطةِ أحد إخوتك لئلا تكون قد دِنته خفيةً. احفظ سمعَك لئلا تجمع لك حزناً في ذاتك. أحرى بك أن تعملَ بيديك ليصادف المسكينُ منك خبزةً، لأن البطالةَ موتٌ وسقطةٌ للنفسِ. مداومةُ الصلاةِ صيانةٌ من السبي، ومن يتوانى قليلاً فقد سَبَتهُ الخطيةُ.

من يتذكر خطاياه ويقرُّ بها لا يخطئُ كثيراً. أما الذي لا يتذكر خطاياه ويقرُّ بها فإنه يَهلكُ بها. الذي يُقرُّ بضعفهِ موبِّخاً ذاتَه أمام الله فقد اهتم بتنقيةِ طريقهِ من الخطيةِ. أما الذي يؤجل

ويقول: «دع ذلك لوقتهِ»، فإنه يصبح مأوى لكلِّ خبثٍ ومكرٍ. لا تكن قاسي القلب على أخيك فإننا جميعنا قد تغلِبنا الأفكارُ الشريرةُ. إذا سكنتَ مع إخوةٍ فلا تأمرهم بعملٍ ما، بل اتعب معهم لئلا يضيع أجرُك. إذا قاتلتك الشياطين بالأكل والشرب واللبس فارفض كلَّ ذلك منهم، وبيِّن لهم حقارةَ ذاتك فينصرفوا عنك. وإذا حَسُنَ لك الزنى فاقتله بالتواضع، والجأ إلى الله فتستريح. إن حوربت بجمالِ جسدٍ فتذكَّر نتانته بعد الموتِ فإنك تستريح. وإن جاءتك أفكارٌ عن النساءِ فاذكر أين ذَهَبَت الأوليات منهن وأين حسنهن وجمالهن. وكل هذه الأمور يختبرها الإنسانُ بالإفراز ويميزها. ولن يأتينا الإفرازُ ما لم نتقنِ أسبابَ مجيئهِ وهي السكوت لأنه كنزُ الراهبِ. والسكوتُ يولِّد النسكَ، والنسكُ يولِّد البكاءَ، والبكاءُ يولِّد الخوفَ، والخوفُ يولِّد التواضعَ، والتواضعُ مصدرُ التأملِ فيما سيكون. وبُعد النظر يولِّد المحبةَ، والمحبةُ تولِّد للنفسِ الصحة الخالية من الأسقامِ والأمراض، وحينئذ يَعلم الإنسانُ أنه ليس بعيداً من الله فيُعِدُّ ذاتَه للموتِ. فالذي يريد إدراك هذه الكرامات كلّها، عليه ألا يهتم بأحدٍ من الناسِ ولا يدينه. وكلما يصلي تنكشف له الأمور التي تقرِّبه من الله فيطلبها منه، ويُبغض هذا العالمَ، فإن نعمةَ اللهِ تَهِبُ له كلَّ صلاحٍ.

لذلك اعلم يقيناً أن كلَّ إنسانٍ يأكلُ ويشربُ بلا ضابطٍ ويحبُّ أباطيلَ هذا العالم فإنه لا يستطيع أن ينالَ شيئاً من الصلاحِ بل ولن يدركه، لكنه يخدع نفسَه. إن آثرتَ أن تتوبَ إلى الله فاحترز من التنعمِ فإنه يثير سائرَ الأوجاعِ ويطرد خوفَ الله من القلبِ. اطلب خوفَ الله بكلِّ قوتِك فإنه يُزيلُ كلَّ الخطايا. لا تحب الراحةَ ما دمتَ في هذه الدنيا. لا تأمن للجسدِ إذا رأيت نفسَك مستريحاً من المحاربات في أي وقتٍ من الأوقات. لأنه من شأن الأوجاعِ أن تثورَ فجأة بخداعٍ ومخاتلةٍ عسى أن يتوانى الإنسانُ عن السهرِ والتحفظِ، وحينئذ يهاجمُ الأعداءُ النفسَ الشقية ويختطفوها. لذلك يحذِّرُنا ربنا قائلاً: «اسهروا»، له المجدُ الدائم إلى الأبد، آمين.

وله أيضاً في الفضائلِ والرذائلِ: خوفُ اللهِ يطردُ جميعَ الرذائلِ، والضجرُ يطرد خوفَ الله. هذه الأربعة يجب اقتناؤها: الرحمةُ، غلبةُ الغضبِ، طولُ الروحِ، التحفظ من النسيانِ. العقلُ محتاجٌ في كلِّ ساعةٍ إلى هذه الأربع فضائل الآتية: الصلاةُ الدائمة بسجودٍ قلبي، محاربةُ الأفكارِ، أن تعتبرَ ذاتَك خاطئاً، وأن لا تدن أحداً. وهذه الفضائل الأربعة هي عونُ الراهبِ الشاب: الهذيذُ

في كلِّ ساعةٍ في ناموسِ الله، ومداومةُ السهر، والنشاطُ في الصلاة، وأن لا يعتبر نفسَه شيئاً. ومما يدنس النفسَ والجسد ستةُ أشياءٍ: المشي في المدن، إهمال العينين بلا تحفظ، التعرف بالنساء، مصادقة الرؤساء، محبة الأحاديث الجَسَدَانية، الكلام الباطل. وهذه الأربعة تؤدي إلى الزنى: الأكل والشرب، الشبع من النوم، البطالة واللعب، والتزين بالملابس. وهذه الأربعة مصدرُ ظلمةِ العقل: مُقت الرفيق، الازدراء به، حسده، سوء الظن به. بأربعةِ أمورٍ يتحرك في الإنسانِ الغضبُ: الأخذ والعطاء، إتمام الهوى، محبته في أن يُعلِّم غيرَه، ظنه في نفسِه أنه عاقلٌ. وهذه الأربعة تُقتنى بصعوبةٍ: البكاء، تأمل الإنسان في خطاياه، جعل الموت بين عينيه، أن يقول في كل أمرٍ: أخطأتُ، اغفر لي. فمن يحرث ويتعب فإنه يَخلص بنعمة ربنا يسوع المسيح.

وله أيضاً: «أيها الحبيب، ما دامت لك فرصةٌ للتوبةِ فارجع وتقدم إلى المسيح بتوبةٍ خالصة، سارع قبل أن يُغلَق البابُ فتبكي بكاءً مراً، فَتَبِلَّ خديْك بالدموع بدون فائدة. اجلس وترقَّب البابَ قبل أن يُغلق. أسرع واعزم على التوبةِ، فإن المسيح إلهنا يريدُ خلاصَ جميعِ الناسِ وإتيانَهم إلى معرفةِ الحقِّ. وهو ينتظرك وسوف يَقبلك. له المجد إلى الأبد آمين».

سأل أحدُ الآباءِ أنبا بيمين قائلاً: «لماذا تقاتلنا الشياطين يا أبي»؟ أجاب الشيخُ قائلاً: «الحقيقة إن الشياطين لا تحاربنا إلا عند ما نتمِّم ميولَنا الرديئة التي هي في الحقيقة شياطيننا التي تحاربنا، فنُهزم أمامها برضانا. أما إن شئتَ أن تعرفَ مع من كانت الشياطين تصارعُ، قلتُ لك مع أنبا موسى وأصحابِهِ».

الأنبا زكريا

كان لرجلٍ اسمه قاريون ولدٌ صغير اسمه زكريا، هذا أتى إلى الإسقيط وترهب به ومعه ابنه. وقد ربى ابنه هناك وعلَّمه بما ينبغي. وكان الصبيُّ جميلَ الخلقةِ وحسنَ الصورةِ جداً. فلما شبَّ حدث بسببِه تذمرٌ بين الرهبان. فلما سمع الوالدُ بذلك قال لابنه: «يا زكريا هيا بنا نمضي من ها هنا لأن الآباءَ قد تذمروا بسببك». فأجاب الصبيُّ أباه قائلاً: «يا أبي إن الكلَّ ها هنا يعرفون أني ابنك، ولكن إن مضينا إلى مكانٍ آخر فلن يقولوا إني ابنك». فقال الوالد: «هيا بنا يا ابني

نمضي الآن فإن الآباء يتذمرون بسببنا». وفعلاً قاما ومضيا إلى الصعيد، وأقاما في قلاية، فحدث سجسٌ كذلك. فقام الاثنان ومضيا إلى الإسقيط ثانية. فلما أقاما أياماً عاد السجسُ عينُه في أمرِ الصبي. فلما رأى زكريا ذلك مضى إلى غدير ماءٍ معدني (كبريتي) وخلع ملابسَه وغطس في ذلك الماءِ حتى أنفِهِ. وأقام غاطساً هكذا عدة ساعات حسب طاقتِه، فلأجل صِغرِ سنِه ونعومةِ جسمِه أصبح جسمُه كلُّه منفّخاً، فتشوّه وتغيرت ملامحُه. فلما لبس ثيابَه وجاء إلى والدِهِ لم يتعرف به إلا بصعوبةٍ. وحدث أن مضى بعد ذلك إلى الكنيسةِ لتناول الأسرار فعرفه القس إيسيذوروس، وعندما رآه هكذا تعجَّب مما فعله وقال: «إن زكريا الصبي جاء في الأحد الماضي وتقرَّب على أنه إنسانٌ، أما الآن فقد صار شبه ملاكٍ».

قال مار أفرآم: «إن كانت لك صداقةٌ مع أحدِ الإخوة وانتابتك مضرةٌ بسبب مخالطتك إياه، فأسرع واقطع نفسَك منه، ولستُ أقول لك هكذا أيها الحبيب لتبغضَ الناس، كلا، وإنما لتقطع أسبابَ الرذيلةِ».

وقال أيضاً: «من الخطرِ أن يتواجد صبيٌ في ديرٍ على نظامِ الشركةِ لا سيما إذا كان في هذا الوسط عدمُ ترتيبٍ».

قال أنبا بيمين: «أيُّ راهبٍ يقيمُ مع صبي وتعرَّض بسببهِ لآلامِ الإنسان العتيق، ثم يستمرُ بعد ذلك ويبقيه معه، فإنه يشبه إنساناً حقلُه مضروبٌ بالدودِ».

قال أنبا كورش: «إن كان إنسانٌ يقيمُ مع صبي، فإن لم يكن قوياً فإنه سوف يميلُ إلى أسفل، أما إن كان قوياً ولم يهوى إلى أسفل فإنه رغم ذلك لن يستمرَ قائماً».

قال أنبا قاريون: «إني بذلتُ أتعاباً كثيرةً بجسدي لكني لم أصل إلى رتبةِ ابني زكريا في تواضع العقلِ والسكون».

قيل: سأل الأب مقاريوس الكبير مرةً زكريا وهو ما زال في حداثةِ سنهِ قائلاً: «قل لي يا زكريا، ما هو الراهبُ الحقيقي»؟ قال زكريا: «يا أبي أتسألني أنا»؟ قال له الشيخُ: «نعم يا ابني زكريا، فإن نفسي متيقنةٌ بالروح القدس الذي فيك، أن شيئاً ينقصني يلزم أن أسألك عنه». فقال له الشابُ: «إن الراهبَ هو ذلك الإنسان الذي يُذل نفسَه ويُجهد ذاتَه في كلِّ الأمورِ».

قيل: أتى أنبا موسى مرة ليستقي ماءً، فوجد أنبا زكريا على البئرِ يصلي وروحُ الله حالٌّ عليه. فقال له: «يا أبتاه قل لي ماذا أصنع لأخلصَ». فما أن سمع الحديثَ حتى انطرح بوجهِهِ عند رجليه وقال له: «يا أبي لا تسألني أنا». قال أنبا موسى: «صدقني يا ابني زكريا إني أبصرتُ روحَ الله حالاًّ عليك ولذلك وجدتُ نفسي مسوقاً من نعمةِ الله أن أسألَك». فتناول زكريا قلنسوته ووضعها عند رجليه وداسها، ثم رفعها ووضعها فوقَ رأسهِ وقال: «إن لم يصر الراهبُ هكذا منسحقاً فلن يخلصَ».

لما حضرت أنبا زكريا الوفاة سأله أنبا موسى قائلاً: «أيُّ الفضائلِ أعظم يا ابني»؟ فأجابه: «على ما أراه يا أبتاه، ليس شيءٌ أفضلَ من السكوتِ». فقال له: «حقاً يا ابني، بالصوابِ تكلمتَ».

وفي وقتِ خروج روحِهِ كان أنبا إيسيذوروس القس جالساً فنظر إلى السماءِ وقال: «اخرج يا ابني زكريا فإن أبوابَ ملكوتِ السماوات قد فُتحت لك».

الأنبا مقاريوس الكبير

قال القديس مقاريوس الكبير: «إذا أقدمتَ على الصلاةِ فاحرص أن تكون ثابتاً لئلا تسلِّم إناءَك بيدِ أعدائك. لأنهم يشتهون اختطاف آنيتك التي هي أشواقُ نفسِك، وهي الأشواق الصالحة التي يجب أن تخدم بها الله نهاراً وليلاً. لأن الله لا يطلب أن تمجِّدَه بشفتيك فقط بينما تطيش أفكارُك بأباطيل العالم، لكنه يريد ألا توقف نفسَك أمامه وأفكارك تنظر إليه بدون التفات».

وقال أيضاً: «إن طولَ الروح هو صبر، والصبر هو الغلبة، والغلبة هي الحياة، والحياة هي الملكوت، والملكوت هو الله سبحانه وتعالى. البئرُ عميقةٌ ولكن ماءها طيبٌ عذب. الباب ضيقٌ والطريقُ كربةٌ ولكن المدينةَ مملوءةٌ فرحاً وسروراً. البرجُ شامخٌ حصينٌ، ولكن داخله كنوزاً جليلة. الصومُ ثقيل صعب لكنه يوصل إلى ملكوت السماوات. فِعلُ الصلاحِ عسيرٌ شاق، ولكنه ينجي من النار برحمة ربنا الذي له المجد».

وقال أيضاً: «ضع همَّك كلَّه في أن تطلب الله وأن تنجو من أيدي أعدائك. فالآن يا رجل الله إن وضعتَ في قلبك أن تقتني الوحدةَ فهيئ ذاتك لها، واصبر على المسكنةِ فإن الوحدةَ والمسكنةَ عظيمتان وليس شيءٌ من المواهب يساويهما في القدرِ والكرامة، لأنهما يقرِّبان إلى الله. كما لا تُحصى المواهب الموجودة داخلهما لأنهما يسودان جميعَ الفضائل. وهما في وسط جميع المواهب يتلألآن لأنهما مصدر أعمال القديسين، وجميعُ القديسين وجدوا الله فيهما وكُشفت لهم الأفكار فوهبهم الله قلوباً نقية وهم في المسكنةِ والوحدةِ جياعاً عطاشى. هؤلاء الذين لم يستحقهم العالم. تائهين في البراري والقفار والمغارات وشقوق الأرض. هؤلاء الذين لهم هذه الشهادة الجليلة، قد وجدوا الله في الوحدةِ وبالمسكنةِ والصبر، لأن مجدَ الوحدةِ غيرُ محدودٍ ورجاءَها وفرحَها هو اللهُ، وهي العزاءُ في الفقرِ والمسكنة. غذاؤها الصبر وخدمتها الكاملة هي الطهارة وفرحها هو الاتضاع. هي التي لا يُفسدها سوسٌ ولا يتدنس لها ثوبٌ لأنها ساكنةٌ في الطهارةِ».

سأل أخٌ الأب مقاريوس عن الوحدةِ، فأجاب الشيخُ وقال: «إن كنتَ تريد السكنى في الوحدةِ فاصبر لها ولا تؤدي عملك يوماً في الداخل ويوماً في الخارج، ولكن تصبر لها باتضاعٍ والله الصالح يؤازرك. لا توجِد سبباً للخروج عن الوحدةِ حتى ولو ليومٍ واحدٍ. بل اثبت في مسكنك لتذوق حلاوتها. ولا تبطئ خارجاً لئلا تجذبَ إليك المضادَ وتتجدد عليك أتعابُك وتُحرم من الصبر. لا تبطئ خارج قلايتك لئلا تجد أتعابك قدامك عند رجوعك، فتتعب جداً في حربك ويصعُب انتصارُك. يا رجل الله حتى متى تدوم لك هذه الأتعاب. اصبر للمسكنة، وعزاءُ الوحدةِ يأتيك من قِبل الله، لا تضيِّع يوماً واحداً لك ونعمةُ الوحدةِ وحلاوةُ المسكنةِ تصيران لك عزاءً ويعطيك الله سعادةً في مسكنِك».

وسأله أخٌ مرةً قائلاً: «ماذا أصنعُ يا أبي والأفكارُ توعز إليَّ بأن أمضي وأفتقد المرضى فإن هذه هي الوصية». أجابه الشيخُ قائلاً: «إن كلمة النبوة لا تسقط أبداً، فإنه يقول: جيدٌ للرجل أن يحملَ النيرَ منذ صباه ويجلس وحده صامتاً. أما قول ربنا يسوع المسيح: كنتُ مريضاً فزرتموني، فقد قاله لعامة الناس. وإني أقول لك يا أخي: إن الجلوسَ في القلاية أفضلُ من افتقاد المرضى، لأنه يأتي زمانٌ يُضحك فيه على سكان القلالي فتتم كلمة البار أنطونيوس إذ قال: يجيء زمانٌ

يُجنُّ فيه جميعُ الناسِ. وإذا أبصروا واحداً لم يُجنّ يذيعون عنه بأنه مجنونٌ لأنه لا يشبههم. وإني أقول لك يا ولدي: إن موسى النبي العظيم لو لم يبتعد من مخالطةِ الناس ومحادثاتهم ويدخل في الضبابِ وحده، لما تسلَّم لوحي العهد المكتوبين بإصبع الله».

وقال أيضاً: «كمثلِ إنسانٍ إذا دخل إلى الحمامِ إن لم يخلع ثيابَه لا ينعم بالاستحمامِ، كذلك الإنسانُ الذي أقدم إلى الرهبنةِ ولم يتعرَّ أولاً من كلِّ اهتمامِ العالم وجميعِ شهواتهِ وملذَّاتهِ، فلن يستطيعَ أن يصيرَ راهباً ولن يبلغَ حدَّ الفضيلةِ. ولن يمكنه كذلك أن يقفَ قبالة جميع سهامِ العدو التي هي شهوات النفس».

وقال أيضاً: «كمثلِ الحديد الذي إذا طرحتَه في النار يصيرُ أبيضَ ويتنقَّى من الشوائبِ، كذلك النفس إذا ما حلَّ فيها الروحُ القدس المعزي وسكن فيها فإنها تصير نقيةً كالملح متلألئة ببياض الفضيلة، فتنسى الأرضيات وتشتاق إلى السماويات، وتوجد في كل وقتٍ سكرانةً بالإلهيات شغوفةً بالعلويات. وذلك من أجلِ نقاوتها وطهارتها حتى يظن الإنسانُ أنه قد انتقل من هذا العالمِ إلى الحياةِ الأبدية بربنا يسوع المسيح، ويرى الجزاءَ الكاملَ العادلَ العتيد أن يكون للأبرارِ والخطاةِ في الدهرِ الآتي الذي لن يزولَ الدائم إلى الأبد».

وقال أيضاً: «كما أن المطرَ إذا سقط على الأرضِ تنبتُ وتُنتج الثمارَ، وفي ذلك راحةٌ وفرحٌ للناس، كذلك الدموع إذا ما وقعت على قلبٍ أثمرت ثماراً روحانية وراحةً للنفسِ والجسدِ معاً».

وقال أيضاً: «ليس شيءٌ يعلو على خوفِ الله. لأنه يسود على كل شيءٍ. فبخوفِ الله يحيدُ كلُّ إنسانٍ عن كلِّ الشرور. فلنقتنِ لنا هذا، ولنبتعدْ عن كلِّ ما لا يريدهُ الله. ولنصنعْ كلَّ ما يُرضيه ونحفظه. ولا نصنع شيئاً يغضبه. ولنعلم أيضاً أن كلَّ ما نعمله عريانٌ ومكشوفٌ لديه ولا تخفى عليه خافيةٌ».

وقال أيضاً: «إن النفسَ لها استطاعةٌ أن تنظرَ إلى الله في كلِّ حينٍ، فتوجد لها دالةً عند سيدها، لأنها حينئذ يكون لها قدرةٌ على ذلك، لذلك فلنحرص بكلِّ قوتنا ألا نحيدَ عن خوفِ الله ولا نتعبد للأوجاعِ».

وقال أيضاً: «يجبُ على الراهبِ أن يكونَ في سكونٍ في كلِّ حين ولا يسمع لأفكارِه التي توعز إليه بكثرةِ الكلامِ الذي يُضعف النفسَ، بل ليمسك عن الكلام حتى ولو نظر أناساً يضحكون أو يتحدثون بكلامٍ لا منفعة له وذلك لجهلِهم. لأن الراهبَ الحقيقي يجب أن يتحفظ من لسانِه كما هو مكتوبٌ في المزمور: اللهم اجعل لفمي حافظاً وعلى شفتيَّ ستراً حصيناً. فالراهب الذي يسلك هكذا لا يعثر أبداً بلسانِه، ولكنه يصبح إلهاً على الأرضِ».

وقال أيضاً: «كما أن الماءَ إذا سُلِّط على النارِ يُطفئها ويغسل كلَّ ما أكلته، كذلك أيضاً التوبةُ التي وهبها لنا الربُّ يسوع تغسلُ جميعَ الخطايا والأوجاع والشهوات التي للنفسِ والجسدِ معاً».

من تعاليم الأنبا إشعياء للمبتدئين

قال: أيها الحبيب إن كنتَ قد تركتَ العالَمَ الباطل وقربّت نفسَك لله لتتوب عن خطاياك السالفة، فإياك أن تتراجعَ عما عزمت عليه من نحو حفظِ وصايا السيد المسيح وإتمامها، وإلا فلن يغفرَ لك خطاياك القديمة. احفظ الخصالَ الآتية ولا تحتقرها: إياك أن تأكلَ مع امرأةٍ أو تؤاخي غلاماً حديثَ السنِّ، لا ترقد مع آخر في فراشٍ واحدٍ، كن متحفظاً لعينيك. وإذا نزعتَ ثيابك فإياك أن تبصرَ شيئاً من جسدِك، إن أردتَ أن تشرب بعضاً من الشراب لا تزد على ثلاثِ كؤوس. إياك أن تحلَّ الوصيةَ من أجلِ الصداقةِ. احذر أن تسكنَ في موضعٍ قد أخطأتَ فيه قدام الله. لا تتوانَ في صلواتِ الساعات لئلا تقع في أيدي أعدائك. اجهد نفسَك في تلاوة المزامير، فإن ذلك يحفظُك من خطيةِ الدنس. أحبَّ التعبَ والمشقةَ في كلِّ شيءٍ لتخفَّ عنك أوجاعُك. احذر من أن تعتبرَ نفسَك شيئاً في أيِّ أمرٍ من الأمورِ فإن ذلك يُفقدك النوحَ على خطاياك. احفظ نفسَك من الكذبِ فإنه يطرد من الإنسانِ خوفَ الله. لا تكشف أسرارَك لكلِّ أحدٍ لئلا تسبب عثرةً لقريبك. اكشف أفكارَك لآبائك الشيوخ لتجد معونةً بمشورتهم. أتعب نفسَك في عملِ يديك وخوفُ الله يسكن فيك. إذا أبصرتَ إنساناً قد أخطأ فلا تحتقره ولا تزدرِ به لئلا تقع في أيدي أعدائك. إياك أن تتمادى في ذِكر خطاياك القديمة والتلذُّذ بها لئلا تنتابك الأتعابُ. أحب الاتضاع فهو يحفظك من الخطيةِ. لا تكن معانداً أو متمسكاً بكلمتِك لئلا

يسكنك الشرُ. لا تضع في نفسِك أنك حكيمٌ فتقع في أيدي أعدائك. عوِّد لسانك دائماً أن يقول: «اغفر لي»، فيأتيك الاتضاع. إذا جلستَ في قلايتك فاهتم بهذه الثلاث خصال: ابدأ عملَ يديك وادرس مزاميرك وصلاتك، تفكَّر في نفسِك أنه ليس لك شيءٌ في هذه الدنيا سوى اليومِ الذي أنت فيه فلن تخطئَ. لا تكن نهِماً في الأطعمةِ لئلا تتجدد فيك خطاياك القديمة. لا تتضجر من الأتعاب مطلقاً فيأتيك النياح من قبل الله سريعاً. مثل بيتٍ خربٍ خارج المدينةِ يُرمى فيه كلُّ نتنٍ، هكذا نفسُ الراهبِ العاجز تصير مأوى لكلِّ شرٍ. جاهد في أن تصلي دائماً ببكاء لعل الله يرحمك ويخلِّصك من الإنسانِ العتيق ويعطيك الملكوت. ثبِّت نفسَك في هذه الخصال التي أقولها لك: التعزية، المسكنة، الصمت، فهذه كلها تجلب لك الاتضاعَ، والاتضاعُ يغفرُ الخطايا كلها. الاتضاع هو أن يعتقدَ الإنسانُ في نفسِه أنه خاطئٌ وأنه ما عمل شيئاً من الخيرِ أمام الله، وأن يلازم الصمتَ، وألا يعتبر نفسَه شيئاً، وأن يرفض هواه ولا يقيم كلمتَه، ويكون نظرُه إلى الأرضِ، وأن يضعَ الموتَ بين عينيه، وأن يحفظَ نفسَه من الكذب، وألا يتحدث بكلامٍ باطل، وألا يناقش من هو أكبر منه، وأن يتحمل الشتيمةَ بفرحٍ، ويُبغض الراحةَ، ويدرِّب نفسَه على التعب، وألا يُحزن أحداً.

وقال أيضاً: يا ابني كن مستعداً إزاء كلِّ كلمةٍ تسمعها لأن تقول: «اغفر لي»، وبذلك تهزم كلَّ قوةِ العدو. وليكن وجهُك دائماً معبّساً، إلا إذا أتاك إخوةٌ غرباء فكن بشوشاً فيسكن خوفُ الله فيك. إن سرتَ مع إخوةٍ في طريقٍ، فتباعد عنهم قليلاً ولتكن صامتاً. وإذا مشيتَ فلا تلتفت يُمنى ولا يُسرى بل ادرس في مزاميرك وصلِّ لله بفكرك. وأيَّ موضعٍ دخلتَه لا توجِد لنفسِك دالةً مع أهلِه، وكن جاداً في كل أمرٍ من أمورك. أيُّ شيءٍ يوضع أمامك فمد يدَك إليه بتغصبٍ، وإن رقدت في موضعٍ فلا تتغطَ أنت وآخر بغطاءٍ واحدٍ. وصلِّ صلاةً طويلة قبل أن تنام. وإن كنتَ قد تعبتَ من السيرِ في الطريقِ وأردت أن تدهن جسدَك بقليلٍ من الزيت فليكن لك ذلك بحياء، ولا تدع أحداً يدهن لك جسدك وأنت صبي. إذا كنت جالساً في قلايتك وأتاك أخٌ غريبٌ فادهن رجليه وقل له: أظهر محبةً وخذ قليلاً من الزيت وادهن به جسدك، فإن لم يُرد فلا تُكرهه إذا كان شيخاً عمالاً. إذا جلستَ على المائدة وأنت شابٌ فلا تتجرأ وتدعو إنساناً إلى الأكلِ وتشكر له في الطعام، بل اذكر خطاياك لئلا تأكل بلذةٍ، ومد يدك إلى ما هو قدامك

فقط، ولتغطِ ثيابُك رجليك، وركبتاك مضمومتان إحداهما إلى الأخرى. وإذا زارك غرباءٌ فأعطهم حاجتهم برضى، وإذا كفوا عن الطعام فقل لهم مرتين أو ثلاثة: اصنعوا محبةً وكلوا قليلاً. وإذا كنتَ تأكلُ فلا ترفع وجهَك في قريبك ولا تتلفت لا هنا ولا هناك ولا تتكلم كلمةً فارغة، وإذا شربتَ الماءَ فلا تدع حلقَك يُحدث صوتاً كما يفعل العلمانيون. وإذا كنتَ جالساً مع الإخوةِ واضطررت للبُصاق فلا تبصق في وسطِهم بل قم خارجاً وألقِهِ. لا تتماطأ في وسطِ الناس، وإذا جاءك التثاؤب فلا تفتح فمَك فيذهب. احذر من فتح فمِك بالضحك، فإن الضحك يوضِّح عدم وجود خوف الله. لا تشتهِ شيئاً لصاحبك، لا ثوبه ولا قلنسوته ولا غير ذلك مما له. ولا تتمِّم شهوةَ جسدِك وتصنع لك مثله. إن عملتَ لك مجلداً فلا تزينه فإن ذلك عثرة. إن أخطأت في أمر ما فلا تستحِ وتكذب، بل أسرع وقر بذنبك واستغفر فيُغفر لك. إذا وجه إليك إنسانٌ كلمةً قاسية، فلا تشمئز أو يستكبر قلبُك، ولكن بادر واصنع مطانية ولا تلُمه في قلبك، وإلا فالغضبُ يثور عليك. إن افترى أحدٌ عليك بشيءٍ لم تصنعه فلا تجزع ولا تغضب، بل اتضع واصنع مطانية، وسواء كنتَ قد فعلتَ أم لم تفعل ففي كلتا الحالتين قل: «اغفر لي فلن أعود لمثلِهِ مرةً أخرى». إذا كنتَ تقوم بعملِ يديك فلا تتوانَ البتة ولكن اهتم به بخوفِ الله لئلا تخطئ بدون وعي، وكلُّ عملٍ تؤديه لا تستحِ أبداً من أن تسأل من يعلمك قائلاً: «اصنع محبة وأرني»، وخذ رأيَه أيضاً فيما لو كان عملُك جيداً أم لا. إن دعاك أخوك وأنت جالسٌ تقوم بعمل يديك فاترك عملَك واسْعَ في راحتِهِ، إذا انصرفتَ من المائدة فادخل قلايتك ولا تجلس تتحدث مع من لا ينفعك، فإن كان الجالسون شيوخاً يتكلمون كلامَ الله فاستأذن معلِّمك أولاً فإن أذِنَ لك فاجلس واسمع كلامَهم، وكما يأمرك به افعله. إن أمرك معلمُك بقضاء حاجةٍ خاصة به فاسأله عن المكان الذي تذهب إليه لقضائها وما يشير به عليك لا تزد عليه ولا تُنقص منه. إن سمعتَ كلاماً غيرَ لائق فلا تبلِّغه لآخر. إن أردتَ أن تصنع أمراً لا يهواه الأخ الساكن معك فاقطع هواك واسعَ في خيرِهِ لئلا يقع بينكما شكٌ وتجربةٌ. إذا عزمتَ على السكنى مع إخوة فلا يكن لك مع أحدِهم دالة ما. ولا تخلط كلامَك بكلامِهم. إن فعلت ذلك فإنك تمكث زمانك كلَّه معهم في سلامةٍ. وإن طالبوك بأمرٍ لا تهواه فارفض مشيئةَ نفسِك وتمِّم ما يقولونه لك لئلا تحزنهم فتفقدون السلامَ فيما بينكم. إذا كنتَ ساكناً مع أخٍ وسألك قائلاً: «اطبخ لنا شيئاً»، فاسأله

عما يُحب، فإن ترك لك حرية الاختيار فمهما وجدتَه موافقاً له اطبخه بخوفِ الله. وكلُّ عملٍ تعملانه اشتركا فيه ولا يطلب أحدُكم راحةَ جسدهِ لئلا يضطرب فكرُ أخيه».

وقال أيضاً: إذا قمتَ باكرَ كلِّ يومٍ فقبل أن تقومَ بأيِّ عملٍ اقرأ كلامَ الله وبعد ذلك إن كان لك في القلايةِ عملٌ فاعمله بهمةٍ ونشاط. إذا جاءك أخٌ غريبٌ ليكن وجهُك له صبوحاً حين سلامك عليه، واحمل عنه ما يحمله بفرحٍ، وكذلك إذا أراد الانصرافَ ليفارقك بفرحٍ ولتودِّعه بخوفِ الله وبشاشة كي تكونا عند الفراق رابحيْن نفسيكما. وكذلك في حال وصوله إليك إياك أن تسأله عن أمورٍ لا تُخلِّص نفسَك، بل دعه يصلي أولاً، فإذا جلس قُل له: «كيف أنت؟ وكيف حالك»؟ ولا تزد على ذلك. وأعطه كتاباً ليقرأ فيه. فإذا كان قد جاء متعباً فاتركه حتى يستريح واغسل رجليه. فإن كان قد أتاك حاملاً إليك كلاماً ليست فيه منفعة فقل له: «اغفر لي يا أخي فإني ضعيفٌ ولست أقوى على سماعِ هذا الكلام». وإن كان ضعيفاً وثيابُه رثة فاغسلها له وخيطها إذا احتاجت إلى خياطة. وإذا جاءك أحدٌ من الطوافين وتصادف أن كان عندك رجلٌ قديس في نفس الوقت، فلا تُدخله عليه، ولكن اصنع معه رحمةً من أجلِ محبةِ اللهِ وأَخلِ سبيلَه. وإن كان مسكيناً فلا تصرفه من عندك فارغاً، بل أعطه من البركة التي أعطاك الله إياها. واعلم أن كلَّ شيءٍ لك ليس ملكك فأعطهِ من أجلِ الربِّ. إذا استودعك أخٌ وديعةً، إياك أن تفتحها لتعرف ما فيها إلا بحضرتِه، وإن كانت الوديعةُ ثمينةً جداً، فاسأله أن يسلمها لك ويعرِّفك بحقيقتها. وإن ذهبتَ إلى ضيعةٍ ونزلت عند إنسانٍ في قلايتِه واضطر أن يخرج هو لأمرٍ ما وتركك وحدَك في القلاية فإياك أن ترفع نظرَك لتبصر شيئاً مما في قلايتِه أو تُحرك شيئاً من موضعِه، ولكن عند خروجه قل له: «أعطني شيئاً أقومُ بعملِه»، وكلُّ شيء يوصيك به فافعله بلا كسل. إذا دخلتَ بيتَ الراحةِ لقضاء حاجة الطبيعة فلا تتباطأ، بل اذكر أن الله ينظر إليك دائماً.

إن قمتَ في قلايتك لتصلي ساعاتك فإياك أن تكون صلاتُك بتهاونٍ لأنك بذلك بدلاً من تُكرم الله تغضبه. ولكن قف بخوفٍ ورعدةٍ ولا تتكئ على الحائط ورجلاك مرتخيتان ولا تقف بواحدةٍ وترفع الأخرى. وإن كنتم تقرؤون صلواتكم وأنتم مجتمعون فليقدِّم كلُّ واحدٍ منكم صلاةً، فإن وُجد معكم غريبٌ فاطلبوا منه بمحبةٍ أن يصلي ولا تلحُّوا عليه أكثر من مرتين أو ثلاث. وإذا كنتَ واقفاً في القداسِ فراقب أفكارَك لكي توقف جسدَك وحواسَك بخوفِ الله لتستحق أن

تتناولَ من القربان الذي هو جسدُ المسيح ودمه الأقدسين، فيشفيك الربُّ.

إياك أن تترك جسدَك في حالةٍ لا تليق بسبب قذارتِه لئلا يسرقك المجدُ الباطل. ولكن إذا كنتَ شاباً فاترك جسدَك ليظهر بكلِّ سماجةٍ. لا تلبس ثوباً جيداً حتى تبلغ الكبر وتدخل في سن الشيخوخة. إذا سرتَ مع أخٍ أكبر منك سناً فلا تتقدمه البتة. وإذا تكلم من هو أكبر منك مع آخرين فإياك أن تحتقره وتجلس، ولكن قف حتى يسمح لك. إذا ذهبت إلى مدينةٍ أو قريةٍ فلتكن عينُك ناظرةً للأرضِ لئلا تسبب لك محاربات في قلايتك. إياك أن تبيت في قريةٍ وتنام في بيتٍ تخشى أن تخطئ فيه بقلبك. إذا دُعيت لتأكل عند إنسانٍ وعلمتَ أن هناك امرأةً جالسةً ستأكل معك فارفض ولا تأكل هناك البتة، لأنه خيرٌ لك أن تُحزن ذاك الذي دعاك من أن تزني بفكرك في الخفاء. حتى وإن رقدت فلا تبصر ثيابَ النساءِ بعينيك. وإن كنتَ في طريقٍ ولقيتك امرأة فجاوبها بفمِك فقط. وإذا ذهبت في طريقٍ وكان معك شيخٌ فلا تدعه يحمل أحمالَه البتة بل احملها أنت عنه. وإن كنتم سائرين في طريقٍ وكان معكم إنسانٌ ضعيف فليكن هو المتقدم وذلك لكي يمكنه أن يجلسَ إذا أراد الجلوس. إن كنتم شباباً واجتمعتم عند إنسانٍ وأراد أن يغسل أرجلَكم وسألكم أن تباركوا على المائدة فاسبقوا أولاً واعرفوا منزلةَ كلِّ واحدٍ منكم حتى إذا حان وقتُ الأكلِ لا ترتبكون ولا تتزاحمون. وليكن جلوسُكم بترتيبٍ: الأول فالثاني فالثالث وهكذا.

وقال أيضاً: إن سألك شيخٌ عن أفكارِك فاكشفها له بصراحةٍ متى تأكدتَ أن له أمانةً ويحفظُ كلامَك. ولا تنظر إلى كبر السن بل اعتمد على من له علمٌ وعملٌ وتجربةٌ ومعرفةٌ روحانية، لئلا يُزيدك سِقماً بدلاً من أن يهبك شفاءً. إذا تحدث أناسٌ بأفكارٍ لم تبلغها بعد ولم تُحارَب بها فامتنع من سماعِ كلامِهم هذا لئلا تجلب على نفسِك ذلك القتال. ألزِم نفسَك كلَّ يومٍ بأن تصلي في نصفِ الليل صلواتٍ كثيرةً لأن الصلاةَ هي ضوءُ النفس. راجع نفسَك كلَّ يومٍ عما صنعته فيه من الخطايا وصلِّ إلى الله من أجلِها فيغفرها لك. إن سمعتَ أخاً يدين آخر فلا تستحِ منه أو توافقه لئلا يغضب الله. بل قل باتضاعٍ: «اغفر لي يا أخي فإني شقيٌّ وهذه الأمور التي تذكرها أنا منغمسٌ فيها ولستُ أحتمل ذكرها». إن أساء إليك أخٌ وجاء آخر وعاب فيه عندك فاحفظ قلبَك لئلا يتجدد فيه ذكرُ الشرِ الذي أساء به إليك ذلك الإنسان. إذا مضيْت إلى ضيعةٍ مع إخوةٍ لا تعرفهم فأعطهم التقدم في كل شيءٍ ولو كانوا أصغر منك. وإن نزلتَ عند

صديقٍ لك فليكونوا هم المتقدمين عليك في كلِّ شيءٍ على المائدة وغيرها. لا تظن في نفسِك أنه بسببِك يكرمهم صديقُك، بل قل لهم: «إنه بسببِكم يصنع بي الرحمةَ». إن مررتَ في طريقٍ مع أخٍ وحدث أن قابلتَ صديقاً لك وأردتَ أن تسأله في أمرٍ ما واستأذنت الأخَ قائلاً: «استرح قليلاً حتى آتي إليك»؛ فإن دعاك صديقُك أن تدخلَ لتأكلَ عنده، فإياك أن تلبي دعوتَه دون أن تُشرك الأخَ الذي معك. إذا دخلتَ قلايةَ أخٍ ليس لك به سابق معرفة فحيثما أجلسك اجلس ولا تتحرك من الموضع الذي أجلسك فيه إلا بدعوةٍ منه. إن كنتَ ساكناً في قلايةٍ فإياك أن يكون لديك إناءٌ يمنعك من حفظ وصيةِ ربك، وإن سألك أخٌ أن تعيره إناءَك فأعطه إياه، رغم حاجتك إليه ورغم عدم وجود غيره عندك، وإياك أن تجلس بعد ذلك متضايقاً مرتبكاً، فخير لك أن يهلك أحدُ أعضائِك من أن يذهب جسُدك كلُّه إلى جهنم. الذين فارقتَهم حباً في الله لا تُكثر ذكرَهم في قلبك لئلا ينشغل عقلُك بهم، بل اذكر الموتَ والدينونة وكيف أنه لا يستطيع أحدٌ منهم أن يعينك في ذلك اليوم. إذا كنتَ في قلايتك وتذكرتَ أن إنساناً أساء إليك وأحزنك، فقم في الحال وصلِّ من أجلهِ من كلِّ قلبِك أن يغفرَ الله له، وبذلك تنطفئ عنك محبة مكافأة الشرِّ بالشرِّ. إذا أنت ذهبتَ لتتناول جسدَ المسيح ودمَه الأقدسين فإياك أن يكون في قلبك حقدٌ أو غيظٌ على إنسانٍ، فإن علمتَ أن في قلب إنسانٍ عليك شيئاً فاذهب واستغفر منه أولاً لئلا تأخذ دينونةً لنفسِك وهلاكاً. إن قوتلت بزنى في أحلامِ الليل، فاحفظ فكرَك من تذكُّرها بالنهار ولا تذكر أيضاً تلك الأجساد التي أبصرتَها في أثناء نومِك لئلا تتدنس بلذتِها وتجلب على نفسِك حزناً، ولكن ألقِ ضعفك أمام الله وهو يعينك لأنه رحومٌ يرثي لضعف الإنسان. فإذا ألزمت نفسَك بصومٍ كثيرٍ وصلاة مستمرة فلا تثق بأنك ستخلص بعد ذلك، ولكن قل في فكرِك: «إني أرجو من الله بصلاة قديسيه أن يصنع مع ضعفي رحمةً من أجل الشقاء الذي شقي به جسدي». إن شتمك إنسانٌ فلا تُجبه حتى يسكت. وفتش نفسَك بخوف الله فإنك سوف تجد أن ما قد سمعتَه كائنٌ فيك وأن العلةَ هي منك. فاصنع له مطانية مثل إنسانٍ يعرفُ بالحقيقةِ أنه هو الذي أخطأ.

إن كنتَ ماضٍ مع إخوةٍ في طريقٍ وكانت بينك وبين أحدٍ محبةٌ فلا تكن لك دالةٌ معه أمامهم لئلا يكون فيهم أحدٌ ضعيف فيموت من الغيرة منكما. وتكون الخطية عليك لأنك

سبَّبت له عثرةً. إن أردتَ الذهاب إلى أناسٍ فلا تضع في قلبك أنهم سوف يفرحون جداً بلقائك. فإن قبلوك اشكر الله على قبولهم لك. إذا أصابك مرضٌ وأنت ساكنٌ في قلايتك فلا تصغر نفسُك بل اشكر الله على ذلك. إن مضيتَ إلى إخوةٍ وقال لك أحدهم: «إني لا أستطيع النجاح ما دمتُ مع هؤلاء وأودُ أن أسكن معك»؛ فإياك أن تبادر بموافقتِه على ذلك لئلا تصير عثرةً له ولكثيرين غيره. فإن أباح لك بأفكارٍ مكبوتةٍ فيه وعلمتَ إزاءها أنه سيهلك بوجوده في وسطهم فعرِّفه بأن يهرب إلى مكانٍ آخر وارفض سكناه معك. إذا كنت ساكناً في قلاية فاجعل لطعامِك مقداراً معيناً، ووقتاً معروفاً لا تتعداه. وأعطِ جسدَك حاجته بالقدر الذي به تستطيع أن تخدم الله في صلاتك. ارفض محبةَ الخروجِ والجولان فيما لا ينفعك. وإن عرض لك أمرٌ هام كافتقاد أخٍ أو الذهاب إلى ديرٍ وقدموا لك طعاماً لذيذاً، فلا تشبع منه، وأسرع في العودةِ إلى قلايتك.

وقال أيضاً: «إن أشغل الشياطينُ قلبَك بأتعابٍ تفوق طاقتك، فلا تُطعهم لأنهم يشغلون قلبَ الإنسان بأمورٍ لا يقوى عليها حتى إذا ضعف وقع في أيديهم، فيضحكون عليه لأن كلَّ أمورِ العدو هي بلا نظام وبلا حدود. ولكن كُلْ مرةً واحدةً في النهار، وأعطِ جسدَك حاجته بقدرٍ بحيث تكف عن الطعام وأنت لا زلت تشتهيه. كذلك سهرك يكون بقدرٍ، اسهر نصفَ الليلِ في الصلاةِ والنصف الآخر لراحة جسدِك. ومن قبل أن تنام اسهر ساعتين مصلياً ومزمراً، وإذا اقتنيتَ طولَ الروح فاصنع قانونك بحرصٍ واجتهاد، وإن أبصرتَ جسدَك قد كسل فقُل له: «أتريد أن تستريح في هذا الزمان اليسير وتذهب إلى الظلمةِ الخارجية، أليس من الأفضل لك أن تتعب زماناً يسيراً لتتنيَّح مع القديسين إلى الأبد». وبهذا الكلام يذهب الكسلُ وتأتيك المعونةُ.

إن أنت بعت شغلَ يديك فلا تتشدَّد في الثمن كالعلمانيين. كذلك إذا أردتَ أن تشتري شيئاً فزِد على ثمنِهِ قليلاً وخذه، وإن لم يكن معك ما يساوي قيمته فاتركه بسكوت. إن أودع أخٌ عندك إناءً واحتجت إليه احتياجاً شديداً فاحذر أن تمسَّه بأذيةٍ. إن ذهبتَ إلى قريةٍ وأوصاك أخٌ أن تشتري له شيئاً فاشترِهِ له كما لو كنتَ تشتريه لنفسِك. وإن كان معك إخوةٌ وقتئذ فأشركهم في هذا الأمر. إن اتفق لك قضاء مصلحةٍ هامة في بلدِك فاحفظ نفسَك من أهلك وأقربائك ولا يكن لك معهم دالةٌ ولا خلطة في كلامٍ أو في غيرِهِ. إن استعرتَ من أخيك فأساً أو غيره فلا

تتوانَ في أن تردَّه إليه عند قضاءِ حاجتك ولا تتركه حتى يطلبه منك، فإن انكسر فجدِّده له. إن أنت أقرضت إنساناً مسكيناً شيئاً وعرفت أنه ليس له ما يوفيك، فلا تُحزنه ولا تضيِّق عليه في شيءٍ مما أعطيته سواء كان ثياباً أم وزنات أم غير ذلك. إن أقمتَ في مكانٍ وبنيتَ لك فيه قلايةً وأنفقت في بنائها نفقةً ما، ثم بدا لك بعد حين أن تخرج منها، وأقام فيها أخٌ آخر، وأردتَ الرجوع إليها مرة أخرى، فاحذر من أن تُخرج ذلك الأخ منها، ولكن ابحث لنفسِك عن قلايةٍ أخرى، وإن كنتَ وقت خروجِك منها أولاً قد تركتَ فيها متاعاً ووجدت أن الأخ قد أحرقه فلا تطالبه بشيءٍ منها، وإن أردت أن تنتقلَ من قلايةٍ إلى أخرى فاحذر من أن تأخذ معك شيئاً من متاعِها، بل اتركه للأخ الذي سيسكن فيها والله يرزقك أنت حيثما كنت. كلُّ فكرٍ يحاربك اكشفه ولا تستحِ أن تقول به لمن هو أكبر منك بالروحانية، فيخفَّ ذلك الفكرُ عنك ويذهب، واعلم أنه لا يوجد شيءٌ يَفرح له الشياطين مثل إنسانٍ يُخفي أفكارَه، رديئةً كانت أم جيدةً. وإذا طغى أخوك بجهلِهِ بسبب الهراطقة، ثم رجع إلى الإيمان القويم فلا تحتقره واحفظ نفسَك من مجادلةِ المخالفين بحجة أنك تريد الدفاع عن الإيمان، لئلا يؤثِّر كلامُهم فيك فتهلك. وإن وجدت كتاباً من كتبهم فلا تقرأ فيه لئلا يمتلئ قلبُك بسمِ الموتِ، بل تمسَّك بأمانتك كما أضاءت لك المعمودية، كن على حذرٍ من تعليم الكذاب المضاد».

وقال أيضاً: «إن سمعتَ أخبارَ القديسين وأعمالَهم الشريفة فلا تطمع في اقتنائها بلا تعبٍ. إن لم تشفِ نفسَك أولاً وتتأهل لها، حتى إذا أقدمتَ على عملِها جاءتك من تلقاء نفسِها. احفظ نفسَك من الملل فإنه يُتلف ثمرةَ الراهبِ. إن كنت مقهوراً من وجعٍ وأنت تجاهده فلا تمل، بل ألقِ نفسك قدام الله وقل: «أعني يا ربُّ أنا الشقي فإني لا أقوى على هذا الوجع»؛ فيُعينك سريعاً إن كانت طِلبتُك بقلبٍ مستقيمٍ. إن كنتَ في شيءٍ من تعبِ الرهبانية ورأيتَ الشياطين قد انهزموا منك وغُلبوا في القتالِ، فلا تطمئن، بل كن على حذرٍ منهم. واعلم أنهم يهيئون لك قتالاً أشرَّ من الأول، ويكمُنون لك به من وراء، فإن أنت ناصبتهم تظاهروا بأنهم طُردوا بمكرٍ منهم، وذلك ليستكبر قلبُك وتثق بقوتِك، فإذا أبصروك قد خرجت هكذا عن فضيلة الاتضاع، قام الكمينُ عليك من ورائك وهاجمك الآخر من قدامك وأحاطوا بنفسك التي لم يكن لها ملجأ وقتئذ. فلا تمل إذاً من الصلاةِ إلى الله بأن يخلِّصك ويدفع عنك كلَّ بليةٍ تأتيك، فإن لم يسمع

منك سريعاً فلا تمل من التضرع إليه لأنه يعرف ما فيه خيرك أكثر منك. وإذا صليتَ إلى الله فلا تقل له: «ارفع عني هذا وهبني ذاك». بل قل: «يا ربي يسوع أنت عوني ورجائي وأنا في يديك، وأنت تعرف ما هو صالحٌ لي، فأعني ولا تتركني أخطئ إليك أو أتبع هواي، ولا ترفضني فإني ضعيفٌ ولا تسلِّمني لأعدائي، فإني لجأتُ إليك فخلصني بتحننك، ليخزَ كلُّ الذين يقومون عليَّ لأنك أنت القادر على كل شيءٍ، ولك المجد إلى الأبد، آمين».

وقال أيضاً: إن الإنسانَ لا يستطيعُ أن يتحفَّظ من الخطيةِ إن لم يحفظ نفسَه مما يلدها. وهذه هي الأشياء التي تلد الخطية: صغرُ النفس، الملل، إتمام الهوى، حبُّ الاتساع، طلب الرئاسة، حديث العالم، التماس ما لا ينبغي، عدم الحذر من الناس، سماع الوقيعة، نقل الكلام من أناس إلى أناس، الذي يحبُّ أن يُعلِّم دون أن يسأل، الذي يدين القريب، فهذه الأمور وغيرها لَمَّا تلدُ الخطيةَ. فمن أراد أن ينجحَ ويتقدم في الأعمالِ الصالحة، فليحفظ نفسَه من كلِّ شيء يلد الخطيةَ، فإن الخطيةَ منها وبها. فمن حرص فهو يجد خيراً في الأعمال الصالحة، ومن تهاون وتغافل فهو يعدُّ نفسَه للعذاب، لأنه واجبٌ على كلِّ معتمدٍ أن ينقي نفسه من كلِّ الشرور، فإن أنت قطعتَ هواك بمعرفةٍ اقتنيتَ لنفسِك التواضع، أما الذي يريد أن يتمِّم هواه فذاك يُعدم الصلاحَ كلَّه. فلنهرُب من اللجاجةِ (أي من العنادِ والمجادلة) فإنها تهدمُ كلَّ بنيان الفضيلة وتصيِّر النفسَ مظلمةً لا تبصر شيئاً من الصلاحِ. فتحفَّظ من هذا الوجع الرديء الذي إذا اكتنف أيَّ صلاحٍ أعدمه، لأن ربنا ما أن طلع على الصليب حتى طوَّح يوداس من وسطِ تلاميذه. فإن لم يقطع الإنسانُ هذا الوجع الرديء (أي اللجاجة) فلن يستطيعَ أن يدركَ شيئاً من أمورِ الله، لأن كلَّ شرٍ في الدنيا يلحقُ صاحبَ هذا الوجع. وهذا الوجع هو نتيجة الكبرياء، لأن المتكبر لا يقدر أن يتحمَّل شيئاً من الموعظةِ وهو محبٌّ لمجدِ الناس والغلبة، ويسكن في نفسِه كلُّ أمرٍ يبغضه الله، لأن المستكبرَ لا يقدر أن يكونَ بغير عثرةٍ، وهو يسلِّمُ نفسَه بنفسِه إلى أيدي أعدائه. وحينئذ يصنعون بها شروراً كثيرة، فلنهرب من المجدِ الباطل ولنذكر في كل حين مجدَ العالم العتيد ولنقطع أهويةَ قلوبنا ولنلتمسَ مشيئةَ الله ونتممها.

فالنفس التي تريدُ أن تقفَ أمامَ الله بغير ذنبٍ فلتحرص كالتاجر الذي يطلب الأرباحَ ويفرُ من الخسائرِ، أما خسائر تجار المسيح فهي: طلب مجد الناس، الكبرياء، تزكية الذات، التكلم بما

يغضب السامعين، محبة الأخذ والعطاء؛ هذه كلها خسائر ولا يستطيع أحدٌ أن يُرضي الله وهذه كلُّها في خزانةِ قلبه. فمن أراد أن يجيء إلى نياح الرهبنة فليتباعد من الناس في كلِّ الأمور، ولا يمدح إنساناً، كما لا يزدري به ولا يدينه ولا يزكيه، ولا يترك في قلبه هماً من ناحيةِ إنسانٍ، وليرفض من كلِّ قلبه مقابلة شر إنسان بشرِهِ لئلا تكون خدمتهُ باطلةً، لأن الذي لا يهتم بأحدٍ ويدين نفسَه وحدَه ويلومها فحياته تكون هادئةً مستريحةً. لأن النقي يحبُّ أن يكونَ كلُّ الناسِ أنقياء، أما الذي في قلبه وجعٌ، فلا يرى أحداً نقياً بل كنحو أوجاعِهِ يفكر في قلبه عن كلِّ أحدٍ، وإن سمع مديحاً في إنسانٍ يحسده. وهذا أقوله لكي تتحفظ فلا تزدري بإنسانٍ وأبطل معرفتك واقطع هواك. فإنَّ من وثق بمعرفتِهِ وتمسك بهواه لا يستطيع أن يفلتَ من أيدي الشياطين ولن يبصرَ نقائِصَه ولن يجد راحةً، أما إذا خرج من هوى الجسد فبتعبٍ يجدُ رحمةً، ومجمل هذا كله أن تراقب اللهَ من كلِّ قلبك ومن كلِّ قوتك وتترحم على كلِّ الخليقة وتطلب من الله العونَ والرحمةَ في كلِّ ساعة.

وقال أيضاً: «السكوت هو أن تَرضى بكلِّ شيءٍ ولا ينبغي أن تشغل قلبَك بأمرٍ لا يعنيك. النقاوة هي عقلٌ متيقظ وحسٌ ملتصق بالله. أحبَّ السكوتَ أكثرَ من الكلامِ، لأن السكوتَ يجمعُ، والكلامَ يبدِّدُ. الراهب لا يستطيع أن يحفظَ جهادَه إلا بالسكوتِ وبالهدوء، وأن لا يحسبَ نفسَه شيئاً في أمرٍ ما. من هو في السكوتِ فهو محتاجٌ إلى هذه الثلاث خصال: خوفُ الله، صلاةٌ دائمة، أن لا يدع قلبَه يُسبى بأمر ما. من هو في السكوتِ ينبغي له أن يجعلَ خوفَ ملاقاة الله متقدماً كلّ نَفَسٍ من أنفاسِه. ما دام القلبُ يخضعُ للخطيةِ فما صار خوفُ الله فيه بعد، وهو لا زال بعيداً عن الرحمةِ. ذلك الإنسان الذي يتكلم بكلام العالم أو يسمعه مراراً كثيرة، لا يقدر أن يكونَ له في قلبهِ دالةٌ قدام الله في صلاتهِ. أبغض كلَّ ما في العالم من نياح الجسد لأن ذلك يُصيِّرك عدواً لله. فقاتل الجسدَ كمن يقاتل عدواً لدوداً جداً. الذي يطلب الربَّ بوجع قلبٍ يسمع منه إن هو سأله باهتمامٍ ومعرفةٍ وهو غيرُ مرتبطٍ بشيءٍ من العالم إلا بنفسِه فقط، وذلك لكي يوقفها قدام الرب بلا عيبٍ كنحو قوتِهِ.

وقال أيضاً: «ثلاثُ فضائل يحتاج إليها العقلُ دائماً: تركُ الغضب، عدم التهاون، الشجاعة. وثلاث فضائل أخرى إذا ازدان بها العقلُ يثق بأنه قد بلغ الحياةَ وهي: إفراز الجيد من

الرديء، التبصُّر في الأمورِ قبل الإقدام عليها، عدم الخضوع لأمرٍ غريب. وثلاث فضائل كذلك تبعث في العقل ضوءاً مستديماً وهي: أن لا يعرف شرَّ إنسانٍ، أن يصنعَ الخيرَ مع الذي يصنعُ به الشرَّ، أن يتقبل ما يجلبه العدو عليه بلا ضيق صدرٍ. فالذي لا يعرف شرَّ إنسانٍ فقد أدرك المحبةَ، والذي يفعل الخيرَ مع من يفعل به الشرَ فقد أدرك السلامةَ، والذي يقبل ما يأتيه من العدو بلا ضيقِ صدرٍ فقد اقتنى الوداعةَ. كذلك أربع فضائل تزكي النفسَ: السكون، حفظ الوصايا، الانفراد، الاتضاع. الصيام يُذل الجسدَ والسهرُ ينقي العقلَ والسكوتُ يجلب النوحَ، والنوحُ يغسل الإنسانَ ويصيِّره بلا خطية. طوبى لمن اهتم من أجل جراحاتهِ لتُشفى، وعرف خطاياه وطلب من أجلِها الغفران. إن أراد العقلُ أن يرتفعَ على الصليبِ فإنه يحتاج إلى طلبةٍ كثيرة ودموعٍ غزيرة وخضوعٍ في كلِّ ساعةٍ قدام الربِّ، ويسأل من طيبته المعونةَ حتى يقيمه غيرَ مقهورٍ متجدداً بالروح القدس. لأن شدائدَ كثيرةً عند ساعة الصليب، وهو محتاجٌ إلى صلاةٍ وإيمانٍ صحيح وقلبٍ شجيع ورجاءٍ بالله إلى آخر نفس. الذي له المجد إلى الأبد، آمين.

وقال أيضاً: إذا صليتَ ولم يَرِد على فكرِك شيءٌ من الشرِّ فقد صرتَ حراً. الذي يلوم أخاه أو يحتقره أو يشي به قدام آخرين أو يُظهر له غضباً، فقد صار بعيداً من الرحمةِ. إن قال إنسانٌ: «إني أريدُ أن أتوبَ عن خطاياي»، وهو لا يزال يفعلُ شيئاً منها فهو كذاب. من يريد أن يلازمَ السكوتَ من غير أن يقطع علل الأوجاع فهو أعمى. الذي يتجاهل خطاياه ويريد أن يقيمَ آخرين فهو جاهلٌ. من لا يدين أحداً فقد استحق النوح، إذا انشغلتَ عن خطاياك وقعت في خطايا أخيك. إن كافأتَ شراً بشرٍ فذلك يُبعدك من النوح. إن قبلتَ شيئاً من السُبح الباطل ابتعد منك النوحُ. إن صنعتَ هواك طردت عنك النوحَ. إن قلتَ إن فلاناً صالحٌ وفلاناً شريرٌ خزيتَ نفسَك، إذ تركت الاهتمام بخطاياك واهتممت بما لا يعنيك. إن قيل عنك كلامٌ لا تعرفه فتسجست فقد أبعدت عنك النوح. إن كلَّمك إنسانٌ فلا تجادله محاولاً تثبيت كلمتك، وإلا فليس فيك نوحٌ. فهذه الأمور كلّها تدلُّ على أن الإنسانَ العتيق لا يزال حياً فيك. إن حفظت وصايا المسيح كلَّها وعملتها، قل: «إني لم أُرضِ الله قط». يا إخوتي، تأكدوا بحرصٍ أن تكون شهوتنا بالله، لنسلَم من الشرور. لنلازم محبةَ المساكين لنخلُص من حبِّ الفضة. لنكن متصالحين مع كلِّ أحدٍ لنخلص من البغضِ. لنكن محبين لجميع الناس لنخلص من الغيرة. لنتحمل تعيير

إخوتنا إذا هم رذلونا لنخلص من العظمةِ. لنحرص على كرامةِ إخوتنا لكي ما نخلص من الدينونةِ. لنرفض شرفَ العالم وكراماته لنتخلص من المجدِ الباطل. لتكن ألسنتُنا ملازمةً ذكر الله والعدل لكي ما نخلص من الكذب. لننقِ قلوبَنا وأجسادَنا من الشهوةِ الرديئة لكي ما نخلص من النجاسةِ.

وقال أيضاً: الحكيمُ هو الذي يحرص إلى الموت على مرضاة الله. لنعمل بقدر قوتِنا والله يُعينُ ضعفَنا. ليكن فكرُك بالله وهو يحفظك. أمورُ العالمِ لنتركها وننطلق. وما تصنعه من أجلِ اللهِ فهو يعينك في ساعةِ شدَّتِك التي هي ساعةُ الموت. أبغض كلامَ العالم ليفرح قلبُك بالله. أحبَّ الصلاةَ في كلِّ حينٍ ليضيء قلبُك بأسرارِ الله. أبغض الكسلَ لكيلا تحزن. إذا قمتَ في موقفِ الأبرارِ احتفظ بلسانك ليسكن في قلبك خوفُ الله. أعط المحتاجين بعينٍ واسعةٍ حتى لا تحزن بين القديسين. لتكن محباً للمؤمنين لتحلَّ عليك رحمةُ الله. لتكن محباً للقديسين لتغار بأعمالهم الصالحة. اذكر دائماً أبداً ملكوتَ السماوات وما أُعد فيه للقديسين ليقودك الشوقُ إليه. كن متفكراً في كلِّ حينٍ بجهنم لكي ما تُبغض الأعمالَ المؤدية إليها. إذا قمتَ باكر كلِّ يومٍ تذكَّر أنك ستعطي لله جواباً عن أعمالِك فإنك بذلك لن تخطئ ومخافةُ الله تسكن فيك. هيئ نفسَك دائماً أبداً للقاءِ الله لكي ما تصنع مشيئتَه. تفرَّس في نفسِك كلَّ يومٍ لتعلم أيَّ وجعٍ غلبتَ ومن أيِّ وجعٍ أنت مغلوب، أعني الشهوات الجسَدَانية. ولتكن مجتهداً بكلِّ قوتك في أن تغلبَ كلَّ الشهواتِ الرديئة. كن دائماً أبداً حذراً منتبهَ العقلِ في كلِّ حينٍ. وإياك أن تفكِّر بالعظمةِ أو تقبل هذه الفكرة، لأن بذلك صار رئيسُ الملائكةِ شيطاناً. كلُّ من يريد أن يغلبَ بالكلامِ فبلا شكٍّ قد دلَّ على أن مخافةَ اللهِ ليست فيه ولا اتضاع، الذي يحبُّ اللهَ لا يهتم إلا ببُغض الشهواتِ النجسة وعمل الصلاح وتعب الجسد بمعرفةٍ، أما الغفلةُ والتواني فهما يولِّدان فينا أوجاعَ الجسدِ النجسة. من يُغلب من لسانِه فهو ما زال عبداً. أما من غَلب لسانَه فقد صار حراً. قلةُ الرحمةِ تُعبِّر عن أننا لا نحبُّ اللهَ. كثرةُ المناصبةِ أي الوقوف في وجه الغير المقرون بالشتائم والانتقادات والكلام اللاذع، تدلُّ على أننا أشرار. البركةُ تلدُ البركةَ. والصلاحُ يلدُ الصلاحَ. فأما الغضبُ فمن قساوة النفسِ. كثرةُ النومِ فيها خسارةُ العقلِ، وجفافُ العينين، وتغلُّظ القلب. الرقادُ بمعرفةٍ في السكوتِ أفضلُ من الكلامِ الباطلِ مع السهرِ».

وقال أيضاً: من لازم النوحَ فهو يهربُ من كلِّ الشرورِ ومن كلِّ سجسٍ. من كفَّ عن شرِ الناس فذاك بالحقيقة قد انطبع فيه اتضاعُ سيدنا يسوع المسيح وأخزى الشيطان. من يُحبُ مدحَ الناسِ فهو شقيٌ وقد شملته الظلمةُ. ضبطُ البطنِ يُذهب الأوجاعَ، أعني الشهوات الرديئة. أما شهوةُ الأطعمةِ فتجلبها. من يحبُّ اللهَ فذاك قد تغرَّب عنه شيطانُ التهاون. ومن تحاشى الحديثَ الرديء الربُّ يحفظه من السقطات. أما كثرةُ الحديث فمنها تأتي الرعونةُ والملل. من قطع هواه من أجلِ أخيه لمرضاة الله فقد أنبأ عن نفسِه أنه قد اقتنى الفضائل. أما الذي يُرضي هواه فقد أظهر أنه غيرُ خائفٍ من الله. من لازم مخافة الله فذاك قد اقتنى حكمةً سمائية. وأما من ليس فيه مخافةُ الله فقد عَدِمَ كلَّ خيرٍ. محبةُ المالِ تضايق العقلَ. من أحبَّ كلامَ العالمِ فقد أقفرت نفسُه من كلِّ صلاحٍ. من كتم خطاياه عن صاحبِ سرِّه فقد دلَّ على تعاظمه، وقد تملَّك عليه عدوه. أما الذي يُفشي أفكارَه فيستريح. بدءُ الصلاحِ هو المحبة والاتضاع والمسكنة، وعدم الدالة، أما خرابُ النفسِ فهو حبُّ البطنِ. الخلطة مع العلمانيين تمنع التوبةَ وتبرِّد الحرارة. والفرار منهم ينشِّط إلى العمل الروحاني. محبةُ أمورِ العالم تجعل النفسَ تُظلم. الكسلُ يجلبُ علينا الأعداءَ. لا تقبل أفكارَ السوءِ وتجلس تتحدث عنها لئلا تكون جالساً تحادث الشيطان مشافهةً. لأن الأفكارَ الرديئة من فمِه تخرجُ، فافطن له ونبِّه عقلَك مقابله وتقوَّ عليه باسم ربنا يسوع المسيح. ولا تكن متكِلاً على قوتِك وصلاحك. بل كن طالباً العونَ والرحمةَ من المسيح لكي ما يفرح بك وينيحك. احذر لئلا تكون بينك وبين الناسِ معاملةٌ ما دمتَ في التوبةِ فإن الخلطةَ تشغلك عن الروحانية. احتفظ بقلبك وعينيك فلن يصيبك بأسٌ في جميعِ أيامِ حياتك. كلُّ من نظر في وجه أخيه بلذةٍ شيطانية فقد فسق. لا تقبل أن تسمعَ ضعفات أخيك أو تلومه، وإلا فأنت هالكٌ. اعمل لكي ما تعطي المساكين من عرقِ جبينك لأن البطالةَ موتٌ وهلاكٌ، واحرس قلبك قبل كلِّ شيءٍ كي يكون لك عملٌ روحاني في كلِّ رهبنتك. لا تعمل عملاً في توبتك بدونِ مشورةٍ، فتعبُر أيامك بنياحٍ.

الأنبا يوحنا القصير

هذا مضى إلى شيخٍ تبايسي كان مقيماً في البريةِ فتتلمذ له، وحدث أن معلِّمَه دفع إليه غُصناً يابساً وأمره أن يغرسَه ويسقيه كلَّ يومٍ بجرةِ ماء، وكان الماءُ بعيداً عنهما، فكان يمضي في

العشيةِ ويجيءُ في الغدِ. وبعد ثلاث سنين اخضرَّ الغصنُ وأعطى ثمرةً. فجاء بها إلى الشيخِ، فأخذها الشيخُ وجاء بها إلى الكنيسةِ وقال للإخوةِ: «خذوا كلوا من ثمرةِ الطاعةِ».

وحدث مرّة أن قال لأخيه الأكبر: «إني أودُّ أن أكونَ بغيرِ همٍّ مثل الملائكة، لأنه لا اهتمام لهم ولا شيئاً يعملونه سوى أنهم يتعبدون للهِ دائماً». وإنه نزع ثوبَه وخرج عارياً إلى البريةِ. فأقام أسبوعاً ثم عاد إلى أخيه، فلما قرع البابَ عرفه أخوه، فَقبْلَ أن يفتحَ له البابَ قال له: «من أنت»؟ فقال:« أنا يوحنا أخوك». فجاوبه: «إن يوحنا أخي قد صار ملاكاً وليس هو من الناسِ الآن». فردَّ عليه قائلاً: «أنا هو أخوك». فلم يفتح له البابَ وتركه إلى الغدِ، حيث فتح له وقال: «اعلم الآن أنك إنسانٌ محتاجٌ إلى عملٍ وغذاءٍ لجسدِك»، فصنع له مطانية واستغفر منه.

قال الأب يوحنا القصير: «إذا أراد ملكٌ أن يأخذَ مدينةَ الأعداءِ فقبل كلَّ شيءٍ يقطعُ عنها الشرابَ والطعامَ، وبذلك يُذلُّون فيخضعون. هكذا أوجاعُ الجسدِ، إذا ضيَّق الإنسانُ على نفسِه بالجوع والعطش إزاءها فإنها تضعف وتذلَّل له».

وقال أيضاً: «من امتلأ بالطعامِ وتحدث مع صبيٍ فقد زنى معه بفكرِه».

وقال أيضاً: «إني كنتُ ماضياً مرةً في طريقِ الإسقيط ومعي القففُ محمولةً على جملٍ، وفجأة أبصرتُ الجمّال وقد تحرك فيه الغضبُ، فتركتُ كلَّ ما كان لي وهربتُ».

ومرة أخرى كان في الحصادِ فأبصر أخاً قد غضب على آخر، فهرب وترك الحصادَ.

وجاء مرة إلى الكنيسةِ فسمع مجادلةً في الكلامِ بين الإخوةِ، فرجع إلى قلايتِهِ ودار حولها ثلاثَ دوراتٍ ثم عاد ودخل فيها. فسألوه لماذا فعلتَ ذلك؟ فقال: «إن صوتَ المجادلةِ كان لا يزالُ في أذني، فقلتُ: أخرجه من أذني قبل أن أدخل قلايتي، كي يكون عقلي داخل القلايةِ نقياً».

وقال أيضاً: «إن عقلَ الإنسانِ آنيةٌ للهِ وله الاستطاعة أن ينظِّفه كي يمكنه أن يجلس في القلايةِ. أما إن جعله الإنسانُ وعاءً لحديثِ العا لم فلن يستطيعَ أن يجلسَ في القلاية».

وحدث مرة أن كان جالساً مع الإخوةِ قدام نرثكس الكنيسة (أي قدام مدخلها)، وكان كلُّ واحدٍ منهم يكشف له أفكارَه، فنظره أحدُ الشيوخِ وامتلأ حسداً عليه، فقال: «يا يوحنا،

إنك ممتلئٌ سحراً»، فقال: «الأمرُ هكذا كما تقول يا أبتاه، ولكنك بنيت حُكمَك هذا على ما نظرته في الظاهر، فما عساك كنتَ تقول لو علمتَ بالخفاءِ».

ومرة كان جالساً في الإسقيط وقد أحدق به الإخوةُ يكشفون له أفكارَهم. فلما رآه أحدُ الشيوخِ قال له: «يا يوحنا، لقد زيَّنت ذاتَك كالزانيةِ التي تُكثر من عشاقِها». فصنع له مطانية قائلاً: «حقا قلتَ يا أبتاه». وبعد ذلك سأله الإخوةُ إن كان قد اضطرب من داخل، فقال: «ما اضطربتُ البتة، لكن كما كان خارجي كذلك كان باطني».

ومرة سألوه :«ما هو عملُ الراهبِ»؟ فقال: «تعبُ الجسدِ وضيقُ البطنِ وغَلَبةُ الإرادةِ».

ومرة كان الإخوةُ جلوساً يأكلون في أغابي، فضحك أحدهُم على المائدةِ، فنظر إليه وبكى قائلاً: «تُرى ماذا خطر ببالِ هذا الأخ حتى أنه ضحك هكذا، مع أنه كان يجب عليه البكاءَ، لأنه يأكل طعامَ الصدقةِ».

ومرة أخرى جاء إليه إخوةٌ ليجرِّبوه لأنه ما كان يسمح لفكرِه بحديثٍ بشري، ولا كان يتلفَّظ بشيءٍ من أمور العالم. فقالوا له: «الشكر لله يا أبانا، إن هذه السنة أمطرت أمطاراً كثيرة، وقد شرب النخلُ ورُوي وها هو يُخرج السعفَ ليجدَ الإخوةُ حاجتهم منه لعمل أيديهم». أما هو فقال لهم: «إن نعمةَ الروحِ القدس إذا ما حلَّت في عقلِ إنسانٍ أَرْوَتهُ وجدَّدته ليُخرج أثماراً تصلحُ لعملِ الله».

وقال أيضاً: «أنا أشبه إنساناً جالساً تحت شجرةٍ عظيمةٍ وهو ينظرُ إلى الوحوشِ والذئاب وهي مقبلةٌ نحوه، فإذا لم يستطع ملاقاتها هرب صاعداً فوق الشجرةِ فينجو منها. هكذا أنا جالسٌ في قلايتي أبصر الأفكارَ الخبيثة تأتي إليَّ، فإذا لم أستطع صدَّها هربتُ إلى الله بالصلاةِ ونجوتُ».

وقال أيضاً: إن أحدَ الرهبانِ رأى بالنظرِ المعقول ثلاثة رهبان وقوفاً على شاطئ البحر، فجاءهم صوتٌ من الشاطئ الآخر قائلاً: «خذوا لكم أجنحةً من نارٍ وتعالوا إلينا». فاثنان منهم أخذوا أجنحةً نارية وطارا بها إلى الجانب الآخر، أما الثالث فصار يبكي ويصرخ نائحاً، وفي آخر الوقت أُعطي أجنحة لكنها عديمة القوة، وبصعوبةٍ كان يطير ثم يعود فيسقط، فينهض ثم

يعود فيغرق، وهكذا حتى وصل إلى الجانب الآخر بعد تعبٍ عظيم. هكذا يكون عملُ هذا الجيلِ، فإن كان قد أخذ أجنحةً ولكن نارَ الروحِ ليست فيها، وبذلك تجدها قد عدمت قوة روح الله.

وقال أيضاً: ثلاثةُ فلاسفةٍ كانوا متآخين، فمات أحدُهم وترك ابناً صغيراً، وكان قد أوصى به إلى أحدِهم، فلما شبَّ الغلامُ أراد أن يعلِّمه الفلسفةَ، فأمره أن يمضي إلى ديرِ رهبانٍ ويحتملَ الإهانةَ لمدة ثلاث سنين. ففعل هذا، ثم جاء إليه فلم يقبله، وقال له: «إنك ما تأدبتَ بعد، ولكن امضِ وأقِم ثلاث سنين أخرى، وأعطِ أُجرةً لمن يشتمك»، ففعل ذلك. ولما عاد إليه أرسله بكتابٍ إلى صديقٍ له في أثينا في مجلسِ الحكماءِ، وكان هناك شيخٌ حكيمٌ جالسٌ على البابِ يشتِمُ كلَّ من يدخل. فلما دخل الشابُّ، شتمَه، فضحِكَ منه. فقال له الفيلسوف: «ها أنا ذا أشتِمُك وأنت تضحك»؟ فقال له الشابُّ: «أما تريدني أن أُسَرُّ وأنا لي اليومَ ثلاثَ سنين أُعطي أُجرةً لمن يشتمني، والآن وجدتُ من يشتمني مجاناً فلذلك ضحكتُ». فقال له الشيخُ: «هلم اصعد إلى مجلسِ الفلاسفةِ». ثم قال القديسُ: «إن هذا هو بابُ مدينةِ الله، وآباؤنا باحتمالهم الشتائم والهوان دخلوا فيه مسرورين».

ومرة كان الأب يوحنا صاعداً من الإسقيط مع إخوةٍ فضلَّ مرشدُهم عن الطريقِ لأنه كان ليلاً، فقال الإخوةُ لأنبا يوحنا: «ماذا نصنعُ لأن الأخ قد ضلَّ الطريق»؟ فقال لهم: «إن قلنا له شيئاً حزن واستحى، فالأفضل هو أن أتظاهر بأني مريضٌ وأقول: إني لن أستطيعَ المشي لأني في شدةٍ، وبذلك نجلس إلى الغدِ». فلما أعلن لهم رأيه هذا وافقوا وقالوا: «ونحن أيضاً نجلس معك»، وفعلاً جلسوا إلى الغدِ ولم يُحزنوا الأخَ المرشد.

ومرة قال للإخوة: «من باع يوسف»؟ فقالوا له: «إخوته». فقال: «ليس إخوته ولكن اتضاعه هو الذي باعه. لأنه كان قادراً أن يقولَ للذي اشتراه إنه أخوهم، لكنه سكت وباتضاعهِ بيع، وبذلك الاتضاع صار مدبِّرَ مَلِك مصر».

وقال أيضاً: «إن الأسدَ شجاعٌ مهاب، ولكنه من أجلِ شهوتهِ ورغبتهِ يقعُ في الفخِ، فتبطل قوَّتُه ويصير هزءاً للناس، كذلك الراهب إذا فقد قانونَه وتبِعَ شهوتَه أهلك وقارَه وصار هزءاً لكل أحدٍ».

وقيل عنه: «إنه ضفَّر في بعضِ الأوقات ضفيرةً تصلح لعمل زنبيلين، لكنه خاطها زنبيلاً واحداً ولم يعلم إلا عندما وصل إلى آخرِ الضفيرة، وذلك لأن فكرَه كان مشغولاً بالمناظر الإلهية».

ومرة جاء إليه بعضُ الإخوةِ ليأخذوا منه قُففاً فقرع أحدُهم، فخرج إليه وقال له: «ماذا تطلب أيها الأخ»؟ فأجابه: «قففاً». فتركه ودخل وجلس يُخيِّط. فقرع أخٌ آخر، فخرج إليه وقال: «ماذا تريدُ أيها الأخ»؟ فقال له: «هات لي قفةً يا أبتاه». فدخل وجلس يُخيِّط أيضاً. ثم إن الأخَ قرع مرة أخرى فخرج إليه وقال: «ماذا تريد يا أخي»؟ فقال: «القفف، أيها الأب». فأمسكه بيدِه وأدخله إلى القلايةِ وقال: «إن كنتَ تريد قفةً فخذ ما تريده منها واخرج، فإني لستُ متفرغاً لك في هذه الساعةِ».

ومرة جاءه جمّال ليحمل أوعيته. فلما دخل ليُحضر له الضفائرَ نسيها لأنه كان مشغولاً بالتأملِ في المناظر المعقولة الإلهية. وإن الجمّال قرع البابَ فخرج إليه ونسي مرة أخرى. فقرع الجمّالُ البابَ مرة ثالثة، فخرج إليه ثم دخل وهو يقول: «الضفائر للجمّال الضفائر للجمّال».

وقال أيضاً: «يجب على الراهب كلَّ يومٍ إذا قام بالغداةِ أن يتخذَ لنفسهِ وصيةً إلهية، وأن يقتني طولَ روحٍ واحتفاظاً من القلبِ وصلاةً دائمة مع طهارةِ لسان، وأن يجعل نفسَه تحت كلِّ الخليقةِ بالابتعاد عن الهيوليات».

وقال أيضاً: «يجب قبل كلِّ شيءٍ أن نقوّم التواضع لأن هذه الوصيةَ هي الأولى، التي قال ربنا عنها: طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات».

وقال أيضاً: ليكن كلُّ أحدٍ كبيراً في عينيك ولا تهِن الذين هم أقل منك معرفة، ولا تطلب كرامةً من أحدٍ، لكن اتضع لكلِّ الناسِ ولا تغضب من الذي يتعظَّم عليك لأنه قليل المعرفة، لأن من قلةِ المعرفةِ يتعظَّم الأخُ على أخيه. كن هادئاً ليناً، ولا تردّ الجواب على أمرٍ تُؤمر بأدائه، بل كن مطيعاً في كل شيءٍ لكي ما تُحب من كثيرين. كن مبغضاً للعالمِ كي ما تكون مختاراً لله. كن صغيراً بين الناسِ لكي ما تكون فاضلاً عند ربك. كن منبسطاً كي تحلُّ عليك نعمةُ الله. كن مثل ابن بين إخوتك كي تكون محبوباً عند كلِّ الناسِ. لا يكن بين عينيك شيءٌ مشتهى لكي ما تبصرَ الله. كن حزيناً على الذين هلكوا. كن رحيماً على الذين طغوا. كن متأملاً مع المتأملين، مصلّياً من أجل المخطئين. لتكن عند نفسِك دونَ الكلِّ. كن ساكناً بين إخوتك كمثل

ميتٍ عادمٍ من كلِّ غضب. لأنه من الغضبِ تأتي الخطيةُ.

اخترَ السهرَ أفضلَ من الأعمالِ وذلك مع الصوم. لأن السهرَ يُضيء العقلَ ويقلل الأحلامَ. والصومُ يُذلُّ الجسدَ وهو معينٌ أكثر من كلِّ الأعمال. اهتم بقراءة الكتب لكي تعلم كيف تكون مع الله. لا تختَرَ أن تكون مُتعَب الجسدِ فقط وفكرُك في الباطل. لأن هذا ليس وحده المطلوب منك، ولكن امزج تدبيرك بقدرٍ، ساعةَ قراءةٍ وساعةَ صلاةٍ وساعةَ عملٍ. لكي تضيء من القراءة في صلاتك. ليس القيام الظاهري فقط هو الذي يريدُه الربُّ، ولكنه يريد الفكرَ الحكيم الذي يعرف كيف يدنو إلى الكمال. كن عبداً وحراً، عبداً مملوكاً لإرادة سيدِه، وحراً غيرَ متعبدٍ لشيءٍ من المجدِ الباطلِ، حتى ولا لوجعٍ من الأوجاع. حلَّ نفسَك من رباطِ العبودية، ولازم العتق الذي عتقك به المسيح. واقتنِ حريةَ العالمِ الجديد. لا تبتكر لنفسِك نواميسَ لئلا تكون متعبداً لنواميسك. ولكن كن حراً تصنع ما تريد. ولا تستبد بأمرٍ لأنك مخلوقٌ كائنٌ تحت التغيير. إن لم تكن حراً لا تستطيع أن تعمل من أجلِ المسيح. كن عاقلاً في تدبيرِك.

إذا مشيْتَ لا تدع عقلَك يدور، ولكن ليكن متجمعاً قدامك. كن طاهراً مترتباً في لبسك. ليكن نظرُك مُطرَقاً إلى أسفل، وفكرُك فوق عند ربك. لا تملأ عينيك من وجهِ إنسانٍ، ولكن بتهيبٍ وخوفٍ تبسط نظرَك. كن شبه عذراء ذكية، واحفظ نفسَك للمسيح. كن محباً لكلِّ أحدٍ وابتعد عن كلِّ أحدٍ. اعلم أنك راهبٌ ولا ينبغي لك أن ترتبط بشيءٍ ما. أحب بفكرك حباً فاضلاً ذاك الذي يكلمك بكلامٍ نافع. ولا تحزن من الذي يبكتك بالحساب لئلا تكون عدواً لكلمةِ الله. لتكن نفسُك متيقظةً لخدمةِ الله وليكن عقلُك متجمعاً عند ربك. ليس لك أن تفحصَ عن كلِّ الأمورِ، لأنك لم تصر مدبراً أو رئيساً، ولكنك مأمورٌ وليس لك سلطانٌ حتى ولا على نفسِك. لا تغَر من الذين ينظرون إلى أصحابهم لئلا يضطرب عقلك بالعبودية، وتكون خدمتُك بلا منفعةٍ. لا تطلب حاجتك في كلِّ أمرٍ لأنك لست لهذه التلمذةِ تتلمذتَ، أن تكون حاجتُك مهيأةً في كلِّ أمرٍ.

داوم على قراءة كتب الأنبياء لأنك فيها تعلَم عظمةَ الله وأفعاله وعدله وقوته. وادرس كتبَ المبشرين بالجديدة لأنك منها تعلَم رحمةَ المسيح وخيريته ونعمته، واذكر في كلِّ لحظةٍ أوجاعَ الشهداء لتقتني شجاعةَ النفسِ. ولا تشته الأصواتَ مثل الأحداث، واحذر من الشهوات التي

يحبها هواك. الزم القراءةَ أفضلَ من كلِّ عملٍ لأنه ربما دار العقلُ في الصلاةِ أما القراءة فإنها تجمعه. مثل التاجر الذي يطلبُ الأرباحَ كذلك حاسب نفسَك كلَّ يومٍ وانظر ربحَك وخسارتك في كلِّ عشية، واجمع عقلَك وتأمل ما الذي عملته في نهارك وانظر إلى صنيع الله ربك، وافهم بماذا أنعم عليك في يومك: بإشراق الضوء، بطيب النهار، بتقويم الأزمنة، ببهاء الجبال، بحسن الألوان، بزينة الخليقة، بحركة الشمس، وبزينة قامتك وبهبوب الرياح وبحسن الأثمار، وبحفظه إياك من الأخطار مع بقية إنعاماته. فإذا تفكَّرت في هذه الأمور كلِّها يملأ قلبَك العَجب من عظم حبِّ الله لك، ويأخذك العَجب إلى أن تشكر الله بحرارةٍ على ما أنعم به عليك. لذلك وجب عليك أن تفتش لعلك فعلت شيئاً يَدُلُّ على إنكارك لهذه النعم، وقل فيما بينك وبين نفسك: «لعلي فعلتُ في هذا اليوم أمراً يغضب الله، لعلي فعلتُ شيئاً يخالف مشيئة خالقي»، فإن شعرتَ في نفسِك أنك فعلتَ شيئاً يخالفه، قم في الحال بالصلاة واشكر الله أولاً على النعم التي قبلتها منه في يومِك هذا، ثم تضرَّع من أجلِ غفرانِ ما أخطأتَ به وهكذا تنام بخوفٍ ورعدة. من المعلوم أننا إذا أغضبنا من هو أعظم منا، فإننا نبيتُ في خوفٍ ورعدة، ولكن مع الأسف فهوذا نحن نُغضبُ اللهَ وننامُ بلا مخافةٍ.

إذا قمتَ للصلاةِ قدام الله احرص أن تجمع عقلَك طارحاً عنك الأفكار المقلقة. ضع نُصبَ عينيك كرامة الله ونقِ حركاتك من الميول الشريرة. فإن شعرتَ بحرارةِ النعمة تقدَّم ولا تضعف، فإذا أبصر الله صبرَك فإنه بسرعة يسكب فيك نعمتَه ويتقوى عقلُك وينشط للعمل بواسطة السخونة (حرارة النعمة) فتضيء أفكار نفسك ويسمو بك الشعور إلى تمجيد عظمة الله كلِّ حين. ولن يكون لك ذلك إلا بطلباتٍ كثيرةٍ وفكرٍ نقي، كما أنه لا يليق أن يوضع البخورُ الطيب في إناء منتن، كذلك الله لا يُظهر عظمته في فكرٍ رديء.

إذا قمتَ في صلاتك قدام الله فأولُ شيءٍ قل: «قدوس قدوس قدوس الله القوي، السماء والأرض مملوءة من تسابيحك». وبعد ذلك قل: «اللهم أهلنا بنعمتِك لذلك الشرف الذي أعددتَه في العالم الجديد ولا يديننا عدلُك في مجيئك العظيم. اللهم أهلني لمعرفتك الحقانية والخلطة بحبك التام». وحينئذ اختم صلاتك بالصلاةِ التي علَّمها الله لتلاميذهِ دائماً واتلُها دائماً بتأملٍ. الذي يظن في نفسه أن حياته في هذه الدنيا إنما هي يومه الذي هو فيه فإنه يكاد لا يخطئ.

وقال أيضاً: «ابتداء التدبير الجيد هو أن يبتعدَ الإنسانُ من أحبائهِ ومعارفهِ وأقاربهِ بالجسد، ثم يتمسكن بالتخلي عن كلِّ شيءٍ يُشغلُ العقلَ، لا عن المقتنيات فقط بل وعن النظر والسمع والكلام كنحو قوتهِ. لأن الحواس هي رباطات الإنسان الباطن وبها حياته، لذلك كان السكوتُ أفضلَ من جميعِ الأعمال، لأن بدوامه تهدأ الأفكارُ وتموت المشيئةُ وينقطع تذكارُ الأمور الباطلة وحركةُ الأوجاع القاتلة الجسمانية منها والنفسانية. فالجسمانية هي: لذة الفم، شره البطن، شهوة الطبع، تنزه الحواس، الاسترخاء، النوم، الزنى. أما النفسانية فهي: الجهل، النسيان، البلادة، قلة الأمانة، الحسد، الشر، السبح الباطل، العجب، الكبرياء، قلة القناعة.

هدوءُ الجسدِ هو حبسةُ عن الدوران، وهدوءُ النفسِ هو الابتعادُ عن الجهلةِ ومن النظرِ للوجوه. فإن الجهلةَ يُشغلوننا بباطلِهم ويجروننا إلى عوائدِهم ويسخروننا لنواميسِهم، لأنهم يرونها حسنةً ولكنها تقطعنا عن حياتنا. لذلك ليس شيءٌ أفضل من التباعد والسكوت لأن بدونها لا يقدر الإنسانُ أن يعرفَ نفسَه. أما عملُ السكوتِ فهو: الصوم، السهر، الهذيذ الصالح، إتعاب الجسد بقانونٍ حكيم، في المقدار والترتيب، وبدوام ذلك يجتمع العقلُ إلى نفسِه ويرجع عن الدوران فيما هو خارج عنه. وبعد قليلٍ يبتدئُ في أن يصحو لنفسِه ويتصوَّر حُسنه ويشرق عليه ضوءُ الرب، وينظر الإلهَ خالقَه، ويعرف اللهَ رازقَه، ويفرح بولادتهِ ويعود من سبيه، ويحيا من موتِه ويستريح من الأوجاع، ويُعتق من الظلمةِ ويخلص من عدوه الشرير. لا بدَّ للإنسان من الإيمان الخاص الحقيقي، فالإيمانُ العام هو لكلِّ الناس، ومن نعمةِ ربنا علينا وَلَدَنا، فأما الإيمانُ الخاص الذي يقرِّبنا من الله فهو أن نسألَ ونطلبَ منه العظائمَ، التي لا يمكن للآخرين أن يصدِّقوا إمكانية وجودِها، وأن نعتصمَ به ونتقوى ولا نخاف من شيءٍ، ونتيقَّن أن الذي نتقوى به هو أقوى من كلِّ شيءٍ. والثبات في الجهاد والصبر على البلايا هو أيضاً أفضلُ من كلِّ الأمور. وكلما استمر السكوتُ ضعُفت الأوجاعُ، وكلما ضعُفت الأوجاعُ قوي العقلُ قليلاً قليلاً، إلى أن يصحَّ ويستريح، وحينئذ لا يذكر الإنسانُ أوجاعَه وأحزانَه السالفة، وذلك كما قال ربنا عن المرأة التي تلد. وإذا عُتِقَ الإنسانُ من الأوجاعِ الشريرة التي كان يعانيها دائماً فقد عُتِقَ من الأحزان والآلام والأمراض العارضة كلِّها تلك التي يؤدَّب بها الخطاةُ. وبدوامِ السكوت يُعتق من الأوجاع الذميمة. أما الذين يُعيقوننا من معرفةِ الله ويبعدوننا عن عملِ الفضيلةِ فإنهم لا يُلامون، لأنهم لا يعرفون،

وأما نحن فإذ قد عرفنا رِبحَنا وخسارتنا، فينبغي لنا أن نبتعدَ عنهم ونسكت لكي تحيا نفوسُنا.

وهو ذا شيءٌ آخر رديءٌ جداً يُفسد علينا النقاوةَ بالكليةِ وهو حبُّ الرئاسةِ والكرامة والمدح من الناس، فإن كلَّ هذه أوجاعٌ عظيمةٌ ورجاءٌ كاذب وقليلون هم الذين يتخلَّصون منها بالسكوت، لأنها أشرُّ من اللذَّات وشره البطن. فأما حبُّ الرئاسة والكرامة الحاضرة والسبح الباطل والارتباط به فإنه من العسير الانحلال منها، لأن هذه أوجاعٌ تلبس الإنسان بلا نهاية، فلا نطلب نحن رئاسةً في هذا العالم الزائل المظلم الأرضي، فإن رئاستنا نحن وكرامتنا في العالم المضيء السمائي، وحبُّ المسيح ربنا وحده هو يخلصنا من هذه الأوجاع، آمين.

الأب الكبير الأنبا سرابيون

كان هذا القديس من أهلِ مصرَ من الآباء المشهورين بالفضلِ، وكان يُعرف بالسباني، لأنه في كلِّ زمانهِ لم يكن يلبس سوى سبانيةٍ، وهي عبارة عن ثوبٍ من كتانٍ سميك. وما كان يمتلكُ شيئاً البتة حتى ولا عصا ولا حذاء، سوى إنجيلٍ صغير، وكان في أموره يُفضِّل راحةَ قريبهِ على راحةِ نفسهِ، وكان كاملاً في العبادةِ، جيداً في القراءة، يتلو عن ظهرِ قلبٍ كلَّ كتبِ الله. وكان يجولُ في كلِّ البراري والمدن سعياً وراء اقتناءِ الفضائلِ وعملِ الصالحات، بحيث لا يبالي بشيءٍ من أمورِ الدنيا حتى ولا بجسمِه، ولذلك بلغ كافة الفضائل التي أصبحت لديه كأمورٍ طبيعية.

وقيل عنه إنه أراد مرةً الذهاب إلى رومية فأتى إلى البحرِ، وبتدبير الله وجد سفينةً تريد الذهاب إليها، فألقى بنفسِه فيها، ولم يكن معه وقتئذ لا خبز ولا دراهم ولا شيء البتة. فساروا خمسة أيام لم يأكل فيها ولم يشرب، ولا كلَّمه إنسانٌ، ولكنه كان جالساً صامتاً. فظن النواتية أن دوارَ البحرِ منعه عن الأكلِ، أما هو ففي الحقيقةِ لم يمنعه سوى العدم لأنه ما كان لديه شيءٌ البتة. فسألوه: «ما هو أمرك أيها الشيخ فإنك لا تأكل ولا تشرب ولا تتكلم»؟ فقال لهم: «ليس معي طعامٌ ولا دراهم ولذلك فإني صائمٌ، أما صمتي فهذه سُنَّة الرهبان، فإنهم يفضِّلون السكوتَ». فلم يصدقوا أقوالَه وفتشوه، ولما لم يجدوا معه شيئاً تضجروا وانتهروه قائلين: «من أين توافينا بالأجرةِ»؟ فقال لهم الشيخ: «ردُّوني من المكانِ الذي بدأتُ منه الركوب معكم ثم امضوا بعد ذلك بسلامٍ». فقالوا له: «أبعد أن سافرنا خمسةَ أيامٍ تريدنا أن نرجع إلى الوراء فتؤخرنا

بذلك عشرة أيام دون أن نتقدم، كما أننا لا نعلم إن كانت الرياحُ توافقنا كما الآن أم لا، لأننا قطعنا مسافةً طويلةً لطيبِ الريحِ الذي لم نرَ مثلَه قط». ولم يعلم القومُ أن الله سهَّل طريقَهم من أجلِه. أما هو فقال لهم: «إن لم تردُّوني إلى مكانٍ فهأنذا بين أيديكم لأنه ليس لي ما أعطيكم». وحدث بعد ذلك أنهم تحننوا عليه ورحموه وأطعموه وأولوه جميلاً.

ولما وصلوا إلى رومية، أخذ يجولُ في المدينةِ سائلاً عن حبيسيها وصالحيها ليعرف سيرتهم وكيف حالهم في العبادةِ. فدلُّوه على راهبةٍ حبيسةٍ لها ذِكرٌ فاضلٌ وصلاحٌ طاهرٌ، فأحبَّ أن يعرف سيرتها في رهبانيتها، فذهب إليها. وكانت تلك الحبيسةُ كثيراً ما تُمسك نفسَها عن التكلم مع الناسِ، وكانت لها خادمةٌ عجوز. فقال الشيخُ: «كلِّمي الحبيسةَ أن تكلِّمَني واعلميها بأني حباً في المسيح جئتُ إليها». فقالت له العجوز: «إن الحبيسةَ ليس لها عادةٌ أن تكلم إنساناً، وأبت أن تخبرها. فمكث القديسُ ثلاثةَ أيامٍ وهو لا يفارقُ العجوزَ، فلم يأكل ولم يشرب. فلما شعرت به الحبيسةُ وأبصرت صبرَه رَحمته، فأشرفت عليه وقالت: «ما الذي يبقيك ها هنا يا أبي وماذا تطلبُ»؟ قال لها: «أحيةٌ أنت أم ميتة». قالت: «أنا حيةٌ بالله وميتةٌ عن العالمِ». فقال لها: «أقائمةٌ أنت أم جالسة»؟ قالت له: «لا يا أبي، بل أنا سائرةٌ». قال لها: «إلى أين تسيرين»؟ قالت: «إلى السيد المسيح». فقال لها القديسُ: «أريدُ أن أتأكدَ صحةَ كلامِك. فإن فعلتِ ما أقولُه لك علمتُ أنك صادقةٌ، اخرجي من حبسِك وانزعي ثيابك وأنا أيضاً أنزع ثيابي ونمشي عراةً الواحد منا خلف الآخر وسط سوق المدينة». فقالت له: «يا أبي، إنَّ لي حتى اليوم خمساً وعشرين سنة وأنا في هذا الحبس، فكيف تطلب مني الآن أن أخرجَ منه وأفعلَ هذه الجهالة»؟ قال لها القديسُ: «ألست تزعمين بأنك قد مُتِّ عن العالم، فالميتُ من أي شيءٍ يرتبك؟ وإن الميتَ عن العالم لا يبالي بهزءِ الناس ولا بمديحهم. من مات عن الدنيا لا يبالي بما يصيبُ جسَده من أجلِ الرب، فحياؤك هذا يدلُّ على أنك لم تموتي بعد عن العالم كما قلتِ، وإنما أنت مخدوعةٌ ولم تنتصري بعد». فقالت له: «إني لم أصِلْ بعد إلى هذه المنزلة التي أخبرتني عنها». فقال لها القديس: «إياك بعد هذا اليوم أن تعتقدي بأنك غلبت الجسدَ ومتِّ عن العالمِ». فقالت له: «لو أننا أتينا هذا الفعلَ أما كانوا يتشككون فينا ويقولون: لولا أن هذين فاسدان لما فعلا ذلك»؟ قال لها القديسُ: «كلَّ ما تصنعينه في سبيلِ الله، لا تبالي بقولِ الناس

إزاءه. إن الراهبَ إذا كان يغتمُّ من الشتيمةِ والهوان فقد دلَّ على أنه علمانيٌ لم يترهب بعد». فقالت له: «اغفر لي يا أبي فإني لم أصِل بعد إلى هذه الدرجةِ». فقال لها القديس: «اتضعي في فكرك وإياك والعظمة»، ثم انصرف.

وحدث مرةً أن عبر الأب سرابيون على قريةٍ من أعمالِ مصر، فنظر امرأةً زانيةً قائمةً على بابِ الماخور. فقال لها الشيخُ: «انتظريني عشيةً لأني عازمٌ على المجيءِ إليك لأقضي هذه الليلة بقربك». فأجابته: «حسناً يا راهب حسناً». وإنها استعدت وفرشت السرير. فلما كان المساء أتى إليها وقال: «هل أعددتِ المرقد حسناً»؟ فقالت: «نعم يا راهب». فلما أغلقت البابَ قال لها: «تمهلي قليلاً لأن لنا سُنةً لا بدّ أن أعملها أولاً»، وابتدأ من أول الابصالتس مرتلاً، وفي نهايةِ كلِّ مزمورٍ كان يقول: «يا ربُّ ارحم هذه الشقيةَ وردّها للتوبةِ لتخلص». فسمع الربُّ وخشَّع قلبها وكانت قائمةً إلى جانبهِ مرتعدةً، ولفزعِها سقطت على الأرضِ. فلما أكمل الشيخُ الابصالتس أجمع، أقامها. فعلمت أنه جاء ليخلِّص نفسها. فطلبت إليه قائلة: «اصنع محبةً يا أبي وأوجد لي موضعاً تضعني فيه لأرضي إلهي وأرشدني كيف أخلص». فأخذها الشيخُ إلى دير عذارى وسلَّمها للرئيسةِ وقال لها: «اقبلي هذه الأخت وافسحي لها المجالَ لتتدبر كما تشاء»، فقبلتها. ولما مكثت أياماً يسيرةً قالت: «أنا امرأةٌ خاطئةٌ والواجب عليَّ أن آكلَ في كلِّ يومين مرةً واحدةً». وبعد أيامٍ قلائل قالت: «إني فعلتُ خطايا كثيرة والواجب عليَّ أن آكل كلَّ أربعةِ أيامٍ مرةً». وبعد أيامٍ أخرى قالت: «إن خطاياي كثيرةٌ جداً فالواجب عليَّ أن آكل كلَّ أسبوعٍ مرةً». وبعد ذلك طلبت من الرئيسةِ فجعلتها في قلايةٍ صغيرةٍ وسدَّت بابَها عليها. وكانوا يناولونها طعامَها وشغلَ يديها من طاقةٍ. وهكذا أرضت اللهَ هناك بقية حياتها.

ومرةً سأله أخٌ قائلاً: «قل لي كلمةً». فقال الشيخُ: «وماذا تريدُ بسماعِ الكلمة وقد أخذت قوتَ الفقراءِ وتركته في هذه الكوةِ». وذلك لأنه أبصرها مملوءةً كتباً.

وحدث أن زاره أخٌ، فطلب منه الشيخُ أن يصليَ كما هي العادة، فاعتذر قائلاً: «إني خاطئٌ لا أستحق ولا لإسكيم الرهبنةِ». فأراد الشيخُ أن يغسلَ رجليه فأبى ولم يدعه واعتذر بمثلِ هذا الكلام وقال: «إني خاطئٌ ولستُ مستحقاً». ثم إن الشيخَ هيأ طعاماً، فلما جلسا يأكلان أخذ الشيخُ يعظه بمحبةٍ ويقول له: «يا ابني إن كنتَ تريد أن تنتفع فاجلس في قلايتك، واترك

عنك الدوران، واجعل اهتمامك في نفسِك وفي عملِ يديك، فإنك لا تنتفع من الجولان مثلما تنتفع من الجلوس في قلايتك». فلما سمع الأخُ ذلك الكلام وهذه العظة، تململ وتغير وجهُه، حتى أن الشيخَ لاحظ ذلك في وجههِ. فقال له الشيخُ: «بينما أنت تقول إني خاطئٌ وتصف نفسَك أنك لستَ أهلاً أن تحيا في هذه الدنيا، فإذا بي لما عاتبتُك بمحبةٍ أراك قد تململتَ وتلون وجهُك حتى صرت مثل السبعِ. إن كنتَ بالحقيقةِ تريدُ أن تكونَ متضعاً فاحتمل ما يأتيك من الاغتمامِ من الآخرين، ولا تلُم نفسَك ملامةً باطلةً بالرياءِ وبالكلامِ الباطلِ». فلما سمع الأخُ هذا الكلام انتفع به وصنع مطانية قائلاً: «اغفر لي». ورجع إلى قلايته.

ومرةً مضى أنبا سرابيون إلى الإسكندرية فوجد هناك إنساناً مسكيناً عرياناً في السوق، فوقف يحدِّث نفسَه قائلاً: «كيف وأنا الذي يُقال عني إني راهبٌ صبور عمّال، أكون لابساً ثوباً، وهذا المسكين عريان، حقاً إن هذا هو المسيح والبردُ يؤلمه». وإنه وثب بقلبٍ شجاعٍ وتعرى من الثوبِ الذي كان يلبسه وأعطاه لذلك المسكين. ثم جلس عرياناً والإنجيل في يده. واتفق أن كان البرخس (أي المحتسب) مجتازاً. فلما أبصره عرياناً قال له: «يا أنبا سرابيون من عرّاك»؟ فأشار إلى الإنجيلِ وقال: «هذا هو الذي عرّاني». فبعد أن كسوه قام من هناك، فوجد إنساناً عليه دين وهو مُعتقَل من صاحبِ الدين. وحيث لم يكن لديه شيءٌ يوفيه عنه، باعَ الإنجيلَ ودفع ثمنَه للدائنِ. ولما كان ماشياً قابله في الطريقِ إنسانٌ يستعطي، فأعطاه الثوبَ وجاء عرياناً. فدخل قلايته، فلما أبصره تلميذُه هكذا قال له: «يا معلم أين الثوب الذي كنتَ تلبسه»؟ أجابه قائلاً: «لقد قدمتُه يا ولدي قدامنا حيث نحتاجه». فقال له أيضاً: «وأين إنجيلُك يا أبتاه الذي كنا نتعزى به»؟ قال له: «يا ولدي لقد كان يقول لي كلَّ يومٍ: بع كلَّ ما لَكَ وأعطهِ للمساكين».

كان بمصر إنسانٌ وله ولدٌ مقعدٌ، فحمله إلى أنبا سرابيون وتركه عند باب قلايتهِ وابتعد عنه قليلاً مترقِّباً. فبكى الولدُ، فلما سمع الشيخُ صوتَ بكائِه خرج وقال له: «من جاء بك إلى ها هنا»؟ فقال له: «أبي». قال له: «وأين هو»؟ قال: «تركني ومضى». فقال له: «قم اجرِ والحق به». فقام وجرى ولحقه، فأخذه أبوه إلى منزلِه وهو يمجدُ اللهَ.

وحدث أيضاً أن كان لإنسانٍ ولدٌ, ومات هذا الولد، فأخذه إلى الشيخِ ووضعه قدامه على وجهِه، وضرب مطانية وتراجع قليلاً، ولم يعرف الشيخُ أن الصبي ميتٌ، وظن أنه ساجدٌ له،

وانتظر ليقوم فلم يقم. فقال له: «قم يا ولدي الربُّ يبارك عليك». فقام الصبي حياً، فأخذه أبوه وعاد إلى بيتهِ شاكراً لله ولقديسيه.

وحدث مرةً أن أتوا بإنسانٍ إلى الكنيسةِ وكان قد اعتراه جنونٌ (بروحٍ نجس) وصلُّوا عليه فلم يخرج لأنه كان صعباً. فقال الكهنةُ: «ما الذي نعمله بهذا الروح لأنه لا يستطيع أحدٌ منا أن يخرجه إلا الأنبا سرابيون. وإن نحن أعلمناه وسألناه، امتنع من المجيء إلى الكنيسة. فلنجعل هذا الرجلَ المعذَّب راقداً في الموضع الذي يقف فيه ليصلي، فعند دخوله نقول له يا أبنا سرابيون أيقظ هذا الرجل الراقد في البيعةِ». ففعلوا كذلك. إذ أنه لما دخل الشيخ ووقفوا للصلاةِ، قالوا له: «أيها الشيخ: أيقِظ هذا الرجلَ الراقد». فقال له: «قم». وللوقت نهض معافى بكلمةِ الشيخ.

الأنبا أيوب والأنبا بيمين وإخوتهما

قيل إنهم كانوا سبعةَ إخوةٍ من بطنٍ واحد. وصار الجميعُ رهباناً بالإسقيط. فلما جاء البربر وخرَّبوا الإسقيط في أولِ دفعةٍ، انتقلوا من هناك وأتوْا إلى موضعٍ آخر يُدعى ابرين. فمكثوا هناك في بربا للأصنامِ أياماً قلائل. وحينئذ قال أنبا أيوب لأنبا بيمين: «لنسكت جميعُنا كلٌّ من ناحيتهِ، ولا يكلم أحدنُا الآخرَ البتة وذلك لمدةِ أسبوعٍ». فأجابه أنبا بيمين: «لنصنع كما أمرتَ»، ففعلوا كلُّهم كذلك. وكان في ذلك البيت صنمٌ من حجرٍ، فكان أنبا أيوب يقومُ في الغداةِ ويردم وجهَ الصنمِ بالترابِ، وعند المساءِ يقول للصنم: «اغفر لي». وهكذا كان يفعل طول الأسبوع. فلما انقضى الأسبوعُ قال أنبا بيمين لأنبا أيوب: «لقد رأيتُك يا أخي خلال هذا الأسبوع تقوم بالغداةِ وتردم وجه الصنم، وعند المساءِ تقول له: اغفر لي. أهكذا يفعلُ الرهبانُ»؟ فأجاب أنبا أيوب: «لما رأيتموني وقد ردمتُ وجهَه، هل غضب»؟ قال: «لا». فقال: «ولما تُبْتُ إليه هل قال: لا أغفر لك»؟ قال: «لا». فقال أنبا أيوب لإخوته: «ها نحن سبعةُ إخوةٍ، إن أردتم أن يسكنَ بعضُنا مع بعضٍ فلنصِر مثلَ هذا الصنم الذي لا يبالي بمجدٍ أو هوان، وإن لم تؤثروا أن تكونوا هكذا فها هي أربع طرقٍ أمامكم، وليذهب كلٌّ واحدٍ حيثما شاء». فأجابه إخوته: «نحن لله ولك، ونحن مطيعون لما تشاء». فاختاروا أحدَهم ليهتمَ بالمائدةِ، وكلُّ ما كان يقدمُه لهم كانوا يأكلونه، ولم يقل أيُّ واحدٍ منهم: «أحضر شيئاً آخر». ولا قال أحدُهم: «لا

نريد هذا أو لسنا نشتهي ذاك». وكان أنبا يعقوب يدبِّرهم في أعمالِ أيديهم. أما أنبا بيمين فقد كان معلِّماً لهم في طريقِ الفضيلةِ، وهكذا اجتازوا أيامَهم بسلامٍ. بركة صلواتهم تكون معنا، آمين.

من أقوال الأنبا برصنوفيوس

سؤال: «إني أطلبُ إليك أيها الأب أن تعطيني قانوناً أتدبَّر به في قراءةِ المزامير وفي الصوم وفي الصلاة، واخبرني إن كان ينبغي أن تكونَ الأيامُ مختلفةً متفاوتة».

الجواب: اترك يا ابني قوانينَ الناسِ واستمع لقولِ الربِّ: «إن الذي يصبر إلى التمام يخلص»، لأنه إن لم يكن للإنسانِ صبرٌ طويل فلا يدخل إلى الحياةِ، لأنه بأحزانٍ كثيرةٍ ندخل الملكوت، كقول الرسول. فلا تطلب أن تكون تحت قانونٍ، لأني لستُ أريدك أن تكون تحت ناموسٍ بل تحت النعمةِ، لأنه مكتوب: «إن الناموسَ لم يوضع للقديسين». تمسَّك بالإفرازِ وكمثل نوتي حكيم دبِّر سفينتَك مقابل الرياح، وبعد ذلك لا تبالِ، لأن الجسدَ إذا مرض لا يقبل الطعامَ كعادتهِ، وإذا كان الأمرُ هكذا فقد بَطُلَ القانونُ. أما عن الأيامِ فلتكن عندك كلّها متساويةً مقدسة، وكلُّ شيءٍ تفعلَه فليكن بفهمٍ، وجاهد لتقطع عنك الغضبَ، لأنه يحتاج إلى جهادٍ مع معونةِ اللهِ.

من قوله بخصوصِ طول الروح: احلب لبناً فسوف يصيرُ سمناً، فإذا ضغطتَ بيديك على الضِرعِ أخرج دماً. وأيضاً قال الرسول: «صرتُ مع الكلِّ مثلَ الكلِّ لأربحَ الكلَّ». هذه هي طريقُ المسيح لأنه بكلِّ وداعةٍ وسكونٍ جاء ليخلِّصَ الناسَ. فلا يقارع الإنسانُ فكرةَ قريبهِ. إذا لم يكن الإنسانُ جلداً صبوراً فلن يستطيعَ أن يكونَ مع الناسِ في هدوءٍ وسلامٍ. اتعب لتقتني الصبرَ، لأنه مكتوبٌ هكذا بصبرِكم تقتنون أنفسَكم.

سؤال: «هل ينبغي لي أن أضعَ لنفسي حداً أن لا أخرجَ إلى موضعٍ»؟

الجواب: «لا تربط نفسَك تحت أمرٍ ما، حتى إن اضطررتَ للخروجِ بدونِ حزنٍ أو ارتباكِ أفكار، بل في كلِّ شيءٍ اقتنِ لك صبراً».

ومن قولهِ في الصبر: لماذا تصغُر نفسُك في الأحزانِ مثل إنسانٍ جَسَدَانِيّ؟ ألم تعلم أن الأحزانَ موضوعةٌ للقديسين؟ ألم تسمع أنَّ كثيرةً هي أحزانُ الصديقين ومن جميعِها يخلِّصهم الربُّ؟ ألم تعلم أن الصديقَ يُمتحن بالأحزانِ كما يُمتحن الذهبُ بالنارِ؟ فإن كنا صديقين فبالأحزانِ نُختبر، وإن كنا خطاةً فبالأحزانِ نؤدَّب. لا تنم يا أخي لئلا يفاجئك الصوتُ القائل: «هو ذا الختنُ قد أقبل، اخرجن للقائهِ». فكيف تقولُ إنك مشغولٌ وهو قد صيَّرك بلا همٍّ. لن ينتظرك الزمانُ حتى تنوحَ على خطاياك، فإنك قد سمعتَ أنه سوف يُغلَق البابُ، فأسرع لئلا تبقى خارجاً مع الجاهلات. انتقل بفكرِك من هذا العالم البطال إلى العتيد. اترك الأرضيات واطلب السماويات. دع الباليات واتخذ الباقيات. مُت بالكمالِ لكي ما تحيا بالتمامِ بيسوعِ المسيح ربنا، الذي له المجد الدائم إلى الأبد، آمين.

سؤال: «كيف يمكنني أن أجيبَ أفكاري وليست لديَّ قوةٌ»؟

الجواب: لأنك تدين أخاك، لهذا تنقطع عنك قوةُ الروحِ القدس. فتعثُّر بأخيك وأنت سببُ العثرةِ، إن كنتَ متأكداً أن الله حاضرٌ وناظرٌ لكلِّ شيءٍ، فلماذا تُبغض أخاك؟ أوضح للهِ أفكارَك، وقل إن الله يعرفُ ما فيه الخير، وبذلك تستريح، وشيئاً فشيئاً تأتيك قوةٌ تستطيع بها أن تحتملَ كلَّ ما يأتيك، كلُّ من لا يحتمل الشتيمةَ فلن يبصرَ المجدَ. وكلُّ من لا يترك الغضبَ فلن يتذوقَ الحلاوةَ. فاحرص بكلِّ قوَّتِك على أن تكونَ غريباً عن الغضبِ، ولتكن قدوةً ومثالاً لمنفعةِ الكلِّ ولا تدن أحداً كما لا تحكم على أحدٍ.

سؤال: «كيف يستطيع إنسانٌ خاطئٌ أن يبتغي الربَّ في كلِّ حينٍ»؟

الجواب: لقد طلبتُ من اللهِ أن يعرِّفني جوابَ سؤالك، فقال لي: «طهِّر قلبَك من كلِّ أفكارِ الإنسانِ العتيق وأنا أجيبُك إلى سؤال قلبك، لأن مواهبي إنما تكون في الأطهارِ ولهم تُعطى، وما دام قلبُك يتحرك بالغضبِ وبالحقدِ وبسائرِ الأوجاع العتيقة، فلن تدخلَ فيه الحكمةُ. إن كنتَ تشتهي أن تنال نعمتى ومواهبي فأخرجِ رَحْلَ العدو (أي أمتعته وأدواته) وأبعده عنك، ومواهبي منها وبها تأتي إليك. ألم تسمع أن عبداً لا يقدرُ أن يخدمَ ربين؟ فإن كنتَ عبدي فلا تخدم الشيطانَ، وإن خدمته فلا تظن أنك خدمتني. فمن يشتاق إلى مواهبي فليقتفِ آثاري. لأني

مثل الحمل الذي لا شرَّ فيه قبلتُ الأوجاعَ كلَّها ولم أكلِّم أحداً فيهم بشرٍّ. ومع أني أوصيتكم بأن تكونوا ودعاءَ مثل الحمام، إذ بي أجدكم وقد اتخذتم لأنفسكم قساوة الأوجاع. فانظروا لئلا أقول لكم: امضوا إلى سعيرِ نارِكم التي أضرمتموها». وعندما سمعتُ ذلك صرتُ أبكي ليتحنن عليَّ كصلاحِه، ولينجني من شرِّ الإنسان العتيق ويبلِّغني إلى الإنسانِ الجديد لكي ما أقبل كلَّ ما يأتي عليَّ بشكرٍ. فصلِّ من أجلي كي أهربَ من تزكيةِ نفسي.

عظة: إنسانٌ ساكتٌ يجبُ عليه ألا يحسبَ نفسَه شيئاً، بل عليه أن يلومها دائماً. إن زَلَقَ الجاهلُ في كلامِه فله عذرٌ من الكلِّ، لأنه سفيه لا يدري ما يتكلم به. ولكن إن زَلَقَ الحكيمُ فليس له عذرٌ، لأنه حكيمٌ وبمعرفةٍ يتكلم، وكذلك إذا أخطأ واحدٌ من العالميين كان له عذرٌ لأنه يخالط الكثيرين في العالم، فأما نحن الذين يُظن بنا أننا رهبانٌ أصحابُ سكوتٍ ومعلمون، فأي عذرٍ لنا. إن كنتَ تريد السلوك في طريق الله فليكن عندك الذين يضربونك مثل أولئك الذين يكرمونك، ومهينوك مثل مادحيك، والمفترون عليك مثل مباركيك، ومحزنوك مثل مفرِّحيك. وإن عرض للإخوةِ إما من نسيانٍ أو من سهوٍ فلم يعاملوك بما كان ينبغي أن يعاملوك به من الجميل، قل: «لو شاء اللهُ ذلك لكانوا قد فعلوه بي»، وإن هم أتوك فاقبلهم بسرورٍ وقل: «إني غيرُ مستحق»، ودع عنك تزكية نفسك، أما إن كنتَ تقول إنك حسناً قلتَ وحسناً فهمتَ، فلا حسناً قلتَ ولا حسناً فهمتَ.

وبخصوص الغَلَبةِ على الشيطانِ قال: «إن نحن اتضعنا فإن الربَّ يطرد عنا الشيطان، لذلك يجب علينا أن نلومَ أنفسَنا في كلِّ حينٍ وفي كلِّ أمرٍ لأن هذه هي الغَلَبة».

ومن أجلِ الثلاث فضائل الكبار قال: «قال الآباءُ إن الفضائلَ الثلاث الآتية جليلةٌ جداً ومن يقتنيها يستطيع أن يسكنَ في وسطِ الناس وفي البراري وحيثما أراد، وهي: أن يلومَ الإنسانُ نفسَه، ويقطع هواه، ويسير تحت كلِّ الخليقةِ. فالمتضع كائنٌ في أسفل، والذي هو في أسفل فلن يقع، ومن ذلك يتبين أن المتعالي هو الذي يسقط بسرعةٍ».

سؤال: «كيف ينبغي لي أن أقضي يومي»؟

الجواب: اقرأ في المزامير قليلاً واحفظ قليلاً، وفتِّش أفكارَك قليلاً ولا تجعل ذاتَك تحت رباطِ قانون، ولكن اعمل بقدر ما قوّاك الله على فعلِه، ولا تترك تلاوة المزامير والقراءة قليلاً قليلاً هكذا، وبذلك يمكنك أن تقضي يومَك بمرضاةِ الله، لأن آباءنا لم يكن لهم قوانين لساعاتٍ، بل كانوا يجتازون النهارَ كلَّه: في القراءةِ وقتاً، وفي تلاوة المزامير وقتاً، وفي تعلُّم حاجات طعامِهم وقتاً آخر، وهكذا.

سؤال: «كيف يمكن للإنسانِ أن يفتشَ أفكارَه لينجوَ من السوءِ»؟

الجواب: تفتيشُ الأفكار هو هكذا: إذا أتاك فكرٌ فانظر أيَّ شيءٍ يَلِد. ولكي أُقرِّب لك المعنى أسوقُ إليك مثلاً: إذا اتفق وشتمك إنسانٌ، وأتاك الفكرُ أن تردَّ عليه، قل لفكرِك إن أنا رددتُ عليه أحزنته وأعثرته، فلأصبر أنا قليلاً والأمر يجوز بسلام. كذلك إن كنتَ واجداً على إنسانٍ أو في داخلك فكرٌ بالشرِّ من ناحيةِ إنسانٍ، فقل ما يأتي: «إن الذي يفكر بالشرِّ يعاقبه الله». وللحال يكفُّ الفكرُ الرديء. وفي الوقتِ الذي يعرض لك فيه الفكرُ فتِّشه واقطعه عنك. أما بخصوصِ الشهوةِ فإنها تحتاج انتباهاً كثيراً. كما قال الآباء: «إن أنت وجدتَ عقلَك محارَباً في الزنى فجيء به إلى القدسية. وإن حورب في الحنجرةِ فجيء به إلى الإمساك. وإن حورب في البغضةِ فجيء به إلى المحبة. وبذلك تصبح على الدوام في يقظةٍ وحذرٍ ونجاةٍ».

سؤال: «قل لي يا أبي عن الصلاةِ الدائمة، ما هو حدُّها؟ وهل ينبغي لي أن آخذ قانوناً إزاءها»؟

الجواب: افرح بالربِّ يا أخي، افرح بالربِّ يا حبيبي، افرح بالربِّ أيها الوارث معي. إن الصلاةَ الدائمة تكون للذين قد كَمِلوا وبلغوا حدَّ انعدامِ الأوجاعِ عنهم. لأنهم إذا بلغوا ذلك عرفوها، لأن الروحَ يعرِّفهم كلَّ شيء. إذ يقول الرسول: «إننا لا نعرف كيف نصلي كما ينبغي، ولكن الروحَ يطلب من أجلِنا بتنهدٍ لا يُنطق به». وماذا ينفعك إن وصفت لك مدينة رومية وأنت لم تدخلها بعد؟ إن الإنسانَ الساكت خاصة يستمر وليس عليه قانون، ولكن كن مثلَ إنسانٍ يجوع ويأكل ما يلذُّ له، فإذا جاءتك شهوةُ القراءةِ وأحسستَ تخشعاً في قلبك فاقرأ ما أمكنك. كذلك في تلاوةِ المزامير افعل هكذا وتمسَّك بالشكرِ وقل: «يا إلهي ارحمني». تقوَّ ولا

تفزع. لأن مواهب الله ليس فيها رجعة. اترك عنك من اليومِ الاهتمامَ، لأنك بعدم اهتمامك بشيءٍ من الأشياء تصير قريباً من الله ومن مدينة القديسين. وإذا لم تحسب نفسَك شيئاً، صيَّرك ذلك أهلاً للسُكنى في مدينةِ الأبكار، وإذا متَّ عن كلِّ إنسانٍ، صيَّرك ذلك مُتحداً بالله. وكلّما أطفأتَ حرارةَ الغضبِ ساعد ذلك على دوامِ سلامتِك.

أنبا أمونيوس الأسقف

طلب منه أحدُ الإخوةِ أن يقولَ له كلمةً، فقال الشيخُ: «امضِ وتمثَّل في فكرِك دائماً فَعَلَةَ الشرِّ الذين في السجون، فإنهم في كلِّ ساعةٍ يسألون عن الوالي وأين هو ومتى يجيء، ومتى يجلس للحكمِ؟ ومن شدةِ فزعهم يبكون. هكذا سبيلُ الراهبِ أن ينظرَ دائماً إلى نفسِه ويُبكِّتها قائلاً: ويحي، كيف أقفُ أمام منبر المسيح، وكيف أستطيع أن أجيبَه. فإن كان يتلو ذلك دائماً فإنه يستطيع أن يخلصَ».

وجاء عنه أنه مضى مرةً إلى القديس أنطونيوس فضلَّ الطريقَ، فصلَّى إلى اللهِ قائلاً: «أسألك يا ربي وإلهي أن لا تُهلك جُبلتَك»، فظهر له من السماءِ شعاعٌ ممتدٌ وصار يرشده في الطريقِ حتى وقف على مغارةِ القديس أنطونيوس. فقال له أنطونيوس: «إنك تنجح بمخافةِ اللهِ». وأخرجه خارج القلاية وأراه صخرةً عظيمة وقال له: «اشتم هذه الصخرة واضربها». فصنع كما أمره. فقال له أنطونيوس: «هل تكلمت الصخرةُ»؟ قال: «لا». فقال له: «إنك تستطيع أن تكونَ هكذا فتخلصَ».

ودفعةً أتاه أناسٌ يريدون أن يتحكَّموا بحكمتهِ، وكان الشيخُ يجعلُ نفسَه جاهلاً. فوافت امرأةٌ ونظرت إليه وقالت: «إن هذا الشيخَ موسوسٌ»، فلما سمعها قال لها: «أتعلمين مقدار التعب الذي كابدتُهُ في البريةِ حتى اقتنيتُ هذا الوسواسَ»؟ قالت: «لا». قال: «لقد تعبتُ خمسينَ سنةً لأجلِهِ، فهل أفقده من أجلِك في هذه الساعةِ»، وإذ قال ذلك تركها في القلايةِ وترك الأسقفية ومضى.

وسُئل دفعةً: «ما هي الطريقُ الضيقةُ الكربة»؟ أجاب: «إن الطريقَ الضيقةَ الكربةَ هي هذه: أن يراقبَ الإنسانُ فكرَه ويقطع بوجهٍ خاص هواه، وهذا هو ما يُقصد بذلك القول: قد تركنا كلَّ شيء وتبعناك».

القديس أخيلاس

جاء عن هذا الأب القديس أنه جاء إليه ثلاثةُ شيوخٍ، وكان أحدُهم سيئ السيرةِ، فطلب الأول من الشيخ أن يصنع له شبكةً، فلم يُجبه إلى طلبهِ. وسأله الآخر أن يصنع محبةً ويجعل لنفسِه في ديرهم تذكاراً بشبكةٍ يصنعها لهم، فوعده عندما يتفرغ يعملها. ولما تقدَّم إليه الثالثُ ذو السمعةِ السيئة وطلب منه أن يصنعَ له شبكةً ليكون له شيءٌ من عملِ يديه، أجابه إلى طلبهِ في الحال. فسأله الاثنان الأولان في خَلوةٍ وقالا له: «كيف إننا لما طلبنا إليك نحن الاثنين لم تُجبنا إلى طلبنا، أما ذاك فأجبتَه لوقتِه وقلتَ له نعم»؟ أجابهما الشيخُ: «لقد قلتُ لكما: لا، لأني عالمٌ أنكما لا تغتمَّان. ثم إني في الحقيقةِ لم أكن وقتئذ متفرِّغاً لذلك. أما ذاك فلو أني قلتُ له: لستُ متفرِّغاً لإجابةِ طلبك، لقال في نفسهِ: إن الشيخَ قد سمع بخطيئتي، ولأجل ذلك لم يُجبني إلى طلبي. فيحزن وينقطع رجاؤه. ففعلتُ معه هكذا كي لا يهلك في الحزنِ واليأسِ».

ودفعةً جاءه أحدُ الشيوخِ، فوجده قد طرحَ من فمِهِ دماً، فسأله: «ما هذا يا أبتاه»؟ فأجابه الشيخُ: «إن هذه كلمةُ أخٍ أحزنتني، فجاهدتُ وطلبتُ من اللهِ أن يرفعها عني، فصارت الكلمةُ دماً في فمي، فبصقتُ واسترحتُ منها ونسيتُ حزنَها».

وقال عنه أنبا أموناس: إنني مضيْتُ إليه أنا وأنبا سميوس، فسمعناه يردِّد هذا الكلام قائلاً: «لا تخف يا يعقوب من النزولِ إلى مصر». فلما كرَّر هذا القولَ مراراً كثيرة قرعنا البابَ ففتح لنا وقال: «من أين أنتما»؟ فخشينا أن نقولَ إننا من القلالي، فقلنا له: «إننا من جبل نتريا». فقال: «ماذا أصنعُ وقد جئتما من ناحيةٍ بعيدةٍ». فدخل بنا فوجدناه قد عمل في الليلِ ضفائرَ كثيرةً. فسألناه كلمةً، فأجابنا قائلاً: «إني منذ البارحةِ حتى هذه الساعة قد ضفَّرتُ عشرين باعاً.

وصدِّقوني إني لستُ في احتياجٍ إلى كلِّ ذلك، ولكني أخافُ أن يقولَ لي الربُّ: لماذا لا تعمل ما دمتَ تقوى على العملِ؟ من أجلِ ذلك أتعبُ بكلِّ قوتي». فانتفعنا وانصرفنا.

الأب سلوانس

زار أحدُ الإخوةِ الأب سلوانس في جبل سينا، فلما رأى الإخوةَ منكبِّين على العملِ، قال للشيخِ: «لا تعملوا للطعامِ البائد أيها الأب، لأن مريمَ اختارت لها الحظَّ الصالح». فقال الشيخُ لتلميذِه: «أعطِ الأخَ مصحفاً (أي إنجيلاً) وأدخله في قلايةٍ فارغةٍ». ففعل. فلما حانت ساعةُ الأكلِ بقي الأخُ منتظراً على البابِ مترقباً وصول من يسأله المجيء إلى المائدةِ. فلما لم يدعُهُ أحدٌ، نهض وجاء إلى الشيخِ وقال له: «أما أكل الإخوةُ اليوم يا أبانا»؟ فأجابه: «نعم». فقال له: «ولماذا لم تدعُني للأكلِ معهم»؟ فأجابه الشيخُ: «ذلك لأنك رجلٌ روحاني، لستَ في حاجةٍ إلى طعامٍ، وأما نحن فجسديون نحتاجُ إلى طعامٍ ولذلك نمارسُ الأعمالَ. أما أنت فقد اخترتَ النصيبَ الصالح، تقرأ النهارَ كلَّه، ولا تحتاج إلى أن تأكلَ طعاماً». فلما سمع الأخُ هذا الكلامِ خرَّ ساجداً وقال: «اغفر لي يا أبانا». فأجابه الشيخُ: «لا شكَّ أن مريمَ تحتاجُ إلى مرثا، لأن مريمَ بمرثا مُدحت».

وحدث في بعضِ الأوقاتِ أن سُئل الأب سلوانس: «أيَّ سبيلٍ سلكتَ حتى حصلتَ على هذه الحكمةِ»؟ فأجاب وقال: «إني ما تركتُ في قلبي قط فكراً يُغضبُ اللهَ».

سُئل **أحدُ الشيوخِ**: «أيُّ الوصايا يقتنيها الإنسانُ حتى يستطيعَ بواسطتها الخلاص»؟ أجاب وقال: «إنها أربعُ فضائل يلزم للإنسانِ اقتناؤها: الصوم، الطلبة إلى اللهِ، العمل بيديه، عفة جسمه. فالشيطان يعمل ضد هذه الأربعة، فإنه أخرج آدم من الفردوس أولاً إذ خدعه بالمأكلِ، وأضلَّه ثانياً بالهربِ فلم يَدَعه يطلب من الله غفرانَ خطيئته، كذلك احتال عليه بواسطة البطالةِ لما طُرد من الفردوس، فرماه في كثرة الشبقِ والتهور باللَّذة، حتى صيَّره أسيراً بالكليةِ. فلِعلم السيد محبّ البشر بسوءِ أعمال المحتال، أعطى آدم عملاً يشتغلُ به حتى لا يتسلَّط عليه المحتال بواسطة البطالة والفراغ، قائلاً له: اعمل الأرضَ. لذلك يعمل الشيطان على إبطال الصوم لأن به يتذلل

الجسدُ ويتلطف العقلُ ويستنير، كما يحرص على إبطال الصلاة لأن بها يدنو الإنسانُ من الله، كما أنه يعمل كذلك على إبطال العمل لأن العمل يمنع شرورَ المحتالِ ويُعين على حفظِ العفةِ التي بها يتَّحدُ الإنسانُ بالله، فإذا أحكم الإنسانُ اقتناء وممارسة هذه الأربع فضائل، أمكنه بواسطتها الحصول على باقي الفضائل».

قال أحدُ الآباءِ: «اهتم بعمل يديك ومارسه إن أمكنك ليلاً ونهاراً. لكي لا تُثقل على أحدٍ. وحتى يكون لك ما تعطي المسكين، حسب ما يأمر به الرسول، ولكي ما تصرع شيطانَ الضجر، وتُزيل من نفسِك بقيةَ الشهوات، لأن شيطانَ الضجرِ منكبٌ على البطالةِ وهو في الشهواتِ كامنٌ».

قال القديس نيلس: «إن البطالةَ هي مصدرُ رداءةَ الأعمالِ، لا سيما من أولئك الذين قد عدموا الأب. لأن اليهودَ لما لم يكن لهم في البريةِ عملٌ يشتغلون به، خرجوا من البطالةِ إلى عبادة الأوثان. فعلينا ألا نفارق عملَ اليدين، لأنه نافعٌ جداً ومهذِّبٌ».

وقال أيضاً: إن إنساناً كسلاناً بلغني عنه أنه أخذ من خزانتِه الإنجيلَ من الساعةِ السابعة إلى غياب الشمس، ولم يستطع أن يفتحَه البتة، وكأنه كان مربوطاً بالرصاصِ. أما أنطونيوس فإنه لم يفعل هكذا، بل عمل كما أراه الملاك؛ فتارةً كان جالساً ولعملِه ممارساً، وتارة أخرى كان قائماً وللصلاةِ ملازماً. فكان يؤدي ذلك، ولا يترك تلك. فحظيَ بنورٍ فائق الحدِّ. حتى أنه قال لأحدِ فلاسفة زمانه: «إني كما في لوحٍ أتأمل طبيعةَ المخلوقات دائماً، وذلك بتلاوةِ أقاويل الربِّ حتى ولو في ظلمةِ الليل الحالكة». بهذا المقدار فإنه كان يتصل بالله، فكان ليلُه نهاراً مضيئاً. كما هو مكتوبٌ: «إنَّ كلامَك سراجٌ منيرٌ والليلَ يضيءُ مثل النهار».

وقال أيضاً: «يجب أن تكون أعمال يديك إلهيةً لا أرضية. ولتكن أثمانُها مشاعةً بينك وبين المساكين».

قال ما أفرآم: «فاتحةُ العجرفةِ هي عدم مشاركة الراهب الإخوة في العمل حسب قدرتهِ، وإذا ما جئنا إلى العمل فلا نُكثر الكلامَ بل ليكن اهتمامُنا وتفكيرُنا في الهدفِ الذي من أجلهِ خرجنا».

سأل أخٌ **القديسَ يوسف** قائلاً: «ماذا أعملُ فإنه لا يمكنني أن أتعبَ أو أعملَ أو أتصدق»؟ فقال الشيخُ: «إن لم يمكنك العملَ فاحفظ قلبَك ونيَّتك من كلِّ ظنِ سوءٍ بأخيك فتخلص، لأن اللهَ يريدُ النفسَ ألا تكون خاطئةً».

قال أحدُ القديسين: «إن الآباءَ قد سلموا إلينا هذه الطريق، وهي: أن نعملَ بأيدينا، وأن نلازمَ الصمتَ، وأن نبكي على خطايانا».

قال القديس مرقس: «لا تكن من القومِ البطالين الذي يؤثِرون الاغتذاءَ من وجوهٍ سمجةٍ لا سيما من النساءِ، وإذ لك يدان فاعمل وكُلْ، لأنه أوفق لك أن تتشاغل بعملِ اليدِ من أن تُصرع بأعمال الخطية. لأن العمّال لا يقبل البطالةَ لئلا يسقط كمن يظن أنه منكبٌ على عملٍ روحاني ولا يسير فيه كما ينبغي».

أخبرنا يوحنا الخصي أنه سأل في شبابهِ شيخاً قائلاً: «كيف استطعتم أن تعملوا عملَ اللهِ بنياحٍ، مع أننا لم نستطع أن نعملَه نحن حتى ولو بالتعبِ»؟ فقال الشيخُ: «نحن إنما أمكننا ذلك لأن عملَ الله كان رأسَ مالِنا، وحاجة الجسد كانت في المرتبةِ الثانية. أما أنتم فحاجةُ الجسد عندكم هي رأسُ مالِكم، وعملُ الله في المرتبةِ الثانية، من أجل ذلك فإنكم تكلّون وتخورون، وبخصوص ذلك قال مخلصنا لتلاميذِه: يا قليلي الإيمان اطلبوا أولاً ملكوتَ اللهِ وبرَه، أما هذه الأشياء فتُزاد لكم». فسأل الأخُ الشيخَ قائلاً: «زدني إيضاحاً». فقال له: «ها أنت تسمع عني أني مريضٌ ويجب عليك افتقادي، فتقول في نفسِك: إذا ما فرغتُ من عملي أمضي إليه وأفتقده، ويتفق أن يعوقك عائقٌ ما فلا تجيء إليَّ بالكليةِ، وبذلك تكون قد جعلتَ عملَ السيد الذي هو رأسُ المال وحياةُ النفس في المرتبةِ الثانية. كذلك ربما يطلب إليك أخٌ آخر قائلاً: تقدم يا أخي وساعدني في هذا الأمر. فتقول في نفسِك: أأترك عملي وأذهب معه؟ فتكسر وصيةَ المسيح التي تتعلق بالعمل الروحي، وتعكُف على عملك الذي ينبغي أن تجعله في المرتبةِ الثانية».

سأل أخٌ **الأب بيمين** قائلاً: «قل لي كلمةً». فأجابه قائلاً: «واظب على عمل يديك ما استطعت، وذلك لتعمل منه صدقةً، لأنه مكتوبٌ: إن الرحمة تُطهِّر الخطايا».

قال الأب لوط: «الراهب الذي لا يمارس عملاً يُدان كإنسانٍ نهمٍ مغتصب».

قال الأب بيمين: «ثلاثةُ أعمالٍ رأيناها للأب بموا: صومٌ إلى المساءِ كلَّ يومٍ، وصمتٌ دائم، وعمل اليدين».

وقيل عن الأب بموا أيضاً لما حضرته الوفاة، أن سأله الآباءُ قائلين: «قل لنا كلمةً». فقال: «إني منذ دخولي هذه البرية وبنائي القلاية وسكناي فيها، ما انقضى عليَّ يومٌ واحدٌ بدونِ عمل، ولا أتذكر أني أكلتُ خبزاً من إنسانٍ، وإلى هذه الساعةِ ما ندمتُ على لفظٍ واحد تلفظتُ به، وها أنا منطلقٌ إلى الربِّ كأني ما بدأتُ بشيءٍ يرضيه بعد».

وقال أحدُ الآباء: إذا قمتَ باكر كلِّ يومٍ، خاطب نفسَك قائلاً: «يا نفسي استيقظي لترثي مُلك السماءِ». ثم خاطِب جسدَك قائلاً: «وأنت يا جسمي اعمل لتغتذي».

سُئل أحدُ الآباء: «أيُّ شيءٍ يلزم لمن يريد الخلاصَ»؟ وإذ كان الأبُ ملازماً العمل لا يرفع رأسَه عنه، أجاب: «هذا هو ما تراه».

قال الأب إشعياء: «اِغصب نفسَك على العملِ، وخوفُ اللهِ يحلُّ عليك».

جاء أحدُ المتوحدين إلى غديرٍ فيه قصب، فجلس هناك وصار يقطعُ من حشائشِ النهر ويضفِّر ويرمي الضفيرةَ في النهرِ لأنه لم يكن يعملُ لاحتياجٍ، بل لكي لا يكون بطالاً، فكان يُتعب جسدَه، ولم يزل هكذا حتى قصده الناسُ، فلما رآهم تحول عن ذلك المكان».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «إن اتفق لي تحصيل حاجاتي من حيثما اتفق، فهل يليقُ بي أن لا أعمل بيدي»؟ أجاب الشيخُ: «حتى ولو اتفق من حيثما اتفق، فلا تترك العملَ، اعمل بكلِّ جهدك».

قال الأب لوقيوس: «أنا عبدٌ وسيدي قال لي: اعمل عملاً وأنا أعولك بالطريقة التي أراها؛ فإن أنا استجديتُ واقترضتُ، فليس هذا من شأنك، فقط اعمل أنت، وأنا أقوم بأَوَدك».

جاء قومٌ إلى الأب شوشاي ليسمعوا منه قولاً. فلم يخاطبهم بشيءٍ ولم يزد عن: «اغفروا لي». ولما رأوا عنده زنابيل قالوا لتلميذِه: «ماذا تعملون بهذه الزنابيل»؟ قال لهم: «إن الشيخَ يفرِّقها هنا وهنالك». فلما سمع الشيخُ قال: «إن شوشاي من هنا ومن هنالك يغتذي». فلما سمعوا ذلك انتفعوا جداً.

قال مار أفرآم: «إن أحدَ الإخوةِ قال: طلبتُ من اللهِ أن يعطي عمل يدي نعمةً كي أعولَ جميعَ من هم في الكنوبيون، لأني بذلك أفرحُ».

قال أحدُ القديسين: إذا باشرت عملاً في قلايتك وحانت ساعةُ صلاتك، فلا تقل: «أفرغ من هذا القليل الذي بيدي وبعد ذلك أقوم»، بل بادر للوقتِ وأوفِ الصلاةَ لله في وقتِها في كلِّ حين، لئلا تعتاد نفسُك تدريجياً إهمالَ الصلاةِ.

قال قاسيانوس الرومي: إنه لأمرٌ فظيع وقبيح بنا أن يتعبَ العلمانيون ويعملون ويعولون أولاداً ونساءً، ويدفعون خِراجاً وضريبةً، ويُحسنون إلى فقراءٍ ومحتاجين حسب طاقتهم، ويحملون إلى بيتِ الله باكوراتٍ وقرابين، أما نحن فلا نقتني من أتعابنا حتى ولا حاجاتنا اللازمة لنا، بل نحبس أيدينا داخل ثيابنا، ونستجدي أتعابَ غيرنا، ولا نُصغي إلى الرسولِ القائل: «إن هاتين اليدين قد خدمتا حاجاتي وحاجات الذين هم معي». وقوله: «إن الربَّ أعطى الطوبى للمعطي أكثر من الآخذ». وقوله أيضاً: «نحن نوصيكم يا إخوتنا باسم ربنا أن تتجنبوا كلَّ أخٍ عديم النظام، لا يسلك حسب التقليدِ الذي سلمناه لكم، لأننا ما أسأنا إلى النظامِ بينكم، ولا أكلنا من أحدٍ خبزاً مجاناً، بل كنا نتعب ونكد عاملين ليلاً ونهاراً لئلا نُثقل على واحدٍ منكم. ليس لأنه لا سلطان لنا، بل لنعطيكم أنفسَنا مثالاً. لأني وقت أن كنت عندكم، قد أوصيتُكم بهذا: إن من لا يشاء أن يعمل عملاً فلا يأكل، والآن فقد سمعنا أن فيكم قوماً يسيرون بعدمِ نظامٍ ولا يمارسون عملاً. فنحن نوصي هؤلاء ونسألهم باسم ربنا يسوع المسيح أن يعملوا عملَهم بسكونٍ، ويأكلوا خبزَهم». أسمعتم كيف أن الرسولَ بحكمةٍ يزيل عِللَ الصلفِ. ويدعو الذين لا يعملون عادمي النظام. وبهذا أرانا رذيلةً كبرى شريرة. لأن البطَّال غيرُ نافعٍ في أيِّ أمر. وهو مهيأٌ للغضبِ، وغيرُ موافقٍ للسكوتِ، وعبدٌ للضجر ومنغمسٌ في الشهوات، كما أنه متهجمٌ في أقوالهِ فاعلٌ الرذائل الأخرى كلَّها. أما قوله: «أنهم لا يسلكون بحسب الوصية التي أخذوها منا»، فيقصد به أنهم متوانون ومتكبرون معاً، ومبطلون للوصايا. كذلك قوله: «لم نأكل منكم خبزَ البطالةِ»، فيؤنِّب به الذين لا يعملون بأنهم يأكلون خبزَ البطالةِ أي أنهم يُعالون بغير واجبٍ. ولذلك كان الآباءُ بإسقيط مصر لا يسمحون للرهبان لا سيما الشبان منهم بأن يتفرَّغوا من عملٍ، لا صيفاً ولا شتاءً حتى ولا إلى لحظةٍ من الزمان، لأن الذي يمارس العملَ يتخلَّص من

الضجرِ ويتحصل على ما يقتاتُ به ويسعفُ منه المحتاجين.

قيل إن أحدَ الرهبانِ كان يشتغلُ في عيدِ شهيد. فلما أبصره آخر هكذا، قال له: «أيجوز اليومَ العملُ»؟ فأجابه: «إن الشهيدَ فلان قد عُذب في هذا اليوم، وجُلد وتجشم أتعاباً كثيرةً حتى الموت، ألا ينبغي لي أن أتعبَ ولو قليلاً في عمل يدي».

قيل: إنه حضر إلى الأب لوقيوس رهبانٌ من أولئك الذين يُدعَون مصلين، فسألهم عن عمل أيديهم، فقالوا له: «نحن لا نهتم بعمل اليدين. إنما نهتمُ بالصلاةِ الدائمة كقولِ الرسول». فقال لهم الشيخُ: «أما تأكلون وتنامون»؟ قالوا: «نعم». فقال لهم: «فإذا ما جلستم تأكلون أو إذا نمتم فمن يصلي عنكم»؟ فلم يكن لهم ما يجيبونه به. فقال لهم: «اغفروا لي، فإن عملَكم ليس كقولِكم، لكني أُريكم كيف إني أمارسُ عملَ يدي وأصلي دائماً. وذلك بأن أجلسَ بعونِ الله وأبلَّ خوصاً وأضفِّر الضفيرة، وأقول: ارحمني يا الله كعظيمِ رحمتك وككثرة رأفاتك امحُ إثمي. أفما يُعتبر ذلك صلاةً»؟ أجابوه: «نعم». قال لهم: «وإذا مكثتُ هكذا طولَ النهار أعمل وأصلي فيكون لي عن عملي كلّ يومٍ ستة عشر فلساً، فأعطي منها على الباب فلسين، وآكل بالباقي. فيصبح آخذ الفلسين مصلياً عني في وقتِ أكلي وفي وقتِ نومي، وبنعمةِ الله تكمُل لي الصلاةُ الدائمة كأمرِ الرسول. وإذ أمارسُ عملي فبذلك أقهر شيطانَ المللِ والشهوةِ. لأن المللَ يؤدي إلى البطالة، والشهوةُ كائنةٌ في البطالة. والطريق التي سلمها لنا جماعةُ الآباءِ هي هذه: «إنه يلزمنا أن نشتغلَ بأيدينا ونصوم طول النهار، ونقتني صمتَ اللسان، ونبكي على خطايانا».

وبخصوص الصلاة، قال القديس برصنوفيوس: «الصلاةُ الكاملة هي أن تخاطب الله بلا طياشةِ عقلٍ ولا سجس العالم. لأن المصلي الكامل قد مات عن العالم. إن إمساك البطن هو أن تُقلّل من شبعك قليلاً، وإن كان عليك قتالٌ فاترك قليلاً أكثر، أما إمساك العقل والقلب فهو أن يكون متيقّظاً. لا تتهاون بأفكارِك، وإذا قاتلك العدو بالفكرِ فلا تلتفت إلى قتالهِ لأنه يريد بذلك أن يشغلَك عن مخاطبةِ الله».

قال القديس أوغريس: «تغافل عن ضروريات الجسد عند وقوفِك للصلاة، حتى ولو لدغك برغوثٌ أو بعوضة أو ذبابة أو أحدُ الهوام فلا تنشغل بها لئلا تخسر الربحَ العظيم الذي للصلاةِ. وقد حكى لنا آباؤنا القديسون عن أحدِهم كان الشيطانُ يحاربه إلى درجةٍ كبيرةٍ عند

وقوفِهِ للصلاة. وذلك أنه عندما كان يبسط يديه للصلاة كان الشيطانُ يغيِّر شكلَه قدامه بهيئة أسدٍ، ويشبك رجليه الاثنين في رجلي القديس وينتصب قبالته. ثم يجعل مخالبه في حَقويْ المجاهد من هنا وهنا. فلا يرجع عنه حتى يُنزل يديه، ولم يكن المجاهد يُنزل يديه حتى يُكمل صلاتَه كعادته. كذلك عرَّفونا أيضاً عن آخر أنه كان منفرداً في جبٍ جاف، وكان اسمُه يؤنس الصغير، ولو أنه في الحقيقةِ كبيرٌ عظيمٌ في الرهبانِ جداً. هذا قيل عنه أنه كان بغير انزعاج في مخاطبة الله بالصلاةِ، وكان الشيطانُ يظهر له في هيئة تنينٍ عظيمٍ يطوّقه حول حلقهِ وينهش في لحمِه وينفخ في وجهِه بغير شفقةٍ. فإذا وقفتَ للصلاة قدام ضابط الكلِّ الخالق صانع الخير لكلِّ البريةِ، لماذا تُظهر ذاتك أمامه باحتقارٍ فتخاف من البعوضِ والذباب؟ أما سمعتَ القائل: إن الربَّ إلهك هو الذي يُخاف منه؟ ويقول أيضاً: إن كلَّ الأشياءِ تخاف وترتعد من قدام وجه قوتِه».

«قرأتُ في سيرةِ رهبان دير تاسا ما هو مكتوبٌ عنهم هكذا: إنه بينما كان القديسُ باخوميوس يتكلم مع الإخوةِ دفعة بكلامِ الله، إذ بحيتيْن قد جاءتا والتفتا حول رجليه. أما هو فلم يقلق ولكنه تظاهر كأنه يطرح حُلَّته تحت رجليه حتى فرغ من حديثِهِ بكلمة الله، وحينئذ أعلم الإخوة بهما».

«كذلك قرأنا عن أخٍ روحاني أنه فيما هو يصلي مرةً جاءت أفعى وحكّت رجليه وهو يصلي، فلم يبالِ بالكليةِ حتى أكمل صلاتَه كالمعتاد، ولم يُؤذَ بالكليةِ. ذلك لأنه كان يحبُ الله أكثر من جسدِ لذاتِهِ. اقتنِ لك عيناً غيرَ متشاغلةٍ وقتَ الصلاةِ، واجحد ذاتك واطلب الله بكلِّ قلبك».

«وآخر أيضاً من القديسين الذين يصلُّون كما ينبغي كان منفرداً في البريةِ، هذا وقف قدامه الشياطين مقدار أسبوعين وهم يلكمونه ويُحلّقون به في الجوِ ويقطعون عليه الحصير، وبرغم هذا كلِّه لم يستطيعوا بالجملةِ أن يخطفوا عقلَه ولو كان في صلاةٍ قليلةٍ بحرارةٍ مع الله. اجتهد أن توقف عقلَك كمن هو أطرش وأخرس في وقتِ الصلاة، وهكذا تستطيع أن تصلي. إن كنتَ تريد أن تصلي جيداً ويصير لك افتخارٌ قدام الله، فاجحد ذاتَك في كلِّ حينٍ وفي كلِّ ساعةٍ. الصلاةُ هي بابُ الفرجِ والشكر. الصلاةُ هي دواءُ الأحزانِ وضيقِ الصدر، لا تصلِّ بالشكلِ الظاهر فقط ولكن بمخافةِ الله ورعدةٍ وخشوع مع الالتفات بعقلِك نحو المعقولات. الصلاةُ هي فهمٌ للعقلِ،

الصلاةُ ترفعُ العقلَ إلى الله، الصلاةُ هي عملٌ يليقُ برتبةِ العقلِ وبطبيعتهِ الفاضلة».

وقال أيضاً: «فالواجب علينا أن نفحصَ السُبلَ التي سلك فيها الرهبان الذين تقدَّمونا ونستقيم مثلهم، فنجد أموراً كثيرةً جداً قالوها وصنعوها، لأن واحداً منهم قد قال: إن الأكلَ بضيقٍ، والحياةَ بغير تلذُّذٍ إذا اقترنا بالمحبةِ فإنهما يوصلان الراهبَ بسرعةٍ إلى ميناءِ عدمِ الأوجاع، وقد شَفيا فعلاً أحدَ الإخوةِ من خيالات الليل التي كان يقلق منها، ولما أُمر أن يخدم المرضى وهو صائمٌ خفَّت عنه، وحينئذ قال: إن أمثال تلك الأعراض لا يستطيع أحدٌ اجتنابها إلا بالرحمةِ».

تقدم أحدُ الحكماءِ في ذلك الزمان إلى القديس أنطونيوس وقال له: «كيف أنت ثابتٌ في هذه البريةِ وليس لديك كتبٌ تتغذى بها»؟ فأجابه قائلاً: «أيها الحكيم، إن كتبي هي شكل الذين كانوا قبلي، أما إن أردتُ القراءةَ، ففي كلامِ الله أقرأ».

وقال أيضاً: مضيْتُ دفعة إلى الأب مقاريوس بالنهارِ ظهراً، وقد عطشتُ لدرجةٍ كبيرةٍ جداً، فطلبتُ منه قليلَ ماءٍ لكي أشرب، فقال لي: «يكفيك ذلك الظل الذي أنت واقفٌ فيه، لأنّ كثيرين الآن في المسالكِ والوهاد في العراءِ، لا يجدون ظلاً مثل هذا». فسألتُه بعد ذلك أن يقول لي كلمةً عن النسكِ، فقال لي: «قوِّ قلبَك يا ابني فإني أقمتُ عشرين سنةً لم أشبع من خبزٍ ولا من ماءٍ ولا من نومٍ، وكنتُ آكل خبزي بقانون، أما من جهة النوم فإني كنتُ أستند على الحائطِ وأختطف يسيراً منه».

أُخبر أحدُ الرهبان أن أباه قد مات، فأجاب الذي أتاه بالخبرِ قائلاً: «كُف عن التجديف، فإن أبي لا يموت».

قال أحد الرهبان: «لأجل هذا تركتُ عني إرادتي لكي ما أنزع معها مسببات الغضب الذي يحارب الإرادةَ في كلِّ حينٍ، ويُقلق العقلَ ويطرد المعرفةَ».

قال أحد الشيوخ: «إن المحبَّ للهِ لا يحفظ ملاذَّ الأطعمة ولا المال». كما قال أيضاً: «إني لا أتذكر أن الشياطين أطغوني مرتين قط في أمرٍ واحدٍ».

سُئل القديس برصنوفيوس: «إن الآباء قالوا: ينبغي لنا أن ندخلَ إلى القلاية ونتذكر خطايانا، لكني أجد نفسي إني أتذكرها بدونِ وجعٍ، وأشتهي أن أتخشع فلا يأتيني الخشوع، فما

السبب»؟

الجواب: «لستَ تسلك في سبيل الحق، لأنك تحتاجُ إلى تفتيش القلبِ وضبطِ الفكرِ عن كلِّ إنسان، فمن لم يقطع هواه، لا يوجعه قلبه، وقلةُ الإيمانِ لا تدع الإنسانَ أن يقطع هواه، وسبب ذلك هو محبةُ مجدِ الناسِ أكثرَ من مجدِ اللهِ، كما قال الربُّ. فإن أردتَ بالحقيقةِ أن تبكي على خطاياك، فمُت عن كلِّ الناسِ واقطع هواك واجتنب تزكيتك لنفسِك وإرضاءك للناس، ولا تتلذذ بطعامٍ ولا تشبع ولا تدن أحداً، وكن حسنَ الطاعةِ لتبلُغَ الاتضاع، والاتضاع يُميتُ الأوجاعَ».

سُئل أيضاً هكذا: «قُدسك قال لي هو ذا خطاياك قد غُفرت، وأنبا إشعياء قال: ما دام الإنسانُ يجدُ في قلبهِ لذةَ الخطيةِ، فلم يحظَ بعد بغفرانِها، وإني إلى الآن أحسُّ بلذتها، لذلك أظن أنها لم تُغفر بعد، فأحزن وفكري يحدثني قائلاً لي: إن الله خذلك لأن قتالَ الزنى قد ثقل عليَّ طول هذا الأسبوع»؟

الجواب: «لقد قلتُ لك إن خطاياك القديمة قد غُفرت، أتراني قلتُ لك إن قتالات العدو قد بَطُلت؟ فالراهبُ قائمٌ في صفِّ الجهاد ولو لم يكن لك خطايا. فالشيطان يجلبُ لك لذَّةَ الخطيةِ بالفكرِ، أمَّا ما قاله لك أنبا إشعياء فهو عن فاعليها المتلذِّذين بعملِها، لأن ذِكر حلاوة العسل شيء، وتذوُّق حلاوة العسل شيءٌ آخر. حتى إن الذي يتذكر لذَّة الخطية ولا يفعل ما يتعلق باللَّذةِ، بل يجاهد في سبيل إبعادها عنه فذلك هو الذي غُفرت له خطاياه القديمة. ومن خيالات الشيطان أنه يقول لغير المتمكنين: إن خطاياكم لم تُغفر، وذلك ليقطعَ رجاءَهم، فَتَحَفّظ من ذلك. أما عن قتال الزنى، فيحتاج الإنسانُ إزاءَه إلى جهادٍ واتضاعٍ، فبلا تعب واتضاع لن يخلُصَ أحدٌ. أما من جهةِ الخذلان فالله لا يخذلنا، فما لم نتخلَّ نحن عن محبتِهِ أو نحيد عنه، فهو لا يتخلى عنا، إذ أن مشيئته هي أن نلجأ إليه ونخلص».

وبصدد الابتعاد عن العالم قال البار إشعياء: إني في بعضِ الأوقات كنتُ جالساً بقرب القديس مقاريوس الكبير حين تقدم إليه رهبانٌ من الإسكندرية ليمتحنوه، قائلين: «قل لنا كيف نخلص»؟ فأخذتُ أنا دفتراً وجلستُ بمعزلٍ عنهم لأكتبَ ما يتحاورون به. أما الشيخُ فإنه تنهَّد وقال: «كلُّ واحدٍ منا يعرف كيف يخلص، ولكننا لا نريد الخلاصَ». فأجابوه: «كثيراً ما أردنا

الخلاصَ، إلا أن الأفكارَ الخبيثةَ لا تفارقنا، فماذا نعملُ»؟ فأجابهم الشيخُ: «إن كنتم رهباناً، فلماذا تطوفون مثل العلمانيين، إن الذي قد هجر العالمَ ولبس الزي الرهباني، وهو وسط العالم، فهو لنفسِه يُخادع. فمن كانت هذه حالُهُ، فقد صار تعبُه باطلاً. لأنهم ماذا يربحون من العلمانيين سوى نياحِ الجسد، وحيث نياحُ الجسد لا يوجد خوفُ الله، لا سيما إن كان راهباً ممن يُدعَوْن متوحدين، لأنه ما دُعي متوحداً إلا لكي ينفرد ليلَه ونهارَه لمناجاةِ الله. فالراهبُ المتصرِّف بين العلمانيين هذه هي تصرفاته: قبل كلِّ شيءٍ تكون فاتحةُ أمرِه أنه يضبطُ لسانَه ويصوم، ويذلِّل نفسَه إلى أن يُعرف ويخرج خبرُه، ويقال عنه الراهب الفلاني هو عبدُ اللهِ. وسرعان ما يسوق إبليس إليه من يُحضر له حوائجَه من خمرٍ وزيتٍ وثيابٍ ودراهم وكلِّ الأصناف، ويدعونه: القديسَ القديس. فبدلاً من أن يهرب من السُبح الباطل الناتج من قولِهم له القديس، يتعجرف الراهبُ المسكين، ويبدأ في مجالستِهم، فيأكل ويشرب معهم، ويستريح براحتهم، ثم يقوم في الصلاةِ ويعلِّي صوتَه حتى يقول العلمانيون إن الراهب يصلي ساهراً. وكلما زادوه مديحاً، زاد هو كبرياءً وعجرفة. فإن كلَّمه أحدٌ بكلمةٍ حسنة جاوبه حسناً. ثم يُكثر نظره إلى العلمانيين ليلاً ونهاراً، ويرشقه إبليس بسهامِ النساء، ونِشاب الصبيان، ويلقيه في اهتماماتٍ عالمية، ويَقلق وينزعج كما قال الربُّ: إن كلَّ من نظر إلى امرأةٍ نظرةَ شهوةٍ فقد أكمل زناه بها في قلبهِ. وإن كان ينظرُ إلى هذا القولِ على اعتبار أنه خرافة، فليسمع الربَّ قائلاً له: إن السماءَ والأرض تزولان، وكلامي لا يزول. وبعد ذلك يبدأ في حشد حاجته لسنتِهِ، بل يجمعها مضاعفةً، ويبدأ كذلك في جمعِ الذهبِ والفضة، ويلقيه الشيطان في هوّةِ حبِّ المال، فإن أحضر له إنسانٌ ذهباً أو فضةً أو ملبوساتٍ أو غير ذلك مما يرضاه، فللوقت يقبله بفرحٍ ويُعدُّ المائدةَ الحسنة ويبدأ يأكل . أما البائسُ، لا بل المسيح، يتلوى جوعاً، ولا يفهمه أحدٌ. لهؤلاء قال سيدنا المسيح: إن دخولَ الجملِ في ثقبِ إبرةٍ، أيسرُ من دخول غني إلى ملكوتِ الله.

قولوا لي يا آبائي، هل الملائكةُ في السماءِ تجمعُ ذهباً وفضةً وتسجد لله. فنحن يا إخوتي عندما لبسنا هذا الزي، أتُرى لنجمعَ مقتنياتٍ وحطاماً، أم لنصير ملائكةً؟ فإذا كنا يا إخوتي قد هجرنا العالمَ ورفضناه، فلماذا نتراخى أيضاً ويردُّنا إبليس عن طريق المسكنةِ، أما فهمتم أن الخمرَ ونظرَ النساءِ والذهبَ والفضةَ والنياحَ الجسدي وقربَنا من العلمانيين، هذه كلُّها تبعدنا من الله،

لأن أصلَ الشرورِ كلِّها محبة الفضة، وبمقدار ما بين السماء والأرض من البُعد، هكذا بين الراهب المحبِ للفضةِ وبين مجدِ الله. نعم لا توجد رذيلةٌ أشرُ من رذيلةِ الراهب المحب للفضةِ. إن الراهبَ الذي يجالس العلمانيين يحتاج صلوات قديسين كثيرين. أما سمعتَ قول الرسول يوحنا: لا تحبوا العالم ولا شيئاً مما في العالم، فمن أحبَّ العالم، فليست فيه محبةُ الله. كذلك الرسول يعقوب يقول أيضاً: من أراد أن يكون خليلاً للعالم فقد صار عدواً لله. فلنَفِرَّ نحن أيها الإخوة من العالم كما نَفِرُّ من الحيةِ، لأن الحيةَ إذا نهشت فبالكاد تبرأ عضتُها، كذلك نحن أيضاً إن شئنا أن نكون رهباناً فلنهرب من العالم، لأن الأوفق لنا أيها الإخوة أن تكون لنا حربٌ واحدةٌ بدلا من قتالاتٍ كثيرة. قولوا لي يا إخوتي ويا آبائي: في أي موضعٍ اقتنى آباؤنا الفضائل، أفي العالم أم في البراري؟ إذن، كيف نقتني الفضائل ونحن في العالم؟ لن نستطيع ذلك ما لم نجُع وما لم نعطش وما لم نساكن الوحوش ونموت بالجسد، كيف نريد أن نرث ملكوت الله ونحن بين العالم؟ لننظر إلى ممالك الأرض فإنه ما لم يحارب الجندي ويغلب فلن ينالَ الرتبةَ، فكم وكم أحرى بنا أن نفعل ذلك. فلا نظن أننا نرثُ ملكوتَ السماوات ونحن بين العالم. فلا يُوَسوِسُ لنا الشيطانُ أفكاراً رديئةً هكذا قائلاً: اجمع حتى تستطيع أن تعمل صدقةً. لنعلم أن من لم يشأ أن يصنع رحمةً من فلسٍ واحدٍ فلن يعملَ رحمةً من ألفِ دينار. لا يليق بنا أن نفعل ذلك يا إخوتي، لأن هذه الأمور هي من عمل العلمانيين. إن الله لا يريدُنا نحن الرهبان أن نقتني ذهباً أو فضةً أو ملابس أو أموراً هيولانية، لأن الربَّ أوصى قائلاً: انظروا إلى طيورِ السماء، فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزِّن في الأهراء، وأبوكم السماوي يقوتها. إن الراهب المقتني ذهباً وفضةً لا يثق بأن الله قادرٌ على أن يعوله. وإن كان لا يعوله فلن يعطيه مُلكه.

إن الراهبَ الذي عنده حاجته وينتظر من يُحضر له، فهو شريك ليوداس الذي ترك النعمةَ وسعى طالباً محبة الفضة، وبولس الرسول إذ عرف ذلك، لم يَدْعُ محبةَ الفضةِ أصلَ كلِّ الشرورِ فحسب، بل وسماها أيضاً عبادة أوثان. فالراهب المحبُّ للفضةِ هو عابدٌ للأوثان، إن الراهب المحبُّ للفضةِ بعيدٌ من محبةِ المسيح، الراهبُ الذي له في قلايته فضة فإنه يعبد ويسجد للأصنام المنقوشة، أعني الدنانير، وكلُّ يومٍ يذبح لها عجولاً وكباشاً، بإخضاع نيته وإرادته لمحبة الفضة الرديئة، تلك التي تفصل الراهبَ عن طغماتِ الملائكة. فيا لمحبة الفضة المرة، أصل كلِّ الشرور،

الفاصلة الراهب من مُلك السماوات، والباعثة إياه إلى التعلق بسلاطين الأرض. يا لمحبة الفضةِ سبب كلِّ الرذائل، الساحبة للسان الراهب إلى كل شتيمةٍ وخصومة ونميمة، والجارة له إلى المحاكمات شبيهاً بالعلمانيين، ويح ذلك الراهب المحب للفضة، لأنه قد تخلى عن الوصية القائلة: لا تكنزوا لكم ذهباً ولا فضة. وقد يزعم ذلك الراهبُ المسكين قائلاً: إن الاقتناء لا يضرُّني. وهو لا يعلم أنه حيث الذهب والفضة والهيولانيات، فهناك دالةُ الشياطين وهلاكُ النفوس، والويلُ المؤبَّد.

كيف يدخلُ الخشوعُ في نفسِ إنسانٍ مقتنٍ للفضة، وقد حاد عن مصدر دعوتهِ إلى الحياة الدهرية، خالقه ورازقه، وصار بذلك متعبداً وساجداً لمنحوتات غير متحركة، أعني الدنانير. كيف يقتني الخشوعَ مَن هذه صفته؟ يا إخوتي ويا أحبائي، كيف يكون لنا نحن الرهبان ذهبٌ وفضة وملابس، ولا نكف كذلك عن الجمع، مع أن البائسَ، لا بل المسيح، جائعٌ وعطشان وعريان، ولا نفكر فيه؟ ماذا يكون جوابُنا أمام السيد المسيح، وقد هجرنا العالم، وها نحن نعاودُ الطوافَ فيه؟ إن طقسَنا ملائكيٌّ لكننا جعلناه علمانياً. لا يكون هذا منا يا إخوتي. إيانا أن نعمله بل لنهرب من العالم، لأنه إن كان بالكاد نخلص في البريةِ، فكيف يكون حالُنا بين العلمانيين؟ فلن يكون لنا خلاصٌ، لا سيما والربُّ يقول: من لا يهجر العالم وكل ما فيه وينكر نفسَه ويأخذ الصليبَ ويتبعني فلن يستحقني. وأيضاً يقول: اخرجوا من بينهم وافترقوا عنهم وأنا أقبلكم وأجعلكم لي بنين وبنات. أرأيتم عِظم المنفعةِ من الهربِ من العالم؟ لأنه نافعٌ لنا جداً وموافقٌ، لأن مجالسَ العلمانيين ليس فيها شيءٌ سوى البيع والشراء وما يتعلق بالنساء والأولاد والزرع والدواب، فهذه المخالطة تفصل الراهبَ عن الله، فمشاركتهم في الأكلِ والشربِ تجلبُ الكثيرَ من الضررِ. ولسنا نعني بهذا أن العلمانيين أنجاسٌ، معاذ الله، لكنهم يسلكون في الخلاصِ طريقاً آخر غير طريقِنا. فهروبُنا هو هروبٌ من مخالطتهم. فلنطلب سبَّهم فينا أكثر من مديحهم لنا، لأن سبَّهم لن يفقدنا شيئاً أما مديحُهم فهو سببُ عقوبتنا. فما منفعتي إذا أنا أرضيْتُ الناسَ وأغضبتُ ربي وإلهي، لأنه يقول: لو كنتُ أرضي الناس فلستُ بعد عبداً للمسيح. إذن فلنبتهل أمامَ ربنا قائلين: يا يسوع إلهنا نجنا وأنقذنا من مخالطتهم».

من كلام مار إسحق قال: «ابتعد عن العالم، وحينئذ تحس بنتانتهِ، لأنك إن لم تبتعد عنه،

فلن تحسَّ برائحتِهِ الكريهة». فسُئل مرةً: «ما هو العالم؟ وكيف نعرفه؟ وما هو مقدار مَعزَّتِهِ لمحبيه»؟ فأجاب وقال: «إن العالم هو تلك الزانية التي بشهوةِ حسنِها تجذبُ الناظرين إليها إلى حبِّها. والمقتَنص بعشقهِ والمتشبث به لا يقدر أن يتخلَّص منه حتى تفنى حياته، فإذا ما عرَّاه من كلِّ شيءٍ وأخرجه من منزلِهِ يوم موتهِ، حينئذ يعرف الإنسانُ في ذلك اليوم أنه خداعٌ وسرابٌ مضل، حتى إذا ما جدَّ الإنسانُ في الخروج من هذا العالم المظلم، فإنه لن يستطيعَ الخلاصَ من حبائلِهِ ما دام هو منغمساً فيه».

جاء أحدُ الإخوةِ إلى شيخٍ من الرهبان وشكا أخاه إليه قائلاً: «ماذا أصنعُ يا أبي فإن أخي يحزنني لأنه دوَّار»؟ قال الشيخ: «احتمله يا حبيبي، فإن الله قادرٌ أن يردَّه إذا ما رأى تعبَك وصبرَك، وأخذك له بالرفقِ واللين. وإياك والقساوة، فإن الشيطانَ لا يطردُ شيطاناً. وبرفقِك وصبرِك يرجع، لأن الله إنما يردُّ الإنسانَ بطولِ روحهِ وطيبِ قلبهِ واحتمالهِ».

أخبروا عن أنبا تاؤدورس: إنه لما كان شاباً وهو يسكنُ في البريةِ، قام ذات يومٍ يخبز لنفسِه خبزاً، فوجد أخاً ليس له من يعمل له خبزاً إذ لم يكن يجيد صناعةَ الخبز. فترك أنبا تاؤدورس خبزَه وعمل خبزَ ذلك الأخ، وجاء أيضاً أخٌ آخر فخبز له خبزَه، وبعد أن أراحهم حينئذ عمل خبزَه أيضاً».

جاء خبرٌ عن أخوين قوتل أحدُهما بالزنى، فقال لأخيه: «يا أخي، إني منطلقٌ إلى العالم»، فبدأ أخوه يبكي ويقول: «لا أتركك تذهب إلى العالم لئلا تُتلف تعبَ رهبانيتك وبتوليتك». فأبى أن يقبلَ منه وقال له: «إما أن تتركني أمضي وحدي، وإما أن تجيء معي». فذهب أخوه، وحدَّث أحدَ الشيوخ بحالِه، فقال له الشيخ: «اذهب معه، فإن الله من أجلِ تعبك لا يتركه يقعُ في الزنى». فلما بلغا القريةَ، رفع الله عنه قتالَ الزنى من أجلِ تعب أخيه وعنائِه معه. وإذ به يخاطبُ أخاه قائلاً: «هَب أني وقعتُ في دنسِ الخطيةِ، فأي ربح لي من ذلك»؟ ثم أنهما رجعا إلى قلايتهما وحمدا الله على خلاصهِ وحسن صنيعه معهما.

أخبروا عن أخٍ حريصٍ على خلاصهِ، جاء من غربةٍ فأقام في قلايةٍ لطيفةٍ بطور سينا. فلما جلس في اليوم الأول، وجد على خشبةٍ صغيرة كتابةً قد كتبها الأخُ الذي كان فيما مضى ساكناً فيها وهو يقول فيها: «أنا موسى بن تادرس قد حضرتُ وأقمت ههنا». وكان الأخ يضع تلك

الخشبةَ قدامه طول النهار يومياً. ويسأل: «من كتب هذه الكتابةَ»؟ ثم يُردف قائلاً: «أيها الإنسان، ليت شعري، أين أنت الآن؟ لأنك قلتَ: قد حضرتُ وأقمتُ. فإلى من كتبتَ هذا يا تُرى؟ تُرى في أي عالمٍ أنت في هذه الساعةِ»؟ فكان يداوم هكذا على هذا العمل طول النهار متذكراً الموت، ثابتاً في النحيبِ والبكاء. وكانت صناعتُه الخطَ المليح. فتناول من الإخوةِ ورقاً ليكتبَ لهم شيئاً كتذكارٍ منه لهم. لكنه لم يكتب لأحدٍ شيئاً سوى صيغةٍ واحدة، كتبها في ورقِ كلِّ واحدٍ منهم وذكر فيها: «اغفروا لي أيها الإخوة سادتي، فإنه كان لي عملٌ مع ذاك القادر على خلاصي، لذلك لم أفرغ منه حتى أكتبَ لكم».

أخبروا أيضاً: أنه كان يسكنُ بقرب هذا الأخِ أخٌ آخر كان بُستانياً، وقصد مرةً المضي إلى ديرٍ في يومٍ من الأيام، فقال لذلك الأخ الكاتب: «اعمل محبةً يا أخي واهتم بالبستان حتى أرجع». فقال له الأخ: «صدقني أنه على قدر استطاعتي لن أتوانى في الاهتمامِ به».

وبعد انصراف الأخ البستاني قال الأخ الكاتب في نفسِه: «يا مسكين، لقد وجدتَ خَلوةً فاهتم بالبستانِ». ثم أنه انتصب في قانونهِ من المساءِ إلى الصباح، لم يفتر، مترنماً بدموعٍ، مصلِّياً، ومكث على هذه الحال طول النهار كذلك إذ كان يوم الأحد المقدس. فلما جاء الأخ البستاني عند المساءِ، وجد البستانَ قد أفسدته القنافذ، فقال له: «غفر الله لك يا أخي،لأنك لم تهتم بالبستانِ». فقال له ذاك: «يا معلم، عَلِم الله، إني قد بذلتُ كلَّ قوتي وحفظتُه إلا أن اللهَ قادرٌ أن يعطينا ثمراً من البستانِ الصغير». فقال له الأخ: «صدقني يا أخي لقد تلف كلُّه». فقال له الكاتب: «لقد علمتُ بذلك إلا أني واثقٌ بالله، أنه قد أزهر أيضاً». فقال البستاني: «هلم بنا لنسقي». فقال الأخُ: «انطلق أنت اسقِ في النهار وأنا أسقي في الليلِ». فلما صار القحطُ والجدبُ، اغتمَّ البستاني وقال لذلك الكاتب جارِه: «صدقني يا أخي، إذا لم يُعِن الله، فليس لنا في هذا العام ماءٌ». فقال له الكاتبُ: «الويل لنا يا أخي إن جفَّت ينابيعُ البستانِ، بالحقيقة لن يكون لنا خلاصٌ أيضاً». وكان يقول هذا قاصداً ينابيعَ الدموعِ. فلما جاءت الوفاةُ للمجاهد القديس، سأل البستاني جارَه قائلاً: «اصنع محبةً ولا تقل لأحدٍ إني مريضٌ، لكن امكث عندي ها هنا اليومَ، وإذا انصرفتُ إلى الربِّ فاحمل أنت جسدي، واطرحه عارياً لتأكله الوحوش والطيور لأنه أخطأ قدام الله كثيراً، ولن يستحقَ أن يُدفن». فقال له البستاني: «صدقني يا معلم إن هذا

الطلبَ صعبٌ عليَّ إتمامه». فأجابه قائلاً: «لا تخالفني في هذا الطلب، وإني أُعطيك عهداً، إن سمعتَ مني وعملتَ بي كما سألتُك، واستطعتُ أنا القيام بما ينفعك لنفعتك». ثم أنه بعد وفاتهِ، عمل به كما أمره في ذلك اليوم، فطرح جسمَه في البرية عارياً، لأنهما كانا مقيميْن في مكانٍ يبعدُ عن الحصنِ عشرين ميلاً يقال له (   ) وفي اليومِ الثالث ظهر له الأخُ المنصرف للربِّ في الرؤيا وقال له: «يا أخي، يرحمُك الله كما رحمني، صدقني إن رحمتَه عظيمةٌ جداً، فلقد رحمني الله بسببِ بقاء جسمي غير مدفون، وقال لي: لأجل تواضعك الكثير، قد أمرتُ أن تكونَ مع أنطونيوس، وقد طلبتُ إليه من أجلِك أيضاً، لكن اذهب واترك البستانَ، واهتم بالبستانِ الآخر، لأني في الساعةِ التي خرجتْ فيها نفسي كنت أبصرُ دموعَ عينيَّ وقد أطفأت النارَ التي كنتُ مشرفاً على المضي إليها».

كان أخٌ فاضلٌ حريصاً، وإذا صلَّى مع أخيه قانونَه تغلبه دموعُه، فيفوته من المزمور استيخن أو أكثر، وفي أحد الأيام سأله أخوه أن يخبرَه بما ينتابه أثناء قراءة قانونه حتى يبكي ذلك البكاء المر، فقال: «اغفر لي يا أخي، فإني أثناء قراءة القانون، أبصر القاضي دائماً، وأرى ذاتي واقفاً قدامه وقوفَ المجرمِ، وهو يفحصُ أحوالي، وأسمعه قائلاً لي: لِمَ أخطأتَ؟ وإذ ليس لي جوابٌ أحتجُّ به إليه يستدُّ فمي، وعلى هذا الوجه يفوتني الاستيخن من المزمور، فاغفر لي لأني أغمُّك. وإن كنتَ تجد راحةً في أن يصلي كلُّ واحدٍ منا قانونَه منفرداً، فافعل». فقال له أخوه: «لا يا أخي، لأني وإن كنتُ أنا لا أبكي، إلا أني في الواقع إذا رأيتُك تبكي، أعطي الويلَ لنفسي وأعتبرها شقيةً». فلما أبصرَ الله تواضعه، وَهَبَ له اتضاعَ أخيه.

قيل عن أخٍ من الرهبان إنه زار شيخاً متعَباً في عملِ الخير، كان ساكناً في المغاير التي تقع فوق المكان الملقب بإسرائيل، وكان الشيخُ ذا عقلٍ متيقظٍ لدرجةِ أنه كان حيثما توجَّه، يتوقف عن السيرِ ويستعرض فكرَه ويسأله: «كيف حالُك يا أخي؟ أين نحن»؟ فإذا وجد عقلَه يترنَّم بالمزامير ومتضرعاً، حمده واستدامه، وإن وجد ذاته متفكراً في أيِّ شيءٍ من الأشياء، شتم ذاته في الحال قائلاً: «هلم من هناك، قف عند حدك، والزم عملك». وكان الشيخُ يخاطب نفسَه بهذا الكلام دائماً: «يا أخي، يلوح لي أن الانصرافَ قريبٌ، ولستُ أرى مجالاً للنومِ أو التهاون بعد». فهذا الفاضل ظهر له الشيطانُ في وقتٍ من الأوقات، وقال له: «لماذا تتعب، إنك لن تخلص».

فقال له الشيخ: «وماذا يهمك إن كنتُ لا أخلص؟ لكني سوف أوجد في العذابِ فوق رأسك، وتحت كل من فيه». هذا قال أيضاً: «سبيلُ الراهبِ إذا وقف مع إخوةٍ رهبان، أن يطرقَ برأسهِ دائماً إلى أسفل ولا ينظر بالجملةِ إلى وجه إنسانٍ، وخاصة وجه شاب. وإذا كان منفرداً ينبغي له أن ينظرَ إلى العلو دائماً. ذلك لأن الشيطانَ من شأنِه أن يغتمَّ ويرتاع إذا نظر إلى العلو نحو ربنا».

أُخبر عن أحد الرهبان أنه لم يكن له عملٌ سوى الصلاةِ بلا فتور. وكان كلّ عشيةٍ يجدُ في قلايته خبزاً يأكله. فزاره أحدُ الرهبان مرة ومعه ليف، فأخذه منه وصار يعمل في الليف. فلما حان وقتُ المساءِ طلب خبزاً كعادته ليأكل، فلم يجد. فبقي حزيناً، فأتاه صوتٌ قائلاً: «لما كنتَ تعمل معي كنتُ أعولك، فلما بدأت ممارسة عملٍ آخر، فاطلب طعامك مما تعمله بيدك».

قيل عن أحد الرهبان إنه كان بليغاً جداً في الإفرازِ والتمييز، وأراد السكنى في القلالي فلم يجد قلايةً منفردة، وأنه خرج تائهاً في البريةِ إلى أن لقيه أحدُ الشيوخ فأخبره بحالِه، فأجابه الشيخ: «إن لي قلايتين، فاجلس في واحدةٍ منهما إلى حين يسهِّل المسيحُ لك قلايةً. فحَمَدَ أفضالَه. ولما سكن في القلاية قصده قومٌ من الرهبان لينتفعوا منه لكونهِ من أهلِ الفضل، وكانوا يحملون إليه ما سهل عليهم حمله. فلما نظر الشيخ صاحب القلاية ذلك، بدأ يحسده بإيعازٍ من الشيطان وقال لتلميذِه: «كم من السنين ونحن مقيمون في هذا المكان، ولم يقصدنا حتى ولا واحد من هؤلاء الرهبان. وهذا المحتال في أيامٍ قلائل استمال إليه الكلَّ. امضِ اطرده من القلاية». فمضى التلميذُ وقال له: «إن المعلمَ يسلِّم عليك ويسأل عن صحتِك ونجاح أحوالك واعتدال مزاجك، ويسألك أن تصلي من أجلهِ لأنه مريضٌ. ويقول لك: إن كان لك احتياجٌ إلى شيءٍ أقوم بتأديته لك». فقام الراهبُ وسجد للتلميذ وقال له: «بلِّغه سلامي عني، وقل له إني بخيرٍ ببركة صلواتك وليس لي احتياجٌ لشيء». فرجع التلميذ إلى الشيخ وقال له: «إن الراهبَ يُقبِّل يديك ويسألك أن تصلِّي من أجلِه وتمهله أياماً قلائل حتى يجدَ لنفسهِ قلايةً، ويرتحل عن قلايتك بسلام». فصبر ثلاثة أيام. وبعد ذلك أقلقه الحسدُ، فقال لتلميذِه:« اذهب وقل له لقد صبرتُ أكثر من اللازم، فاخرج من قلايتي». فأخذ التلميذُ بركةً مما كان يوجد في القلاية، ثم جاء إلى الراهبِ وسجد بين يديه وقال له: «إن المعلمَ يسلِّم عليك ويسألك أن تَقبل منه هذه البركة لأجلِ السيد المسيح

وتصلي من أجلهِ لأنه متعبٌ جداً، ولولا توجعه لكان قد حضر إليك». فلما سمع الراهبُ ذلك أدمعت عيناه وقال: «كنتُ أشتهي أن أذهبَ وأبصره». قال له التلميذ: «لا يا أبتاه، فإنه لا يحتمل أباً مثلك يرافقني إليه، لئلا يلحقني من ذلك شرٌ، ابقَ أنت ههنا وأنا أبلِّغه سلامَك ورسالتك». ثم ودَّعه وخرج وأتى إلى الشيخِ وقال له: «يا أبتاه إن الراهب يقول لك: لا يصعُب عليك الأمرُ، ولا تغضب، ففي يوم الأحد سوف أخرج من قلايتك». فمازال الشيخُ يترقب سواعي الليل حتى يوم الأحد، فلما لم يخرج الراهبُ، قام الشيخُ وأخذ عصا وهو مسبي العقل طائر الفكر، وقال لتلميذهِ: «تعالَ معي إلى هذا الراهب المحتال، فإنه إذا لم يخرج باختيارهِ فسوف أطردُه بهذه العصا مثل الكلبِ». فلما رآه التلميذُ هائجاً، وقد سلب العدو فكرَه، قال له: «أسألُك يا أبتاه أن تستمعَ إلى مشورتي بأن تجلسَ ههنا وأنا أسبقك إليه وأُبصر إن كان عنده رهبان، لئلا إذا أبصروك على هذه الحال يطردونك عنه فلا تنال بُغيتك، أما إذا وجدتُه وحده أعلمتُك لتمضي إليه وتطرده». فاستصوب الشيخُ كلامَ التلميذ، وجلس وهو يصرُّ بأسنانهِ، ومضى التلميذُ إلى الراهب، وسجد له كعادتهِ وقال: «إن المعلم يسلِّم عليك، ولما أعلمتُه أن جسمَك ضعيفٌ احترق قلبُه ولم يستطع صبراً، وقد جاء ليبصرَك، وإنه بسبب ضعفهِ ما أمكنه المجيء إليك». فلما سمع الراهبُ ذلك الكلام خرج لوقتهِ للقائه بلا كساءٍ ولا قلنسوة على رأسهِ ولا عصا بيده. فسبقه التلميذُ إلى معلمهِ وقال له: «هوذا الراهبُ قد ترك قلايتك وها هو حاضرٌ ليودِّعك ويأخذ بركة صلاتك قبل ذهابهِ وانصرافهِ بسلامٍ». فلما سمع الشيخُ هذا الكلامَ تذكَّر كلامَه ومراسلاته له، وانكشفت عنه غمامةُ الحسدِ وبقى حائراً في نفسِه ماذا يعمل، وخجل من لقائِه، ولشده الحياءِ لم يقدر أن يرفعَ عينيه نحوه، فأخذ يولي الأدبار، فلما رآه التلميذُ على هذه الحال سجد له وقال: «يا أبتاه، التقِ بأخيك دون خجلٍ فإن جميعَ الكلامِ الذي قلتَه لي لم يصل إلى مسامعِه قط». فلما سمع الشيخُ بهذا الكلام فرح جداً، والتقى بالراهب بفرحٍ وقلبٍ نقي، ورجع معه إلى قلايته. فقال له الراهب: «اغفر لي يا أبتاه، لأنه كان الواجب عليَّ أنا أن آتي إليك، لأنك تعبتَ في المجيء إليَّ». فلما رجع الشيخُ إلى قلايته سجد بين يدي تلميذهِ وقال له: «إنك من الآن أنت الأب وأنا لا أستحق أن أكونَ لك تلميذاً، لأنك بعقلِك وسلامة ضميرك وحسن إفرازك خلَّصت نفسي من الفضيحةِ».

قيل أيضاً: «إنه كان يوجد شيخٌ له تلميذٌ جيد. ومن المللِ كان الشيخُ يخرجه خارج الباب ويزدري به، فكان التلميذُ يمكث جالساً خارجاً، ولما فتح الشيخُ البابَ في اليوم الثالث، وجده جالساً، فأدى له الشيخُ مطانية وقال له: «يا ولدي إن تواضعك وطول أناتك قد غلبا شرِّي وصغر نفسي، فهلم الآن إلى داخل، ومنذ الآن، كن أنت الشيخَ وأنا التلميذ».

قال الأب أوراسيوس: «إن عجينةَ فطيرٍ تُطرح في أساسٍ بقرب نهرٍ، لا تثبت ولا يوماً واحداً، وأما المطبوخة بالنارِ فتثبت كالحجرِ. هكذا كلُّ إنسان ذي عقل بشري، إذا صار رئيساً فإنه ينحلّ من التجارب إن لم يُطبخ بخوفِ الله مثل يوسف، فالأفضل للإنسان أن يعرفَ ضعفَه ويهرب من نير الرئاسةِ».

قيل عن أخٍ راهب كان يسكن القلالي، هذا أقام عشرين سنةً مواظباً على القراءة ليلاً ونهاراً، وذات يومٍ نهض وباع الكتبَ والمصاحفَ التي كان قد اقتناها، وأخذ وشاحَه وذهب إلى البريةِ الجوانية. فالتقاه أنبا إسحق وقال له: «إلى أين تمضي يا ولدي»؟ فأجابه الأخُ قائلاً: «يا أبي، إن لي عشرين سنةً وأنا أسمع أقاويلَ الكتبِ فقط، والآن أريدُ أن أبدأَ في الابتعادِ عملاً بما سمعتُه من الكتبِ»، فقدَّم الشيخُ صلاةً من أجلهِ ثم أطلقه.

قال أنبا أفرآم: إن أحدَ الإخوةِ سأل أخاً له قائلاً: «إن الأب أمرني بالمضي إلى المخبز لنخبز خبزاً برسم الإخوةِ، ولما كان عُمالُ المخبزِ علمانيين يتكلمون بما لا يليق، فلستُ أنتفعُ من سماعِ ما يقولونه، فماذا أصنعُ»؟ فأجابه قائلاً: «أما رأيتَ في المكتبِ صِبياناً كثيرين، وكيف أن كلَّ واحدٍ منهم يقرأُ ما لا يقرأه رفيقُه لعلمهِ أن معلمَه يطالبه فقط بإتقان ما يختص به ولا يطالبه بإتقان ما يختص بغيره، فإن كنتَ أنت تنهزمُ للآلام بمجرد سماعِك فظيع الكلام، فاستمع لقول القائل: امتحنوا سائرَ الأشياءِ وتمسكوا بأحسنِها».

وقال أيضاً: «وما لنا وللعالم، وما لنا بمعاملاته؟ نحن قد مُتنا عن العالم، كلٌّ منا بأكلةٍ يسدُّ جوعَه، وأيدينا تساعدنا على خدمةِ جسدِنا بمعونةِ الله لنا، لأنه قال: لا يوجد متجندٌ يقوم بنفقةِ نفسه بانشغاله في أمورِ الحياة، إذ كيف يستطيع وهو مشغولٌ أن يُرضي قائدَ الجيش ومليكه».

قال أنبا إشعياء: «إن مضيْتَ إلى رؤساءِ العالم مريداً مصادقتهم فليس فيك مخافةُ الله».

وقال أيضاً: «إياك أن تقتني لك أصدقاءً من بين رؤساءِ الدنيا لكي لا يبعد اللهُ عنك».

وقال أيضاً: «إن شئتَ أن تكونَ معروفاً عند الله، فلا تُعرِّف الناسَ بنفسِك، لأن المرتبطَ بأمورِ العالم إذا سمعَ الحقَّ يُرذلُ قائلَه».

قال أنبا أبوللو: «لتكن عندكم هذه علامةً عظيمةً للنجاحِ متى اقتنيتم عدمَ الشهوةِ لشيءٍ ما من أمورِ العالم، لأن هذا هو فاتحة جميع مواهب الله».

تأهل أحدُ الشيوخ لمواهب الله، وذاع صيتُ فَضلِهِ فاستدعاه الملكُ لينال بركةَ صلاتِهِ، فلما تناقش معه وانتفع منه، أحضر له مالاً، فقبله الشيخ وعاد به إلى قلايتِهِ، وبدأ في تنظيفها وتعميرها، فجاءه مجنونٌ (بروحٍ نجس) فقال له حسب عادتِهِ: «اخرج من خليقةِ الله». فقال له الشيطانُ: «لن أطيعَك». فقال الشيخُ: «ولِمَ»؟ فأجابه: «لأنكَ صرتَ واحداً من خدامِنا إذ تركتَ عنك الاهتمامَ بالله، وأشغلتَ ذاتَك بالاهتمام بالأرضيات».

وراهبٌ آخر كان فاضلاً جداً لدرجةِ أنه كان يُخرج الشياطين بصلاتِهِ، وكانت له أمٌّ عجوز مسكينةٌ، فحدثت مجاعةٌ عظيمةٌ، فأخذ الراهبُ خبزاً ومضى ليفتقد والدته، وبعد أن رجع إلى قلايتهِ أُحضر أمامه مجنونٌ فقام ليصلي عليه كعادتهِ، فأخذ الشيطانُ يهزأ به قائلاً: «ماما، ماما».

قيل عن الأب مقاريوس الصعيدي: إن إنساناً (دوقس) حضر من القسطنطينية ومعه صدقة للزيارة، فزار قلالي الإخوة طالباً من يقبل منه شيئاً، فلم يجد أحداً يأخذ منه لا كثيراً ولا قليلاً. وكان إذا قابل أحدَهم أجابه بأن لديه ما يكفيه، وأنه مصلّ من أجلِهِ كمثل من أخذ منه تماماً، فصار ذلك الدوقس متعجباً، ثم أنه أحضر ذلك المال إلى القديس مقاريوس وسجد بين يديه قائلاً: «لأجلِ محبةِ المسيح اقبل مني هذا القليل من المال برسم الآباءِ». فقال له القديس: «نحن من نعمةِ الله مكتفين، وليس لنا احتياجٌ إلى هذا، لأن كلاًّ من الإخوة يعملُ بأكثرِ من حاجتِهِ». فحزن ذلك المحتشم جداً وقال: «يا أبتاه من جهةِ الله لا تُخيِّب تعبي واقبل مني هذا القليل الذي أحضرتُهُ». فقال له الشيخُ: «امضِ يا ولدي وأعطه للإخوةِ». فقال له: «لقد طفتُ به عليهم جميعاً، فلم يأخذوا منه شيئاً، كما أن بعضَهم لم ينظر إليه البتةَ». فلما سمع الشيخُ فرح وقال له: «ارجع يا ابني بمالِك إلى العالم وأهلِهِ، لأننا نحن أناسٌ أموات». فلم يقبل المحتشمُ ذلك. فقال له القديس: «اصبر قليلاً». وأنه أخذ المالَ وأفرغه على بابِ الدير وأمر بأن يُضرب

الناقوس، فحضر سائرُ الإخوةِ وكان عددُهم ألفين وأربعمائة، ثم وقف الأب وقال: «يا إخوةُ، من أجلِ محبة السيد المسيح، إن كان أحدُكم محتاجاً إلى شيءٍ فليأخذ بمحبةٍ من هذا المال». فعبر جميعُهم ولم يأخذ واحدٌ منه شيئاً. فلما رأى الدوقس منه ذلك صار باهتاً متعجّباً متفكِّراً، ثم ألقى بنفسِهِ بين يدي الأب وقال: «من أجلِ اللهِ رهبني». فقال له القديس: «إنك إنسانٌ كبيرٌ ذو نعمةٍ وجاهٍ ومركز، وشقاءُ الرهبنةِ كثيرٌ، وتعبُها مريرٌ، فجرِّب ذاتَك ثم أخبرني». فقال: «وبماذا تأمرني أن أفعلَه من جهةِ هذا المالِ»؟ فقال له: «عمِّر به موضعاً بالأديرةِ». ففعل، وبعد قليلٍ ترهب، صلاته تكون معنا، آمين.

قيل عن القديس مقاريوس الوسطاني إن إنساناً أتاه بعنقودٍ مبكرٍ. فلما رآه سبَّح الله وأمر أن يُرسلوه إلى أخٍ كان عليلاً، فلما رآه الأخُ فرح، وهمَّ أن يأخذَ منه حبةً واحدةً ليأكلها، لكنه قمع شهوَتَه، ولم يأخذ منه شيئاً وقال: «خذوه لفلان الأخ لأنه مريضٌ أكثر مني». فلما أخذوا العنقودَ إليه رآه وفرح، لكنه قَمَعَ شهوتَه، ولم يأخذ منه شيئاً. وهكذا طافوا به على جماعةِ الإخوةِ فكان كلُّ من أخذوه إليه يعتقدُ أن غيرَه لم يره بعد، وهكذا لم يأخذوا منه شيئاً. وبعد أن انتهوا من مطافِهِم على إخوةٍ كثيرين أنفذوه إلى الأب. فلما وجد أنه لم تضع منه حبةٌ واحدةٌ، سبَّح الله من أجل قناعةِ الإخوةِ وزهدِهم. وكان القديسُ يقول: «كما أن بستاناً واحداً يستقي من ينبوعٍ واحدٍ، تنمو فيه أثمارٌ مختلفٌ مذاقُها وألوانُها، كذلك الرهبان فإنهم يشربون من عينٍ واحدةٍ، وروحٌ واحدٌ ساكنٌ فيهم، لكن ثمرَهم مختلفٌ، فكلُّ واحدٍ منهم يأتي بثمرةٍ على قدرِ الفيض المعطى له من الله».

قال أحد الرهبان: «لا تتعرَّف بالرئيسِ ولا تتملَّقه، لئلا يحصلَ لك من ذلك دالةٌ فتشتاقَ للرئاسةِ».

قال شيخ: «يا حنجراني، يا من تطلب أن تملأ جوفَك، الأجودَ لك أن تُلقي فيه جمرَ نارٍ من أن تتناول أطعمةَ الرؤساءِ».

قال أنبا أفرآم: «اهرب من المشارب، ولا تدخل المجالسَ لئلا تصير زانياً خِلواً من امرأةٍ تساكنك».

قال شيخ: «المنصرف إلى العالمِ بعد رفضهِ إياه، إما أن يسقطَ في فخاخِهِ ويتدنس قلبُه

بأفكارِه، وإما أنه لا يتدنس لكنه يدين المتدنسين فيتدنس هو أيضاً».

قال القديس باسيليوس: لا تتجول في سائرِ العالم حيث لا تنتفع، ولا تحب الأسفارَ أو الطوافَ في القرى والبيوت، بل اهرب منها لأنها فخاخُ الأنفسِ. فإن ألحَّ عليك أحدُهم كي تدخل بيتَه معتقداً فيك العفةَ، فليتعلَّم ذلك الإنسان كيف يتبع إيمان قائد المائة الذي قال للسيد: «إني غيرُ أهلٍ لأن تدخلَ تحت سقف بيتي». وبذلك يقوم إيمانُهُ هذا مقامَ كلِّ شيءٍ له.

قال أنبا أفراطس: «إن شاء اللهُ حياتي فهو يعلم كيف يسوس أمري، وإن لم يشأ فما لي وللحياةِ». وكان يأبى أن يأخذَ من أحدٍ شيئاً، وإذ كان مُقعداً مُلقىً علي سريرٍ، فقد كان يقول: «إن أخذتُ من أحدٍ شيئاً، فليس لي ما أكافئه به».

وقال أيضاً: «يليق بالمتقدمين إلى الله أن ينظروا إليه وحده. ويلتجئوا إليه بوَرَعٍ هكذا، حتى لا يُعِيروا الشتيمةَ التفاتاً، حتى ولو كانوا مظلومين ربواتٍ من المرات».

قال شيخٌ: «المرائي بالمسكنةِ ويخدع بها الرحومين ليأخذَ منهم شيئاً في خفيةٍ، فهو خاطفٌ وظالم. لأنه أخذ بالرياءِ بغيرِ وجه حقٍّ، وما كان وقفاً على المساكين أخذه هو».

قال الأب زينون: «إن الراهبَ الذي يأخذُ صدقةً، سوف يعطي حساباً عنها».

قيل: حدث يوماً أن جاء إلى الإسقيط إنسانٌ غني عاد من غربةٍ وأعطى لكلِّ راهبٍ ديناراً صدقةً. وأنفذ كذلك بركةً لبعض الملازمين قلاليهم، فرأى أحدُهم في تلك الليلةِ حقلاً مملوءاً أشواكاً، وإنسانٌ يقول له: «اخرج ونظِّف حقلَ من أعطاك الأجرةَ»، فلما قام باكراً، أرسل الدينارَ لصاحبهِ قائلاً له: «خذ دينارَك، لأنه ليست لي قوةٌ على اقتلاعِ أشواكِ غيري، يا ليتني أستطيعُ اقتلاعَ أشواكَ حقلي فحسب».

قال أحدُ الآباء: «لا يكن لك في قلايتِك ثوبٌ زائدٌ عن حاجتِك ولستَ في احتياجٍ إليه، لأن هذا هو موتُك، لأن هناك قوماً آخرين غيرك يؤلمهم البردُ، وهم أبرُّ منك وأحقُّ. وأنت الأثيم عندك ما يفضل عنك. لا تقتنِ إناءً يزيدُ عن حاجتِك حتى ولا سُكرُجة واحدة (أي طبقٌ واحد)، وإلا فعليك أن تجيبَ عما فضل عنك. لا تقتنِ ذهباً في كلِّ حياتِك وإلا فما يهتم الله بك. وإن أتاك أحدٌ بذهبٍ، وكنتَ محتاجاً، فأنفقه في قُوتِك، وإن لم تكن محتاجاً، فلا يبيت

عندك. إن شئتَ أن تمتلك النوحَ، فاجتهد أن تكونَ أوانيك وكلُّ أمتعتك مسكينةً فقيرةً، مثل الإخوة الشحاذين. إذا اقتنيتَ مصحفاً (أي إنجيلاً) فلا تتنمَّق في تجليدِه ولا تُزيِّنه. ثوباً جديداً لا تلبس، لأن جميعَ هذه تمنع من النوحِ. وبالإجمال، ليكن جميعُ ما هو لك مما لا تتأ لم على فقدانِه. ثيابُك وحذاؤك وكلُّ أوانيك لتكن هكذا حتى لو جاء قومٌ ليسرقوها لا يرضون بها ولا يعجبهم شيءٌ منها».

وقال أحدُ الآباءِ أيضاً: «إن اللهَ يحتملُ خطايا أهلِ العا لم، أما خطايا أهلِ البراري فلا يحتمل، لأن ما يطالبُ به أهلَ العا لم يختلفُ عما يطلبه ممن قد تخلُّوا عن العا لم. لأنَّ مَن هو في العا لم له أعذارٌ كثيرةٌ، فأما نحن، فأيُّ عذرٍ لنا، نحن الذين قد قصدنا البريةَ، وتغرَّبنا فيها؟ الحقيقةَ، إن عقاباً شديداً وناراً تلتهب تلحَقُ بالعارفين لمشيئةِ الربِّ ولا يسلكون بمقتضاها».

قال القديس باسيليوس: «هذا ما يليق بالراهبِ: التمسكن، عقلٌ منخفضٌ، نظرٌ مُطرقٌ إلى الأرض، وجهٌ مُقَطَّبٌ، زيٌ مهمل، ثوبٌ وسخ حتى يكون حالُنا كحالِ النائحين الباكين، ثوبٌ بقدر الجسدِ لأن الغرضَ منه شيءٌ واحدٌ هو ستر الجسد من الحرِ والبرد، ولا نطلب ازدهار الصبغ وحسنَه ولا نعومةَ الثوبِ ولا ليونتَه، لأن الميلَ إلى ذلك من صفاتِ النساء، كما يجبُ أن يكونَ الثوبُ سميكاً حتى لا يحتاج الأمرُ إلى وشاحٍ ليدفئَ من يلبسه. وليكن الحذاءُ بسيطاً يتمم الحاجةَ الداعيةَ إليه فقط. وكذلك الحال في الطعامِ، خبزةٌ واحدةٌ تسدُ الجوعَ، والماء ليروي ظمأ العطشان. أما المشي فلا يكون بطيئاً بانحلالٍ كما لا يكون بسرعةٍ وعجرفةٍ حيث الحركات الخطرة».

من كلام مار إسحق: «شيطانُ الزنى يرصُدُ ثوبَ الراهبِ، هل يلبسه باستمرارٍ أو يغيره عند التقائهِ بآخر، لأن هذا هو مفتاحُ الزنى».

وقال أيضاً مخاطباً الإخوة: «إن آباءَنا كانوا يلبسون خرقاً موصولةً قديمةً، وأغطيةً عتيقةً. أما الآن فلباسُنا ثيابٌ غالية الثمن. امضوا من ههنا ، فقد أفسدتم ما كان ههنا». ولما كانوا عتيدين أن يمضوا إلى الحصادِ قال لهم: «لن أوصيكم بشيءٍ لأنكم لا تحفظون شيئاً».

قال أنبا بموا: «يليقُ بالراهبِ أن يلبسَ ثوباً لو تركه خارج قلايتهِ أياماً مطروحاً، لا يرضى أحدٌ أن يأخذه لحقارتهِ».

قيل عن يوحنا فم الذهب: «إن مدةَ إقامتهِ في البطريركية كان غذاؤه ماءَ الشعير والدشيشة يومياً، كما كان يأخذ طعامَه بوزنٍ ومقدار. وهذا ما جعله ينسى الشهوةَ، أما ثوبُه فقد كان من خِرَقٍ وشعرٍ خَشِن، ولم يكن له ثالثٌ».

وبخصوص البعدِ من الأقرباءِ قيل: إن راهباً سأل الأب برصنوفيوس بشأنِ أخيه العلماني المحتاج إلى ثوبٍ، فأجابه: «أتسألني أيها الأخ بخصوصِ أخيك؟ إني لا أعرفُ لك أخاً غيرَ المسيح، فإن كان لك إخوةٌ فاعمل معهم ما شئتَ، فأنا ليس لي كلامٌ، لأنه إن كان الربُ نفسُه قال: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ فماذا أقول أنا لك؟ هل تطرح وصيةَ الربِ وترتبط بمحبةِ أخيك حتى ولو كان مفتقراً إلى ثوبٍ، وإن كنتَ قد ذكرتَ أخاك، فلِمَ لم تتذكر المساكين الآخرين، لا بل لم تذكر القائل عن نفسِه: إني كنتُ عرياناً ولم تكسوني. ولكن الشياطين تُلاعبك بل وتُذكِّرك أيضاً بأولئك الذين كنتَ قد جحدتَهم لأجلِ المسيح لكي ما تظهر مخالفاً لأوامره».

كذلك قيل: سأل أحدُ الإخوةِ شيخاً وقال له: «إن أختي مسكينةٌ فهل أعطيها صدقةً، إذ ليس لها نظيرٌ في المساكين»؟ قال له الشيخُ: «لا». قال الأخ: « لِمَ أيها الأب»؟ قال له الشيخ: «لأن الدمَ يجذبُك إلى ذلك، أكثر من وصيةِ المسيح».

قيل كذلك إن أحدَ الإخوةِ كانت له والدةٌ تقيةٌ، فلما حدثت مجاعةٌ كبيرةٌ، أخذ قليلاً من الخبزِ ومضى إليها، ولما كان يسيرُ جاء إليه صوتٌ قائلاً: «أتهتم أنت بوالدتك أم أنا المهتمُ بها»؟ فميز الأخُ قوةَ الصوتِ، وخرَّ على الأرضِ بوجههِ قائلاً: «أنت يا ربُّ هو المهتمُ بنا». ونهض راجعاً إلى قلايتهِ. وفي اليوم الثالثِ جاءت إليه والدتُه وقالت له: «إن فلاناً الراهب أعطاني قليلاً من الحنطةِ، خذها واصنع لنا أرغفةً لنأكلَ». فلما سمع الأخُ بذلك، مجَّد الله وقوي أملُه.

قال أحدُ الآباء: «إن جحدتَ أنسباءَك بالجسدِ مع أمورِ الجسدِ لأجلِ الله، فلا تنخدع للرحمةِ على والدتك أو ابنك أو أخيك أو أحد أنسبائك، لأنك قد تخليتَ عن هذه كلِها، اذكر ساعةَ موتِك، فلن ينفعَك واحدٌ منهم».

قيل عن أحدِ رهبانِ الإسقيط (إنه كان له ولدٌ قبل رهبنتِه) وأنَّ ولدَه أُخذَ في خدمةِ السلطان، فكتبت أمُّ الصبي إلى زوجِها الراهب أن يسأل الوالي في إطلاقه، فأجاب الراهبُ وقال للمرسال: «إن هو أُخلي سبيله أما يأخذون غيرَه»؟ قال: «نعم». قال الراهب: «وأية منفعةٍ من

أن أُفرِّح قلبَ هذه، وأُحزن قلبَ أخرى»؟ وكان ذلك الراهب يعملُ عملاً متواصلاً، فكان يأخذُ منه حاجتَه، وما بقي بعد ذلك يفرِّقه على المساكين، فلما حدثت مجاعةٌ عظيمةٌ، أرسلت الوالدة ولدَه إليه تطلب منه أن يعطيها خبزاً قليلاً، فلما سمع الراهبُ قال لولدِه: «أما يوجد في الموضعِ قومٌ آخرون محتاجون مثلُكم»؟ فأجابه: «نعم يا أبي كلُّ الناسِ محتاجون». فأغلق البابَ في وجههِ وتركه باكياً وقال: «امضِ يا ولدي، والمهتمُ بالكلِّ يهتم بكم». فسأل أحدُ الإخوة الشيخَ قائلاً: «أما يؤلمك الفكرُ إذ رددتَ هكذا»؟ فأجابه: «إن لم يُكره الإنسانُ نفسَه في كلِّ أمرٍ، فما يقدر أن يُقوِّم شيئاً من الصلاحِ البتةَ».

كان لأحدِ الرهبان أخٌ علماني وكان يواسيه من عملِه وبقدر ما كان يواسيه، كان ذاك يفتقرُ أكثر. فمضى الراهبُ وأخبر أحدَ الشيوخِ، فقال له: «إن سمعتَ مني، فلا تعُد تعطيه شيئاً بعد، بل قل له: لما كان لي كنتُ أعطيك، أما الآن، فبقدر ما تيسَّر لك هات أنت لي. وكل ما يأتي به إليك أعطِه للمساكين واسألهم أن يصلّوا من أجلِه». فلما جاء أخوه العلماني، قال له كما أعلمه الشيخُ، فمضى من عندِه كئيباً. وفي اليوم الثالث، أحضر له من تعبِه قليل بَقلٍ، فأخذها الراهب وأعطاها للشيوخِ وسألهم أن يصلّوا من أجلِه. ولما جاء ثاني مرة، أحضرَ له بقولاً وثلاث خبزات، فأخذها الراهبُ وعمل مثلما عمل أولاً، ولما جاء لثالثِ مرةٍ، أحضر له أشياءً ذاتَ ثمنٍ كنبيذٍ وسمك. فلما رأي الراهبُ ذلك تعجَّب واستدعى المساكين وأطعمهم وقال لأخيه: «هل أنت محتاجٌ إلى قليلٍ من الخبزِ فأعطيك»؟ فقال له ذاك: «لا يا أخي، لأني لما كنتُ آخذ منك شيئاً، كان كأنه نارٌ يدخلُ إلى بيتي فتأكله، وكأنه هباءٌ تأخذه الريح فلا أجده. ومنذ أن توقفتُ عن أن آخذ منك شيئاً، بارك الله لي». فمضى الراهبُ وأخبر الشيخَ بكلِّ ما جري فقال الشيخُ: «إن متاعَ الراهبِ هو نارٌ، أينما دخل أحرقَ».

قال أحدُ الآباء لراهب له مقتنيات: «لقد سُمي الراهبُ متوحداً لأنه أصبح يعيشُ وحدَه، لا يمتلك شيئاً. فإن كان له مِلكٌ يُجار عليه ويُظلم فيه، أو يجور هو ويَظلم، فليس هو إذن براهبٍ. لأن نواميسَ الملوك لا تُسلِّم بأن يحاكَم الرهبانُ في مجالسِ أحكامِهم، لأنهم قد ماتوا عن العالم، ولذلك فقد عَدِمَ كلَّ عفوٍ ذلك الراهبُ الذي يُدخِل نفسَه في مجالسِ الحكام لأجل شيءٍ يُظلم فيه أو يُجار عليه».

قيل أيضاً: أراد في يومٍ من الأيام والي البلاد أن يشاهد أنبا بيمين. لكن الشيخَ لم يشأ ذلك. فقبض الوالي على ابن أختِه بهذه الحجة وحبسه، كأنه قد عمل عملاً منكراً. وقال: «إن جاء الشيخُ وسألني من أجلِه فسوف أُطلقه». فجاءت إليه أختُه باكيةً على الباب، فلم يُجبها بجوابٍ البتة. فكرَّرت عليه قائلةً: «يا قاسي القلب، ويا حديدي الأحشاء، ارحمني فإنه وحيدي وليس لي سواه». فقال لها: «بيمين ما ولد أولاداً». فلما سمع الوالي قال: «وإن سألني بالمكاتبةِ فقط فإني أُطلقه». فأجاب الشيخُ قائلاً: «افحصه على ما يأمرُ به الشرعُ، فإن كان مستحقاً للقتل فليُقتل، وإلا فافعل كما تريد».

قال أحدُ الشيوخ: إن الرهبان المتوشحين بالزي المقدس، القاطنين في الأديرةِ، لا يليق بهم أن يقولوا: «لي ولك، ولهذا ولذاك». والجماعةُ المشتركة كذلك، ليس لهم أن يعتبروا شيئاً ما ملكاً لواحدٍ منهم. ولا يدورُ فيما بينهم القولُ: «لي ولك، ولهذا ولذاك». وإلا فما يليقُ أن تُدعى الجماعةُ بالكنوبيون، أي العيشة المشتركة، بل تُدعى مجامعَ لصوصٍ ومغارةً مملوءةً من كلِّ رذيلةٍ وسلبٍ للأشياء الطاهرة».

من الديادوخس: «الذي قد حظي وقاراً بمعرفةٍ مقدسة وذاقَ الحلاوةَ الإلهية، لا يجبُ له أن يحاكِم قط ولا يقيم دعاوى أو يجذب إلى مجلسِ حكمٍ بالجملةِ، حتى ولو سلب سالبٌ ملابسَه، لأن عدالة السلاطين في هذا الدهر ليست شيئاً بالمرة بالنسبة إلى عدالة الله. وإلا فأي فارقٍ إذن بين أولاد الله وأولاد هذا الدهر؟ وإليك ما فعله سيدنا يسوع المسيح، فإنه لما شتموه لم يشتم هو عوضاً، ولما آلموه لم يهدِّد، ولما نزعوا ثيابَه لم يتكلم، وتوجَّع لأجلِ خلاصنا، وما هو أعظم من ذلك كلِّه، أنه سأل الغفرانَ لفاعلي المكروه به».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «أريدُ أن أقيمَ مع آخر في كنوبيون حتى أستريحَ في قلايتي، ويعطيني عملاً أعمله بيدي ويهتمُ بي». قال الشيخ: «لا تفعل ذلك، وإلا فما كنتَ تستطيع أن تعطي أحداً خبزاً».

سأل أخٌ الأب بيمين قائلاً: «أريدُ أن أدخلَ إلى كنوبيون وأسكن فيه». فقال له الشيخُ: «إن شئتَ سكنى الكنوبيون، فإن لم تعتق نفسَك من هَمِّ كلِّ محادثةٍ، وتبتعد عن سائرِ الأشياء، فلا يمكنك سكنى كنوبيون، لأنه لن يكون لك هناك سلطانٌ إلا على عصاك».

قال أحدُ الآباء: إن شئتَ أن تجدَ راحةً في هذه الدنيا، قل في كلِّ أمرٍ تعمله: «أنا من أنا»؟ كما لا تدن أحداً.

وقال آخر: «ليكن فكرُك فكراً صالحاً هادئاً في أيِّ موضعٍ سكنتَ فيه، كما لا تطلب أن تُلقي قولَك قدامك، فتستريح».

وقال آخر: حيثما تجلس قل: «غريبٌ أنا، غريبٌ أنا».

وقال آخر: جاور من يقول: «أيَّ شيءٍ أريد أنا»؟ فبمجاورتك لذاك سوف تجد راحةً.

وقال آخر: «لا تسكن في موضعٍ له اسم، ولا تجالس إنساناً عظيمَ الاسم».

سأل أخٌ الأب بيمين قائلاً: «ما معنى قوله: الذي يغضبُ على أخيه باطلاً»؟ قال له: «إن أخذ أخوك منك شيئاً، وظلمك فيه وغضبتَ عليه بسببِهِ، فغضبُك هذا يكون باطلاً، لأنك غضبتَ لأجل أشياءٍ باطلةٍ، أما إن أراد إبعادك عن الله خالِقك، فحينئذ اغضب جداً، لأن غضبَك حينئذ لا يكون باطلاً».

ومرة سَمِعَ عن إنسانٍ أنه كان يواصل صومَ ستةِ أيامٍ، لكنه كان يغضبُ، فقال: «إن كان هذا قد تعلَّم كيف يطوي الأسبوعَ، فكيف لا يتعلم كيف يُبعد عنه الغضبَ»؟

قال الأب مقاريوس: «إن كنتَ في حالِ ردعِك غيرك تَحرد وتغضب، فأولى بك أن تشفي ألمِك أولاً، لأنه لا يليقُ أن تُهلك نفسَك لتُخلِّص غيرَك».

سأل إخوةٌ الأب أرمانيوس قائلين: «ماذا يجب أن نتدبَّر»؟ فأجابهم الشيخُ: «لا أتذكر أني سألتُ في وقتٍ من الأوقاتِ إنساناً بأن يعملَ شيئاً، ما لم أسبق فأُجيل في خاطري أني لا أغضب متى خالفني، ولم يعمل بما قلتُه له. وهكذا عشنا عمرَنا كلَّه بسكونٍ وسلامٍ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «إن سكنتُ مع إخوةٍ، ورأيتُ منهم أمراً غيرَ لائقٍ فهل تشاء أن أتكلَّم»؟ قال الشيخُ: «إن كانوا هم أكبر منك أو في مستواك، فسكوتك خيرٌ لك. لأنك بسكوتك تخلص». فقال الأخُ: «فماذا أعملُ أيها الأب، لأن الأرواح تقلقني بأن أتكلمَ، وهكذا تجدني متعَباً». فقال الشيخُ: «إن كان ولا بدّ، فذكِّرهم مرةً باتضاعٍ وذلك بأن تؤخر إرادتك وتخضع لله، محتاطاً لنفسك ألا تتكلم فيهم بنميمةٍ، وعندي أن السكوتَ أفضل، لأنه دليلٌ على

الاتضاع».

قال أحدُ الآباء: إنه لا يوجد أفضلُ من هذه الوصية: لا تزدرِ بأحدٍ من الإخوة، هو ذا قد كُتب: «توبيخاً توبِّخ قريبك ولا تأخذ بسببهِ خطيةً». فإن علمتَ أن أخاك مخطئٌ ولم تخبره بغلطتِه وثبت فيها يموتُ بخطيئتهِ، ما أجود التوبيخ لا سيما إذا كان بمحبةٍ واتضاع، لا بمعيرةٍ وازدراء».

قال شيخٌ: «إن كلَّ كلمةٍ يتكلمُ بها الإنسانُ ولا يستطيع أن ينطقَ بها قدامَ أخيه، فإنها تُعتبر نميمةً ووشاية».

من كتاب الدرجي: سمعتُ نمَّامين، فلما زجرتُهم قالوا لي بأنهم لا يفعلون شراً، وإنما يفعلون ذلك محبةً وشفقةً على أولئك الذين يتكلَّمون في حقِهم. أما أنا فقلتُ لهم: «ليست هذه محبةً، لكنك إن كنتَ تُحبَه حقاً، فصلِّ من أجلهِ خفيةً ولا تهجو أو تسبَّ أحداً».

قال أنبا بيمين: قد تجد إنساناً يُظنُّ به أنه صامتٌ، لكن فكرَه يدين آخرين، فمن كانت هذه صفته، فهو أبداً يتكلم. وقد تجد آخرَ يتكلم من بُكرةٍ إلى عشيةٍ، ويلازم الصمتَ، أعني أنه لا يتكلم كلمةً بلا منفعةٍ.

وقال شيخ: «إن شئتَ معرفةَ الطريقِ فعليك بأن تعتقدَ في ضاربك كاعتقادِك فيمن يحبك، وفي شاتمك كمن يمجِّدك، وفي ثالبك كمن يكرِّمك، وفي مُخزيك كمن ينيِّحك».

وقال آخر: «إن لم يكن قد صار عندك الامتهان كالإكرام، والخسران كالربح، والغربة كالقرابة، والعَوَز كالفضيلة، فامضِ واعمل ما شئتَ».

وقال آخر كذلك: «إن لم يعتقد الإنسانُ فيمن يظلمه كاعتقادِه في الطبيبِ، فإنه يظلم نفسَه ظُلماً عظيماً، فسبيلُك أن تتذكر من يظلمك كتذكرك طبيباً نافعاً لك، مُرسَلاً من قِبل المسيح إليك كما يلزمَك أن تتألم من أجلِ اسمِهِ».

قيل عن القديس مقاريوس: إنه كان في بعضِ القلالي أخٌ صدر منه أمرٌ شنيع وسمع به الأب مقاريوس، ولم يُرد أن يبكِّته. فلما علم الإخوةُ بذلك لم يستطيعوا صبراً. فما زالوا يراقبون الأخَ إلى أن دخلت المرأةُ إلى عِندِه. فأوقفوا بعضَ الإخوةِ لمراقبتهِ، وجاءوا إلى القديس مقاريوس.

فلما أعلموه قال: «يا إخوة لا تصدقوا هذا الأمرَ، وحاشا لأخينا المبارك من ذلك». فقالوا: «يا أبانا، اسمح وتعالَ لتبصرَ بعينيك حتى يمكنك أن تصدِّق كلامَنا». فقام القديسُ وجاء معهم إلى قلاية ذلك الأخ كما لو كان قادماً ليسلِّم عليه، وأمر الإخوةَ أن يبتعدوا عنه قليلاً. فما أن علم الأخُ بقدومِ الأبِ حتى تحيَّر في نفسِه، وأخذته الرعدةُ وأخذ المرأةَ ووضعها تحت ماجورٍ كبيرٍ عنده، فلما دخل الأب جلس على الماجور، وأمر الإخوةَ بالدخول، فلما دخلوا وفتشوا القلايةَ لم يجدوا أحداً ولم يمكنهم أن يوقفوا القديس من على الماجور، ثم تحدثوا مع الأخِ وأمرهم بالانصراف. فلما خرجوا، أمسك القديس بيدِ الأخ، وقال: «يا أخي على نفسِك احكم قبل أن يحكموا عليك، لأن الحكمَ لله». ثم ودَّعه وتركه، وفيما هو خارجٌ، إذ بصوتٍ أتاه قائلاً: «طوباك يا مقاريوس الروحاني، يا من قد تشبَّهتَ بخالقك، تستر العيوبَ مثلَه». ثم أن الأخَ رجع إلى نفسِه وصار راهباً حكيماً مجاهداً وبطلاً شجاعاً. صلوات جميعهم تكون معنا آمين.

وفيما يلي أقوال بعضِ القديسين في الدينونة

قال **القديس دوروثاؤس**: إنه لا شيء أردأ من الدينونةِ للإنسان، لأن بسببها يتقدم إلى شرورٍ ويسكن في شرورٍ، فمن دان أخاه في قلبِهِ وتحدث في سيرتهِ بلسانهِ، وفحص عن أعمالهِ وتصرفاتهِ، وترك النظرَ فيما يُصلِح ذاتَه، وانشغل عما يلزمه بما لا يلزمه من الأمورِ التي ينشأ عنها الازدراءُ والنميمةُ والملامةُ والتعيير، فحينئذ تتخلى المعونةُ الإلهية عنه، فيسقط فيما دان أخاه عليه. أما النميمةُ فتصدر من ذاك الذي يخبر بما فعله أخوه من خطايا شخصية، فيقول عنه إنه فعل كذا وكذا. وأما الدينونة، فبأن يخبر بما لأخيه من خُلقٍ رديء، فيقول إنه سارقٌ أو كذاب أو ما شابه ذلك، فيحكم عليه بالاستمرار فيها وعدم الإقلاع عنها. وهذا النوع من الدينونة صعبٌ جداً، ولذلك شبَّه ربنا خطية الدينونة بالخشبة، والخطية المدانة بالقذى. من أجل ذلك قَبِلَ توبةَ زكا العشار، وصفح عما فعله من آثامٍ، وشجب الفريسي لكونِهِ دان غيرَه، مع ما له من صدقةٍ وصومٍ وصلاةٍ وشكرٍ لله على ذلك. فالحكم على خليقةِ الله، يليق بالله لا بنا، فدينونةُ كلِّ واحدٍ وتزكيته هي من قبل الله وحده، لأنه هو وحدَه العارف بسرِّ كلِّ إنسانٍ وعلانيته. وله وحده

إصدار الحكم في كلِّ أمرٍ وعلى كلِّ شخصٍ. إذ يتفق أن يعمل إنسانٌ عملاً بسذاجةٍ وبقصدٍ يرضي الله، وتظن أنت غير ذلك، وإن كان قد أخطأ، فمن أين تعلم إن كان تاب وغفر الله له، أو إن كان الله دانه في العالم إزاء ذنوبهِ؟ فالذي يريد الخلاص إذن، ليس له أن يتأمل غيرَ نقائص نفسِه، مثل ذلك الذي رأى أخاه قد أخطأ فبكى وقال: «اليوم أخطأ هذا الأخ، وغداً أخطئ أنا، وربما يُفسح الربُ لهذا فيتوب، وقد لا يُفسح لي أنا». فبالحقيقة ويلٌ لمن يدين أخاه فإنه سيُهلك نفسَه بكونِه صار دياناً، ولكونهِ يؤذي الذين يسمعونه. وعنه يقول النبي: «ويلٌ للذي يسقي أخاه كأساً عكرة». وكذلك: «ويلٌ للذي من قِبلِهِ تأتي الشكوك». أما أصلُ هذا كلِهِ فهو عدم المحبة، لأن المحبةَ تغطي كلَّ عيبٍ. أما القديسون فإنهم لا يدينون الأخَ، لكنهم يتألمون معه كعضوٍ منهم، ويشفقون عليه ويعضدونه ويتحايلون في سبيلِ خلاصِهِ، حتى ينشلونه كالصيادين الذين يرخون الحبلَ للسمكةِ قليلاً قليلاً حتى لا تخرق الشبكةَ وتضيع، فإذا توقفت سَوْرَةُ حركتِها حينئذ يجرونها قليلاً قليلاً، هكذا يفعل القديسون، فإنهم بطول الروح يجتذبون الأخَ الساقطَ حتى يقيموه، كما فعل شيخٌ إذ جلس على الماجورِ الذي كانت تحته المرأة، لكي لا يجدها أولئك الدين نمُّوا على الأخ ... بشفقةٍ ومحبةٍ، لا باستنقاصٍ وتعيير.

كذلك أخبر أحدُ رؤساءِ الأديرةِ عن شيخٍ من الشيوخ القديسين أنه سكن قريباً من الديرِ، وكان ذا نفسٍ راجحةٍ في الصلاح، فجاوره أخٌ راهب. واتفق في غيبة الشيخِ أن طغى الأخُ وفتح قلايتَه، ودخل فأخذ زنابيلَه ومصاحِفَه. فلما رجع الشيخُ وفتح قلايته، لم يجد زنابيلَه ولا باقي حاجاته، فجاء إلى الأخِ ليخبره بما جرى له. وبدخولهِ قلاية الأخ وجد زنابيله ومصاحفه في وسطِها، لأن الأخَ لم يكن بعد قد خبأها. فلمحبةِ الشيخ، رأى ألا يحرجه، أو يوبخه، أو يخجله، فتظاهر بوجود ألم في بطنِهِ، ويحتاج الأمر لزوالهِ إلى قضاء الحاجة، فدخل بيتَ الراحةِ وأبطأ فيه وقتاً طويلاً، حتى إذا تأكَّد أن الأخَ خبأها، خرج الشيخُ وبدأ يكلمه في أمورٍ أخرى ولم يوبخه. وبعد أيامٍ قليلةٍ، عثروا على زنابيل الشيخ عند الأخ، فأخذه قومٌ وطرحوه في الحبسِ، فلما سمع الشيخُ أنه في الحبسِ ولم يكن يعرف العلةَ التي من أجلها حُبس، قام وجاء إلى الرئيس، وقال له: «اصنع محبةً وأعطني بيضاً وخبزاً قليلاً». فقال له ذاك: «من البيِّن أنه يوجد عندك اليوم ضيوفٌ». فقال له: «نعم». فأخذ الشيخُ ما طلبه، ومضى إليه في الحبسِ، ليجد الأخُ غذاءً من

الطعام. فلما دخل ليفتقدَه، خرَّ الأخُ على رجليه وقال: «يا معلم، لقد جيء بي إلى ههنا، لأني أنا هو الذي سرقتُ زنابيلك، ومصاحفك تجدها عن فلان، وثوبك تجده أيضاً عند فلان». فقال له الشيخُ: «بالحقيقيةِ يا ولدي، اِعلم تماماً أني لستُ من أجل هذا الأمر دخلتُ إلى الحبس، ولم أعلم بوجهٍ من الوجوه أنك جئتَ من أجلي إلى ههنا، لكني سمعتُ أنك محبوسٌ فاغتممتُ، وجئتُ مصلحاً لك طعاماً تتغذى به، فاقبل الخبزَ والبيضَ وخذه من أجلِ محبتي». ثم إن الشيخَ خرج إلى أكابر البلد، وأعلمهم بأن هذا الأخ بريءٌ، وسألهم ألا يجلبوا على أنفسِهم خطيئةً. ولكونه معروفاً بينهم بالفضلِ والخيرِ، سمعوا لكلامِه، ولوقتهم أطلقوه، فهذا الأخُ بقي تلميذاً عند الشيخ بقية أيام حياتهِ ولم يكلِّمه بكلمةٍ واحدةٍ قط.

وأيضاً قال شيخ: لا تدن الفاسقَ أيها العفيف لئلا تصير مثلَه مخالفاً للناموس، لأن الذي قال لا تزنِ، قال أيضاً لا تدِن. والرسول يعقوب يقول: «إن من حفظ الناموسَ كلَّه، وذلَّ في واحدةٍ منه، صار مُطَالباً بالجميعِ».

قال يوحنا السينائي: إنه في حالِ جلوسي في البريةِ الجوانية، جاءني أحدُ الإخوة متفقداً مَن بالدير، فسألتُه: «كيف حالُ الإخوة»؟ فأجابني: «بخيرٍ بصلاتِك». فسألتُه أيضاً عن أخٍ واحدٍ كانت سمعتُه قبيحةً، فأجابني: «صدقني يا أبي، إنه لم يتُب بعد منذ ذلك الوقتِ الذي أُشيعت عنه فيه تلك الأخبار». فلما سمعتُ ذلك قلتُ: «أُف». فعند قولي «أف» أخذني سُباتٌ وكأن نفسي قد أُخذت، فرأيتُ أني قائمٌ قدامَ الجمجمة، والمسيحُ مصلوباً بين لصين، فتقدمتُ لأسجدَ له، ولكنه أمر الملائكةَ الواقفين قدامَه بإبعادي خارجاً قائلاً: «إن هذا الإنسان قد اغتصب الدينونةَ مني ودان أخاه قبل أن أدينه أنا». فوليتُ هارباً، فتعلق ثوبي بالباب وأُغلق عليه، فتخليْتُ عن ثوبي هناك. فلما استيقظتُ قلتُ للأخ الذي جاءني: «ما أردأ هذا اليوم عليَّ». فأجابني: «ولِمَ يا أبي»؟ فأخبرتُه بما رأيتُ وقلت: «لقد عدمتُ هذا الثوبَ الذي هو سُترة الله لي».

ومن ذلك اليوم، أقام القديسُ هكذا تائهاً سبعَ سنين في البراري، لا يأكل خبزاً ولا يأوي تحت سقفٍ، ولا يبصر إنساناً. وأخيراً رأى في منامِهِ كأن الربَ قد أمر أن يُعطوه ثوباً. فلما انتبه فرح فرحاً عظيماً، وبعد أن أخبرنا بذلك بثلاثة أيامٍ تنيح. فلما سمعنا ذلك تعجبنا قائلين: «إن

كان الصديقُ بالجهدِ يخلص، فالمنافق أين يظهر».

من خبر لتادرس الرهاوي:

كان بتلك النواحي حبيسٌ قديم، فمضى إليه القديس تادرس الأسقف، وسأله أن يعرِّفه بسيرتِهِ من أجلِ الرب. فتنفس الحبيسُ الصعداء، وتنهد من صميمِ قلبهِ وذرفت دموعُه وقال: «أما سيرتي فأنا أخبرك بها، فقط لا تُشهرها لأحدٍ إلا بعد انتقالي. فاعلم أيها الأب، أني خدمتُ بديرٍ ثلاث سنوات مع أخٍ أكبر مني، وبعد ذلك جئنا إلى البريةِ في بابل القديمة، وسكنَّا مقابرَ لم يبعد بعضُها عن بعضٍ كثيراً. وكنا نتغذى من الحشائش النامية من ذاتِها من سبتٍ إلى سبتٍ، وكنا إذا خرجنا لنجمع الحشائش لغذائنا، يتراءى مع كلِّ واحدٍ منا ملاكٌ يحفظه. ولم يكن أحدُنا يخاطب الآخر ولا يقترب منه. ففي أحدِ الأيامِ رأيتُ أخي من بُعدٍ قد قفز عن موضعٍ طائراً كأنه نجا من فخٍ، ومضى هارباً إلى قلايتهِ. فلما عجبتُ من قفزتِه، مضيْتُ إلى ذلك الموضع لأتحقق الأمرَ. فوجدتُ هناك ذهباً كثيراً، فأخذتُه ثم جئتُ إلى المدينةِ، وابتعتُ موضعاً حسناً محاطاً بسورٍ وبه عينُ ماءٍ صافٍ، فبنيتُ هناك كنيسةً، وعمَّرتُ موضعاً لضيافة الغرباءِ. وابتعتُ برسمِهِ مواضعَ كافيةً للإنفاق عليه، وأقمتُ عليه رجلاً خبيراً بتدبيرِهِ. أما باقي المال، فقد تصدَّقتُ به على المساكين حتى لم أُبقِ لي منه ولا ديناراً واحداً. ثم عدتُ طالباً قلايتي، وفكري يوسوسُ لي قائلاً: «إن أخي من فشلِهِ ما استطاع تدبير ما وجده من المال، أما أنا فقد دبرتُه حسناً». في حال تفكري بهذا، وجدتُ نفسي وقد وصلتُ بقرب قلايتي، ورأيتُ ذلك الملاك الذي كان قبلاً يُفرِّحني، وإذا به ينظر إليِّ نظرةً مفزعةً، قائلاً لي: «لماذا تتعجرف باطلاً؟ إن جميعَ تعبك الذي شَغَلْتَ نفسَك فيه كلَّ هذه الأيام، لا يساوي تلك القفزةَ الواحدة التي قفزها أخوك، لأنه ما جاز عن حفرةِ الذهبِ فحسب، بل عبَرَ أيضاً تلك الهوةَ الفاصلةَ بين الغني ولعازر, واستحق لذلك السُكنى في أحضان إبراهيم، من أجل ذلك فقد أصبح حالُك ليس شيئاً بالنسبةِ لحالِهِ بما لا يقاس، وها هو قد فاتك كثيراً جداً، ولهذا صرتَ غيرَ أهلٍ لأن ترى وجهَه، كما لن تحظى برؤياي معك بعدُ». وإذ قال لي الملاكُ ذلك غاب عن عيني. ثم إني جئتُ إلى مغارةِ أخي فلم أجده فيها، فرفعتُ صوتي باكياً حتى لم يبقَ فيَّ قوةٌ للبكاءِ. وهكذا أقمت سبعةَ أيام أطوفُ تلك البريةَ باكياً، فما وجدتُ أخي، ولا وجدتُ عزاءً، فتركتُ ذلك الموضع نادباً، وجئتُ إلى هنا، فأقمتُ

في هذا العمودِ تسعاً وأربعين سنةً محارِباً أفكاراً كثيرة، وشياطين ليست بقليلةٍ، وكان على قلبي غَمامٌ مظلمٌ وحزنٌ لا يمازجه عزاء. وفي السنة الخمسين، في صبيحة الأحد، أشرق على قلبي نورٌ حلو، قشع عني غَمامَ الآلام، وبقيتُ مبتهلاً بقلبٍ خاشعٍ مُنَدّى بدموعٍ ذاتِ عزاءٍ، فلما جازت الساعة الثالثة من النهار، وأنا ملازمٌ للصلاةِ قال لي الملاكُ: السلامُ لك من الربِّ، والخلاص. فتعزَّى قلبي».

قيل: أخطأ أحدُ الإخوةِ فطُرِد، فقام الأب بيساريون وخرج معه قائلاً: «وأنا أيضاً خاطئٌ».

وحدث مرةً أن هفا أخٌ بالإسقيط، وانعقد مجلسٌ بسببهِ، فقام الأب بيئور، وأخذ خُرجاً وملأه رملاً وحمله على ظهرِه، كما أخذ كيساً صغيراً ووضع فيه قليلاً من الرملِ وجعله قدامه. فسألوه: «ما هذا الخُرج المملوء كثيراً»؟ فقال: «إنه خطاياي قد طرحتُها وراءَ ظهري حتى لا أنظرها ولا أتعب لأجلِها، أما الرملُ القليل الموجود قدامي، فهو خطايا أخي، وقد جعلتُها قدامي لأدينه عليها». فلما سمع الإخوةُ ذلك انتفعوا، وغفروا للأخ.

قيل: سأل أحدُ الإخوةِ شيخاً قائلاً: «ما السبب في أني أدين الإخوةَ دائماً»؟ فأجابه الشيخُ: «لأنك ما عرفتَ ذاتك بعد، لأن من عرف ذاته، لا ينظر عيوبَ إخوتِهِ».

قيل كذلك: كان أخان في كنوبيون، واستحق أن ينظرَ كلٌّ منهما نعمةَ اللهِ على أخيه. فعرض لأحدِهما أن يخرجَ يومَ الجمعةِ خارج الكنوبيون، فرأى إنساناً يأكل مبكراً، فقال له: «أفي هذا الوقت تأكل يومَ الجمعةِ»؟ ولما كان الغدُ رآه أخوه ولم يبصرْ عليه النعمةَ التي كانت تُرى عليه، فحزن لذلك، ولما جاء إلى قلايتِهِ قال له: «ماذا عملتَ يا أخي»؟ قال: «ما عملتُ شيئاً حتى ولا فكرتُ فكراً رديئاً». قال له: «أَلم تتكلم بشيءٍ»؟ فقال: «نعم، بالأمسِ رأيتُ إنساناً خارج الكنوبيون يأكلُ مبكراً، فقلت له: أفي هذا الوقت تأكل يومَ الجمعةِ»؟ فقام بالتكفير عن ذلك مدة أسبوعين، وسأل الله بتعبٍ، فظهرت نعمةُ اللهِ على الأخِ، فشكرا اللهَ كلاهما.

قال أحدُ الآباء: إن أخاً من الإخوةِ جاء إلى آخر، وتحدَّثا بشأنِ أخٍ لا يحفظُ العفةَ، فأجاب الآخرُ وقال: «وأنا سمعتُ بهذا أيضاً». فلما مضى ذلك الأخ إلى قلايتِهِ لم يجد فيها الراحةَ التي تعوَّدها. فقام ورجع إلى ذلك الأخ وضرب له مطانية قائلاً: «اغفر لي، فإني لم أسمع شيئاً عن ذلك الأخ». فقال له الآخر كذلك: «ولا أنا سمعتُ شيئاً». فلما ندما على ما قالا

وجدا راحةً.

قال أخٌ للأب بيمين: «إن أنا رأيتُ أخاً قد سمعتُ عنه سماعاً قبيحاً، فهل من الواجبِ عليِّ ألا أُدخله قلايتي؟ وإن رأيتُ أخاً صالحاً، فهل أفرحُ به»؟ فأجابه الشيخ: «إن أنت صنعتَ مع الأخ الصالح خيراً قليلاً، فاصنع ضِعفَه مع ذاك، لأنه أخٌ مريض».

قال القديس أنسطاسيوس: «لا تكن ديَّاناً لأخيك، لتؤهَّل أنت للغفران، فربما تراه آثِماً خاطئاً، لكنك لا تعلم بأي خاتمةٍ يفارق العالم، فذلك اللصُ المصلوب مع يسوع، كان للناسِ قتالاً وللدماء سفاكاً، ويوداس الرسول كان تلميذاً للمسيح ومن الأخصاء، إذ كان الصندوق عنده، إلا أنهما في زمنٍ يسير تغيَّرا، فدخل اللصُ الفردوسَ، واستحق التلميذ المشنقةَ وهلك».

وقال أيضاً: إن أخاً من الرهبانِ كان يسير بتوانٍ كثير، هذا وُجِدَ على فراشِ الموتِ وهو في النزعِ الأخير بدون جزعٍ من الموتِ. بل كانت نفسُه عند انتقالهِ في فرحٍ كاملٍ وسرورٍ شاملٍ. وكان الآباءُ وقتئذ جلوساً حوله، لأنه كانت العادةُ في الديرِ أن يجتمعَ الرهبانُ كلُّهم أثناء موتِ أحدهم ليشاهدوه، فقال أحدُ الشيوخِ للأخِ الذي يموت: «يا أخانا، نحن نعلم أنك أجزتَ عمركَ بكلِّ توانٍ وتفريط، فمن أين لك هذا الفرحُ والسرور وعدمُ الهمِّ في هذه الساعةِ؟ فإننا بالحقيقةِ لا نعلمُ السرَّ، ولكن بقوةِ الله ربنا تقوَّ واجلس وأخبرنا عن أمرِك العجيب هذا، ليعرفَ كلٌّ منا عظائمَ اللهِ». وللوقت تقوَّى وجلس، وقال: «نعم يا آبائي المكرَّمين، فإني أجزتُ عمري كلَّه بالتواني والنوم، إلا أنه في هذه الساعةِ، أن أحضرَ لي الملائكةُ كتابَ أعمالي التي عملتُها منذ أن ترهبتُ، وقالوا لي: أتعرف هذا؟ قلتُ: نعم، هذا هو عملي، وأنا أعرفه، ولكن من وقتِ أن صِرتُ راهباً ما دِنتُ أحداً من الناسِ قط، ولا نميتُ قط، ولا رقدتُ وفي قلبي حقدٌ على أحدٍ، ولا غضبتُ البتة، وأنا أرجو أن يَكْمُل فيَّ قولُ الرب يسوع المسيح القائل: لا تدينوا لكي لا تدانوا، اتركوا يُترك لكم. فلما قلتُ هذا القولَ، تمزَّق للوقتِ كتابُ خطاياي بسبب إتمامِ هذه الوصية الصغيرة». وإذ فرغ من هذا الكلام أسلم الروحَ. فانتفع الإخوةُ بذلك وسبَّحوا الله.

سُئل شيخٌ إن كان الله يقبل توبةَ الخطاةِ، فردَّ على سائلِه قائلاً: «أخبرني أيها الحبيب، لو أن ثوبَك تمزَّق، فهل كنتَ ترميه»؟ قال: «لا، ولكني كنتُ أخيِّطُه وألبسه». فقال الشيخ: «إن كنتَ أنت تشفق على ثوبِك الذي لا يحيا ولا يتنفس، فكيف لا يشفق الله على خليقتِهِ التي

تحيا وتتنفس»؟

سأل أحدُ الإخوةِ الأب بيمين قائلا: «يا أبي، إن وقع إنسانٌ في خطيئةٍ ورجع، فهل يغفر الله له»؟ فقال له الشيخ: «إن كان الله قد أمر الناسَ بأن يفعلوا هذا، أفما يفعله هو؟ نعم، بل وأكثر بما لا يقاس، إذ هو نفسُه الذي أوصى بطرسَ بهذا عندما قال له بطرس: إن أخطأ إليَّ أخي سبعَ مراتٍ، أأغفر له؟ فقال له سيدنا المتحنن: لستُ أقولُ سبعَ مراتٍ فقط لكن سبعةً في سبعين».

قال شيخ: «إني أهوى الرجلَ الذي يخطئ ويندم ويُقر بخطئهِ، أكثر من الرجلِ الذي يعملُ الصلاحَ ويزكي نفسَه».

شيخٌ حَدَّثته أفكارُه قائلةً له: «استرح اليومَ وتُب غداً». فقال: «لن يكونَ ذلك أبداً، بل عليَّ أن أتوبَ اليومَ، ولتكن مشيئةُ الربِ غداً». كذلك حدَّثته أفكارُه من جهةِ الصومِ قائلةً: «كُلْ اليومَ، وتنسكْ غداً». فقال: «لن أفعلَ ذلك، لكني أصومُ اليومَ، وتتم إرادةُ اللهِ غداً».

كان إنسانٌ جندي من بلاد الأكراد، قد عمل خطايا كثيرةً ودنَّس جسدَه بكلِّ أصنافِ النجاساتِ، وبرحمةِ اللهِ تَخَشَّع قلبُه، فزهد في العالمِ ومضى إلى موضعٍ قفرٍ، وبنى له قلايةً في أسفل الوادي، وأقام فيها مهتماً بخلاصِ نفسِه. فلما عرف مكانَه بعضُ معارفِهِ، صاروا يُحضرون له خبزاً وشراباً وكلَّ حاجاتهِ. فلما رأى ذاتَه في راحةٍ وأصبح لا يُعوزه شيءٌ، حزن وقال في نفسِه: «إننا ما عملنا شيئاً يستوجبُ الراحة، وهذا النياحُ الآن يُفقدني النياحَ الأبدي، لأني لستُ مستوجباً لنياحِ البتة». وهكذا ترك قلايتَه وانصرف قائلاً: «لنَسِر إلى الضيقةِ، لأنه ينبغي لي أن آكلَ الحشيشَ طعامَ البهائمِ، إذ كنتُ قد فعلتُ أفعالَ البهائمِ». وهكذا أصبح راهباً مجاهداً.

قيل عن الأب أموناس: إنه أتاه أخٌ يطلبُ منه كلمةَ منفعةٍ، وأقام عنده سبعةَ أيامٍ، ولم يُجِبه الشيخُ بشيءٍ، وأخيراً قال له: «انطلق وانظر لذاتِك، أما أنا فإني خاطئٌ، وخطاياي قد صارت سحابةً سوداءَ مظلمةً، حاجزةً بيني وبين الله».

قال الأب أليبوس: «من لم يَقُل: لا يوجد في هذا الكونِ كلِّه إلا الله وأنا فقط، فلن يصادف نياحاً».

وقال أيضاً: «لو لم أكن هدمتُ كلَّ شيءٍ، لما كنتُ قادراً على أن أبني ذاتي».

كذلك قال: «لتكن مشيئةُ الإنسانِ من باكر إلى عشية بحسب قياس إلهي».

جاء عن الأب بفنوتيوس أنه لما كان في البريةِ، كان مزاجُه صعباً، وأعمالُه بحرارةٍ كثيرةٍ، ولكنه لما صار أسقفاً تغير الحالُ قليلاً، فطرح ذاتَه قدام الله قائلاً: «يا تُرى، أَمِن أجلِ الأسقفيةِ ابتعدتْ عني النعمةُ»؟ فقيل له: «لا، ولكن لما كنتَ في البريةِ، حيث لا يوجد أناسٌ، كان اللهُ يَعْضُدُك، أما الآن فإنك في العالمِ حيث يوجد الذين يَعْضُدُونك». وما أن علم ذلك حتى هرب لوقتِه إلى البريةِ.

كان أنبا أبللو إذا جاءه أحدُ الإخوةِ طالباً معونتَه في عملِه، فإنه يمضي معه بفرحٍ قائلاً: «لقد حُسِبتُ اليومَ مستحقاً لأن أعملَ مع الملكِ المسيحِ، وذلك أفضلَ جداً من نفسي».

قيل عن الأب بيصاريون إنه كان كالطيورِ، وكأحدِ الوحوش البرية، أكمل حياتَه بلا همٍ، ولم يهتم قط ببيتٍ، ولا خزَّن طعاماً، ولا اقتنى كتاباً، بل كان بكليتِهِ حراً من الآلام الجَسَدانية، راكباً فوق قوة الإيمان، صائراً بالرجاءِ مثل أسيرٍ للأمورِ المنتظرة، طائفاً في البراري كالتائه، عارياً تحت الأهوية، وكان يصبرُ على الضيقاتِ مسروراً، وكان إذا وجد مكاناً فيه أناسٌ، يجلس على الباب باكياً مثل إنسانٍ نجا من الغرقِ، فيخرج أحدُهم ويسأله قائلاً: «لماذا تبكي أيها الإنسان»؟ فيجيبه قائلاً: «إن لصوصاً وقعوا بي وأخذوا جميعَ غنى بيتي، ومن الموتِ أفلتُّ بعد أن سقطتُّ عن شرفِ نسبي». فإذا سَمِعَ ذاك منه هذا الكلامِ المحزن، يدخل ويأتيه بقليلٍ من الخبزِ قائلاً له: «خذ هذا يا أبتاه، واللهُ قادرٌ أن يردَّ لك حاجتك». فيقول: «آمين»، ولا يأخذ شيئاً، بل كان يبكي ويقول: «اطلب أنت يا أخي، كي يردَّ لي الله شيئاً منها».

مضى إلى الأب بنيامين بعضُ الإخوةِ بالإسقيط، وأرادوا أن يصبُّوا له قليلاً من الزيتِ، فقال لهم: «هوذا الإناءُ الصغير الذي جئتم به منذ ثلاث سنين، موضوعٌ بحالِه كما تركتموه». فلما سمعوا عجبوا من جهادِ الشيخ وقالوا: «يا أبانا، هو ذا زيتٌ طيب، أما ذاك فإنه زيتٌ نَغل (أي زيتٌ مخلوط)». فلما سمع ذلك، رشم نفسَه بالصليب وقال: «إني ما علمتُ قط أن في الدنيا زيتاً غير هذا».

أذاعوا في بريةِ مصرَ، أن الصيامَ الكبيرَ قد بدأ، فمرَّ أخٌ بشيخٍ كبيرٍ وقاله له: «لقد بدأ الصومُ يا أبي». فقال الشيخُ: «أيَّ صيام يا ابني»؟ فقال له الأخُ: «الصيام الكبير». فأجاب الشيخُ وقال له: «حقاً أقولُ لك، إن لي هنا ثلاثاً وخمسين سنةً، لا أدري متى يبدأ الصومُ الذي تقول لي عنه ولا متى ينتهي، ولكن سيرةَ أيامي كلهَا واحدةٌ».

قال الأب غريغوريوس الثاؤلوغوس: «إن هذه الأشياءَ الثلاثة الآتية، يطلبها اللهُ من كلِّ إنسانٍ من بني المعمودية وهي: إيمانٌ مستقيم من كلِّ النفْسِ، وصدقُ اللسانِ، وطهرُ الجسدِ وعفته».

وقال أيضاً: «إن العمرَ كيومٍ واحدٍ بالنسبةِ لأولئك الذين يعملون بشوقٍ».

كان للأب جلاسيوس مصحفٌ (أي كتاب مقدس) يساوي ثمانية عشر ديناراً، إذ كان محتوياً على العتيقةِ والحديثةِ. وكان موضوعاً في الكنيسةِ، فكلُّ من جاء من الإخوةِ قرأ فيه، فجاء أخٌ غريبٌ إلى الشيخِ، ولما دخل ذلك الأخُ إلى الكنيسةِ، أبصرَ الكتابَ فاشتهاه وسرقه ومضى. فلم يتبعه الشيخُ الذي كان قد علم بما فعله الأخُ. فمضى به الأخُ إلى المدينةِ، وأعطاه لإنسانٍ وطلب منه ستة عشر ديناراً، فقال المشتري: «إني لا أدفع الثمنَ دون أن أفحصَ الكتابَ». فتركه عنده. وإذا بالرجلِ يأتي به إلى أنبا جلاسيوس ويعرِّفه بما وافق البائع عليه، فقال الشيخ: «اشترِه، فإنه جيدٌ ويساوي أكثرَ من هذا الثمن». فمضى ذلك الرجل وقال للأخ: «إني أريته للأب جلاسيوس، فقال لي إن هذا الثمنَ كثيرٌ». فسأله الأخُ: «ألم يقل لك الشيخُ شيئاً آخرَ»؟ فقال: «لا». حينئذ قال الأخُ: «إني لا أريد أن أبيعَه». ثم أن الأخَ أخذ الكتابَ وجاء به إلى الأب جلاسيوس وهو نادمٌ، فلم يشأ الشيخُ أن يأخذَه، فطلب إليه الأخ قائلاً: «إن لم تأخذه فلن يكونَ لي راحةٌ». فقبله. وبعد ذلك مكث الأخُ عند الشيخِ إلى حينِ وفاتِه.

ومرةً أُحضِر إلى الديرِ سمكٌ، فشواه الطباخُ وتركه في الخزانةِ وخرج. فقبل أن يمضي أقام عليه صبياً ليحرسَه إلى حين عودته. إلا أن الصبي بدأ يأكل من السمكِ بشَرَهٍ. فلما جاء الخازنُ ووجده يأكل غضب ورفسه، فصادفت الرفسةُ يافوخه (أي رأسَه) وهو جالسٌ، فوقع الولدُ على الأرضِ ميتاً. أما الخازن فقد اعتراه الخوفُ، وأخذ الصبي ووضعه على سريرِه وغطاه، وجاء إلى الأب جلاسيوس وخرَّ عند رجليهِ وأعلمه بما حدث. فقال له الشيخُ: «لا تُعلم إنساناً بهذا

الأمرِ، لكن اذهب وأحضره سراً إلى الدياقونيكون (أي مكان الخدمةِ) وضعه قدام المذبح وانصرف». فجاء الشيخ إلى الدياقونيكون وقام في الصلاةِ. ولما اجتمع الإخوةُ في الكنيسةِ لتأدية صلاة الليل، خرج الشيخُ والصبيُ خلفه.

وقيل عن **الأب جلاسيوس** أيضاً إنه قلق من أفكارٍ تعرض عليه الخروج إلى البريةِ. فقال لتلميذهِ: «احرص على عدم مخاطبتي هذا الأسبوع». ونهض وأخذ عصاه بيدِهِ وبدأ يمشي خارج القلاية، وجلس قليلاً، ثم قام ومشى، فلما صار العشاء قال لفكرِهِ: «إن الذين يطوفون البريةَ، خبزاً لا يأكلون، وتحتَ سقفٍ لا ينامون، كما أن أولئك أيضاً يقتاتون بالحشيش. أما أنت فلكونك ضعيفاً، كُلْ بقولاً». فأكل ورقد تحت السماءِ، واستمر على ذلك ثلاثةَ أيامٍ وهو يمشي طول النهار، ويأكل في العشيةِ بقولاً يسيراً وينام في العراءِ. فلما تعب حينئذ بدأ يعاتب نفسَه قائلاً: «بما أنك لا تقدر أن تقومَ بأعمالِ أصحابِ البريةِ، فأَولى بك أن تجلسَ في قلايتِك وتبكي على خطاياك، ولا يطيش عقلُك قائلاً: ادخل إلى البرية. لأن عيني الربِّ في كل مكانٍ ناظرةٌ إلى أعمالِ جميعِ الناس، وهو يعرفُ جميعَ فاعلي الخير».

قال **الأب جيروندليوس**: «إن كثيرين يقاتَلون بشهوةِ الجسد وهم زناةٌ من غير أن يقتربوا إلى جسدٍ غريب، لأنهم لم يعرفوا كيف يقمعون أفكارَهم، فحفظوا البتوليةَ لأجسادِهم فقط، وزنوا بأنفسِهم. فجيدٌ هو أن يحرصَ كلُّ واحدٍ منا على أن يحفظَ قلبَه».

قيل عن **الأب دانيال** إنه لما أتى البربر إلى الإسقيط وهرب الرهبانُ كلُّهم قال: «إن لم يشأ لي الله أن أعيشَ، فما لي وللحياة». وإنه جازَ بينهم فلم يبصروه البتة. فقال في نفسِه: «هو ذا قد اهتم الله بي ولم أمت، فلأصنع الآن مثل إخوتي». فقام وهرب.

وحدث مرةً أن سأله أخٌ قائلاً: «ارسم لي وصيةً واحدةً أحفظُها». فقال له: «لا تجعل يدك مع امرأةٍ في صحفةٍ واحدةٍ، ولا تأكل معها لأن هذا فخُ شيطانِ الزنى».

أخبر **أنبا دانيال**، أنه حدث أن كان لرجلٍ غني في بابيلون مصرَ ابنةٌ مجنونة (بروحٍ نجس)، ولم يحصل لها على شفاءٍ. وكان له صديقٌ راهب، هذا قال له: «إنه لا يستطيع أحدٌ أن يشفي ابنتك إلا الشيوخ الرهبان، ولكنك إن طلبتَ إليهم فلن يجيبوك إلى طلبك لتواضعهم. فأُشير عليك بأن تصنع حسب ما أقوله لك، فإذا هم جاءوا إلى السوقِ ليبيعوا عملَهم، تظاهر بأنك

تريد الشراءَ منهم، وخذهم معك إلى منزلك لتعطيهم الثمنَ، وحينئذ اسألهم أن يصنعوا صلاةً، وأنا واثقٌ أن ابنتَك تبرأ». فلما خرج الرجلُ إلى موضع البيعِ وجد راهباً واحداً من التلاميذ جالساً، فأخذه إلى بيتِهِ مع زنابيلِهِ بحجة أنه يعطيه ثمنها، فلما وافى الراهب إلى المنزِلِ، خرجت البنتُ المجنونةُ ولطمت خدَّ الراهبِ، فَحَوَّلَ لها الآخرَ باتضاعٍ حسب الوصيةِ، فتعذب الشيطانُ من إتمام الوصيةِ، وخرج منها متألماً صارخاً قائلاً: «الويل لنا من وصايا يسوع لأنها تزعجنا». فلما علم الشيوخُ بما كان، سبَّحوا الله قائلين: «لا شيء يُذِلُّ عظمةَ الشيطان مثل إكمال وصية السيد المسيح ربنا باتضاعٍ».

قيل عن **الأب ديسقورس التناسي** إن خبزَه كان من شعيرٍ وعدس، وفي كلِّ سنةٍ كان يرسم لنفسِه خطةً يبدأ بها جهادَه قائلاً مثلاً: «في هذه السنةِ سوف لا ألتقي بإنسانٍ، ولن أكلِّم أحداً، وفي هذه السنةِ لن آكل طبيخاً، ولن أتذوَّق ثمرةً». وهكذا كان يصنعُ في كلِّ خطةٍ، فإذا تمم إحداها، بدأ بالأخرى، وهكذا كان الحالُ طول السنة. وقد كان يقول: «إنْ كنا نلبس الثوبَ السماوي، فلن نوجد عراةً، وإن وُجدنا لابسين غير ذلك الثوب، فماذا نصنع؟ نخاف أن نسمعَ ذلك الصوت القائل: أخرجوه إلى الظلمةِ القصوى، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. فالآن يا إخوتي، قبيحٌ بنا بعد أن لَبسنا الإسكيم هذه السنين كلَّها، أن نوجد عراةً في اليوم الأخير، وليس علينا ثيابُ العُرسِ، فالويل لنا من تلك الندامةِ، إذا ما نظرنا إلى سائرِ الأبرارِ والصديقين، وهم يصعدون إلى السماءِ، ونحن نُساقُ إلى العذاب».

قال الأب إبيفانيوس: «إن التأمُّلَ في الكتبِ حِرزٌ عظيمٌ يحفظُ الإنسانَ من الخطيةِ، ويستميله إلى عملِ البرِ».

وقال أيضاً: «إن الجهلَ بما في الكتبِ جُرفٌ عظيمُ السقوطِ، وهوَّتُه عميقةٌ».

وقال أيضاً: «إن الذي لا يعرف النواميسَ الإلهية، فقد ضيَّع رجاءَ خلاصِهِ».

كذلك قال: «إن خطايا الأبرارِ على شفاههم، أما خطايا المنافقين فهي في جميعِ أجسادِهم، من أجلِ ذلك يقول النبي: ضع يا ربُّ حافظاً على فمي وباباً حصيناً لشفتيّ. وأيضاً: قلتُ أحفظُ طريقي كيلا أُخطئ بلساني».

كما قال: «إن الله يتركُ للخطاةِ رأسَ المالِ إزاء توبتِهم، مثل الزانية والابن الشاطر، فأما الصديقون فإنه يطلب منهم رأسَ المالِ مع ربحِه، إذ قال له المجد لتلاميذِه: إن لم يزد برُّكم على الكتبةِ والفريسيين، فلن تدخلوا ملكوتَ السماوات».

وأيضاً قال: «إن الربَ إلهنا يبيع ملكوتَه للناسِ بشيءٍ يسير، بكسرةِ خبز، بثوبٍ بالٍ، بكأسِ ماءٍ بارد، بفَلْسٍ واحدٍ، وذلك إذا قُدمت بإفرازٍ».

حدث في ذاتِ يومٍ أن التقى القديس أفرآم السرياني بامرأةٍ فاسدةٍ، وراودته عن نفسِها كي يشترِكَ معها في جماعٍ نجسٍ، وإلا شنَّعت عنه، فقال لها: «إن بعضَ الإخوةِ اعتادوا المجيء إلى هنا، فاتبعيني إلى موضعٍ آخر». فتبعته. ولما اقتربوا من موضعٍ يجتمع فيه أناسٌ كثيرون، قال لها: «إني أرى أن نُكْمِلَ الفعلَ ههنا». فقالت له: «يا راهب، أما تستحي من كثرةِ هؤلاءِ الناس الذين يبصروننا ونحن في الفعلِ القبيح»؟ فقال لها: «وأنت يا امرأةُ، أما تستحين من اللهِ خالقِ الناس الذي ينظرنا في هذا الفعل القبيح»؟ فخزيت وانصرفت خائبة.

الأب ألوجيوس: جاء عنه أنه كان قساً، وكان يتنسك نسكاً زائداً، يصوم يومين يومين، وفي مرات كثيرةٍ كان يطوي الأسبوع كلَّه صائماً، وكان أكلُه لا يزيد عن الخبزِ والملح فقط، فمدحه الناسُ كثيراً، ولذلك كثُر نشاطه. فقام ومضى إلى شيخٍ يُسمى أنبا يوسف، ليعطي له وصايا أصعب في الجهادِ. فقبله الشيخُ بفرحٍ، وما كان عنده من خيرٍ صنع له به ضيافةً، فلما قدَّم المائدةَ، قال له تلاميذه: «إن القسَّ لا يأكلُ سوى خبزٍ وملحٍ فقط»، فلم يُجبهم أنبا يوسف، بل كان يأكلُ وهو صامتٌ. فأقاموا عنده ثلاثة أيام، ولم ينظروا أنبا يوسف يصلِّي أو يرتل، لأنه كان يجعل عملَه مخفياً، فخرجوا من عنده وما استفادوا شيئاً. وبتدبيرٍ من الله، قامت ريحٌ عظيمةٌ وحدث ظلامٌ، فلم يقدروا على المسير، ورجعوا إلى قلاية الشيخِ، فسمعوه يصلي صلاةً حارةً بتسبيحٍ، فوقفوا خارج القلايةِ مدةً كبيرةً، وفي النهايةِ قرعوا البابَ، فسكت وفتح لهم، وقبلهم فرحاً. ولأجلِ شدةِ العطش أخذ ألوجيوس إناءَ الماءِ ليشربَ، فوجده ممزوجاً من ماءِ البحرِ وماء النهر، فلم يقدر أن يشربه، فرجع إلى ذاتِه مفكراً، وإنه وقع على رجلي الشيخ قائلاً: «ما هذا يا أبتاه، إننا لم نسمعك تصلي لما كنا عندك، والآن وجدناك مصلياً، وأيضاً كنا نشرب الماءَ حُلواً، والآن وجدناه مالحاً». فقال الشيخُ: «إن الأخَ موسوسٌ فمزج الماء الحلو بماء البحر». فلم

يقتنع القس ألوجيوس، وجعل يطلب إليه ملتمساً أن يعرفَ الحقَّ. فقال الشيخُ: «ذاك الماء أعددناهُ للمحبةِ، وهذا الماءُ الذي نشربه دائماً»، وأخذ الشيخُ في تثقيفه وتعليمه كيف يجبُ السيرَ بتمييز وإفراز، وكيف يقطعُ عنه الأفكارَ البشرية، كما علَّمه أن يكون مشاركاً (الإخوة) يأكل معهم ما يوضع قدامه، وأن يجعلَ عملَه مخفياً. فقال ألوجيوس: «بالحقيقةِ، إن هذا هو العمل».

سأل أخٌ **الأب أورانيوس** قائلاً: «كيف يأتي خوفُ الله للنفسِ»؟ فأجابه وقال له: «إن اقتنى الإنسانُ التواضع، ورفض المقتنيات، ولم يدن أحداً، فإن خوفَ اللهِ يأتي للنفسِ».

وقال أيضاً: «يجب أن تقتني لنفسِك دائماً تواضعاً وفزعاً وكثرةَ نوحٍ، وقلةَ طعامٍ».

وحدث أيضاً لما كان مبتدئاً، أنه مضى إلى أحد الشيوخِ، وطلب منه كلمةً، فأجابه الشيخُ: «إن آثرتَ الخلاص، فإذا اتفق وجودك عند إنسانٍ فلا تتكلم قبل أن تُسأل». وإذ أدرك معنى الكلامِ، صنع مطانية للشيخ وقال: «لقد درستُ كتباً كثيرةً، ولكن مثل هذا الأدب لم أعرف بعد». وانطلق منتفعاً.

جاء عن الأب إلاديوس أنه أقام بالإسقيط عشرين سنةً بقلايةٍ، لم يرفع عينيه لينظرَ سقفَها، وكان طعامُه خبزاً وملحاً دائماً، وإذا وافت أيامُ الفصحِ، كان يقول: «إن الإخوة يأكلون خبزاً وملحاً، فعليَّ أن آكل خبزاً وأنا واقف».

قال الأب أوغاريتوس: «إذا كنتَ جالساً في قلايتِك فاجمع عقلَك، واذكر يومَ خروجِك من الدنيا، وتَفطَّن في موتِك، وتَفَهَّم التجربةَ التي تحل بك. والزم التعبَ لترضي الله. واحتقر أمورَ هذا العالم الباطل، ليمكنك أن تكونَ في الصمتِ دائماً. ولا تضعف، واذكر أيضاً يومَ القيامةِ ولقاءَ الله، وذلك الحكم المفزع، وما ينال الخطاةُ من الخزي أمام الملائكةِ والقوات وجميع الخلائق، واذكر الجحيمَ، وفكِّر في الأنفسِ التي تصير فيه، وأيَّ مرارةٍ هناك، وأيَّ فزعٍ وضيقٍ يقاسيه الخطاةُ، بلا منفعةٍ من ذلك البكاء النفساني الذي ليس له انقضاء، والعذاب الدائم في النار التي لا تُطفأ، والدود الذي لا ينام، والظلمة القصوى وصرير الأسنان، واذكر أيضاً الخيرات المعدَّة للقديسين، والفرحَ الدائم في ملكوت السماوات، والنعيمَ الأبدي، وكن دائماً متذكِّراً الفريقين، أما على الخطاة فابكِ ونُح، وجاهد ألا تصير إلى ما صاروا إليه، وافرح بما أُعدَّ للصديقين، واحسد

سيرتهم وأعد نفسَك لتدركَ ما أدركوه، انظر، لا تنسَ ذلك، إذا كنتَ داخل قلايتك أو خارجها، لكي ما تقاتل الأمراض الرديئة بهذه الذكريات العتيدة».

وقال أيضاً: «ليست الحاجةُ ماسةً إلى كثرةِ الكلام، لأن كثرةَ الكلامِ غريزةٌ في الناسِ دائماً، إنما الحاجة ماسة إلى العمل».

كما قال أيضاً: «اقطع نفسَك من مودَّةِ الكثيرين، لئلا يكون عقلُك مناصباً لك، فيقلقل عادة السكوت».

كذلك قال: «ما أعظم أن يكونَ الإنسانُ بغير طياشةٍ في صلاتهِ، وأعظم من ذلك، أن يكونَ تحت الخليقةِ كلِّها».

وأيضاً قال: «أقرن محبةَ اللاهوتية بالجوعِ، لأنه يأتي بالراهبِ إلى ميناءِ عدم الأوجاع».

وحدث مرةً أن انعقدَ بالإسقيط مجلسٌ من أجلِ أمرٍ ما، فتكلم الشيخُ فيه. فقال له القس: «نحن نعلمُ يا أبتاه، أنك لو كنتَ في بلدِك لصرتَ أسقفاً أو رئيساً على كثيرين، فأما الآن، فإنك ههنا مثلُ غريبٍ». فهز رأسَه متنهداً وقال: «نعم، إنها مرةٌ واحدةٌ تكلمتُ فيها، وإن شاء الله لن يكونَ لها ثانيةٌ».

جاء إلى الأب زينون في بلاد سوريا أخٌ مصري، وأعلن له أفكارَه، فتعجب الشيخُ قائلاً: «إن المصريين إذا ما كان عندهم فضيلةٌ كتموها، وما ليس عندهم من الزلاَّتِ، نسبوه إلى أنفسِهم، وذلك بخلاف ما يفعل الناسُ، الذين إذا فعلوا خيراً تكلموا به وأظهروه، والزلات يكتمونها».

وسأله إخوةٌ قائلين: «ما معنى المكتوب: إن السماوات ليست نقيةً قدامه»؟ فأجابهم: «إن سكانَ الأرضِ أهملوا الفحصَ عن تطهيرِ خطاياهم، وصاروا يفحصون السماوات، فهذا القول، لما كان هو وحدُه طاهراً، لذلك قيل إن السماوات غيرُ نقيةٍ إزاءه».

ودفعة كان سائراً بإحدى نواحي فلسطين، فتعب وجلس ليأكل بقربِ حقلِ قثاء، فقال له فكرُه: «خذ لك ثمرةً من ثمار القثاء وكلها، فماذا يصيبك من هذا»؟ فأجاب فكرَه قائلاً: «إن اللهَ قال لا تسرق، والذي يخالف وصايا الله يلقيه في النارِ، فجرِّب أنت نفسَك أولاً، إن كنتَ

تحتمل النارَ»؟ فوقف تحت أشعةِ الشمسِ المحرِقة عارياً مقدار ساعة، حتى التهب، حينئذ قال لفكرِه: «إذا كنتَ لا تحتمل العذاب، فلا تسرق ولا تأكل المسروقَ».

وقال أيضاً: «من يريد أن يسمع الله صلاتَه بسرعةٍ، فإنه إذا وقف يصلي، ليبسطَ يديه أولاً، ويطلبَ من أجلِ أعدائه بضميرِه كلِّه، قبل أن يصلي من أجلِ نفسِه، فبهذه الفضيلةِ يستجيب الله له في كلِّ ما يسأله».

أضاف الأب إشعياء الإسقيطي إنساناً من الإخوةِ، فغسل رجليه، وجعل قليلاً من العدسِ في القِدرِ، ووضعه على النارِ، وما أن غليَ، حتى رفعه عن النارِ. فقال له الأخُ: «أيها الأب، إن العدسَ لم ينضج بعد». فقال له الشيخُ: «ألا يكفيك ما أبصرتَه من النارِ، لأنه غذاءٌ عظيم».

وقيل إنه أقام مدةً من الزمانِ وهو عُريان، بلا ثوبٍ في البريةِ، فأوحى اللهُ إلى بعضِ الشيوخِ أن يمضيَ إليه، ويستر عورتَه، لأنه ردَّ غضبَ اللهِ عن العالَمِ كلِّه. فلما جاءه الشيخُ أخبره بالأمرِ، فقال: «أما يوجد في العالَمِ عريانٌ غيري»؟

قال الأب إيليا: «إني أفزعُ من ثلاثةِ أشياء: أفزع من وقتِ خروجِ نفسي من جسدي، ومن لقاءِ الله، ومن خروج القضيةِ عليَّ».

وقال عنه شيخٌ: إنه لمحبتِهِ في الوحدةِ أقام في بربا خربةٍ، فأتاه الشياطين قائلين: «اخرج من هذا المكان لأنه موضعنا». فأجابهم الشيخُ: «أنتم ما لكم مكانٌ». فبددوا خوصَه، وقالوا له: «اخرج من ههنا». فقام وجمعه، وجلس يُضفِّر وهو صامتٌ، فبددوه له أيضاً قائلين: «اخرج من موضعنا». فقام أيضاً وجمعه وجلس صامتاً. ثم أن الشياطين أمسكوا بيدِهِ، وبدءوا يجرُّونه إلى خارجٍ قائلين: «لا تُقم ها هنا، لأنه موضعنا». فلما بلغ البابَ أمسكه بيدِهِ وصرخ قائلاً: «يا يسوعَ المسيح إلهي أعني». وللوقت هربت عنه الشياطين. فابتدأ الشيخُ يبكي، فجاءه صوتُ الربِّ قائلاً له: «لماذا تبكي»؟ فقال الشيخُ: «كيف لا أبكي وهؤلاء يتجاسرون هكذا على محاربةِ خليقتك»؟ فقال له الربُّ: «إنك أنت الذي توانيتَ، فلما طلبتني وجدتني».

القديس تادرس الفرمي: كان قد اقتنى لنفسِه ثلاثة أناجيل ثمينة، فمضى إلى الأب مقاريوس وأخبره بأن لديه كتباً جيدة، وسأله هل يبقيها لمنفعتهِ ومنفعة الإخوةِ، أم يبيعها ويدفع

ثمنها إلى المساكين. فقال له: «أما العملُ فجيدٌ، لكن تركَ المقتنيات أفضلُ منه». فمضى وباع الكتبَ، وفرَّق ثمنَها على المساكين.

وحدث مرةً أن جاءه أخٌ كان جالساً في قلايتِه، فتقلقل في الوحدةِ، فلما عرَّفه بذلك، قال له الشيخُ: «امضِ ودَع فكرَك، واترك الوحدةَ الآن، واجلس في الطاعةِ مع آخرين حتى يسكن العاصفُ». فمضى إلى جبل السلوى، وسكن مع الإخوةِ، وبعد قليلٍ عاد إلى الشيخِ، وقال له: «ومع الإخوةِ ما وجدتُ راحةً». فقال له الشيخُ: «مع الإخوةِ لا تستريح وفي الوحدةِ لا تتنيح، فلماذا لبستَ لِباسَ الأجنادِ المجاهدين؟ فما سَمَّيْتَ نفسَك راهباً، إلا لتتحمل الضربَ والطعنَ والأحزان، وأقلها الجوع والعطش. كم سنةً لك في الإسكيم»؟ فقال له: «ثماني سنين». فقال له الشيخُ: «يا ابني، إن لي في الإسكيم إلى يومنا هذا سبعين سنةً، لم تخلُ يوماً واحداً من الأحزانِ المرة، وأنت في مدى ثماني سنين تريد النياح». فلما سمع هذا الكلام من الشيخِ تعزَّى ومضى وسكن وحدَه، وبدأ يلبسُ عُدة الحرب، وأخذ بيدِه التُرسَ المنيع، أعني الإيمان الصحيح، ووضع على رأسِه خوذةَ الخلاص، أي الرجاء والتصديق بما في الكتبِ، حاذياً قدميه ببشارةِ الإنجيلِ، وهكذا أخذ يُثبِّتُ نفسَه بتدبيرٍ حسن، حتى انحلت عنه قوةُ المعاندِ.

كذلك حدث مرةً أن جاء إليه أخٌ، هذا طلب إليه مدة ثلاثةَ أيامٍ، كي يسمعَ منه كلمةً، فلم يُجبه بشيءٍ، فمضى حزيناً، فقال له تلميذُه: «يا أبتاه، لماذا لم تُجبه بشيءٍ، فقد مضى حزيناً»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «يا ابني، إني ما سكتُّ عن الكلامِ إليه إلا لكونِه بياعاً، يؤثر أن يتمجدَ بأقوالِ آخرين».

ومرةً أتى إليه أحدُ الشيوخِ، وقال له: «إن فلاناً الأخ رجع إلى العالمِ». فقال له الشيخُ: «لماذا عجبتَ من هذا؟ لا تعجب، لكن اعجب بالأحرى إن كان هناك إنسانٌ هرب من العالمِ».

وأيضاً أتاه أخٌ مرةً، وابتدأ يكلِّمه ويستقصي عن أمورٍ ما توصل إليها بعد، حتى ولا مارسها قط، فقال له الشيخُ: «إنك لم تجد السفينةَ بعد، ولم تركبها، فكيف تدَّعي وصولك إلى المدينةِ قبل ركوب السفينةِ؟ أَولى بك ألا تتحدث في أمرٍ ما، إلا بعد ممارستِه أولاً».

كما جاء مرةً إنسانٌ يبيع بصلاً، فابتاع منه كيْلاً، وقال لتلميذِه: «امضِ واملأ الكيْلَ قمحاً». وكان يوجد نوعان من القمحِ، نوعٌ مُنقى والآخر غَلَث، أي غير مُنقى، فمضى التلميذُ،

وملأ الكيلَ من القمحِ غير المنقى، فنظر إليه الشيخُ بحزنٍ، فوقع الكيْلُ وانكسر، وصنع له الأخُ مطانيةً، فقال له الشيخُ: «ليس الخطأُ منك، لكني أخطأتُ إذ قلتُ لك». ثم أنه دخل فملأ حِجرَه من القمحِ المنقى ودفعه للرجلِ مع البصلِ».

وقيل عنه: إنه لما كان جالساً في قلايتِه في الإسقيط، أتاه شيطانٌ محاولاً الدخول، فربطه خارج القلاية، ووافاه شيطانٌ آخر محاولاً دخول القلايةِ كذلك، فربطه أيضاً خارج القلاية. فجاء شيطانٌ ثالث، ولما وجد زميليه مربوطيْن، قال لهما: «ما بالكما واقفيْن هكذا خارج القلاية»؟ فقالا له: «بداخل القلايةِ من هو واقفٌ ليمنعنا من الدخولِ». فغضب الشيطانُ الثالث وحاول اقتحام القلاية، ولكن الشيخَ ربطه كذلك بقيودِ صلاتهِ خارج القلاية. فَضَجَّت الشياطين من صلوات الشيخ، وطلبت إليه أن يُطلقَ سراحَها، حينئذ قال لهم: «امضوا واخزوا». فمضوا بخزي عظيم.

وقيل عنه أيضاً: إنه أتاه بعضُ الشيوخِ فوجدوه لابساً ثوباً ممزقاً، وصدره مكشوف، وكاكوليته من قدام، واتفق وقتئذ أن وافاه إنسانٌ غني ليراه، فلما قرع البابَ، خرج الشيخُ وفتح له واستقبله، وأجلسه على الباب، فأخذ التلميذ قطعةً من ثوبٍ، وغطى بها كتفيه، فمد الشيخُ يدَه ورماها عنه. فلما انصرف ذلك الإنسان الرئيس، سأله التلميذ قائلاً: «يا أبتاه، لماذا صنعتَ هكذا؟ لقد أتاك الرجل لينتفعَ فلماذا شككته»؟ فقال له الشيخُ: «لماذا تدعوني أباً، ونحن بعد نرضي البشرَ، قد أضعنا الزمانَ، وجاز الوقتُ، فمن أراد أن ينتفع فلينتفع، ومن أراد أن يتشكك فليتشكك. أما أنا فكما أُوجد هكذا ألتقي بالناسِ». ثم أوصى تلميذَه قائلاً: «إن أتى إنسانٌ يريد رؤيتي، فلا تقل له شيئاً وعظياً، بل إن كنتُ آكل، فقل له: إنه يأكل، وإن كنتُ نائماً، فقل له: إنه نائم. وإن كنتُ أصلي، فقل له: إنه يصلي».

وسأله أنبا أبرآم مرةً قائلاً: «يا أبتاه، أيهما أحسن، أنقتني لأنفسنا كرامةً، أم هواناً»؟ فقال الشيخُ: «أما أنا فأشتهي اقتناءَ الكرامةِ، لأنها أفضل من الهوان، لأني إذا عملتُ عملاً صالحاً، وأُكرمت إزاءه، أستطيع أن أُلزم فكري بعدم استحقاقي للكرامةِ، وأما الهوان فيصدر عن أفعالٍ قبيحةٍ تُغضب الله، وتشكك الناس، والويل لمن تأتي من قبلِهِ الشكوك، وعلى ذلك فالأفضل عندي هو أن أعمل الخيرَ وأُمجَّد». فقال أنبا أبرآم: «حسناً قلتَ».

مضى البابا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية إلى جبل نتريا، وجاء إلى أب الجبل، وقال له: «ما هو أفضلَ شيءٍ وجدتَه في طريقةِ جهادِكم هذه، يا أبتاه»؟ فقال له الشيخُ: «لا يوجد شيءٌ أفضل من أن أرجع بالملامةِ على نفسي في كلِّ أمرٍ». فقال البابا: «بالحقيقةِ هذه هي الطريقُ الفاضلة التي لا يوجد قط أفضل منها».

وقال أيضاً: «إني مرتعبٌ فزعٌ من تلك الشدةِ التي سوف تعانيها النفسُ عند خروجِها من الجسدِ، إذ تأتيها أجنادُ الشرِ، وماسكو ظلمة هذا العالم الخبيث، فيأخذونها ويُظهرون لها كلَّ ما عملته من الخطايا، بمعرفةٍ وبغيرِ معرفةٍ، ويُحاجُّونها على كلِّ ما عملت، فأيُّ شدةٍ ورعبٍ تلحق بالنفسِ في تلكِ الساعةِ، حتى يَصدر الحكمُ بمصيرِها، وتُصبح حُرّةً، هذه هي ساعة الشدة التي تقاسيها حتى تبصرَ خاتمةَ أمرِها، فإن كانت مستحقةً النعيم، يأخذها الملائكةُ بكرامةٍ، ويحفظونها من الشياطين الأشرار، وحينئذ تصبح من ذلك اليوم معتوقةً منهم، كما هو مكتوبٌ: إن مسكنَ جميعِ الفرحين فيك يا مدينة الله. وحينئذ يتم المكتوب أن الوجعَ والتنهد والتعب يهرب، وحينئذ تفلت من أجنادِ الظلمةِ، لتمضي إلى ذلك المجدِ الأسنى، الذي لا يُنطق به. أما إن وُجدت النفسُ وقد كانت عائشةً بالتواني، فإنها تسمع ذلك الصوتَ المحزن: ليبعد المنافق كيلا يعاين مجدَ الربِّ. وحينئذ يدركها يومُ السخطِ، يومُ الحزنِ والشدةِ، يومُ الظلمةِ وظلالِ الموتِ، فتُلقى في الظلمةِ الخارجية، ويُحكم عليها بالعذابِ المؤبَّد في نارٍ غير منطفئةٍ، حيث يهرب كلُّ نعيمٍ وتلذذ، وحيث لا يوجد فرحٌ ولا نياحٌ، ولا غنى، ولا جاه، ولا من يُخلِّص من ذلك اللهيبِ المعد للنفوس الخاطئةِ، فإذا كانت هذه الأمور هكذا، فأيُّ تدبيرٍ ذي أمانةٍ وقداسةٍ ينبغي لنا أن نتدبَّر به في هذا العمرِ، وأيُّ تسبيحٍ وأيةُ صلواتٍ وأيُّ تحَفُّظٍ يجبُ أن نقتني بغيرِ دنسٍ وبغير عيبٍ، بطهارةٍ وسلامٍ، لتؤهلوا لسماع ذلك الصوت المملوء فرحاً القائل: هلموا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم، الدائم إلى دهر الدهور، آمين».

الأم تاؤدورة الراهبة: سُئل البابا ثاؤفيلس من الأم تاؤدورة الراهبة، عن الكلمةِ التي قالها بولس الرسول: «اشتروا الزمانَ فإن الأيامَ شريرةٌ». فقال لها: «المقصود بالشراء هنا الربح، كقولك: إذا ما نظر الراهبُ زمانَ شتيمةٍ، فإنه يشتري هذا الزمان بالتواضع وطول الروح، ويأخذ الربحَ المستحق له، كما أن زمان الهوان، يشتريه أيضاً بعدم الشرِ. كذلك اشتري الوقتَ الحاضر

فتربحي، حتى إذا اتفق مجيء وقتُ كذبٍ ونفاق، أمكنكِ أن تشتريه بالصبرِ والرجاءِ، وهذا هو ربحه. هكذا كلُّ الأشياءِ تُشترى بضدِها، فاجتهدي أن تدخلي من الباب الضيق، لأن الشجرةَ لا تستطيع أن تثمرَ ما لم تصلها الرطوبةُ والأمطار، فهذا العالم يُعتبر شتاءٌ للنفسِ، وبغير أحزانٍ وتجارب لا يمكننا أن نرثَ ملكوتَ السماوات».

قالت الأم تاؤدورة: «حسنٌ للإنسانِ أن يسكتَ، لأن الرجلَ الحكيم شيمته السكوت، وهذا هو بالحقيقةِ عونُ العذارى والرهبان، ولا سيما للشبابِ منهم، لأني أَعلمُ حقاً، أنه إذا اقتنى الإنسانُ في نفسِه السكوتَ، فللوقتِ يجلبُ عليه الشيطانُ مللاً، وثقلَ رأسٍ، وصِغرَ نفسٍ، وضعفَ جسدٍ، وانحلالاً في الركبتين وكلِّ الأوصال، وإذ تنحل قوى النفسِ والجسدِ، فيحتج بأنه عليلٌ لا يقدرُ أن يتمِّمَ صلاتَه، حتى إذا فرغ من الصلاةِ، زال هذا كلُّه. وذلك لأني أعرفُ إنساناً راهباً، كان إذا اعتزم أن يبدأ صلاتَه، تأخذه حمى وقشعريرة، مقرونةٌ بآلامٍ شديدةٍ في رأسِه، حتى أنه كان يتوهم بأنه عليلٌ، أما هو فكان يقول لنفسِه: يا شقي، لعلك تموتُ هذه الساعة، فاغتنم صلاتَك قبل موتِك. وبهذا القول كان يُلزم نفسَه، ويتمِّم صلاته، وبمجرد فراغِه من الصلاةِ، تسكن عنه الحمى، وتقف الآلام والقشعريرة، لكنه إذا عاد إلى الصلاةِ، عادت إليه الحمى والأوجاع وهكذا. فكان بهذا الفكرِ يقاتِل ويغلب، ويتمم صلاتَه حتى خلَّصه الربُّ، وصار له صبرُه إكليلاً إلهياً».

وقالت أيضاً: «حدث أن إنساناً سُمعته غيرُ جيدةٍ، شتم أخاً عفيفاً، فقال له:كنتُ قادراً على أن أجيبك بما يوافق كلامك هذا، ولكن ناموسَ إلهي يُغلق فمي».

كما قالت: لا نسك، ولا سهر، ولا تعب، ولا صوم، يقومُ مقامَ التواضع الكامل، لأنه قيل عن إنسانٍ متوحدٍ كان يُخرج الشياطين، فسألهم قائلاً: «بماذا تَخرجون، أبالصومِ»؟ فقالوا: «نحن ما نأكل قط». فقال: «أبالسهرِ»؟ فقالوا: «نحن لا ننام». فقال: «أبتركِ العالم»؟ فقالوا: «إن مساكننا البراري والخرائب». فقال لهم: «فبماذا تخرجون إذن»؟ فأجابوه: «لا يوجد شيءٌ يسحقُنا غيرُ التواضع». فالاتضاع هو غلبة الشيطان.

كذلك قالت: كان إنسانٌ راهباً، ومن شدةِ التجاربِ والمحنِ المتكاثرةِ عليه، قال: «لنمضِ من ههنا». فبينما هو يلبس نعالَه، أبصرَ رجلاً يلبس نعاله كذلك، فقال له: «إلى أين أنت ماضٍ

كذلك»؟ أجابه قائلاً: «إلى الموضعِ الذي أنت ماضٍ إليه، لأني من أجلِك أنا مقيمٌ في هذا الموضعِ. فإذا أردتَ الانتقال من ههنا، فسوف أنتقل بدوري لأني ملازمٌ لك حيثما سكنتَ».

وقالت أيضاً: إن راهباً آخر، كان يسكن في موضعٍ حارٍ، فكثرت عليه الهوامُ، وتعب من ذلك جداً، لأنه لم يكن من ذوي المراتب أو الغِنى، فأتاه الشيطان في صورةِ مفتقدٍ، وقال له: «كيف تستطيعُ الإقامةَ بهذه القلايةِ التي تصنع الدودَ من شدةِ حرارتها»؟ فقال له: «أما الدود، فإني أصبرُ عليه لأفلتَ من الدود الذي لا ينام. وأما الحرُ، فإني أصبرُ عليه كذلك، لأنجوَ من نارِ جهنم، فإن هذين زائلان، وأما ذلكما فباقيان». وبصبرِه هذا قهر الشيطانَ.

قال شيخٌ: «إذا كان راهبٌ مقيماً في موضعٍ، وأراد أن يصنعَ في ذلك الموضعِ خيراً، ولم يستطع، فلا يظن هذا أنه إذا ذهب إلى موضعٍ آخر، يستطيعُ أن يصنعَ ذلك الخيرَ».

وقال شيخٌ آخر: «إذا أقام راهبٌ عمَّال في موضعٍ مع رهبانٍ غير عمَّالين، فإنه لا يفلح إلا إذا ضبط نفسَه، ولم يرجع إلى الوراء، ويكون بذلك مستحقاً جزاءً صالحاً، أما الراهب البطال، الذي يقيم بين مجاهدين فإن هو انتبه فإنه يمشي إلى قدام، ولن يرجع إلى وراء».

كذلك قال شيخٌ: إذا كان وجعٌ يقاتلك في موضعٍ ما، وتترك ذلك الموضع ظناً منك أنه يخف عنك دون أن تقاتلَه، فاعلم أنك إذا لم تغلبه حيث قاتلك، فإنه سوف يسبقك إلى كلِّ موضعٍ تمضي إليه، لأني أعرفُ أخاً كان ساكناً بديرٍ، وكان مداوماً على السكوتِ، إلا أنه كان كلَّ يومٍ يتحرك من وجع الغضبِ، فقال في نفسِه: «أمضي وأسكن وحدي في قلايةٍ، وحيث أنه لن يكونَ هناك أحدٌ ساكناً، فسوف أهدأ، ويخف عني الوجع». فخرج وسكن وحدَه في مغارةٍ، وفي أحد الأيامِ ملأ القلةَ ماءً، ووضعها على الأرضِ، ولوقتها تدحرجت وانسكب ما فيها، فأخذها وملأها مرةً ثانيةً، ووضعها، فانسكبت كذلك، فملأها دفعةً ثالثةً، فانقلبت أيضاً. فغضب وأمسكها وضرب بها على الأرضِ فكسرها. فلما جاء إليه قلبُه علم أن الشياطين قد سخروا منه، فقال:« هوذا قد غُلبتُ وأنا في الوحدة كذلك، فلأذهب إلى الدير لأنه في كلِّ موضعٍ يحتاجُ الإنسانُ إلى جهادٍ وصبرٍ ومعونةٍ من الله». ثم قام ورجع إلى موضِعِه».

قال شيخٌ إنه كان قد جُرِّب بأفكارٍ تسع سنين حتى أنه يئس من خلاصِه، ومن الخوفِ كان يقول:« هلكتُ». ولما كاد أن ينقطعَ رجاؤه بالكليةِ، صار إليه صوتٌ قائلاً: «إن الشدائدَ

التي لحقتْ بك في هذه السنين التسع، هي أكاليلٌ لك، لا تكلَّ من الجهادِ». فلما سمع هذا، تقوَّى بالرجاءِ وخَفَّت عنه الأفكارُ.

قال أنبا إسحق: رأيتُ مرةً إخوةً يحصدون في حقلٍ ما، فأراد أحدُهم أن يفركَ سُنبلةً، فاستأذن صاحبَ الحقلِ في ذلك، فأجابه متعجباً: «إن الحقلَ كلَّه بين يديك أيها الأب، وتستأذن في هذا»؟ إلى هذا الحدِ من التحفظ كان ذلك الأخ يحتاطُ لنفسِه.

وحدث أيضاً أن اعتلَّ هذا الأخ علةً عظيمةً، لدرجةِ أنه كان يرى من تحته دماً، فصنع له أحدُ الإخوةِ طعاماً وجاء به إليه، فلم يذقه، فألحَّ عليه ذلك الأخ، أن يتناولَ منه قليلاً بسببِ مرضِه، فأجابه: «صدقني يا أخي، إني أشاءُ لو أن المسيحَ يتركني في هذه العلَّةِ ثلاثين سنةً». فأخذ الأخُ الطعامَ الذي أحضره وانصرف.

وقيل عنه لما جاءت وفاتُه: أنْ اجتمع إليه الإخوةُ قائلين: «ماذا نصنعُ بعدَك يا أبانا»؟ قال لهم: «كما كنتُ أسلكُ قدامكم اسلكوا واحفظوا وصايا السيد المسيح، فيرسِلَ إليكم نعمةَ روحِه القدوس، ويحفظ هذا الموضعَ، وإن لم تحفظوا فلن تثبتوا ههنا، لأننا نحن لما تنيح آباؤنا اغتممنا، ولكن لما حفظنا وصايا إلهِنا ثبتنا موضعهم».

قال الأب يعقوب: «إن الغربةَ أفضلُ من ضيافةِ الغرباء».

قال شيخٌ: «إني لما كنتُ في البرية الداخلية، كان بقربي شابٌ راهبٌ مهتمٌ بخلاصِ نفسِه، فرأيتُه مسالماً للوحوشِ، يأنس إليها كما تأنس هي إليه، وكانت هناك ضبعةٌ تُرضع جِراها، فتقدم ذلك الراهب الشاب، وطرح نفسَه وابتدأ يرضع مع جِراها».

طلب أخٌ من الأب باريكوس أن يقول له كلمةً، فأجابه: «اجلس في قلايتِك، وإن جعتَ كُلْ، وإن عطشتَ اشرب، ومنها لا تخرج ولا تتكلم بكلمةِ سوءٍ، وأنت تخلص».

قصد الأبَ يوحنا السرياني أناسٌ أشرار خبثاء، فأخذ ماءً في طِست وغسل أقدامَهم، فما كان منهم إلا أن احتشموا من إكرامِه لهم، فتابوا.

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «ماذا أعمل يا أبي؟ فإني لا أمارسُ أمراً من أمور الرهبنةِ، وهمِّي كلُّه هو في أن آكلَ وأشربَ وأرقدَ، وأنا في ذكرياتٍ سمجةٍ وسجسٍ كثير، أخرجُ من هذا الفعلِ إلى

ذاك، ومن هذا الفكرِ إلى غيرِه». فقال له الشيخُ: «اجلس في قلايتك واعمل بقدرِ استطاعتك بلا سجس، فإنه يُرضيني هذا القدر اليسير الذي تعمله الآن، مثل تلك الأمور الكبار التي كان أنطونيوس يعملها في البريةِ، ولي إيمانٌ أن كلَّ راهبٍ يجلس في قلايتهِ من أجلِ الله، مفتشاً أفكارَه، تاركاً التفتيش عن عيوبِ الآخرين، فإن ذلك يؤهله لأن يكون موضع أنبا أنطونيوس».

وقيل **عن الأب يوحنا السرياني**: إنه كان عديمَ الشرِ جملةً، فقد حدث في بعضِ الأيامِ أن اقترض ديناراً من بعضِ الإخوةِ، وابتاع به كتاناً ليعمله. فأتاه أحدُ الإخوةِ وطلبَ منه أن يعطيه بعضاً من الكتانِ، فأعطاه بفرحٍ. وسأله آخرُ، فأعطاه بانبساطٍ. وأخيراً أتاه صاحب الدينار طالباً دينارَه، فقال له الشيخُ: «ها أنا مهتمٌ بردِه إليك». وللوقت قام منطلقاً إلى أنبا يعقوب — صاحب الدياكونية — ليأخذ منه ديناراً ليدفعه للأخِ، وفي طريقِه إليه، وقع بصرُه على دينارٍ مطروحٍ على الأرضِ، فلم يأخذه، بل صلَّى صلاةً وعاد إلى قلايتهِ. فرجع إليه الأخُ مطالباً إياه بالدينار، وألحَّ عليه في الطلبِ، فقال له الشيخُ: «ها أنا ماضٍ لأحضرَه لك». وقام ومضى، فوجد الدينارَ في نفسِ المكانِ مطروحاً، فصلى صلاةً وأخذه. وجاء إلى أنبا يعقوب وقال له: «إنه في كلِّ مرةٍ أجيءُ فيها إليك، أجدُ هذا الدينارَ مطروحاً على الأرضِ، فاصنع محبةً ونادِ في جميعِ الجبلِ لئلا يكون قد سقط من أحدِ الإخوةِ». فنادى في كلِّ ذلك الجبلِ، فلم يوجد أحدٌ ضاع منه دينارٌ. فقال الشيخُ لأنبا يعقوب: «إني مديونٌ لفلان الأخِ بدينارٍ، فادفعْهُ له، لأني كنتُ آتياً إليك لأتصدَّق منك ديناراً له». فعجب أنبا يعقوب كيف كان مديناً، ولم يأخذ الدينارَ الذي وجده، ليوفي دينَه. وكان كلُّ من يأتيه طالباً شيئاً يعطيه، لكنه لم يكن يعطي بنفسِه، بل كان يقول للسائل: «ادخل أنت وخذ ما تريد». وإذا ردَّ له أحدٌ شيئاً كان يقول له: «ضعه موضعَ ما أخذتَه». أما الذي لا يردُّ له، فما كان يطالبه قط.

الأب يوحنا التبايسي القصير: كان وهو شابٌ تلميذاً للأنبا بمويه، وهذا مكث يخدمُ الشيخَ إذ كان مريضاً، وقد كان ملازماً مضجعَه، وكان الشيخ وهو يسعل ينطرح بثقلِه عليه دائماً، لأنه كان يُغشى عليه، وهكذا تعب معه كثيراً. ورغم ذلك، فإنه لم يسمع من معلمِه كلمة: «خلصت». فلما دنت وفاةُ الشيخِ، وقد جلس الشيوخُ عنده، أمسك بيدِ تلميذِه، وقال له: «تخلص، تخلص، تخلص». وسلمه للشيوخِ قائلاً لهم: «هذا ملاكٌ وليس إنساناً».

ومن قوله أيضاً: «إن البيتَ لا يمكن أن يُبنى من فوق إلى أسفل، بل من الأساسِ إلى فوق». فقالوا له: «ما معنى هذا القول»؟ فقال لهم: «إن أساسَ كلِّ عملٍ هو المحبة للقريب، فيجب علينا أن نربحه قبل كلِّ شيءٍ، لأن وصايا المسيح إلهِنا كلَّها متعلقةٌ بهذا».

الأب يوحنا تلميذ أنبا بلاَّ: كانت له طاعةٌ عظيمةٌ، فقد حدث أنه كان يوجد في تلك الأماكن مقابر، وكان تسكنها ضبعةٌ ضاريةٌ، وإذ رأى الشيخُ هناك قُلةً يمانية، سأل يوحنا أن يمضي ويأتي بها. فقال له: «وماذا أصنع بالضبعةِ يا أبتاه»؟ فقال له الشيخُ: «إن أقبلتْ إليك، فاربطها وقُدها إلى ههنا». ثم أن الأخ مضى وكان الوقتُ مساءً، فلما أقبلت الضبعةُ نحوه، تقدم إليها، فهربت، فتعقَّبها قائلاً لها: «إن معلمي طلب إليَّ أن أمسكَكِ وأربطك»، فوقفت. فأمسك بها وربطها، وأقبل بها إلى الشيخ. وكان الشيخُ وقتئذ جالساً منتظراً مفكِّراً. فلما أبصره تعجب كيف أمكنه إحضار الضبعةِ، وإذ أراد أن يحفظَه من الكبرياءِ، ضربه قائلاً: «يا أحمق، لقد طلبتُ منك أن تحضرَ لي الضبعةَ، فتمضي وتأتيني بكلبٍ». وللوقت حلَّها وأطلقها.

اسحق القس التبايسي: حدث أن أتى إلى الكنوبيون، ودان أخاً على فعلٍ أتاه، فلما خرج إلى البريةِ، أتاه ملاكُ الربِ، ووقف قدام بابِ القلايةِ وقال له: «الربُّ يقول لك أين تشاءَ أن نطرحَ نفسَ ذلك الأخ المخطئ الذي أنت دِنتَه»؟ فتاب لوقتهِ قائلاً: «أخطأتُ فاغفر لي». فقال له الملاكُ: «لقد غفر اللهُ لك، ولكن عليك أن تحفظَ ذاتَك من الآن وألا تدين أحداً من الناسِ قبل أن يدينه الله».

قال الأب يوسف التبايسي: «يوجد ثلاثةُ أمورٍ كريمةٌ أمام الله: أولها، أن يؤدي الإنسانُ عملَه خالصاً لوجه الله، ولا يرائي فيه بشرياً. أما ثانيها، فهو أن يكون الإنسانُ في مرضِهِ، وحين تواتر المحن عليه، راضياً شاكراً. وثالثها، فهو وجود الإنسان مداوماً على طاعة أب روحاني، عاملاً بحسب مشورته. فبهذه الأمور الكريمة، يؤهَّل الإنسان لإكليلٍ فاضلٍ، وإني لذلك أحبُّ المرضَ. إذ قيل عن شيخٍ كان في كلِّ زمانِه يشتكي، إلا أنه في سنةٍ من سني حياته وُجد غيرَ مشتكٍ، إذ لم يصبه خلالها مرضٌ، فمكث تلك السنة حزيناً جداً، وكان يبكي ويقول: لقد أسلمتني يا الله، ولم تتعهدني بالطعام، الذي كنتَ قد عودتَّني عليه، من الأمراض التي كنت تجلبها عليَّ».

قال الأنبا أنطونيوس: «رأيتُ رهباناً كثيرين، قد وقعوا في دهشةِ عقلٍ، وذلك بعد تعبٍ كثيرٍ، والسبب في ذلك، هو أنهم توكَّلوا على معرفتِهم وحدهم، ولم يصغوا إلى الوصيةِ القائلة: اسأل أباك فيخبرك، ومشايخك فيقولون لك».

ودفعة جاء شيخٌ كبير في زيارةٍ للأنبا أنطونيوس في البريةِ، وهو راكبٌ حمارَ وحشٍ، فلما رآه الشيخُ قال: «هذا سَفَرٌ عظيم، ولكني لستُ أعلم إن كان يصلُ إلى النهايةِ أم لا».

وقيل إن شيوخاً كانوا قاصدين الذهاب إلى أنبا أنطونيوس، فضلُّوا الطريقَ، وإذ انقطع رجاؤهم، جلسوا في الطريقِ من شدةِ التعبِ، وإذا بشابٍ يخرجُ إليهم من صدرِ البريةِ، واتفق وقتئذ أن كانت هناك حميرُ وحشٍ ترعى، فأشار إليها الشابُ بيدِه، فأقبلت نحوه، فأمرها قائلاً: «احملوا هؤلاء إلى حيث يقيم أنطونيوس». فأطاعت حميرُ الوحشِ أمرَه. فلما وصلوا، أخبروا أنطونيوس بكلِّ ما كان، أما هو فقال لهم: «هذا الراهبُ يشبه مركباً مملوءاً من خيرٍ، لكني لستُ أعلمُ إن كان يصلُ إلى الميناءِ أم لا». وبعد زمانٍ ابتدأ الشيخُ يبكي وينتف شعرَه فجأة. فقال له تلاميذُه: «ماذا حدث أيها الأب»؟ قال لهم الشيخُ: «عمودٌ عظيمٌ للكنيسةِ قد سقط في هذه الساعةِ، أعني ذلك الشاب الذي أطاعته حميرُ الوحشِ». وأرسل الشيخُ تلاميذَه إليه، فوجدوه جالساً على الحصيرِ يبكي. فلما رأى تلاميذَ أنطونيوس، قال لهم: «قولوا للشيخِ أن يطلبَ إلى اللهِ كي يمهلني عشرةَ أيامٍ لعلي أتوب»، وقبل أن يتم خمسةَ أيامٍ توفي.

من سيرة الأب باخوميوس: إنه في بعضِ الأوقاتِ بينما كان باخوميوس مع الأب بلامون، وافاهما راهبٌ قد استولت عليه الخيلاءُ والاعتداد بالذات. وإذ كان الوقتُ شتاءً، فقد كانت قدامهما نارٌ تشتعل. فلما رآها الأخُ الضيفُ، داخَلَه السُبحُ الباطل وقال لهما: «من منكما له إيمانٌ صادقٌ بالله، فليقف على هذا الجمرِ ويقول الصلاةَ التي علَّمها السيدُ لتلاميذِه». فلما سمع الشيخُ قولَه هذا، زجره قائلاً: «ملعونٌ هو ذلك الشيطان النجس، الذي ألقى هذا الضميرَ الفارغ في قلبك، فكفَّ عن هذا الأمر، لأنه من شيطان العُجب». فلم يحفل ذلك الأخ بقولِ الشيخ، ولكنه قال: «أنا، أنا». ثم نهض قائماً ووقف على ذلك الجمرِ المتَّقد كثيراً، وقال الصلاة الإنجيلية مهلاً مهلاً، ثم خرج من النارِ ولم تضرّه بشيءٍ، ومضى إلى مسكنِه بكبرياءِ قلبٍ. فقال باخوميوس للشيخ: «يعلم الربُّ، أني عجبتُ من ذلك الأخ، الذي وقف على هذا الجمر ولم

تحترق قدماه». فقال له الشيخ: «لا تعجب يا ابني من هذا، لأنه بلا شك من فِعلِ الشيطان، ولأجلِ أنه لم يذلِّل لبَّه، تسامح الله في أن لا تحترق قدماه، كالمكتوب: إن الله يُرسل لذوي الاعوجاج طرقاً مُعوجّةً. ولو علمتَ يا ابني ما ينتهي إله أمرُه، لكنتَ تبكي على شقاوتِه». وبعد أيامٍ قليلةٍ، لما رأى الشيطانُ أنه جانحٌ لخداعِه تشكَّل بصورةِ امرأةٍ جميلةٍ جداً، متزينةً بثيابٍ فاخرةٍ، فجاءت إليه، وقرعت بابَه، ففتح لها لوقتِه، حينئذ أسفرت عن وجهِها وقالت له: «اعلم أيها الأب الخيرّ أن عليَّ ديناً لأقوامٍ مقتدرين، وهم يطالبونني، وليس لي ما أُوفيهم، وأخشى أن يقبضوا عليَّ، ويأخذوني عبدةً لهم، لأنهم مسافرون، فاعمل جميلاً، وأْوِني عندك يوماً واحداً، أو يومين حتى يمضوا، فيكون لك من الله جزيلُ الأجرِ، ومني أنا المسكينة صالحُ الذكرِ». فأما هو فلصلفِ قلبِه، لم يحسَّ البلاءَ الذي دُبِّر له، فقِبلها داخل قلايتِه، حينئذ لعبت عليه أفكارُه، فعوَّل على معاشرتها، ومد يدَه نحوها ليتمَّ الفعلَ النجس، فلوقته باغته الشيطانُ وصرعه على الأرضِ، فضاع عقلُه وبقى مسبخاً كالميتِ نهاراً وليلةً، ثم عاوده رشدُه، فقام وجاء إلى الشيخ بلامون وهو باكٍ، فطرح ذاتَه بين يديه قائلاً: «أنا هو السبب في هلاكي، وعلة مماتي. لأني لم أُصغِ إلى كلامِك، ولذلك حلَّ بي ما حلّ». وشرح ما حدث له، ثم طلب صلاةً، فلما قاما ليصليا عليه باغته الروحُ النجس، وطفر به طفرةً منكرة، ومضى مستكداً مسافةً بعيدةً، حتى وصل مدينة تُدعى بانوس، وبقى فيها ضائعَ العقلِ وقتاً، وأخيراً زج بنفسِه في تنورٍ متقد، حيث احترق فيه وهلك.

وآخرُ أيضاً، كان كثيرَ الصلاةِ والصومِ والجهادِ، وكان كلُّ يومٍ في ازديادٍ وحرص، وحدث أنه اتكل على أعمالِه الصالحة، فجاءه المجرِّبُ في الليلِ في شبهِ امرأةٍ تائهةٍ في البريةِ، ووثبت ودخلت قلايتَه، ووقعت بين رجليه، وكانت تطلبُ إليه أن تستترَ عنده تلك الليلةِ، فظن في نفسهِ حينئذ أن يصنعَ معها خيراً، وبدأ يسألها كيف تاهت؟ فأخبرته ما أصابها ... ثم بدأت تكلمه، وتزرع في قلبِه الأفكار الدنسة، وترثي لحاله، وتتظاهر بالإشفاق عليه، وهكذا أطالت في كلامِها حتى أمالته إلى الشهوةِ النجسةِ، مريدةً جذبه إلى نفسها، وبالضحك السمج أضلَّته حتى أنه بسط يديه إليها، فاقترب منها مسبياً بها، مقدماً نفسَه ليُتمَّ الشهوةَ، فصاحت بغتةً وخرجت هاربةً مثلَ الدخانِ، وصوتُ الضحك سُمع في الهواءِ من الأرواحِ النجسة يصيحون ويقولون: «يا

من تعظَّم وترفَّع إلى العُلا، انظر كيف هبطت إلى الهاويةِ». ومن بعد هذا غدا حزيناً ورجع إلي العا لم. وعلى هذا المنوال يفعلُ الشيطانُ، فإنه إذا غَلب إنساناً يجعله بغير معرفةٍ لئلا يقومَ من سقطتِه، ومن أجل ذلك علينا الهرب من العا لِم، والحذر من ملاقاة امرأةٍ، ولا نقطع رجاءَنا أبداً من رحمةِ ربنا.

قال شيخٌ: «حدث أن إنساناً شريفاً فرّق جميعَ مالِه وعَتَقَ مماليكه وزهد في الدنيا، إلا أنه صار متوكلاً على نفسِه وحده، مرشداً لذاتِه، ولم يُرِد أن يكونَ تابعاً لغيرِه، متعلّماً ممن هو أقدم منه، فوقع في نجاساتٍ شنيعةٍ وكاد يهلك، لولا أن مراحمَ الله تداركته بالتوبةِ فتعلَّم بالخبرة أن التواضع أفضل وأعظم من كلّ الأعمالِ والفضائل».

الأب لوقيوس: سأله أخٌ عن ثلاثةِ أفكارٍ قائلاً: «أريد أن أتغرَّب». قال له الشيخُ: «إن لم تضبط لسانَك في أيّ موضعٍ مضيْتَ إليه فلست بغريبٍ، أما إذا ضبطتَّ لسانَك ههنا فأنت غريبٌ». فسأله الأخُ أيضاً قائلاً: «أريدُ أن أصومَ يومين يومين». فقال له الشيخُ: «قد قال إشعياء النبي: إن أنت أضنيتَ عُنُقَك كالأسلةِ، وافترشتَ المسوحَ والرماد، فلن يُعتبر ذلك صوماً مقبولاً، إما إذا أردت الصومَ حقاً فاصرف الأفكارَ الخبيثةَ». وأخيراً قال الأخ: «إني أؤثر أن أهربَ من الناسِ». فقال له الشيخُ: «إن لم تستطع تقويم نفسِك وأنت بين الناس، فلن يمكنك تقويمها وأنت وحدك».

وقال أيضاً: «إن المرأةَ تعلمُ أنها قد حبلت عند توقف دمها، كذلك النفس تعلم أنها قد قبلت الروح القدس عند انقطاع الآلام السائلة منها من أسفل. أما إذا دامت فيها، فكيف يمكنها أن تثمر وهي هكذا ثماراً مثل ثمارها وهي عديمة الآلام؟ أعطِ دماً وخذ روحاً».

كما قال أيضاً: «توجعتْ معدتي مرةً وطلبتْ طعاماً في غير أوانِه، فقلتُ لها: موتي، وما دُمتِ قد طلبتِ طعاماً في غير أوانِه، فها أنا أقطعُ عنك ما كنتُ أعطيكِ إياه في أوانِه».

قال شيخٌ: حدث مرةً أني كنتُ في موضعٍ حيث أتى يتامى ومساكين يسألون صدقةً، فلما ناموا كان بينهم واحدٌ لا يقتني شيئاً يلبسه سوى حصيرةٍ، نصفها فوقه ونصفها الآخر تحته، وكان وقتئذ بردٌ شديد، فخرج بالليلِ يبول ماءً، فسمعتُه من شدةِ البردِ يُعزي نفسَه ويقول:« أشكرك يا ربُّ، كم من أغنياءٍ الآن في السجونِ يرزحون في أغلالٍ حديديةٍ، وآخرين وقد رُبطتْ أرجلُهم في

الخشبِ، لا يستطيعون الخروجَ حتى لتبديدِ الماء، ولا يقدرون أن يمدُّوا أرجلهم، وأنا مثلُ ملكٍ، لي سلطانٌ على ذاتي، حيثما شئتُ أذهبُ». فلما أنصتُّ وسمعتُ كلامَه هذا، دخلتُ إلى الإخوةِ وحدثتهم، فلما سمعوا تعجبوا وسبحوا الله.

قيل أتى تلميذٌ لأنبا مقاريوس وقال له: «أبي يرسلني لقضاءِ خدماتٍ له، وإني خائفٌ من الزنى». فقال له الشيخُ: «في أيِّ وقتٍ جاءتك تجربةٌ قل: أيها الرب إلهي بصلاةِ أبي نجني، وهو يخلصك». وحدث في أحدِ الأيامِ أن أغلقت عليه عذراءٌ البابَ، فصرخَ بصوتٍ عظيمٍ وقال: «يا إله أبي خلِّصني». وللوقتِ وجد نفسَه في طريقِ الإسقيطِ.

الأب ماطوس: سأله أخٌ قائلاً: «قل لي كلمةً». فقال له الشيخُ: «اطلب إلى الله أن يعطيكَ نوحاً في قلبك وتواضعاً في نفسِك وتأملاً دائماً في خطاياك، ولا تدن آخرين، ولا تجعل لك صداقةً مع صبي، ولا معرفةً بامرأةٍ، ولا صديقاً مخالفاً، ولا صلةً بإنسانٍ ما، واضبط بطنَك ولسانَك، وإن تكلم أحدٌ بحضرتِك فلا تلاججه، وإن قال لك جيداً قل نعم، وإن تكلم رديئاً فقل: أنت أخبر بما تتكلم به، ولا تمارِ ولا تماحك، فهذا هو حدُ الخلاصِ».

وسأله آخر: «قل لي كلمةً». فقال له: «اقطع عنك كلَّ مماحكةٍ في الأمورِ كلِّها، وابكِ ونح فقد قَرُبَ الوقتُ».

كذلك سأله آخر قائلاً: «ماذا أصنعُ فإن لساني يغلبني، وفي كلِّ وقتٍ أحضرُ بين الناسِ لا أستطيع أن أضبطَه، وتجدني أدينهم على كلِّ فعلٍ رديء». فأجابه الشيخ قائلاً: «إن كنتَ لا تستطيع ضبط لسانك فاهرب منفرداً لأن هذه الحالة ناتجةٌ عن ضعفٍ، فالذي يريد أن يجلسَ مع الإخوةِ ينبغي ألا يكون ذا أربعة قرونٍ بل يكون مدوّراً، حتى يمكنه التدحرج نحو الكلِّ».

وقال الشيخ: «لستُ من أجلِ الفضيلةِ أنا جالسٌ في الوحدةِ، ولكن من أجلِ الضعفِ، لأن المتقلبين بين الناسِ لهم قوتان».

وقال أيضاً: حدث أن مضى ثلاثةُ إخوةٍ إلى الأب بفنوتيوس، وسألوه كلمةً، فقال لهم الشيخُ: «امضوا، وليكن عندكم الحزنُ أفضلَ من الفرحِ، والتعبُ أفضلَ من النياحِ، والإهانةُ أفضلَ من الكرامةِ، وليكن عطاؤكم أكثر من أخذِكم».

القديس مرقص تلميذ الأب سلوانس: قيل عنه إنه كانت له طاعةٌ عظيمةٌ، كما كان كاتباً. وكان الشيخُ يحبه كثيراً من أجل طاعتِه. وإذ كان له أحد عشر تلميذاً آخرين، فهؤلاء كانوا يحزنون بسببِ حبهِ له أكثر منهم، فلما سمع الشيوخُ بذلك جاءوا إليه ولاموه على ذلك. فما كان منه إلا أن أخذهم وخرج وقرع على كلِّ قلايةٍ قائلاً: «أيها الأخ هلمَّ إليَّ فإني محتاجٌ إليك». فلم يتبعه ولا واحدٌ منهم فوراً. وأخيراً جاء إلى قلاية مرقص وقرع البابَ قائلاً: «يا مرقص». فلما سمع صوتَ الشيخِ وثب في الحالِ وخرج خارجاً، فأرسله في خدمةٍ. فقال للمشايخ: «أيها الآباءُ، أين باقي الإخوة»؟ ثم دخل قلاية مرقص مفتشاً فوجده كان يكتب وقت ندائهِ عليه، وقد بدأ بكتابةِ الأعدادِ الكبرى التي منها W (أوميجا فوقها خط والتي تعني ثمانمائة). فعند سماعِه صوت الشيخ لم يُرسل القلمَ ليتمَّها فتركها حرف W فقط، فلما رأوا ذلك هكذا قالوا: «بالصوابِ تحبُّ هذا الأب، ونحن نحبُّه والله يحبُّه».

وحدث في بعضِ الأوقاتِ أن كان الأب سلوانس يمشي مع مشايخ في الإسقيطِ، ومرقص معه، فأبصر الشيخُ خنزيراً برياً، فقال لمرقص: «أترى يا ولدي هذا الوحش الصغير»؟ قال: «نعم يا معلم». قال الشيخ: «انظر كيف أن قرونَه مستويةٌ حسنة». قال له: «نعم يا معلم». فتعجب الشيوخُ من جوابِهِ وانتفعوا من عدم مراجعتِهِ لمعلمِه.

الأب ميليسيوس: قيل عنه إنه عبر يوماً بموضعٍ فرأى راهباً ممسوكاً متَّهماً في جريمةِ قتلٍ، فدنا الشيخُ وسأل الأخَ عن أمرِهِ فعلم أنه قد اتُّهِم ظلماً. فقال الشيخُ لماسكيه: «أين يوجد المقتول»؟ فأروه إياه. فبسط يديه وصلى إلى الله، ثم قال للميت قدام الجميع: «قل لنا من قتلك»؟ قال الميتُ: «إني دخلتُ الكنيسةَ وأعطيتُ القسَ مالاً ليحفظَه لي، فقام عليَّ وذبحني، وحملني وطرحني قدام قلاية هذا الراهبِ. فأريدُ أن يؤخذ المالُ من القسِ ويُعطى لأولادي». فقال الشيخُ: «ارقد ثانيةً حتى يأتي الربُّ ويقيمك».

وسأل أخٌ الأب موتيوس قائلاً: «أريد أن أمضي لأسكنَ في موضعٍ، فماذا تريدني أن أتدبَّر هناك»؟ فقال له الشيخُ: «إن سكنتَ في موضعٍ فاحذر أن لا تُخرج لك اسماً في شيءٍ من الأشياء، بل في كلِّ موضعٍ جلستَ فيه، اتبع الكلَّ مساوياً نفسكَ بهم، وكل ما تراه من أفعالِ الورعين الأتقياء الذين يُنتفَع منهم، فافعله مثلهم، وبذلك تتنيح. لأن هذا هو الاتضاع أن

تساوي نفسَك بإخوتِك، حتى إذا أبصرك الناسُ تدخل وتخرج مع الإخوةِ لا يزعجونك».

الأب مرقص المصري: قيل عنه إنه مكث ثلاثين سنة لم يخرج خارجاً عن قلايتهِ، وقد اعتاد قسيسٌ أن يأتي إليه، ويقوم بخدمةِ القداس. فاحتال الشيطانُ في إيقاعه في ألم الدينونةِ، فأوعز إلى بعضِهم فأتوْا إليه بإنسانٍ مجنونٍ بروحٍ نجس، طالبين أن يصليَ عليه، فقبل كلِّ شيءٍ بدأ المريضُ يقول له: «إن قسيسك له رائحة الخطية، فلا تدعه يدخل إليك». فقال له الشيخُ: «أيها الولدُ، إن كلَّ الناسِ يطرحون الجيفَ والنجاسةَ خارجاً، أما أنت فقد أدخلتها إليَّ، أما كُتب لا تدينوا لكي لا تدانوا، فهو وإن كان خاطئاً، لكن الربَّ يخلصه، لأنه كُتب: وإن هو سقط فالرب يقيمه. وقد كُتب أيضاً: وليصلِّ بعضُكم من أجلِ بعضٍ لكي تُشفوا». وإذ قال ذلك صلى صلاةً فهرب الشيطانُ من ذلك الإنسانِ، وصرفه خائباً. فلما أتى القسُ كعادته قبله الشيخُ بفرحٍ، فلما أبصر الإلهُ الصالح أمانةَ الشيخِ، كشف له سراً وهو أن القسيسَ عندما اعتزم الوقوف قدام المائدةِ المقدسةِ، رأى الشيخُ أن ملاكاً قد انحدر من السماءِ، ووضع يدَه عليه، فصار كعمودِ نارٍ، فعجب الشيخُ من ذلك المنظرِ، وإذا بصوتٍ يأتيه قائلاً: «لماذا تعجب؟ إن كان الملكُ الأرضي لا يرتضي أن يقفَ أحدُ خدامِه بين يديه بلباسٍ قذر، فكم بالحري ملك السماوات فإنه يجلل خدامَه الواقفين بين يديه بالمجدِ».

الأب مقاريوس المدني: قيل إن أحدَ الإخوةِ استمر يتردَّد عليه مدة أربعة أشهر يومياً، وذلك ليسأله عن كلمةٍ، فكان كلما ذهب إليه لا يجده متفرغاً من الصلاةِ حتى ولا مرةً واحدةً. فعجب الأخُ لذلك وقال: «هذا ملاكٌ وليس بإنسانٍ، وانتفع جداً».

قال الأب مطونس: «كلما دنا الإنسانُ من اللهِ، فإنه يرى نفسَه خاطئاً، لأن إشعياءَ النبي لما أبصر الله دعا نفسَه دنساً ونجساً».

قيل: مدح الآباءُ شخصاً في وجهِه بين يدي الأب أنطونيوس، فأراد الأب أن يمتحنَه إن كان يحتمل الذمَّ، فلم يحتمل، فقال: «هذا الأخُ يشبه قريةً مزينةً من خارجٍ، لكنها من داخلٍ خاويةٌ، بل ملآنةٌ من اللصوص».

وقيل أيضاً: شكا أخٌ إلى شيخٍ قائلاً: «إني أضربُ المطانيةَ للأخِ الواجد عليَّ، وهو غير نقي الفكرِ والضمير معي». فقال له الشيخُ: «لستَ تقولَ الحقَ، لأنك وأنت تضرب المطانية،

تؤديها له بدونِ أن تتوبَ إليه من كلِّ قلبك». فقال له الأخُ: «نعم، بالصوابِ حكمتَ». قال له الشيخُ: «من أجلِ ذلك لا يُقنعه اللهُ أن ينقيَ ضميرَه معك، لأنك لم تضرب له المطانيةَ وأنت مُسَلِّمٌ بخطئك نحوه، بل لا زال يَعْلُق في ضميرِك أنه هو المخطئ. ضع في ضميرِك أنك أنت المخطئ، وزَكِّ أخاك وبرِّئه من الخطيةِ، وحينئذ يحقق اللهُ ذلك في فكرِه، ويُعطِّفه نحوك».

وسأله أخٌ آخر قائلاً: «إني أصنعُ مطانيةً للأخِ، ويبقى قلبي واجداً عليه». فأجابه الشيخُ: «إن هذا هو الحقدُ، وهو يتولَّد من الغضبِ، كما تتولَّد النارُ من القدحِ، فبالمطانية شفيتَ الغضبَ، ولكنك ما استأصلتَ الحِقدَ، فيجب أن تقطعَ الأوجاعَ وهي طريةٌ صغيرةٌ قبل أن تتفرَّع وتقوى فيعسُر قطعها. فلماذا لا تفهم ما تقوله قدام اللهِ في المزمور السابع: "يا ربي وإلهي، إن كنتُ صنعتُ هذا، وكان في يديَّ ظلمٌ، أو كافأتُ ظالمي شراً، إذاً أسقطُ في يدِ أعدائي خائباً، ويطلبُ العدو نفسي ويدركها". فإن كافأنا شراً بشرٍّ فنحن ندعو على أنفسنا لا ندعو لها. والمكافأةُ (على الشرِّ) تارةً تكون بالفعلِ، وتارة بالقولِ، وتارة بالفكرِ، وهذا هو الحقدُ. فقد لا يُحزِن من أحزنه، لكنه إذا رأى أو سمع أن غيرَه قد أحزنه يفرحُ، وقد لا يرى ذلك ولكنه يشتهي أن يراه، وهذه كلها من وجوه الحقدِ، وبعضُها أصعبُ من بعض».

كذلك سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «ماذا أعمل يا أبي، فإني عاتبٌ على أخي، وليس في نيتي سماحٌ بأن أغفرَ له»؟ فلما سمع الشيخُ هذا الكلام رفع عينيه إلى السماءِ وضرب صدرَه قائلاً له: «يا شقي، إن كنتَ تُغضب ربَ السماوات والأرض، وهو يطيل روحَه عليك ويغفر لك إذا ما تبتَ إليه، فكيف لا تغفر أنت لأخيك»؟

قال شيخٌ: «لقد تركنا الطريقَ المستقيمةَ التي رسمها لنا آباؤنا، وهي أن نلومَ ذواتَنا، ورجعنا باللائمةِ على القريبِ منا، وأصبح كلُّ واحدٍ منا يحرصُ ويجتهدُ في أن يُرجعَ السببَ على أخيه في كلِّ أمرٍ ويطرح ثقلَه على قريبِه. كما صار كلُّ واحدٍ منا متهاوناً، وفي نفسِ الوقتِ نطالب قريبَنا بحفظِ الوصايا، مع أننا لا نحفظ شيئاً منها».

حدث في أحدِ الأيامِ أن جاء إلى شيخٍ أخان غاضبان على بعضِهما، وشكا إليه الأكبر منهما قائلاً: «إني إذا أمرتُ أخي بعملِ شيءٍ، فإن أمري هذا يُحزنه، كما أني أحزنُ كذلك لحزنِه، مفكِّراً أنه لو كان كاملاً في محبتِه لي لكان يقبلُ ما أقولُه له بفرحٍ». أما الأصغرُ فقال: «يا ليتَه

يكلمني بحسبِ مشيئةِ الله، لكنه يأمرني بسُلطةٍ حسب مشيئته، ولذلك لا يوافقني قلبي على طاعتهِ بحسب ما أوصى به الآباءُ». فقال الشيخُ: «يعلمُ الله أني متحيرٌ كيف أن الاثنين يلومُ كلٌّ منهما الآخرَ، كما يحزنان دون أن يلومهما أحدٌ، فعِوض أن يرجع الواحدُ منهما باللائمةِ على نفسِه ويقول: حقاً إني بسُلطةٍ أكلمُ أخي ولذلك يحزن؛ نراه بالعكس يقول: إنه لم يكن كاملاً في محبته لي. كذلك الآخر فعِوض أن يقول إن أخي يكلمني بحسب مشيئة الله لمنفعتي، نراه بالعكس أيضاً يقول: إنه يأمرني بسُلطةٍ حسب مشيئته. وهكذا بقي الاثنان حزينين بدون وجه حق، وذلك لأننا نستعمل أقوالَ آبائنا باعوجاجٍ حسب نوايانا الخبيثة، فكلٌّ واحدٍ منا يلقي الذنبَ على رفيقهِ، ولذلك لا ننجح ولا نفلح».

قال شيخٌ: «إن كلمتَ إنساناً كلمةً تنخسه بها، لكنه لم يحس، فلا تتب إليه ولا تعطِه مطانية، ولا تُقلق الأخَ».

وقال أيضاً: «إن عملتَ عملاً وسطَ جماعةٍ، وعرفتَ أنه يُحدِثُ عثرةً وشكاً، فأسرع واستره، ولا تتوسع فيه، ليعبرَ بغير قلقٍ».

قال الأب زوسيما: اتفق أني كنتُ مع أخٍ آخر سالكيْن مع علمانيين في طريق نابلس، فوصلنا إلى موضعٍ تُجبى فيه ضريبةٌ، فالعلمانيون لمعرفتِهم بالأمر، أعطوا ما وجب عليهم من الضريبةِ، وأما الأخُ الذي كان معي، فأخذ في المقاومةِ قائلاً: «أتتجاسرون على أن تأخذوا خِراجاً من رهبان»؟ فلما سمعتُه يقول هكذا، قلتُ له: «ما هذا الكلام الذي تقولُه يا أخي؟ كأنك تريدُ أن تطالبهم بإكرامِك إكرام قديسٍ إن شاءوا وإن أبوْا؟ فيا ليتهم كانوا قد أبصروا ما توقعوه من حُسن إجابتك وتواضعك، فكانوا يخجلون ويقولون: اغفر لنا. فأعطِهم إذن الجزيةَ كتلميذٍ وديعٍ للإله الوديع الذي تمسكن ودفع الدرهمين، ثم اعبر بسلام».

الأب نسترون: كان يتمشَّى في البريةِ مع أحدِ الإخوةِ، فلما شاهد تنيناً هرب. فقال له الأخ: «أأنت كذلك أيها الأب تفزع»؟ أجاب الشيخُ: «لا، لستُ أفزعُ يا ولدي، لكن الهرب أوفق لي، ولولاه لما كنتُ قد تخلَّصتُ من روحِ المجدِ الفارغ».

قيل: إنه كان في الصعيدِ راهبٌ قد بلغ من التقشفِ مبلغاً عظيماً، ظافراً على صلواتٍ وطلباتٍ وسهر، ومالكاً عدم القنيةِ إلى أبعد غايةٍ، يُفني جسدَه بالأصوامِ والأتعاب. هذا كان قد

بدأ جهادَه بأن كان يتناول كلَّ عشيةٍ ملءَ راحتيه قطينية مبلولة وكفى، وصار يتدرج إلى أن أصبحَ يتناول ذلك القدر يوماً بعد يومٍ، وهكذا حتى استطاع بعد مدةٍ أن يأكله مرةً واحدةً كلَّ أسبوعٍ مساء الأحد، أو يأكل مما اتفق له من الحشائش النابتة، ومكث على هذه الحال مدةً من الزمانِ، فحسده الشيطانُ ورامَ أن يرميه في الكبرياءِ، فوسوس له بأنه قد سلك في النسكِ مسلكاً لم يبلغه أحدٌ من البشرِ، وأنه يجب أن يجترحَ الآيات كي يزدادَ نشاطُه، ويرى الناسُ العجائبَ فيمجّدوا الله، لأن الربَ نفسَه أيضاً قال: «ليرى الناسُ أعمالَكم الحسنةَ فيمجدوا أباكم الذي في السماوات». فسأل الربَّ من أجلِ هذا الأمرِ، وإذ لم يشأ الإلهُ المتعطِّف أن يظلمَ تعبَه، فقد ألهمه فكراً بأن الرسولَ يقول: «لسنا كفاةً أن نرى رأياً من أنفسِنا». وقال: «إن كان ذلك السيد لم يجد نفسَه كُفئاً لأن يرى رأياً من ذاتِه، فكم بالحري يجب عليَّ أنا الشقي أن أقولَ هذا القول، أقومُ إذن وأمضي إلى فلان المتوحد، ومهما قال لي أقبله كمرسَلٍ لي من قبل الله». وكان ذلك المتوحد راهباً كبيراً وقد نجح في عمل التاوريا، قادراً على منفعةِ من يسأله. فقام للوقتِ ومضى إليه، فلما دخل قلايته رأى المتوحدُ قردين جالسين على كتفيه، ممسكين عنقَه بسلسلةٍ، وكلٌّ منهما يرهقه جذباً إليه، فلما شاهد هذا المنظرَ عرف السببَ إذ كان متفقهاً جداً. وإنه تنهد باكياً بسكونٍ. ومن بعدِ الصلاةِ وما جرت به العادةُ من السلامِ، جلسا مدة ساعةٍ صامتيْن، لأنه هكذا كانت عادة الآباء الذين هناك، ثم فتح الراهبُ القادمُ فاه قائلاً: «أيها الأب، انفعني وأرشدني للخلاصِ». فأجابه الشيخُ: «إنني لستُ كفئاً لذلك يا ولدي، لأني محتاجٌ بعد إلى إرشادٍ». فقال له: «لا تردَّني يا أبي، لأني موقنٌ بفضلِك وقد ألزمتُ ذاتي قبول مشورتك». فأجابه الشيخُ: «إني أخشى أنك لا تسمع مني، ولذلك أُفضِّلُ أن أمتنعَ من ذلك». فحقَّق وأكَّد له أنه قبل مجيئِه قد عاهد نفسَه قائلاً: «مهما قلتَه لي أقبله كمِن فم الله». فقال الشيخُ: «خذ قِطعَ النقودِ هذه وامضِ إلى المدينةِ وابتع عشرَ خبزاتٍ وقسطَ نبيذٍ وعشرة أرطال لحمٍ وعُد بها إليَّ». فحزن الأخُ لذلك جداً، لكنه على كلِّ حالٍ أخذ ما أعطاه له ومضى كئيباً. وفي طريقِه جاءته الأفكارُ قائلةً: «أيُّ شيءٍ يقصده ذلك الشيخُ، وكيف أستطيع أنا أن أبتاع هذه الأشياء وكيف أحملها؟ وما هو موقفي من العلمانيين مما يضطرني إلى أن أذوبَ خجلاً»؟ وهكذا سأل واحداً فابتاع له الخبزَ، وآخرَ ابتاع له النبيذَ، ولما جاء دورُ اللحم، قال: «يا ويلي كيف أحصلُ

على اللحمِ، سواء ابتعتُه أنا بيدي أم كلفتُ آخرَ». ثم كلَّف رجلاً علمانياً فابتاع له اللحمَ، وحمل الجميعَ وجاء بها إلى الشيخِ مفكراً. فقال له الشيخُ: «اطبخ اللحمَ وطجّنه». ففعل ذلك مُعَبَّساً. فقال له الشيخُ: «لا تنسَ ما عاهدتني به أنك سوف تفعل جميعَ ما أُشير به عليك، فخذ هذه الأشياء جميعها، وامضِ إلى قلايتك، وصلِّ وتناول خبزةً واحدةً وشربةً واحدةً من النبيذ ورطلَ لحمٍ في كل يومٍ عند المساء. ومن بعد عشرة أيامٍ عُد إليَّ». فلم يتجاسر على أن يردَّ له جواباً.

وهكذا أخذ كلَّ ما أعطاه ومضى حزيناً باكياً قائلاً في نفسِه: «من أيِّ درجةٍ في الصومِ هبطتَ، وفي أيِّ حالةٍ حصلتَ»؟ ثم أنه قال لنفسِه: «إن لم أفعل ما أمرني به أكونُ قد خالفتُ الله، لأني قد عاهدتُه أنه مهما قال لي أفعله كمِن فمِ الله، والآن يا ربُّ، انظر إلى شقاوتي وارحمني واغفر لي خطيئتي، لأني مضطرٌ أن أعملَ خلافَ هواي». وجاء إلى قلايتهِ باكياً، وتمَّم ما قاله له الشيخُ، وعكف على الصلاةِ عكوفاً بليغاً، وكان إذا ما أكل، يبلُّ الخبزَ بدموعِه قائلاً: «يا الله قد أُهملتُ وخُذلت من يدِك». فلما رأى الله حزنَه وبكاءَه ومسكنته، عزَّى قلبَه وكشفَ له السببَ، فشكر الله واعترف بالقول النبوي: «إن كلَّ برِّ الإنسانِ مثل خرقة الطامث». وأيضاً: «إن لم يبنِ الربُّ البيتَ ويحرس المدينةَ، فباطلاً سهر الحارسُ». وهكذا عاد إلى الشيخ منهوكَ الجسمِ متوعكاً أكثرَ مما كان وهو يطوي الأسابيع صائماً. فلما رآه الشيخ متذلِّلاً متمسكناً، قبله بفرح بوجهٍ طلق، وصلَّيا وجلسا صامتين مدة ساعةٍ، ثم قال الشيخُ: «يا ولدي، إن الله المحبَّ للبشرِ قد تعاهدك، ولم يمكِّن العدوَ من الاستيلاء عليك، لأنه من عادتِه دائماً خداع من يسلك مسلكَ الفضيلةِ بوجوه تتبين أنها واجبةٌ ويسوقهم بها إلى مرض الكبرياء، ويأمرهم أن يخوضوا في خوضٍ عظيمٍ من الفضائلِ حتى من هذه الوجهة يُهبطهم هبوطاً عظيماً، لأنه ليس عند الله شيءٌ مرذولٌ مثل مرض الكبرياء. ولا ثمة فضيلة تساوي التواضع، فتأمَّل الأمرين مِن مَثل الفريسي والعشار، لأن بعضَ الشيوخِ يقولون إن بعض الإفراطات من أعمالِ الشياطين، فاسلك طريقاً ملوكيةً كما يقول الكتاب، ولا تمل يُمنى ولا يُسرى، اتبع التوسط في الأمورِ، وفي كلِّ عشيةٍ يكونُ غذاؤك، وإن دعت الضرورةُ لمرضٍ أو عارضٍ يعرض، فاسلك للوقت بحسب ما تقتضيه الحال، كذلك إن اقتضى الأمرُ حلَّ الساعة المحدودة فلا تحزن، وإن اقتضى أن تتناول في يومٍ غير مطلق،

فتناوله، لأننا لسنا تحت ناموسٍ بل تحت نعمةٍ. فإذا أكلت فلا تمتلئ بل اقتصر سيما من الأطعمة اللذيذة، وأحب أبداً ما كان دوناً، واحفظ قلبَك لأن النبي يقول: الذبيحة لله روحٌ منسحقة، والله لا يُرذل القلبَ المتواضع المنكسر. وقد قال أيضاً: تواضعتُ فخلَّصني الربُّ. والربُّ يقول بلسان إشعياء النبي: إلى من أنظر إلا إلى الوديع الخائف من كلامي. فألقِ يا بُني جميعَ اتكالِك على الربِّ واسلك طريقَك بسلامٍ وهو يفعل لك الخيرَ، ويُخرج عدلَك كضوءٍ وحُكمك كالظهيرةِ». وبعد أن دعَّم الأخَ بأقوالٍ كثيرةٍ، أخلى سبيلَه مسروراً بالربِّ، وإذ كان يمضي ترنَّم قائلاً: «خائفوك وعارفو شهاداتك ليردُّوني، وأدباً أدَّبني الربُّ وإلى الموتِ لم يُسلِّمني، ويؤدبني الصديقُ برحمةٍ ويوبخني». وقال لنفسه: «ارجعي يا نفسي إلى موضع راحتك لأن الربَ قد أحسن إليك، وبقية القول». وهكذا جاء إلى قلايته، وقضى بقيةَ عمرِه حسب مشورة الشيخ.

أخٌ أقلقته الأفكارُ، فذهب إلى أحدِ الشيوخِ وسأله قائلاً: «يا أبي، ما أصعب التجارب التي لحقت ضعفي». فتنهَّد الشيخُ وقال: «يا بُني، لا يُدهشك هولُ عساكر الشياطين إذا كان اللهُ معك، فإن الشياطين إذا أبصروا النفسَ صاعدةً إلى اللهِ، يغتاظون عليها دائماً ويحسدونها. وأحياناً لا يحضرُ الله وملائكتُه في المحنِ، فلا تفترْ أنت عن الاستغاثةِ به، بتواضع قلبٍ. ومتى أصابك حادثٌ مثل هذا، فتأمَّل بفكرِك عِظم قوة الله المنيعة، وانظر ضعفَك واطلب الله بكلِّ قلبك تجدهُ سريعاً».

قال أحدُ الشيوخ: «لا تكونُ تحتَ السماءِ أمةٌ مثلَ المسيحيين إذا أكملوا ناموسَهم، كما لا توجد مرتبةٌ جليلةٌ كمثلِ مرتبةِ الرهبان إذا حفظوا طقوسَهم. ولذلك فإن الشياطين لحسدِهم، يحاربونهم بكلِّ أصنافِ الرذيلةِ، ويجعلونهم يُغمِضون أعينَهم عن خطاياهم ويوبِّخون خطايا غيرهم، لكي يُبعدوا عنهم السلامةَ، ويلقوا فيهم الشرورَ. فلنسأل الربَّ الإله أن يخرقَ شِباكَهم عنا ويخلِّصنا من أيديهم».

قال شيخٌ: «كما أن عابرَ الطريقِ ضيفُ يومِهِ، لا يدخل المنزلَ ما لم يأمره صاحبُه بذلك، هكذا العدو، إن لم يقبله الراهبُ، لا يقدر أن يدخلَ إلى عندِه. فإذا صلَّيتَ فقل: يا ربُّ أنت العارف بكلِّ الأشياءِ، أنا بهيمةٌ، ما عرفتُ شيئاً بعد. لكن علِّمني كيف أبدأُ، أنت قد جئتَ بي

إلى ههنا فعلِّمني كيف أخلصُ».

قال يوحنا ذهبي الفم: «من أجلِ أننا لا نتحفَّظ من الزلاَّت الصغار فإننا نقع في الكبار، فمثلاً ضَحِكَ إنسانٌ في غير وقت الضحك، فَجَرَّ غيرَه إلى الضحكِ».

كما قال أيضاً: «ما هو الضحك؟ وما هو ضَرَرُه؟ بالضحكِ تبدأُ مخافةُ الله في أن تنقطع، ويتولَّد من الضحكِ المزاحُ، ومن المزاح الأقوال القبيحة، ومن هذه تكون الأفعال المذمومة. فالعدو المخادع يسهِّل علينا الزلات الصغار، ومنها يُدخلنا إلى الخطايا الكبار، ومن ههنا يقودُنا إلى اليأسِ. فبهذا التدرج يُدخل إلينا الأمورَ مستورةً، فينبغي لنا أن نطردَ هواجسَه من مبادئها، ولا نتهاون بالصغار حيث يكمن العدو فيها، ومنها يجرُّنا إلى الكبار. وإلا فلو كان يحاربنا ظاهراً عياناً، لكان قتالُه سهلاً علينا، وقهرُه متيسراً لدينا، لكنه يعمل لنا كميناً وفخاً، لا نقدر على الخلاص منه سريعاً، فإن تيقَّظنا أفسدنا عليه كلَّ حيلِهِ، وذلك لأن ربنَا قد كسر عنا كلَّ سلاحِه، وقد حذَّرنا من الصغارِ، إذ أنه ما وقف عند حدِّ قوله: لا تقتل، فحسب، بل قال: ولا تغضب، وانتهى إلى منعنا من مخاطبةِ أحدٍ لأخيه بكلمة امتهانٍ. وما وقف عند حدِّ قوله: لا تزن، لكنه حذَّرنا من النظرِ إلى امرأةٍ بشهوةٍ. وأعطى الويلَ للضاحكين. وبالغ في الاستقصاء في باب الصغار إلى أن قال: إن كلَّ كلمةٍ بطالةٍ يقولها الإنسانُ، سوف يعطي عنها جواباً. فإذا عرفنا ذلك، فسبيلُنا إذن أن نحفظ أنفسَنا من الخواطرِ، فلا نسقط سريعاً».

قال شيخٌ: «لو نظرنا إلى خطايانا لما نظرنا إلى خطايا غيرِنا، لأنه من ذا الذي يَدَعُ ميته ويبكي على ميت غيرِه، وخطيةُ الإنسانِ هي موتُ نفسِه».

وقال آخر: «إن أنت قصدتَ الإحسانَ إلى الأخيارِ والإساءةَ إلى الأشرارِ، فمنزلتُك منزلةُ قاضٍ لا عابد».

وقال آخر: «مَن فيه اتضاعٌ، فمن شأنهِ أن يوضِع الشياطين (أي يغلبهم)، ومن ليس فهي اتضاعٌ فمن شأن الشياطين أن يوضِعوه».

وقال أيضاً: «ليس من يحتقر ذاتَه هو المتضع، ولكن من قَبِلَ من غيرِه ضروبَ الهوانِ بفرحٍ، فهذا هو المتضع».

وقال كذلك: «لا يمكننا أن نحوزَ ربَّنا داخلنا بدون تواضعٍ وتعبٍ كثيرٍ وصلاةٍ بغيرِ فتورٍ».

كان أخٌ مقاتَلاً بالزنى، فسأل شيخاً أن يبتهلَ في أمرِه لكيلا يقهره الشيطانُ، فسأل الشيخُ اللهَ في أمرِه سبعةَ أيامٍ، وبعدها سأل الأخَ عن حالِه، فقال له: « لم يخف القتالُ بعد». فتعجَّب الشيخُ لذلك، وإذا بالشيطانِ قد ظهر له قائلاً: «أما أنا، فمنذ اليوم الأول في ابتهالك إلى اللهِ بشأنِهِ، انصرفتُ عنه. إنما هو يقاتلُ ذاتَه وحدَه، لأنه يأكل ويشرب وينام كثيراً».

قال الآباءُ: «حيث يكون شربُ النبيذِ أو النظر إلى الصبيان فلا حاجة هناك إلى شيطان».

وقف الشيطانُ برجلٍ قديس ساعةَ وفاتِهِ وقال له: «لقد انفلتَّ مني». فأجابه: «لستُ أعلمُ». إلى هذا المقدار كان احتراسُ الآباء من الافتخارِ في شيءٍ.

قال الآباءُ: «المناظرة في الآراء، والقراءة في العقائد المختلفة، والكلام في الإيمان، من شأن هذه أن تطردَ من الإنسانِ خشوعَه، أما أقوالُ الآباءِ وأخبارُ القديسين فمن شأنِها أن تنيرَ النفسَ وتليِّنها».

حدث أن شيخاً مغبوطاً أخذ عوداً صغيراً وخيطاً صغيراً وقال: «من ذا الذي يغتمُّ على فقدِ هذه الأشياء الحقيرة ويحقد بسببها إن كان عاقلاً، لَعَمْري، إن من استبصر في قدرِ هذا العالم الزائل كلِّه فلن يعتبره سوى اعتبارِهِ لهذه الأشياءِ الحقيرة، ومع هذا أقولُ إنه لن يَضُرَّ الإنسانَ أن يكون له إشفاقٌ على شيءٍ ويأسف على فقدِهِ فقط، بل وعلى جسمِه الذي هو أكرم من كلِّ ما يمتلكه عنده، لأننا قد أُمرنا أن نتهاون بأنفسنا وأجسادنا، فكم يجب علينا على أكثرِ الحالات أن نتهاونَ بما هو خارجٌ عنا».

وقال شيخٌ: «سبيلنا أن نعلم أنه لا يوجد أصدقُ ممن يذمُّنا ويبكِّت أعمالَنا، وينبغي لنا أن نراعي مذلّتنا، لأن الذين يُراعون مذلّتهم ويتحققونها يطحنون إبليسَ المحتال، وقد قال الآباءُ: لو أُحدر التواضع إلى الجحيم، لصعد إلى السماء، ولو رُفعت الكبرياءُ إلى السماءِ لهبطت إلى أسفلِ الأرضِ».

قال قديس: «متى أحزنك أحدٌ في شيءٍ، فلا تنطق البتة إلى أن تُسَكِّن قلبَك بالصلاةِ، ثم بعد ذلك استعطفه».

وقال أيضاً: «من لا يضرُّ ذاتَه فلا يضرُّهُ إنسانٌ».

كذلك قال: «إن الفضيلةَ تريد منا أن نريدها لا غير».

كما قال أيضاً: إذا أُحزن إنسانٌ، فاضطرب ولم يتكلم، فهو مبتدئٌ في الفضيلةِ، وليس من الكاملين بعد، أما الكاملُ فهو ذاك الذي لا يضطرب أصلاً، كالنبي القائل: «استعديت ولم أضطرب». فيا ليتنا نكون من المبتدئين، لنستمدَّ من الله المعونةَ. إن الصلاة بتكلفٍ من شأنِها أن تولِّد صلاةً نقيةً براحةٍ، فتكون الأولى بتكلُّف النيةِ، والثانية براحةٍ من النعمةِ.

قال شيخٌ: «إن خاتم المسيح الظاهر هو الصليب، وخاتمه الباطن هو الاتضاع، فهذا مثل صليبه، وذاك مثل خُلُقِه».

قيل: إن ثلاثةً من الإخوةِ زاروا شيخاً، فقال له الأول: «يا معلمُ، لقد كتبتُ بنفسي العتيقة والحديثة، (أي العهدين القديم والجديد)»، فأجابه الشيخُ: «لقد ملأتَ طاقات قلايتِك ورقاً». فقال له الثاني: «إني قد حفظتُ العتيقةَ والحديثةَ في صدري»، فقال له الشيخُ: «لقد ملأتَ الهواءَ كلاماً». أما الثالث فقال له: «لقد نبتَ الحشيشُ وملأ موقدي». فقال له الشيخُ: «لقد طردتَ عنك محبةَ الغرباءِ».

أتى شيخٌ إلى قلايته، فوجد لصاً يسرقها، فقال له: «أسرع قبل أن يأتي الإخوةُ فيمنعونا من تكميل الوصية».

سُئل شيخٌ: «ما هي أعظمُ الفضائل»؟ فقال: «إذا كانت الكبرياءُ أشرَّ الخطايا حتى أنها أهبطت طائفةً من السماءِ إلى الأرضِ، فمن البديهي يكون الاتضاعُ الحقيقي المقابل لها أعظمَ الفضائلِ، إذ هو يرفعُ الإنسانَ من الأعماقِ إلى السماءِ، وقد غبَّطه الله قائلاً: مغبوطون أولئك المساكين بالروح، أي المتضعين بقلوبهِم، فإن لهم ملكوت السماوات».

وقال شيخٌ: «كما أن الميتَ لا يتكلمُ البتة، كذلك المتضع لا يزدري أحداً، حتى ولو رآه للأصنامِ ساجداً».

وقال أيضاً: «لا يوجد شيءٌ أصعب من العادةِ الرديئةِ، إذ يحتاجُ صاحبُها في سبيلِ قطعِها إلى زمانٍ وتعبٍ كثير، أما التعبُ فهو في متناول الكثيرين، ولكن الزمانَ الذي يحتاج إليه فما أقلَّ

من قضاه حتى النهايةِ، لأن أكثرَ أصحابِها اختطفهم الموتُ قبل تمامِ زمانِ قطعِها، والله وحدُه هو الذي يعلمُ كيف يدينهم».

كما قال أيضاً: «من لا يستطيع أن يُبغضَ المقتنيات، فلن يقدرَ أن يُبغضَ نفسَه حسب الوصيةِ المسيحية».

زار أخٌ شيخاً وسأله قائلاً: «كيف حالك»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «أسوأ الأحوال». فقال له الأخُ: «لِمَ ذلك»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: لأن لي ثلاثين سنةً وصلاتي خلالها عليَّ لا لي. لأني أقفُ قدام الله وألعن ذاتي وأقول ما لا أشتهي أن يخرجَ من فمي. إذ أقولُ: «ملاعين الذين حادوا عن وصاياك»، وأحيدُ عن الوصايا. وأفعلُ الآثامَ وأقول: «لا تتراءف على فاعلي الإثم». وأكذب كلَّ يومٍ وأقول لله: «إنك تُهلك كلَّ من يتكلم بالكذبِ». وأحقد وأقول: «اغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لمن أخطأ إلينا». وأخطئ وأقول: «عندما يُزهر الخطاةُ ويعلو جميعُ عاملي الإثم، فهناك يُستأصلون إلى الأبد». وآثم وأقول: «أبغضتُ جميعَ عاملي الإثم». وهمي كلُّه في المأكل وأقول بين يدي الله: «نسيتُ أكلَ خبزي». وأنامُ إلى الصباح وأقول: «في نصفِ الليلِ كنتُ أنهضُ لأسبِّحك». وليس لي خشوعٌ ولا دموع وأقول: «تعبتُ في تنهدي، وصارت دموعي خبزاً لي نهاراً وليلاً، وبدموعي أبلُّ فراشي». وأفكِّرُ فِكراً خبيثاً وأقولُ لله: «إن ما يتلوه قلبي هو لديك كل حين». وليس لي صيامٌ وأقول: «ركبتاي ضعفتا من الصوم». ونفسي متكبرةٌ وجسدي مستريحٌ وأقول لله: «انظر تواضعي وتعبي واغفر لي جميع خطاياي». ولا استعداد لي وأقول: «مستعدٌ قلبي يا إلهي». فقال الأخُ: «يا معلم، على ما يلوح لي، إن النبي قال ذلك عن نفسِه». فتنهَّد الشيخُ وقال: «صدقني يا ابني إن لم نعمل نحن بما نصلي به قدام الله، فإن صلاتَنا تكونُ علينا لا لنا».

قال شيخٌ: «إذا كان لا يعرفُ ما في الإنسانِ إلا روحُه، كقول الرسول، وإذا كنا نعلم أن كثيرين تابوا ولم نعلم بتوبتهم، وإذ قد يتفق أن يتوبَ إنسانٌ في آخرِ حياتِه ويُقبل كاللِّصِ، فسبيلنا إذن، أن لا ندينَ أحداً، فالديان هو الله وحده فكيف يجسر أحدٌ أن يتدخل فيما يخصُّ الله»؟

أتى لصوصٌ إلى قلايةٍ في وقت الصلاةِ، فقال القسيس للإخوةِ: «اتركوهم يعملون عملَهم،

ونحن نعمل عملَنا».

قال أخٌ لشيخٍ: «لماذا لا أستطيع مساكنة الإخوةِ»؟ فقال: «لأنك لا تتَّقِ الله، فلو تذكرتَ المكتوب: إن لوطاً تخلص من بين أهلِ سدوم، لأنه لم يكن يدين أحداً منهم، فلو تذكرتَ ذلك، لاستطعت الإقامة أينما شئتَ، حتى ولو بين الوحوشِ».

وقال شيخٌ: «من يحقد على أخيه، فقد خزَّن ذنوبَه في ذاتِه، وختم عليها».

وقال أيضاً: «كما أن الذئبَ لا يجتمع مع النعجةِ لإنتاجِ ولدٍ، كذلك شبع البطن لا يجتمع مع توجع القلب لإنتاج فضيلةٍ».

وقال كذلك: «كما أن الأرضَ لا تُنبت وحدها من غير بذارٍ وفلاحةٍ ومطر سمائي، وحراسةٍ مما يمكن حراستها من البهائمِ والطيور، وسلامةٍ من الله مما لا يقدر الإنسانُ على دفعِه، كالدود والجراد وريح السموم، فإن كانت الأرضُ لا تنبت بغير تلك الأمور، فكم بالحري النفس، فإنها لا تُثمر الفضائلَ بدون تعليمٍ وتعبٍ كثير ومعونةٍ إلهية واحتراسٍ من الأعداء بقدر استطاعةِ الإنسان، ثم تضرُّعٍ إلى الله في طلب تعضيدِه إزاء ما تعجز قدرته عنه».

سأل أخٌ قديساً عالماً بما ينبغي أن يكون عليه الراهبُ. فقال له الشيخُ: «على ما أعرفُ أنا، ينبغي أن تكون وحدةُ السكنِ ملازمةً لوحدة الذات». فقال الأخُ: «إذا انفردتُ أخافُ». فقال له الشيخُ: «ذلك لأنك حيٌ بعد».

قال شيخٌ: «كما أن الأرضَ لا تسقط أبداً لكونها موضوعةً هكذا إلى أسفل، كذلك مَن وضع ذاتَه لا يسقط أصلاً».

كما قال: «لا تصادق رئيساً ولا صبياً ولا تخاطب امرأةً ولا تبغض إنساناً».

كذلك قال: «سبيلُنا أن نتطهر بالدموعِ ما دمنا في هذا العالم، قبل أن نمضي إلى حيث تحرق دموعُنا أجسادنَا».

سكن شيخٌ مع إخوةٍ، واعتاد أن يقولَ لهم عن الشغلِ دفعةً واحدةً، فإذا لم يفعلوه، قام هو وعمله بدون غيظٍ.

كان أخٌ مسرعاً في الذهابِ إلى المدينةِ، فلما سأل شيخاً مشورةً صالحةً، قال له الشيخُ:

«لا تسارع في الذهابِ إلى المدينةِ، ولكن اهرب من المدينةِ بسرعةٍ».

شكا أخٌ إلى شيخٍ من قتالِ الزنى، فقال له الشيخُ: «أتريدُ أن تتخلصَ وأنت نائمٌ؟ اذهب واتعب واجتهد، اطلب تجد، اسهر وتضرع تُعطَ، اقرع يُفتح لك. فكم من الناسِ يتجلَّدون في التعبِ والسهرِ وقد يتحملون العذابَ من أجلِ ربحٍ جسماني، فاثبت أنت إذن وتجلَّد من أجلِ اللهِ، واللهُ ينتصر لك».

قال أخٌ لشيخٍ: «إن أفكاري لا تتركني أستريح، ولذلك تجد نفسي مغمومةً». فقال له الشيخُ: «إذا زرع الشياطيُن فيك الأفكارَ، فلا تتحدث معهم، فمن شأنِهم أن يطرحوا زرعَهم دائماً، ولكنهم لا يُلزمون أحداً بقبولِهِ اضطراراً، فلك أن تقبلَه أو لا تقبله. ألا ترى ما عمله أهلُ مديان، كيف أنهم زيَّنوا بناتهم وأظهروهن، ولكنهم لم يلزموا أحداً بالزنى معهن، فكان من الإسرائيليين من أراد مخالطتهن، ومنهم من لم يريدوا فلم يدنوا منهن، كذلك من اغتاظ منهن فشرع في قتلهن. وهكذا تكون حالُ الرهبانِ مع الأفكارِ التي تهجسُ بها الشياطين إليهم». فأجاب الأخُ وقال: «كيف أعملُ يا أبي لأني ضعيفٌ والوجع غالبٌ عليَّ وليس لي قدرةٌ على مقاومةِ الأفكار». فقال له الشيخُ: «إذا ألقوا فيك الأفكارَ فلا تجاوبهم، بل اهرب إلى اللهِ بالصلاةِ والسجودِ، وقل يا الله ارحمني واصرف عني هذه الأفكار بقوتِك العظيمةِ، فإني ضعيفٌ عن مقاومتِها». فقال له الأخُ: «إني إذا وقفتُ لأصلي، لا أحسُّ بخشوعٍ لعدم معرفتي بمعنى الكلامِ وقوتِه». فقال له الشيخُ: «لقد سمعتُ أنبا موسى وجماعةً من الآباءِ يقولون هذا القولَ هكذا: إن الراقي (أو الساحر) لا يعرفُ قوةَ الكلامِ الذي يُعزِّم به، لكن الحيةَ تحسُّ بقوةِ القولِ فتخرج، كذلك نحن أيضاً، إن كنا لا نعرفُ ما نقولُه، ولكن الشياطين تعرفُ قولَنا وتنصرف عنا».

قال شيخٌ: «طوبى لمن أبغضَ الإثمَ وأحبَّ البرَ، وخاف عقابَ الجحيمِ وآثرَ ثوابَ الملكوتِ، وقاوم إرادةَ الشياطين، وأطاعَ إرادةَ اللهِ، وصلى بلا فتورٍ، بلا طياشةٍ».

سُئل شيخٌ: «ما هي الطريقُ الصعبةُ الضاغطة»؟ فقال: «هي أن تضبطَ أفكارَك وإرادتك لأجلِ الربِّ، وألا تتعلق بشيءٍ مما لهذا العالمِ».

سُئل شيخٌ: «ما معنى المكتوب: وتبصر بني بنيك»؟ فقال: «إن ثمرةَ أتعاب القديسين هي

بنو بنيهم».

قال شيخٌ: «إن العلماءَ الأشحاء المتكبرين يُشبهون ينبوعاً فيه ثعابين لا يقدر أحدٌ أن يشربَ منه، فمن لا ينطق فعلُه بالأكثرِ لا يُقبَل كلامُه. من أجل ذلك طلب داود الطوباوي من الله قائلاً، أعطني صلاحاً وأدباً ومعرفةً، لأن الصلاحَ بغير معرفةٍ باطلٌ، كذلك المعلم بلا صلاحٍ فهو معلمٌ باطلٌ».

قال يوحنا فم الذهب: «إننا إذا أخطأنا فإن الله قد يُنهض علينا أعداءنا ليؤدِّبونا. وعلى ذلك فلا ينبغي لنا أن نحاربهم، بل يجب أن نحاسب نفوسَنا ونثقِّفها، ولكونه أطلقهم علينا لأجلِ خطايانا، فمتى حاربناهم أصرُّوا هم على مضايقتنا، ولهذا أَمَرَنا ألا نكافئ أعداءنا، فلنقبل إذن الامتحانات كقبولِ الأدويةِ من الحكيم لنخلص، وكقبولِ التأديب من الأب لنتشرف، ولذلك قال سليمان الحكيم: أيها الولد، إن تقدمتَ لخدمةِ ربك، فتأهب للتجارب، واصطبر».

قيل: إن شيخاً راهباً تجذَّم، فأحضر له بعضُ المسيحيين مالاً وقال له: «انفق هذا المال على نفسِك في حالِ كبرِك ومرضِك». فأجابه الشيخُ وقال له: «أتريد أن تُفقدني في ساعةٍ واحدةٍ ما قد تعبتُ في اقتنائه منذ بدء حياتي حتى هذه الساعةِ»؟ وهكذا لم يقبل منه شيئاً.

أحاط إخوةٌ بشيخٍ عند وفاتِه، ففتح عينيه وضحك ثلاث مراتٍ، المرة بعد الأخرى. فقالوا له: «لماذا تضحك يا أبتاه ونحن نبكي»؟ فقال لهم: «أما ضحكي الأول، فهو لأني رأيتُكم تخافون الموتَ، والثاني فهو لأنكم رغم خوفِكم منه فإنكم لا تستعدون له، أما ضحكي الثالث فهو لأني ماضٍ من التعبِ إلى الراحةِ». وهكذا تنيَّح فانتفع الإخوةُ منه.

وقال شيخٌ: «لا تدع لسانَك يخلو من التسبيح، فإن تصرفتَ في تدبيرِ قلايتك، فإن الأفكارَ السوء تنقطع عنك، ولا يجد العدو سبيلاً لما يخطره ببالك، فيبعد عنك».

وقال راهبٌ: «إن الذي يجلس في طاعةِ أبٍ روحاني لهو أكثرُ أجراً وأقلُ خطراً من ذاك الذي يجلس منفرداً في الوحدةِ والسكوت. الطريق المخلِّصة هي: أن يرجعَ الراهبُ باللائمةِ على نفسِه. الصمتُ في جميعِ الأمور هو الغربةُ. والغربة بالحقيقةِ هي الصمتُ. والذي يريد الخلاصَ فليتحمل الظلمَ ويصبر على الإهانةِ والخسارةِ الجسَدَانية».

وقال شيخٌ: «ليس شيءٌ من الخطايا يستمر وجودُه بالفعلِ في الإنسانِ سوى الحقد، فإن القاتلَ مثلاً يكون زمانُ مباشرتِه بالفعلِ لخطيئتهِ أقلَ بكثيرٍ من زمان تركه لها، وكذلك الزاني والسارق وغيرهم. أما الذي يحقد، فإنه إن كان جالساً أو راقداً أو واقفاً أو ماشياً أو متكلماً أو ساكتاً أو صائماً أو آكلاً أو في سائرِ حالاتِه وأوقاتِه، فالحقد لا يزال ملازماً لقلبِه. فمثل هذا الإنسان، صلاتُه باطلةٌ لأنه يطلب الغفرانَ وهو لا يغفر. فتعبُه كلُّه ضائعٌ حتى ولو سُفك دمُه كالشهداءِ، لأن الرسولَ قد قال إن هذه كلها لا تفيدُ شيئاً مع عدم الحبِّ، ولا حب مع الحقد».

قال أنبا ألوجيوس لتلميذِه: «يا بُني عوِّد نفسَك إضعاف بطنِك بالصومِ شيئاً فشيئاً، لأن بطنَ الإنسانِ إنما يشبه زقاً فارغاً، فبقدرِ ما تُمَرِّنه وتملأه تزداد سعتُه، كذلك الأحشاء التي تُحشى بالأطعمةِ الكثيرة، إن أنت جعلتَ فيها قليلاً ضاقت وصارت لا تطلبُ منك إلا القليلَ».

وقال شيخٌ: إنَّ كلَّ صغيرٍ يطرحُ كلمتَه في وسطِ شيوخٍ أكبر منه، فهو يشبه إنساناً يطرحُ ناراً في حجر أخيه».

قال بعضُ الشيوخِ: «أدِّبوا الأحداثَ يا إخوة قبل أن يؤدبوكم».

وقال أيضاً: «إنَّ فخَ الشيطان بالنسبة للرهبان هم الصبيان أكثر من النساء».

سأل أخٌ شيخاً: «كيف يقتني الإنسانُ البكاءَ»؟ فقال: «يقتني الإنسانُ البكاءَ إذا كان عقلُه يذكر دائماً خطاياه وموته ودينونته».

قال شيخٌ: «مكتوبٌ إنَّ من أجاب عما لا يُسأل عنه فهو جاهلٌ، فإن لم تُسألوا فلا تجيبوا».

وقال أيضاً: «كلُّ من يسكنُ في موضعٍ ولا يعمل فيه ثمرةً صالحةً، فالموضع نفسُه يطرده».

كما قال أيضاً: «ليس كلُّ فكرٍ يأتينا يُحسب خطيةً ما لم نقبله ونعملُ به، والأفكار منها ما هو لخلاصِ الإنسان، ومنها ما هو لهلاكهِ».

سُئل شيخٌ: «كيف ينبغي للمتوحد أن يسكنَ في قلايتِه»؟ فقال الشيخُ: «ليكن له عدم اهتمام بذكر إنسانٍ أصلاً، ويحفظ عقلَه من الطياشةِ، كما يذكر الله دائماً».

قال شيخٌ: «ينبغي للراهب أن يشتريَ السكوتَ لنفسِه بما عزَّ وهان، ولو أدى ذلك إلى إصابته بخسارةٍ جسَدَانية».

قال أنبا مرقص: «كلُّ ما تقوله خلفَ أخيك ولا تقدر أن تذكره قدامه، فهو نميمةٌ وسعايةٌ. كما أن كلَّ اهتمامٍ لا يُفضي إلى صلاحِ العبادةِ، فهو اهتمامٌ عالمي».

قال أخ: قلتُ لأنبا بفنوتيوس تلميذ الأب مقاريوس الكبير: «قل لي يا أبي كلمةً أحيا بها». فقال لي: «احفظ القناةَ التي تجري إلى مزرعتك». فقلتُ له: «ما معنى هذا»؟ قال: «القناة هي فمك، فإن لم تحفظه فلن تثمر نفسُك». فقلتُ: «كيف أحفظه»؟ قال: «إذا لم تسكن مع فلاحٍ فمِن أين لك أن تعرفَ ما تشتمل عليه الفِلاحة من حرثٍ وبذرٍ وحفظٍ وسقي وحصاد وغيره»؟ قلتُ أيضاً: «وما معنى هذا»؟ قال: «إذا لم تسكن مع شيخٍ مجرَّب كي يعلمك الرهبنةَ، فمِن أين تتعلمها؟ فلو انتقلتَ من مكانٍ إلى مكانٍ، أو انفردتَ وحدك، أو صرتَ أباً قبل أن تُستأهل لذلك من قِبل الله، فإنك تقيم كلَّ زمانِك وأنت لا تعرف كيف تحصد ثمر الفضيلةِ، بل تُضيِّع الزرعَ الذي هو تعليم طريق الله، فيجب عليك أن تسكنَ مع شيخٍ حتى تنال منه البركةَ الأخيرةَ، مثل أليشع الذي ثبتَ مع إيليا حتى رُفع إلى السماء، فلما باركه تضاعفت عليه روحُه، ومثل تلميذيْ أنطونيوس اللذين سكنا مع الشيخِ حتى طرحَ الجسدَ، وباركهما البركةَ الأخيرةَ فحل عليهما روحُ الله وصارا راعيين صالحين، ومثل يوحنا الذي سكن مع بمويه أبيه حتى فارق جسدَه، فسلَّمه للشيوخِ قائلا: هذا ملاك وليس بإنسانٍ، وكمثل يوحنا تلميذ أنبا بلا الذي أطاع أباه فأحضر الضبعةَ مربوطةً، ومثل تلميذٍ آخر لشيخٍ حيث كان يمشي مع متوحدٍ حتى وصلا إلى شاطئ نهرٍ فيه تماسيح، فعبر التلميذُ المطيع بينها وما استطاع المتوحدُ العبورَ، حتى أن الشيوخ في ذلك الوقتِ قالوا: إن التلميذَ المطيع بطاعتِه صار أعلا من المتوحد. ومثل تلميذٍ آخر كان طائعاً لمقاريوس، هذا كان قد أرسله أبوه إلى مصر، لما وقع في تجربةٍ صرخ بصوتٍ عظيم قائلاً: يا إله أبي خلِّصني، فمن ساعتِه وجد نفسَه يمشي في طريق الإسقيط. وقد كُتب: ابذر وقتَ الصباحِ ولا تبطل زرعَك إلى وقتِ المساء، ومعناه: الصلاح الذي بدأت به داوم عليه إلى وقت وفاتك.

وانظر إلى الذين تركوا آباءهم ماذا أصابهم، فعيسو لما ترك والده واختلط بالأمم المرذولة رذله

الله، وجيحزي لما لم يُطع أليشع أصابه البرص، والتلاميذ الذين رجعوا إلى خلف وتركوا صحبة السيد أهلكوا ذواتهم، ويوحنا تلميذ الأب مقاريوس لما لم يُطع أباه تجذَّم. فها أنا قد أخبرتُك بطريقِ الحياةِ والموت، فإن دخلتَ من البابِ الضيق الذي هو طاعتك لأبيك أوصلك ذلك إلى الحياةِ الأبدية، وإن مشيتَ في الطريقِ الواسعةِ التي هي أهوية قلبك أدت بك إلى الهلاكِ».

فقلتُ له: «يا أبتاه، لقد أتى بعضُ الإخوةِ إلى أبي، ولستُ قادراً على السكنى معهم».

فقال لي: «لو كان فيك اتضاعٌ، لاستطعت السُكنى مع الوحوش، فكم بالحري مع الإخوةِ؟ واسمع قول داود النبي: ما أحسن وأجمل الإخوة إذا سكنوا معاً».

فقلتُ له: «إني أشاءُ أن أصيرَ شهيداً». فقال لي: «إن خالفتَ أباك فسوف تتعب ولن تصيرَ شهيداً، فقد حدث أنَّ شيخاً قال لتلميذِه في زمانِ الاضطهاد: يا بُني، إن كان لك اشتياقٌ أن تصيرَ شهيداً، فاذهب. أما الأخ فمع اشتياقِه إلى ذلك، إلا أنه لم يُطع هواه، ولم يمضِ، بل قال: لو صرتُ فوق رتبة الشهداء، فبَرَكَتُك لي كلَّ يومٍ هي أفضل يا أبي. فلما رأى الله إيمانَه في أبيه خاطبه بالصوتِ قائلاً: لأنك أطعتَ أباك، ها أنا أعطيك إكليلَ الشهداءِ، جاعلاً رتبتَك في مصافِ جماعةِ القديسين. أما الذين تركوا آباءَهم في الربِّ قائلين: إننا نتوحد ونصوم ونهرب من الناس، فانخدعوا بذلك للشيطان، ولم يصنعوا لا وحدةً ولا صوماً ولا هرباً من الناسِ، بل تنقلوا بين الأديرة والمدن والقرى، وزخرفوا ملابسهم، وفرح بهم الشيطانُ وهزأ بهم لأنهم قبلوا خداعه».

فقلتُ له: «لقد ربحتُ منك كثيراً يا أبي وأريدُ أن أسكنَ معك بقية حياتي». فقال لي: «أحيٌ أبوك بعد»؟ قلتُ: «نعم». فقال لي: «هذا عدم أدب، لأن من كان لا أب له فإني أقبله، أما أنت فلا، لئلا تصبح وقد أفسدتَ بنوّتك، وأكون أنا قد بلبلتُ قانونَ الرهبنةِ، فآباؤنا كانوا يحفظون ضميرَ بعضِهم بعضاً، وبغير طاعةٍ لم ينجح أحدٌ».

فقلت: «يا أبي ماذا أصنعُ حتى أكمِّل الطاعةَ»؟ قال: «اسمع، سمعتُ عن رجلين، أُعطي لكلٍ منهما سبعة فدادين قمح ليحصدها في يومٍ واحدٍ، فلما نظر أحدُهما الفدادين قال: مَن مِن الناسِ يقدرُ أن يحصدَ هذه كلها في يومٍ واحدٍ؟ وإذ قال ذلك مضى ولم يحصد شيئاً. أما الآخر فقال: عليَّ أن أعملَ بكل قوتي ولا أوقف الحصادَ. فمَن مِن الاثنين أرضى سيدَه»؟ قلتُ: «الذي عمل بكلِّ قوته طبعاً». قال لي: «إذن امضِ أنت واعمل بكل قوتك، وأنا أؤمن أنك

تُحسب مع الذين أكملوا الطاعةَ في الملكوتِ». ثم قال: «إن الخروفَ الثابت في الحظيرةِ محروسٌ، أما الذي يترك حظيرتَه ويذهب إلى قطيعٍ آخر فإنه يبقى وحشياً، ولن يسلم من ذئبٍ أو لصٍ، هكذا الراهب الذي يترك ديرَه، إذ يشبه أيضاً حماراً وكلٌّ من يجده يركبه، حتى إذا عُقر لن يوجد له صاحبٌ ثابتٌ يعتني به فيهلك من الجوع والتعب والجراح. هكذا تكون حالُ الراهبِ إذا ترك ديرَه وأباه وإخوته، وسكن عند آخرين، فإنهم يرسلونه إلى هنا وإلى هناك حتى يسقط في الزنى ويهلك ولا يجد من يُنهضه. فمن ذا يترك العناية بأولادِه ويهتم بأولادِ غيرِه»؟ ثم قال: «إن أبي قال لي: إن المفترقين يتعبدون كلٌّ واحدٍ بحسب هواه وإرادته، وأما الذي يطيع أباه من أجلِ المسيحِ فهو أفضل، إذ قطع مشيئَته لله».

فقلتُ له: «يا أبي، إن النجاسات التي يبذرها الشيطان فيَّ، سواء أكملتُها أم لم أكملها، فإن العدو لا يتركني أخبر أبي بها بسبب الاستحياءِ». فقال لي: «لا تُطع عدوَّك بل أخبر أباك بجميعها حتى بأحلام الليل، ولا تُخفِ عنه شيئاً من أفكارِك إن كنتَ مطيعاً له في كلِّ شيءٍ من أجلِ الله مؤمناً أنه يُحاسَب عنك لطاعتِك له، وأما ما تخفيه عنه فسوف تُحاسَب أنت عنه كله». فقلتُ له: «هل لي أن أعرفَ شيخاً آخر يطيبُ به قلبي بنجاساتي»؟ قال: «إذا توفي أبوك وعُين أخٌ آخر ليصير بعده أباً للإخوة، فاتبعه لأن روحَ أبيك قد تضاعف عليه مثل أليشع بعد مفارقة إيليا، ويشوع بعد موسى. فقد قال الآباءُ: لا تُخبر بجراحِك غيرَ أبيك الروحاني. وإن كان أبوك متوفي، ولم يُعَين للإخوة أبٌ، فاطلب لك أباً شيخاً قديساً كاملاً في أعمالِه قدام الله، وأظهر له جميعَ أمراضِك، فهو يصلي عليك فتُعافى، وهذا واحدٌ من ربوات، لأن الآباء قالوا: لا تُظهر خطاياك لكلِّ الناسِ، لئلا تُعثر كثيرين، وتؤذي الضعفاءَ وأخيراً تعثر بهم. وبالإجمال، فإن لم تضرهم ولم تتضرر بهم، فإنك لن تنتفعَ منهم، فتضطر إلى أن تتقدم لغيرِهم لتنتفع منهم وهكذا، ولكن كما كانت الأحكامُ الصغيرة تُرفع إلى الفهماءِ من شعب إسرائيل، فيحكمون فيها، والأحكام الكبيرة والمسائل الصعبة تُرفع إلى موسى فيحكم فيها، وما صَعُبَ عليه منها سأل الله في حكمهِ فيها، هكذا تصرَّف أنت، فالأمور الصغيرة أخبر بها الفهماء من الإخوة، والأمور الصعبة أخبر بها الأب، وما صَعُبَ عليه منها فهو يسترشد من الله فيها. واحذر أن تقول بقلةِ إيمانٍ كلمةً رديئةً في أبيك وإخوتك لكيلا يمنعك الله من دخول أرضِ الميعاد، وتُحرم من أكل ثمرتها

كما جرى مع شعب إسرائيل ومع موسى أبيهم ويشوع وكالب إخوتهم، وأُنذِر أنه لا يدخلُ أرضَ الميعادِ منهم إلا هذان اللذان أطاعا أباهما، أما الذين رجعوا بقلوبهم إلى مصر، فقد ماتوا كلُّهم في البريةِ. فاثبت أنت مع أبيك، مثل يشوع مع موسى، لتصير مثلَه نبياً صانعاً العجائب، وأباً لأمةٍ كثيرةٍ، ووارثاً لأرضِ الميعاد، متمتعاً بثمراتها أنت وبنوك. وقد قال الله: أكرم أباك وأمَّك ليطول عمرك ويُحسن إليك. وقال: من يقل كلمةً رديئةً في أبيه أو أمّه يهلك. فإذا كان هذا عن الأب الجسدي، فكم بالحري الروحي. فالذي يترك أباه ويسعى فيه، فهو يشبه يوداس الذي ترك معلِّمَه وأسلمه، كما أن الذي يهزأ بأبيه، فإنه يرث لعنة حام الذي ضحك على أبيه لما انكشف، ويُحرم من بركة سام ويافث اللذين ستراه.

قلتُ: «يا أبي، إن الشيطانَ يُتعب الرهبان أكثرَ من أهلِ العالمِ». قال: «نعم، مثل ملكٍ يريد أن يطردَ من مملكتهِ قوماً ويُدخل بدلاً منهم إليها، فلابد إذن أن يعادي الذين أخرجهم، أولئك الذين أبدلهم بهم، وأجلسهم على كراسيهم، ومهما قدروا على إتيانهِ من الشرِ بهم فعلوه، فالرهبان الآن يجاهدون في سبيلِ دخول هذه المملكةِ والجلوسِ على كراسيهم، فالشياطين إزاء ذلك يقاتلونهم بالأكثر. فيجب عليك يا بُني أن تطيع وتتضع للآباء الروحانيين، لئلا تسقط مثل الشياطين، فإنهم بالعظمةِ والمعصيةِ لأبي الأرواح، سقطوا وهلكوا».

قلتُ له: «يا أبي، لقد سمعتُ عن قومٍ أنهم يصومون يومين يومين وأربعةً أربعة، وستةً ستة، وتملأني الغيرةُ فأَودُّ لو أصومُ مثلهم». فقال لي: «الذي يصنع هكذا بغير مشورةٍ، فإن الشياطين يرفعونه بالأكثر، وهكذا يحطونه إلى أسفل سريعاً، فالذي يقوم بما يفوق قدرتهِ يقتل جسدَه، وحينئذ ينكسر كالقوس إذا زاد توتُّرها أكثر من حدِّها». قلتُ: «وماذا أصنعُ إن شتمني أخٌ»؟ فقال: «إن المشتومَ إذا احتمل، غُفرت له الخطيةُ التي شُتم بها وصارت على الشاتم، مثل أن يُقال: يا سارق، يا كذاب، فقد جرى ذلك مجرى الاعتراف، فالمشتوم لما أُظهرت خطيئته وسكت واحتمل، فقد اعتُبر كأنه أقرَّ بها ودين عليها، أما الذي شتمه، فقد تحمل وزرها لكونه دان أخاه بذكرها، مع أنه قد أُمر بأن يُظهر خطايا نفسِه، ولكنه بالعكس أَظهر خطايا غيره، وقد قيل: إنه من الجهالةِ أن يهتمَ الإنسانُ بمرضِ غيرهِ، ويترك الاهتمامَ بمرضِ نفسهِ، أو يترك ميته ويمضي ليبكي على ميت غيره، كما أنه من أعظم الجهالات أن يغفلَ الإنسانُ عن خطيئته،

ويذكر خطيئة أخيه».

من تعاليم القديس برصنوفيوس

ليكن الأخُ الذي يقيمُ معك مثلَ ابنٍ وتلميذٍ، وإن هو أخطأ وأفسدَ شيئاً فعظه واكشف له خطأه لكي ما يرجع عنه، وإن هو كتجربةٍ نيَّح آخرَ أكثرَ منك، فلا تحزن، فلعل الله أراد ذلك. فاصطبر لكلِّ محنةٍ لأنه بالصبرِ على الأحزانِ نقتني أنفسَنا، وبالأحزانِ نشارك يسوعَ في أوجاعِهِ، وإذا شاركناه في أوجاعِهِ، فإننا نشاركه في مجدِه. كذلك عظ ابنَك بخوفِ الله، صافحاً عن خطايا أخيك، ألا تعلم أنه إنسانٌ تحت التجارب، والله يعطيكما طقسَ السلامةِ بخوفهِ. اعلم أن الشيطان يريدُ أن يبلبلك بالغضبِ بسببِ الأخِ الذي معك قائلاً لك: «إذا كلَّمتَه مرةً ومرتين فاتركه يعمل حسبَ هواه وكن بلا همٍ كما قال الآباء». فاعلم أن هذا الفكرَ ليس بحسبِ مشيئةِ الله، لأن ما تجمعه وتستزيده في أيامٍ كثيرةٍ، تفرغ الكيسُ منه في لحظةٍ واحدةٍ فتبقى مفلساً. أما طولُ الروحِ الذي بحسب مشيئةِ الله، فهو بالصبرِ إلى التمامِ بدون قلقٍ، وأما طولُ الروحِ الكاذب الذي أصابك من خداعِ الشيطانِ، الذي يولِّد للأخِ سجساً وغضباً، فإنه يصيب قليلي الرأي. وهذا ما أقوله لك، فإذا علمتَ أنك مع تلميذِك مثلُ الأبِ مع ابنِه، فبدلاً من أن تلكز نيَّة الأخِ دفعةً واحدةً كلَّ يومٍ وتُعرِّفه خطأه كما هو واجبٌ عليك، نراك وقد صيَّرته بسكوتِك لا يعلم غَلَطَه، وبعد أن تطيلَ روحَك عليه أياماً كثيرةً، إذا بك تلكزه لكزةً واحدةً في موضعٍ يصيبُ منه مقتلاً، فتنزع روحَه منه. فاعلم يا أخي أنك مخدوعٌ، إذ تقول إن خطايا الأخ كائنةٌ حقاً، فقل لي: إذا كنتَ تعلم باستقصاءٍ أن خطاياه حقٌ، فهل وصفتَ له العلاج ليصِحَّ منها؟ أليس هذا من الإعجابِ والكبرياءِ؟ وأيضاً بشأنِ أيِّ الخطايا قال الربُّ: إن لم تتركوا للناسِ خطاياهم، لا يترك لكم أبوكم خطاياكم. أليس بشأنِ الخطايا الحقانية؟ فكيف تدين أنت أخاك من أجلِ ما لا صحة له، فأنت بذلك تُلقي نفسَك في أشدِّ العذاب. لأنك إذا طالبتَ أخاك هكذا، طالبَك الله بشأنِ خطاياك، فأما المكتوب فهو: لا تدع الشمسَ تغرُب على غيظِكم، واحملوا ثِقلَ بعضِكم بعضاً. وكيف يخدمك الأخ؟ أليس في شأنِ الله؟ فإذا قرعت فكرَه، فأمسك أنت لفكرِك، ولا

تحسب نفسَك شيئاً وأنت تتنيح، وقاتل الأفكار التي تجلب لك السجسَ وأنت تُعان.

سؤال: «إني قد وعظتُ الأخَ بحبِّ الله، وقد تسجستُ بسببِ كونهِ لم يقبل مني، فماذا أفعل»؟

الجواب: «أنت لا تفهم ما تقول، فإن كنتَ من أجلِ الله وعظتَه فكيف تسجَّستَ؟ لأن العظةَ من أجلِ اللهِ لا تدع الإنسانَ يتسجس، حتى ولو وقع الموعوظُ في الواعظِ لاحتمل ثقلَه ولم يتسجس، وإنما كلُّ عظةٍ تدع السجس يدخلُ في قلبِ الإنسانِ فهي ليست في ذاتِ الله، لكنها شيطانيةٌ، مختلطةٌ بتزكيةِ الذاتِ. فقد بان إذن أن الأمرَ تجربةٌ، ولكن اللهَ يُبطلها عنكما ويمنحكما معرفةً لتفهما حيلَ العدو، وينجيكما منه، فصليا من أجلي».

سؤال: «يا أبي، إن الأخ يحتقرني جداً، وأحبُّ أن أُبدِّله بتلميذٍ آخر، أو أبقى وحدي، لأن فكري يقول لي: لو كنتَ وحدك ما كنت تحزن».

الجواب: «لا يجب أن تقبل تزكيةَ نفسِك، ولا تقل: لو كنتُ وحدي ما كنتُ أحزن، لأنه لا يكون خلاصٌ بدونِ أحزان، لأنك بقولِك هذا تُبطل الكتابَ القائل: كثيرةٌ هي أحزان الصديقين ومن جميعِها ينجيهم الربُّ. وأيضاً: كثيرةٌ هي جلدات الخطاة. فإن كنتَ صدِّيقاً أو كنتَ خاطئاً، فواجبٌ عليك قبول الأحزان، وليست هناك أشياء يتساوى الأمر في فائدتِها مثلَ الأحزان، لأن الأحزانَ هي مقدمة الخلاص، لأن الرسولَ يقول: إننا بأحزانٍ كثيرةٍ ندخل ملكوت السموات. فالذي يطلبُ النياحَ في كلِّ شيءٍ ليسمع: إنك قد أخذتَ خيراتك في حياتِك. فإن كان ربنا قد صبر من أجلِنا على الأوجاعِ، فواجبٌ علينا أن نصبرَ على الأحزانِ لنكونَ شركاءَه في آلامِهِ المحيية. أما بخصوص استبدال تلميذك بتلميذٍ آخر، فالأمر واحدٌ، لأنك إذا اتخذتَ آخر، وصادفك منه ما يحزنك، فماذا عملتَ؟ فيجب عليك إذن احتمال التلميذ الذي لك، وسياسته، ويلزمه هو القبول منك، على أن تحتمل أنت ثقله بخوفِ الله».

من أجلِ العملِ الداخلي، قال: «العملُ الداخل هو وجعُ القلبِ الذي يجلبُ الطهارةَ، والطهارةُ تلد سكوتَ القلبِ الحقاني، وهذا السكوتُ يلدُ التواضعَ، والتواضع يصيِّر الإنسانَ مسكناً لله. وهذه السكنى تطرد الأعداءَ الأشرارَ مع كافةِ الأوجاعِ الوسخةِ، وتحطم الشيطانَ رئيسَها، فيصير الإنسانُ هيكلاً لله طاهراً مقدساً مستنيراً فرحاً ممتلئاً من كلِّ رائحةٍ طيبةٍ وصلاحٍ

وسرورٍ، ويصبح الإنسانُ لابساً لله، نعم، ويصير إلهاً، لأنه قال: أنا قلتُ إنكم آلهةٌ، وبني العليِّ تُدعَون. وحينئذ تنفتح عينا قلبِهِ، وينظر النورَ الحقاني، ويفهم أن يقولَ: إني بالنعمةِ تخلصت بالرب يسوع المسيح. فالذي يريد أن يُرضي الله، فليقطع هواه لأخيه ومعلمِه، لأنه إذا فعل ذلك فهو يجد نياحاً بالربِ».

سؤال: «كيف أعرف الفكرَ الذي من الله والفكرَ الذي من الطبيعةِ والفكرَ الذي من الشيطان»؟

الجواب: «إفراز هذه المسألة إنما يكون للذين قد بلغوا إلى التمامِ، لأنه إن لم تَطهُر العينُ الداخلةُ بالعرقِ والعناءِ الكثير، فلا تقدر أن تفرزَ، فاقطع هواكَ للهِ في كلِّ شيءٍ وقل: ليس كما أريدُ أنا، بل ليكن ما تريده أنت يا ربي وإلهي، وهو يعمل معك كهواه. فاسمع الآن فرزَ هذه الأفكارِ الثلاثةِ: إذا تحرَّك في قلبك فكرٌ في ذاتِ الله، ووجدتَ فرحاً، وحزناً يساوي هذا الفرح، فاعلم أن ذلك الفكرَ هو من اللهِ، فداوم فيه. فإن جاء عليك فكرٌ طبيعيٌ الذي هو الهوى الجَسَداني فادفعه، وأتمم القول القائل: أن تكفرَ بنفسِك، أي أنك تكفر بالمشيئات الطبيعية وتقطع هواك الجَسَداني. وأما أفكار الشيطان فتكون مبلبلِة وممتلئةً أحزاناً، وهي تجرُّ إلى الخلفِ، فكلُّ أمرٍ تفكر فيه وتحس في قلبك ببلبلةٍ ولو بمقدارِ شعرةٍ، فاعلم أن ذلك من الشياطين واعلم أن ضوءَ الشياطين آخره ظلمةٌ».

وقال أيضاً: «الذين يريدون أن يسلكوا طريقاً ما، فإن لم يمشوا مع من يُريهم الطريقَ من أولِها إلى آخرها، فلن يستطيعوا بلوغَ المدينةِ، فإن لم يترك التلميذُ هواه خلفَه ويخضع في كلِّ شيءٍ ويتضع، فلن يبلغَ مدينةَ السلامِ».

سؤال: «ما هو الاتضاع»؟

الجواب: «الاتضاع هو أن يحسبَ الإنسانُ نفسَه تراباً ورماداً، ويقول: أنا من أنا، ومن يحسبني أنا شيئاً، ومالي أنا مع الناسِ، لأني عاجزٌ. ولا يقول عن أمرٍ: ماذا؟ أو ماذا يكون هذا؟ ويكون ماشياً بخضوعٍ كثيرٍ في طرقِهِ، ولا يساوي نفسَه بغيرِه، وإذا اُحتقر ورُذل لا يغضب».

سؤال: «أخبرني يا أبي كيف يقتني الإنسانُ الاتضاعَ الكاملَ والصلاةَ الحقانية»؟

الجواب: أمّا كيف يقتني الإنسانُ الاتضاعَ الكاملَ، فالربُ قد علَّمنا ذلك بقولِه: «تعلَّموا مني فإني وديعٌ ومتواضعُ القلبِ، فستجدوا راحةً لنفوسِكم». إن كنتَ تريدَ أن تقتني الاتضاعَ فافهم ماذا عَمِلَ وتأمَّل صبرَه، واصبِّر مثلَه، واقطع هواكَ لكلِّ أحدٍ، لأنه قال: «إني ما نزلتُ من السماءِ لأعمل مشيئتي، بل مشيئةَ مَن أرسلني». هذا هو الاتضاعُ الكامل، أن نحتملَ الشتيمةَ والعارَ وكلَّ شيءٍ أصاب مُعلِّمَ الفضيلةِ ربنا يسوع المسيح. وأما الصلاةُ الحقانية فهي أن يكونَ الإنسانُ مخاطباً للهِ بلا طياشةٍ، ناظراً إليه بجملتِه وأفكارِه وحواسِه والذي يسوقُ الإنسانَ إلى ذلك، هو أن يموتَ من كلِّ إنسانٍ، ومن العالمِ وكلِّ ما فيه، ويُصوِّر في عقلِه أنه قائمٌ قدام الله وإياه يُكلِّم. وهكذا يكون قد انفلتَ من الطياشةِ وانعتق منها وصار عقلُه فرحاً مضيئاً بالربِّ. وعلامته إذا وصل إلى الصلاةِ الكاملةِ، فإنه لا يتسجس البتة، ولو سجَّسه كلُّ العالمِ، لأن المصلي بالكمالِ، قد مات من العالمِ ونياحِه كلِّه، وكلُّ شيءٍ يعمله من أمورِه يكون فيه بلا طياشةٍ.

سؤال: «كيف أقدر أن أُمسكَ بطني وأن آكلَ دون حاجتي، لأني لا أستطيعُ صبراً»؟

الجواب: ليس أحدٌ يفلِتُ من هذا الأمرِ، إلا الذي بلغ إلى مقدارِ ذلك الذي قال: «إني نَسيْتُ أكْلَ خبزي من صوتِ تنهدي، وقد لَصِقَ لحمي بعظمي». فمَن كانت حالهُ هكذا، فإنه يأتي بسرعةٍ إلى قلةِ الطعامِ لأن دموعَه تصيرُ له مثلَ الخبزِ، ويبدأ إذ ذاك يتغذى من نعمةِ الروحِ القدس. صدقني يا أخي، إني أعرفُ إنساناً يعلم الربُّ أنه قد بلغ إلى هذا المقدارِ الذي ذكرتُ، حتى أنه كان لا يأكل في كلِّ أسبوعٍ مرةً أو مرتين، وكان مراراً كثيرةً يُسبى في النظرِ الروحاني، ومن حلاوةِ ذلك كان ينسى أكْلَ الطعامِ المحسوس، وكان إذا أراد أن يأكلَ يشعر كأنه شبعانٌ، ولا يجدُ لذّةً للطعامِ، وكان يأكلُ بدونِ شهوةٍ، لأنه كان يشتهي أن يكونَ دائماً مع الله، وكان يقول: «أين نحن»؟

فقال الأخُ السائل: «أنا أطلبُ إليك يا أبي أن توضِّحَ لي قوةَ هذا الأمرِ، وكيف يصيرُ الإنسانُ إلى ما ذكرتَ، فإني أجهلُ ذلك، وإذا أنا بدأتُ أقلِّل طعامي، فما يدعني الضعفُ حتى أعودَ إلى المقدارِ الأولِ، وأنت قلتَ لي إن الذي يبلغُ إلى المقدارِ الذي قيل فيه: إن لحمي لصق بعظمي من صوتِ تنهدي، هذا يصير إلى قلةِ الطعام، فبيِّن لي هذا الأمرَ»؟

قال الشيخ: هذا هو التصاقُ اللحمِ بالعظمِ، أن تصيرَ جميعُ أعضاءِ الإنسانِ ملتصقةً، أي أن تكونَ أفكارُ الإنسانِ كلُّها فكراً واحداً بالله، عند ذلك يلتصق الجَسَداني ويصير روحانياً، ويلحق الجسدُ بالفكرِ الإلهي، وحينئذ يصيرُ الفرحُ الروحاني في القلبِ يُغذِّي النفسَ ويُشبعُ الجسدَ، ويقوى كلاهُما حتى لا يكون فيهما ضعفٌ ولا ملل، لأن ربَنا يسوعَ المسيح إذ ذاك يكون الوسيطَ ويوقف الإنسانَ بالقربِ من الأبوابِ التي ليس داخلها حزنٌ ولا وجعٌ ولا تنهد. وحينئذ يتمُّ القولُ: «حيث يكون كنزُك، فهناك يكون عقلُك». فالذي يبلغُ إلى هذا المقدارِ فقد اقتنى الاتضاعَ الكاملَ بيسوعَ المسيحِ ربنا الذي له المجد إلى الأبد آمين.

من كلام القديس سمعان العمودي: «إذا كانت حُمَّى الجسدِ تمنعه من أن يعملَ أعمالَه الجَسَدَانية، كذلك مرضُ النفسِ بالخطيةِ يمنعها من ممارسةِ أعمالِ الحياةِ الروحانية، فالله يريدُ من النفسِ أن تحبَّه وتطلبه بحرصٍ، فإذا أحبَّته وطلبته بكلِّ قوَّتِها، فحينئذ يسكنُ فيها ويملك على أفكارِها فيهديها إلى ما يريدُ لها».

قال شيخٌ: «إنَّ الله يطالبُ الإنسانَ بثلاثةٍ: العقلَ، الكلامَ الروحاني، والعملَ به. المجدُ الباطل يتولَّد من ثلاثةٍ: طلب التعليم، وطلب الاتساع في الأشياءِ، وطلب الأخذ والعطاء. وثلاثةٌ تسبقُ كلَّ خطيةٍ: الغفلة، النسيان، والشهوة. حاملُ الأمواتِ يأخذُ الأجرةَ من الناسِ، وحاملُ الأحياءِ، أعني المحتمل، يأخذُ الأجرةَ من الله».

سأل أخٌ الأنبا بيمين قائلاً: «كيف ينبغي للراهبِ أن يجلسَ في قلايتهِ»؟ فقال له: «أما الظاهر من الجلوسِ في القلايةِ فهو أن تعملَ بيدِك، وتأكلَ مرةً واحدةً فقط كلَّ يومٍ، والهذيذ في الزبور وقراءة الكتب والتعليم، أما غيرُ الظاهرِ والسرِّي من الأمور فهو أن تلوم نفسَك في كلِّ أمرٍ تصنعه وحيثما توجهتَ، وفي ساعة صلاتك لا تتوانَ من جهةِ أفكارك، وإن أردتَ أن تقوم من عمل يديك إلى الصلاةِ، فقم وأكمل صلاتك بلا سجس، وتمام هذا كله أن تسكن مع جماعةٍ صالحةٍ، وتتباعد من جماعة السوء».

وقال له أخٌ: «إني خاطئ فماذا أعملُ»؟ فقال له: «مكتوبٌ: خطيئتي أمامي في كلِّ حينٍ، فأنا أهتمُّ بآثامي وأعترفُ بذنبي، فقلتُ أكشف خطيئتي أمامَ الربِّ وهو يغفرُ لي نفاقَ قلبي». وقال: «من يضبط فَمَه فإن أفكارَه تموت، كالجَرَّةِ التي يوجد فيها حياتٌ وعقارب وسُدَّ

فمها فإنها تموت».

وسُئل: «أيهما أصلحُ، الكلامُ أم الصمت»؟ فقال: «إن الصمتَ من أجلِ الله جيدٌ، كما أن الكلامَ من أجلِ اللهِ جيدٌ كذلك». وقال: «من يُكثر من الاختلاطِ بالناسِ، لا يمكنه أن ينجوَ من النميمةِ». وقال كذلك: «إن اللجاجةَ والحسدَ يتولَّدان من السُبحِ الباطل، لأن الإنسانَ الذي يطلبُ مجدَ الناسِ فإنه يناصبُ الذي يعملُ وينجحُ ويُمجَّد، ويحسده. والاتضاعُ هو دواءُ ذلك».

سُئل القديس باسيليوس: «كيف يكون حالُ من صَعُبَ عليه إتمام قانونِ التوبةِ»؟ فأجاب وقال: «حالُ ذاك يجب أن يكونَ كحالِ ابنٍ مريضٍ وفي شدةِ الموتِ بالنسبةِ لأبيه الخبير بصناعةِ الطبِّ والذي يرغب في مداواته، فلمعرفتِه بصعوبةِ وصفِ الأدويةِ والتعبِ الكثير في صناعتها، وبخبرةِ أبيه في الطبِ، ولأن قلبَه يطيبُ بمحبةِ أبيه له، ولرغبتهِ كذلك في الشفاء، فكلُّ هذه العوامل تجعله يرسخ لمداواته، فيمكّنه من نفسِه ليتداوى ويحيا، لذلك من يَصْعُب عليه قانون التوبةِ، فليترك الأمرَ بين يدي معلمهِ».

وسُئل أيضاً: «كيف ينبغي للإنسانِ أن ينتهرَ»؟ قال: «كما ينتهرُ الأبُ ابنَه، وكالطبيبِ الذي يقصد شفاءَ المريض».

كما سُئل: «كيف يجب أن يُقبل الانتهار»؟ فقال: «كما يَقبل الولدُ تأديبَ والدِهِ، والمريضُ مداواةَ طبيبهِ».

وسُئل كذلك: «كيف ينبغي للإنسان أن يحبَّ قريبَه»؟ فقال: «كالمكتوبِ: تحب قريبَك مثلَ نفسِك، وأيضاً ما من حبٍ أعظمُ من هذا أن يبذلَ الإنسانُ نفسَه عن أحبائِهِ».

وأيضاً سُئل هكذا: «ما هي الكلمةُ البطالة التي نعطي عنها جواباً»؟ فقال: «هي تلك التي ليست للبنيان، كقول الرسولِ: كلُّ كلمةٍ قبيحةٍ لا تخرجُ من أفواهكم، بل الكلمةُ الصالحةُ التي تكون للبنيان، وتُعطي نعمةً للذين يسمعونها».

وقال أيضاً: «إن الصومَ الحقيقي هو سجنُ الرذائل، أعني ضبطَ اللسانِ، وإمساكَ الغضبِ، وقهرَ الشهواتِ الدنسة. الذي يُصالح نفسَه خيرٌ من الذي يُصالح الغضوبين، والذي يُدبِّر نفسَه

خيرٌ من الذي يُدبِّر غيرَه. ابتداءُ المحبةِ حُسنُ الثناءِ، وابتداءُ البُغضةِ الوقيعةُ. عوِّد جسدَك طاعةَ نفسِك، ونفسَك طاعةَ اللهِ. ما لا ينبغي أن تفعله لا تفكر فيه ولا تذكره. إن أردتَ أن تكونَ معروفاً عندَ الله، فاحرص ألا تكون معروفاً عندَ الناسِ. عاتب نفسَك فهذا أفضلُ من أن تعاتبَ غيرَك. ابتعد من نظرٍ وسماعٍ ما لا يفيد، فتتخلص من فِعلِ ما لا يفيد. جيدٌ ألا تخطئَ، وإن أخطأتَ فجيدٌ ألا تؤخرَ التوبةَ، وإن تُبتَ فجيدٌ أن لا تعاودَ الخطيةَ، وإذا لم تعاودها فجيدٌ أن تعرفَ أن ذلك بمعونةِ اللهِ، وإذا عرفتَ ذلك فجيدٌ أن تشكرَه على نعمتِهِ وتلازمَ سؤاله في إدامة معونته. إن كان ليس بجيدٍ أن تستشهد بإنسانٍ شريفٍ على أمرٍ حقيرٍ، فكم بالحري الله تعالى. علامةُ الخوفِ من الله، الهربُ من العيوبِ الصغارِ، حذراً من الوقوعِ في الذنوبِ الكبارِ. علامةُ مَن غلبَ الشيطانَ أن يحتملَ شرَّ أخيه ولا يدينه. علامةُ الخلوةِ مع الله هي الابتعادُ من القلقِ، والبغضةُ لسيرةِ العالم. علامةُ التكبرِ قنوعُ الإنسانِ برأي نفسه. عمومُ الناسِ يظنون أن الله في الهياكلِ فقط، فيحسّنون سيرتَهم فيها فقط، وذوو المعرفةِ يعلمون أن اللهَ في كلِّ موضعٍ، فينبغي أن يحسِّنوا سيرتَهم في كلِّ موضعٍ. كما أن الجسديين لا يقدرون أن يَغضبوا بحضرةِ الملك، كذلك الذين يتدبرون بالروحانيةِ يمنعهم من الغضبِ الخوفُ من اللهِ الملك المعقول الناظر إليهم دائماً. الحكيمُ لا يتقي غيرَ المخوفِ، ولا يرجو غيرَ المدرَكِ، ولذلك لا يخافُ الآلام ولا يرجو دوام اللّذات العالمية، لأنها سريعةُ الزوالِ، فإذ لا يخاف هذه الآلام احتملها، وإذ لا يرجو هذه اللّذات فلا يطلبها».

قال شيخٌ: «إذا قوتِلَ راهبٌ بالزنى وحفظ بطنَه ولسانَه وغربتَه، فلي إيمانٌ أنه لا يسقط بمعونةِ اللهِ».

قال أخٌ لشيخٍ: «لستُ قادراً على إتمامِ الطاعة الكاملة». فقال له: «اعمل بقدرِ قوتِك، وأنا أؤمن أن اللهَ يحسبك مع من يُكمِلِ الطاعةَ». وقد قال: «لا تختنق إذا سقطتَ، بل انهض وتُب. فقد قال سليمان الحكيم: إنَّ الصديقَ إذا سقطَ سبعَ مراتٍ في اليومِ فهو يقوم سبعَ مراتٍ».

قال شيخٌ: «إذا شتَمَ الراهبُ أخاه بذكرِ شيءٍ من الخطأِ مثل أن يقول: يا زانٍ، يا سارق، ويا كذاب، فإن سَكتَ المشتوم وغفر للشاتم وقال في نفسِه: بالحقيقة إني خاطئ؛ فإن تلك

الخطية التي شُتم بذِكرها والتي أشار إليها بقولِهِ: بالحقيقةِ إني خاطئٌ، تُغفر له، وتصبح على الشاتم له بذِكرها، لأنه ترك الاعترافَ بخطيئتِهِ وأظهر خطيةَ أخيه، ولكون المشتوم احتمل إشهار خطيئتِهِ فحُسب له اعترافاً، ولكونه غفر لأخيه نال المغفرةَ».

ثلاثةٌ من الرهبانِ تآخوا في الربِ، فاختار أحدُهم الصلحَ بين الناسِ كقولِ الربِّ: «طوبى لصانعي السلام فإنهم بني الله يُدعَوْن». واختار الآخرُ خدمةَ المرضى وتعاهدهم كقوله: «كنتُ مريضاً فتعهدتموني». أما الأخير فقد اختار لنفسِه الوحدةَ ليتفرغَ لخدمةِ الربِّ وحده والصلاةِ كلَّ حينٍ كقولِ الرسول. فأما الأول فإنه ضجر من خصومةِ الناسِ ولم يقدر أن يرضيهم كلَّهم، فلما تعب مضى إلى صاحبِهِ الذي يفتقدُ المرضى فوجده قد ضجر هو الآخر مما هو فيه، فقاما معاً وأتيا إلى المتوحدِ، وأعلماه بحالِهما واستخبراه عن حالِهِ، فسكت قليلاً، ثم سكب ماءً في إناءٍ وقال لهما: «تأمَّلا هذا الماء»، فتأمَّلاه مضطرباً ولم ينظرا فيه شيئاً. وبعد أن سكن الماءُ قال لهما: «انظرا الآن». فنظرا، وإذا الماءُ يريهما وجهيهما مثل المرآةِ. فقال لهما: «هكذا تكون حالُ من يكون بين الناسِ، فإنه لأجل اضطرابهم لا يمكنه أن ينظرَ ما فيه، أما إذا انفرد ولا سيما في بريةٍ، فحينئذ يرى نقائصَه».

قيل إن شيخاً كان يأكلُ أثناءِ تأدية عمله، فسُئل عن ذلك فقال: «إني لا أؤثر أن أجعلَ الطعامَ عملاً يُتفرغ له، حتى لا تحس نفسي بتلذذ في الطعامِ». وهو قال: «ليس شيءٌ يغسلُ دنسَ الزنى مثل دموعِ التوبةِ، لأن الزنى يخرج من الجسد والقلب، وكذلك الدموع تخرج من الجسد والقلب».

قال شيخٌ: «يجبُ أن نحاسبَ نفوسَنا كلَّ يومٍ ونفتقد حياتنا بالتوبةِ».

وقال أيضاً: يجبُ أن نشكرَ الله على الأوجاعِ الجسمانية، فإن الرسولَ يقول: «إذا ما فسد إنسانُنا الخارجي، فإن الداخلي يتجدد يوماً فيوماً». فلن نشاركَ المسيحَ في مجدِهِ إلا إذا شاركناه في أوجاعِهِ، ولا نقدر أن نشاركه في أوجاعِهِ، إلا بالصبرِ على الشدائدِ. الشكرُ في الشدةِ يعينُ على الخلاصِ منها. ينبغي ألا نرغب في نياح هذا العالمِ لئلا يُقال لنا: «قد أخذتَ خيراتك في حياتك». لا تظن أنك أكملتَ شيئاً من الخيرِ، فيُحفَظ لك أجرُ برِّك. لا تحسب نفسك أنك شيءٌ، فتكون أفكارُك هادئةً. إن الشياطين يخفون شرَهم وراءهم، ونورُهم آخره ظلامٌ، فلا تعمل

شيئاً بغير مشورةِ الآباءِ العارفين بقتالهم. الزم الصلاةَ في التجارب، فإن الربَّ قد قال: «الله ينتقم لعبيدهِ الصارخين إليه». ينبغي للمجاهدِ أن يبتعدَ عن كلِّ امتلاءٍ، ولو من الخبزِ والماء، وأن يجمعَ عقلَه في صلاتِه، ليكمل قربانَه الروحاني، ويتذكر خطاياه دائماً ويحزن عليها، وليكن كلَّ ما يعمله ويقوله من أجلِ مرضاة الله لا من أجلِ مجدِ الناس، وأن يفحصَ تدبيرَه دائماً، لكي لا تكون سكناه في البريةِ على غيرِ مذهب الرهبنة، فإنه قد سكن البريةَ كثيرٌ من اللصوصِ وهي مأوى للوحوشِ والطيورِ المؤذية، أما الراهب فإنه يسكنها هرباً من سجسِ العالم الذي يشغل عن عبادةِ الله التامة، كما ينبغي أن يصبرَ على البلايا ويكلِّف نفسَه في كلِّ شيءٍ، وأن يقدِّم حبَّ الله على حبِّ القريب، وحبَّ القريبِ على حبِّ نفسه، وحبَّ نفسه على حبِّ كلِّ ما سواها، وليكن له إيمانٌ قويٌ بالله ورجاءٌ واتضاع وإمساكٌ وصمتٌ وصلاةٌ دائمة وتهاونٌ بالأرضيات وتذكر الموت والمجازاة، وقراءة الكتب وتمييز كلِّ الأمور وحفظُ العقلِ والقلبِ، وطاعةٌ للآباء والوصايا من أجلِ الله.

قال أحدُ الإخوةِ لشيخٍ من الرهبان: «يا أبي، إني أطلبُ إلى الشيوخِ فيكلموني فيما هو لخلاصِ نفسي، ولكني لستُ عاملاً بشيءٍ مما يقولون لي، فما الذي أنتفعُ به من هذا الأمر، وأنا ممتلئٌ من الوسخِ». وكان عند الشيخِ كوزان فارغان، فقال له الشيخُ: «أحضر أحدَ هذين الكوزين وصبّ فيه ماءً وخضخضه». فجعله الشيخُ يغسل الكوزَ مراتٍ كثيرةً ثم قال له: «ضعه عند الكوز الآخر». ففعل، وبعد ساعةٍ قال له: «أحضر الكوزين معاً، وانظر أيَّ الكوزين أنقى». فقال له الأخُ: «الذي صببنا فيه الماءَ أنقى». قال له الشيخُ: «كذلك تكون نفسُ من يسأل الشيوخَ ولا يعمل بما يقولونه، أنقى من نفسِ من لا يسأل ولا يعمل معاً».

قال شيخٌ: «ينبغي للمتوحدِ في قلايتهِ أن يكون له إفرازٌ ومعرفةٌ وحرصٌ وتيقظٌ، كما يكون ضابطاً لحواسهِ حافظاً لعقلِه، لا يفكر في إنسانٍ، ولا يَفْتُر في الصلاةِ والقراءةِ».

قال أحدُ الشيوخِ: «إن الإفرازَ الحقيقي، لا يكون إلا من الاتضاع، والاتضاع هو أن نكشف لآبائِنا أفكارَنا وأعمالَنا، ولا نثق برأينا، بل نستشير الشيوخَ المجرَّبين الذين نالوا نعمةَ الإفرازِ، ونعمل بكلِّ ما يشيرون به علينا، فالذي يكشفُ أفكارَه الرديئة لآبائهِ فإنها تخف عنه، وكما أن الحيةَ إذا خرجت من موضعٍ مظلمٍ إلى ضوءٍ تهرب بسرعةٍ، كذلك الأفكارُ الرديئةُ إذا

كُشفت تبطل من أجلِ فضيلةِ الاتضاع. وإذا كانت الصناعات التي نبصرها بعيوننا ونسمعها بآذاننا ونعملها بأيدينا، لا نقدر أن نمارسها بذواتنا إن لم نتعلمها أولاً من معلميها، أفليست إذن جهالةً وحماقةً ممن يريد أن يمارسَ الصناعةَ الروحانية غيرَ المرئية بغير معلمٍ؟، علماً بأنها أكثر خفاءً من جميعِ الصنائعِ، والغلط فيها أعظمُ خسارة من كلِّ ما عداها»؟

قال شيخٌ: «من اجتمع بإخوةٍ عمَّالين، فلو كان هو غيرَ عمَّالٍ فإن لم يتقدم إلى قدام، فلن يتأخر إلى وراء، كذلك من يجتمع بإخوةٍ متهاونين فلو كان عمَّالاً، فإن لم يخسر، فلن يربح. الساقطُ فلينهض لئلا يهلك، والقائمُ فليتحفظ لئلا يسقط».

وقال آخر: «إذا مشيْتَ مع رفيقٍ صالحٍ من قلايتك إلى الكنيسة، فإنه يقدِّمك ستة أشهر، وإذا مشيتَ مع رفيقٍ رديء من قلايتك إلى الكنيسة فهو يؤخرك سنةً».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «يا أبي، لماذا لا يثبت جيلُنا هذا في أتعابِ الآباء الأولين»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «لأنه لا يحبُّ الله ولا يفرُّ من الناسِ ولا يبغض قشاش العالم، إن كلَّ شخصٍ يفرُّ من الناسِ ومن المقتنيات فإن تعبَ الرهبنةِ يأتيه قبلَ سِنهِ، فكمثل إنسانٍ يريدُ أن يطفئ ناراً قد اشتعلت في بقعةٍ، فما لم يسبق ويبعد القشَّ من قدام النار، لا يمكنه إطفاءَها، كذلك الإنسان، إن لم يذهب إلى موضعٍ لا يجد فيه الخبزَ والماءَ إلا بشدةٍ، فلا يستطيع أن يقتني تعبَ الرهبنةِ، لأن النفسَ ما لم تبصر فلا تشتهي سريعاً».

قيل إن أحدَ الآباءِ كان يجلسُ في البراري البعيدة ويسكت، وفي يومٍ من الأيامِ سأله تلميذُه قائلاً: «لماذا يا أبي تفرُّ هارباً في البراري البعيدة، مع أني أسمعُ أن الناسَ تقولُ إن الذي يسكن بقربِ العالمِ ويقاتل أفكارَه من أجلِ اللهِ، يصير أكثرَ أجراً»؟ أجابه الشيخُ: «إن الذي ينتفع من قربِهِ للعالمِ فهو ذاك الإنسان الذي يصل إلى أن ينظرَ مناظرَ موسى النبي ويصير ابناً لله، أما أنا فإني ابن آدم، وأنا مثل آدم أبي الذي بمجرد أن أبصرَ ثمرةَ الخطيةِ اشتهاها فأخذ وأكل منها ومات. من أجل ذلك كان آباؤنا يهربون إلى البراري، وهناك كانوا يقتلون شهوةَ البطنِ لعدم الأطعمة، إذ كانوا لا يجدون هناك الأشياءَ التي تلد الأوجاعَ كلَّها».

وقال أيضاً: «إن كلَّ إنسانٍ يُسلِّم نفسَه لشدةٍ بهواه من أجلِ الله فلي إيمانٌ أن الله يحسبه مع الشهداءِ، وذلك البكاء الذي يأتيه في تلك الشدةِ يحسبه الله عوضَ الدمِ».

قال شيخٌ: «من لا يقتني تعبَ الرهبنةِ فلن يقتني فضائلها، ومن لا يقتني فضائلها فلن يقتني مواهبها».

قال القديس أنطونيوس: «إن أفضلَ ما يقتنيه الإنسانُ هو أن يُقرَّ بخطاياه قدام الله ويلوم نفسَه، وأن يكون متأنياً لكلِّ بليةٍ تأتيه حتى آخر نسمةٍ من حياتِه».

قال شيخٌ: «يجبُ على الراهبِ في كلِّ بُكرةٍ وعشية أن يحاسبَ نفسَه ويقول: ماذا عملنا مما يحبُّه الله؟ وماذا عملنا مما لا يحبُّه الله؟ لأنه يجب علينا أن نفتقدَ حياتَنا بالتوبةِ هكذا، وبهذه السيرةِ عاش أرسانيوس، لأن من عمل كثيراً ولم يحفظه، أتلفه، ومن يعمل قليلاً ويحفظه، يبقى معه.

وقال أيضاً: «من أجلِ هذا لسنا نفلحُ، لأننا لا نعرفُ أقدارنا، وليس لنا صبرٌ في عملٍ نبدأ به، ولكننا نريد أن نقتني الفضائلَ بلا تعبٍ».

وقال شيخٌ: «إذا حلَّت بليةٌ بإنسانٍ فإن الأحزانَ تحيطُ به من كلِّ ناحيةٍ لكي ما تُضجره وتزعجه، وبيان ذلك في أنه كان أخٌ في القلالي، هذا جاءت عليه بليةٌ لدرجةِ أنه إذا أبصرَه أحدٌ ما، فكان لا يسلِّم عليه ولا يُدخله قلايته، وإن احتاج إلى خبزٍ، ما كان أحدٌ يُقرضه، وإذا جاء من الحصادِ، ما كان أحدٌ يدعوه للكنيسةِ لأجل المحبةِ كالمعتاد. وحدث أن جاء مرةً من ذلك الحصاد فلم يجد في قلايته خبزاً، ومع ذلك كلِّه، كان يشكر الله على ما يأتي عليه من الأحزانِ. فلما أبصر الله صبرَه رفع عنه قتال البليةِ، وإذا إنسانٌ قد جاء فضرب بابَ قلايتِهِ ومعه جملٌ موثقٌ خبزاً جاءه من مصرَ، فبدأ الأخ يبكي ويحزن ويقول: يا ربُّ، ما أنا بأهلٍ أن تتركني أحزنُ قليلاً، لكني يا ربُّ أنا مستوجبٌ لذلك، ولستُ أهلاً لشيءٍ من النياحِ، فلما جازت عنه تلك البليةِ، صار الإخوةُ يأخذونه وينيحونه في قلاليهم وفي الكنيسة».

قال شيخٌ: «إن الراهبَ يُدعى راهباً من جهتين: الأولى: أن يبتعدَ من مناظرِ النساءِ، ويرفض العالمَ وكلَّ ما فيه ولا يهتم بشيءٍ البتة. والثانية، أن ينقي عقلَه من الآلام ويتحد بالربِّ وحده، وحينئذ يثمر ثمرَ الروحِ الذي هو الحب والفرح والسلامة والخيرية، وطول الروح والإيمان والود والوداعة والإمساك، ومن كان هكذا فلن يوجد له ناموسٌ يقاومه. وبقدر ما تكون همةُ الإنسانِ ملازمةً لله بلا طياشةٍ، بقدر ما تكون نعمةُ اللهِ متضاعفةً عليه، وبقدر ما نتقرَّب إليه

بقدر ما يهتم هو بنا، وبقدر ما نبتعد عنه بهمتنا بقدر ذلك يبتعد هو منا، لأنه جعل الاختيارَ لنا في ذلك، إذ خلق نفسَ الإنسانِ على صورتِهِ، فهي بطبعها تحبُّه وتشتاقُ إليه، وهي روحانية، فهي تشتاقُ إلى الأمورِ الروحانية المناسبة لها، وأما الجسدُ فَخَلقَه من الأرض، فهو يحبُّ الأرضيات وإليها يميل بطبعِه، والشيطان بتحريك الشهوات الجَسَدَانية يجذبُ النفسَ إلى الأمورِ الأرضية. فينبغي للراهب أن يكون له إفراز، ويطلب من الله الهدايةَ والمعونةَ حتى لا ينخدع، ويعتمد عليه بإيمانٍ تام، لأنه بغير معونةٍ من الله لا يقدر أن يناصب الشيطانَ ولا يبعد منه الأفكارَ الرديئة. لكنه إذا سلَّم نفسَه لله ولازم الصلاةَ، فإن الله حينئذ يملك على نفسِه ويجعل فيه هواه، ويُكمِّل فيه وصاياه. فالذي يعلم أنه لا يقدر أن يعملَ شيئاً بغير الله، فلا يفتخر كأنه قد عمل شيئاً، لكنه يشكر الله الذي عمل فيه، والشيطان إذا رأى إنساناً مجاهداً، فإنه يُحرِّك عليه الأوجاع الخبيثة، وقد يُفسح الله له المجال في ذلك، حتى لا يتعظم بأنه جاهد، حتى يلتصق به بالصلاةِ الدائمة، فإذا هو عرف ضعفَه، فإن الله يُبطلها عنه، أعني الأوجاعَ الخبيثة، وتصير نفسُه في هدوءٍ وسلامٍ».

من أقوال سمعان العمودي: «كما أن الجسدَ إذا عَدِمَ أصغرَ أعضائه كان ذلك نُقصاناً له، هكذا النفسَ إذا عجزت عن ممارسةِ أصغرِ أجزاء الفضيلةِ، كان ذلك نقصاناً لها. وكما أن الإنسانَ إذا مشى كثيراً نحو المدينةِ ونقص سَيْرُهُ ميلاً واحداً، فقد أضاع كلَّ تعبهِ ولم يدخلها، كذلك الراهب إذا لم يجاهد إلى النفسِ الأخيرِ لا يدرك مدينةَ الأطهار. وكما أن الإنسانَ إذا عَدِمَ آلةً واحدةً لا يقدر أن يُكمِّل الصناعةَ اللازمة لها تلك الآلة، هكذا الراهب إذا عَدِمَ وصيةً واحدةً، لا يقدر أن يُكمِّل سيرته. فليس يكفيه أن يمنع جسدَه من الزنى فقط، بل وأن يضبطَ فكرَه ونظرَه وشهوةَ لسانهِ من الكذبِ والنميمة والشتم والتعيير والمداينة والمزاح والمماحكة، وبالإجمالِ من كلِّ كلامٍ بطَّال، كما ينبغي له أيضاً أن يُعلِّم أعضاءَه الخضوعَ لإرادةِ الله، وليست أعضاء بشريتهِ فقط، بل وأعضاء إنسانه الجواني كذلك. وكما أن الجسدَ يهلك بكلِّ واحدٍ من الوحوش النفاثة إذا ألقى فيه سمَّه، كذلك النفسَ تهلك بكلِّ واحدٍ من الأرواح الخبيثةِ إذا ألقى فيها فكرَه».

وقال أيضاً: «كما أن الخبزَ يُقيتُ الجسدَ ويحييه، كذلك الكلام الروحاني يُقيتُ النفسَ

ويحييها، وهو نورٌ للعينين ومرآةٌ للقديسين، يشفي من أمراضِ الخطية، وكلُّ من لا يعمل بكلام الناموسِ فقد احتقر واضعَ الناموسِ. وليس يكفي استماع الناموس والتكلم به من دونِ العمل بما قيل فيه. فكما نؤمن أنّ الله رحيمٌ، كذلك نؤمن أنه صادقٌ وأنه عادلٌ، ويجازي كلَّ واحدٍ كنحو عملِهِ، له المجد».

كما قال أيضاً: «لتكن أسماءُ الإخوةِ حُلوةً في فيك، ومناظرهم جميلةً محبوبةً في عينيك، وخدمتهم سهلةً ميسورةً في يديك، اعمل برغبةٍ واتضاع، وعلّم بلا حسدٍ ولا بُخلٍ، ولا تنحلَّ في الشدائد لتكون مُرضياً لله، عالماً أنه لو أراد لرفع عنك الشدةَ، وإذا لم يرفعها عنك، فإنما يريد نفعَك، فاشكر في كلِّ حالٍ. كما أن الذهبَ لا يمكن أن يُعمل منه إناءٌ مختارٌ للملك بدون سبكٍ وصياغةٍ، وكذلك الشمع لا يقبل الانطباع بالصورةِ الملكية بدون تليين، هكذا النفس لا تصلح لأن تُنقش فيها صورةُ المسيح الملك بدونِ أدبٍ كثيرٍ ظاهر وباطن، ورياضةٍ وافرة، ومحنٍ شديدةٍ».

قال شيخٌ: «كما أن الإنسانَ الذي ترك المملكةَ وترهب يُمدح من كلِّ العقلاءِ والفضلاءِ، لأن الرهبنةَ أفضلُ من كلِّ ما تركه، إذ هي توصِّل إلى المملكةِ السمائية الدائمة، كذلك إذا ترك إنسانٌ الرهبنةَ وصار ملكاً، فإنه يُذمُّ من كلِّ الفضلاءِ».

وقال أيضاً: «لقد كان الإنسانُ في البدءِ شبهَ الملائكةِ، فلما سقطَ صار شبهَ البهائمِ، لكن إذا كانت الطبيعةُ الإنسانية تسوقُ إلى الشهواتِ البهيميةِ، فإن الشريعةَ المسيحية تؤدي إلى الغاية الملائكية، لأن المسيحَ وعد الذين يعملون إرادتَه أنهم سيكونون مثل ملائكةِ الله. فاعلم يا أخي أنه ليس شيءٌ يُقرِّب إلى الله مثلَ الطهارةِ والاتضاع، ويمكن اقتناؤهما بالصومِ والصلاةِ والسهرِ والتعب، وإتمام الخيرات بقطع رأسِ الشرِّ الذي هو حب المقتنيات».

وقال شيخٌ: «كلُّ راهبٍ يجلس في قلايته ويدرس في مزاميرِه، فهو يشبه مَن يجري في طلب الملكِ، والذي يداوم في الصلاةِ فهو يشبه إنساناً يكلِّم الملكَ، وأما الذي يسأل ببكاءٍ فهو يشبه من هو ممسكٌ برجليْ الملك يطلب منه المغفرةَ».

قيل: سَمع أخٌ بأخبارِ القديسين فظن أنه يمكنه أن يقتني فضائلهم بلا تعبٍ، فسأل شيخاً كبيراً، فقال له: «إن أردتَ أن تقتني فضائلَ القديسين، فصيِّر نفسَك مثلَ صبيٍ يكتب كلَّ يومٍ

آيةً من معلمِه، فإذا حفظها كتب غيرَها، فافعل أنت كذلك هكذا: قاتل بطنَك في هذه السنةِ بالجوعِ، فإذا أحكمتَ ذلك، قاتل حينئذ السُبحَ الباطل لتبغضه كالعدوِ. وإذا قوَّمتَ هذين فاحرص على أن تزهد في أمورِ الدنيا وتطرح همَّك على الله، فإن تيقنتَ أنك قوَّمت هذه الثلاث خصال، فستلقى المسيحَ بدالةٍ كثيرةٍ».

سُئل شيخٌ من أحدِ الإخوةِ: «ما هي فلاحةُ النفسِ لتثمرَ»؟ فقال له: «السكوتُ والإمساك وتعبُ الجسد والصلاةُ الدائمة. وأن لا يجعل الإنسانُ بالَه من عيوبِ غيره، بل من عيوبهِ فقط، فمن دام في هذه الخصال، أثمر سريعاً».

قال شيخٌ: «لا تملأ بطنَك من الخبزِ والماءِ، ولا تشبع من نومِ الليلِ، فإن الجوعَ والسهرَ ينقيان أوساخَ القلبِ من الأفكارِ، والجسدَ من قتالِ النجاسةِ، فيسكنه الروح القدس. لا تقل: اليومَ عيدٌ، آكل وأشرب! فإن الرهبانَ ليس لهم عيدٌ على الأرضِ، وإنما فصحهم هو خروجهم من الشرِّ، وعنصرتهم تكميل وصايا المسيح، ومظالّهم حصولهم ملكوت السماوات. فأما الشبع من الخبزِ فإنما هو والد الخطيةِ. حصنُ الراهبِ هو الصوم، وسلاحُه هو الصلاة، فمَن ليس له صومٌ دائمٌ فلا يوجد له حصنٌ يمنع عنه العدو، ومن ليست له صلاةٌ نقية، فليس له سلاحٌ يقاتل به الأعداءَ. كلُّ من يجعل الموتَ مقابله كلَّ حين، فإنه يغلب الضجرَ وصغرَ النفسِ».

وقال أيضاً: «إذا تمسكت النفسُ فإنها تزداد قوةً على قوتها، كالجلود التي تُدبغ وتداس وتبيَّض وتجفف».

قال أنبا دانيال: «مادام الجسدُ يَنبُتُ، فبقدر ذلك تذبل النفسُ وتضعف، وكلما ذبل الجسد نبتت النفسُ».

طلب إخوةٌ إلى شيخٍ أن يترفَّقَ بنفسِه من كثرةِ الجهاد، فقال: «حقاً أقولُ لكم يا إخوتي: كان مصيرُ إبراهيم خليل الله أن يندمَ إذا رأى كثرة مواهب الله، وذلك إن لم يجاهد ويتعب أكثرَ مما فعل».

قال أخٌ لشيخٍ: «إن أفكاري تدور وتحزنني جداً». فقال له الشيخُ: «اجلس في قلايتك ولا تخرج منها، والأفكار تعودُ إليك، كمثل حمارةٍ مربوطةٍ وجحشُها يدورُ ثم يرجعُ إليها، هكذا من

يصبر في قلايتهِ من أجلِ الله، فإن دارت الأفكارُ فإنها ترجعُ إليه».

وقال أيضاً: «كما أن الغرسَ إذا قُلع من موضعٍ وغُرس في غيرهِ لا يثمر ما لم يثبت في موضعٍ واحدٍ، كذلك الراهب الذي ينتقل من ديرٍ إلى ديرٍ، لا يثمر ما دام متنقلاً».

كان أخٌ يقاتَل بأن يخرجَ من ديرِه، فذهب وأعلم رئيسَ الدير. فقال له الرئيسُ: «اذهب واجلس في قلايتك، وارهن جسدَكَ رهينةً لحائط القلاية، واترك الفكرَ يهيمُ حيثما يشاء، وأنت لا تبرح من القلايةِ قط».

وقال شيخٌ: «ينبغي للراهب أن يقاتل بجهادٍ كثيرٍ شيطانَ الضجر وصِغر النفسِ وبخاصة وقت الصلاةِ، فإذا قَوِيَ على هذا، فليحذر من شيطان الكبرياء، وليقل: إن لم يبنِ الربُّ البيتَ فباطلاً يتعب البناءون، وإن لم يحرس الربُ المدينةَ فباطلاً يسهر الحارسُ. كما يذكر كلامَ النبي: إن الله يعاند المستكبرين ويعطي المتواضعين النعمةَ».

رأى شيخٌ مغنيةً مزيَّنةً، فدمعت عيناه وتنهَّد، فسُئل عن السببِ، فقال: «لقد حرَّكني أمران؛ أحدهما إهلاك هذه المرأة لنفسِها، والآخر أنه ليس فيَّ من الحرصِ في سبيلِ إرضاءِ الله، بقدر حرص هذه في سبيلِ إرضاءِ الناس».

قال شيخٌ بخصوص لعازر المسكين: «إننا لم نجده عمل شيئاً من الفضيلةِ غير أنه لم يدمدم قط على ذلك الغني الذي لم يرحمه، كما كان شاكراً الله على ما كان فيه، فمن أجلِ هذا فقط رحمه الله».

وقع أخٌ في بليةٍ، ومع الحزنِ أتلف عملَ رهبانيتهِ، وإذا أراد أن يبدأ بالعملِ من الرأسِ، كان يستثقل ذلك ويقول: «متى أبلُغ إلى ما كنتُ فيه»؟ وكان يضجر، وتصغر نفسُه، فلا يقدر أن يبدأ بعملِ الرهبنةِ مرةً أخرى، وأخيراً ذهب إلى أحدِ الشيوخ وقصَّ عليه أمرَه، فلما رأى الشيخُ حزنَه، ضرب مثلاً قائلاً له: «كان إنسانٌ له بقيع، فمن توانيه امتلأ ذلك البقيع شوكاً، وإنه بعد ذلك انتبه، وأراد أن ينقي ذلك البقيع من الشوكِ، فقال لابنه: يا بُني، اذهب إلى البقيع ونقهِ واقلع شوكه. فلما ذهب ابنهُ وأبصر كثرةَ الشوكِ، سئم وملَّ، ونام. وبعد أيامٍ كثيرةٍ، أتاه أبوه لينظرَ ماذا عمل الغلام، فلما رآه لم يعمل شيئاً، قال له: حتى الآن لم تنقِّ شيئاً؟ فقال الغلامُ:

أخبرك يا أبتاه، كلما عزمتُ على البدءِ في العملِ، أبصر كثرةَ الشوكِ فأحزن، ومن كثرةِ الحزنِ كنتُ أضع رأسي وأنام. فقال أبوه: لا يكون الأمرُ هكذا يا ابني، ولكن نقِّ كلَّ يومٍ قدرَ مفرشك فقط، قليلاً قليلاً. ففعل الغلام كما أمره أبوه، وداوم على ذلك حتى فرغ الشوكُ من ذلك البقيع. وأنت كذلك يا حبيبي، ابدأ بالعمل شيئاً فشيئاً ولا تضجر، والله بطيبهِ ونعمتهِ يردُّك إلى سيرتك الأولى». فذهب ذلك الأخُ وعمل وصبر كما علَّمه الشيخُ فوجد نياحاً وأفلح.

قال شيخٌ: «احذر أن تصنعَ خطيةً بهواك، لئلا تعتادها فتصنعها بغير هواك، كالضحك».

وسُئل: «كيف أسكنُ في ديرٍ بغيرِ قلقٍ»؟ فقال: «ذلك بأن تَعُدَّ نفسَك غريباً، ولا تطلب أن يكون لك فيه كلمةٌ مسموعةٌ، كما تقطع هواك ولا تحسب نفسَك شيئاً».

كما سُئل عن الغربةِ، فقال: «هي الصمتُ، وترك الالتفاتِ إلى الأمورِ».

قال أخٌ لشيخٍ: «إني أرى فكري دائماً مع الله». فقال له: «الأعجب من هذا أن ترى نفسَك تحت جميعِ الخليقةِ، فلا سقوط مع الاتضاع».

وسُئل: «ما هو الاتضاع»؟ فقال: «أن تحسن إلى من أساء إليك، وتسكت في جميع الأمور».

قال أحدُ الشيوخِ: «إذا صرنا في السلامِ غيرَ مُقاتَلين فسبيلُنا أن نتضعَ كثيراً، لئلا نُدخل علينا فرحاً غريباً، فنفتخر وننسب ذلك إلى جهادِنا ونتعظَّم في أنفسِنا فيتركنا من عنايتهِ، ونُسلَّم إلى القتالِ فنسقط، لأن الله لأجلِ ضعفِنا، مراراً كثيرة يرفع عنا القتالَ».

سأل الأنبا آمون الأنبا بيمين عن الأفكارِ النجسةِ التي تتولد في قلبِ الإنسانِ والحسيات البطالة، فقال له: «هل يقطع الفأسُ بغير إنسانٍ يقطعُ به؟ فلا تحادث أنت هذه الأفكار وهي تبطل».

وسأله أيضاً أنبا إشعياء عن هذه المسألة فأجابه: «إن وضع إنسانٌ ثيابَ صوفٍ في صندوق ولم يتعاهدها، أكلتها العثة وهلكت، كذلك الأفكار إن لم تفعلها جسدانياً بطلت».

وأيضاً سأله أنبا يوسف بهذا الخصوص، فقال له: «كما أنه إذا دخلت حيةٌ أو عقربٌ في جرابٍ، فإن ربطتَّه ولم تدعها تدخل وتخرج فهي تموت مع طول الزمان، وإن تركته مفتوحاً فهي

تخرجُ وتؤذيك، كذلك الأفكار السوء التي تعرض لنا تبطل بالحراسة والصبرِ».

قال أخٌ لشيخٍ: «إن أصابني ثِقَلُ النومِ أو فاتني وقتُ صلاةٍ ثم انتبهتُ ولم تنبسط نفسي للصلاة حزناً، فماذا أعمل»؟ فقال له: «ولو نمتَ إلى الصباح فقم وأغلق بابك واعمل قانونك، فالنبي داود يقول مخاطباً الله: لك النهار ولك الليل، وإلهنا لكثرةِ جودِه ورحمتِه في أي وقتٍ دُعيَ أجاب».

قال شيخٌ: «الذي يأكلُ كثيراً ويقومُ عن المائدةِ وهو جائعٌ، أفضل من الذي يأكلُ قليلاً ويبطئ أمام المائدةِ حتى يشبعَ».

وقال آخر: «إذا رأيتَ شاباً يصعدُ إلى السماءِ بهواه، فَشِدْ رِجلَه واطرحه فإن هذا أنفع له».

كان أحدُ الرهبان المجاهدين إذا قالت له الشياطين في فكرِه: «ها قد ارتفعتَ وصرتَ كبيراً»، كان يتذكَّر ذنوبَه قائلاً: «ماذا أصنعُ من أجل خطاياي الكثيرة». وإذا قالوا له: «لقد فعلتَ ذنوباً كثيرةً وما بقي لك خلاصٌ»، يقول: «وأين رحمة الله الكثيرة». فانهزمت عنه الشياطين قائلين: «لقد قهرتنا، إن رفعناك اتضعتَ، وإن وضعناك ارتفعتَ».

أخبر أبٌ أنه أبصرَ أربع مراتب مرتفعةً في السماءِ، الأولى: مريضٌ شاكرٌ لله. والثانية: صحيحٌ يضيفُ الغرباء وينيح الضعفاء. والثالثة: منفردٌ في البريةِ مجتهدٌ. والرابعة: تلميذٌ ملازمٌ لطاعةِ أبيه من أجلِ الله. ووجد أن مرتبةَ التلميذ أسمى من المراتب الثلاث الأخرى، وزعم أنه سأل الذي أراه ذلك قائلاً: «كيف صار هذا هكذا وهو أصغرهم، فأصبح أكبرهم مرتبةً»؟ فقال: «إن كلَّ واحدٍ منهم يعمل الخيرَ بهواه، وأما هذا فقد قطع هواه لله، وأطاع معلمه، والطاعة لأجلِ اللهِ أفضل الفضائل».

قال شيخٌ لتلميذِه: «ويحٌ لي يا ابني، فإنني ربما إذا مضيْتُ بالليلِ إلى موضعٍ يُبعدني من اللهِ، وسمعتُ صوتَ الكلابِ، أخرج لساعتي فزعاً منها، فالخطأ الذي لا يردُّني عنه خوفُ اللهِ، ردَّني عنه خوفُ الكلابِ».

وقال أيضاً: «لو أننا نحبُّ اللهَ مثلما نحبُّ أصدقاءَنا، لكنا مغبوطين، لأنني رأيتُ مَن أحزن

صديقَه، فلم يجد هدوءاً حتى تجدَّدت المودةُ بينهم بالمراسلة وبالاعتذار وبالاستغفار وبالهدايا، أما الله فنغضبه بذنوبنا ولا نكترث لذلك».

قال شيخٌ: ذهبنا مع إخوةٍ إلى ديرٍ خارج الإسكندرية على بعد خمسة عشر ميلاً، فلقينا أنبا تودري، وقد كان رجلاً كثيرَ التعبِ في الرهبنةِ، ومعه موهبة الصبر، فحدثنا عن أخٍ كان ساكناً في القلالي الكائنة خارج الإسكندرية، وكان قد اقتنى له موهبة البكاء، وفي يومٍ من الأيامِ أوجعه قلبُه وجاءه بكاءٌ كثير، فلما رأى كثرةَ البكاءِ، قال لنفسِه: «هذه علامةٌ دالةٌ على أن يومَ موتي قد دنا»، فكان كلما تفكَّر في ذلك، كان البكاء يزداد ويكثر كلَّ يوم. فلما انتفعنا من حديثِ الشيخِ سألناه عن الدموع: «لأي سببٍ يا أبانا تأتي الدموع من نفسِها مرةً ولا تأتي من نفسِها مرةً أخرى»؟ فقال لنا الشيخُ: «الدموعُ مثل المطر، والراهبُ مثل الفلاح، فينبغي له إذا أبصر المطرَ قد جاء، أن يحرصَ ألا يفوته شيءٌ منه، بل يصرفه كلَّه إلى أرضهِ، حقاً أقول لكم يا بَنِيَّ إنه ربما يكون يومٌ واحدٌ ممطر أخيرَ من السنةِ كلِّها. فمن أجل ذلك، إذا رأينا المطرَ قد جاءنا، فلنحرص أن نحفظَ أنفسَنا ونتفرغ إلى التضرع إلى الله دائماً، إذ لا ندري هل نجد يوماً آخرَ مثلَ اليوم الذي جاءنا فيه البكاءُ أم لا». فسألناه نحن أيضاً وقلنا: «أخبرنا يا أبانا كيف ينبغي للإنسان أن يحفظَ ذلك البكاء إذا جاء»؟ فقال لنا الشيخ: «من قبل كلِّ شيءٍ، لا يتوجه ذلك الإنسانُ الذي يأتيه البكاء في ذلك اليوم، أو تلك الساعة، أو تلك السنة، إلى إنسانٍ، ويتحفَّظ ألا يملأ بطنَه وألا يستكبر في قلبهِ، ويُفضِّل أن يبكي وأن يتفرَّغ للصلاةِ والقراءة، فإذا جاء النوحُ فهو يعلِّمه الأمورَ التي تضره، والأمورَ التي تأتي به». ثم إن الشيخ حدثنا وقال: «إني أعرفُ أخاً كان جالساً في قلايته يعمل في الضفيرةِ، وكانت الدموعُ تأتيه بغزارةٍ، فكان إذا رجع إلى العمل في الضفيرة، يجمع عقلَه ويأتيه البكاء، حتى في القراءةِ كذلك، فإنه إذا أخذ المصحفَ جاءه البكاءُ، وإذا تركه ذهب البكاء عنه، حينئذ قال لنفسه: حسناً قال الآباءُ، إنَّ النوحَ هو معلمٌ، يعلِّم الإنسانَ كلَّ شيءٍ ينفع نفسَه».

مضى أخٌ إلى الأب سلوانس وأخبره بأن له عدواً قد كثر شرُّه، وقد سأل السحرةَ في إهلاكِه، وأنه يريدُ أن يسلِّمه إلى السلطان ليؤدِّبه وتنفع نفسه. فقال له الشيخ: «اعمل ما شئتَ». فقال الأخ: «اصنع لي صلاةً». فقام الشيخُ ليصلي، ولما بلغ إلى قولهِ: «اغفر لنا يا ربُّ

خطايانا كما نغفر نحن لمن أخطأ إلينا»، قال: «لا تغفر لنا يا ربُّ خطايانا، كما لا نغفر نحن لمن أخطأ إلينا». فقال الأخ: «لا تقل هكذا يا أبي». فأجابه الشيخُ: «إذا كنتَ تريدَ أن تنتقمَ ممن أساء إليك، فهذا ما يجب أن يقال يا ولدي وهكذا يكون». فصنع الأخُ مطانية وصفح عن عدوهِ.

فسَّر أحدُ الشيوخِ قولَ الله: «على خطيتين وثلاث خطايا صبور، وأما الرابعة فلا أحتمل». فقال: «الأولى هي التفكير في الشرِّ، والثانية هي الخضوع للفكر، والثالثة هي التحدث باللسان، والرابعة هي إتمام الفعل، وعن هذه ينتقم».

قال شيخٌ: «إن من يحب السكوت ينجو من سهام العدو، أما الذي يحب الجماعات فإنه يُصاب بجراحات كثيرةٍ».

كان إنسانٌ يريد أن يترهب، وكانت أمُه تمنعه، ولم يزل يلحُّ عليها قائلاً أريد أن أخلِّص نفسي، حتى توفيت أمه بعد قليل، فمضى وترهب، وصار متوانياً في رهبنته. فحدث أن مرض جداً، وخُطف عقلُه إلى موضع الدينونةِ، فرأى أمَه مع الذين يُعذَّبون، ولما رأته قالت: «ما هذا يا ولدي، وكيف جئتَ إلى ها هنا، وأين قولك: أريد أن أخلِّص نفسي»؟ فبقي حائراً ولم يدرِ كيف يجيبها. فرجع إلى نفسِه وقام من مرضِه، وعلم أن الله الرحوم قد افتقده ونبهه، فحبس ذاته في قلايةٍ لطيفة، وجلس يهتم بخلاص نفسِه بالتوبةِ، والبكاء على ما سلف من توانيه، حتى كان الآباء يطلبون إليه أن يكفَّ عن البكاء قليلاً، فكان يجيبهم: «إن كنتُ لم أحتمل تعيير أمي، فكيف يكون حالي إذا وقفتُ قدام المسيح بحضرةِ الملائكة يوم الدينونة. أيمكنني أن أحتمل ذلك الخزي المعد للخطاة»؟

قال شيخٌ: أراد إنسانٌ موسر أن يعلِّم أولاده النشاطَ، فقال لهم: «هل تعلمون كيف صرتُ غنياً؟ إن سمعتم مشورتي استغنيتم مثلي». فسألوه عنها، فقال لهم: «في كلِّ سنةٍ يوجد يومٌ من أيامِها كلُّ من عمل فيه باجتهادٍ استغنى، إلا أني لشيخوختي قد نسيت أيَّ يومٍ هو، فلا تتوانوا أنتم في العمل كلَّ يومٍ، لئلا يفوتكم العمل في ذلك اليوم المبارك، فيضيع تعبُكم في السنةِ كلِّها». ثم قال الشيخُ: «هكذا نحن أيضاً لسنا نعرفُ يومَ وفاتِنا، فإن توانينا حين وفاتنا، فاتنا مقصدنا وضاع كلُّ تعبنا، وإن اجتهدنا إلى الآخر وجدنا ملكوت السماوات».

وقال أخٌ آخر: «كما أن الكنزَ إذا ظهر نقص، كذلك الفضائل إذا اشتهرت وعُرفت تبيد كلُّها، وكما يذوب الشمع من أمام وجه النار، كذلك تسترخي النفس وتهلك وينقطع نشاطُها من مديحِ الناسِ».

كان أحدُ الإخوةِ يرى نعمةَ الله على الهيكلِ، فلما قال لأخيه: «لِمَ تأكل مبكراً»؟ ارتفعت ولم يرها بعد.

أخبر أحدُ الآباء إنه كان ساكناً بالقربِ من أخٍ عمَّال مع الله، فاعتراه توانٍ وكسل، وبعد مدة انتبه من توانيه ولام نفسَه قائلاً: «يا نفسي، إلى متى تتوانين عن خلاصِك؟ أما تخافين من دينونة الله يا شقية وأنت في مثل هذا التواني، فتُسلَّمين للعذاب الدائم»؟ فلما تفكَّر في مثل هذا، أنهضَ نفسَه في عملِ الله. ففي بعض الأيام وهو واقفٌ يصلي، أحاطت به الشياطين وعذَّبته، فقال لهم: «إلى متى تؤذونني؟ أما كفى ما قاسيته في زماني من التواني»؟ فقالت له الشياطين: «لما كنا نراك متوانياً، كنا متوانين عنك، ولما رأيناك قمتَ وتجردت لنا، قمنا نحن أيضاً عليك، فتلقَّى ما يأتيك». فعندما سمع ذلك، أخذته غيرةٌ، وازداد نشاطاً وحرارةً في عمل الله. وبنعمة الله حصل على الغَلَبة.

كان شيخٌ قديس له عادة إذا جلس في عمل يديه ينظر إلى الأرضِ، ويجمع عقلَه ثم يحرِّك رأسه ويقول بتنهدٍ: «تُرى ماذا يكون»؟ ثم يسكتُ قليلاً ويرجع إلى عملِه في الضفيرة، ثم يعيد القول، وهكذا استمر على هذه الحال جميع أيام حياتِه.

أخٌ أغلق على نفسِه بابَ قلايته زماناً يسيراً، فقاتلته أفكارٌ مكتومة وأحلامٌ سمجة، فأراد الامتناعَ من شربِ الخمر، فبعث إلى شيخٍ قديس يستشيره في ذلك، فأجابه الشيخُ قائلاً: «إن كنتَ تريد أن تخلص فاهرب من شيطانِ العظمةِ، واجعل لك قليلَ محقرةٍ لأن المحقرةَ تُهلك العظمةَ وتبعدها، ولا تدع أحداً يخدمك، بل اخدم أنت نفسك، وأنت تخلص بمعونة الله، والآن فلا تغلق البابَ الخشب، بل بالحري أغلق بابَ لسانِك».

قال شيخٌ: «إذا كنتَ جالساً في قلايتك بسكوتٍ، فلا تظن أنك تفعل أمراً كبيراً، بل افتكر أنك كلبٌ عَقُور مسجون، كيلا تبصر الناسَ فتعقرهم».

قال أحدُ الشيوخِ: «عوِّد نفسَك يا ابني عند كلامِك عن الرهبان أن تقول: إن هذا أخيَرُ مني، وهذا أحرصُ مني في رهبانيته، وهذا أبرُّ مني. على أن تقول ذلك بنيةٍ صادقةٍ من كلِّ قلبك، لأن ذلك يجعلك تنظر ذاتَك تحت الخليقةِ كلِّها، وحينئذ يسكن فيك روحُ الله، أما إن كنتَ تزدري بإخوتك وتحتقرهم وتَعُدَّ نفسَك شيئاً وتستكبر، فإن نعمة الله تبعد عنك، وتُسلَّم إلى دنس الجسد الذي يقسِّي قلبَك مثل الحجرِ».

قال أحدُ الشيوخ: «إذا كان الراهبُ حريصاً مجاهداً، فإن الله يطلب منه ألا يرتبطَ بشيءٍ من أمورِ هذه الدنيا، لئلا يشغله ذلك عن ذِكر ربِّهِ، وعليه أن يطلبَ إليه بلجاجةٍ وبكاءٍ ليغفرَ الله خطاياه».

وقال شيخٌ: «كلُّ من ذاق حلاوةَ المسكنةِ، فإنه يستثقل ثوبَه الذي يلبسه وكوزَ الماء الذي يشرب به، لأن عقلَه قد اشتغل بالروحانيات. فإذا ما ارتبط الراهبُ بالدنيا وما فيها، وصنع هواه، فإن جميعَ تعبِهِ يذهبُ باطلاً».

وقال أيضاً: «الجوعُ والتعبُ يُبطلان قتالَ الزنى، وطولُ الروحِ والرحمةُ يهدئان الغضبَ، وقراءةُ الكتبِ والسهرُ في الصلاةِ يجمعان العقلَ الطوّاف».

قال شيخ: «كلُّ من يحاربه إبليس وجنوده بالقتال، وهو لأجل ذلك ينوح ويبكي ساهراً، طالباً معونة الله، فهو يُستجابُ، لأن السهرَ يحلُّ الخطيةَ، والبكاءُ يغسلُ الذنوبَ».

كما قال شيخٌ: «إن الهدوءَ هو أولُ زكاوة النفس، لأن اللسانَ حينئذ لا يتكلم بكلام الناس، والعينان لا تنظران الجمالَ والحسنَ المنحرف عن الواجب، والأذنان لا تسمعان الأصوات اللذيذة التي ترخي قوة النفس، مع كلام الضحك واللعب، والقلب لا يتبدد بالعلل البرانية، ولا الحواس تنصبُّ إلى العالم، ولكنه يرفع نفسه ويهتم بالله».

كان شابٌ في المدينةِ قد صنع شروراً كثيرةً، وكان منغمساً في الخطايا، وبرحمةِ الله، أحسَّ بعد ذلك بكثرةِ خطاياه، فحبس نفسَه في قبرٍ لكي ما يتوب عما صدر منه، وطرح وجهَه على الأرضِ وهو يقول: «لا ينبغي لي أن أرفعَ نظري إلى السماءِ لكثرة خطاياي، ولا أن أذكرَ اسمَ الله بفمي النجس، ولا أن أصلي». وكان يقول في نفسِه: «إني لا أستأهل السُكنى مع الناسِ

الأحياء، ولكن مع الموتى». فحبس نفسَه في القبرِ وهو يائسٌ من الحياةِ، وكان يتنهد من وجعِ قلبِهِ، فلما انقضى أسبوعٌ وهو على هذه الحال، أتاه بالليلِ أجنادُ الشياطين وهم يصيحون قائلين: «أين ذلك النجس الذي لم يشبع من الدنس، هل يريد الآن أن يصير نصرانياً؟ ألا تنطلق بعجلةٍ من ههنا، لأن الزناةَ والخمارين أصحابك يتوقعون حضورك إليهم، فاطرح عنك هذا الأمرَّ البطال، فما الذي يحملك على أن تقتلَ نفسَك أيها الأرعن، إنما أنت بجملتك لنا وقت وهبت لنا حياتك بعهودٍ، فأنت غريمٌ لنا، لماذا تهرب منا؟ ألا تردَّ علينا جواباً؟ ألا تقوم وتذهب معنا»؟ أمَّا هو، فمن وجعِ قلبِهِ لزم السكوتَ، فلما كثُرَ عليه الكلامُ ولم يجبهم، حينئذ بدءوا يضربونه، واستمروا يضربونه حتى مزَّقوا جسَده، فلم يستطع أن يتحركَ، كما لم يقدروا أن يُزيغوه عن فكرِه الصالح. فتركوه مثل ميتٍ وانصرفوا وهو في تنهدٍ شديدٍ مسلِّماً نفسَه لله، ثم أن أهل بيتِهِ خرجوا يطلبونه، فلما وجدوه سألوه عن أمرِه، فأخبرهم بما حلَّ به، فأرادوا أن يأخذوه معهم، فامتنع. وفي الليلةِ التالية، عاد إليه الشياطين، وضربوه، ولما كانت الليلة الثالثة، أتوه أيضاً وضربوه حتى بقي فيه قليلُ نفسٍ، فلما رأى الله انكسارَ قلبِهِ، منعهم عنه، فهربوا وهم يقولون: «قد غلبتنا». ولم يعودوا إليه بعد ذلك، فسكن في ذلك القبر بقية حياته بالزكاوةِ، واقتنى رهبنةً فاضلةً، وصار سبباً لرجوع خطاةٍ كثيرين إلى التوبةِ».

قال شيخٌ: «الاتضاع هو شجرة الحياة، التي لا يموت آكلوها».

وقال أيضاً: «تشبَّه بالعشارِ، لئلا تُدان مع الفريسي».

قوتل أخان بالزنى، فانطلقا إلى العالمِ وتزوَّجا، وبعد ذلك ندما وقال أحدُهما للآخرِ: «ماذا ربحنا، لقد تركنا عملَ الملائكةِ وجئنا إلى هذه النجاسة، ومصيرُنا بعد ذلك أن نمضي إلى جهنم النار. لنرجع إلى البريةِ ونتوب». فرجعا إلى البريةِ، وأتيا إلى الشيوخِ وسألاهم أن يطلبوا إلى الله من أجلهما. فأمروهما أن يحبسا نفسيهما سنةً واحدةً ويتضرعا إلى الله كي يتحنن عليهما. وكانوا يعطونهما خبزاً وماءً بالتساوي. فلما انقضى زمانُ توبتهما وخرجا من حبسِهما، أبصر الشيوخُ أحدَهما متغير الوجه معبَّساً، وأبصروا الآخرَ حسنَ المنظرِ باشًّا، فعجب الآباءُ من ذلك، لأن حبسَهما وطعامَهما كان واحداً. ولكن منظرهما ليس بواحدٍ. فسألوا المتغير الصورةِ: «ماذا كان تفكيرُك أثناءِ مدة حبسِك»؟ فقال: «كنتُ أتذكر الشرورَ التي عملتُها، والعذابَ المعدَّ لي، ومن

شدة فزعي لصق لحمي بعظمي». ثم سألوا الآخر: «وأنت ماذا كنتَ تفكر وأنت جالسٌ في حبسِك». فقال: «كنتُ أشكر الله الذي خلَّصني من نجس العا لم ومن العذاب الدائم، وأنعم عليَّ بأن أعمل عملَ الملائكةِ، وعلى ذلك كنتُ أفرح». فقال الشيوخ: «إن توبةَ كليهما واحدةٌ عند الله».

أخٌ من الرهبان قوتل بالزنى، فقام بالليلِ وذهب إلى أحدِ الشيوخِ وكشف له سرَّه، وسأله أن يصلي من أجلهِ، فعزاه الشيخُ وشجَّعه. ولما رجع الأخُ إلى قلايته، اشتد عليه القتالُ، فرجع ثانية إلى الشيخ، وفعل ذلك مراراً، وكان الشيخُ في كلِّ مرةٍ لا يُحزنه، ولكنه كان يكلِّمه بما فيه منفعة نفسِه قائلاً: «كلما قاتلك هذا الشيطان تعال وبُح به فإنه ليس شيءٌ يُبعد شيطان الزنى مثل إظهار أفكارِهِ وأعمالِه وفضيحتِه، وليس شيءٌ يفرِّحه غير كتمان ذلك». تردد ذلك الأخُ على الشيخِ في تلك الليلةِ إحدى عشرة مرة، وهو يكشف له أفكاراً، أخيراً قال:« قُل لي يا أبي كلمةً»؟ فقال له الشيخ: «ثق يا ابني لو أن الله يدع فكري وقتالي وقفاً عليك لما احتملتَ، ولكنتَ أنت تسقط بالأكثر إلى أسفل». فلما قال الشيخُ هذا الكلام باتضاع، كفَّ الله القتال عن الأخِ.

قيل عن أخٍ كان ساكناً في ديرٍ إنه من شدة القتال كان يسقط في الزنى مراراً كثيرةً. فمكث يُكره نفسَه ويصبر كيلا يترك إسكيم الرهبنة، وكان يصنع قانونَه وسواعيه بحرصٍ، ويقول في صلاتهِ: «يا ربُّ أنت ترى شدة حالي وشدة حزني، فانتشلني يا ربُّ إن شئتُ أنا أم لم أشأ، لأني مثل الطين، أشتاقُ وأحبُّ الخطيةَ، ولكن أنت الإله الجبار اكففني عن هذا النجس، لأنك إن كنتَ إنما ترحم القديسين فقط فليس هذا بعجيبٍ، وإن كنتَ إنما تخلِّص الأطهار فما الحاجة، لأن أولئك مستحقون، ولكن فيَّ أنا غير المستحق يا سيدي أرِ عجب رحمتك لأني إليك أسلمتُ نفسي». وهذا ما كان يقوله كلَّ يومٍ، أخطأ أو لم يخطئ، فلما كان ذات يوم وهو دائمٌ في هذه الصلاة، أن ضجرَ الشيطانُ من حُسن رجائهِ ووقاحتهِ المحمودة، فظهر له وجهاً لوجه وهو يرتل مزاميره، وقال له: «أما تخزى أن تقف بين يدي الله بالجملةِ وتسمي اسمَه بفمِك النجس»؟ فقال له الأخ: «ألستَ أنت تضربُ مرزبةً وأنا أضربُ مرزبةً؟ أنت توقعني في الخطيةِ، وأنا أطلب من الله الرحوم أن يتحنن عليَّ، فأنا أضاربك على هذا الصراع حتى يدركني الموتُ. ولا

أقطع رجائي من إلهي، ولا أكف من الاستعداد لك، وستنظر من يغلب: أنت أو رحمة الله». فلما سمع الشيطانُ كلامَه قال: «من الآن لا أعود إلى قتالك، لئلا أسبب لك أكاليل في رجائك بإلهك». وتنحى الشيطان عنه من ذلك اليوم، ورجع الأخُ إلى نفسِه وأخذ ينوح ويبكي على خطاياه السالفة، فإذا كان الفكرُ يقول له: «نِعمَّا لأنك تبكي». فكان يجيب فكرَه بذِكرِ خطاياه. وإذا قال الفكرُ له: «أين تذهب لأنك فعلتَ خطايا كثيرة»، يقول: «الربُّ يفرحُ بحياةِ الميِّت ووجود الضال».

سُئل **أنبا بيمين**: «ما هي التوبة»؟ فقال: «الإقلاع عن الخطية وأن لا يعاود فعلها، لأنه لذلك دُعي الصديقون لا عيب فيهم، لأنهم أقلعوا عن الخطيةِ فصارا صديقين».

سأل أخٌ **الأب شيشوي قائلاً**: «ماذا أفعلُ يا أبتاه، فقد سقطتُ»؟ قال له الشيخُ: «انهض أيضاً». قال الأخُ: «نهضتُ ورجعتُ وقعت». فأجابه الشيخُ: «انهض أيضاً». فقال الأخُ: «إلى متى أيها الأب»؟ قال له: «إلى أن نؤخذ، إما في الخير وإما في السقطةِ، لأن الإنسانَ فيما يوجد فيه يؤخذ».

قال الأب أموس: «ستةُ دروبٍ توجد للتوبةِ: ذمُ الخطايا والإقلاعُ عنها، الإقرارُ بها، الندامةُ عليها، الصفحُ عن خطايا القريبِ، تركُ دينونةِ المخطئين، وتمسكن القلبِ».

قال أحدُ الشيوخِ: «احرص بكلِّ جَهدِك لئلا تسقط، لأن الوقوعَ لا يليقُ بالمجاهدِ القوي، فإن عَرَضَ لك أن تقع، للوقتِ اطفُر واستمر أيضاً في الجهادِ، ولو عَرض لك ذلك ربواتٍ من المراتِ لتربحَ النعمةَ ربواتٍ من الدفعاتِ. وليكن ذلك، أعني النهوضَ والقيامَ، إلى حينِ موتِك، لأنه مكتوبٌ: إن سقط البارُ سبعَ مراتٍ، يعني طولَ الدهرِ السباعي، فإنه يقومُ سبعَ دفعاتٍ، إنك تُحسَب مع القائمين ما دمتَ ممسكاً بسلاحِ التوبةِ بدموعٍ، فتذرَّع بهذه الوسيلةِ إلى الله لأنك وإن سقطتَ، فإنك تُمدَح بالأكثرِ ما دمتَ ملازماً الرهبانِ، مثلَ جندي شجاعٍ يقبلُ الضرباتَ مواجهة. حتى ولا في حالِ ضربهم، إياك أن تتراخى وتتباعد، ولكن إن انفصلتَ عن الرهبانِ فإنك تُضرب على ظهرِك كهاربٍ جبانٍ طارحٍ سلاحَه».

قال شيخٌ آخرُ: «إني رأيتُ قوةَ النعمةِ الإلهيةِ الحالة في عمادِ النورِ، هي كما هي، حالةً في وقتِ التسربل بالزي الإسكيمي، أما الذي يطرحُ عنه زي الرهبنةِ فلا حظَّ له مع المؤمنين، بل

يُرتَّب مع جاحدي الإيمان، ويُعاقَب، متى لم يتب لله توبةً بالحقِ من كلِّ قلبهِ».

قيل عن أخ إنه وقع في تجربةٍ، ومن الشدةِ ترك إسكيمَ الرهبنةِ، لكنه رجع وندِم، وأراد أن يبدأ في تدبيرِه الأول، فساعده الربُّ ولم يتركه حتى خلص من مناصبةِ العدوِ.

في بعضِ الأوقاتِ، قامت سفينةٌ من ديولفن، ورمتها الرياحُ إلى بعضِ الجبالِ حيث كان هناك رهبانٌ، فخرجت امرأةٌ من السفينةِ، وجلست على الشاطئِ فوقَ تلٍّ من الرملِ، واتفق حينئذ أن جاء أحدُ الرهبانِ ليملأَ جرَّته، فأبصرَ المرأةَ، فرمى الجرةَ وعاد مبادِراً إلى رئيسِ الديرِ وقال: «يا أبتاه عند النهرِ امرأةٌ جالسةٌ». فلما سمع الشيخُ قولَه، خفق قلبُه، ثم أخذ عصاه وخرج بسرعةٍ وهو يصيحُ قائلاً: «أغيثوني، فقد جاءنا لصوصٌ أشرارٌ». فلما أبصروا انزعاجَ الشيخِ لَحِقوا به حاملين عِصيهم إلى النهرِ، فلما رأى النوتية قدومَهم عليهم هكذا، خطفوا المرأةَ من فوقَ التلِ بسرعةٍ، ووضعوها في السفينةِ، وقطعوا حبلَ السفينةِ وتركوها منحدرةً في جريانِ النهرِ.

قال أنبا إيليا السائح: إنه كان في مغارةٍ في أحد الجبال، فلم يأتِ نصفُ النهارِ في شدةِ الحرِ في شهرِ أغسطس، حتى قرع إنسانٌ على مغارتهِ، فخرج وأبصر امرأةً، فقال لها: «ماذا تصنعين ههنا»؟ قالت له: «أنا بقربك في مغارةٍ على ميلٍ واحدٍ، أسيرُ سيرَتَك، وفيما كنتُ أدورُ في البريةِ عطِشتُ من شدةِ الحرِ، فاصنع محبةً يا أبي واسقني قليلَ ماءٍ». ثم قال: «فسقيتُها وأخليتُ سبيلَها، فلما انصرفَتْ تملَّكني قتالُ الزنى، فهُزمتُ له، وأخذتُ عصاي ومضيْتُ سائراً إلى مغارتِها في ساعةِ حرٍّ صعبٍ، فلما دنوتُ من مغارتِها والشهوةُ تُلهبُني، سَهوْتُ فأبصرتُ الأرضَ قد انفتحت وظهر من تحتِها أجسادُ موتى كثيرين مُنتِنةٌ جداً، وكان إنسانٌ بهيٌّ يُريني تلك الأجسادَ ويقول لي: إلى أين أنت ذاهبٌ يا راهب، وماذا تريد؟ هلم الآن وانظر أجسادَ هذه النسوة التي كانت حسنةَ الصورة كيف صارت رائحتهم، فاشفِ الآن شهوتَك من أيها شئتَ، وأبصر كم من الأتعابِ تريدُ أن تُهلكَ من أجلِ هذه الشهوةِ المنتنةِ، وتحرم نفسَك مُلكَ السماءِ. ومن شدةِ رائحةِ النَتَن وقعتُ على الأرضِ، فأقامني ذلك الرجلُ، وأزال عني القتالَ، ورجعتُ إلى مغارتي أسبِّحُ الله وأمجدُه على خلاصي». فانظروا يا إخوتي كيف أن القربَ من النساءِ هو مُهلكٌ، ويسببُ القتالَ حتى للرجالِ الأبرارِ المتعَبين بالنسكِ طول أيامِهم.

أخبر أحدُ الشيوخِ: إنه في بعضِ الليالي، في أثناءِ صلاتِه وهو في البريةِ الجوانية، سمع صوتَ

بوقٍ يضربُ ضرباً عالياً، كمثل ما تُضرب أبواقُ الحربِ، فتعجب متفكراً بأن البرية مقفرةٌ وليس فيها آدمي، فمن أين صوتُ البوقِ في هذه البريةِ، أتُرى حربٌ ها هنا؟ وإذا بالشيطانِ قد وقف مقابلَه وقال بصوتٍ عالٍ: «نعم يا راهب، حربٌ هي، إن شئتَ فحارب، وإلا سلِّم لأعدائك».

سُئل شيخٌ: «كيف يقتني الراهبُ الفضيلةَ»؟ فأجاب: «إن شاء أحدٌ أن يقتني فضيلةً، إن لم يمقُت أولاً الرذيلةَ التي تضادها فلن يستطيعَ أن يقتنيها. فإن شئتَ أن يحصلَ لك النوحُ فامقت الضحكَ. وإن آثرتَ أن تقتني التواضعَ فابغض الكبرياءَ. وإن أحببتَ أن تضبطَ هواك فامقت الشرَّ والتحريفَ في الأشياءِ. وإن شئتَ أن تكونَ عفيفاً فامقت الفسقَ. وإن شئتَ أن تكونَ زاهداً في المقتنياتِ فامقت حبَ الفضةِ. ومن يريدُ أن يسكنَ في البريةِ فليمقت المدنَ. ومن يشتهي أن يكونَ له سكوتٌ، فليمقت الدالةَ. ومن أراد أن يكونَ غريباً من عاداتِهِ فليبغض التخليطَ. ومن يريد أن يضبطَ غضبَه فليبغض مشيئتَه. ومن يريد أن يضبطَ بطنَه فليبغض اللّذاتِ والمقامَ مع أهلِ العالمِ. ومن أراد عدمَ الحقدِ فليبغض المثالبَ. ومن لا يقدر أن يكابدَ الهمومَ فليسكن وحدَه منفرداً. ومن يريد أن يضبطَ لسانَه فليسد أذنيه لئلا يسمع كلاماً كثيراً. ومن يريد أن يحصل على خوفِ الله، فليمقت راحةَ الجسدِ ويحب الضيقةَ والحزنَ. فعلى هذه الصفةِ يمكنك أن تعبدَ الله بإخلاصٍ».

قال شيخٌ: «أشرفُ أعمالِ الرهبنةِ أن يُحقِّرَ الإنسانُ نفسَه دائماً، ويردَّ اللومَ عليها».

وقال أيضاً: «البابُ إلى اللهِ هو الاتضاع ومنه دخل آباؤنا إلى الملكوتِ بغنيمةٍ عظيمةٍ».

وقال أيضاً: «إن الذي يخاصمه أخوه ولا يَحزن قلبُه، فقد تشبَّه بالملائكةِ، فإن خاصمه هو أيضاً ثم رجع صالحه من ساعتِهِ فهذا هو عمل المجاهدين. فأما الذي يُحزِن إخوته ويَحزن منهم ويُمسك الحقدَ في قلبِهِ، فهذا مطيعٌ للشيطانِ مخالفٌ لله، ولا يغفر له الله ذنوبَه إذا لم يغفر هو لإخوتهِ».

وقال أيضاً: «كما أن الذي يُصفِّي الذهبَ، إذا كان يحمِّي النارَ ويشعلها حيناً ثم يخمدها ويطفئها حيناً آخر، لا ينتفع، كذلك الراهب إذا كان يحرص مرةً ويسترخي أخرى».

قال شيخٌ: «إن إبراهيم أول دخولهِ أرضَ الميعادِ اشترى قبراً، فوَرِثَ هو وزرعُه الأرضَ

بكمالِها، هكذا الذي يتخذ له بيتاً لموتِه من هذا العالِم، ويحزن فيه على نفسِه، فإنه يرث أرضَ الحياةِ».

قيل عن أحدِ الشيوخِ: إنه كان رجلاً وديعاً كثيرَ الحبِّ. ولم يفكر في الشرِّ أصلاً، وحدث مرةً أنَّ أحدَ الإخوةِ سَرَقَ زنابيلَ وحملها وأودعها عندَه ولم يعلم الشيخُ بسرِّها، فبعد أيامٍ عُرفت الزنابيل، فاتُّهم الشيخُ بسرقَتِها، فلما اتُّهم أنه السارق، سجد مطانية وقال: «اغفروا لي يا إخوتي من أجلِ الله فأتوب من هذه الدفعةِ الواحدةِ». وصار يبكي، فلما نظر الإخوةُ بكاءَه تركوه، وبعد أيامٍ قلائل جاء الأخُ الذي سرق الزنابيل، وأنشأ خصومةً مع الشيخِ قائلاً: «أنت سارقٌ، وقد سرقتَ زنابيل فلان». فسجد الشيخُ بين يديه قائلاً: «اغفر لي يا أخي كما غفر لي بقيةُ الإخوةِ». وكان هذا الشيخُ دائماً إذا غلط أخٌ وأنكر غلطَتَهُ، يسجد هو قائلاً: «اغفروا لي يا إخوتي هذه الغلطةَ». وكان كلامُه على الدوام بهدوءٍ واتضاعٍ وسكينةٍ، ولم يخاصم أحداً قط، ولا سبَّب وجعَ قلبٍ لأحدٍ قط في وقتٍ من الأوقاتِ حتى ولو بكلمةٍ صغيرةٍ.

قيل عن شيخٍ آخر إنه في وقتٍ أتاه اللصوصُ وقالوا له: «جئنا لنأخذ جميعَ ما في قلايتِك»، فقال لهم: «خذوا ما شئتم أيها الأولاد». فلما أخذوا جميعَ ما وجدوه مضوْا ونسوا مخلاةً مستورةً بخوصٍ، فلما نظرها الشيخُ أخذها وخرج يخطر وراءهم وهو يصيح ويقول: «يا بَنِيَّ، خذوا ما قد نسيتم». فلما رأوا ذلك منه عجبوا من دعتِهِ وسلامةِ قلبِهِ، وردوا كلَّ ما أخذوه إلى قلايتِهِ. وقال بعضُهم لبعضٍ: «بحقٍ إن هذا رجلُ الله»، وكان ذلك سبب توبتهم وتركهم ما كانوا عليه من اللصوصية.

ذكروا عن أحدِ الإخوةِ أنه كان مجاوراً لشيخٍ من المشايخ له فضلٌ، فكان يدخل في قلايتِه كلَّ يومٍ ويسرق ما يجده فيها، وكان الشيخُ يفهم ذلك ولا يوبخه ولا يعاتبه، بل كان يكدُّ ويُزيدُ على وظيفتِهِ في عملِهِ، ويقول في نفسِه: «لعل الأخَ إنما يفعلُ هذا بسببِ الحاجةِ». وكان الشيخُ شديدَ التعبِ والكدِّ بسببِ ذلك لدرجةِ أنه ما كان يَفْضُل له ما يأكل به خبزاً. فلما حضرت الشيخَ الوفاةُ، أحاط به الإخوةُ، فنظر وإذا بذلك الأخِ الذي كان يسرق متاعَه بينهم، فقال له: «ادْنُ مني يا ابني». واندفع يقبل يديه ويقول: «يا إخوة، أنا أشكرُ هاتين اليدين اللتين بهما أدخلُ ملكوتَ السماءِ». فلما سمع الأخُ ذلك، رجع إلى نفسِه وندم على فعلِه، وكان ذلك سبباً

في توبتهِ.

من قول البابا أثناسيوس الرسولي: قد يعرض أن يقولَ أحدٌ: «أين هو زمانُ الاضطهادِ حتى كنتُ أصيرُ شهيداً»؟ فأقول له أنا: «الآن يتجه لك أن تكونَ شهيداً إن أردتَ، متّ عن الخطيةِ، أَمِت أعضاءَك التي على الأرضِ، وبذلك تصيرُ شهيداً باختيارِك، فأولئك الشهداءُ كانوا يقاتلون ملوكاً ورؤساءَ جسديين، أما أنت فإنك تقاتلُ ملكَ الخطيةِ، محتالاً عنيداً، والشياطين رؤساءَ الظلامِ. أولئك كانوا ينصبون للشهداءِ عقوباتٍ مختلفةً لأجلِ عبادةِ الأصنامِ، فتفطَّن الآن فإنه توجد مائدةٌ ومذبحٌ وصنمٌ مرذولٌ، وقد يكلفون العقلَ للسجودِ، فالمائدةُ هي نهمُ البطنِ، والمذبحُ هو التلذذ بما دَسِمَ من الأطعمةِ، والصنمُ هو شهوةُ الزنى المرذولة والمصوّرة لتركيب الأجسام. وكذلك فإن من واظب على اللّذاتِ وتعبد للزنى فقد جحد يسوعَ وسجدَ للصنمِ، لأن له في ذاتِه صنمَ الزهرةِ وهو لذة الأجسامِ القبيحة. ومَن كان مغلوباً من الغيظِ والغضبِ فقد أنكر يسوعَ وله في نفسِه المديحُ إلهاً، وهو يسجدُ للغيظِ الذي هو صنمُ الجنونِ، ومن انغلب لحبِ الفضةِ، وأغلق تحننَه عن الفقراءِ، فقد كفر بيسوعَ وعَبَدَ الأصنامَ لأن له في نفسِه صنمَ عطارد وقد عَبَدَ البَرية دون باريها. فإن أنت ضبطتَ هواك من هذه الأمورِ، وتحفّظتَ منها فقد وطأت الأصنامَ وصرتَ شهيداً والربُ يسوعُ المسيحُ يساعدك».

قصد راهبان أحدَ الشيوخِ، وكان أحدُهما شيخاً والآخرُ شاباً، فشكا الأكبرُ من الأصغرِ، فتأمَّل الشيخُ إلى الشابِ وقال له: «أصحيحٌ ما قاله عنك»؟ فقال: «نعم يا أبانا لأني أحزنتُه»، ثم فكَّر الشابُّ في قلبِهِ ونَدِمَ على ما قاله، وقال: «لستُ أنا بل هو الذي أحزنني، إلا أني جعلتُ اللائمةَ على نفسي بكلامي». وتوقف ولم يقدر أن يجيبَ بشيءٍ آخر. وأن الشيخَ صاح بصوتِه، فقالوا له: «لماذا صحتَ يا أبانا»؟ فأجاب: «بأنه عند دخولِ هذين الراهبين عندي رأيتُ زنجياً واقفاً قدامهما وبيده قوسٌ ونشَّابٌ، وكان ينشب نحوهما، وما كانت النشابةُ تصيب سوى ثيابِهما، فلما تذمر الشابُ، أرسل الزنجيُ النشَّابَ نحوه فكادت تقتله، من أجل ذلك كان صراخي هذا عليه كيلا يقتله». ثم أن الأخوين سألا من الشيخِ شفاءَ العارضِ، فقال لهما الشيخُ: «متى وقعت بينكما خصومةٌ فتذكرا الزنجي، فيكُفَّ تأثيرُ الخطيةِ عنكما». فعادا وفعلا ذلك وشُفيا.

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «ما هو نجاحُ الراهبِ»؟ فقال: «التواضع، لأن بدونِه لا يكون نجاحٌ، وبمقدارِ نزولِه في التواضع يكون مقدارُ صعودِهِ إلى علوِ الفضيلةِ». فسأله أيضاً: «فكيف تقتني النفسُ الفضيلةَ»؟ فقال: «إذا هي اهتمت بزلاتِها وحدِها».

قال أنبا إيليا: «أيُّ مقدرةٍ للخطيةِ حيث تكونُ التوبةُ، وأيُّ منفعةٍ للمحبةِ حيث تكون الكبرياءُ»؟

كان أحدُ الرهبانِ صامتاً وقد شاع فضلُه وعملُه، فزاره في أحدِ الأيامِ اثنان من الفلاسفةِ، فقام وصلَّى وسلَّم عليهما وجلس صامتاً يُضَفِّرُ الخوصَ ولا يرفع نظرَه إليهما، فقالا له: «يا معلم، انفعنا ولو بكلمةٍ واحدةٍ لأننا لهذا أتينا إليك». فأجابهم الراهبُ قائلاً: «اعلما أنكما أفنيتما أموالَكما لتتعلما فخرَ الكلامِ وتحسينَه، وأما أنا فقد أهملتُ العالَمَ وأتيتُ إلى ههنا لا لأقتني جَوْدَةَ الكلامِ بل السكوتَ». فلما سمعا قوله أُعجبا كثيراً وانصرفا منتفعيْن منه.

جلس راهبٌ من الرهبانِ في البريةِ صامتاً في قلايته، فضغط عليه الضجرُ وأقلقه الفكرُ وضيَّق عليه شديداً حاثاً إياه على الخروجِ منها. فقال في ذاتِه: «يا نفسي لا تضجري من الجلوسِ في القلايةِ، وإن كنتِ لا تعملين شيئاً، يكفيكِ هذا، أنكِ لا تُحزنينَ أحداً. ولا أحدٌ يُحزنك، فاعرفي كم من الشرورِ خلَّصكِ اللهُ، لأن في سكوتِك وصلاتِك لله تكونين بلا همٍّ يشغلك ولا تتكلمين كلاماً باطلاً، ولا تسمعين ما لا ينفعك ولا تبصرين ما يضرك، وإنما قتالكِ واحدٌ، وهو قتالُ القلبِ، واللهُ قادرٌ أن يبطلَه، وإذا اقتنيتِ الاتضاعَ عرفتِ ضعفك». فعند افتكار الأخ بهذا، صار له عزاءٌ كثيرٌ في صلاتِهِ.

في بعضِ الأوقات قوتل أنبا مقاريوس بالعظمةِ وهو في قلايتِه. وحثه فكرُهُ على الخروج منها، والذهاب إلى رومية لينفع كثيرين بحسب ما أملته عليه أفكارُ العظمةِ. فلما ألحت عليه الأفكارُ بذلك، ألقى بنفسِهِ داخل قلايتِهِ عند بابِها، وأخرج رجليه من البابِ، ثم قال لأفكارِ العظمةِ: «أخرجوني إن قدرتم، فإني لن أخرج طائعاً، فإن لم يمكنكم ذلك فلن أطيعَكم». ولم يزل ملقى وهو يقول هذا الكلام إلى الليلِ حيث اشتد عليه القتال والأفكار. وأخيراً أخذ قفةً وملأها رملاً وحملها، وأخذ يطوف بها البريةَ حتى لقيه القديس فسطوس، فقال له: «ماذا تحملُ يا أبتاه، أعطني إياه، ولا تتعب أنت». فقال له: «أريد أن أشقي من يشقيني، فإنه إذا ما نالته الراحةُ

سبَّب لي الأسفارَ والشقاءَ». واستمر هكذا إلى أن كفت عنه الأفكارُ. فرجع إلى قلايتِهِ وهو يشكر اللهَ.

سُئل شيخٌ: «لماذا تقاتلنا الشياطين جداً»؟ فقال: «لأننا طرحنا سلاحَنا أعني الطاعةَ والاتضاعَ والمسكنةَ».

قال شيخٌ: «إذا لم يأتِ علينا قتالٌ، حينئذ ينبغي لنا أن نتضعَ جداً، عالمين أن اللهَ لمعرفتِهِ بضعفِنا رفع عنا القتالَ، وإن افتخرنا يرفع عنا سِتْرَه فنهلك».

سُئل شيخٌ: «ما هو كمالُ الراهبِ»؟ فقال: «الاتضاع، فإذا بلغ الإنسانُ إلى الاتضاع فقد أتى إلى الكمالِ».

قال أحدُ الشيوخِ: «إذا قال الراهبُ لصاحبِهِ: اغفر لي، باتضاعٍ، تحترق الشياطين».

قال شيخٌ: «إن جاءك إحساسٌ بالعظمةِ وبدأتَ تفتخر، فانظر في نفسِك هل حفظتَ الوصايا، أن تحبَّ مبغضيك وتفرح بصلاحِ عدوك وتحزن لحزنه وتحسب نفسَك عبداً بطالاً، وأنك أخطأ كلِّ الناسِ، وأن لا تفتخر إذا قوَّمتَ كلَّ صلاحٍ؛ حيث أنه يجب أن تعلم أن هذا الإحساسَ يُهلك ويُبطل جميعَ الحسنات».

قال أنبا بيمين: «كما أن الأرضَ لا تسقط لأنها أسفل، هكذا من يضع نفسَه لا يسقط».

وسأله أخٌ: «كيف أستطيع ألا أقعَ في الناسِ»؟ فقال له: «إذا لام الإنسانُ نفسَه حينئذ يكون عنده أخوه أكرمَ منه وأفضلَ، وإذا ظن في نفسِه أنه صالحٌ، حينئذ يكون عنده أخوه حقيراً ومهاناً ويقع فيه».

قال شيخٌ: «احذر بكلِّ قوتك ألاَّ تقل شيئاً يستحقُ اللائمةَ، ولا تحب التصنع».

وقال أيضاً: «إن نزل الاتضاعُ إلى الجحيمِ فإنه يصعد حتى السماءِ، وإذا صعدت العظمةُ إلى السماءِ فإنها تنزل حتى الجحيمِ».

سأل أخٌ أنبا أليس في معنى تحقيرِ الإنسانِ نفسه فقال له: «هو أن ترى كلَّ الخليقةِ حتى البهائم أخيرَ منك، وتعلم أنهم لا يدانوا».

قال شيخٌ: «أُحبُّ أن أكونَ مغلوباً باتضاعٍ أفضلَ من أن أكونَ غالباً بافتخار».

وقال آخر: «لو لم يخضع يوسف للعبوديةِ أولاً، لما صار لمصرَ سيداً، وإن لم يُخضع الراهبُ نفسَه للعبوديةِ أولاً بكلِّ تذللٍ ومحقرةٍ، فلن يصيرَ سيداً على الأوجاعِ، ولن تخضعَ له الشياطينُ».

من سيرةِ الأب باخوميوس: في بعضِ الأحيانِ ظهر الشيطانُ للأب باخوميوس يتجلى بصورةِ السيدِ المسيحِ، وقال له: «افرح يا باخوميوس لأني جئتُ لافتقادِك». ففكر في نفسِه قائلاً: «من شأنِ المناظرِ الإلهيةِ أنها من لذةِ بهجتِها وحلاوةِ نعيمِها تسبي تخيل مستحقيها إليها ولا يبقى لهم فكرٌ آخر، ولكن أفكاري الآن تروي فنوناً وألواناً». فلما وجده الشيطانُ مفكراً، أخذ في استئصالِ أفكاره، فقال الأب في نفسِه: «إني كنتُ أفكرُ أفكاراً والآن فلا وجود لها». وإذ قال ذلك في نفسِه قام إلى الشيطانِ وهو باسطٌ يده كمن يريد أن يمسكَه، وفي الحال صار كدخانٍ وتلاشى.

قيل عن أحدِ الآباءِ إن الشيطانَ تراءى له في شبهِ ملاكٍ نوراني وقال له: «أنا غبريال، قد أُرسلت إليك». أجاب الشيخُ: «لعلك أُرسلت إلى غيري وأما أنا فخاطئٌ». فلما سمع الشيطانُ هذا الكلام منه باتضاعٍ، اختفى ولم يره.

كان أحدُ الشيوخِ جالساً في قلايتِهِ مجاهداً، وكان ينظرُ الشياطينَ عياناً ويحتقرهم، فلما رأى إبليسُ نفسَه مقهوراً من الشيخِ، ظهر له قائلاً: «أنا هو المسيحُ». فأغمض الشيخُ عينيه، فقال له الشيطانُ: «أنا المسيح، وتغمض عينيك»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «لا أريدُ أن أبصرَ المسيحَ ههنا». فلما سمع إبليسُ منه ذلك، غاب عنه.

قال أنبا أور: إني أبصرتُ إنساناً في البريةِ خَيَّلت له الشياطينُ طغمات ملائكةٍ ومراكبَ حافلةً، وملكاً في وسطهم، فقال له: «أيها الإنسانُ، لقد أتقنتَ كلَّ شيءٍ، إذن خرَّ لي ساجداً وأنا أرفعك كما رفعتُ إيليا». فقال الراهبُ في فكرِه: «أنا في كلِّ يومٍ أسجدُ لملكي المسيح، فلو كان هذا هو المسيح حقاً، لما التمس مني السجودَ الآن». ولما جال هذا في فكرِه قال: «إن ملكي هو المسيح وأنا دائماً أسجدُ له، وأما أنت فلستَ ملكي». ولما قال هذا الكلامَ، تلاشى ذلك الخيالُ للوقتِ، هذا ما شرحه ذلك الأب كأنه عن غيرِه، وأما الآباء الذين كانوا معه فقالوا: «إنه هو الذي رأى ذلك».

حكى راهبٌ تقي قائلاً: إني في حالِ سفري لأسجدَ في أورشليم جئتُ إلى موضعٍ حيث كان هناك جَرفٌ عالٍ وفيه مغارةٌ، ومن تحتهِ يوجد ديرٌ، فدخلتُ إليه، فقال لي سكانُه إن أحدَ الرهبانِ أراد أن يسكنَ تلك المغارةَ، وسأل الرئيسَ في ذلك، فقال له: «يا ولدي، إنك لا تقدر أن تسكنَ المغارةَ، لأنك لم تُخضِع أسقامَ نفسِك بعد، ولا آلامَ جسمِك للقوةِ الناطقةِ، كما أنك لا زلتَ تجهل حيلَ إبليسِ المتفننةِ، فالأجود لك أن تقيمَ بالديرِ، وتخدم آباءَك وتربح صلواتِهم ولا تبقى وحدَك مقاتِلاً شياطين خبثاء». ولكنه لم يقتنع، فأفسحَ له الرئيسُ في ذلك، وصعد إلى المغارةِ ورفع السُّلمَ. وكان أحدُ الإخوةِ يُحضر له طعاماً ويرفعه في زنبيلٍ. ثم أن إبليسَ، الذي لم يزل محارباً للسالكين طريقَ الفضيلةِ، دبَّر له وهقاً ليرميه في هوةِ الكبرياءِ ويأخذه أسيراً، فظهر له في شكلِ ملاكٍ نوراني وقال له: «اعلم أيها الأخ، إنه لطُهرِ نيَّتِك وشرفِ سيرتك، أرسلني الربُّ خادماً لقدسِكَ». فأجابه الراهبُ: «وما الذي فعلتُه حتى تخدمني ملائكةٌ»؟ قال له ذاك: «إن جميعَ أعمالِك جليلةٌ عظيمةٌ، ازدريت بزخارف العا لمِ، وتنسَّكتَ، وتوافرتَ على الصومِ والصلاةِ والسهرِ، ثم انعزلتَ عن الرهبانِ، وسكنتَ وحدَك في هذا الموضعِ، فكيف لا تخدمك ملائكةٌ»؟

بهذه الأقوالِ وأمثالِها نفخ التنينُ في ذلك الراهبِ، وصار يأتيه في كلِّ يومٍ ويخاطبه بمثلِ هذا الكلامِ. ثم أنه حدث في بعضِ الأيامِ أن رجلاً وقع بين اللصوصِ وسلبوا مالَه، فهذا جاء إليه، فتقدَّم إبليسُ وجاء إليه في صورةِ ملاكٍ وقال له: «إن إنساناً مقبلاً إليك سرق اللصوصُ بيتَه ووضعوا ما أخذوه منه في مكانِ كيت وكيت». فأتى الرجلُ وسجد تحت المغارةِ فأجابه الراهبُ من فوق: «مرحباً بك يا أخي، قد عرفتُ حزنَك، إن لصوصاً أخذوا حاجاتك وهي كذا وكذا، وهي مخبأةٌ في المكانِ الفلاني، امضِ خذها وصلِّ عليَّ». فرجع الرجلُ إلى ذلك المكانِ ولما وجد أشياءَه ذُهِلَ، وأشاع الخبرَ بين الناسِ أن الراهبَ ساكنَ المغارةِ يعلمُ الغيبَ. فأقبل إليه جمعٌ غفيرٌ، رجالاً ونساءً وأحداثاً متسائلين، ودخل فيه الشيطانُ وصار يُخبر كلَّ واحدٍ بما ناله في زمانهِ، وبما يناله. فلما سمع رهبانُ ديرِه عجبوا كيف بلغ هذه المنزلةَ في زمنٍ يسيرٍ.

وفي يومِ الاثنين ثاني أسبوعِ القيامةِ، ظهر له إبليسُ وقال له: «اعلم أيها الأبُ، إنه لحسنِ سيرتِك فإن ملائكةً كثيرين مرسَلون خلفَك ليحملوك إلى السماءِ حتى تعاين المجالَ الذي هناك. وإن الإله المتحنن لم يشأ هلاكَه، فألهمه أن يُطْلِعَ الرئيسَ على هذا الأمرِ، فراسله بيد الأخِ الذي

يأتيه بالطعامِ، فلما سمع الرئيسُ بذلك أسرعَ بالمضي إليه وقال له: «يا ولدي لماذا استدعيتني»؟ فأجابه قائلاً: «بماذا أكافئُك يا أبي عن جميعِ ما عملتَه مع حقارتي»؟ فأجابه الرئيسُ: «وماذا عملتُ معك من الخيرِ»؟ فقال له: «خَيْرُك عليَّ كثيرٌ: بك استحققتُ لبس هذا الزي، بك سكنتُ هذه المغارةَ، بك بلغتُ أن أنظرَ ملائكةً، بك أُلهمتُ بعلمِ الغيبِ». فلما سمع ذلك قال له: «أأنت يا شقي تنظر ملائكةً وتعلم الغيبَ؟ أما قلتُ لك لا تصعد إلى المغارةِ لئلا تُضلك الشياطين»؟ فقال الراهبُ: «لا تقل هكذا يا أبي المكرَّم، إني بصلواتِك أنظرُ ملائكةً، وفي يوم الصعودِ ها أنا عتيدٌ أن أرتفعَ معهم إلى السماءِ بجسدي هذا، وإذا وصلتُ إلى هناك فإني أسألُ ربي يسوعَ المسيحَ أن يأمرَ بأن ترفعَك الملائكةُ أنت أيضاً، لتكونَ معي تعاين المجدَ الذي هناك». فلما سمع الرئيسُ هذا لطم على وجهِه وحدَّثه قائلاً: «لقد جُننتَ يا شقي، وضاع رُشدُك، ولكن على كلِّ حالٍ ها أنا مقيمٌ معك حتى أعاينَ آخِرَ أمرك، فإذا رأيتَ ملائكتَك الأرجاس، أعلمني». ثم أنه أمر برفعِ السُّلم، وأقام معه مصلياً الإبصالتس وصائماً، فلما كان اليومُ المعيَّن لارتفاعِه نظر الشياطينَ قادمةً إليه، فقال: «لقد جاءوا أيها الأب». حينئذ احتضنه الرئيسُ وصرخ بصوتٍ جهوري: «أيها الرب يسوع المسيح ابن الله، آزر الأخَ المخدوعَ». فأرادوا أخذَه من يدِ الرئيسِ، فزجرهم باسمِ الربِّ، فما كان منهم إلا أن أخذوا وزرةَ الأخِ وغابوا مقدارَ ساعةٍ، وإذا بالوزرةِ ساقطةٌ نحو الأرضِ. فقال له الرئيسُ: «أنظرتَ يا شقي ماذا فعل الشياطينُ بوزرتِك؟ هكذا أرادوا أن يعملوا بك». ثم أنه أحضر السُّلم وأنزل الأخَ معه إلى الديرِ ورسم له أن يخدمَ في المخبزِ والمطبخِ مدة سنة، وبذلك ذلَّل فكرَه.

قال القديس قاسيانوس الرومي: «كان إنسانٌ شيخٌ اسمه إيرنيس، هذا منذ أيامٍ قلائل، كابدَ سقطةً يُرثى لها قدام أعيننا، إذ هزأت به الشياطين، فهبط من تلك الرفعةِ إلى قعرِ الجحيمِ بسببِ شظفِ الطريقِ الذي سلكه، إذ سكن البراري مدة خمسين سنةً مستعملاً تقشف السيرةِ والنسك، طالباً أبداً أطرافَ البريةِ والتفرّدَ أكثر من كلِّ أحدٍ، فهذا بعد الأتعابِ الكثيرةِ، تلاعب به إبليسُ وطرحه في سقطةٍ تقيلةٍ، وسبَّب به للآباءِ القدماء الذين في البريةِ ولكلِّ الإخوةِ مناحةً عظيمةً، ولو أنه استعمل الإفرازَ لما لحقه ما قد لحقه. وذلك أنه تبع فكرَه في الأصوامِ والانفرادِ بعيداً عن الناسِ لدرجةِ أنه حتى ولا في يومِ الفصحِ المجيد كان يجيء مع باقي الآباءِ إلى الكنيسةِ

كي لا يضطره الحالُ إلى أن يأكلَ مع الآباء شيئاً مما يوضع على المائدةِ، مثل قطاني أو غيره، لئلا يسقط عن الحدِّ الذي حدَّده لنفسِه من النسكِ، فهذا ظهر له الشيطانُ بشبهِ ملاكِ نورٍ، فسجد له وأقنعه أن يرمي نفسَه في بئرٍ عميقةٍ ليتحققَ عملياً عناية الله، وأنه لن يلحقه ضررٌ عظيمٌ لعِظم فضيلتهِ، ولما لم يميز بفكرِهِ من هو هذا المشير عليه بهذه المشورةِ لظلامِ عقلهِ، فطرح نفسَه في بئرٍ في منتصفِ الليلِ، وبعد زمانٍ عرف الإخوةُ أمرَه، وبالكدِّ والتعبِ الكثيرِ انتشلوه وهو بين الحياةِ والموتِ، ولم يعش بعد ذلك سوى يومين ومات في اليومِ الثالثِ، وخلَّف للإخوةِ حزناً ليس بقليلٍ. أما الأب بفنوتيوس، فلما بعثته محبتُه للبشرِ، أمر بأن يُقدَّم عنه قربانٌ مثل المتنيحين، ذاكراً أتعابَه الكثيرة وصبرَه على شقاءِ البريةِ».

وراهبٌ آخر كان ينظر دائماً في قلايتهِ ضوءَ سراجٍ، فانقاد لعدم التمييز، وقَبِلَ في بعضِ الأوقاتِ شيطاناً على أنه ملاكٌ، فأمره ذلك الشيطانُ أن يُقدِّمَ للهِ ولداً له كان معه في الديرِ لينال بذلك كرامةَ أبي الآباءِ إبراهيم. فانقاد لهذه المشورةِ لدرجةِ أنه كاد يتمِّمها بالفعلِ، لولا أن الغلامَ نظره يسنُّ السكينَ بخلافِ العادةِ ويُجَهِّز ما يربطه به، فهرب منه ونجا.

كذلك راهبٌ آخر اسمه نومينوس، هذا أظهر من ضبطِ الهوى مقداراً زائداً، ومكث سنين كثيرةً حابساً نفسَه في قلايةٍ، فهذا تلاهت به الشياطينُ فيما بعد وهزأت به بإعلاناتٍ ومناماتٍ أظهروها له، فتهوَّد واختتن بعد أتعابٍ وفضائل جزيلةٍ فاق بها جميعَ الإخوةِ، لأن الشيطانَ لما رام خديعته أراه مراراً مناماتٍ صادقةً ليحسِّن قبول نفاقِه، ويجعله حَسِنَ الانصياعِ لقبولِ الضلالةِ التي كان عتيداً أن يمليها عليه أخيراً، فأراه في بعضِ الليالي شعبَ المسيحيين مع الرسلِ والشهداءِ مظلمين مكمَّدين معبَّسين مغمومين من كلِّ خزي، ثم أراه شعبَ اليهودِ مع موسى والأنبياءِ متلألئ ضياءً، باشاً مستبشراً، وعرض عليه المخادعُ قائلاً: «إن شئتَ نوال فرح وضياء هذا الشعب فتهوَّد واختتن». فيلوح من جميع ما قيل، أن السالف ذكرهم تلاهت بهم الشياطين لخلوِهم من نعمةِ الإفرازِ.

من كتابِ الدَّرج: المصدِّق المنامات يشبه من يريدُ أن يلحقَ ظلَّه ليُمسكَه، فإنَّ شياطينَ العجرفةِ ينذروننا في الحلمِ بما يكون مكراً منهم، فإذا تمت المنامات نتخشع نحن كأننا قد تقرَّبنا من نعمةِ النبوةِ، فيتعجرف فكرُنا جملةً، طائعين الشيطان. إن الشيطانَ هو روحٌ علاَّمٌ بما في

طقسِ الهواء، فإذا عرف أنه قد مات فلانٌ يسرع ويخبر به ويخدع الخفيفي العقول، وقد يتشكَّل دفعاتٍ بشكلِ ملاكِ نورٍ أو شهيدٍ من الشهداءِ، ويرينا ذلك في الحلمِ وإذا انتبهنا يملأنا فرحاً وأبهةً.

قال أحدُ الشيوخِ: حتى ولو ظهر لك ملاكٌ حقيقيٌ فلا تقبله بل حقِّر ذاتَك قائلاً: «أنا عايشٌ بالخطايا فلا أستحقُ أن أنظرَ ملاكاً».

جلس أحدُ الرهبانِ ناسكاً في قلايتِهِ، فأراد الشياطين أن يخدعوه بصورةِ ملائكةٍ، وإنهم أنهضوه للذهابِ إلى اجتماع الكنيسةِ وأروه أنواراً، فجاء إلى شيخٍ وقال له: «يا أبانا، إن الملائكةَ تأتيني بصورةٍ وتقيمُني لأذهبَ إلى اجتماعِ الكنيسةِ». قال له الشيخُ: «لا تقبل منهم ذلك يا ولدي، إنهم شياطين، فإذا أتوك قل لهم: أنا متى أردتُ قمتُ، ومنكم لا أسمع». وفي الليلةِ التالية جاء الشياطيُن فنبَّهوه كعادتهم، فأجابهم بما قاله له الشيخُ، فقالوا له: «هذا الشيخُ السوء الكذاب إنما يخدعك، فقد أتاه أخٌ يستعير منه شيئاً كان عنده، لكنه كذب وقال: ليس عندي، وصرفه دون أن يعطيه شيئاً». فجاء الأخُ في الغداةِ إلى الشيخِ وأخبره بما كان، فقال له الشيخُ: «أمّا ما طلبه الأخ مني وكان عندي ولم أعطه فذلك لأني عرفتُ أنه شيءٌ يسبب له خسارةَ نفسِه، فرأيتُ أن أتجاوزَ وصيةً واحدةً ولا أتجاوز عشر وصايا كي لا ينتهي أمرُنا إلى الحزنِ، فأما أنت فلا تسمع من الشياطين الذين يريدون أن يخدعوك». وبعد أن دعَّمه الشيخُ بالتعليم صرفه إلى قلايته.

دخل راهبٌ إلى البريةِ وكان يصوم الستةَ أيامٍ، وفي اليوم السابع كان يأتي إلى الصلاةِ ويتناول الطعامَ، ولا يزيدُ عن الصلاةِ كلمةً، فهذا مضى إليه الشياطينُ وخدعوه في أشياءٍ كثيرةٍ وأنذروه بأمورٍ جرت في بلدانٍ مختلفةٍ، فصدَّق بما خُيِّل له وظن بالمخيلين له أنهم أرواحُ قواتٍ قديسةٍ، واتفق وقتئذ أن مضى ليفتقد أخاً مريضاً وتظاهر لقومٍ كانوا هناك كأنه يحكي عن غيرِهِ فقال: «هل يمكن لإنسانٍ أن يعلمَ ما يجري في العالمِ»؟ فلما سمعوه فهموا أنه هو المخدوع، فزجروه قائلين: «إن شَغلتَ فكرَك بمثل هذا الخداع فلا تَعُد إلينا». وللوقت انتبه وندم، فلما عادت الشياطين تخبره، دعاهم كذبةً، وللوقت تغيرت صورهم إلى حيواناتٍ مفزعةٍ وتهددوه وانصرفوا عنه.

وراهب آخر اسمه ولاس، قورنثاني العقل متشامخ، هذا جاء إلى البريةِ وسكن مع الآباءِ لعدةِ سنين، وأتقن التقشفَ وشظفَ السيرةِ إلى أقصى غايةٍ، فخُدع من الأُبهةِ وتناهى في العجرفةِ كثيراً، وأقنعه إبليسُ بأنَّ الملائكةَ تخدمُه في كلِّ ما يحتاج إليه، وكما حكى عنه رفاقُه، إنه في وقتٍ من الأوقاتِ وهو يُخيِّط الزنابيلَ في ليلٍ معتمٍ داجٍ أن رمى بمسلةِ الخياطةِ على الأرضِ فظهرت له شمعةٌ بفعلِ إبليسٍ، فتعجرف واستكبر من هذا الحادثِ المرِّ، فاتفق أنَّ قوماً غرباءَ أحضروا إلى الإخوةِ فاكهةً، فأرسل الأب مقاريوس الطوباوي لكلِّ واحدٍ نصيباً بمقدار حفنةٍ، وأنفذ له ضمناً، فلم يأخذ ما أُرسل إليه، بل شتم وضرب موصِّلَه وقال له: «امضِ وقل لمقاريوس، ما أنا دونك لتُنفذ لي بركةً». فعلم الأب أنه قد خُدعَ، وبعد يومٍ مضى إليه ليعزيه، وقال له: «يا أخي لقد تلاهت بك الشياطينُ، فكُفّ واطلب من الله أن يرحمَك». فلم يُصغِ إلى كلامِه، فمضى من عندِه حزيناً متحققاً انخداعه، فلما رأى إبليسُ أنه قد انخدع له وانقاد إليه، تشكَّل له بشكلِ المخلصِ وأتاه بالليلِ مع شياطينِه كملائكةِ الربِّ حاملين أنواراً، وظهر له في كرةٍ ناريةٍ تخيَّل له في وسطها المخلص، وإن واحداً من الشياطين قال له إن المسيح قد أحب سيرتَك وقد جاء لينظرَك، فاخرج من قلايتِك ولا تعمل شيئاً آخرَ سوى أنك تقوم من بعيدٍ، وإذا نظرته قائماً وسطَ الكلِّ، خر له ساجداً، ثم ارجع إلى قلايتِك. فلما خرج ولاس وراء المصاف وحاملي الأنوار، وقف على بعدٍ وسجد لضد المسيح، وهكذا انخدع عقلُه المفسود لدرجةِ أنه جاء إلى البيعةِ في اليوم الثاني وبمشهدٍ من جماعةِ الإخوةِ قال: «إني لستُ في حاجةٍ إلى قربانٍ لأني بالأمس شاهدتُ المسيحَ». حينئذ ربطه الآباءُ بالحديدِ مدة سنةً كاملةً حتى كسروا عجرفتَه وكبرياءَه بسيرةٍ لا عجب فيها، وشفوا الضدَّ بالضدِّ على ما يقال. فإن كان مع غروس الفردوس نَبَتَ عودُ معرفةِ الشر والخيرِ، فلا عجب إن نبتت مع المناقبِ الشريفةِ أثمارٌ رديئةٌ تولِّد الموتَ، فيليق بالمفرزِ أن يكونَ كلَّ حين حذراً، لأنه مراراً كثيرةً تصير الفضائلُ الجليلةُ أسباباً لسقطاتٍ عظيمةٍ، متى لم يحكمها محكم بنيةٍ متضعةٍ ذات إفرازٍ، وعلى ما كُتب: «رأيتُ صدِّيقاً هالكاً ببرِه»، مع أن البرَ ليس لم يكن سبب الهلاكِ بل العجرفة.

وأيضاً شابٌ آخر إسكندري، كان رشيقاً ذكياً فطناً حسنَ السيرةِ، هذا بعد إحكامهِ سيرةً فاضلةً، وصل إلى ذروتها وبلغ غايتها بأتعابٍ كثيرةٍ وأعراقٍ جزيلةٍ، فتشامخ وتعجرف حتى أنه

رفع عنقَه على جميعِ الآباءِ، بتيه وأُبهةٍ، وتجاسر على شتيمةِ الكلِّ وفي جملتهم شَتَمَ القديس أوغريس قائلاً: «إن كلَّ الراسخين لتعاليمِك مخدوعون، لأنه لا معلم غير المسيح وحده»، واستشهد حسب جهالته قائلاً إن المخلص نفسه قد جزم قائلاً لا تدعوا لكم معلماً على الأرضِ. وأظلمَ عقلُه لتعجرفِه، فانحطَّ انحطاطاً يُرثى له، حتى أنه غُلَّ بالحديد. ولقد كان كثيرون يتحدثون بشدةِ نسكِه، وقال قومٌ إنه كان يصوم ثلاثة أشهر لا يأكل فيها إلا ما كان يتناوله من القربانِ في يومِ الأحد مع ما يتفق له مِن الحشائش البرية. ولقد كانت لي أنا به خبرةٌ مع ألبيانوس الطوباوي، ففي وقتٍ من الأوقاتِ مضينا إلى الإسقيط وكان بيننا وبين الإسقيط أربعين مرحلةً، أكلنا فيها دفعتين وشربنا ماءً ثلاثة أيام وهو لم يذق فيها شيئاً، بل كان يتلو محفوظاته وما كنا نلحقه ماشياً. وهكذا ضبطه العدو أخيراً لما اقتنع برأيِهِ وفي عروض ذلك أمسكته حمى محرقةٌ فما أمكنه الجلوس في القلايةِ، فمضى إلى الإسكندريةِ ولعل ذلك كان بسياسةٍ إلهيةٍ كما قال: دفع مسماراً بمسمارٍ. لأنه أسلم ذاتَه باختيارِهِ لعدم الإفراز، فوجد فيما بعد خلاصاً غيرَ طوعي، فصار يحضر المشاهد وطرد الخيل، ومن كثرةِ أكلهِ وغرامِهِ بشربِ النبيذ مال جداً لمحبةِ النساءِ، ولما شارف الوقوع في تلك البئرِ، حدث له، ولعله بسياسةٍ إلهية، أن مرض في عضوِ تناسلهِ مدة ستة أشهر حتى أن تلك الأعضاء تهرأت وسقطت منها وبها، وفيما بعد برئ وعاد عادماً تلك الأعضاء، فانتبه وذكر السيرة السمائية واعترف بجميعِ ما عرض له للآباءِ القديسين، ولم يفسح له الأجل فتنيح بعد أيامٍ قلائل.

وآخر اسمه أبطلما، عاش عيشةً يعسُر وصفُها، هذا أولُ أمرِهِ سكن فوق الإسقيط في الموضع المعروف بالمفارج، وهو مكانٌ لم يسكنه قط ساكنٌ من الآباءِ، وكان بينه وبين الماءِ ثماني عشرة مسافة، واتخذ لنفسِه جرةً ولقَّانين (وعاءين) وكان يجمع الندى بإسفنجٍ من على الصخورِ في شهريْ كانون الأول وكانون الثاني ويعصره في تلك الأوعيةِ ويرفعه للصيفِ، ومكث على تلك الحال خمسَ عشرةَ سنةً لا يكلم أحداً، وتغرَّب من ملاقاةِ رجالٍ أبرارٍ ومخاطبتهم، وعَدِمَ التعليمَ الروحاني والتناولَ من الأسرارِ الطاهرة، فجعل يبحث عن حقائقِ الأمورِ وغوامضها، فجُنَّ، وصار يقول: «إن الأشياءَ ليس له مدبرٌ وإنها موجودةٌ مدبَّرةٌ منها وبها، فلأيِّ شيءٍ أُشقي نفسي، وأيُّ ثوابٍ يكونُ لمن يبلغ إلى هذا التعبِ»؟ فلما أجال في فكرِهِ هذه الأفكار تَوَسْوَسَ وضاع عقلُه،

فنزل إلى مصرَ، وهكذا أخذ يدور من مكانٍ إلى مكانٍ ليلاً ونهاراً مطرقاً إلى أسفل وهو لا يحادث أحداً، وكان منظرهُ يُرثى له، كما كان كلُّ واحدٍ من النصارى يراه يبكي عليه إذ صار ملهاةً ولعبةً لمن لا يعرفُ سيرتنا، وقد لحقت به هذه المصيبةُ الكبرى لتيههِ وصلفِه وظنهِ بنفسِه أنه قد فاق سائرَ الآباءِ ظاناً بنفسِه ما ليس هو فيه، ومن حيث أنه لم يصغِ إلى مشورةِ أحدٍ من الآباءِ فقد هبط هبوطاً فظيعاً ومات أشرَّ ميتةً. ويشبه حالُه حالَ شجرةٍ مورقةٍ وبالأثمارِ مخصبة، ضربتها ريحٌ شديدةٌ فسقطت بغتةً وتعرَّت من أوراقها وأثمارها وبقيت يابسةً، وهذا هو ما يلحقُ بمن يتدبر برأي نفسِه ولا يسمع مشورةَ الحكماءِ.

وجاء كذلك عن بكرٍ كانت بأورشليمَ حبيسةً في قلايةٍ ست سنين لابسةً مسوحاً، هذه تنسَّكت نسكاً زائداً ولم تأكل شيئاً لذيذاً البتة، فمنعها الآباءُ من ذلك لكنها لم تُصغِ إلى مشورةِ أحدٍ، فتعرت من معونةِ الله لعجرفتِها لما أعجبتها نفسها، فتباعد عنها حافظُ عفتِها، وسقطت سقطةً يُستعاذ منها، فقد فتحت بابَ حبسِها وأدخلت إليها إنساناً كان يخدمها وكلفته بمفاسدها وقد لحقتها هذه المصيبةُ لما جعلت قصدَ نسكِها للمراءاة، ولظنِها أنها صارت أفضلَ من كثيرين، فلما تملكتها الأبهةُ، وقعت في يدِ إبليسِ.

كما أن إنساناً اسمه إبراهيم، كان راهباً قبطياً، هذا عاش في البريةِ عيشةً يعسُر تحريرُها، فلما تَسقَّه أصاب عقلَه مرضُ الكبرياءِ، فجاء إلى البيعةِ مخاصماً القسوس قائلاً: «لقد سامني المسيحُ قسيساً في هذه الليلةِ، فاقبلوني أكهن». فأخرجه الآباءُ من الكنيسةِ وساقوه إلى سيرةٍ أغلظَ من غيرها، فشفوه من ألمِ الكبرياءِ وعرَّفوه ضعفَه، وحققوا له أنَّ شيطانَ العجرفةِ قد تلاهى به. ولقد رأينا أيضاً متوحداً ساكناً مغارة، لعبت به المنامات فعاين هوائيات وطارد خيالات، فضاع عقلُه وفسد قلبُه وسقط من السيرةِ الفاضلةِ، ومات مجنوناً.

وأخٌ آخر جلس في بريةٍ ملآنةً من الشياطين مدةً من الزمانِ، وكان يظن أنهم ملائكةٌ، وكان والده يزوره من حينٍ إلى حينٍ، وفي بعضِ الأيامِ أخذ منه فأساً ليحتطبَ به ويعيده إليه، وحدث في عودته إليه أن سبقَ أحدُ الشياطين وقال له: «إن شيطاناً يشبه أباك آتٍ ومعه فأسٌ في زمبيلِهِ يريد أن يضربَك به»، فلما جاء أبوه حسبَ عادتهِ، أخذ الابنُ الفأسَ وضربه فقتله، وللوقت صرعه الروحُ النجسُ وخنقه.

وفي بعضِ الأوقاتِ جاء إخوةٌ إلى الأب أنطونيوس يخبرونه عن أحلامٍ يرونها ليعلموا هل هي حقيقيةٌ أم من الشياطين، وكان معهم أتانٌ قد مات في الطريقِ. فلما سلَّموا عليه ابتدرهم قائلاً: «كيف كان طريقُكم؟ وكيف مات الأتانُ الصغير»؟ فأجابوه: «مِن أين علمتَ يا أبانا»؟ فقال لهم: «إن الشياطينَ أروني ذلك في الحلمِ». فقالوا له: «ونحن لهذا الأمرِ بعينِهِ جئنا نسألك، لئلا نضلَّ، لأننا نرى أحلاماً ونصدقها مراراً كثيرةً»، فأكد لهم الشيخُ من حالِ الزمان الذي أخبرهم به، أن هذه التخيلات من الشياطين.

وقال أيضاً: «وإنْ تظاهرَ الشياطين بسابقِ المعرفةِ، فلا تَمِل إليهم، لأنهم يخبرون بأشياءٍ كثيرةٍ قبل كونِها بأيامٍ، ليقنعوا الذين يصغون إليهم بصدقِهم، فإذا صدَّقوهم أضلوهم بعد ذلك وأهلكوهم بمداغلتهم واغتيالهم، أما هم – أعني الشياطين – فليس لهم سابق معرفة، لأن عِلمَ الغيبِ لله وحده، وإنما هم سعاةٌ خفيفون مسرعون في الهواء، والذي يرونه يسبقون وينذرون به، فاطلبوا من الله ليؤازركم على دحضهم، ومتى طرقوكم ليلاً على أنهم ملائكةٌ، لا تصدقوهم لأنهم كذبةٌ».

وقال أيضاً – أعني القديس أنطونيوس: «إذا ما بدأ الإنسانُ في المجيء من بلدةٍ بعيدةٍ، فعندما يراه الشياطين هكذا، يسبقون وينذرون بمجيئهِ قبل أن يجيء، وقد يتفق مراراً كثيرةً أن ذلك الإنسانَ يُعاق أو يرجع لعارضٍ ما، فيظهر كذبُ الشياطين، وهكذا يَهْذُون عن ماءِ النيل، لأنهم متى عاينوا الأمطارَ الكثيرةَ في بلاد الحبشةِ، يعرفون أن ماءَ النهرِ يكون كثيراً، فيسبقون ويخبرون بذلك. وكما كان ديدبان داود الملك يقف في أعلى موضعٍ فينظرَ ما لم ينظره من كان تحته فيخبر به، هكذا هؤلاء الأرجاس أيضاً يفعلون ذلك ليُضلّوا».

كان إنسانٌ اسمُه دكياس يسكن جبلاً من أعمالِ أورشليمَ، هذا لم يصلِّ مع أحدٍ جملةً، وبغتةً تجاسر على أن يخدمَ القداس وهو علماني.

وآخر سكن طور سيناء، وكان يظن أنه يسلك سلوكاً حسناً، هذا عجرفته الشياطين في المنامات، وتخيل أنه قَبِل شرطونية الأسقفية، فجلس وأخذ يعمل عملَ الأساقفةِ.

من رسالةٍ للقديس سمعان: جميعُ المناظرِ التي يمكن للناس إبانتها في الأجسامِ، إنما هي من تخايل أفكارِ النفسِ وليست من أفعال النعمةِ، لأن من شأنِ هذا الأمرِ أن يتبعَ الرهبانَ الشديدي

البحث والفرنسة، محبي العجرفة، الجانحين إلى الكبرياء والأبهة، المتمسكين بالرفيعات، المرائين.

قال شيخٌ: «من شأنِ شيطانِ السبح الباطل أن يعارض الرهبان بعجرفتين: إحداهما يُقال لها عجرفةٌ علمانيةٌ، لأنها ليست من مناكب السيرةِ، وليس إحكامُها عائداً إلى نَصَبِ الإنسانِ وتعبه، مثال ذلك: التيه بجاهِ الرئاسةِ، التباهي بشرفِ الجنسِ، الاغتباط بكثرةِ الغنى، بتزين اللباس، بقوةِ الجسم، بفصاحةِ المنطق، وكل ما شاكل هذه. أما الأخرى فيقال لها عجرفةٌ رهبانية، مثال ذلك: شدة الصوم والنسك ومداومة السهر، ملازمة الصلاة، البعد عن الناس، التجرد من المقتنيات ومن كلِّ شيء، وما شابه ذلك، وهذه الفضائل وإن كانت مرتفعةً في ذاتِها، إلا أن النيَّةَ السقيمةَ تحطُّ من شرفِها، والنتيجةُ المتولدةُ من ذلك: إضاعةُ الأجرِ، لأنه مكتوبٌ: لقد أخذوا أجرَهم».

وأيضاً إنسانٌ اسمُه ماليطون كان يرى آراءً غريبةً، ويتجاسر على العظائمِ، هذا تنسك محتملاً الأتعاب والمعاطب الكثيرة، متشبثاً بإمساك الهوى لأبعدِ غايةٍ، وعلى ما قيل إنه تتلمذ لأوليانوس الطوباوي مدةً من الزمانِ، وصَحِبَه إلى طور سيناء، وإلى بلد القبطِ، وشاهد أنطونيوس الكبير وصَحِبَه، وصاحَبَ غيرَه من القديسين الكبار، وسمع منهم أقوالاً كثيرةً تتعلق بالطهارةِ وخلاصِ النفوسِ، وأشياءً كثيرةً من التذكاراتِ التي تهوِّن من احتمال المصاعب، وما يتعلق بمناظرِ الروح، وسمع أيضاً أنه يمكن للنفسِ إذا ما نُظِّفتْ كما يجب وبلغت إلى عدمِ الانفعال، أي أنها إذا ألقت عنها – بحفظ الوصايا – لِباس الآلام العتيق، وثبتت ثباتاً قوياً بالله على صحتِها الطبيعية التي كانت لها أولاً، فإنها حينئذ تبلغ إلى المناظرِ الإلهية، فهذه الأمور وما شاكلها لما سمعها ماليطون، التهب بالعجرفةِ كالملتهبِ بالنارِ، ثم أنه انفرد في موضعٍ وانفصل من الاجتماعِ بالباقين، وعكف على نَصَبٍ وتعبٍ طويل، وتبتَّل للصلواتِ الكثيرةِ والطلباتِ ليحظى فقط بما كان يأمل فيه من المناظر الرفيعة التي سمع بها، وكان شغوفاً بنوالِها، مع أنه لم يكن قد احترف صناعتها، أي تواضع اللبِّ وتمسكن القلبِ، وجعل اعتمادَه على مواصلة الأتعابِ والتوفر على الأصوامِ دون أن يذلِّلَ ذاتَه أو يُخضع عقلَه جملةً، ودون أن يفهم حيلَ وكمائنَ إبليسِ المحارب، ولم يُصغِ إلى القول القائل: «إذا أكملتم كلَّ شيءٍ فقولوا إننا عبيدٌ بطالون». بل تعجرف عقلُه بالكبرياءِ والأبهةِ، فلما نظر الشيطانُ أنه لا همَّ له إلا في عدمِ تمسكن العقلِ، ولا غرضَ له سوى

تأمِلِ نوالِ المناظر العالية، فأظهر له ذاتَه محاطاً بمجدٍ عظيمٍ ونورٍ كثير، وقال له: «أنا هو الباراقليط، أُرسلتُ الآن من الآبِ إليك لأهبَكَ شيئاً من المناظرِ الرفيعة جزاءً لأتعابك الكثيرة هذه المدة الطويلة، لأنك أكملتَ زمانَ العملِ، وقد حان أوان الراحةِ». وطلب منه السجود له، ففرح جداً بما سمع ولم يشعر بالعطبِ، وللوقت خرَّ ساجداً له، فلما نال العدوُ السجودَ الذي أراده، استولى عليه بالكليةِ، وأعطاه تخيلات شيطانية عوض المناظر الإلهية، التي كان يشتاق لرؤياها، وفرغ من الأتعابِ والأعراقِ كأنه قد بلغ إلى عدمِ الانفعال، وقال له: «إن كنتَ أنت قد بلغتَ إلى هذا الحدِّ من عدم الآلام، فليست هناك حاجةٌ بعد إلى تعبٍ وعرقٍ جسدي». ومن ههنا جعله إبليس مقدماً وإماماً لمقالة (أي بدعة) الساجدين المصلين، فلما انكشف أمرُه للأسقف، أبعده ورذله ونفاه بعيداً.

قال الأب أوغريس: «لا تصوِّر بعقلِك اللاهوتيةَ أشكالاً وأنت تصلي، ولا تسمح لعقلِك بالجملةِ أن يتصوَّر الإله بشكلٍ ما، لكن تعالى إلى غير الهيولي، بغير (تصوُّر) هيولي، فإنك تجد فهماً يليق بغير الهيولي أعني الإله. احفظ ذاتَك من مصايد المحاربين لأنهم إذا رأوْك تصلي بنقاوةٍ يجعلون أشكالاً غريبةً تظهر قدامك بغتةً ليجذبوك إلى كبرياءِ القلبِ، وذلك بأن يصوِّروا لك اللاهوتية، ويجعلونك تظن في نفسِك أن الذي ظهر لك هو الإله، والله ليس له شبه ولا قياس ولا صفة».

من قولِ مار إسحق: «كلُّ الذين يزعمون أن المسيحَ بعد ارتفاعهِ إلى السماءِ يظهر خارج الإنسانِ بشبهٍ تراه عينُ الجسدِ، هم رفاق أولئك القائلين: إنَّ نِعَمَ الملكوتِ أكلٌ وشربٌ».

قال شيخٌ روحاني: «في أي وقتٍ تبصر فيه الثاؤريا شبهَ نارٍ مُرَكَّبة، فاعلم أن هذا هو فخُ الدَّغَل (أي الفساد) الذي يريد أن يصطادك به للهلاك. وإن كان بشبه قرصٍ يُرى قدامك، أو شبه كوكبٍ أو قوسٍ قُزَح الذي يُرى بالسحابِ، أو شبه كراسي أو مركبةٍ أو خيلِ نارٍ، فهذه كلها من طغيان الشياطين، وباختصارٍ أقول: إنَّ كلَّ شيءٍ تراه خارج منك بهذه الأشباه، فهو من طغيان الشياطين، إنَّ منظرَ الثاؤريا بسيطٌ وليس بشيءٍ مركَّب».

كان إنسانٌ من بلد الرها اسمه أسبيانوس، هذا وضع فصولاً ولحسنها تُقرأ إلى الآن، وقد حدث أن استولت عليه الكبرياءُ فأسلَمَ ذاتَه، فعرَّضها لأتعابٍ كثيرةٍ وأعراقٍ جزيلةٍ وصعوباتٍ

شديدةٍ بلا إفرازٍ ولا تمييز، ليحظى بالمديح من الناسِ، فخدعه إبليسُ وأخرجه من قلايته، وأوقفه على الجبلِ المسمى ابسوتريون، وأركبه مركبةً وأراه خيلاً غيرها ومركباتٍ أخرى، وقال له: «إن الله يستدعيك على الصفةِ التي استدعى بها إيليا»، فلما صدَّق قولَه، ارتفعت به المركبةُ، وللوقت تلاشت الخيالات، وسقط هو على الأرضِ من علوٍ شاهقٍ فتحطَّم وحظي بميتةٍ يُبكى منها، بدلاً من الرفعةِ الرفيعةِ التي أمَّلها. فشرحُنا هذا ليس جزافاً، كي لا تخفى عليك عراقيل الخبيث العطشان إلى هلاك الناس، فاحذر أن تشتاق أيها السامع إلى تلك الأمور التي تعلو قدرتك، قبل أن تحظى بذلك من النعمةِ، ولا تطلب الصعودَ في سُلَّمِ المناظرِ المنصوبةِ للسقوطِ والقيام، لئلا تطلبها قبل الأوان، فتُحسب مع الساقطين، وتُصبح أضحوكةً للشياطين.

من سيرة القديس إبيفانيوس: ظَهَرَ في أيامِ إبيفانيوس بقبرص شابٌ دُعي الفيلسوف، فجادله علماءٌ كثيرون، فكان يُفحمهم مقنعاً إياهم بأقوالِه، وكان يأتيه كهنةٌ كثيرون وأساقفةٌ فيقنعهم بإقناعاتٍ، فتكاسل الأكثرون عن مجادلتهِ، وتراجعوا عن مفاوضتهِ، وذاع صيتُه حتى وصل خبرُه إلى بافوس، حيث تحدثوا بحكمتِه وقوة منطقِه ومقدرتهِ على الجدال حتى ضلَّ بسببهِ الكثيرون. فلما رأي إبيفانيوس ذلك حزن متفكراً في نفسِه ثم قال: «ومن يكون هذا الشاب المفتخر بعلومٍ كاذبةٍ أمام إيمان السيد المسيح»، وإنه تسلَّح بالإيمان، وأمر بأن يحضروه إليه، فمضوا وقالوا له: «الأسقف إبيفانيوس يستدعيك». فقام وجاء إليه، فلما حضر عنده لم يتكلم معه، بل انتصب للصلاةِ أولاً، فلما بدأ الأسقف بصلاتِهِ أخذت الشابُ رعدةٌ، وصرَّ بأسنانِه، فتعجب الكلُّ لذلك كثيراً، فلما شعر الأبُ بقوةِ الصلاةِ، بدأ يطلب إلى الله قائلاً: «يا ربُّ، اشفِ هذا الشقي العليل من هذا المرض، حِلّ أَسرَه وأظهر الشيطانَ المستتر فيه، واعتق جُبلتَك منه». عند ذلك صرَّ بأسنانِهِ وأزبد، واحمرت عيناه وصرخ بصوتٍ عظيمٍ قائلاً: «أأنت يا إبيفانيوس تخرجني من مسكني»؟ فقال له: «الربُّ يسوعُ المسيح يخرجك من جبلتهِ». قال له الشيطان: «إنك لم تعرفني من أنا». فقال له الأسقف: «ومن أنت»؟ قال: «أنا هو الذي تكلمتُ في ذاك المدعو أوريجانوس». قال له الأسقف: «إن كنتَ أنت الذي تتكلم، فقل لنا بَدءَ الكتابِ الذي صنَّفه ذلك الشقي». فبدأ إبليس يشرح بَدءَ المصحفِ، فقال له القديس: «بالحقِ أنت هو المصنِّف لهذه الشرور العظيمة». ولم يحتمل الأب أن يسمعَ أكثرَ، فقال له: «اصمت يا

ابن جهنم، أنا آمرك باسم الربِّ يسوعَ المسيحِ أن تخرجَ منه ولا تؤذِهِ». فصرعه على الأرضِ وخرج منه، فلما أفاق ورجع إلى نفسِه، سألوه: «من أين كانت لك القدرةُ على ذلك المنطق العظيم والنحو والفلسفةِ»؟ فقال: «لستُ أعلمُ ما تقولونه، ولا كيف كنتُ أتكلم، ولا كيف أتيتُ إلى هنا». فعجب الحاضرون وخافوا من ضرباتِ العدو.

في أيام باسيليوس الملك، ظهر من بلدة مقودنية راهبٌ مُضل في شكل إنسانٍ وديعٍ، مجترح آياتٍ، عالم بالغيبِ، هذا توسط له البطريرك فوتيوس مع الملك وجمع بينهم، فمال الملكُ إليه وأكرمه كرامةً زائدةً، وكان للملك ولدٌ اسمه قسطنطين توفي، فلما رأي الراهب إفراط الملك في الحزنِ على فقدِ ولدِهِ، وعده بأنه سوف يريه إياه حياً، وفعل ذلك بالخديعةِ إذ بينما كان الملكُ عابراً ببعضِ المواضع، فرأى شيخاً راكباً على فرسٍ لابساً حلةً منسوجة بالذهبِ في صورةِ ابنه، فعانقه ظاناً أنه ابنه حقيقةً، ثم غاب عنه، وعمَّر في ذلك الموضعِ ديراً على اسم القديس قسطنطين ابن الملك.

قال الشيخ أوغريس: «لا تشتَق أن تنظرَ ملائكةً أو قواتٍ، أو المسيحَ حسياً، لئلا يضيع عقلُك بالكليةِ، وتقبل ذئباً بدلاً من خروفٍ، وتسجد لأعدائك الشياطين، لأن بدء ضلالةِ العقلِ التيهُ والكبرياءُ، إذا ما بدأ العقلُ يتحرك في العجرفةِ، فإنه يروم أن يُحضرَ الإلهَ في صوَّرٍ وأشكالٍ، لذلك يجب ألا تجهل هذا الغشَ، وهو أنه في وقتٍ ما، يقسِّم الشياطين ذواتَهم، فبعضٌ منهم يبدءون بمحاربتك، ويحققون عندك أنهم شياطين، فإذا طلبتَ المعونةَ، تجد البقيةَ يدخلون إليك في شكلِ ملائكةٍ قديسين – وهم شياطين – ويطردون أولئك الأولين ليخدعوكَ، فتظن أنهم ملائكةٌ قديسون، وهم شياطين، كذلك تُوَسوِسُ لك الشياطينُ في وقتٍ ما بأفكارٍ، ثم يحركونك للصلاةِ عليهم ومقاومتهم، فينصرفون باختيارهم، كي ما إذا انخدعتَ ظننتَ بنفسِك شيئاً، فتتكبر كأنك قد بدأتَ أن تقهرَ أفكارَك وتُفزِع الشياطين».

من كلام أنسطاسيوس السينائي: ليس كلُّ من يعملُ آياتٍ فهو قديسٌ، بل نجد كثيرين يعملون آياتٍ وتتلاعب بهم الشياطين، لأننا قد فهمنا من حالِ أسقفٍ هيراطيقي اسمه مقدونيوس، محارب الروح القدس، أنه قد نقل شجرةَ زيتونٍ من موضعِها وغرسها في موضعٍ آخر بشكلِ الصلاةِ، وحدث كذلك أن كان رجلٌ ظالمٌ قد أزعج امرأةً أرملةً لأجلِ دَينٍ كان له على

زوجِها، وزاد قيمةَ الدينِ عن الحقيقةِ، ولم يكن الميت قد دُفن بعد، فما كان من ذلك الأسقف المذكور إلا أن جعل الميتَ يتكلم ويخبر بمقدارِ الدَينِ. كذلك لما مات ذلك الأسقف الهيراطيقي، ظهرت عند قبرِهِ خيالاتٌ كثيرةٌ وعُملت آيات، من أجل ذلك لا يجب أن تقبلَ كلَّ من يصنع آياتٍ قائلاً إنه قديسٌ، بل يجب أن يُمتحنوا ويُختبروا على رأي القائل: «لا تصدقوا كلَّ روحٍ، بل جربوا إن كان ذلك الروحُ من الله، لأن أنبياءَ كثيرين كذابين قد خرجوا إلى العالم». والرسول يقول: إن هؤلاء رسلٌ كذابون وفعلةٌ غاشون، متشبهون برسلِ المسيح، وإن كان الشيطان يظهر بشكلِ ملاكِ النور، فلا عجب إن كان خدامُه يصنعون آياتٍ وأشفيةً جسديةً ليخدعوا من كان سهلَ الانقيادِ لخداعِهم، وقد يُظهرون أحياناً ميتاً قائماً بواسطةِ صلاةٍ بطالةٍ من إنسانٍ مضل، وذلك بأن يدخلَ إبليسُ في جسدِ الميتِ ويحركه ويخاطب الأحياءَ من وجهِ الميتِ، ويُجيب الإنسانَ المخدوعَ عما يسأله، ويخبر عن أشياءٍ خَفيّةٍ وعما عمله قومٌ سراً، حتى إذا وثقوا به أنه صادقٌ، سهل عليه إدخال الضلالةَ التي تخصه. كذلك يتجاسر الشياطين على أن يُحدِّثوا عن خصبِ الأرضِ وجدبها، واختلافات الأهوية وكثرة الأمطار وقلتها وما شاكل ذلك، كما يمكنهم فهم آراء الناسِ من إشارات وإمارات يرونها في الإنسانِ أو يتصيدون ذلك من وجوهٍ أخرى، وليس ذلك فقط، يل ويسبقون فينذرون بموتِ قومٍ من الناسِ، لأن العنايةَ الإلهيةَ قد وضعت علاماتٍ في جسمِ البشرِ كما يعرف ذلك أولئك الذين حذقوا صناعة الطب حذقاً بليغاً، إذ يستدلون على موتِ الناس من علاماتٍ تظهر فيهم من زيادة الكيموسات ونقصان الدم، وتغير المزاجات وغير ذلك، لا سيما أن الشياطين أرواحٌ لطيفةٌ، وأيضاً لطولِ زمانهِم وكثرةِ تجاربهم. فالنساء العرّافات والمنجمون يُحدِّثون بما يحكم به الشياطين، ليس عن سابقِ علمٍ، بل لزيادة التجربةِ. وليس ذلك مقبولاً، فقد عرفنا قوماً سحرةً مشعوذين، قد صنعوا آياتٍ متنوعةً من فعلِ الشياطين، مثل هاروت وماروت اللذين كانا على عهد موسى، فإنهما جعلا عصيهما حياتٍ، وقلبا المياهَ دماً، وأصعدا من المياهِ كثرةً من الضفادع. كذلك سيمون الساحر في عهد الرسل، فكم من الآياتِ الفنطسية (أي الخيالية) صنع، فلقد حرَّك أصناماً وجعلها تمشي، وطُرح في النار ولم يحترق، وطار في الهواءِ، وحوَّل حجارةً إلى خبزٍ، وصار حيةً، وتشكل بهيئةِ حيواناتٍ، وفتح أبواباً مرتجة، وفك قيوداً، وحل حديداً، وعلى الموائدِ أظهر أشكالاً، وجعل ظلاً يتقدمه زاعماً أنه من أرواح الذين

ماتوا، وإذ رام كثيرون من السحرةِ أن يفضحوه، غيَّر شكلَه، ثم بحجةٍ ما، دعاهم إلى وليمةٍ حيث ذبح ثوراً وأطعمهم، فنزلت بهم أسقامٌ كثيرةٌ، وصرعتهم شياطين مَرَدةٌ، وأخيراً لما طلبه الملك، فزع منهم، وهرب وطرح شكلَه على غيرِه.

من كلام البابا أثناسيوس: سؤال: «كيف يصنع الهراطقةُ آياتٍ كثيرةً»؟ الجواب: «سبيلُنا ألا نستغرب ذلك، لأننا قد سمعنا الربَّ قائلاً: إنَّ كثيرين يقولون لي في ذلك اليوم يا ربُّ يا ربُّ، أليس باسمك تنبأنا، وأخرجنا شياطين، وصنعنا قواتٍ كثيرةً؟ فأقول لهم، إني لا أعرفكم قط، انصرفوا عن يا فاعلي الإثم. فعلى أكثرِ الحالاتِ يتسبب الشفاءُ بإيمان المتقدم وليس بسيرة المجترح، لأنه مكتوبٌ: إن إيمانَك خلَّصك. لأن ليس في الأرثوذكسية فقط اجتراح آياتٍ، بل وقومٌ أردياء الاعتقاد، مراراً كثيرةً تقشفوا وقدموا لله أتعاباً، فأخذوا أجرَهم في هذا العالَمِ منحةً من الله، كشفاءِ الأمراض لكي ما يسمعوا ذلك في العالَمِ العتيدِ: إنك قد استوفيتَ خيراتك في حياتِك».

من سيرة الأب باخوميوس: لما سمع بسيرةِ الأب باخوميوس قومٌ من رهبانٍ هراطقةٍ، أرسلوا إليه جماعةً لابسين شعراً وقالوا للإخوةِ: «إنَّ كبيرَنا مقدونيوس قد أرسلنا إلى أبيكم قائلاً: إن كنتَ رجلَ اللهِ حقاً وما سمعناه عنك صحيحاً، فتعالَ لنعبرَ أنا وأنت النهرَ ماشييْن بأرجلنا على سطحِ الماءِ، فيعرفَ كلُّ واحدٍ عملياً من منا له دالةٌ ووجاهةٌ عند اللهِ». فعرَّف الإخوةُ الأبَ بذلك، فأنكر عليهم ذلك قائلاً: «لماذا أجزتم سماعَ هذا الكلامِ بالجملةِ؟ أما علمتم أن هذه المسائل بعيدةٌ عن الله، ولا تقبلها سيرتُنا؟ لأنه أيُّ ناموسٍ يأمر بهذا ويبعثنا على القيام به»؟ فقال الإخوةُ: «أيتجاسر هيراطيقي بعيدٌ عن الله أن يستدعيك لمثلِ هذا»؟ فأجابهم: «قد يمكن للهيراطيقي أن يعبرَ على ظهر النهرِ كعبورِه على أرضٍ يابسةٍ بمظافرة الشيطان إياه، وبسماحٍ من الله، حتى لا ينفك كفرُه. فامضوا وقولوا لهم: هكذا قال عبدُ الله باخوميوس: إن حرصي أنا، هو هذا: ليس لكي أعبرَ هذا النهرَ ماشياً، بل كيف أعبرُ دينونةَ اللهِ الرهيبةَ وأن أعبرَ كذلك ذلك النهرَ الناري الجاري قدام مجيء السيد المسيح، وأن أعبرَ أيضاً هذه الأعمال الشيطانية بقوةِ الربِ». ولما قال هذا الكلام أقنع الإخوةَ بأن لا يفتخروا بأعمالِهم، ولا يشتهوا اجتراح الآياتِ، ولا يجربوا الله البتة على رأي القائل: «لا تجرب الربَّ إلهَك».

للقديس مقاريوس الكبير: سؤال: «ماذا يعمل الإنسانُ المخدوع بأسبابٍ واجبةٍ وبإعلاناتٍ شيطانية تشبه الحقيقة»؟

الجواب: «يحتاج الإنسانُ لذلك الأمرِ إلى إفرازٍ كثيرٍ ليميزَ بين الخيرِ والشرِ، ولا يُسلِّم نفسَه بسرعةٍ، فإن أعمالَ النعمةِ ظاهرةٌ، التي وإن تشكَّلت بها الخطيةُ فلا تقدر على ذلك، لأن الشيطانَ يعرفُ كيف يتشكَّل بشكلِ ملاكِ نورٍ ليخدعَ، ولكن حتى ولو تشكَّل بأشكالٍ بهيةٍ، فإنه لا يمكنه أن يفعلَ أفعالاً جيدةً، ولا أن يأتي بعملٍ صالحٍ، اللهم إلا أن يسببَ بذلك الكبرياءَ، أما فعلُ النعمةِ فإنما هو فرحٌ وسلامٌ ووداعةٌ، وغرامٌ بالخيراتِ السمائية، ونياحٌ روحاني لوجهِ الله، وأما فعلُ المضادِ فبخلاف ذلك كلِّه، فهو لا يُسبب تذللاً ولا مسرةً ولا ثباتاً، ولا بغضاً للعالمِ، لا يُسكِّن الملاذ، ولا يهدئ الآلام، فإذن من الفعلِ تَعلَم النورَ اللامعَ في نفسِك، هل هو من اللهِ أو من الشيطانِ، والنفس بها إفرازٌ من إحساسِ العقلِ، به تعرف الفرقَ بين الصدقِ والكذب، كما يميز الحنكُ الخمرَ من الخلِ، وإن كانا متشابهيْن في اللونِ، كذلك النفسُ من الإحساسِ العقلي تميز المنحَ الروحانية من التخيلاتِ الشيطانية».

قيل عن القديس بفنوتيوس: إنه حظي بمعرفة الكتبِ الإلهية حديثةً وعتيقةً، يتلوها جميعاً عن ظهرِ قلبٍ، رغم أنه لم يتخذ كتاباً، وكان وديعاً إلى أبعدِ غايةٍ، هذا مكث سبعين سنةً لم يملك فيها ثوبين. ولما وجدتُه أنا وأوغريس الطوباوي وألبيانوس طالبناه بمعرفةِ أسباب الإخوةِ الساقطين والمنحرفين عن السيرةِ اللائقة. واتفق في تلك الأيامِ أن توفي ساربمون الناسك وهو جالسٌ في مقبرةٍ ممسكاً بالضفيرةِ، كما اتفق لأخٍ آخر أن هوى عليه الجبُ بينما كان يحفرُه فَطَمَره، كذلك حدث لأخٍ آخر كان حاضراً من الإسقيط أن مات مخطوفاً فجأةً، وتجارب حال اسطفان وأفرونيوس الساقطين في زنىً قبيح، وإيرن الإسكندري وأولس الفلسطيني وفطمس الإسقيطي، وفحصنا الأسبابَ التي تؤدي بقومٍ ذوي فضيلةٍ ساكنين البرية، إلى أن تفسد عقولُ بعضِهم، وتستولي الحنجرةُ على آخرين، ويكابد الفسقَ آخرون، فأجاب: «السببُ في ذلك هو أن جميعَ ما يصير في الناسِ ينقسم إلى قسمين: قسمٌ بمشيئةِ الله وقسمٌ بسماحٍ منه، وبين المشيئة والسماح فرقٌ ليس بقليل، فكلُّ ما كان من الصلاحِ والخير فهو بمشيئة الله، وكلُّ ما كان من الأمور المهلكةِ فإنه يحدث بسماحٍ منه، والسماح يقع من شرِّ المخدوعين، وعدم الشكر للمعطى

على نعمتهِ، فلما يستولي على البعضِ الجهلُ والأبهةُ والعجرفةُ، فإنهم ينسبون صلاحَهم إلى أنفسِهم أي كأنهم بكثرةِ حرصِهم وتعبهم أحكموا ما أحكموه، فيترفعون على غيرِهم من إخوتهم الأصفياء، فيسمح اللهُ الصالحُ بسقوطهم أي يعريهم من معونته فيحصلون في السقطةِ التي سبَّبها الشيطانُ لهم، وأيضاً يتفق لقومٍ يشتهون تحصيل المناظر والإعلانات بدون استحقاقهم ذلك من النعمةِ، فتحزنهم الشياطين بمناظر كاذبةٍ».

كان إنسانٌ اسمُه اصطفان، سالكاً طريقَ النساكِ ساكني البريةِ، هذا أقام في مصارعةِ التقشف سنين عديدة، وكانت قلايته في منحدرِ الجبلِ الذي سكنه إيليا، وفي أواخر أيامهِ صعد إلى ذروةِ الجبلِ في مواضع حرجةٍ مغشوشةٍ ليس فيها عزاء، فأقام هناك مصلياً نادباً متجملاً بجميع الفضائلِ، فمرض مرضاً قضى فيه نحبه، وقبل موته بيومٍ واحدٍ، شَخَصَ بعقلِه وعيناه مفتوحتان والتفتَ يُمنى ويُسرى، وكأن محاسِباً يحاسبه والجماعةُ تسمع، فكان مرةً يقول: «نعم، هذا صحيح». ومرةً يقول: «لا، هذا كذب». ومرةً أخرى: «نعم، إلا أنني صُمتُ عوض هذا كذا وكذا وبكيتُ وتعبتُ». وفي أشياءٍ أخرى كان يقول: «نعم، وليس لي ما أقول في هذا، ولكن رحمةَ اللهِ كثيرةٌ». وفي أشياءٍ أخرى يقول: «لا، هذا كذب، لم أفعله». وكان المنظرُ مبهراً مفزعاً، وعلى هذه الصفةِ فارق الدنيا محاسَباً، وأما ما انتهى إليه أمرُه، ومصيرُ القضيةِ بالنسبةِ إليه فما أبانها.

القديس أثناسيوس الرسولي: سؤال: «لماذا نرى قوماً من الصديقين ينازعون (عند الموتِ) أياماً ويُحاسبون، وقوماً خطاةً نراهم يقضون أجلَهم بسكونٍ وهدوء»؟

الجواب: «إن عرفنا جميعَ أحكامِ اللهِ فنحن إذن آلهةً، فجيدٌ هو لنا ألا نفتش تفتيشاً زائداً عن مثل هذه الأحكامِ لأنه يتفق أن رجالاً أبراراً يُعاقبون في وقتِ نزعِهم الأخير، لنرى نحن ذلك ونفزع ونعف، كما أنه ربما كان لأولئك القديسين — بما أنهم بشرٌ — زلةٌ صغيرةٌ، فيُنظَفون بذلك العقابِ في وقتِ نزعِهم تنظيفاً تاماً بليغاً، ويمضون بلا عيبٍ أنقياء».

قال القديس غريغوريوس: «إن هذا النزع يُنظِّف النفوسَ الخارجةَ من العالمِ من الخطايا الدَنيَّة الخفيفة، وذلك بحسب ما سمعتُه من رجلٍ قديسٍ، حكى لي عن قديسٍ آخر فقال: إنه لما حضرته الوفاةُ فزع فزعاً عظيماً، وبعد موتِه ظهر لتلاميذِه بحلةٍ بيضاء، دالاً بذلك على البهاءِ

الذي حصل عليه».

قال القديس مكسيموس: «لا نحتمل الأفكارَ التي تُصَغِّرُ لنا الخطايا إذ أن الربَّ أمرنا أن نتحفظ منها قائلاً: تحفَّظوا من الأنبياءِ الكذبةِ الذين يأتونكم بثيابِ الخرافِ ومن داخلهم ذئابٌ خاطفةٌ. لأنه مادام فكرُنا منزعجاً من الخطيةِ، فلا نكون قد حظينا بالصفحِ عنها والغفران، لأننا ما عملنا أثمارَ التوبةِ، لأن ثمرَ التوبةِ هو عدمُ انفعالِ النفسِ وعدمُ انفعالِ النفسِ هو تمحيصُ الذنوبِ، فإذا كنا نوجد وقتاً ما قلقين من الآلام فلنتُب إذن توبةً نقيةً، كي ما إذا عُتقنا من الآلامِ نحظى بالصفحِ عن الذنوبِ».

سؤال: «كيف تتحقق النفسُ أن اللهَ قد سامحها من خطاياها»؟

الجواب: إذا ما نظرتْ ذاتَها في طبقةِ ذاك القائل: «لقد أبغضتُ الظلمَ ورذلتُه وناموسَك أحببتُه». والقائل أيضاً: «أنا أسبحك برحمةٍ وحكمٍ». فلنعمل عملَ التوبةِ، لنُظهرَ حكمَ اللهِ العادلِ، ويُتِمُّ فينا رحمتَه إذ يغفر لنا خطايانا.

سأل أخٌ الأنبا مادانا: «قل لي كلمةً». فقال له الشيخُ: «امضِ واسأل الله أن يهبَ لك في قلبك نوحاً واتضاعاً، واجعل بالَك من خطاياك كلَّ حينٍ، ولا تدن أحداً، بل اجعل نفسَك تحتَ كلِّ الناسِ، ولا تجعل لك مرافقةً مع صبي، ولا معرفةً بامرأةٍ، ولا صداقةً مع هيراطيقي، واقطع عنك الدالةَ، واحفظ لسانَك، وامسك بطنَك عن الخمرِ قليلاً، ولا تكن محباً للقنيةِ ولا تلاجج أحداً ولا تحارنه، وهذا هو الاتضاع».

قال أنبا يوسف: «أنا أعرفُ إنساناً له السيرة الجسدية، فكان يصوم إما يومين يومين، وإما أربعةً أربعة، واتفق مرةً وهو صائمٌ أربعة أيامٍ أن وقع في قلةِ القوةِ، فجاءه صوتٌ يقول له: لا تحتقر أحداً من الإخوةِ، ولا تدن أحداً من خليقةِ اللهِ، وما استطعتَ أن تعملَه اعمله، لكن ضع ذاتَك فقط، وتحفَّظ على قدرِ قوتِك وأنت تخلص». وأنبا يوسف هذا، هو الذي قاتله الشيطان بالزنى وهو صبي، فأرسله أبوه ليقيمَ أربعين يوماً، فأبصر الشيطانَ بشكلِ امرأةٍ سوداء.

قيل من أجل الأب اللينوس إنه كان مرةً يخدم والإخوةُ جالسين عنده يمدحونه، وهو لا يجيبهم البتة، فقال له إنسانٌ منهم: «لماذا لا تجيب الآباءَ وهم يسألونك»؟ فقال: «لو أجبتُهم

لصرتُ مثلَ مَن يقبل المدحَ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «كيف نتعب نحن في النسكِ ولا ننال المواهب مثل الأولين»؟ قال له الشيخُ: «كان في ذلك الزمانِ الحُبُّ الكثير حيث كان كلُّ واحدٍ يجرُّ رفيقَه إلى فوق، أما في هذا الزمانِ فقد قلَّ الحبُّ، وصار كلُّ واحدٍ يجرُّ رفيقَه إلى أسفل، ومن أجلِ ذلك لا ننال المواهبَ».

قال شيخٌ: «كما أننا نحمل معنا ظلَّنا أينما ذهبنا، كذلك يجب أن يكونَ البكاءُ معنا في كلِّ موضعٍ، كالقولِ: أعوِّمُ كلَّ ليلةٍ سريري وبدموعي أبلُّ فراشي».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «كيف يأتي خوفُ اللهِ إلى النفسِ»؟ قال له الشيخُ: «إذا وُجد في الإنسانِ الاتضاعُ والكفرُ بكلِّ الأشياءِ وبنفسهِ أيضاً، وكان لا يدين أحداً، فخوفُ اللهِ يأتيه».

قال شيخٌ: «ما تكرهه لنفسِك، لا تَقُلْهُ لآخر، فأنت تغضب على من ينمُّ عليك، فلا تنمَّ أنت على أحدٍ، أنت تبغض من يشتمك، فلا تشتم أنت أحداً، فمن له أذنان تحفظان هذه الأمور فإنها تكفيه».

وقال شيخٌ: «جيد هو أن يوجد اسمُك مكتوباً في بيوت المساكين والأرامل والضعفاءِ، ذلك أفضل من أن يوجد مكتوباً في بيوت باعة الخمر، وجيد هو أيضاً أن يوجد فمك منتناً من الصومِ، فذلك أفضل من أن يوجد فيه رائحة خمر».

قال شيخٌ: «إن أنبا كاما قال لي، إن كلَّ خطيةٍ نفعلها يغفرها لنا الله إذا دعوناه، فإذا تاب إليَّ أخي ولم أغفر له فلن يغفرَ لي الله البتة».

كما قال شيخٌ: إني سألت أنبا شيشاي: «هل الهروب نافعٌ للراهبِ»؟ فجعل إصبعَه على فمِهِ وقال: «إن حفظتَ نفسَك من هذا يا ابني، فهذا هو الهروبُ».

قال شيخٌ: إن أنبا بفنوتيوس قال لي: «إن جميعَ آبائنا — الذين كانوا قبلَنا — حفظوا قلوبَهم، إذن فإن كان أحدٌ من جيلنا الآن يحفظُ لسانَه من النميمةِ وجسدَه من الزنى، ويديه من السرقةِ، وبطنَه من الشره، فهو طوباوي، لأن الشره هو الذي يولِّد الزنى والسرقةَ وأشياءَ أخرى كثيرةً جداً».

وهو قال: «إن أنت اتّبعتَ المسكنةَ والضيقةَ والإمساك فإنك تحيا».

قال أنبا أبرآم: «إذا أمسك الإنسانُ بالضيقةِ فهو ينمو وينظر جميعَ قواتِ اللهِ وجميعَ حسناتِه».

قال أنبا بلا: «إن حفظنا الإيمانَ الصحيحَ، وحفظنا الجسدَ من الزنى واللسانَ من النميمةِ، فنحن بنعمةِ اللهِ مُفلحون حسب هذا الزمان».

للقديس برصنوفيوس: سؤال: «من أين تعرض لنا حركةُ الجسدِ»؟ الجواب: «حركةُ الجسدِ تكون من التهاونِ، لأن التهاونَ يخطفك وأنت لا تدري، لأنك تدين أخاك وتحكم عليه، فمن ههنا تُسلَّم».

سؤال: «أخبرني يا أبي إن كان ينبغي أن نخبرَ المشايخَ بكلِّ الأفكارِ النابعةِ من القلبِ، وهل ينبغي للمصلي أن يعلنَ صوتَه أم يصلي بعقلِه»؟

الجواب: لا ينبغي للإنسانِ أن يسألَ الآباءَ عن الأفكارِ التي تنبعُ من القلبِ، لأنها كثيرةٌ جداً، لأن الإنسانَ إذا سمع كثيرين يفترون عليه فإنه لا يعتني بافترائهم ولا يهتمُ به، فأما إن انتصب له واحدٌ فقط، وافترى عليه وقاتله، فحينئذ يجدُ السبيلَ كي يستعدَ له أمامَ السلطانِ، كذلك الحال في الأفكارِ. أما من جهةِ قراءةِ المزامير والصلاةِ، فلا يجبُ أن تُقال بالعقلِ فقط، بل بالشفتين أيضاً، لأن النبيَ هكذا قال: «يا ربُّ افتح شفتيَّ ليخبرَ فمي بتسبحتِك»، كما يقول الرسولُ أيضاً: «ثمرةُ شفاهٍ شاكرةٌ لاسمِه». ولا يجب أن يكونَ في الصلاةِ شيءٌ من الأفكارِ الأرضيةِ، كما ينبغي أن تكونَ مقرونةً بالدموعِ والاتضاعِ، لأن الآباءَ لم يقوِّموا شيئاً إلا بالتعبِ والاتضاعِ.

سؤال: «أخبرني يا أبتاه كيف يرصد الإنسانُ قلبَه، وكيف يقاتل تجاه الشيطان، وإن كان ينبغي له أن يَسُدَّ مدخلَ الكلامِ قدام فِكرِ الزنى، وإن هو دخل على العقلِ فماذا يعمل، وهل ينبغي أن يكونَ طعامي بوزنٍ»؟

الجواب: »يا ولدي، إذا حفظ الإنسانُ قلبَه فإنه يكون منتبهاً طاهراً، وإنما يعرض له القتالُ إذا تهاون هو أولاً، فإذا أبصرَ العدوُ تهاونَه عمل على قِتالِه، لأننا لسنا نقعُ إلا من تهاونِنا

وكوننا لا نقاومهم، لأنهم يريدون منك المحادثةَ كي ما يشغلوكَ ولا يكفُّون، فتقدم إلى اللهِ من أجلهِم، وألقِ ضعفَك أمامَه وهو يصرفهم عنك ويُبطل قوّتَهم. وأما من جهةِ شيطان الزنى فجيدٌ هو أن تَسُدَّ عليه ولا تدعه يدخلَ، لأنه إذا دخل نجّسك وسجّسك، لأنه يتخذ له مادةً منها وبها يتطاول عليك، فإن هو خطفك بغتةً ودخل فيك، لا تتوانَ حتى ولا وقتاً قصيراً، بل قم وجاهد وألقِ ذاتَك أمام اللهِ وقِرَّ بضعفِك واسأله أن يلقيه خارجاً عنك، أما من أجلِ الطعامِ ووزنه، فليكن ذلك بالتخفيف والتحفظ».

سؤال: «قل لي يا أبي رأيَك فيما لو كنا نُقِرُّ لأحدِ الإخوةِ ببعضِ القتالات ونلتمسَ منه صلاةً بخصوصِها»؟

الجواب: «جيدٌ أن نُقِرَّ لمن له قوةٌ لأن يسمعَ، ولا نُقِرّ لمن هو بعد شابٌ، وأما ابتغاء الصلاةِ، فجيدٌ أن نطلبَ من كلِّ واحدٍ».

سؤال: «إذا سَكَتَ الإنسانُ، فما هي الحالُ التي ينبغي أن يكونَ عليها في القلايةِ»؟

الجواب: «الجلوسُ في القلايةِ هو أن يتذكَّرَ الإنسانُ خطاياه، ويبكي وينوح من أجلِها، ويتحرز ألا يُسبى عقلُه، وإن سُبيَ فليجاهد أن يردَّه إليه».

سؤال: «علِّمني كيف أقطعُ هوايَ وأنا في القلايةِ، وكذلك إذا كنتُ بين الناسِ، وما هي مشيئةُ الجسدِ وما هي مشيئةُ الشيطانِ، وما هي مشيئةُ اللهِ»؟

الجواب: «أما قطعُ الهوى الذي يكون في القلايةِ، فذلك برفضِ كلِّ النياحِ الجسدي، أما مشيئةُ الجسدِ فهي أن تعملَ نياحَه دائماً في كلِّ الأمورِ، فإذا لم تعمل نياحَه، فاعلم أنك قطعتَ هواك وأنت جالسٌ في القلايةِ. وأما قطعُ الهوى الذي بين الناسِ فذلك بأن تكونَ كالميتِ بينهم أو كالغريبِ عنهم. وأما مشيئةُ الله، فهي ألا يهلكَ أحدٌ من الناسِ، كما قال السيد، وأن لا يموتَ الخاطئ، كما قال النبي. وأما مشيئةُ الشيطانِ فهي أن يُزكِّيَ الصدِّيقُ نفسَه ويطمئنَ إليها، وعند ذلك يقعُ في الفخِ، كما أن مشيئةَ الشيطان كذلك في ألا يتوب الخاطئُ عن خطيئتهِ».

واستطرد قائلاً: «إن أردنا أن ننجحَ بالكمالِ فلنقطع مشيئاتنا قليلاً قليلاً، لنبلغَ إلى عدمِ الأوجاعِ، وذلك بأن لا نتكلمَ فيما لا تدعو إليه الضرورةُ، وأن نرضى بجميعِ ما يحدثُ لنا كأنه

حسب مشيئتهِ، وألا يكون لنا مَيلٌ إلى شيءٍ، فمن عدم الميلِ بالكليةِ يكون عدمُ الآلامِ بنعمةِ اللهِ».

سؤال: «إذا طلب مني إنسانٌ أن أصليَ عليه، أينبغي لي أن أصليَ عليه أم لا»؟

الجواب: «جيدٌ أن تصلي على كلِّ من يسألك، لأن الرسولَ يعقوب يقول: صلُّوا على بعضِكم بعضاً كي ما تُعافوا. وقد صلَّى أناسٌ على الرسلِ، على أن تفعلَ ذلك كمن هو غيرُ مستحقٍ ولا دالة له».

سؤال: «أخبرني يا أبي كيف يكون الفكرُ مأكلاً للسباعِ»؟

الجواب: «يصير الفكرُ مأكلاً للسباعِ إذا لم يسبق الإنسانُ إلى لومِ نفسِه، فإن هو تغافل، جَرَحَته بأنيابها وأظفارها، فحسنٌ أن يحتاجَ إلى الالتصاق بالتوبةِ، ويجب عليك ألا تزكي نفسَك، وألا تقول إنك شيءٌ، فتبرأ أوجاعُك، ولا تدن آخرين».

وقد حدث مرةً لأخٍ أن آذاه اللصوصُ، فجَبُنَ جداً، وبمعونةِ اللهِ خلص منهم، فأخبر الشيخَ عن انزعاجِه وسأله أن يصليَ عليه، فقال الشيخُ: «يا ولدي، إن اللهَ لا يتركنا إن لم نتباعد عنه نحن، لأنه يقول: لا أتركك، لا أهملك. ولكن قلةَ إيماننا هي التي تجعلنا نَجْبُنُ ونخاف من اللصوصِ الذين حضروا إليك، حتى ولو كانوا أكثرَ من مركباتِ فرعون وجنودِه، وقد علمتَ أنهم بكلمةِ اللهِ وعزتهِ قد غرقوا في البحرِ، ألا تذكر المكتوبَ عن الذين جاءوا لأخذ أليشع كيف أصابهم العمى، والكتاب القائل: الربُّ يحفظك من كلِّ سوءٍ، الربُّ يحفظُ نفسَك، الربُّ يحفظُ دخولَك وخروجَك. وكيف ننسى القائل: إن عصفوراً لا يسقطُ على الأرضِ بدون إذنِ أبيكم السماوي، وإنكم أفضل من عصافير كثيرةٍ. والجُبن هو وليد قلة الإيمان، وهو منتهى قلة الرجاءِ، وهو يرخي القلبَ ويجتذب الناسَ من اللهِ إلى بلدةِ الهلاكِ. فلنفر منه يا ولدي، ولنُنَبِّه يسوعَ ربَّنا النائمَ فينا قائلين: يا عظيمُنا خلِّصنا، وهو ينتهر الريحَ ويُسكِّن الأمواجَ. لنترك الآن القصبةَ المرضوضةَ ونلتمس عصا الصليبِ التي شقَّت البحرَ وأغرقت فرعون الفعلي، ونتكل ملقين أنفسَنا على الذي صُلب من أجلِنا، لأنه يعرفُ كيف يرعانا نحن غنمَه ويطرد عنا الذئابَ الرديئةَ. يا ولدي، إني لمتعجبٌ منك كيف تفزع من العبيدِ الوقوفِ خارجاً، ولا تفكر في السادةِ الذين هم من داخل، لأن اللصوصَ المحسوسين هم عبيدُ الشياطين اللصوصِ الفعليين، فينبغي لك أن

تعرفَ بالنعمةِ أن اللصوصَ أتوْك ولكن المسيحَ لم يتركك، فأسرع أنت في طلبهِ، واسأله أن يعينك لأنه مكتوبٌ: الربُّ قريبٌ من الذين يدعونه، والذين يرغبون إليه بالاستقامةِ، وهو يصنعُ مشيئةَ خائفيه ويسمع طلباتهم ويخلصهم. فاقترن بسيدِك ملتصقاً به وهو يطردُ عنك كلَّ الأردياء، ويُبطِلُ قوّتهم».

وحدث أيضاً أن هذا الأخَ حَزِنَ، فسأل الشيخَ بأن يصلي عليه، فأجابه قائلاً: «يا ولدي، إن الربَّ قد صبر إلى الصلبِ والموتِ، أما تفرح أنت بالأحزانِ؟ لأنه بضيقاتٍ كثيرةٍ ينبغي لنا أن ندخلَ ملكوتَ السموات، فلا تطلب يا ولدي النياح، إن لم يعطِك إياه الربُّ، لأن كلَّ نياحٍ جسدي هو مكروه عندَ اللهِ، والربُّ قال: في العالمِ يكون لكم ضيقٌ، ولكن تقووا، أنا قد غلبتُ العالمَ، والربُّ يعينُك وإياي آمين».

سؤال: «أخبرني يا أبي كيف أفتقدُ الأخَ»؟

الجواب: «افتقادُ الأخِ جيدٌ، والكلامُ البطَّالُ رديءٌ، وهذا الأمرُ يأتي بك إلى التجربةِ، فافتقد إذن أخاك، وتحفَّظ من الكلامِ البطَّالِ، وليكن حديثُكما في أخبارِ الآباءِ السالفين، وفيما كانوا يعملونه. وتقول له: كيف أنت؟ وكيف حالك يا أخي ويا أبي؟ ولا تلتمس منه سوى كلامِ الحياةِ فقط. وقل له: صلِّ عليَّ، فإن لي خطايا كثيرةً، وما شاكل ذلك، واعمل للحين مطانيةً وانصرف من عندهِ بسلامٍ».

سؤال: «أسألك يا أبي أن تبينَ لي ما هي المشيئةُ الجيدةُ، وما هي المشيئةُ الرديئةُ»؟

الجواب: «قلتُ لك إن كلَّ نياحٍ جسدي مرذولٌ عند إلهنا، لأنه قال إن الطريقَ المؤديةَ إلى الحياةِ حزينةٌ وضيقةٌ، فمن يختارها لنفسِه فهي المشيئةُ الجيدةُ، ومن أرادها فإنه يُلقي بنفسِه في كلِّ أمرٍ حزينٍ بهواه، وبقدر استطاعته. اسمع ما قاله الرسولُ: إني أُضْمِرُ (أي أقمعُ) جسدي واستعبده. فافهم أن الجسدَ لا يريد ذلك، بل بمشيئتِه كان يَقْسِرُه، فالذي يريد الخلاصَ يجب أن تكونَ مشيئتُه هكذا، ومن كان كذلك، فكلُّ أمورِه يختلط فيها الحزنُ. لا تستعمل فراشاً ليناً، وتذكَّر أن كثيرين ينامون على الأرضِ وبين الشوكِ، وإن صادفتَ طعاماً لذيذاً فاتركه، وكُلْ من الدون، كي ما يحرك على جسمِك حزناً، واذكر الذين لا يذوقون خبزاً البتة، واذكر كذلك الألمَ الذي قَبله سيدُك من أجلِك، وأعطِ لنفسِك الويلَ. هذه هي المشيئةُ الجيدةُ، أما المشيئةُ الرديئةُ

فهي نياحُ الجسدِ في كلِّ ما يطلبه منك، ولا سيما إذا اتفق لك طعامٌ غيرُ جيدٍ، وقلتَ: لا آكل، فهذه هي المشيئةُ الرديئة، فاقطعها عنك وأنت تخلص».

سؤال: «أخبرني يا أبتاه ماذا أعملُ، لأن الأفكارَ قد اضطربت فيَّ جداً»؟

الجواب: «يا ولدي، إن كان الإنسانُ بطَّالاً، فإنه يتفرغ لقبولِ الأفكار التي تأتيه، وإذا كان له عملٌ يعمله، فلا يتفرغ لقبولها، قم وقت السحرِ وأمسك الطاحونَ واطحن قمحَكَ، فتعمل منه خبزاً لغذائِك، وذلك قبل أن يسبقَك العدو ويجعل عليها رملاً، وأسرع فاكتب لوحَك، واحفظ الوجه الآخر، لأن ربنا يقول للرسلِ، أنتم ملحُ الأرض. فالأرضُ يا ابني هي جسدُك، فكن أنت ملحاً تملِّحه، وجفف (نماسيه) ودودَه، أعني أفكارَك الرديئةَ».

من قولِ القديس سمعان العمودي: «مثلُ إنسانٍ يتكلمُ عن غنىً ليس له، ويحسبُ مالَ قومٍ آخرين، وهو نفسه ليس له شيءٌ، بل تجده عرياناً معوزاً فقيراً، كذلك الذي لم يقتنِ لنفسِه شيئاً من غنى المسيح، وهو مرافقٌ لأناسٍ قديسين، فتجده عرياناً مِن مشاركةِ الروح، لا يربح شيئاً من غنى القديسين، لأنه مشاركٌ لهم بالسكنى، وليس بمشاركٍ لهم في الفضيلةِ».

للقديس يوحنا ذهبي الفم عن الكلمةِ المكتوبةِ: أصلِّي بروحي وأصلِّي بضميري، وأرتِّل بروحي وأرتِّل بضميري: «يريد الرسولُ ألا يكونَ الإنسانُ مصلِّياً بلسانِه فقط تاركاً عقلَه يتوه في شتى الأمورِ، فيصيرَ بلا ثمرٍ، بل ليكن جهادٌ واحدُ لاثنيهما، اللسانُ ينطقُ بكلامِ الصلاةِ، والعقلُ يميزُ المعنى الخفي غير المنظور، والفكرُ يتبعُ يسوعَ إلى فوق، مثل النَفَسِ الصاعدِ مع الكلامِ، فيكون مثلَ إنسانٍ يشتكي إلى الملكِ ووجهُهُ ناظرٌ إليه ولسانُه يتكلم بغير انشغالٍ».

قال شيخٌ: «إن الله يطيل روحَه على خطيةِ العالمِ، ولا يطيل روحَه على خطية البريةِ».

قال الأب نستاريون: «يجب على الراهبِ أن يحاسبَ ذاتَه كلَّ مساءٍ وكلَّ صباحٍ، ماذا صنعنا مما يشاءُ الله، وماذا عملنا مما لا يشاءُ الله، لأنه هكذا عاش الأب أرسانيوس وهكذا نفتقدُ ذواتَنا كلَّ أيامِ حياتِنا. احرص كلَّ يومٍ على أن تقفَ قدامَ اللهِ بلا خطيةٍ، وهكذا صلِّ لله كأنك مشاهدٌ له، لأنه بالحقيقةِ حاضرٌ. لا تحسِّن لذاتِك أن تدينَ أحداً، لأن الدينونةَ، الكذبَ، اللعنَ، الشرَ، الشتمَ، الضحكَ، كلَّ هذه غريبةٌ عن الراهبِ، وأما الذي يُكرَّم أكثر مما يستحق فإنه يخسرُ

كثيراً».

وسأله أخٌ قائلاً: «إن وجدتُ وقتاً ما، وأكلت ثلاثَ خبزاتٍ، فهل هذا كثيرٌ»؟ فقال له: «هل أنت في البيدر يا أخي»؟ قال له أيضاً: «وإن أنا شربتُ ثلاثةَ أقداحِ خمرٍ، فهل هذا كثيرٌ»؟ أجابه وقال: «إن لم يكن هناك شيطانٌ فإنها ليست كثيرةً، أما إن كان، فهي كثيرةٌ، لأن الخمرَ مضرٌ جداً للرهبانِ لا سيما الشباب فيهم».

وقال أيضاً: «إن اللصَّ كان على الصليبِ وبكلمةٍ واحدةٍ تزكَّى، ويوداس كان من جملةِ الرسلِ، وفي ليلةٍ واحدةٍ ضيَّع كلَّ شيءٍ، من أجل ذلك، لا يفتخر أحدٌ من صانعي الحسناتِ، لأن كلَّ الذين وثقوا بذواتِهم سقطوا».

قال القديس اكليميكوس: «من يستطيع أن يُميت نفسَه من كلِّ شيءٍ، فذاك يستطيع أن يتفرَّغ لنفسِه بذكرِ الموت، ومن يحب مخالطةَ الناسِ فلن يستطيعَ أن يتفرَّغ لنفسِه، وهو عاهةٌ لنفسِه».

وقال أيضاً: «لا يستطيع إنسانٌ أن يجتازَ يوماً كما ينبغي، إن لم يحسبه آخِرَ يومٍ من حياتِهِ في الدنيا».

سأل أخٌ الأب روفس: «ما هو السكوت»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «هو الجلوسُ في القلايةِ بمعرفةٍ ومخافةِ اللهِ، والامتناعُ من ذِكرِ كلِّ شرٍّ. والمداومةُ على حفظِ ذلك يلدُ التواضعَ، ويحفظُ الرهبانَ من العدوِ».

وعند نياحته اجتمع إليه تلاميذُه قائلين: «كيف يجب أن نتدبَّر من بعدِك»؟ فأجابهم الشيخُ: «لستُ أعلمُ أني قلتُ لأحدٍ منكم قط أن يصنعَ شيئاً، قبل أن أُصلِحَ الفكرَ أولاً، ولم أسخط إذا هو لم يصنع بحسبِ ما قلتُه له، وهكذا قضينا كلَّ زماننا بهدوءٍ».

رجلٌ موسرٌ، تصدَّق بمالٍ، وأمسك بعضَه لقلةِ إيمانِه، وأتى إلى الأب أنطونيوس وسجد له قائلاً: «علِّمني كيف أخلص». قال له الشيخُ: «إن أردتَ أن تخلصَ فاصنع ما أقوله لك أولاً. امضِ إلى القريةِ واشترِ لحماً وانزع ثيابَك وعلقه في رقبتِك وتعالَ». فأطاع الشيخُ، واشترى اللحمَ، وخلع ثيابَه، وحمله على رقبتِهِ، فلم يبقَ طيرٌ ولا كلبٌ في تلك القريةِ إلا واجتمعوا عليه، فنهشه

الطيرُ وجرح جسمَه. فلما بلغ القديسَ على هذه الحال، قال له: «مرحباً يا ابن الطاعةِ، اعلم يا ابني إني قلتُ لك أن تصنعَ هذا، كي أعطيك مثالاً، فإن كثيرين من الناسِ، إذا سمعوا الوصايا لا يحفظونها، وآخرون ينسونها لقلة الحسِّ، ولذلك أمرتُك بهذا ليكون كلامي فيك ذا أثرٍ، لأجل ألم الوجع، فإن أصحابَ قلةِ الحسِّ لا تنفع فيهم الموهبة شيئاً، فلهذا المعنى يا ابني أسَّستُ فيكَ آثاراً لوصيتي، فإذ قد تنقَّى حقلُك من شوكِ الغفلةِ، فلنبذر فيك الزرعَ المقدس، أرأيتَ يا ابني كيف نهشت الطيورُ والكلابُ جسمَكَ وجرحته، كذلك تنهش الشياطيُن أصحابَ القنيَةِ، فافهم الآن هذا الكلام في عقلِك وتفكَّر به كلَّ أيامِ حياتِك، وإياك يا ابني أن تجعلَ لك اتكالاً على المالِ، بل اتكل على المسيح، فاذهب الآن وفرّق جميعَ ما أبقيتَ لك من المالِ، حتى تكون، يا حبيبي، رهبانيتُك صافيةً من الغشِ، لأنه ضارٌ بالراهبِ أن يُبقي في قلايته ديناراً وشيطاناً»، وبعد أن دعَّمه بالكلامِ أخذ قليلاً من الزيتِ وصلى عليه ودهنه، وللوقت شُفيَ كأنه لم تُصبّه جراحٌ ولا ألمٌ قط، وذهب وهو مسرورٌ يسبح اللهَ».

حدث مرةً أن أتى القديسُ بولس البسيط تلميذ الأب أنطونيوس إلى الإسقيط، لافتقادِ الإخوةِ كعادتِه، ولما دخلوا الكنيسةَ ليكملوا القداسَ، كان يتأمل كلَّ واحدٍ من الداخلين، ويعرف الحالَ التي عليها نفسُه، وكان يرى مناظِرَهم بهجةً، وملائكتهم يتبعونهم مسرورين، وعاين أحدَهم أَسودَ كلَّه، وشياطينٌ سمجةٌ تحيط به يجرُّونه، وملاكُه يتبعه من بعيدٍ عابساً، فلما رأى ذلك بكى وقرع صدرَه مراتٍ، وخرج من الكنيسةِ باكياً، فخرج الإخوةُ إليه قائلين: «لماذا تبكي يا أبانا»؟ وطلبوا إليه أن يدخلَ معهم للقداسِ، فامتنع وجلس على بابِ الكنيسةِ منتحباً جداً. ولما كَملت الصلاةُ وخرجوا، كان يتأمل إليهم أيضاً، مؤثراً أن يعرفَ خروجَهم، فرأى ذلك الأخَ الذي كان قد دخل على تلك الحالِ السمجةِ، قد خرج بهيَّ الوجهِ، أبيضَ الجسمِ، وملاكُه ملاصقٌ به مسروراً، والشياطين يتبعونه وهم مكمَّدين. وإن القديسَ بولس صفَّق بيديه مسروراً ووثب بفرحٍ عظيمٍ مباركاً اللهَ أبا الصلاحِ، بصوتٍ عالٍ قائلاً: «هلموا أبصروا أعمالَ اللهِ المرهوبةَ المستحقةَ كلَّ ذهولٍ وعجبٍ، هلموا أبصروا أعمالَ إلهِنا الصالحِ، الذي يشاء خلاصَ كلِّ الناسِ، ومحبته للبشر التي لا يُلفظ بها، هلموا نسجد ونخرُّ قائلين: أنت وحدُك يا إلهنا قادرٌ أن تنزعَ كلَّ خطيةٍ».

فحضر الكلُّ لسماعِ أقواله، فأخبرهم بما ظهر له، وسأل ذلك الأخَ أن يُعرِّفه السببَ الذي من

أجلهِ وهب الله له تبديلَ تلك الحالِ نقيةً. فقال بمحضرٍ من الكلِّ: «إني منذ زمانٍ طويلٍ عائشٌ في النجاسةِ إلى أبعدِ غايةٍ، فلما رأيتُ الأب باكياً جداً، ابتدأ قلبي فيَّ أن يتخذَ إحساساً، فأنصتُّ إلى القراءات، فسمعتُ إشعياءَ يقول: اغتسلوا، صيروا أنقياءَ ، أزيلوا شرورَكم من أمامَ عيني، تعلَّموا أن تصنعوا حسناً، وتعالوا نتناظر يقول الربُّ، إن كانت خطاياكم كالبرفير تبيضّ كالثلجِ وإن احمرت كالبقم (كالدودي)، أجعلها كالصوفِ النقي. فلما سمعتُ أنا الخاطئ هذا الكلام، ضعف قلبي وقلتُ أمام الله: أنت الإله المتحنن الذي أتيتَ لخلاصِ الخطاةِ، يا من قلتَ إنه يكون فرحٌ في السماءِ قدام ملائكةِ الله بخاطئ واحدٍ يتوب، والآن يا ربي، ما وعدتَ به بفمِ نبيك تممه فيَّ أنا الخاطئ، واقبلني إليك تائباً، وها أنا منذ الآن لا أصنعُ شيئاً مما كنتُ أصنعه من الآثامِ، وسوف أخدمك بكلِّ طهارةٍ إلى آخرِ نسمةٍ من حياتي. وعلى هذا خرجتُ من الكنيسةِ». فلما سمع الآباءُ ذلك صرخوا بصوتٍ واحدٍ قائلين: «لقد عَظُمت أعمالك يا ربُّ، كلَّها بحكمةٍ صنعتَ». ومن ذلك الوقتِ عاش ذلك الأخُ بكل نقاوةٍ وأرضى الله بسيرةٍ فاضلةٍ، فعلينا ألا نقطعَ رجاءَنا من مراحمِ إلهنا، لأننا إذا أتينا إليه، لا يطالبنا بسالفِ أعمالِنا، لأنه كوعدِه الصادقِ يغسل الراجعين إليه بكلِّ قلوبهم ويبيِّضهم كالثلجِ. له المجد دائماً.

كان قسيسُ القلالي قد أُعطيَّ نعمةً من اللهِ أن ينظرَ الأرواحَ النجسةَ عياناً، وذات يومٍ، بينما كان ذاهباً إلى الكنيسةِ ليكمل الصلاةَ الجامعة، وإذا به ينظرُ جماعةً من الشياطين خارج قلايةِ أخٍ، ووجد بعضَهم في شكلِ نساءٍ وهم يغنون ويقولون ما لا يجب سماعه، ووجد البعضَ منهم في شكلِ صغارٍ يرقصون، والبعضَ الآخرَ مقبلين على أعمالٍ رديئةٍ، فتنهد الشيخُ قائلاً: «بلا شكٍ إنه يوجد في داخلِ القلايةِ راهبٌ يعيش في التواني، من أجل هذا تحيطُ الأرواحُ النجسةُ بقلايته هكذا بعدم أدب»، فلما أكمل القسُ الصلاةَ الجامعة، عاد ودخل قلاية ذلك الأخِ، وقال له: «يا أخي، أنا في ضيقةٍ، ولي فيك إيمانٌ أنك إذا صليتَ عليَّ تَخفُّ الشدةُ المحيطة بي». فضرب الأخ مطانية قائلاً: «إني غير مستحق أن أصلي عليك يا أبي»، وكان الشيخُ يداوم الطلبةَ إليه قائلاً: «لستُ أمضي حتى تعاهدني أنك تصلِّي عني صلاةً في كلِّ ليلةٍ»، فأطاع الأخُ أمرَ الشيخ، وإنما فعل الشيخُ هذا حتى يعطيه سبباً ليصلي في الليل. فلما قام الأخُ في الليل ليصلي على الشيخ، صار في تحسُّرٍ وقال في نفسه: «يا شقي، إن كنتَ تصلي على شيخٍ قديس

كهذا، فلِمَ لا تصلِّي على نفسِك وحدك». وإنه صنع صلاةً على الشيخِ، وصلاةً أخرى على نفسهِ، وهكذا أكمل الأسبوعَ كلَّ ليلةٍ يعمل صلاتين، واحدةً عن الشيخ، والأخرى عن نفسهِ. وفي يوم السبتِ التالي، انطلق القسُ إلى الكنيسةِ ، فأبصر الشياطيَن قياماً على بابِ قلاية الأخِ وهم سكوتٌ، فعلم الشيخُ أنه من أجلِ أن الأخَ صلَّى سكتوا، ففرح، ولما أكمل الصلاةَ، عاد ودخل قلاية الأخ، وقال له: «اصنع معي رحمةً يا أخي من أجلِ محبة السيد المسيح، وزدني صلاةً أخرى في كلِّ ليلةٍ، فإنني قد وجدتُ راحةً قليلةً». فلما صلَّى عن الشيخِ صلاتين، صار أيضاً في ندمٍ قائلاً: «يا شقي، زد أيضاً صلاةً أخرى على ذاتك». فصنع هكذا الأسبوع جميعه، يكمل كلَّ ليلة أربع صلوات. ولما جاء القسيس يوم السبت إلى الكنيسةِ، نظر الشياطين سكوتاً معبَّسين، فشكر اللهَ، ثم أنه دخل إلى الأخِ، وسأله أن يزيده صلاةً أخرى، فزاد له ولنفسهِ أيضاً. وهكذا صار الشيخُ يجيء إليه ويجعله أن يزيد قليلاً قليلاً حتى رجع إلى طقسِهِ الأول. فحنق الشياطينُ على الشيخِ لأجلِ الخلاص الذي صار للأخِ وانصرفوا عنه وهم حزانى، وصار الأخُ يصلي بغير فتورٍ واقتنى الغَلَبَةَ بنعمة ربنا يسوع المسيح، الذي له المجد إلى الأبد آمين.

سأل أخٌ **أنبا تادرس**: «بأيِّ طريقٍ يمكن للإنسانِ أن يُخرجَ الشياطينَ من ذاتِه»؟ فقال له القديسُ: «إذا قبل إنسانٌ ضيفاً وأكرمه، فإن كان لا يقدر أن يطردَه اليومَ، ففي الغدِ لا يقدرُ أن يطردَه، ذلك إذا كان متاعُه داخلَ البيتِ، أما إذا أعطاه متاعَه وجميعَ ما كان داخل بيتِهِ، فحينئذ لو أراد أن يطردَه، أغلقَ البابَ في وجههِ. وهكذا الحالُ مع الشيطانِ، إذا لم تطرح متاعَه خارجاً عنك، الذي هو الزنى والنجاسةُ والكذبُ وجميعُ آلاتهِ، فلا تقدر أن تطردَه».

سأل أخٌ **أنبا أمونا** مرةً قائلاً: «يا أبي ثلاثةُ أفكارٍ تضايقني. الأول، أن أسكنَ في البراري بغيرِ همٍّ، والثاني، أن أمضي إلى الغربةِ حيث لا يعرفني أحدٌ، والثالث، أن أحبسَ نفسي في القلايةِ، ولا أجتمع بأحدٍ، وأصوم يومين يومين». قال له الشيخُ: «ولا واحد من هذه الأفكار تستطيع أن تمارسَه كما ينبغي، بل الأفضل أن تجلسَ في قلايتك، وكُلْ في كلِّ يومٍ قليلاً، واجعل كلمةَ العشارِ في فمِك دائماً قائلاً: يا الله اغفر لي فإني خاطئ، وأنت تتنيح».

الأب سيصوي الذي من جبل أنطونيوس: أغلقَ على نفسِهِ دفعةً في قلايتِهِ، ومنع خادمَه من القدومِ إليه عشرةَ شهورٍ، لم يبصر فيها إنساناً، وفيما هو يمشي في الجبلِ ذات يومٍ، إذا به

يجدُ إنساناً إعرابياً يتصيَّد وحوشاً برية، فقال له الشيخُ: «من أين جئتَ، وكم لك من الزمان هُهنا»؟ فقال له الرجلُ: «صدقني يا راهب، إن لي في هذا الجبلِ أحدَ عشرَ شهراً لم أرَ أحداً غيرَك». فلما سمع الشيخُ ذلك، دخل قلايتهِ وصار يضربُ صدرَه ويقول: «يا سيصوي، لا تظن أنك صنعتَ شيئاً، لأنك لم تصنع بعد مثلَ ما صنعه هذا الإعرابي».

وسأله أخٌ: «أتُرى، هل كان الشيطانُ يضطهدُ القدماءَ هكذا»؟ أجابه الشيخُ: «بل اليومَ يضطهدُ أكثرَ لأنَّ زمانَه قد قرب، فهو لذلك قلقٌ».

ومرةً زاره أنبا أدلفيوس أسقف نيلوبوليس في جبلِ أنطونيوس، ولما عزم على الانصراف جعله يتغذى باكراً قبل انصرافِه وكان صومٌ، فلما وُضعت المائدةُ، إذا قومٌ يقرعون البابَ، فقال لتلميذِه: «قدِّم لهم قليلاً من الطبيخِ». فقال الأسقفُ: «دعهم الآن لئلا يقولوا إن أنبا سيصوي يأكل باكراً». فتأمله الشيخُ وقال للأخ: «امضِ أعطِهم». فلما أبصروا الطبيخَ، قالوا للأخِ: «يا تُرى هل عندكم ضيوفٌ والشيخُ يأكل معهم»؟ قال: «نعم». فحزنوا قائلين: «لماذا تركتم الشيخَ يأكل في مثلِ هذا الوقتِ؟ أما تعملون أن الشيخَ يُعذِّب ذاتَه أياماً كثيرةً، بسببِ هذه الأكلةِ»؟ فلما سمع الأسقفُ هذا الكلامَ، صنع مطانيةً قائلاً: «اغفر لي يا أبي لأني تفكرتُ فكراً بشرياً، أما أنت فقد صنعتَ أوامرَ اللهِ». فقال الشيخُ: «إن لم يمجد اللهُ الإنسانَ، فمجدُ الناسِ ليس شيئاً».

وحدث مرةً أيضاً أن زاره أنبا قاسيانوس، والقديس جرمانوس، شيخان من فلسطين، فاحتفل بضيافتِهم. فسألوه لأيِّ سببٍ لا تحفظوا رسومَ صومِكم في وقتِ ضيافتِكم الإخوةِ الغرباءِ على ما قد عرفناه في بلدنا فلسطين؟ فأجابهم قائلاً: «إن الصومَ معي دائماً، وأما أنت فلستَ معي دائماً، والصومُ شيءٌ نافعٌ لازمٌ، وهو من نيتنا ومن إرادتنا، وأما إكمالُ المحبةِ فيطالبنا به ناموسُ اللهِ بلازم الاضطرار، فَبِكُم أقبلُ المسيحَ، ويوجب عليَّ ديناً لازماً بأن أخدمَه بكلِّ حرصٍ، فإذا شيعتُكم أمكنني استعادة صومي، وذلك أن أبناءَ العُرسِ لا يستطيعون أن يصوموا ما دام العريسُ معهم، فمتى رُفع الختن فحينئذ يصومون بسلطانٍ».

وحدث مرةً أن سألَ أنبا يوسف الأب سيصوي قائلاً: «كم من الزمانِ يحتاجُ الإنسانُ لقطعِ الآلامِ»؟ أجابه الشيخُ: «في أيّةِ ساعةٍ تتحرك الآلامِ، ففي الحالِ اقطعها».

وأيضاً سأله أخٌ عن تدبيرٍ ما، فأجابه الشيخُ قائلاً: «إن دانيال النبي قال: خبزَ شهوةٍ ما أكلتُ».

وسأله أخٌ آخر قائلاً: «إذا مشينا في طريقٍ، وضلّ مهدينا فهل ينبغي أن ننبهَه»؟ فقال له الشيخُ: «لا». قال الأخ: «هل نتركه إذن يُضلُّنا»؟ فأجابه الشيخُ: «وماذا نعمل إذن، أنأخذ عصاً ونضربه؟ إني أعرفُ إخوةً كانوا سائرين بالليلِ، فضلّ مرشدُهم وكانوا اثني عشر أخاً، وعلموا كلُّهم أنهم قد ضلوا، فجاهد كلُّ واحدٍ منهم ألا يتكلم، فلما أضاء النهارُ، علم مرشدُهم بأنه قد ضلّ الطريقَ، فقال: اغفروا لي قد ضللتُ الطريقَ. فقالوا له كلُّهم: لقد علمنا، ولكننا سكتنا. فلما سمع ذلك تعجَّب، وقال: إن إخوتنا تمسَّكوا حتى الموتِ على ألا يتكلموا، وسبَّح اللهَ. وقد كانت مسافةُ الطريقِ التي مشوها اثني عشرَ ميلاً».

أنبا سيصويص الصعيدي: قيل عنه إنه كان ساكناً في غَيْضَةٍ، وشيخٌ آخر كان مريضاً في السيق، فلما سمع حزن، لأنه كان يصوم يومين يومين، وكان ذلك اليوم من الأيامِ التي لا يأكل فيها. فقال: «ماذا أصنعُ؟ إن مضيْتُ ربما ألزمني الإخوةُ بأن آكلَ، وإن صبرتُ إلى الغدِ، فربما يتنيح الشيخُ، لكني هكذا أصنعُ، أمضي ولا آكل». وفعلاً مضى وأتمّ وصيةَ اللهِ، ولم يحل قانونَه. وقد أَخبر عنه أيضاً بعضُ الآباءِ، إنه أراد وقتاً ما أن يغلبَ النومَ، فعلّق ذاتَه في صخرةٍ، فجاء ملاكُ اللهِ وأوصاه ألا يصنعَ مثل هذا، ولا يجعل ذلك عادةً لآخرين.

وكذلك سأله أخٌ قائلاً: «إذا كنتُ جالساً في البريةِ وأَقدَمَ بربريٌ وأراد قتلي، وقويتُ عليه، أفأقتله»؟ فأجابه الشيخُ: «لا، لكن سلِّم الأمرَ للهِ، لأن أيَّ محنةٍ تأتي على الإنسانِ، فليس له إلا أن يقولَ إنها من أجلِ خطاياي».

وسأله أخٌ آخر قائلاً: «قل لي كلمةً». فقال: «أيُّ شيءٍ لي لأقولُه لك؟ إني أقرأُ في العتيقةِ ثم أرجع إلى الحديثةِ».

وقال أيضاً: «صِرّ مهاناً واطرح مشيئتك وراءك، وصِرّ بلا همٍّ تجدُ نياحاً».

كذلك سأله آخر قائلاً: «قل لي كلمةً». فأجابه: «لماذا تطلب كلاماً؟ اصنع مثلما ترى».

اعتلَّ أنبا سيصويص وكان الآباءُ جلوساً حوله، فسمعوه يخاطب قوماً، فقالوا له:

«ماذا تعاين أيها الأب»؟ فقال: «ها أنذا أعاينُ قوماً قد جاءوا لأخذِ نفسي، وأنا أتضرعُ إليهم أن يُمهلوني قليلاً حتى أتوبَ». فقال له أحدُ الشيوخِ: «وإن هم أمهلوك، هل تقدر الآن أن تنجحَ في التوبةِ وأنت في هذا السنِّ»؟ فقال: «وإن كنتُ لا أقدرُ أن أعملَ عملاً فإني أتنهدُ وأبكي». فقال له الشيوخُ: «إن توبتَك قد كملت أيها الأب». فقال لهم: «صدقوني إني لستُ أعرفُ من ذاتي إذا كنتُ بدأتُ إلى الآن»؟ ولما قال هذا، أشرق وجهُه كالشمسِ، ففزع الذين كانوا حولَه. فقال: «انظروا، إن الربَّ قال: ائتوني بتائبِ البريةِ». ولوقته أسلم الروحَ وامتلأ المنزلُ من رائحةٍ ذكيةٍ.

الأبَ سلوانس: حدث مرةً أن أضافه إخوةٌ بديرٍ ومعه تلميذه زكريا، وجعلوهما يتغذيان قبل انصرافهما. وفي ذهابهما عطش التلميذُ، فلما وجد في الطريقِ ماءً ليشربَ، منعه الشيخُ قائلاً: «لم يأتِ وقتُ الإفطارِ بعد». فقال له التلميذُ: «ألم نأكل قبل انصرافنا يا أبي»؟ فقال له الشيخُ: «إنه لأجلِ المحبةِ أكلنا، والآن لا نحلُّ قانوننَا».

وكان هذا الأبُ جالساً مرةً مع إخوةٍ، وفجأةً أُخذ مبهوتاً وسقط على وجههِ، ومن بعد حينٍ قام باكياً، فقال له الإخوةُ: «ما الذي أبكاك يا أبانا»؟ فسكت باكياً، فلما أكرهوه على الكلامِ قال: «إني اختُطفتُ إلى موضعِ الدينونةِ، ورأيتُ كثيرين من جنسنا يُساقون إلى العذابِ، وكثيرين من العلمانيين منطلقين إلى الملكوتِ». وناح الشيخُ ولم يشأ أن يخرجَ من القلايةِ، وإذا أُكره على الخروجِ، فإنه كان يستر وجههَ ببُرنس قائلاً: «لماذا أرى هذا الضوءَ»؟

ولما كان الأب سلوانس بطور سينا، أرسل تلميذَه في خدمةٍ وقال الشيخُ في نفسِه: «أقومُ الآن وأسقي البستان». فخرج وكان وجهُه مُغطى، وما كان ينظر سوى أثرِ قدميه فقط، وفي ذلك الوقتِ أتى إليه أخٌ، زائراً له، وكان يتأمل ماذا يصنع، في حين أن الشيخَ لم يكن يبصره. فلما جاء إليه الأخُ، قال له: «لماذا غطيتَ وجهَك يا أبي، وأنت تسقي البستانَ»؟ فقال له: «قلتُ لئلا تبصرَ عيني الشجرَ، فينشغل عقلي عن شغلِه».

كذلك سأله الإخوةُ عند موتِه قائلين: «أيَّة سيرةٍ صنعتَها أيها الأب، حتى اقتنيتَ هذا الحكمَ»؟ فأجاب: «لم أترك قط في قلبي ذِكراً يُسخط اللهَ».

الأب سيمون: في بعضِ الأوقاتِ، سَمِعَ عنه أرخنٌ، فقَدُمَ ليبصرَه، فلما سمع به الشيخُ،

تناول سلبةً ومضى إلى نخلةٍ ليسقيها. فلما جاءوا صاحوا بالشيخِ: «أين المتوحد»؟ فأجابهم: «المتوحد انصرف من ههنا». فلما سمعوا انصرفوا.

وحدث مرةً أن أتى إليه إنسانٌ رئيسٌ لينظرَه، فسبق إليه قومٌ من أصحابِ الكنيسةِ وأخبروه قائلين: «استعد فإن فلان الأرخن قد سمع بك، وها هو حاضرٌ لينظرَك ويتبارك منك». فأجابهم الشيخُ قائلاً: «نعم، إني سأهيئ نفسي جيداً». فقام ولبس المرقَّعةَ التي له، وأخذ خبزاً وجبناً، وركب الحائطَ مفروق الرجلين كما يُركب الحصانُ، وجعل يأكل ويهز رجليه. فلما قَدُمَ الأرخن مع حشمهِ، وأبصره هكذا، شتمه قائلاً: «أهذا هو المتوحد الذي سمعنا عنه؟ ليس ههنا متوحد». وهذا هو نفس الكلام الذي توقع أن يسمعه الشيخُ.

كما أخبروا أيضاً عن الشيخِ أنه كان جالساً وحدَه، وكان إنسانٌ علماني يخدمه دهره كله، وحدث أن مَرِضَ ابنُ ذلك العلماني، فطلب إلى الشيخِ قائلاً: «ادخل وصلِّ على ابني». فلما أكثر عليه الطلبَ، خرج الشيخُ وذهب معه، فتقدمه الرجلُ ودخل قبله القريةَ وقال لأهلِ القريةِ: «اخرجوا للقاء القديسِ فقد جاء». فلما رآهم الشيخُ من بعيدٍ مقبلين نحوه بالشموعِ والقراءةِ، نزع لوقتهِ ثيابَه وألقاها في النهرِ ووقف عرياناً يغسلها برجليه. فلما رآه ذلك الإنسانُ الذي كان يخدمه هكذا، حزن ورجع يطلبُ إلى أهلِ القريةِ قائلاً لهم: «يا إخوةُ، ارجعوا إلى بيوتِكم، لأن الشيخَ قد تاه ولا يدري ما هو فيه». فلما رجع الناسُ إلى بلدتهم، تقدم الرجلُ إليه وقال له: «يا أبي، ما هذا الذي فعلتَه؟ لأن الناسَ قالوا إن ذلك الشيخَ مجنونٌ لا يدري ما هو فيه». فقال له الشيخ: «هذا ما أردتُ أن أسمعه».

الأم سارة: قيل عن الأم سارة إنها مكثت ثلاث عشرة سنة وهي مقاتَلة قتالاً شديداً من شيطانِ الزنى، وكان يصنع لها مغريات العالم، ولم تكن تحيد قط عن مخافةِ الله والنسكِ. فصعدت مرةً إلى السطحِ لتصلي، فرأت روحَ الزنى متجسِّماً وقال: «لقد غلبتِني يا سارة». فأجابته: «إني لم أغلبك، ولكن سيدي يسوع المسيح». فانصرف عنها القتالُ من ذلك الوقتِ.

وقيل أيضاً عن هذه القديسةِ، إنها كانت ساكنةً فوق النهرِ ستين سنةً لم تطلع البتة لتنظرَه.

وقد قالت أيضاً: «إنني أضعُ رجلي على السُّلَّمِ لأصعدَ فأتصوَّر الموتَ قدامي قبل أن أنقلَ الرجل الثانية».

زار مرةً رهبانٌ من الإسقيط الأم سارة، فقدمت لهم طعاماً، فتركوا الجيدَ وأكلوا من الدونِ. فقالت: «بالحقيقةِ إنكم إسقيطيون».

وقالت: «جيدٌ هو أن يصنعَ الإنسانُ رحمةً ولو من أجلِ الناسِ، فيأتي فيما بعد إلى أن يرضي الله».

القديسةُ سينكليتيكي: قالت: «إن كثيرين يسكنون الجبالَ، ويعملونَ عملَ أشرارِ الناسِ ويُهلكون أنفسَهم».

وقالت أيضاً: «قد يمكن أن يكونَ الإنسانُ مع كثيرين وهو منفردٌ بالضميرِ والهمةِ والنيةِ، وقد يكون الإنسانُ وحدَه وهو متصرِّفٌ بالذهنِ مع الكثيرين».

كما قالت: «جهادٌ عظيمٌ وتعبٌ يَلقاه المتقدمون إلى اللهِ في البدايةِ، وبعد ذلك فرحٌ لا يُلفظُ به، كمثلِ الذين يلتمسون أن يوقدوا ناراً، ففي أولها تُدخِّن فتدمع عيونُهم، وفيما بعد ينالون المطلوبَ، ولأنه قد قيل إن إلهَنا نارٌ آكلةٌ، فلنسكب دهنَ العبراتِ لتشتعل النارُ الإلهية داخلنا».

وقالت كذلك: «كما أنَّ الوحوشَ النافثةَ للسُّمِ يطردها حادُّ الأدويةِ، هكذا الأفكارُ الخبيثةُ يطردها الصومُ مع الصلاةِ».

وقالت أيضاً: «لا يخدعنَّك تَنعُّم العلمانيين الأغنياء، كأن فيه شيئاً نافعاً من أجلِ اللّذةِ، لأن أولئك يُكرِّمون صناعة الطباخين لا غير، فجُز أنت بالصومِ فوق التلذذ بالأطعمةِ، لأنه قد قيل: إن نفساً مترفهةً، إذا انتُهرت من أربابها ألاَّ تشبع خبزاً، فلن تطلب خمراً».

وسُئلت **هذه المغبوطة** مرةً إن كان عدم القنية صلاحاً كاملاً، فأجابت بأن ذلك هو حدُّ الصلاحِ لمن أمكنهم ذلك، لأن الذين يصبرون على عدم القنية يكون لهم حزنٌ بالجسمِ، ونياحٌ بالروحِ، وهدوءٌ في أنفسِهم، كمثلِ الثيابِ الجلدِ التي تُداس بشدةٍ وتُقلَّب وتُغسل فتنظَّف، هكذا أيضاً النفسُ الشديدةُ بالفقر، فإنها تتشدد وتنظف.

وقالت أيضاً: «إذا كنتَ في ديرٍ فلا تستبدله بآخر غيرهِ، ولا آخر بآخر لئلا تستكمل زمانَك بدونِ ثمرةٍ، مثل الطائر الذي يقوم عن البيضِ فيفسد ويصير عديمَ التوليد. كذلك الراهب الكثير التنقل، تبرد حرارةُ الرهبنةِ وتموت من قلبهِ».

وقالت كذلك: إنَّ حيلَ المحتالِ كثيرةٌ، فإذا لم يذلِّل النفسَ بالفقرِ، فإنه يقدم لها الخديعةَ بالغنى، وإذا لم يقدر على إضرارها بالشتائمِ والتعييرات، فإنه يقدم لها المديحَ والسُبحَ الباطلَ، وإن لم يغلب بالصحةِ، فإنه يجلب على الجسمِ أمراضاً، وإن لم يقدر أن يَخدعَ باللَّذاتِ، فإنه يجرب أن يُحزن بالأوجاعِ، فإن كنتَ خاطئاً وحلَّ بك هذا، فتذكَّر العذابَ العتيدَ، والنارَ الدائمةَ، فلا تملّ من الحاضرات، بل افرح بالحري إذا افتقدك الله، وليكن على لسانِك أبداً الفصلَ القائلَ: «أدباً أدبني الربُّ، وإلى الموتِ لم يسلِّمني». وإن كنتَ باراً، فاشكر الله واذكر المكتوبَ: «إننا بتألمنا معه نتمجد أيضاً معه».

وقالت: «إذا صمتَ فلا تحتج بمرضٍ، لأن الذين يصومون قد يسقطون في مثلِ هذه الأمراضِ، وإذا بدأت بالخيرِ فلا تتعوّق بقطعِ الشيطانِ إياك، فإنه سيَبْطل بصبرِك».

وقالت أيضاً: «إذا أخطأنا إلى ملوكِ العالم، ألسنا بغير إرادتنا نُلقى في السجونِ ونُعاقَب؟ فسبيلُنا من أجلِ خطايانا أن نحبسَ أنفسَنا، ونعاقبها بالأتعابِ، لكي نطردَ الذِكرَ الطوعي بالعذابِ العتيدِ».

كما قالت: «كما أن الكنزَ إذا ظهر سُلب، كذلك الفضيلةَ إذا اشتهرت وعُرفت تضمحل، وكما ينحلُّ الشمعُ قدامَ النارِ كذلك نفسُ الإنسانِ قدام المديح تنحلُّ قوتُها».

وقالت: «كما أنه من غير الممكنِ أن يُصلَح مركبٌ بغير مسامير، كذلك لا يمكن أن يوجد خلاصٌ بغير تواضعٍ».

وقالت أيضاً: «إذا كنا في الكنوبيون فإننا نختارُ الطاعةَ على النسكِ، لأن ذلك يُعلِّم التعاظمَ، وتلك تُعلِّم التواضع، فيجب علينا ألا نطلبَ ما هو لنا ولا نتعبد لمشيئتنا الخاصةِ، بل علينا أن نطيعَ ما يأمرنا به الأب الذي بالأمانةِ نستودعه سِرَّنا فيما يأمرنا».

وقالت أيضاً: «إن الذين يجمعون غنى العالم من العناءِ في البحارِ والأسفارِ الشديدةِ، فكلما ربحوا وجمعوا، ازدادوا في ذلك اشتغالاً، وما في أيديهم فلا يلتفتون إليه، وما ليس في أيديهم من الغنى، فإنهم يشتهونه، ويطلبونه، ويحرصون على جَمعِهِ، وأما نحن فقد صرنا في سيرتنا الرهبانيةِ بخلافِ ذلك، لأن الأمرَ الذي خرجنا لنطلُبَه وليس في أيدينا شيءٌ منه، لا نريد أن

نقتنيه من أجلِ خوفِ اللهِ».

وقالت كذلك: «إن الحزنَ على وجهين: فالوجهُ الأول منه نافعٌ جداً، وأما الآخر فهو مُهلكٌ، فعلامات الحزنِ الروحي هي أن يذكرَ الإنسانُ خطاياه فيحزن عليها، وأن يحزنَ أيضاً لخسارةِ أخيه، وأن يحزن كذلك إذا فاته ممارسة ما قد نوى فعله من عمل الخيرِ. أما خصال أحزان العدو التي تُهلك، فهي أن يأتي على الإنسانِ منه حزنٌ بهيمي، وهو ذاك الذي يسميه بعضُ الناسِ ضجراً، إذ يأتي منه قطعُ الرجاءِ واليأس. من أجلِ ذلك ينبغي لنا أن نطردَ هذا الحزنَ عنا بالصلاةِ والترتيل وبحسنِ الرجاءِ باللهِ».

الأب تيثوي: قيل عنه إنه كان يبسطُ يديه بسرعةٍ عند الصلاةِ، فكان عقلُه يُخطف إلى فوق، فإذا اتفق أن صلَّى معه أخوه، فإنه كان يحرص على ألا يرفعَ يديه لئلا يُخطف عقلُه.

وحدث مرةً أن سأله أخٌ قائلاً: «كيف أحفظُ قلبي»؟ فقال له: «إنه لا يمكنك أن تحفظَ قلبَك، ما دام فمُك وبطنُك مفتوحين».

الأب إيراسيس قال: «كما أن الأسدَ مرهوبٌ لدى الحميرِ الوحشيةِ، هكذا الراهبُ المهذَّبُ مرهوبٌ لدى أفكارِ الشهوةِ».

كما قال: «من لا يقدر أن يضبطَ لسانَه وقتَ الغضبِ، فلن يقدرَ أن يغلبَ حتى ولا صغيرةً من صغارِ الآلامِ».

وقال أيضاً: «إنه جيدٌ أن يأكلَ الإنسانُ لحماً ويشربَ خمراً، ولا يأكلَ لحومَ الإخوةِ ويشربَ دماءَهم بالوقيعةِ فيهم».

وقال كذلك: «كما أنَّ الحيةَ لما ساررت حواءَ أخرجتها من الجنةِ، كذلك بها يتشبَّه ذاك الذي يقعُ بقريبِه، في أنه يُهلكَ نفسَ سامعيه، ونفسُه كذلك لن تفلتَ، كما لم تفلت الحيةُ من اللعنةِ».

كذلك قال: «إن الطاعةَ فخرُ الراهبِ، فمن اقتناها يسمعُ اللهُ صوتَه، ويقفُ أمامَ المصلوبِ ربِّ المجدِ بدالةٍ، لأن إلهَنا من أجلِ طاعتهِ لأبيه صُلب عنا».

الأب فيليكا: زاره إخوةٌ ومعهم علمانيون، وطلبوا إليه أن يقولَ لهم كلمةً، أما الشيخُ فبقي

صامتاً. فلما طلبوا إليه كثيراً قال لهم: «هل تبتغون أن تسمعوا للكلمةِ»؟ فأجابوه: «نعم أيها الأب». فقال لهم: «لما كان الإخوةُ يسألون المشايخَ ويصنعون ما يقال لهم، فإن اللهَ كان يُلهم الآباءَ بما يقولونه، وأما الآن فإنهم يسألون ولا يفعلون بما يقال لهم، لذلك رفع اللهُ موهبةَ الكلامِ عن الشيوخِ، إذ لا يجدون ما ينطقون به، لأنه لا يوجد من يعمل، لأن المزمورَ يقول: إن الربَّ اطَّلعَ من السماءِ على بني البشر فلم يجد من يفهم». فلما سمع الإخوةُ هذا الكلامَ تنهدوا قائلين: «صلِّ علينا أيها الأب».

مضى شيخٌ من المشايخِ إلى مدينةِ الحكماءِ التي يُقال لها أثناس (أي أثينا)، حيث مكث ثلاثةَ أيامٍ لم يناوله أحدٌ فيها طعاماً، ولم يكن له شيءٌ سوى السبانية التي هو ملتفٌ بها، وفي اليومِ الرابع اشتدَّ عليه الجوعُ، فقام وجاء بقربِ الموضعِ الذي يجتمعُ فيه الحكماءُ، وهناك أخذ يصيحُ ويصفقُ بيديه ويقول: «ويلي، يا رجال أثناس أغيثوني». فاجتمع إليه الحكماءُ وعليهم أزرٌ مُذهبةٌ، فقالوا له:«ما شأنُك، ومن أين أنت»؟ فقال لهم: «أنا إنسانٌ راهبٌ، ومنذ خرجتُ من وطني وقعتُ في أيدي ثلاثةِ غرماء، اثنان منهم قد وفَّيتُهما حقَّهما فانصرفا، أما الثالث فإنه لا يفارقني مطالِباً بحقِه، وليس لي ما أوفيه». قالوا له: «ومن هم أولئك الغرماءُ لنعرفَهم، وأين الذي يؤذيك»؟ فقال لهم: «آذاني حبُّ المالِ والزنى والحنجرةُ، فاسترحتُ من اثنين وهما حبُّ المالِ والزنى، لأني لا أمتلكُ من الدنيا شيئاً، ولا أتعلق بحبِّ إنسانٍ ما، وأما الحنجرةُ فلا أستطيعُ أن أستريحَ منها، ولي اليومَ أربعةُ أيامٍ لم أذق فيها طعاماً، وها بطني مثلُ غريمِ سوءٍ يطالبني مريداً أن يأخذَ مالَه، وإن لم أعطِه، فإنه لا يدعني أعيش». فظن بعضُ الحكماءِ أنه يمزح، فأعطوه ديناراً، فلما أخذه ذهب إلى بائعِ الخبزِ وأعطاه له، وأخذ خبزةً واحدةً وانصرفَ بسرعةٍ إلى خارجِ المدينةِ، فعلم الحكماءُ إنه بالحقِ ذو حسناتٍ، فأعطوا الرجلَ ثمن خبزتِه، واستردوا الدينارَ.

الأب خوما: لما دنت وفاتُه، قال لتلاميذِه: «لا تكن لكم خلطةٌ مع هيراطيقي، ولا معرفةٌ برئيسٍ، ولا تكن أياديكم مبسوطةً للأخذِ، بل بالحري للعطاءِ».

قال شيخٌ: «إن أعرفُ إنساناً من أهل القلالي، هذا قد صام جمعةَ الفصحِ كلَّها، فلما كان وقتُ الاجتماعِ في عشيةِ السبتِ، لم يحضر مع الإخوةِ، لئلا يأكلَ شيئاً مما يوضع على المائدةِ، بل عمل في قلايتِه يسيراً من السلقِ، وأكله بغيرِ زيتٍ».

قيل عن أنبا أور وأنبا تادرس إنهما كانا يطليان قلايةً بالطينِ، فقال أحدُهما للآخرِ: «لو افتقدَنا الربُّ في هذه الساعةِ فماذا نصنعُ»؟ فبكيا وتركا الطينَ، وانصرف كلُّ واحدٍ منهما إلى قلايتِهِ.

قيل عن أنبا أور إنه لم يكذب قط، ولم يحلف، ولم يلعن، ولا كان يتكلم إلا للضرورةِ، وكان يوصي تلميذَه قائلاً: «انظر يا ابني، لا تُدخل هذه القلايةَ كلمةً غريبةً».

حدث مرةً أن مضى تلميذ أنبا أور ليبتاعَ خوصاً، فقال له البستانيُ: «إن أنساناً أعطانا عربوناً من ثمن الخوصِ، ولم يرجع إلى الآن، فادفع الثمنَ وخذه». فأخذه وجاء وأخبر الشيخَ بما قاله البستانيُ، فلما سمع الشيخُ بذلك، حط بيديه على الأرضِ وقال: «إن أور لن يعملَ في هذا العامِ عملاً». وفعلا لم يدع الخوص يدخل قلايتَه، فأخذه التلميذُ وردَّه إلى صاحبِهِ.

قال الأنبا أور: «إن وقع بينك وبين أخٍ حزنٌ، وجحد ما قاله فيك، فلا تلاججه، وإلا فمصيره أن يتوقَّح ويقول: نعم، أنا قلت».

قال أحدُ الشيوخِ: «إنَّ لي أربعينَ سنةً أحسُّ بقتالِ الخطيةِ في قلبي، وما خضعتُ لها قط لا بشهوةٍ ولا بغضبٍ».

قيل عن أنبا قيسان: إنه ذهب إلى شيخٍ له أربعون سنةً في البريةِ، وسأله بدالةٍ: «ماذا قوَّمت أيها الأبُ في هذه الخلوةِ التي لا تكاد تلتقي فيها بإنسانٍ»؟ فأجابه قائلاً: «إني منذ أن ترهبتُ، لم تبصرني الشمسُ آكلاً». فقال له سائلُه: «ولا أبصرتني الشمسُ غاضباً قط».

قال القديس لنجينوس: «الصومُ يوضعُ الجسمَ، والسهرُ يُطهِّر العقلَ، والسكوتُ يجلبُ البكاءَ، والبكاءُ يُعَمّ◌ِّد الإنسانَ ويجعله بغيرِ خطيةٍ».

وقيل إنه كان لهذا الأبِ تخشعٌ كبيرٌ في صلاتِهِ وقراءتِه، فقال له تلميذُه مرةً: «هل هذا هو القانون الإلهي يا أبي، أن يبكيَ الإنسانُ في خدمتِه لله»؟ فأجابه: «نعم يا ولدي، هذا هو القانون، ليس لأن اللهَ قد صنعَ الإنسانَ للبكاءِ، بل للفرحِ والسرورِ، وليخدمَه بطهارةِ قلبٍ، وعدمِ خطيةٍ كالملائكةِ، فلما سقط الإنسانُ في الخطيةِ، احتاج إلى النوحِ والبكاءِ، وحيث لا توجد خطيةٌ، فليست هناك حاجةٌ إلى البكاءِ».

سأل أخٌ أنبا تادرس قائلاً: «إني أريدُ أن أُتَمِّمَ الوصايا». فقال له الشيخُ: «حَدث أن كان البابا ثاؤفيلس البطريرك في البريةِ، فقال: إني أريدُ أن أُكمِّلَ فكري مع اللهِ. فأخذ دقيقاً وصنعه خبزاً، فأتاه مساكين يطلبون شيئاً، فأعطاهم الخبزَ، ثم طلب منه آخرون فأعطاهم الزنابيل، وطلب منه غيرهم، فأعطاهم الثوبَ الذين كان يلبسه، ودخل القلايةَ ملفوفاً في وزرةٍ، ومع كلِّ ذلك فإنه كان يلومُ ذاتَه قائلاً: إني ما أتممتُ وصيةَ اللهِ».

ومرةً توجَّه البابا ثاؤفيلس إلى الإسقيط، فاجتمع الإخوةُ وقالوا لأنبا بفنوتيوس: «قل للبابا كلمةً واحدةً لكي ينتفعَ». فقال لهم الشيخُ: «إن لم ينتفع بسكوتي، فحتى ولا بكلمتي ينتفعُ». فسمع البطريركُ ذلك وانتفع جداً.

قال أنبا بيمين عن أنبا يوحنا القصير: «إنه طلب إلى اللهِ فرفع عنه الآلامَ وصار بلا همٍّ. فلما توجَّه إلى الشيخِ قال له: ها أنا تراني يا أبي مستريحاً، وليست لي أشياءٌ تقاتلني بالجملةِ. فقال له الشيخُ: امضِ اسأل اللهَ أن يُرجِع إليك القتالَ، لأنه بالقتالِ تنجحُ النفسُ وتفوزُ. فلما جاءه القتالُ، لم يصلِّ كي يرتفعَ عنه، بل كان يقول: أعطني يا ربُّ صبراً على الاحتمالِ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «يا أبي، كيف يأتي الإنسانُ إلى الاتضاعِ»؟ فأجابه الشيخُ: «ذلك بأن تكون فيه مخافةُ اللهِ». فقال الأخُ: «وبأيِّ شيءٍ تأتي مخافةُ اللهِ»؟ قال الشيخُ: «بأن يجمعَ الإنسانُ ذاتَه من كلِّ الناسِ، ويبذلَ جسمَه للتعبِ الجسدي بكلِّ قوتِه، ويذكرَ خروجَه من الجسدِ ودينونةَ اللهِ له».

قيل: التقى الشيطانُ مرةً بالأب مقاريوس، وهو حاملٌ خوصاً، وقال: «ويلاه منك يا مقاريوس، هو ذا ما تصنعَه أنت أصنعه أنا كذلك، أنت تصومُ وأنا لا آكلُ، أنت تسهرُ وأنا لا أنامُ، ولكن بشيءٍ واحدٍ تغلبني». فقال له الشيخُ: «وما هو»؟ فأجابه الشيطانُ: «إنك بالاتضاعِ وحده تقهرني».

سأل أنبا إشعياء الأنبا مقاريوس قائلاً: «قل لي كلمةً». فأجابه الشيخُ: «اهرب من الناسِ». فقال أنبا إشعياء: «وما هو الهروبُ من الناس»؟ فأجابه الشيخُ: «هو جلوسك في قلايتك وبكاؤك على خطاياك».

ومرةً طلب منه أخٌ أن يقولَ له كلمةً، فقال له: «لا تصنع بأحدٍ شراً، ولا تدن أحداً، احفظ هذين وأنت تخلص».

قيل عن القديس مقاريوس إنه صار كملاكٍ أرضي، فكما أنَّ اللهَ يسترُ زلاتِ العالمِ، كذلك كان مقاريوس يسترُ النقائصَ التي يراها.

قال الأب مقاريوس: «إن نحن ذكرنا السيئاتِ التي تحلُّ بنا من الناسِ، فإننا نقطع قوةَ ذِكرِ اللهِ من قلوبنا، وإن نحن ذكرنا شرورَ الشياطين نبقى غيرَ مجروحين».

قالت الأمُ سارة: «إن أنا طلبتُ أن أصنعَ إرادةَ كلِّ الناسِ، فإني سوف أوجد تائهةً على بابِ كلِّ أحدٍ، فينبغي لي أن أحفظَ قلبي نقياً مع كلِّ أحدٍ، وأنا مبتعدةٌ عن كلِّ أحدٍ».

أخبروا عن شيخٍ أنه كان جالساً في قلايته، فأتاه أحدُ الإخوةِ في الليلِ، وأراد الدخولَ إليه، فلما بلغ البابَ سمع صوتَه من داخلٍ وهو يقول: «يكفي، يكفي، حتى متى؟ اذهبوا الآن من قدامي». ثم سمعه يقول: «تعالَ تعالَ يا صديقي». فلما دخل إليه قال: «لمن كنتَ تتكلم يا أبي»؟ قال له: «لحسياتي الرديئة كنتُ أطردُ، وللصالحاتِ كنتُ أدعو».

حدَّث شيخٌ قائلاً: إني خرجتُ دفعةً من قلايتي وجُزتُ بقلايةِ شيخٍ قديسٍ، فسمعتُه وأنا خارجها يخاصمُ خصومةً شديدةً، ويقول: «حتى متى؟ كيف من أجلِ كلمةٍ واحدةٍ ذهب كلُّ هذا»؟ فلما سمعتُ صوتَ الخصومةِ، ظننتُ أن عندَه إنساناً يشاحنه، فقرعتُ البابَ لأُصلحَ بينهم، ولما دخلتُ لم أجد أحداً سوى الشيخِ وحده، فسألتُه بانبساطٍ وقلتُ له: «يا أبي، مع من كنتَ تتخاصم»؟ فقال لي: «كنتُ أخاصمُ فكري، لأني قد استظهرتُ أربعةَ عشرَ مصحفاً (أي حفظتُها عن ظهرِ قلبٍ)، وسمعتُ خارجاً كلمةً واحدةً قبيحةً، فلما بدأتُ أصلي، جاءت تلك الكلمةُ، ووقفتْ قدامي، وأبطلتْ تلك المصاحفَ كلَّها، فمن أجلِ ذلك كنتُ أخاصمُ فكري».

قال شيخٌ: «إذا أنتَ غطَّيتَ عيني الدابةِ، دارت الرحى، وإذا لم تغطِ، لا تدور، كذلك الشيطانُ، إذا تُرِكَ ليغطي عيني الإنسانِ، فهو يَضَعُهُ في كلِّ خطيةٍ، وما دامت عينا عقلِ الإنسانِ مكشوفتين، فإنه يهربُ من كلِّ عثراتِ الشياطين».

قال شيخٌ: «إذا قمتَ باكرَ كلَّ يومٍ، أمسك لك أمراً يجلِبُ الصلاحَ، واحفظ وصايا اللهِ

بطولِ روحٍ، بمخافةِ اللهِ، بالصبرِ على الأحزانِ، وبالحبسِ وبالصلواتِ، بالتنهدِ، بضبطِ اللسانِ، بحفظِ العينينِ، بقلةِ الغضبِ، وألا تحسبَ نفسَك شيئاً، بل تجعل فكرَك تحتَ كلِّ الخليقةِ، بجهادِ الصليبِ، بالتوبةِ والبكاءِ، بسهرِ الليالي، بصبرٍ صالحٍ، بالجوعِ والعطشِ، وذلك لتستحقَ الدعوةَ السمائيةَ، بنعمةِ ربنا يسوعَ المسيحِ له المجد».

قيل عن أنبا قاسيانوس: إنه أخذ مرةً تليساً، ومضى إلى الأندر مع الحصَّادين، وقال لصاحبِ الأندر: «أعطِني قمحاً». فقال له: «لماذا لم تأتِ لتحصدَ، فكنتَ تستحقَ أن تأخذَ». فقال له الشيخُ: «هل إذا لم يحصد الإنسانُ لا يأخذ أجرةً»؟ قال: «لا يأخذ». فما كان من الشيخِ إلا أن انصرف، فقال له الإخوةُ الذين عاينوا ما حدث: «لماذا فعلتَ هكذا يا أبانا»؟ فقال لهم: «سُنَّةً صنعتُها لنفسي وهي: إن لم يعمل الإنسانُ ويتعب، فلن يأخذَ أجرَه من اللهِ».

كان لراهبٍ ثوبٌ جيدٌ، فتصدَّقَ به على مسكينٍ، وبعد يومٍ مرَّ الراهبُ بالمدينةِ، فأبصرَ ثوبَه على زانيةٍ، فحزِنَ جداً، فتراءى له ملاكُ الربِّ وقال له: «لا تحزن لأجلِ أنَّ ثوبَك لَبستْهُ زانيةٌ، لأنك ساعة دَفعتَهُ لذلك المسكينِ لبسه المسيحُ، وإن كان ذاك قد أعطاه لزانيةٍ، فهو يحملُ إثمَه على نفسِه».

قال أنبا قاسيانوس: إنَّ أنبا موسى أوصانا بألا نكتمَ أفكارَنا بل نكشفُها لمشايخ روحانيين لهم معرفةٌ وتمييزٌ، وليس لمن طالَ عمرُه، وشابَ شعرُه، لأن كثيرين قصدوا أهلَ كبرِ السنِ، وكشفوا لهم عن أفكارِهم، وحيث أنه لم يكن عندهم معرفةٌ، فعِوضَ العلاجِ طرحوهم في اليأسِ، وهذا ما حدث لأخٍ من البارزين في الجهادِ، إذ أنَّه لما تأذَّى بالزنى نتيجة كثرةِ القتالِ الواقع عليه، ذهب إلى أحدِ المشايخ، وكشف له عن أفكارِه، وكان الشيخُ عادمَ المعرفةِ، فتضجَّرَ منه وقال: «أيها الشقي، إذ قد توسختْ حواسُك بهذه الأفكارِ، على أيِّ شيءٍ تتَّكل»؟ فلما سمع الأخُ قولَه، حزن جداً ويئس من خلاصِه، وترك قلايته، ومضى قاصداً العالَمَ، ولكن حدث بتدبيرٍ من اللهِ أن التقى به شيخٌ آخر، فلما رآه عابساً مضطرباً سأله عن حالِهِ قائلاً: «ماذا بك يا ولدي»؟ فقال له الأخُ: «يا أبي إني تأذَّيتُ بأفكارِ الزنى، فمضيتُ إلى الشيخِ فلان، وكشفتُ له أمري، فبحسب جوابِهِ لي، ليس لي رجاءٌ في الخلاصِ». فلما سمع الشيخُ قولَه، أخذ في تسكينِ روحِه، وابتدأ يتملَّقه قائلاً: «لا يغمك هذا الكلام ولا تيئس نفسُك من الخلاصِ، فها أنا بالرغمِ مما

بلغتُه من هذا السنِّ وهذه الشيبةِ، فكثيراً ما أتأذى بهذه الأفكارِ، فلا تحزن من هذا الاشتغال الذي لا يبلغ جهادُنا فيه مقدارَ ما يأتينا من رحمةِ الله ومعونتِه، لكن هَبْ لي يومَك هذا وارجع إلى قلايتك». فأطاع الأخُ كلامَ الشيخِ ورجع معه إلى قلايتِه. أما الشيخُ الذي ردَّه إلى قلايتِه، فإنه أتى إلى قلايةِ ذلك الشيخِ الذي يأَّسه ووقف خارجها وسأل اللهَ بدموعٍ كثيرةٍ قائلاً: «أنا أطلبُ إليك يا ربي وإلهي أن تصرفَ هذا القتالَ عن هذا الأخِ، وتسلِّطه على هذا الشيخِ الذي يأَّسه، وذلك ليجربَ في شيخوختِه ويتعلمَ في كبرِ سنِّهِ ما لم يتعلمه في طولِ زمانهِ، ليشعر بأوجاعِ المجاهدين المقاتَلين فيتوجَّع لوجعِهم، وبذلك يحصلُ على منفعةِ نفسِه». فلما أتم الشيخُ صلاتَه، نظر رجلاً أَسودَ واقفاً بقرب قلايةِ الشيخِ وهو يصوِّب نحوه سهاماً ويجرحه، وإذا بالشيخ يقومُ لساعتِهِ سكراناً، ويخرج من قلايته، فيسلك الطريقَ التي سلكها الشابُ الذي يأَّسه، مريداً أن يعودَ إلى العالمِ. فلما علم الشيخُ بما عزم عليه ذلك الشيخُ، استقبله وقال له: «إلى أين أنت ذاهبٌ أيها الأبُ، وما سبب هذا الاضطراب الذي اضطرَّك للخروجِ من قلايتِك»؟ أمَّا هو فتوهَّمَ أن الشيخَ قد عرفَ بحالِه، ومن الخجلِ لم يَرُدَّ عليه جواباً. فقال له ذاك: «ارجع إلى قلايتِك، ومن الآن كن عارفاً بضعفِك، واعلم بأنك إلى هذه الغايةِ لم تُجرَّب بعد، إما لأن الشيطانَ كان غافلاً عنك، أو لاستهانتهِ بك لم يتجرد لقتالِك، ولذلك نجوتَ، وها قد ظهر الآن أنك غيرُ أهلٍ أن تُعدَّ من المجاهدين، لأنك لم تقدر أن تصارع يوماً واحداً، فما أصابك اليوم كان نتيجةً لتصرفِك مع ذلك الشابِ الذي أتاك، وقد آذاه عدوُنا كلَّنا، فبدلاً من أن تعينَه وتشجعَه، ألقيتَه في اليأسِ، ولم تفكر فيما قاله الكتابُ: خلِّصوا المسوقين إلى الموتِ، شجِّعوا صغيري الأنفس. ولم تذكر أنه مكتوبٌ عن سيدِك: قصبةً مرضوضةً لم يكسر، وسراجاً خاملاً لم يُطفئ. فمن اليومِ واظب على الصلاةِ والدعاءِ، ليصرفَ اللهُ عنك هذه الضربةَ التي أصابتك، لأنه قال: أنا أضربُ وأنا أشفي، وأنا أُميتُ وأنا أُحيي، وهو الذي يُحدر إلى الجحيمِ ويُصعد». ولما قال القديسُ هذا، صلى إلى اللهِ فانصرف عن ذلك الشيخِ ما كان قد نزل به من القتالِ، ووعظه قائلاً: «يجب أن تسألَ اللهَ في كلِّ وقتٍ أن يعطيك لسانَ أدبٍ لتعرفَ ماذا ينبغي أن تقولَه في وقتِه».

سُئل **أنبا يوحنا** رئيس الكنوبيون عند نياحته:« قل لنا كلمةً يا أبانا». فقال: «إني لم أُكمِّلَ

هوايَ قط، ولم أُعلِّم أحداً شيئاً لم يسبق لي عمله».

قال شيخٌ: «من يغلبُ الأسدَ ليس بشجاعٍ، كذلك من يقتل اللبؤةَ ليس بجبارٍ، أما من يخرج من هذا العالمِ وهو نقي من عيبِ النساءِ فهذا هو الغالب».

أخٌ أغضبَه أخوه، ولما دخل قلايتَه، استحى أن يصليَ للهِ بسببِ الوجعِ المتقد في قلبِهِ، ولكنه لما تطارح قدامَ اللهِ قائلاً: «يا سيدي، لقد غفرتُ لأخي من كلِّ قلبي». فللوقتِ جاءه صوتٌ يقول له: «قد أخذتَ شبهي، إذن فصلِّ لي بدالةٍ».

قال شيخٌ: «إن من لا يقبل الإخوةَ جميعَهم بمساواةٍ بل يفرز، فلن يستطيعَ هذا أن يكونَ كاملاً».

قال شيخٌ: «الشيطانُ فتَّالُ حبالٍ، فأنت تدفعُ له الخيوطَ وهو يفتلُ. هذا ما قاله من أجلِ مساعدتنا للأفكارِ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «إذا بَذَرَ فيَّ الشياطين فكراً نجساً، أو غوايةَ الليلِ بالجنابةِ، يمنعونني من أن أصليَ قائلين لي: إنك نجسٌ». أجاب الشيخُ قائلاً: «إذا وضعت الأمُ الصبيَ على الأرضِ متمرغاً في وسخِهِ، فإنه عندما يرى أمَّه يرفع يديه ووجهَه نحوها وعيناه ممتلئةً دموعاً، فتتحنن أمُّه عليه وتضمه إليها، وتُصعِدَه على صدرِها، وتُقبِّله، ولا تنظر إلى شيءٍ من وسخِهِ. كذلك نحن يا أخي، إذا ما أغوتنا الشياطين فلنُسرع صارخين نحو اللهِ باكين بين يديه، فإنه يقبلنا من وسطِ نجاساتنا ويطهرنا له دفعةً أخرى».

قيل: حدث مرةً أن اتفق ثلاثةُ شيوخٌ على أن يخرجوا معاً إلى البريةِ لعلهم يجدون رجلاً متعبداً للهِ، ولما ساروا ثلاثةَ أيامٍ، وجدوا مغارةً، فأتوْا إليها، فأبصروا نفساً خارجةً من جسدِها، وهي تُساقُ إلى جهةِ الغربِ، فبكوا لذلك قائلين: «يا ربُّ، كيف أنَّ متوحداً كهذا، وفي هذا المكانِ من القفرِ، تُساقُ نفسُه إلى الغربِ»؟ فجاءهم صوتٌ قائلاً: «إن لهذا الشيخِ في هذه المغارةِ أربعين سنةً، وقد فكَّر في قلبِهِ قائلاً: إنه لا يوجَد راهبٌ آخر مثلي. فلهذا السببِ تُساقُ نفسُه إلى الغربِ». فقال الشيوخُ: «بالحقِّ إنَّ الكبرياءَ تُهلِكُ جميعَ ثمرِ الراهبِ».

سأل بعضُ الإخوةِ شيخاً قائلين: «هل الاسمُ يُخلِّصُ أم العملُ»؟ فقال لهم الشيخُ: أحدُ

الشيوخ القديسين اشتهى أن يُبصِرَ نفسَ بارٍ، ونفسَ خاطئٍ وقتَ خروجِهما. فابتهل مصلياً إلى اللهِ زماناً، وإذ لم يشأ الربُّ الصالحُ أن يُحزِنَه لأجلِ تعبهِ، فأصدر إليه صوتاً يقول له: «امضِ إلى المدينة وأنا أريكَ». فقام الشيخُ بسرعةٍ وتوجَّه إلى المدينةِ، وكان هناك ناسكٌ كبيرٌ له اسمٌ عظيمٌ، وكان في شدةِ الموت، ولعظمِ اسمِهِ بَطُلَ سوقُ المدينةِ في ذلك اليوم، وبكى الناسُ قائلين: «إن اللهَ بصلاةِ هذا القديسِ يصنعُ الرحمةَ للعالمِ». وأعدُّوا أكفاناً فاخرةً ومصابيحَ كثيرةً وأطيابَ للجنازةِ. فلما قربت ساعتُه، نظر الشيخُ فأبصرَ خازنَ جهنم قد أقبل وبيده خطافٌ يشبه الحديد المغلي بالنار، فوقف على رأسِهِ، وسمع صوتَ الربِّ يقول «لا ترحم هذه النفسَ لأن ذلك الإنسانَ لم ينيحني على الأرضِ ولا يوماً واحداً». وفيما الشيخُ يريدُ الرجوعَ إلى قلايته، عَبَرَ ببعضِ أزقةِ المدينةِ، فرأى راهباً صغيراً مطروحاً على الأرضِ في خرقٍ باليةٍ وهو في شدةِ الموتِ، وليس أحدٌ يهتمُ به. فجلس الشيخُ عنده، ولما أتت ساعتهُ، نظر الشيخُ وإذا بملاكين جليلين قد انحدرا لأخذِ نفسِهِ، فمكثا وقتاً طويلاً ينتظران، ولكن تلك النفسَ لم تشأ الخروجَ من جسدِها، فنظر الملاكان إلى السماءِ وقالا: «يا ربُّ، ماذا تأمر عبيدَك من أجلِ هذه النفسِ، لأنها لا تشاء مفارقةَ جسدها»؟ فأرسل إليها الربُّ داودَ وكلَّ منشدي السماءِ، فلما قالوا: «ارجعي يا نفسي إلى موضعِ راحتكِ فإن الربَّ قد أحسنَ إليكِ»، وأيضاً: «كريمٌ أمام الربِّ موتُ قديسيه». فمن الفرحِ خرجت نفسُ ذلك الأخِ متهللةً.

قيل عن شيخٍ إنه أقام سنين كثيرةً ناسكاً، لا يأكل سوى خبزٍ وملحٍ فقط، مرةً في كلِّ أسبوعٍ، حتى لصق جلدُه بعظمِهِ، وفي بعضِ الأيامِ زاره شيخٌ آخر، فلما رآه متعباً جداً قال له: «يا أبي إنك قتلتَ نفسَك وحدك بكثرةِ التعبِ، فكلْ شيئاً قليلاً من الإدامِ لترجعَ إليك قوتُك. فلم يشأ، فكرَّر عليه قائلاً: كُلْ ولو قليلاً من الفاكهةِ». فأجابه الشيخُ: «لماذا تضطرُّني إلى الكلامِ، لأني حتى ولو أكلتُ الرمادَ مع الطعامِ لا أستطيعُ أن أُرضيَ اللهَ، لأني عالمٌ بما حصل لنفسي أنا شخصياً، إذ حدث مرةً وأنا راقدٌ، إذ أُخذتُ إلى موضعِ الحكمِ، وكان كثيرون قياماً من ههنا ومن ههنا، وكنتُ واقفاً بخوفٍ شديدٍ، فقلتُ: اذكر يا ربُّ تعبي. وبقولي هذه الكلمة عوقبتُ فوراً، إذ قال للقيامِ: أخرجوا هذا. فدنا مني واحدٌ وأدخل يدَه في فمي، وقطع لساني، وجعله في يدي، فاستيقظتُ وأنا مرتعدٌ، فوجدتُ يدي مطبوقةً ففتحتُها ظاناً أنها ممسكةٌ

بلساني». فلما سمع الشيخُ هذا الكلامَ أمسك عنه.

قال شيخٌ: «لو كنا حكماءَ ونجعل أنفسَنا جهلاءَ، فإننا نستريحُ ونتنيح». فقال له أخٌ: «وكيف يجعلُ الإنسانُ نفسَه جاهلاً وهو حكيمٌ»؟ قال له الشيخُ: «إذا أنت قلتَ كلمةً في وسطِ الإخوةِ، وكانت تلك الكلمةُ حقاً وصواباً، ويتفقُ أن يقومَ آخر ويقول كلمةَ كذبٍ وغيرَ صائبةٍ، فإنك إن أبطلتَ كلمتَك الصائبةَ، وأقمتَ كلمةَ أخيك الكاذبةَ، فتكونَ حكيماً وقد جعلتَ نفسَك جاهلاً من أجلِ اللهِ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «ماذا أفعلُ يا أبي، فإنَّ الخوفَ يتبعني إذا لحقتني أفكارٌ»؟ فقال له الشيخُ: «إنَّ جندي الملكِ إذا خرج للحربِ قبالة الأعداءِ، فكلما رموه وجرحوه ينهضُ مسرعاً لمقاتلتهم دفعاتٍ كثيرةً، فما لم يترك الحربَ ويهرب فإن الملكَ لن يغضبَ لأجلِ أنهم جرحوه، بل بالحري يفرح له بالأكثرِ، لكونِه قبل الجراحَ في سبيلِ مقاتلةِ أعداء سيدِهِ، هكذا أنت أيضاً، كلّما هاجمتك الأفكارُ، انتصب بالأكثرِ لمقاتلتها».

كان لرجلٍ شريفٍ غريمٌ، فلبثَ يطالبه عشرَ سنين ولم يجبه، وكان الدائن بطيبهِ يصبر، وكان له صديقٌ، فقال له: «إني متعجبٌ منك كيف لم تحنق منه لأن لك زماناً وأنت تطالبه وهو لا يجيبك». فقال له: «إنك تعجب لأني أطلتُ روحي عليه عشر سنين، وهو ذا اللهُ أكثرَ من خمسين سنةً، يطلبُ إليَّ أن أحفظَ وصاياه، وحتى الآن لم أجبه، ولم أصنع هواه، وهو بطيبهِ يصبرُ عليَّ، فإن كنتُ وأنا الإنسانُ لم أُجِب اللهَ وهو لا يغضبُ عليَّ، فليس بعجيبٍ إن كان إنسانٌ مثلي لا يجيبُني، وأطيلُ روحي عليه».

نَهَبَ إنسانٌ شريرٌ مالَ أحدِ الحكماءِ، فلم يغضب عليه، فقيل له: «لماذا لم تغضب على الذي نهب مالَك»؟ فقال: «إني شبَّهتُهُ بالموتِ، لأنَّ الموتَ ينتزعُ كلَّ إنسانٍ من مالِهِ ولا يغضبُ عليه أحدٌ».

قال أنبا يوحنا: «تركْنا الخدمةَ الخفيفةَ التي هي أن نلومَ أنفسَنا، ولازمنا الخدمةَ الثقيلةَ التي هي أن نمجّدَ أنفسَنا».

سُئل شيخٌ: «ما رأيُكَ في أُناسٍ يقولون إنهم يُبصرون ملائكةً»؟ فأجاب الشيخُ: «طوبى لمن

أَبصرَ خطاياه كلَّ حينٍ».

سأل أخٌ شيخاً: »ما هي الغربةُ؟« فقال له الشيخُ: »إني أعرف أخاً، هذا خرج ليتغرَّب، فدخل كنيسةً، واتفق أن كانت هناك أغابي، حيث كان كثيرون مجتمعين، فلما تهيَّأت المائدةُ جلس يأكلُ مع الإخوةِ، فنظر إليه إنسانٌ وقال: من أدخلَ هذا الغريب معنا؟ ثم قال له: اخرج خارجاً. فقام وخرج كما أُمر بدون تزمرٍ. فلما أبصرَ آخرون حزنوا وخرجوا فأدخلوه، فدخل، فقال له أخٌ: ماذا كان في قلبك حين أخرجوك وحين أدخلوك؟ فقال: حسبتُ إني كلبٌ، إذا طُرِد خرج، وإذا دُعي دخل«.

قال أخٌ لأنبا تيموثاوس: »إني أرى نفسي بين يدي اللهِ دائماً« فقال له: »ليس هذا بعجيبٍ، ولكن الأعجب أن يبصرَ الإنسانُ نفسَه تحت كلِّ الخليقةِ«.

قال شيخٌ: »في كلِّ التجاربِ التي تأتي عليك، لا تلُم إنساناً، ولكن لُم نفسَك قائلا: إنه من أجلِ خطاياي لحقني هذا«.

قال أنبا يوحنا التبايسي: »ينبغي للراهبِ قبل كلِّ شيءٍ أن يقتني الاتضاعَ، لأن هذه هي وصية مخلصنا الأولى، إذ قال: طوبى للمساكينِ بالروحِ فإن لهم ملكوتَ السماواتِ، لأن آباءنا إذ كانوا يفرحون بشتائم كثيرةٍ، دخلوا ملكوتَ السماواتِ«.

قال يوحنا ذهبي الفم: »إن السكوتَ هو نموٌ عظيمٌ للإنسانِ، ونياحٌ لنفسهِ. السكوتُ يعطي القلبَ عزلةً دائمةً، السكوتُ يجلِبُ الدِعةَ مع كلِّ إنسانٍ، السكوتُ يُبعدُ الغضبَ، السكوتُ قرينُ النسكِ، السكوتُ يولِّد المعرفةَ، السكوتُ يحرس المحبةَ، السكوتُ لا يُوجعُ قلبَ إنسانٍ، ولا يشكك أحداً، السكوتُ يعمل عملَه بلا تقمقمٍ، السكوتُ يحفظ شفتيه ولسانَه، فلا يبقى في قلبهِ شيءٌ من الشرِّ، السكوتُ هو كمالُ الفلسفةِ، فمن يعيشُ بالسكوتِ، فإنه يستطيع أن يتمسكَ بجميعِ الحسناتِ الأخرى، الملازم للسكوتِ بمعرفةٍ قد خُتِمَ بخاتمِ المسيحِ، والحافظُ إياه بلا شكٍ يرثُ ملكوتَ السماواتِ«.

سأل أخٌ شيخاً عن الجسدِ، فقال له الشيخُ: »جميع الوحوشِ والحيوانات إذا أنت أكرمتها، فإنها لا تسيءُ إليك، إلا الجسد وحده، فإنك إن أحسنتَ إليه أساء إليكَ عوض الإحسانِ«.

كما قال هذا الشيخُ أيضاً: »إني سألتُ شيخاً آخرَ، وكان ذلك الشيخُ في رباطات ضيقةٍ، فقلت له: يا أبي، لعلك إذا جئتَ إلى وسطِ الإخوةِ استرحتَ من هذا التعبِ، فقال: نعم، يا ابني، لكني أخاف من هذا الفرسِ الذي أنا راكبه، أعني جسدي، لأنه إذا أصبحَ في الراحةِ، وعدم الضيقِ، رماني إلى أعدائي، وجعلني شماتةً«.

قيل عن راهبٍ: إن ألمَ الزنى أتى عليه بشدةٍ، فلما أزعجه جداً، قام وخرج من قلايتهِ ومضى إلى جحرِ ضبعةٍ ونزل إليه وهو يقول: »خيرٌ لي أن أموتَ بهذه الضبعةِ، من أن أموتَ بالخطيةِ«. فأقام هناك ستةَ أيامٍ وهو صائمٌ لا يذوقُ شيئاً، وفي اليومِ السابعِ أتته الضبعةُ بمأكولٍ، فاستمرَ مقيماً في ذلكِ الموضعِ أربعينَ يوماً، وفي كلِّ أسبوعٍ كانت الضبعةُ تأتيه بما يأكله، وبعد ذلك أتاه صوتٌ يقول له: »تقوَّ«، ومن ساعتهِ هرب عنه روحُ الزنى، فشكرَ اللهَ ورجع إلى قلايتهِ.

سأل أخٌ شيخاً عن وجعِ الزنى، فقال له الشيخُ: »إني لم أُقاتَل به قط«، فعمل الأخُ مطانيةً قائلاً: »لماذا لم تقاتَل أنت به يا أبي؟« فأجابه الشيخُ: »إني منذ ترهبتُ لم أشبع خبزاً ولا ماءً ولا نوماً، فالتعبُ والهمُّ لا يدعان هذا القتالِ يؤذيني«، ثم قال له: »احذر يا ابني من كلامِ الباطلِ، ولا تفرح بكلامِ الهزءِ، ولا تدع فمَك يتكلمُ بكلِّ كلامٍ يأتي عليه، لئلا تقع في صغرِ النفسِ، لا تفرح بالضحكِ لئلا يتسلط عليك النسيانُ، وإذا كنتَ في أوجاعٍ فلا تكن بغيرِ هَمٍّ، بل أسرع لتتخلصَ منها، ولا تُدمن المشيَ في المدنِ، لئلا تقع في أوجاعٍ مختلفةٍ، أبغض الاجتماعَ بكثيرين، لئلا تكون في تعبٍ دائمٍ، اهرب من كثرةِ الكلامِ لئلا تنسى ذاتَك، وتغفلَ عن أوجاعِك، اهرب من كثرةِ المأكولات لئلا تزني بدون امرأةٍ تحضرك، لا تأكل كثيراً لئلا يظلم عقلُك، لا تغذي جسدَك للشبعِ لئلا تُهلك نفسَك وحدك، ليكن لك هدوءٌ بمعرفةٍ، وقليلُ عملٍ، وقليلُ صلاةٍ، وقليلُ قراءةٍ مع الصومِ إلى المساءِ كلَّ يومٍ، وخِدَم النهارِ والليلِ بخوفِ اللهِ. أظلم نفسَك في أخذك وعطائك، لتستريح في جلوسك. أبغض شهوةَ الأطعمةِ، فيخف ألم الزنى عنك، لا تقتنِ ثوباً حسناً لئلا تكره نفسُك المحقرة، أحب الغربةَ بمعرفةٍ ولا تَعُدَّ نفسك في شيءٍ ما، اذكر ابن اللهِ، إنه من أجلك عُلِّق على خشبةٍ، من أجلِك شُتم، ومن أجلك سُقيَ خلاً، ومن أجلِك سُمِّر بالمسامير وقَبل اللعنةَ من أجلِك، فعليك باحتمالِ كلِّ شيءٍ يلمُّ بك بطيبةِ

نفسٍ، واحذر أن تَعُدَّ نفسك، حتى ولا أحد يَعُدَّك، واحرص بكلِّ قوّتِك أن تُخرج من جسدِك أوجاعَ الهوانِ البهيمية، هذه التي تفصل الإنسانَ من الروحِ القدس، اهرب من خلاف الطبيعةِ الذي لسدوم كما يهرب الطائر من الفخِ، لأن من أجلِهِ ينزلُ غضبُ اللهِ على بني العصيانِ، ولا سيما إذا أنت سقطتَّ فَتُب وابكِ بحرقةِ قلبٍ واسأل الله ألا تخطئ أيضاً، لأنك إن حفظتَ نفسَك قدامه، يغفر لك ويطهرك مثل طهارةِ القديسين، لأنه مكتوبٌ: إنه يتكلم بالسلامةِ على شعبه، وعلى قديسيه وعلى الذين يرجعون إليه بكل قلوبهم، فما أعظم هذه المراحم، كيف أنه يتكلم بمساواةٍ حتى أنه يجعل من يرجع إليه بكل قلبه، مساوياً للقديسين».

«ليكن مشيُكَ بثباتٍ، وكلامُك بثباتٍ، وأكلُك بثباتٍ. وإذا كنتَ جالساً في قلايتِكِ فاحفظ نفسَك من الغفلةِ والنسيانِ. ولا يكن لك همٌّ خارجاً. ولا تترك عقلكَ يطيشُ في العالمِ. ولا تُلزم نفسَك بعملٍ زائدٍ. بل قسِّم النهارَ: قليلَ عملِ يدٍ، قليلَ صلاةٍ، قليلَ درسٍ، وعقلُك يهذُّ، إياك ومحبة الطوافِ من موضعٍ إلى موضعٍ، لأن الشجرةَ المتنقلة دائماً، تكونُ بغيرِ ثمرةٍ وربما تموت، لتكن رحوماً على المحتاجين من تعبك، لكي ما يرحمك الله ويعينك، ومهما عملتَ فاعمله بإفرازٍ ومشورةِ العارفين، وأحبَّ فعلَ الخيرِ بقدرِ قوتِك. لا تتوانَ لئلا تقع وتُؤخذ في سقطتِك، لا ترقد في موضعٍ تلومك فيه نيتُّك، من دونِ شدةٍ شديدةٍ وضرورةٍ لازمةٍ. إذا حضرتَ لتأكلَ مع شيوخٍ، فكن مثلَ إنسانٍ يستحي أن يأكلَ، ليكن كلُّ الإخوةِ عندك جياداً، وعلِّم لسانَك أن يُكرِّم كلَّ الناسِ، وجاهد ما استطعتَ في أن تكونَ بانفرادٍ دائمٍ كي تركز همَّك جهةِ خطاياك، لتصيرَ بلا همٍّ من العالمِ، فتُؤهل للعزاءِ من قِبل اللهِ، لأنك إنما هربتَ من العالمِ وتركتَ أباك وإخوتك ومالَك، لمثابرةِ اللهِ، فماذا لك بعد مع همومِ الناسِ؟ فجاهد كي تتفرغ للهِ بكلِّ قوّتِك، ولا تدع شيئاً من همومِ هذا المسكنِ الزائل، أن يفصِلَك من اللهِ«.

قال أنبا ديادوخس: »من يشاءُ أن يُطهِّرَ قلبَه جداً فليتخذ له كلَّ حينٍ الذِكرَ الصالحَ الذي هو اسمُ ربنا يسوعَ المسيحِ، الاسمُ القدوسُ، عملاً وهذيذاً وكلاماً وفكراً بغيرِ فتورٍ، وبمحبةٍ عظيمةٍ وشوقٍ كثيرٍ، وليُخرجَ من عقلِهِ وَسَخَ الخطيةِ بعملِ الوصايا كلِّ حينٍ«.

قال شيخٌ: »الرجلُ الذي يرى موتَه قريباً جداً منه في كلِّ وقتٍ، فإنه يستطيعُ أن يقاومَ الضجرَ«.

سأل أخٌ شيخاً: »ما هو نموُّ الإنسانِ وتقويمُه؟« قال الشيخُ: »نموُّ الإنسانِ وتقويمُه هو الاتضاع، لأنه مادام الإنسانُ سائراً نحو فضيلةِ الاتضاعِ، فإنه سائرٌ إلى قدام وهو ينمو«.

قيل عن شيخٍ إنه كان كثيرَ الرحمةِ، فحدث غلاءٌ عظيمٌ، ولكنه لم يتحول عن فعلِ الرحمةِ، حتى نفذَ كلُّ شيءٍ له، ولم يبقَ عنده سوى ثلاثِ خبزاتٍ، فحين أراد أن يأكلَ أحبَّ اللهُ امتحانه، وذلك بأن قرع سائلٌ بابَه، فقال لنفسِه: »جيدٌ لي أن أكونَ جائعاً، ولا أردَّ أخَ المسيحِ خائباً في هذا الغلاءِ العظيمِ«. فأخرجَ خبزتين له، وأبقى لنفسِه خبزةً واحدةً، وقام وصلى وجلس ليأكلَ، وإذا سائلٌ آخر قد قرع البابَ، فضايقته الأفكارُ من أجلِ الجوعِ الذي كان يكابده داخله، ولكنه قفز بشهامةٍ، وأخذ الخبزةَ وأعطاها للسائلِ قائلاً: »أنا أؤمن بالمسيحِ ربي، إني إذا أطعمتُ عبدَه في مثلِ هذا الوقتِ الصعبِ، فإنه يطعمني هو من خيراتِه التي لم ترها عينٌ، التي أعدَّها لصانعي إرادتِه«. ورقد جائعاً، وبقيَ هكذا ثلاثةَ أيامٍ لم يذق شيئاً، وهو يشكرُ اللهَ، وبينما كان يصنع خدمته بالليلِ، جاءه صوتٌ من السماءِ يقول له: »لأجل أنك أكملت وصيتي، وغفلت عن نفسِك، وأطعمتَ أخاك الجوعان، لا يكونُ في أيامِك غلاءٌ على الأرضِ كلِّها«، فلما أشرقَ النورُ، وجد على البابِ جِمالاً محمَّلةً خيراتٍ كثيرةً، فمجَّد اللهَ، وشكر الربَّ يسوعَ المسيحِ، ومن ذلك اليومِ عمَّ الرخاءُ الأرضَ كلَّها.

قال أنبا باخوميوس: »إذا أكمل الإنسانُ جميعَ الحسناتِ وفي قلبِهِ وَجْدٌ على أخيه، فهو غريبٌ من اللهِ«.

قال أنبا أثناسيوس: »من يعاتبك ويوبخك على زلاتِك، أحبه مثلَ نفسِك، واتخذه لك صديقاً«.

وقال أيضاً: »من يشتم الذي يعلِّمه خلاصَه، فإنه يشتم رجاءَ اللهِ مخلصه«.

قال أنبا تيموثاوس: »المحبة لا تعرف أن تدينَ رفيقها، ولا تكافئ بالسيئاتِ«.

وقال أيضاً: »من يهتمُّ بجسدِه بشهوةِ أكلٍ وشربٍ، فهو يقيمُ عليه الحربَ، ويقاتل نفسَه بنفسِه«. كما قال أيضاً: »إن لم تتسلط على أمعاءِك، وتقهر جسدَك في كلِّ شيءٍ، فلن تستطيع أن تقتني الطهارةَ«.

وقال كذلك: »إن شئتَ أن تصادقَ الله، فلا تُحزن أحداً من الناسِ، حتى ولو أكثرَ الإساءَةَ إليكَ، بل اترك الأمرَ للهِ».

وقال أيضاً: «إذا أنت صادقتَ اللهَ، فسوف يقوم الكلُّ عليك، ويرفعون أعقابهم على رأسِك. وأخيراً، إكليلاً من ياقوتٍ يضعونه عليك، وتاجاً ملوكياً يضعونه على رأسِكَ«.

قال الأنبا أنطونيوس: »لا تَحزن ولا تتأ لم ولو قليلاً على شيءٍ لهذه الدنيا، ولا تقلق إذا شتمك جميعُ الناسِ، فهم يُشبهون الغبارَ الذي تحمله الريحُ، بل احزن بالحري، إذا ما عَمِلتَ ما يستوجب الشتيمةَ«.

وقال أيضاً: »ما منفعةُ كلام الكرامةِ، فإنه يطير في الهواءِ، وماذا يحدثُ من الخسارةِ العارضةِ من الشتيمةِ الصائرة مجاناً؟ فهوذا الناسُ يموتون، وتموت كرامتهم، وشتيمتهم أيضاً تذهبُ معهم«.

قال الأب برصنوفيوس: »إذا ما حرَّكك فكرٌ من الشيطانِ على إنسانٍ، فقل في نفسِك بطولِ روحٍ: إني قد أخضعتُ ذاتي للهِ لكي ما أخدم آخرين، فيكُفَ عنك الفكرُ، وكن دائماً مستقصياً عن أفكارِك، ولتبكِّتها، لأن الذي يُبكِّت أفكارَه، ويقول إنه خاطئٌ، وهو في فعلِه ليس خاطئاً، فهذا هو غايةِ الاتضاعِ، ومن كان متضعاً، فإنه لا يغضب، ولا يخاصم، ولا يدين أحداً، ولكنه يرى الناسَ كلَّهم أخيرَ منه، ومن يعلم أنه خاطئٌ فلا يلوم قريبَه، ولا يعتل به».

وقال أيضاً: »لا تحسب نفسَك شيئاً وأنت تتنيح، جاهد أن تموتَ من كلِّ الناسِ وأنت تخلص، قل لفكرِك إني قد مُتُّ ووضعتُ في القبرِ، فماذا لي مع الأحياءِ، وبذلك لن يقدرَ على أن يحزنَك. إن الطاعةَ مطفِئةٌ لجميعِ سهامِ العدوِ المحماة، وأما المحبةُ فهي الدروع العظيمة (أي الأربطة) والعصائب التي تشدد كلَّ استرخاءٍ وتشفي كلَّ الأمراضِ«.

كما قال: »شابٌ لا ينفعُ شاباً، حتى ولو سقاه بكأسٍ جميعَ تعليمِ الكتبِ الإلهيةِ، فلن ينتفعَ منه«. كذلك قال: »الجلوسُ في القلايةِ، إنما هو الدخولُ إلى القلبِ وتفتيشه، وضبطُ الفكرِ من كلِّ شيءٍ رديءٍ، وقطعُ الهوى وتركُ تزكيةِ الذات، والابتعادُ من مرضاةِ الناس. الخلاصُ يحتاج إلى تعبٍ كثيرٍ واجتهادٍ، فلا تسترخِ للجسدِ لئلا يصرعك«.

وقال أيضاً: »النسيانُ هو هلاكُ النفسِ، وينتجُ من التهاونِ، فالذي يُكلِّف نفسَه في كلِّ شيءٍ فإنه ينجحُ، والذي لا يقيمُ هواه ولا يلاجج بكلمةٍ فإنه يستريحُ، والذي يلومُ نفسَه في كلِّ شيءٍ فإنه يجدُ رحمةً أمامَ اللهِ إلهِنا«.

وقال أيضاً: »اقتنِ الاتضاعَ فإنه يكسرُ جميعَ فخاخِ العدو«. وقال كذلك: »إن غَلَبَ الإنسانُ باللهِ التجربةَ الأولى، فلن يقوى عليه العدو فيما بعد، أما إن غُلِب في التجربةِ الأولى، فإن العدوَ متى أراد أتى به إلى عبادةِ الأصنامِ فأضلَّه عما سواها«.

قال أنبا تيموثاوس: »إذا أكرمك الناسُ فخف جداً، واكره نفسَك وحدَك، ولا تستحِ أن تُقرَ بذنوبك، واهرب من كرامةِ الكثيرين، لئلا يُغرقوا مركبَك«.

وقال أيضاً: »إذا أنت سقطتَ فلا تتوانَ، ولا تكسل، بل قم بسرعةٍ. وإذا ضللتَ أسرع بالرجوعِ إلى خلف حتى تجدَ الطريقَ المستقيمةَ، لأن الطريقَ المستقيمةَ حسنةٌ جداً وليس فيها دوران، ولا تحتاج إلى طولِ الزمانِ، بل بسرعةٍ تصل إلى مدينةِ السلامِ«.

كما قال: »لا توجد طريقٌ مستقيمةٌ، سوى طريقِ ربنا يسوع المسيح، لأنه هو الطريقُ والحقُ والحياة«.

قال أنبا باخوميوس: »جميعُ المواهبِ بطولِ الروحِ وثباتِ القلبِ تُعطى، وجميعُ القديسين لما ثبَّتوا قلوبَهم نالت أيديهم المواعيد. فَخْرُ القديسين هو طولُ الروحِ في كلِّ شيءٍ، وبهذا حُسبوا قديسين«.

وقال أيضاً: »هذه هي الأعمالُ الفاضلةُ: إن قاتلك فكرُ ضجرٍ من أخيك، فعليك باحتمالِه بطولِ روحٍ، حتى ينيِّحَك اللهُ فيه، صبرٌ على صومٍ دائمٍ، صلاةٌ بغيرِ فتورٍ في مخادعِ قلبك بينك وبين اللهِ، وصيةٌ صالحةٌ لأخيك، بتوليةٌ محفوظةٌ في أعضائِك، طهارةٌ وقدسٌ في قلبك، عنقٌ منحنٍ، وضربُ مطانيةٍ مع قولك: اغفر لي، دِعةٌ في أوانِ الغضبِ«.

كما قال: »احفظ نفسَك من هذا الفكرِ الذي يجلِبُ عليك تزكيةَ ذاتِك، وازدراءَ أخيك، لأنه مبغوضٌ جداً قدام الله ذلك الإنسان الذي يُكرم نفسَه ويرذل أخاه«.

كذلك قال: »لن تشاركَ القديسينَ في مواهبهم، ما لم تُتعب جسدَك أولا في مشاركةِ

أعمالِهم، كذلك لن تدخلَ الحياةَ، إن لم تُضيِّق على نفسِك أولاً حتى الموت«.

وقال أيضاً: »ليس لنا عذرٌ نقوله قدام الله إذا وقفنا بين يديه، هل نقول: لم نسمع أو لم نعرف أو إنهم لم يعلِّمونا؟ هو ذا الكتب موجود فيها معرفة كلِّ شيءٍ«.

قال أنبا أثناسيوس: »اهتم بعملِ الخيرِ حسب قوتك من أجلِ اللهِ، لا سيما مع المسيئين إليك ومبغضيك، لكي تغلبَ الشرَّ الذي فيهم من نحوِك«.

قال الأنبا تيموثاوس: »من احتمل عدوَّه عند شتمِهِ إياه، فهو قويٌ وحكيمٌ، أما من لا يحتمل الشتيمةَ، فلن يحتملَ الكرامةَ كذلك، لأن الشتيمةَ أقلُ ضرراً من الكرامةِ«.

قال القديس مقاريوس: »احفظوا ألسنتكم، وذلك بأن لا تقولوا على إخوتكم شراً، لأن الذي يقول عن أخيهِ شراً، يُغضب الله الساكن فيه، ما يفعله كلُّ واحدٍ برفيقِهِ، فباللهِ يفعله«.

وقال أيضاً: »احفظوا ذواتَكم من كلامِ النميمةِ والوقيعةِ، لكي تكونَ قلوبُكم طاهرةً، لأن الأذنَ إذا سمعت الحديثَ النجسَ، فلا يمكن أن تحفظَ طهارةَ القلبِ بدونِ دنسٍ«.

وقال أيضاً: »لا تطاوع مشورةَ الشياطين الأنجاس، إذا حدَّثوك بخداعٍ قائلين: إنَّ اللهَ لا يؤاخذك بخصوصِ هذا الأمرِ اليسير، أو هذه الوصيةِ الصغيرةِ، إن توانيتَ فيها. بل اذكر أنَّ كلَّ معصيةٍ كبيرةٌ كانت أم صغيرة، فإنها تُغضبُ الله«.

قال أنبا بفنوتيوس: »كثيرون يجعلون نفوسَهم وحدَهم مؤمنين باللسانِ لا بالعملِ، وبالكلامِ يتظاهرون بأنهم قائمون، وليس لهم شيءٌ من الأعمالِ البتةِ، ويفتخرون باطلاً بما لم يصلوا إليه«.

قال أنبا أفرآم: »لأيِّ شيءٍ رفضتَ العالمَ إن كنتَ تطلبُ نياحَ العالمِ، للضيقِ دعاكَ اللهُ الكلمةُ، فكيف تطلبُ نياحاً؟ للعُري دعاك، فكيف تتزين باللِباسِ؟ للعطشِ دعاك فكيف تشربُ خمراً«.

قال شيخٌ: »شابٌ يتنزَّه دفعاتٍ كثيرةً، فقد صار سيفاً لنفسِه وحده«.

وقال آخرُ: »إذا لم ينم الشابُّ وهو جالسٌ، مادامت له استطاعةٌ في جسدِه، فإنه عاجزٌ مقصرٌ. وكلُّ شابٍّ يرقدُ على ظهرِهِ بقِلةِ همٍّ، فإنه يوقظُ الأوجاعَ المهينةَ في جسدِه، وأيُّ شابٍّ

يحبُ الراحةَ والنياحَ، فإنه لا يفلت من الخطيةِ، كذلك الشابُّ الكسلانُ لا يقتني شيئاً من الحسناتِ«.

من كلامِ مار إسحق: »بأمرين يصنعُ الجسدُ نياحَه بحماقةٍ، مسبباً للنفسِ أتعاباً ومشقةً ورواميز (أي اضطرابات) عظيمةً للفكرِ. أما هذان الأمران، فأولهما: عدمُ ضبطِ البطنِ غير المخضعة لتجلدِ الصومِ، وثانيهما: عدمُ ترتيبِ الأعضاءِ التي تعطي دالةً للنظرِ والمجسةِ العديمة التعففِ، الذي منه يحدثُ فسادُ هيكلِ اللهِ بتوسطِ الأفكارِ الطائشةِ في الأباطيلِ«.

وقال أيضاً: »تَحَكَّم قبالة مسببات الآلام، فتهدأ عنك الآلامُ من ذاتِها«.

كما قال: »العفةُ في وسطِ النياحاتِ لا تثبتُ بغيرِ فسادٍ، كما أن الجوهرةَ في وسطِ النارِ لا يُحفظُ شُعاعُها بغيرِ فسادٍ«.

وقال كذلك: »خمسُ فضائل بدونِها جميعُ طبقاتِ الناسِ لا يمكنهم أن يكونوا بلا لومٍ، وإذا حفظها الإنسانُ، تَخَلَّص من كلِّ مضرةٍ، وصار محبوباً عند اللهِ والناسِ، وهي: جسدٌ عفيفٌ، لسانٌ محترسٌ، زهدٌ في الرغبةِ والشرَه، كتمانُ السرِّ في سائرِ الأشياءِ بغرضٍ مستقيمٍ إلهي، وإكرامُ كلّ طبقاتِ ومراتبِ الناسِ، فوق ما يستحق ذلك الوجه، لأن الذي يُكرمُ الناسَ، يُكرَم هو أيضاً منهم، كما يأخذُ المجازاةَ من اللهِ، لأن الكرامة توجِبُ كرامةً، والازدراءَ يجلبُ ازدراءً، والذي يُكرمُ اللهَ يُكرَمُ هو أيضاً منه«.

وقال أيضاً: »يسقطُ في الظنونِ الرديئةِ السمجةِ، كلُّ إنسانٍ مُستعبَد للأربعةِ الآلامِ الآتية: جسدٌ شغبٌ (شهواني)، رغبةٌ في أشياءٍ جسديةٍ، لسانٌ قاسٍ، نقلُ الكلامِ من واحدٍ إلى آخرِ بنوعِ المثلبةِ. كما أن الذي يتخلى اللهُ عنه لأجلِ تعظمِه يسقطُ في واحدٍ من ثلاثةِ أنواعٍ من الخطيةِ هي: إما في فسقٍ سمجٍ، وإما في ضلالةٍ شيطانية، وإما في أذيةٍ عقلية«.

كما قال: »كما أن الموادَ الدُهنيةَ تزيدُ النارَ اضطراماً، هكذا طراوةُ المآكلِ تنمي ألمَ الزواجِ. معرفةُ اللهِ لا تسكنُ في جسدٍ محبٍ للراحةِ، وأيُّ إنسانٍ يحبُ جسدَه، لا يُؤهَّلُ لمواهبِ اللهِ، كما يُشفقُ الأبُ على ابنِه، هكذا يشفقُ المسيحُ على الجسدِ العمَّالِ، وفي كلِّ وقتٍ قريبٌ من فمهِ«.

وقال كذلك: »من يشتهي الروحانيات، حتماً يُهمِلُ الجَسَدَانيات، احذر من حياةِ الخُلطةِ،

لأنها تعوقُ سائرَ أنواعِ التوبةِ، التخاطب مع كثيرين يعوقُ الحزنَ الذي من أجلِ اللهِ، ليس شيءٌ محبوبٌ لدي الله، وسريعٌ في استجابةِ طلباتهِ، مثل إنسانٍ يطلبُ من أجلِ زلاتهِ وغفرانها. الذي يحبُ الكرامةَ لا يستطيعُ أن ينجوَ مِن عِلَلِ الهوانِ. كلُّ إنسانٍ تدبيرُهُ رديءٌ حياةُ هذا العا لمِ شهيةٌ عنده، ويليه بعد ذلك من هو قليلُ المعرفةِ، وحقاً لقد قيل إنَّ مخافةَ الموتِ تُرعِبُ الرجلَ الناقصَ، أما الذي في نفسِه شهادةٌ صالحةٌ فإنه يشتهي الموتَ كالحياةِ«.

شيخٌ مَدَحته أفكارُه لأجلِ أعمالٍ قد صنعها من قبل، قائلةً له بأنه قد أُهِلَ للرجاءِ وعدم الفسادِ مثلاً، فأجاب الشيخُ أفكارَه قائلاً: »إني لا زلتُ سائراً في الطريقِ، وباطلاً تمدحونني، لأني لم أصل بعدُ إلى نهايةِ الطريقِ«.

وقال أيضاً: »متى داخلتك شهوةُ اهتمامٍ بغيرِك بنوعِ الفضيلةِ، حتى يتشتت ما في قلبك من السكونِ، فقل: إن طريقَ المحبةِ والرحمةِ لأجلِ اللهِ مقبولةٌ، ولكني من أجلِ الله كذلك لا أريدُها«. وقد حدثَ أن قال راهبٌ: »إن لم تقف لي من أجلِ اللهِ، أجري خلفك«. فقلتُ له: »وأنا من أجلِ اللهِ كذلك أهربُ منك«.

سؤال: «متى يثقُ الإنسانُ بأنه استحق وأُهِّلَ لمغفرةِ الخطايا»؟

الجواب: »إذا ما أحسَّ في نفسِهِ بأنه قد أبغضها بالكمالِ من كلِّ قلبه، وبدأ يصنع ما يضاد تصرفَه الأول بالظاهرِ والخفي، فمن هو هكذا، فله ثقةٌ بغفرانِ خطاياه من اللهِ، وذلك بشهادةِ الضميرِ التي قد اقتناها في نفسِه، حسب قول الرسول: لأن القلبَ الذي لا لومَ فيه، هو الشاهدُ على نفسهِ«.

قال شيخٌ: «إذا أردتَ أن تُرضيَ اللهَ، فَنَقِّ قلبَك من جميعِ الناسِ، وضع ضميرَك تحتَ كلِّ الخليقةِ، ولا تدن أحداً، واجعل فكرَك في اللهِ، وإذا أبصرتَ أحداً يخطئ، صلِّ للهِ قائلاً: اغفر لي فإني أنا الذي فعلتُ هذه الخطيةَ. فتتم فيك الكلمةُ المكتوبةُ: ما من حبٍّ أعظمُ من هذا أن يضعَ الإنسانُ نفسَه عن رفيقِه».

قال أنبا يوسف: «نحن معشر إخوة هذا الزمان نأكل ونُنيح الجسدَ، من أجلِ هذا لا ننمو مثل آبائنا، لأن آباءنا كانوا يُبغضون جميعَ نياحِ الجسدِ، ويحبون كلَّ الضيقاتِ من أجلِ اللهِ، ولهذا

اقتربوا إلى اللهِ الحي».

قال شيخٌ: «كلُّ موضعٍ تمضي إليه، فاحرص ألا تجعلَ ذاتَك من أهلِ ذلك الموضعِ».

قال أنبا بولا الساذج: «من هرب من الضيقةِ فقد هرب من اللهِ».

قال شيخٌ: «إما أن تجعل نفسَك في وسطِ الناسِ بهيمةً، وإما أن تهربَ، ولا تدعهم يلحقون بك».

قال أنبا بطرا: «الإمساك الذي هو أفضل من إمساك البطنِ، والذي يجب أن تغصبَ نفسَك إليه هو هذا: أن لا تأكلَ لحمَ إنسانٍ ولا تشربَ دمَه بالوقيعةِ».

قال أنبا إبراهيم: «إذا حملتَ نيرَ المسيحِ، فانظر كيف تمشي فيه، لا ينبغي لك أن تخلطَ عملَ الدنيا بعملِ المسيحِ، لأنهما لا يجتمعان معاً، ولا يسكنان كلاهما في موضعٍ واحدٍ. لا تسلك في الطريقِ الواسعةِ، لأن كثيرين سلكوا فيها فضلُّوا وذهبت بهم إلى الظلمةِ، حيث النار المعدَّة، ولكن اسلك طريقَ الحقِ والصوابِ، فإنها وإن كانت ضيقةٌ حزينةٌ ضاغطةٌ، لكنها تُخرِجُ إلى السعةِ والحياة، والنعيمِ الدائمِ. لا تبنِ جسدَك بالنعيمِ واللِباسِ، مثل البيوت المزخرفة، التي تؤول إلى الهدمِ والهلاكِ، ولكن ابنِهِ بالتوبةِ والأعمالِ المرضيةِ للهِ على الأساسِ الوثيقِ، الذي بنى عليه القديسون: بمشيٍ هينٍ، وصوتٍ لينٍ، ولباسٍ حقيرٍ، وطعامٍ يسيرٍ، وحبٍّ تامٍ، وطاعةٍ واتضاعٍ، وحسياتٍ نقيةٍ».

التقى سائحٌ بسائحٍ آخر في بريةِ سيناء، فسأله: «بماذا يكون الخلاصُ»؟ قال له: «بالمعرفةِ بحقائقِ الأمورِ والعمل بحسبِ الحقِ». قال له: «إذن فمن لا يعرف لا يخلص»؟ قال: «لا». فقال: «وما هي المعرفةُ إذن»؟ قال: «أن يعرفَ العبدُ حقيقةَ خالقِهِ، ومِمَ خلقه، وما يؤول إليه أمرُه، فإذا عرف ذلك، فإنه لن يعصيه، بل سوف يصنع مرضاته طول حياته». فقال: «صدقتَ»، ثم انصرف.

قال ديادوخس: «لا يقدر إنسانٌ أن يقتني خوفَ اللهِ إلا إذا أحبَّ خصالاً وأبغضَ خصالاً أخرى، وذلك إذا أراد أن يكونَ راهباً حقاً». قالوا له: «وما هي الخصالُ التي تُحَب»؟ قال: «هي الشجاعةُ في غلبةِ الأهواءِ المظلمةِ، المحبة، العفة، العلم، الاتضاع، المسكنة، الرحمة،

حسن الحديثِ ولينه، الصبر، السهر، التعب، الطاعة، وما أشبه ذلك مما يُرضي اللهَ، فمن كانت له هذه الخصال رَجَوتُ له الخلاصَ». فقالوا له: «وما هي الخصالُ التي تُبغَض»؟ قال: «الشَرَه، الفسق، الحقد، اللجاجة، الرياء، الكذب، النميمة، الحسد، الشر، العجز، الضجر، التواني، الغفلة، البذخ، التيه، العظمة، العُجب، الصلف، وما أشبه ذلك».

قال شيخٌ: «الذي يُحقِّر نفسَه من أجلِ الربِّ، يَهَبه الحكمةَ والمعرفةَ، لسنا في احتياجٍ إلا إلى قلبٍ حريصٍ. طوبى لمن يصبرُ على هذه الثلاثة بشكرٍ وهي: أن لا يأكلَ حتى يجوع، ولا ينامَ حتى ينعس، ولا يتكلمَ حتى يُسأل».

من أقوالِ أنبا يعقوب: «مثل المصباحِ الذي ينير البيتَ المظلمَ، كذلك خوفُ اللهِ إذا دخل في قلبِ الإنسانِ، فإنه يضيئه ويعلمه جميعَ الوصايا».

تحدَّث الآباءُ عن شيخٍ أُخذت روحُهُ، وبعد ساعةٍ رجعت إليه، فسألوه: «ماذا أبصرتَ يا أبانا»؟ فقال وهو يبكي: «سمعتُ هناك قوماً يقولون وهم باكين: الويل لي، الويل لي».

قال شيخٌ: «من مدح راهباً بحضرتِهِ، فقد أسلمه بأيدي أعدائه».

قال أنبا بيمين: «إذا ذكر الإنسانُ الكلمةَ المكتوبة: إنه من كلامِك تدان، ومن كلامِك تتزكى، فإنه يختار لنفسِه السكوتَ».

وقال أيضاً: «مثل الدخانِ الذي يطرد النحلَ حتى يقطفوا العسلَ، كذلك نياحُ الجسدِ، يطرد خوفَ اللهِ، ويُتلِف كلَّ عملٍ صالحٍ».

أبصرَ أنبا أنطونيوس فخاخَ الشياطين مبسوطةً على الأرضِ كلِّها، فتنهد وقال: «يا ربُّ، من يفلتُ من كلِّ هذه»؟ فأتاه صوتٌ من السماءِ قائلاً: «المتضعون يفلتون منها».

كان شيخٌ جالساً في البريةِ، وكان بينه وبين الماءِ الذي يستقي منه اثنا عشر ميلاً، فذهب مرةً ليستقي، فضجر وقال لنفسِه: «لماذا أعاني هذا التعب؟ فلأذهب وأسكن بقربِ الماءِ». وفيما هو يفكر في هذا الأمرِ، التفتَ إلى خلفِه، فأبصر شيخاً يَعُدَّ خُطاه، فسأله: «من أنت»؟ فقال له: «إني ملاكُ الربِّ، أرسلني لأعدَّ خُطاكَ، لكي يعطيك أجرَ تعبك». فلما سمع الشيخُ ذلك، طابت نفسُه، وزاد على المسافةِ خمسة أميال أخرى.

قال شيخٌ: «إن قوَّمت الصمتَ، فلا تظن في نفسِك أنك قد قوَّمت شيئاً، ولكن اعتبر ذاتَك أنك لستَ أهلاً لأن تتكلم».

قال أنبا أنطونيوس: إني أبصرتُ مصابيحَ من نارٍ محيطةً بالرهبانِ، وجماعةً من الملائكةِ بأيديهم سيوفٌ ملتهبةٌ يحرسونهم، وسمعتُ صوتَ اللهِ القدوس يقول: «لا تتركوهم ما داموا هم مستقيمي الطريقةِ». فلما أبصرتُ هذا ، تنهدتُ وقلتُ: «ويلك يا أنطونيوس، إنَّ كلَّ هذا العونِ محيطٌ بالرهبانِ، والشياطين تقوى عليهم»! فجاءني صوتُ الربِّ قائلاً: «إن الشياطينَ لا تقوى على أحدٍ، لأني من حينِ تجسَّدتُ، سحقتُ قوَّتهم عن البشريين، ولكن كلّ إنسانٍ يميلُ إلى الشهواتِ، ويتوانى بخلاصِه، فشهوتُه هي التي تصرعه وتجعله يقع». فصحتُ وقلتُ: «الطوبى لجنسِ الناسِ وبخاصةِ الرهبان، لأن لنا سيداً هكذا رحوماً ومحباً للبشرِ».

قال الشيوخُ: «إن للشيطانِ ثلاثَ خصالٍ قويةٍ، وهي تتقدم كلَّ خطيةٍ، وهي، النسيان، التواني، الشهوة. ومن الشهوةِ يقعُ الإنسانُ. فإن انتبه العقلُ ولم ينسَ، فلن يجيءَ إلى التواني، وإن هو لم يتوانَ، فلن يأتي إلى الشهوةِ، وإن هو لم يشتهِ، فلن يقع بنعمةِ ربنا يسوعَ المسيحِ».

سأل أخٌ الأنبا بيمين قائلاً: «كيف ينبغي أن يكونَ الراهبُ الساكنُ في الكنوبيون»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «إن الذي يسكن في الكنوبيون، ينبغي أن يكونَ جميعُ الإخوةِ عندَه واحداً في المحبةِ، وأن يحفظَ لسانَه وعينَه، وحينئذ يكونُ في راحةٍ».

سأل أخٌ شيخاً: «ماذا يصنعُ الإنسانُ في بليةٍ تأتي عليه»؟ فأجابه: «ينبغي له أن يبكيَ قدام الله، ويطلبَ منه أن يعينه كالمكتوب: إن الربَّ عوني فلا أخشى، ماذا يصنعُ بي الإنسانُ».

قال مار باسيليوس: «ماذا ينفعُني إذا أتممتُ الفضيلةَ كلَّها، ثم أقول لأخي: يا أحمق، فأكون قد استوجبتُ جهنم، هو ذا السليح يعقوب يقول: إن تَمَّم الإنسانُ الناموسَ كلَّه وأخطأ في أمرٍ واحدٍ، فهو في الكلِّ مُدانٌ. لن تستطيع إدراكَ شيءٍ من مُرضاةِ الله بغير الاتضاع، فلا تفرِّغ أفكارَك في استقصاءِ عيوبِ الناسِ وخطاياهم، ولكن تفرَّغ لتفتيش عيوبَك وخطاياك».

قال شيخٌ: «إن كان الراهبُ حريصاً مجاهداً بالحقيقةِ، فإن اللهَ لا يشاءُ له أن يكونَ مرتبطاً البتةً بشيءٍ من متاعِ هذه الدنيا، حتى ولا بإبرةٍ صغيرةٍ، لئلا تفصلَ فكرَه من ذِكر ربنا يسوعَ

المسيحِ، وتُشغلَه عن التوبةِ عن خطاياه. كلُّ إنسانٍ قد ذاق حلاوةَ المسكنةِ، فإنه يستثقلُ الثوبَ الذي يلبسه، والكوزَ الذي يشرب فيه الماءَ، لأن عقلَه قد اشتغل بأشياءٍ أخرى روحانية، الذي لم يُبغِض بعدُ متاعَ الدنيا، كيف يقدرُ أن يُبغِضَ نفسَه، كما قال السيدُ»؟

وقال أيضاً: «ويحٌ لنفسٍ قد اعتادت أن تسألَ عن كلامِ اللهِ، وتسمعه ولا تعمل شيئاً بما تسمع».

وقال أيضاً: «ويحٌ لشابٍّ يملأ بطنَه ويصنعُ هواه، لأن رهبانيته وتلمذته وكلَّ تعبِهِ يكونُ باطلاً».

قال شيخٌ: «إن كان إنسانٌ يُجرِّبه إبليسُ بأوجاعِ الخطيةِ، ويبكي وينوح لذلك بين يدي الله، فإن اللهَ يشتاقُ إليه، لأن التنهدَ قادرٌ أن يحلَّ الخطيةَ، والبكاءَ يغسلُ الذنوبَ».

قال أنبا زينون: «إن كنتَ تريدُ أن تقطعَ عروقَ شيطانِ الزنى، وتهلكه عنك، فكف فمَك عن دينونةِ الناسِ كلّهم، ولا تقع بواحدٍ من ورائه، وقِر بخطاياك دائماً، فهذا هو عونٌ لك وسلاحٌ قوي، أما إن أسلمتَ نفسَك لكثرةِ الكلامِ، فإن الملاكَ الذي معك يتنحى عنك، ويلتقي بك الشياطين أعداؤك، ويمرِّغونك في دنسِ الخطيةِ. ليس شيءٌ يُصَيِّرنا مثلَ اللهِ، سوى عدم الحقدِ، وأن نكونَ بلا شرٍّ قبالة الذين يسيئون إلينا».

من أقوال أنبا نيلس، قال: «احتفظ بأبوابِ السمعِ، وأفضل منها بأبوابِ العينين، فقد اعتادت سهامُ الشرِّ الدخولَ من هذه الأبوابِ. احتفظ بالإمساكِ، كي ما تضع حركاتَ الجسدِ، فإن مَرِضَ فعزّه حتى يجيءَ إلى الصحةِ، دون أن تلازمَ اللّذات. صلِّ ألا تأتيك البلايا، فإن أتتك، فتصبر لها. أنت تحب أن تعملَ الفضيلةَ بلا تعبٍ، ولكن اعلم أن التعبَ إنما لزمنٍ قصيرٍ، أما الأجرُ فيدومُ إلى الأبدِ. لا تحوِّل وجهَك عن دموعِ المسكينِ، لئلا تُحتقرَ دموعُك في زمنِ الشدةِ، إن أمسكتَ بطنَك، اضبط أيضاً لسانَك، لئلا يكونَ الواحدُ عبداً والآخرُ حراً بلا منفعةٍ. إن أحببتَ السمائيات، فما لك والأرضيات التي تمنعك عن أن تطيرَ نحو السمائيات. إنْ دِنَّا أنفسَنا، رضيَ الديانُ عنا، لأنه يفرحُ مثل صالحٍ، إذا هو أبصرَ الخاطئَ (يتوب) فيطرح عنه حزمَتَه (أي ثقل خطاياه). إن كنا قد فعلنا أمراً نجساً، فلنغسلَه بالتوبةِ. تنهد على قريبك إنْ هو أخطأ، كما تتنهد على نفسِك، لأننا كلَّنا تحتَ الزللِ. لتكن الصلاةُ بيقظةِ العقلِ، لئلا تطلبَ من اللهِ

أموراً لا يهواها. إذا صليْتَ، اصعد بأفكارِك إلى اللهِ، وإن هي نزلت ودارت فارفعها أنت أيضاً. اصبر للأحزانِ، لأن بها يأخذُ المجاهدون الأكاليلَ. ما ألذُّ وأطيبُ خبزَ الصومِ، لأنه معتوقٌ من خميرِ الشهواتِ. إن عملتَ بيديك، فليكن اللسانُ مزمِّراً، والعقلُ مصلياً، لأن اللهَ يحبُ أن تذكرَه دائماً أبداً. ينبغي أن تتكلمَ بالحسناتِ لكي ما تبدأ بالأعمالِ، حيث تستحي من الكلامِ. طهِّر النفسَ بالدموعِ في الصلاةِ، ولكن بعدَ الصلاةِ، اذكر لماذا كانت الدموعُ. لا تختلط بالذي تراه يتباعد من الصالحين. أعطِ البطنَ ما يقوته، لا ما يهواه. لا تحب التنعمَ، لأنه يجلبُ حبَّ العالمِ. أُمُّ الشرِّ هي التواني بالخيرات. لا تبغض المسكنةَ لأنها تُصيِّر المقاتلَ بلا همٍّ. لا تفرح بالغنى لأن الاهتمامَ به يُبعدُ الإنسانَ عن اللهِ وهو كارهٌ. لا تغفل عن أن تصنعَ رحمةً، ولا تحب أن تستغني عن طريقِ ضيافةِ الغرباءِ. داوم أبداً على تلاوة المزامير، لأن ذِكرَها يطردُ الشياطين. اعتبر الصومَ حصناً، والصلاةَ سلاحاً، والدموعَ غسيلاً. إن شُتمتَ تَفَكَّر إذا كنتَ قد فعلتَ ما تستأهل بسببِ الشتيمة، فإن كنتَ قد فعلتَ، فاحتسب الشتيمةَ بمنزلةِ المجازاة، وإن كنتَ لم تعمل، فلتكن عندك شبهَ الدخانِ. الطريقُ التي توصِّل إلى الفضيلةِ، هي الفرارُ من العالمِ. الذي لا يُبغضُ الخطيةَ، مع الخاطئين يُدان ولو لم يكن قد فعلها. إذا نظرنا في أمورِ أنفسنا، فلن ندين آخرين. أمورٌ كثيرةٌ هي فينا، ونحن نلومُ بها غيرَنا. إن كان لك غنى بدِّده، وإن لم يكن لك، فلا تجمع. اصنع الخيرَ بالمساكين، فإنهم يُرضون الديانَ عوضاً عنك. إن شربتَ الشرابَ فقلِّل منه، لأن قِلَّته تنفعُ شاربه. أظهر إسكيمَ الفضلِ، لا لكي تَخدعَ، ولكن لكي تنفعَ الناظرين. كن في الكنيسةِ مثلَ من هو في السماءِ. امشِ ولا تتكلم، ولا تحب الأرضيات. على من يخطئ احزن، لا على من يتمسكن، لأن هذا مُكَلَّلٌ، وذاك يُعذَّبُ. ويلٌ للظالمِ لأن غناه يفرُّ منه، وتلقاه نارٌ لا تُطفأ. ويلٌ للمتوانين، لأنهم يتمنون الزمانَ الذي غفلوا فيه فلا يجدونه. ويلٌ لمحب الزنى، فإنه يخرجُ من عرشِ الملك وهو مخزيٌ. ويلٌ للمحتالِ والسكرانِ، فإنهما يدانان مع القتلةِ والزناةِ. ويلٌ للذي يأخذُ بالوجوهِ، فإن الراعي يجحده والذئابُ تفترسه. طوبى للذي يسلكُ الطريقَ الضيقةَ الحزينةَ، فإنه يفرحُ ويدخلُ إلى السماءِ وهو مُكلَّلٌ. طوبى لمن اقتنى أمراً رفيعاً، وفكراً متضعاً، فإنه يتشبه بالمسيحِ، ومعه يجلسُ في الملكوتِ. طوبى لمن ألزمَ لسانَه للناموسِ، فإن اللهَ لا يفارقه في مسكنِه. طوبى لمن بدَّد السيئات التي جمعها، فإنه يقوم قدام الديان مُزكى».

قال شيخٌ: «أنا قلتُ لنفسي يوم خروجي من العالم: إني اليومَ وُلدتُ، واليوم بدأتُ بعبوديةِ الربِّ. كذلك كن كلَّ يومٍ بمنزلةِ الغريب، الذي يترجّى الرجوع بالغداةِ».

لقي أنبا جراسيموس امرأةً في البريةِ عريانةً، فلما أبصرته توارت عنه، لكنه أراد أن يكلِّمها، فتوارت خلفَ صخرةٍ وكلَّمته. فقال لها: «كم لكِ في هذه البريةِ»؟ قالت: «خمسون سنةً». قال لها: «ماذا كان غذاؤكِ»؟ قالت: «إن الخالقَ لا يُضيعُ ما خلق». قال لها: «فماذا أبصرتِ في هذه البريةِ»؟ قالت: «ما أبصرتُ غيرَ المسيحِ وأعماله وصنائعه». قال لها: «ففيما الخلاص»؟ قالت: «في تركِ ما أنت فيه». قال لها: «وما هو»؟ قالت: «شغلك بالبكاءِ على خطاياك، أولى من سؤالك امرأةٍ عما لا ينفعك». قال لها: «صدقتِ»، وعمل مطانية، وانصرف.

من أقوال الأب الروحاني المعروف بالشيخ

«تعليم للمبتدئين»

هذا هو الترتيب العفيف المحبوب لدى الرب: ألا تتلفت عينا الإنسانِ هنا وهناك، ليكن نظرُه إلى قدامهِ فقط، لا يتكلم كلاماً زائداً، بل ما هو ضروري منه فقط. يستعمل لِباساً حقيراً لكمالِ حاجةِ الجسدِ، ويستعمل القوتَ لقوامِ الجسدِ، ولا يرغبَه، ويأكل من جميع الأطعمةِ بالنقصِ، ولا يرذل شيئاً. ولا يملأ بطنَه مما يختاره هواه، لأن الإفراز هو أفضل من كلِّ الفضائل. ولا يشرب خمراً، إلا إذا وُجد مع قومٍ أخذوه لعلةِ مرضٍ أو ضعفٍ. لا يقطع كلمةَ ذلك الذي يتكلم ليتكلم هو، مثل غير المتأدب، بل يصير مثلَ حكيمٍ. وكلَّ موضعٍ يصادفه، ليكن فيه صغيرَ إخوتِه وخديمهم. ولا يكشف عضواً من أعضائِه قدامَ إنسانٍ، ولا يدنُ من جسدِ إنسانٍ بغيرِ علةٍ، ولا يدع إنساناً يتقدم إلى جسدِه بغيرِ ضرورةٍ وعلةٍ. وليحذر من الدالةِ كمثل حذره من الموتِ قاتله. ويقتني لمرقدِه ترتيباً عفيفاً لكي لا تبعد منه القوةُ الحارسةُ، وإذا نام، فإن أمكنَ لا يبصره إنسانٌ. ولا يطرح بصاقاً قدامَ إنسانٍ, وإن أتاه سعالٌ وهو على المائدةِ، فليُدِر وجهَه عنها، وحينئذ يسعل. وبالعفةِ يأكل ويشرب، كما ينبغي لأبناءِ الله. ولا يمد يدَه قدامَ رفيقِهِ بوقاحةٍ. وإن جلسَ معه غريبٌ فليغصبه مرتين أو ثلاثة أن يأكلَ، وبالهدوءِ يأخذ ويضع على المائدةِ ولا

يتهاون. وإذا تثاءب فليُغطِ فمه لئلا ينظره أحدٌ. ولتكن ثيابُه ورجلاه مرتبةً على المائدةِ. وإذا دخل قلايةَ معلمِه، أو تلميذِ معلمهِ أو صديقِه، فبالحذرِ يمسك نفسَه لئلا يبصرَ أو يميزَ الذي فيها، وإن كان يُغصَب من صاحبها لينظرَ ذلك، فلا يطاوعه، فمن جسر على هذا فهو غريبٌ لشكلِ الرهبانِ وللمسيح معطيه. ولا يبصر الموضعَ الذي فيه آنية صديقه موضوعةً، وبالرفقِ يفتح بابَه ويغلقَه وكذلك باب غيرِه، دون أن يُسمع صوتُه. ولا يستعجل في مشيتهِ بدون علةٍ ضروريةٍ، كما يكون مستعداً لكلِّ عملٍ، ومطيعاً. ولا يلتصق بالمرتبط بأشياءٍ أو بدرهمٍ، أو بعلمانيين، لئلا يكونَ عبداً للشيطانِ.

وبالسهولةِ يتكلم مع كل إنسانٍ، وبالعفةِ ينظر في كلِّ إنسانٍ، ولا يملأ عينيه من وجهِ إنسانٍ. وإذا ذهب في طريقٍ فلا يسبق من هو أكبرُ منه، وإذا انفصل منه رفيقُه لسببٍ ما، فليبتعد عنه قليلاً، وينتظره حتى يأتي. ومن لا يفعل هكذا فهو جاهلٌ. وإن اتفق أن يلتقي رفيقُه بالناسِ ويتكلم معهم، فليلبث منتظراً إياه دون أن يستعجلَه. ومن هو قويٌ يقولُ لمن هو ضعيف قبل الوقتِ هلمَّ نأكل. ولا يُبكِّت بشرياً على جهالتِه، بل يضع نفسَه عندَ جميعِهم كمخطئٍ. ويختارُ كلَّ عملٍ حقيرٍ ويصنعه باتضاعٍ. وإذا ضحكَ، فلا يكشف عن أسنانِه. وإذا اضطره الأمر إلى الكلامِ مع النساءِ، فليَرُدَّ وجهَه عن نظرِهن عند كلامِه معهن، وليفر من لقاءِ الراهبات ومؤانستهن ونظرهن، كمثلِ الهاربِ من فخ الشيطانِ، لئلا يتسخ بحمأةِ الأوجاعِ النجسةِ، حتى وإن كنَّ أخواته بالطبيعةِ، فليحفظ نفسَه منهن في كلِّ شيءٍ، كمثلِ الغرباءِ. وليحذر من الاختلاطِ بأقربائه وبني جنسِه، لئلا يبرد قلبُه من محبةِ اللهِ. وليبتعد عن مرافقةِ الشبابِ والدالة معهم، كابتعادِه من محبةِ الشريرِ. وليكن له واحدٌ يتخذه ابنَ سرِّه وابنَ أنسهِ وشريكَه، على أن يكونَ خائفاً من اللهِ، ومهتدياً مع نفسِه ومسكيناً بمسكنتهِ، وغنياً بأسرارِ اللهِ. وليحفظ أسرارَه وتدابيرَه من كلِّ بشريٍ، ولا يكشف أعمالَه وحروبَه. ولا يرمي عنه رداءَه من غيرِ ضرورةٍ في موضعٍ يراه إنسانٌ. وإذا خرج لحاجةِ الجسد، فليكن ذلك بالعفةِ مثل من يستحي من الملاكِ الحافظِ له. وليكن ممارساً هذه كلَّها بمخافةِ اللهِ، غاصباً نفسَه، وإنْ لم يشأ القلبُ. والأصلح له أن يأكلَ سمَّ الموتِ، ولا يأكل مع امرأةٍ، ولو كانت أمه أو أخته. والأصلح له أن يسكنَ مع التنينِ، ولا يتغطى مع آخر بغطاءٍ واحدٍ وينام، ولو كان أخوه. ولا يماري على شيءٍ، ولا يلاجج،

ولا يكذب، ولا يحلف باسمِ اللهِ. ويُهان ولا يَهين، وليُظلم ولا يَظلم، لأنه أفضلُ أن يهلكَ ما للجسدِ مع الجسدِ، ولا تعجز واحدةٌ مما للنفسِ. ولا يتكلم بحكومةٍ مع إنسانٍ، بل يحتمل وهو مُزكى أن يدانَ مثلَ السقيمِ. ولا يحب نفسَه في شيءٍ مما لهذا العالمِ، وليُطع الرؤساءَ، وليبعد من مخالطتهم. أيها الشره محبُ البطنةِ، أخير لك أن تجعلَ في بطنِك، لو كان هذا مستطاعاً، جمرَ نارٍ، ولا أطبخةَ الرؤساءِ. ولتكن رحمتُه على كلِّ إنسانٍ، وهو بعيدٌ ومتفرغ من كلِّ إنسانٍ. ومن كثرةِ الكلامِ فليحذر، لأنه يطفئ من القلبِ الحركاتَ النورانية المتحركة باللهِ. وكذلك فليحذر من المجادلةِ مع الخواصِ الغرباءِ، وليفر منها كفرارِه من سبعٍ ضارٍ. ولا يعبر بجوارِ الغضوبين والمتخاصمين، لئلا يمتلئَ قلبُه غضباً، وتملك في قلبِهِ ظلمةُ الضلالةِ. ولا يسكن مع المفتخرين لئلا يرتفعَ من نفسِه فعلُ الروحِ القدسِ، ويُصبح مسكناً لكلِّ الأوجاعِ الشريرةِ.

هذه التحذيرات كلها، إن حفظتها أيها الإنسان، وفي كلِّ حينٍ تستأنس بالهذيذِ باللهِ، بالحقيقةِ، فإنك لن تعمى أبداً، بل في قليلٍ من الزمانِ، تنظر نفسُك نورَ المسيحِ، الذي له المجد من محبيه إلى الأبد آمين.

جاء إنسانٌ إلى أنبا زينون، وقال له: «هل يكون غفرانٌ لكلِّ خطيةٍ»؟ أجابه الشيخُ قائلاً: «إن تابَ الإنسانُ بقدرِ خطيتِه، فإنه يحظى بالغفرانِ». وكان السائلُ يعلمُ أن خطيئَته عظيمة». فقال للشيخِ: «لكني أعجبُ أن لخطيئتي غفراناً». قال له الشيخُ: «قد قلتُ إنَّ لكلِّ خطيةٍ غفراناً إن كانت التوبةُ بقدرِ الخطيةِ، فأخبرني يا ابني بخطيئتك ولا تخجل، ولا تكتم مني شيئاً، لأن الذي يخجل أن يقرَّ بخطيئته، لا ينال البرءَ منها». فقال: «يا أبي، إني لما كنتُ علمانياً، نمتُ مع أمي». قال له الشيخُ: «حقاً إنك فعلتَ خطيئةً قبيحةً، ولكنك إن تبتَ مقابلها، فأنا أؤمنُ أن اللهَ يغفرُ لك». فقال له الأخُ: «مُرني بما أفعله». فأخذه الشيخُ إلى البستانِ وأراه أصلّ شجرةٍ يابساً، وقال له: «اذهب إلى البريةِ إلى المكانِ الفلاني، وكن صائماً هناك، ولا تتوانَ في صلاتِك، وبعد سنةٍ تأتي إلى ههنا، فإن رأيت هذا الأصلَ أخرج قلوباً، فتحقق أن اللهَ قبل توبتك». فذهب الأخُ إلى الموضعِ الذي رسم له، وصنع كما أمره الشيخُ، ولما أكمل السنةَ أتى فأبصرَ وإذا الأصلُ على حالِه، فأعلم الشيخَ أن الأصلَ لم يزل يابساً، فقال له الشيخُ: «اعلم أن توبتَك لم تكمل بعد، فاذهب واهتم بنفسِك هذه السنةِ أيضاً». فمضى وبعد سنةٍ رجع إلى الشيخِ، ولكن الأصلَ

لا زال على حالِه، فقال له الشيخُ: «اذهب أيضاً واهتم بحسياتك، ولا تتوانَ في صلاتِك». وفي السنةِ الثالثةِ، رجع وأبصر الأصلَ، وإذا هو قد أخرج قلوباً. فأتى وأعلم الشيخَ، فقال له الشيخُ: «هو ذا قد صرتَ مصححاً، فلا تخطئ فيما بعد». فذهب شاكراً الله على عظيمِ رحمتِه.

قال مار إسحق: «ليست خطيةٌ بلا مغفرةٍ إلا التي بلا توبةٍ، وليست موهبةٌ بلا زيادةٍ إلا التي بلا شكرٍ».

جماعةٌ من الإخوةِ أتوْا إلى أنبا إيلاريون وقالوا له: «ما علامةُ فضلِ الراهبِ»؟ فقال لهم: «كثرةُ الحبِّ، والاتضاع، يزينان الراهب ويشرِّفانه في الدنيا وفي الآخرةِ. ويجب أن تكونَ له هذه الخصال، وهي: أن يكونَ عاقلاً، عالماً، محتملاً، صبوراً، طاهراً، عفيفاً، سخياً، جوَّاداً، متريثاً، رحوماً، وقوراً، كتوماً، شكوراً، مطيعاً، مداوماً الصمتِ، متوفراً على الصلاةِ». قالوا: «إن اجتمعت هذه الخصال في إنسانٍ، فهل يُسمى راهباً»؟ قال: «نعم، إنه راهبٌ إذا تعب كذلك وشقي بمقدارِ ما تصل إليه قوته».

سُئل أحدُ الشيوخِ: «ما هو البابُ الضيق»؟ قال: «أن يضيِّق الإنسانُ على نفسِه، ويزيلَ إرادتَه كلَّها لأجل حبِّ اللهِ وطاعتِه، بحسبِ ما قيل: ها نحن قد تركنا كلَّ شيءٍ وتبعناك. لأنه لم يكن لهم غنى وتركوه، بل تركوا مشيئَتهم».

قال أنبا بيمين: «علِّم قلبَك ما تقوله بلسانِك من العلمِ».

وقال أيضاً: «إن كثيرين من الناسِ، يتكلمون بالأشياءِ الفاضلةِ، ولكنهم يفعلون الأفعالَ الدنيئةَ».

قال أحدُ الشيوخِ: «إن الشيطانَ هو العدو، وأنت صاحبُ البيتِ، والعدو لا يزال يُلقي كلَّ ما يجده من سائرِ الأوساخِ، فلا تتغافل أنت، ولا تتوانَ عن إخراجِها، لئلا يمتلئ بيتُكَ من الأقذارِ، ولن تستطيعَ تنظيفه، بل اهتم بالتنظيفِ أولاً بأول، لتبقى نقياً بنعمةِ اللهِ».

قال أنبا أغريبوس: «رأسُ الحكمةِ هو ذلك الوقتِ الذي فيه تلوم نفسَك وحدك».

أبصر أنبا نومين أخاً يضحك، فقال له: «لا تضحك يا أخي، لئلا يبتعد الله منك».

قال شيخٌ: «اقتنِ السكوتَ بمعرفةٍ، اهتم بالله، ولا تهتم بشيءٍ أرضي، وافحص أمورَكَ في قيامِك وفي جلوسِك، استند إلى اللهِ، ومن جهةِ المنافقين لا تفزع».

كان راهبٌ مسكينٌ لا يملك شيئاً، لكنه كان رحوماً، فأتاه سائلٌ يطلبُ صدقةً، ولم يكن عنده سوى خبزةٍ واحدةٍ، فدفعها إليه. ولكن السائلَ قال له: «لستُ محتاجاً إلى خبزٍ، بل إلى ثوبٍ». فأراد الأخُ إقناعَه، فأخذه بيدِه، وأدخله إلى القلايةِ، فلما أبصر السائلُ أنه ليس له شيءٌ غير الثوب الذي على جسدِه، رقَّ له، وصبَّ تليسَ خبزٍ كان معه.

كان أحدُ الشيوخِ يمشي ومعه تلميذه، فوجد في الطريقِ تفاحةً مطروحةً، فأخذها وميَّزها، ثم طرحها تحتَ رجليه وسحقها في الأرضِ، فقال له تلميذُه: «لم فعلتَ هكذا يا أبي»؟ فقال الشيخُ: «نعم يا ابني، لأن شهوةَ الثمرةِ أخرجت آدمَ من الفردوس».

قال بعضُ الشيوخِ: «ينبغي للمجاهدِ أن يُبغضَ كلَّ مفرحاتِ العالمِ، ويقاتل الأوجاعَ واللَّذات، ويقضي حياتَه أبداً بالتحفظِ، ويطلب محبةَ اللهِ ورضوانه، ويكون دائماً أبداً حذراً من عاداته القديمة، مبتعداً منها، لا سيما الأفعال الرديئة، وكلِّ الاهتمامات الجسدية والكلام والسمع، وليبتعد أيضاً من الشبعِ، وليس من الشبع من الأطعمةِ اللذيذة والشرابِ فقط، بل ومن الخبزِ والماء، ومن كلِّ امتلاءٍ، وليكن أكلُهُ بقدرٍ. وفي وقتِ الصلاةِ يجمع عقلَه كمن هو قائمٌ بين يدي اللهِ، لأنه في ذلك الوقتِ يحتاجُ إلى أن يجمعَ فكرَه لله بلا طياشةٍ، ويُتم خدمتَه وذبيحتَه الروحية، ولا يغفل عن ذِكرِ الربِّ والتزمير دائماً أبداً، لأنه بهذا تُعتقُ النفسُ من الأفكارِ السوءِ، وليكن مبتعداً عن كلِّ حديثٍ، ونظرٍ، وعملٍ، ليس فيه ربحٌ، وكلَّ ما يعمله، ويتكلم به، يكون لتسبيح الله، لا ليرائي الناس. ولا يفرح بفرح الناس، ولا يُسرُّ بكثرةِ القنيةِ».

قال الأنبا أنطونيوس: «إن أفضلَ ما يقتنيه الإنسانُ هو أن يُقِرَّ بخطاياه قدام اللهِ ويلومَ نفسَه، وأن يكونَ متأنياً لكلِّ بليةٍ تأتيه، حتى آخرِ نسمةٍ».

قال شيخٌ: «الإنسانُ الذي يُسلِّم نفسَه لشدةٍ بهواه من أجلِ اللهِ، فلي إيمانٌ أنه اللهَ يحسبه من الشهداءِ، وذلك البكاء الذي يأتيه في تلك الشدةِ يحسبه الله مثلَ سفكِ دمه».

وقال: «يجبُ على الراهبِ في كلِّ بكرةٍ وعشيةٍ، أن يحاسبَ نفسَه ويقول: ماذا عملنا مما

يحبُ الله، وماذا عملنا مما لا يحبه الله، وهكذا يجب علينا أن نفتقدَ حياتنا بالتوبةِ، وبهذه السيرةِ عاش أنبا أرسانيوس، لأن الإنسانَ إذا عمل الكثيرَ ولم يحفظْهُ، فقد أتلفه، أما الذي يعملُ قليلاً ويحفظه، فإنه يبقى معه».

وقال آخر: «من أجلِ هذا لسنا نفلحُ لأننا لا نعرف مقدرتنا، وليس لنا صبرٌ في عملٍ نبدأ به، ولكننا نريدُ أن نقتني الفضائلَ بلا تعبٍ».

قوتل أخٌ بالزنى، فذهب إلى شيخٍ كبيرٍ وقال له: «يا أبي ماذا أصنعُ فإن قتالَ الزنى قد آذاني»؟ قال له الشيخُ: «هذا الشيء لم يقاتلني قط». فتعربس ذلك الأخُ، وذهب إلى شيخٍ آخر، وقال له: «ألا تعجب؟ فإني قد شكوتُ إلى فلان الشيخِ أذيتي من قتال الزنى، فأخبرني بشيءٍ يفوق الطبيعةِ، إذ قال لي: لم أُقَاتل أنا بهذا الشيء قط». فقال له ذلك الشيخُ: «يا حبيبي، إنَّ ذلك القديس لم يتكلم بذلك جُزافاً، ولكن ارجع وتب إليه واسأله بأن يخبرك بقوةِ الكلمةِ». فرجع الأخُ إلى الشيخِ واستغفر منه قائلاً: «اغفر لي يا أبي، فإني خرجتُ من عندِك بجهالةٍ، ولكني أحبُّ أن تبين لي كيف لم تُقَاتل أنت قط بالزنى»؟ فأجابه الشيخُ قائلاً: «إني منذ ترهبت، لم أشبع قط من الخبزِ ولا من الماءِ ولا من النومِ، فشغلتني هذه الثلاثة، ولم تدعني أحس بالقتالِ الذي ذكرتَه».

قال أنبا بيمين: «ممقوتٌ عند اللهِ كلُّ نياحٍ جسدي».

وقال شيخٌ آخر: «لا تشبع خبزاً، ولا تشته شراباً».

قال شيخٌ: «سيرةُ الراهبِ هي: الطاعةُ، الهذيذُ في ناموسِ الله الليل والنهار، لا يدين، لا يغضب، لا يظلم، لا يُبصر بعينيه سراً، لا يبحث عن عيوبِ الناسِ، لا يسمع بأذنيه نقصَ آخرين، لا يخطف بيديه، لا يستكبر في قلبِه، لا يملأ بطنَه، لا يفتكر أفكارَ سوءٍ، لا تكن له دالةٌ ولا مزاحٌ مع أحدٍ، ويعمل أعمالَه بمعرفةٍ، ويجعل بالَه في خطاياه، ويطلب من اللهِ أن يَهَب له نوحاً واتضاعاً حقيقياً، ولا تكون له دالةٌ مع صبي، ولا خلطةٌ مع امرأةٍ، وإن كلَّمه إنسانٌ فلا يلاججه، وهكذا يكون ساكناً، هادئاً، مسكناً للروحِ القدسِ».

قال شيخٌ: «الذي يلزم السكوتَ لا يُجرَح ولا يُطعَن بسهامِ العدو، أما من يحبُّ الخلطة

فإنه يُجرَح كثيراً».

قال شيخٌ: «إن أردتَ أن تنجحَ في إطفاءِ الغضبِ والرجزِ، فاقتنِ الاتضاع، ولتكن لك طاعةٌ ورجاءٌ في كلِّ أحدٍ، لأن الغضبَ والرجزَ يسوقان الإنسانَ إلى الهلاكِ، ويُبعدانه عن اللهِ، أما الاتضاع فإنه يحرقُ الشياطين، والطاعةُ هي التي جابت ابنَ اللهِ وسكن في البشريةِ، والإيمانُ خلَّص الناسَ، والرجاءُ لا يُخزي، وأما المحبةُ فإنها التي لا تدع الإنسانَ يسقطُ أو يبتعد عن اللهِ، فالذي يريد أن يخلصَ، عليه أن يقطعَ هواه في كلِّ شيءٍ، ويقتني الاتضاعَ، وليكن الموتُ بين عينيه».

قال أنبا أنطونيوس: «من يجلسُ في البريةِ فقد أراح نفسَه من ثلاثِ حروبٍ: السمع، والوقيعة، والنظر إلى ما يُجرح القلبَ».

قال أبرام تليمذ أنبا شيشاي لأبيه: «يا أبي، إنك قد كَمَلتَ وأرضيتَ الله، فامضِ بنا إلى قربِ العالمِ قليلاً». فقال الشيخُ: «ابحث لنا يا ابني عن موضعٍ لا يوجد فيه امرأةٌ فنمضي إليه». قال له التلميذ: «وأيُّ موضعٍ يوجد خالياً من امرأةٍ غير البريةِ»؟ قال: «فاحملني يا ابني وادخل بي إلى داخل البريةِ».

مضى أنبا بيمين في بعضِ الأوقاتِ قاصداً مصرَ، فنظر امرأةً جالسةً على قبرٍ تبكي بكاءً مراً، فقال لمن كان معه: «لو جيءَ لهذه المرأةِ بكلِّ مطربات العالم وكلِّ الملاهي، لما انتقلت عما هي عليه من الحزنِ، وهكذا يجبُ على الراهبِ أن يكونَ حزنُه دائماً أبداً».

قال أنبا شيشاي لتلميذه: «إنَّ لي ثلاثين سنةً، لم أطلب من الله غفرانَ خطيئتي، ولكن في طلبتي وصلاتي أقول: يا ربي يسوع المسيح استرني، فإني حتى الآن أزلُّ وأخطئ بلساني».

وقال أيضاً: «إنَّه بالنميمةِ أغوت الحيةُ حواءَ وأخرجتها من الفردوسِ، وآدم معها، فمَن يقع بصاحبِه، فإنه يُهلك من يسمعه، ونفسُه لا تنجو».

كان رجلٌ علمانيٌ معه ابنٌ فطيم، فذهب إلى الإسقيط وطالت مدته، فلما كبر الصبي ونشأ رَهْبَنَه، وحدث بعد رهبانيتهِ بقليلٍ أن بدأ الشياطين يُحركون فيه الشهوةَ الرديئةَ، فقال لأبيه: «إني ماضٍ من ههنا إلي العالمِ، لأني لستُ قادراً على أن أصبرَ على هذا القتالِ الصعبِ». أما أبوه فكان يهديه، ويطلب إليه ألا يمضي، ولكن الشابَ كان يعود إليه ويقول: «يا أبي، لستُ

قادراً على أن أقيمَ ههنا، اتركني امضي». فقال له أبوه: «أطعني يا ابني هذه المرة فقط، خذ معك ثمانين خبزةً، وخذ كذلك من الخوصِ ما يكفي لعملِك مدة أربعينَ يوماً، وامضِ إلى البريةِ الداخلية، وأقم هناك إلى أن تفرغَ من خبزِكَ وعملِكَ، وبعد ذلك لتكن مشيئةُ اللهِ». فأطاعه الحدثُ، ودخل إلى البريةِ الداخليةِ، وأقام بها يتعبُ ويُضفِّر الخوصَ ويأكل خبزاً يابساً، فلما أتم عشرين يوماً ظهر له الشيطانُ الذي كان يقاتله في صورةِ امرأةٍ سوداء منتنةِ الرائحةِ، زِفرة جداً لدرجةِ أنه لم يستطع أن يطيقَ رائحةَ نتنها. فبدأ الشابُ أن يطردَها، فقالت: «لِمَ تطردني الآنَ؟ ألستُ أنا التي كنتَ أنت تشتهيني؟ ألستُ أنا التي أزرعُ في قلوبِ الناسِ الأفكارَ، وأملأهم شهوةً، كما ملأتُك شهوةً، وأُسقطهم في الزنى؟ أما أنت فمن أجلِ أنك أطعتَ أباك، فإن اللهَ لم يتركني أخدعك وأُسقطك في الهلاكِ، ولكنه نظر إلى خضوعِك وتعبك وأظهر لك رائحةَ نتني بغيرِ هواي». فشكرَ الشابُّ الله، وقام من ساعتهِ وعاد إلى أبيه، وقال له: «لستُ أريد أن أمضي إلى العالمِ بعدُ يا أبي، لأني قد رأيتُ العدوَ وتأفَّفتُ من رائحتهِ». وكان أبوه قد أُعلن له ذلك، فقال له: «لو أنك صبرتَ يا بُني لكمالِ الأربعين يوماً، وحفظتَ تمام وصيتي، لكنتَ رأيتَ أكثرَ من ذلك».

من سيرةِ الأب باخوميوس: كان لَمَّا مَرِضَ حدثٌ حسن الصورة أن مضوْا به إلى مكانِ المرضى، وكان الأخُ الذي يخدم المرضى ناسكاً يُسمى دويدة، وكان يُحسن فرزَ الأفكارِ، فلما نظر ضميرَه يُنشِّطه لخدمةِ الصبي بمحبةٍ وفرحٍ بأن يعدَّ له الطعامَ باهتمامٍ زائدٍ، صار يتنهدُ مميزاً في ذاتِه وحده قائلاً: «لماذا هذا الاهتمام من نحو هذا الأخِ، هل هو مختارٌ أكثر من كلِّ الإخوةِ أو مريضٌ أكثر منهم كلهم؟ لا». فلما فرغ ذلك الأخ من خدمةِ المرضى، مضى إلى قلايتهِ وبقى صائماً لم يأكل طعاماً، ولا شرب ماءً في ذلك المساءِ، وكان أوانُ الصيفِ، فأقام الليلَ كلَّه مصلياً قائلاً: «يا ربي يسوع المسيح، أظهر لي هذا الأمرَ، حتى أعرف ما هو، لأن هذا النشاطَ الذي صار في قلبي ليس بمستقيمٍ أمامي حسب التعاليم التي علمني إياها عبدُك أنبا باخوميوس». فلما قرب الصباحُ، ودويدة مستمرٌ في صلاته، إذا به ينظر روحاً قائمةً أمامه في شكلِ امرأةٍ حسنة المنظرِ واللِباس، وقالت له: «لماذا تداوم الطلبةَ حتى كُلِّفتُ بغير هواي أن أظهرَ لك، والآن اعلم أني أنا روحُ الزنى، كما أني أنا الذي زرعتُ ذلك الفرحَ والنشاطَ في قلبك لكي تخدم ذلك الصبي بمحبةٍ

واجتهادٍ، وهذه هي صناعتي وعادتي في أن أزرعَ في قلبِ النسَّاكِ العظامِ أولاً المحبةَ إما في امرأةٍ أو في صبيٍ، فإذا هم قبلوا الفكرَ، إذ لا يرون أن فيه خطيةً، فحينئذ أبدأ في أن أزرعَ فيهم اللذةَ وأجذبهم قليلاً قليلاً، حتى إذا صاروا غيرَ مفلحين، طرحتهم في دنسِ الشهوةِ». ولما قالت كلَّ هذا، اختفت عن بصرِهِ، أما هو فقد تعجَّب، وبارك اللهَ الرحوم، الذي أظهر له فخَ الشيطان وخلَّصه منه.

قال أنبا بيمين: «إن سكن إنسانٌ مع شابٍ، فإنه فاعلُ خطيةٍ، لأنَّ معاشرةَ الشبابِ مُعطِبةٌ فاحذرها».

قال أبو يحنس: «كلُّ من اجتمع أو تكلم مع صبي فهو زانٍ بفكرِهِ».

قال شيخٌ: «لأيِّ شيءٍ تُحزن الذي يظلمك، وتُبغض الذي يُحزنك، فاعلم أنه ليس هو الذي ظلمك وأحزنك، ولكنه هو الشيطان، فيجب عليك أن تُبغضَ المرضَ ولا تُبغضَ المريضَ».

قيل عن أنبا يحنس القصير إنه إذا أبصرَ إنساناً أخطأ فكان يبكي بكاءً شديداً، ويقول: «إنَّ هذا أخطأ اليوم، ولكنه ربما يتوب، أما أنا فإني أخطئ غداً، وربما لا أُعطى مهلةً كي أتوبَ»، هكذا يجبُ أن نفكِّرَ ولا ندين أحداً.

قال شيخٌ: «يجبُ على الإنسان أن يلومَ نفسَه في كلِّ بليةٍ تأتي عليه ويقول: هذا جميعُه أصابني من أجل خطاياي، ولا يلوم إنساناً»

سأل شيخٌ أنبا شوشاي قائلاً: «أيُّ شيءٍ هي الغربةُ»؟ فأجابه: «هي الصمتُ في كلِّ موضعٍ يوجد فيه الإنسانُ، ويقول: ما شأني في هذا الأمرِ؟ هذه هي الغربةُ».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «قل لي شيئاً أحفظهُ». فقال له: «احفظ المعيرةَ والشتيمةَ، واصبر على المحقرةِ والخسران الجسدي».

قيل عن راهبٍ إنه إذا شُتم فكان يجري نحو شاتمه ويقول له: «اغفر لي».

أخٌ حريصٌ قامت عليه قتالاتٌ صعبةٌ، سببَّت له حزناً شديداً لدرجةِ أنه كان يخاطبُ نفسَه قائلاً: «ما دامت هذه الأفكارُ معي، فلن أخلص». وكان يتواضع جداً. فذهب إلى شيخٍ كبيرٍ

وسأله أن يصليَ عليه لكي يرفعَ الربُّ عنه القتالَ، فقال له الشيخُ: «بل هذا خيرٌ لك يا بُني». ولكنه لجَّ عليه، فطلب الشيخُ إلى اللهِ، فاستجاب طلبتَه ورفع القتالَ عن الأخِ، وإذا بالأخِ قد صار يَسبح لوقتِهِ في لُجَّةِ العُجبِ والعظمةِ، ولكنه ندم وعاد إلى الشيخِ وسأله أن يطلب من الله ليردَّ عليه القتال الذي كان يُسبِّب له الاتضاع.

قال شيخٌ: «تعبُ الجسدِ بكثرةِ القراءةِ يُنقي العقلَ، والسكوتُ يجلبُ النوحَ، والنوحُ يجلبُ البكاءَ، والبكاءُ يُنقي الإنسانَ من كلِّ خطيةٍ».

طلب أحدُ الرهبانِ ممن يسكنون البريةَ المحقرةَ لنفسِه، فقام وجاء إلى ديرٍ من أعمال الصعيدِ، وكان سكانُ ذلك الديرِ كلُّهم قديسين؛ فبعدَ ما أقام عندهم أياماً، قال لرئيسِ الديرِ: «صلِّ عليَّ يا أبي، وأخلِ سبيلي، فإني لست أريدُ البقاءَ ههنا». فقال له: «لأيِّ شيءٍ يا ابني؟» فأجابه قائلاً: «إنه لا يوجد ههنا تعبٌ، والآباءُ كلُّهم قديسون، وأما أنا، فإني إنسانٌ خاطئ، أريد أن أمضي إلى موضعٍ، حيث أُهان وأُشتم، لأنه بالازدراءِ والإهانةِ يخلُص الخطاةُ». فتعجب منه وعلم أنه عمَّال، فأخلى سبيلَه قائلاً له: «امضِ وتقوَّ».

قال شيخٌ: «الاتضاع خلَّص كثيرين بلا تعبٍ، وتعبُ الإنسانِ بلا اتضاعٍ يذهبُ باطلاً، لأن كثيرين تعبوا، فاستكبروا وهلكوا».

قال أحدُ الشيوخِ لتلاميذِهِ عند خروجِ نفسِه: «لا تشتهوا متاعَ الدنيا، فتزدادوا متاعاً كثيراً، كونوا مجهولين من الناسِ، فتصيروا محبوبين من اللهِ، لا تدينوا أحداً من الإخوةِ، وأنتم تقوون على كلِّ أوجاعِ الشياطين؛ تحفَّظوا من كلِّ شيءٍ فيه لذة من لذاتِ هذا العالمِ التي تُحرِّك الجسدَ بالفكرِ، وذلك ليكونَ الجسدُ دائماً هادئاً ومحفوظاً من الحركاتِ الشيطانيةِ».

قال شيخٌ: «لا تكتم أفكارَك الشريرةَ وخطاياك القديمةَ، فإن وَجد الشيطانُ فيك هوىً واحداً مكتوماً، ففيه يطرحك، لأن الشيطانَ ليست له قوةٌ أن يجُرَّ إنساناً إلى فعلِ الخطيةِ، ولكنه إذا أبصرَ هواه مائلاً إلى شيءٍ من الخطيةِ، ففيه يطرحه، فإن رآه متحفظاً يستشير في أمورِهِ كلِّها، ويطيع لِمَا يُشار به عليه، فلا يقوى عليه في شيءٍ بالجملةِ». وكان يقول: «لستُ أعرفُ للراهبِ سقطةً إلا إذا صنع هواه، فإذا نظرتَ راهباً قد سقط، فاعلم أنه وقع بهواه، لأنه فعل برأي

نفسِه».

قال شيخٌ: «إنَّ أفضلَ شيءٍ هو السكوتُ، والرجلُ الحكيمُ هو الذي يحبُّ السكوتَ والهدوءَ».

بعضُ الإخوةِ كانوا مجتمعين يتكلمون، وكان بينهم أخٌ له موهبة نظر الخفايا، فلما كانوا يتكلمون عن الروحيات، نظر ملائكةً قد اقتربوا منهم، وكانوا فرحين معهم، ولكنهم لما تكلموا كلاماً غيرَ نافعٍ، ابتعدت عنهم الملائكةُ، واقتربت منهم الشياطين.

قال أنبا يوسف لأنبا بيسير: «إني لا أقدِرُ أن أضبطَ لساني». فقال الشيخُ: «وإذا تكلمتَ فلن تستريحَ».

قيل إن أحدَ رؤساءِ أديرة البريةِ نزل في بعضِ الأيام، قاصداً المدينةَ، فوجد طفلاً مُلقىً على جانبِ الطريقِ، فأخذه إلى الديرِ ورباه على (لبنِ) شاةٍ، حتى كبر ولم يكن يعرف سوى الرهبان. وحدث أن خرجَ الرئيسُ مرةً لقضاءِ أمرٍ ما، فأخذه معه، وبينما هما يمشيان في الطريقِ، إذا بمواشٍ ترعى، فلما رآها الغلامُ قال لمعلمِه: «ما هذه الأشياء يا أبي؟» فقال له: «هذا بقرٌ، وتلك جمالٌ، وهذه حميرٌ، وهذا كذا ...»، وهكذا استمر الغلامُ يستفهم من معلمِه عن كلِّ شيءٍ يبصره، حتى لقيتهما جاريةٌ شابةٌ جميلةٌ، فقال الغلامُ: «ما هذه يا أبي؟» فقال له: «هذه هي الشيطانُ»، فلما قضوا حاجتهما ورجعوا إلى الديرِ، سأل الشيخُ الغلامَ قائلاً: «ماذا أعجبك يا ابني من كلِّ ما رأيتَ؟» فقال الغلام: «لم يعجبني شيءٌ إلا الشيطان وحده»، فلما سمع الشيخُ تعجب كيف أن المرأةَ تفتن حتى الذين لا يعرفون شيئاً.

قال أنبا بنيامين: «كما أن الملحَ من الماءِ يخرجُ، وفي الماءِ ينحلُّ ويذوب، كذلك الرجالُ من النساءِ يخرجون، ومن النساءِ يهلكون».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «لماذا إذا مشيتُ في البريةِ أكونُ مرعوباً خائفاً»؟ فقال له الشيخُ: «ذلك لأنك لا زلتَ حياً في أمورِ الدنيا».

قيل لشيخٍ: «لماذا لا تضجر يا أبتاه؟» فقال: «لأني في كلِّ يومٍ أتوقع الموتَ».

قال شيخٌ: «إن حزني لكثير على راهبٍ، يكون قد ترك أهلَه ومقتنياته، وألزم نفسَه الغربةَ من أجلِ اللهِ، ثم يرجع يسترخي في وصاياه، فيذهب بعد ذلك إلى العذابِ».

قال شيخٌ: «كما أنَّ عيني الخنزير تنظران إلى الأرضِ ولا يرفعهما، كذلك كلُّ من أحبَّت نفسُه اللَّذات العالمية، فبشدةٍ يرفعُ عقلَه إلى اللهِ، ويهتمُ بشيءٍ مما يرضيه».

قال شيخٌ: «إن كان إنسانٌ ساكناً في موضعٍ، وهو لا يعملُ فيه ثمرةً، فإن الموضعَ نفسَه يطرده».

أبصَرَ شيخٌ أخاً يضحك، فقال له: «يا ابني إننا مزمعون أن نعطيَ للهِ جواباً، أمام الملائكةِ والسماءِ والأرضِ، عن كلِّ أمورِنا وسيرتنا، وأنت تضحك».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «ماذا أصنعُ لأخلصَ»؟ قال له: «يجب أن تبكي دائماً».

قال شيخٌ: «الصلاةُ الكاملةُ هي أن تخاطبَ الله بلا طياشةٍ ولا سجسٍ، ولو تسجَّس العالمُ كلُّه، لأن المصلي بالكمالِ قد مات من العالمِ وكلِّ نياحِه، وكلَّ شيءٍ يعمله يكون بغير طياشةٍ، وأما القراءةُ فتكون في قصصِ الشيوخِ، وتعليمهم، لأنَّ بهذا يسيرُ العقلُ نحو اللهِ».

وقال شيخٌ: «إنَّ الراهبَ الذي يعرفُ موضعاً فيه منفعةٌ لنفسِه، وكانت حوائجُ الجسدِ في ذلك الموضعِ عسيرةً، ولهذا السببِ يمتنع عن الذهابِ إلى ذلك الموضعِ، فإن ذلك الإنسانَ ليس فيه إيمانٌ باللهِ».

وقال شيخٌ: «إن كان الإنسانُ منتبهاً فهو يستطيعُ أن يحفظَ الإنسانَ الجواني. وإن كان، فلا بد أن نحفظ لسانَنا بقدرِ قوتنا».

قال شيخٌ: «إياك أن تقولَ في قلبك من جهةِ إنسانٍ، إنك أحرصُ منه، أو أكثرُ منه معرفة، أو أبر منه، بل اخضع لنعمةِ اللهِ، ولروح الحكمةِ، والحب الذي ليس فيه غشٌ، لئلا تنطفئ بالعظمةِ، وتُضيِّعَ تعبَك، لأنه مكتوبٌ: يا من تظن أنك قائمٌ، احذر لئلا تسقط».

حَدثوا عن رهبان المصريين، بأنه إذا عرفَ الناسُ سرَّ عملِهم، فما كانوا يحسبونه

فضيلةً، بل خطيةً.

سأل أخٌ أنبا بيمين: «ماذا أصنعُ لأن نفسي قاسيةٌ، ولا تخافُ اللهَ؟» قال له الشيخُ: «اذهب واجلس مع إنسانٍ يخافُ اللهَ، وهو يعلمك خوفَ اللهِ».

وقال أيضاً: «نِعمَ التجربة التي تعلِّم الإنسانَ».

وقال أيضاً: «الشرُّ لا يَغلِبُ الشرَّ، ولكن إن أساءَ إليك إنسانٌ، فأحسن أنت إليه، فإن إحسانك إليه يستأصلُ الشرَّ، لأنه لا ينبغي أن تكافئ شراً بشرٍ».

سأل أنبا يوسف أنبا بيمين قائلاً: «قل لي كيف أكونُ راهباً؟» قال له: «إن كنتَ تريدُ أن تجدَ نياحاً ههنا وفي الآخرةِ، فقل في نفسِك في كلِّ أمرٍ: أنا ما أنا، ولا تَدِن إنساناً».

وسأله أيضاً أخٌ آخر قائلاً: «إن أبصرتُ أخاً سقط، فهل من الجيد أن أسترَ عليه»، فقال له: «في أية ساعةٍ سَتَرْنا على سقطاتِ أخينا، فإن اللهَ يسترُ سقطاتنا، ومتى أظهرنا سقطات أخينا، أظهر اللهُ سقطاتنا».

وسأله آخر قائلاً: «ماذا أصنعُ لأن نفسي تصغُرُ، إذا كنتُ في القلايةِ»؟ قال له: «لا تَدِن أحداً، ولا تقع بإنسانٍ، واللهُ يَهَبُ لك الهدوءَ والنياحَ في القلايةِ».

قال شيخٌ: «قلايةُ الراهبِ هي أتون بابل حيث أبصروا مع الثلاثةِ فتية ابنَ اللهِ، كما أنها العمودُ النار، والسحابةُ التي منها كلَّم اللهُ موسى».

أخبرَ أنبا بيمين عن أنبا يحنس القصير إنه طلب من اللهِ فارتفعت عنه الأوجاعُ، وصار متنيحاً بلا قتالٍ ولا همٍّ، فذهب إلى أحدِ الشيوخِ وقال له: «إني أرى نفسي بلا قتالٍ ولا همٍّ»، فقال له الشيخُ: «اذهب واطلب من اللهِ أن يردَّ عليك القتالَ، فإن بالقتالِ تدرك نفسُ الإنسانِ وتفلح». ومن ذلك اليومِ، لم يعد يسأل اللهَ أن يرفعَ عنه القتالَ، ولكنه كان يقول: «يا ربُّ، هَب لي صبراً وأعني».

من كلام مار إسحق: سؤال: «ما هو العالمُ»؟ الجواب: «إن العالمَ هو تجربةُ الخطيةِ، العالمُ هو أن تكمِّلَ إرادةَ الجسدِ، العالمَ هو أن يفتخرَ الإنسانُ بالأشياءِ التي يمضي ويتركها، فلنجاهد يا إخوتي حتى نلبس لِباسَ الفضيلةِ، لئلا نُلقى خارجاً، لأن الربَّ لا يأخذُ بالوجوهِ».

وقال أيضاً: «افحص ذاتَك باستقصاءٍ، وانظر بأيِّ نوعٍ زللتَ، واطلب من اللهِ أن يغفرَ لك، وإذا شئتَ أن تنالَ الغفرانَ، اغفر أنت أيضاً لقريبك. إذا قمتَ باكرَ كلِّ يومٍ، اذكر أنك سوف تعطي جواباً للهِ على كلِّ ما صنعتَ، فلن تخطئَ مرةً أخرى. فكِّر في كلِّ يومٍ، أنه ليس لك في العالمِ، سوى يومِك الذي أنت فيه، فلا تخطئ أبداً. أبغض كلامَ العالمِ، لكي يعاينَ قلبُك اللهَ. أحبَّ الصلاةَ كلَّ حينٍ، لكي يستنيرَ قلبُك باللهِ. احفظ لسانَك كي ما تسكنَ فيك مخافةُ اللهِ. لا تحبَّ التهاونَ، لئلا تحزنْ نفسُك في قيامةِ الصديقين. اذكر ملكوتَ السماواتِ لكي تجذبَك شهوتُها نحوها. اذكر أيضاً نارَ جهنمٍ، لكي تُبغضَ أعمالها. دِن نفسَك وحدَك في أعمالِك، حتى لا تنخدع بالإهمالِ والتهاونِ. افحص كلَّ يومٍ فيم أنت عاجزٌ فيه، لئلا تتعبَ وقتَ شدتِك. لا تظن بنفسِك إنك طاهرٌ من الخطيةِ، ولا تثق بنفسِك ما دمتَ في هذا الجسدِ، حتى تعبرَ سلاطينَ الظلمةِ. إذا كنتَ مجاهداً قبالةِ وجعٍ ما، فلا تتخلّ، بل ألقِ بنفسِك قدامَ اللهِ من كلِّ قلبك، وقل: أعني يا ربُّ أنا الشقي، فإني لستُ قادراً أن أقفَ قبالتهم، والله يعينك».

من كلامِ الأب المعروف بالشيخِ: «الصيادُ الذي يصطادُ الصيدَ، يَبذر الطُعمَ على فخِهِ، وحينئذ يستطيع أن يصطادَه، والمتوحد بحنجرتِهِ يصطاده الماردُ. فمِن أبيك (آدم) افهم وافحص بماذا اصطاده، لتتعلمَ أنت كيف تحاربه. المتوحدُ الذي يملأُ بطنَه، هو راعي خنازير، وكثيرةٌ وشريرةٌ هي رعيته. الآلام مشتبكٌ بعضُها ببعضٍ أيها الإخوة، فمن يخضع لوجعٍ ما، فحتماً يكون عبداً لرفيقه، فينبوعُ جميع الآلامِ كبر البطن، فلا تملأ بطنَك كثيراً، لئلا يعذبك الزنى، ولا تُضعف جسدَك، لئلا يفرح بك مبغضوك. أمسك برتبةٍ معتدلةٍ، وأنت سالكٌ في الطريق الملوكي، وحينئذ يكون سيرُك بغيرِ خوفٍ، لأنه كما أن المصابَ بمرض

الحمى تنفر نيتُه مما يُقدم له من الأطعمةِ الشهيةِ، فلا تلذ له، كذلك شهوةُ الطبيعةِ إن أُضعِفَت بسببِ نقصانِ الغذاءِ، وجلب لها الشياطينُ ذِكرَ الوجوهِ، والصورَ المحرِكةَ للأوجاعِ، فإننا نَلبَث بغيرِ عيبٍ، إذ تنفر نيتُنا من شهوةِ الزنى، لأن الوجعَ الطبيعي ضعيفٌ من الأغذيةِ الحقيرةِ، فبنقصِ الغذاءِ تضعُف الآلام، وبذكر اللهِ تهلك وتموت، هذا هو السيفُ القاتلُ لها. فمن يملأ بطنَه ويطيعُ هذا الوجع، فإنه عبدٌ إذا خضع، ويصبح جالباً للأوجاعِ. أما إذا غلب هذا الوجعَ، فبسهولةٍ يغلب جميعَها. هذا هو ينبوعُ الزنى وحبّ الفضةِ، وسُبح الناسِ، وطلب كثرةِ الكرامةِ، والحسد والقتل، وجميع الشرورِ بسببها يمتلئ جحيمُها. هذا كلُّه تفعله الذئبةُ المفسدةُ (أي البطن)، فلنعذِّبها لئلا تعذبنا هي، لأننا إذا ملأناها كثيراً، يكثر الزبلُ الذي هو تلك الأثمار المنتنة، التي تصدر عنها. فانظر يا أخي، فإن هذه هي نهاية جميعِ أعمالِ العالمِ، إذن مثلُ حكيمٍ دبِّر حياتَك فيما أنت محتاجٌ إليه».

وقال أيضاً: «الويلُ للمتوحدِ الحرود، إنَّ قلبَه مسكنٌ للأفاعي، وكلُّ يومٍ يشربُ من مرارتِهِ. الذي ينقلُ الكلامَ، يُبعد ذاتَه من اللهِ، والنعمةُ ليست ساكنةٌ فيه. المخربُ متى يوجد له بيتٌ؟ لأنه لذاتِه يقيمُ بلا مظلةِ اللهِ. الحرود مع من يصطلح؟ لأنه دائماً يكدِّر قلبَه، ويُبعد منه روحَ اللهِ، وهناك تلدُ العقربُ وتربي. اهرب من ذي اللسانين، فإنه يرمي السهامَ المسمومةَ في قلبِ من يُنصت له. ابعد عن المتعظِّمين، فإنهم يحاربون الله. غريباً كن من جميعِ الأغنياءِ، لأن عملَهم جميعَه عبادةُ أصنامٍ. لا تكن رفيقاً للمتخاصمين، لئلا يسكن لجيئون داخلَ بيتِك. احذر الحقودَ لأنه شيطانٌ متجسدٌ. من الذي يمدحك قدامك سدَّ أذنيك واهرب، لئلا يُعريك من الله، ويُلبسك ثيابَه المرقَّعة الذي هو لابِسُها. في محبِّ الرئاسةِ لا يسكن اللهُ، فلا تسكن أنت أيضاً معه، الذي يقيم هواه بغير ضرورةٍ، يكون مبغضاً لمشيئةِ اللهِ. الوقح يتشبَّه بالحيةِ، ومأكولُهُ ترابٌ. الذي يرفع صوتَه، معروفٌ عنه أنه ليس فيه المسيحُ».

كما قال: «كن محباً لكلِّ إنسانٍ، بالبعدِ عن كلِّ إنسانٍ. أبغِضْ كلَّ أمرٍ رديء في نفسِك، ولا تُبغض ما في الآخرين. مرذولٌ هو قدام الربِّ من يُبغض الخاطئَ. إذ لك موضعٌ قدِّم توبةً لقلعِ خطاياك. اسكب دموعَك قدام ربِّك، لئلا يرُدَّ وجهَهُ عنك في ذلك اليومِ،

الذي يرجوه كلُّ محبيه، لنظرتِهِ الممجَّدة التي بها يتنعمون إلى الأبدِ».

وقال كذلك: «إنه لزمان الأحزانِ، وبالكدِّ والتعبِ العظيمِ، يقدرُ إنسانٌ أن يخلِّصَ نفسَه من فخاخِ المكرِ. تسربل يا أخي بالتواضعِ في كلِّ وقتٍ، لأنه يُلبس نفسَك المسيحَ معطيه. أمسك بالورعِ والعفةِ، لأنهما ينقيان من نجاسةِ الأوجاعِ الدنسة. طقِّس حنجرتك ونومك بقدرٍ، ولتتنعم نفسُك في النومِ بالأحلامِ الروحانيةِ، وفي اليقظةِ بالأفكارِ البهيةِ. طقِّس لسانَك من كلِّ كلامٍ فارغٍ، ليتسلط عقلُك على الأوجاعِ والشياطين المنافقين. من الحَرَدِ والحرودين احذر، لأنهم يعدمون النفسَ من النورِ المقدسِ. ممن لا طقس له، ولا تدبير متقن، أبعد نفسَك كلما أمكنك ذلك، لئلا يجعلك عبداً للخطيةِ. ليكن حديثُك مع محبي الله لتأخذَ نفسُك شبهَ طهارتِهم. سبِّح بقلبك في كلِّ وقتٍ، ليكونَ قلبُك هيكلاً للهِ. احفظ عينيك من كلِّ المناظرِ الكاذبةِ المنبهةِ للشهوةِ. ولا تكن محباً لصبيٍ، لأنه يجعل الذي يلتصق به فاعلَ شرٍّ. كن مجتمعاً مع ذاتِك بينك وبين الله، وكن ابنَ سِرٍّ لذلك الذي يفعلُ كلَّ شيءٍ من أجلِ اللهِ. عظيمٌ هذا الرجل الذي يفرز، وأثمارُ عملِه هي حياةٌ مؤبدةٌ. استمع لكلِّ وصايا إخوتك، ومثل حكيمٍ خلِّص حياتَك بمعرفةٍ من الوصايا التي فيها خسران. فهذه التعاليم للحكماءِ تكفي».

من قولِ بعضِ الشيوخِ: «في كلِّ شيءٍ تصنعه، اعلم أن اللهَ ينظرُ إليك دائماً، لتكونَ مخافتُه فيك، لكي تصنعَ مسرَّتَه. اضبط لسانك لئلا تقول كلاماً يُغضب اللهَ. اضبط عينيك لئلا تنظرَ الأرضيات، وتصير غريباً من السمائيات. لتكن الكنيسةُ لك شبه السماءِ، وانظر لئلا تتفكر بالأرضيات، وأنت قائمٌ فيها. تحفَّظ في صلاتِك بمخافةِ اللهِ، لئلا تُغضبه بدلاً من أن ترضيه، فتحتاج صلواتُك لصلواتٍ. احذر من الضحك لأنه يحل الحواس، ويُبطل كلَّ فضيلةٍ».

سألنا أنبا أنانيه أن يقولَ لنا كلمةً، فقال لنا: «عليكم بالمسكنةِ والإمساك، لأني كنتُ في بريةِ مصرَ في شبابي، وحدث أن اشتكى أحدُ الآباءِ بطحالِه، فطلب جرعةَ خلٍّ، فلم يجد

في تلك البريةِ كلِّها، وكان فيها ثلاثةُ آلاف راهبٍ، فشكا حالَه لأحدِ الشيوخِ الذي أمر بإحضارِ قليلٍ من الماءِ، ثم قام وصلى عليه ورسم باسم الآب والابن والروح القدس، ودهن به الطحال، فزال الوجع لوقتِهِ برحمةِ السيد المسيح».

قيل عن أحدِ الرهبانِ إنه كان كلَّ يومٍ يبكي على خطاياه، وكان له جارٌ يسمعه، وإذ لم يأتِهِ البكاءُ، قال لنفسِه: «لماذا لا تبكي يا شقي؟ لماذا لا تنوح يا مسكين؟ حقاً إنك إن لم تبكِ ههنا طائعاً، فإنك ستبكي هناك كارهاً»، وكان قد أصلح له حبلاً غليظاً يضرب به ذاتَه ليبكي، فتعجب جارُهُ وطلب من اللهِ أن يكشفَ له إن كان تعذيبُه لنفسِه صواباً، فأبصره وهو واقفٌ بين جماعةِ الشهداءِ، وإنسانٌ يقول له: «هذا هو المجاهدُ الصالحُ الذي يعذِّب نفسَه من أجلِ المسيحِ».

قال القديسُ أنطونيوس: «يجب أن يكونَ خوفُ اللهِ بين أعيننا دائماً أبداً، وكذلك ذِكرُ الموت، وبغضةُ العالمِ، وتجنُّب كلِّ ما فيه راحةُ الجسدِ، وأن نزدري هذه الحياةَ، لنحبَ اللهَ، لأنه سوف يطلب منا هذا في يومِ الدينونةِ، ما إذا كنا قد جُعنا، أو عطشنا، أو تعرينا، أو تنهدنا، أو حزنا من كلِّ قلوبنا، أو امتحنا أنفسَنا هل نحن مستحقون لله، فلنؤثر الحزنَ لكي نجد اللهَ، ولنستهن بالجسدِ لكي تنجو أنفسُنا من العذابِ».

قال شيخٌ: «احذر الغضبَ لأنه يُظلم العقلَ ويلقي من النفسِ لجامَ مخافةِ اللهِ. إن الغضبَ أبو الجنون، فمن يقبله لا يكون وديعاً أمام اللهِ. استعد كلَّ حينٍ لأن تقبلَ الأتعابَ والشدائدَ مع الضيقاتِ الآتية عليك، ولا تصغر نفسُك، ويضعف جسدُك فتُهلك تعبَك، بل اقتنِ صبراً، وثبِّت أفكارَك قائلاً: إن هذه إنما أتت عليَّ بسببِ خطاياي. فإن صنعتَ هكذا، فإن معونة الله ونعمته تدركك سريعاً. طوبى للإنسانِ الذي يحفظُ نفسَه طاهراً في الصغرِ حتى الكبرِ، طوبى لمن له نصيبٌ في قيامةِ الصديقين، فإن الملائكةَ تجمعه إلى أهراء الحياةِ، التي هي فرح ملكوتِ السماواتِ».

من أقوال مار إسحق: «إن حدَّ كلِّ تدبيرِ السيرةِ يكون بهذه الثلاثة: التوبة، والنقاوة،

والكمال».

ما هي التوبة؟ «هي تركُ الأمورِ المتقدمة، والحزن من أجلِها».

وما هي النقاوة؟ «هي قلبٌ رحومٌ على جميعِ طبائعِ الخليقةِ».

وما هو الكمال؟ «هو عمقُ الاتضاعِ ورفضُ كلّ ما يُرى وما لا يُرى، أي ما يُرى بالحواس، وما لا يُرى بالهذيذِ عليه».

وسُئل في وقتٍ آخر: «ما هي التوبةُ»؟ فقال: «قلبٌ منسحقٌ». «وما هو الاتضاع»؟ فقال: «هو ترك الهوى، والسكون من كلِّ أحدٍ». «وما هي الصلاة»؟ فقال: «هي تفرغ العقل من جميعِ أمورِ الدنيا، ونظرُ العقلِ إلى شوقِ الرجاء المعَد».

وسُئل أيضاً: «كيف يقتني الاتضاعَ»؟ فقال: «بتذكارِ السقطاتِ، وانتظارِ قربِ الموتِ، واتخاذ لِباسٍ حقيرٍ؛ وأن يختارَ موضعاً هادئاً، ويكون له سكونٌ دائمٌ، ولا يُحبُّ ملاقاة الجموع، وليكن غيرَ معروفٍ وغيرَ محسوبٍ، ملازماً أموره بقدرٍ، مبغضاً لقاء الناسِ، والدالة والخلطة، غير محبٍ للأرباح، مانعاً عقله من لومِ أحدٍ، أو الإيقاع بإنسانٍ، فلا يعامل أحداً، ولا يعاشره، بل يكون متوحداً في ذاتِه، منفرداً، ولا يجعل له همًّا بأحدٍ من الخليقةِ غير نفسه، وباقتصار الغُربةِ والمسكنةِ والتصرف بانفرادٍ. فهذه كلها تولِّد الاتضاع، وتطهر القلبَ. والذين قد بلغوا الكمالَ، هذه هي دلائلهم وعلاماتهم، ولو أنهم يُسلَّمون كلَّ يومٍ عشرَ دفوعٍ للحريقِ من أجل محبةِ الناسِ، فلا يشبعون من حبهم».

سؤال: «ما السبب في أنَّ فعلَ الرجاءِ لذيذٌ، وتعبَه خفيفٌ»؟

الجواب: «ذلك لسببِ الاشتياقِ الطبيعي، الذي يستيقظُ في النفسِ، ويسقيها كأسَ الرجاءِ ويُسكرها، ومن تلك الساعةِ، لا يحس ذوو الرجاءِ بتعبٍ أبداً، بل يثبتون غير شاعرين بالضيقات، وفي كلِّ ما جرى في سيرتهم، يظنون كأنهم في الجوِ سائرون بغير أقدامٍ بشريةٍ، ولا تظهر لهم صعوباتُ الطريقِ وخشونتها، فلا يبدو أمامهم أن هناك أوديةً وروابي وتلال، بل حتى الوعر قدامهم يكون سهلاً، والمواضع الحرجة كأرضٍ لينةٍ، لأنهم في كلِّ وقتٍ ينظرون

إلى حضنِ أبيهم، والأملُ يشير إليهم كمثلِ الإصبع، ويريهم الأشياءَ البعيدةَ غير المرئيةِ، كما لو كانت قريبةً، ملاحظين بعينِ الإيمانِ الخفيةِ، لأن جميعَ أجزاءِ النفسِ تسخن مثل النارِ بشوقِ الأمورِ العتيدةِ، وإلى هناك يمدون لواحظَ أفكارِهم ويسرعون على البلوغِ. وإذا ما دنوا من عملِ واحدةٍ من الفضائلِ، فإنهم لا يعملونها بالتدريجِ، بل بالتمام مرةً واحدةً، فإنهم في الطريق السلطانية، لا يسيرون مثل باقي الناس، لأنهم اختاروا سبلاً قاطعةً. إنهم أفرادٌ من الجبابرةِ والشجعانِ، أولئك الذين قدروا على السيرِ فيها، لأن سعيَهم بالتجبرِ والحرصِ ينتهي، لأن الرجاءَ يُشعلهم مثلَ النارِ، فلا يقللون من سرعةِ جريهم بسبب فرحِهم. ويعرض لهم مثل ما قال إرميا النبي: إني قلتُ لا أعودُ أذكره، ولا أنطق باسمِهِ، وصار في قلبي كمثل النارِ المتقدة، وأشعل عظامي. هكذا تكون قلوبُ الذين يَجْرُون برجاءِ اللهِ حتى يدركوا الحياةَ الأبديةِ».

وقال أيضاً: «يتقدمُ الآلامَ جميعَها، عزةُ النفسِ ومحبةُ الذاتِ، ويتقدم كلَّ الفضائلِ احتقارُ الإنسانِ للراحة. الذي يُغذي جسدَه بالراحةِ، فإنه في بلدِ السلامِ ينضغطُ بالضيقةِ، والذي يتنعم في شبابِهِ، يكون عبداً في شيخوخته، وفي الآخرِ يتنهد. وكما أنه لا يتمكن مَن قد حَبَسَ رأسَه في بئرٍ عميقةٍ مملوءة ماءً، من استنشاق هواء هذا الجو المتدفق في الفضاءِ، هكذا من غَطَسَ ضميرُه باهتماماتِ الأمور الحاضرةِ، فإنه لا يمكن أن تقبلَ نفسُه استنشاق حُسن العالم الجديد. وكما أن رائحةَ السم المميت تُفسد مزاج الجسد، كذلك المناظر السمجة تخبط سلامة الضمير. وكما أنه لا يُستطاع أن تكون الصحةُ والمرضُ في جسدٍ واحدٍ، ولا يفسد أحدُهما من الآخر، هكذا لا يمكن للحب والبغضة أن يسكنا في إنسانٍ واحدٍ ولا يُفسد أحدُهما قرينَه. وكما أنه لا يثبت الزجاج في تقلبه مع الأحجار بل ينكسر، هكذا لا يمكن أن يكون أحدٌ طاهراً، وهو مداوم النظرَ والكلامَ مع النساءِ. وكما تنقلع الأشجارُ من شدةِ جريان الماءِ، كذلك محبة العالم تنقلع من القلبِ من حدة التجارب الحادثة على الجسدِ. وكما أن الأدويةَ المسهلةَ تنقي الكيموسات (أي الإفرازات) الرديئة من الأجسادِ، هكذا شدة الضيقات تقلع الآلام من القلبِ. وكما أنه لا يمكن أن يكونَ بغيرِ

أذيةٍ ذاك الذي يُشفق على عدوهِ المحارب له في صفوف القتالِ، هكذا لا يمكن أن يُشفِقَ المجاهدُ على جسدِه، وتنجو نفسُه من الهلاكِ. من اقتنى دموعاً في صلاتِه، فهو كإنسانٍ يُقدِّم قرباناً عظيماً للملكِ، وقد اقتنى عنده وجهاً بهجاً، كذلك الدموع قدام الله الملك العظيم تزيلُ كلَّ أنواع خطاياه ويقتني عنده وجهاً بهجاً. وكالنعجةِ التي تخرج من الدوّارِ وتمضي لتقيمَ في جحرِ الذئابِ، هكذا الراهب الذي يترك موافقة إخوته، ويداوم الطياشةَ والنظرَ في الخليقةِ. وكمثلِ من هو حاملٌ جوهرةً ثمينةً، ويمضي بها في طريقٍ، وتُشاع عنها أفكارٌ سمجةٌ، فيصبحَ في كلِّ وقتٍ مرعوباً من السالبِ، هكذا الذي قد اقتنى جوهرةَ العفةِ، ويسيرُ في العالمِ الذي هو طريق الأعداء فهذا ليس له رجاءٌ في أن يفلتَ من اللصوصِ السالبين، إلى أن يدخلَ منزلَ القبرِ (أي القلاية)، الذي هو بلد الثقةِ. وكما أنه لا يمكن لذاك أن لا يخاف، كذلك أيضاً ولا هذا؛ لأنه لا يعرف بأيِّ بلدٍ وبأيِّ وقتٍ يخرجون عليه بغتةً ويُفقرونه من جميعِ مالهِ، لأنه هناك من يُسلبُ في بابِ دارِه، الذي هو زمانُ الشيخوخةِ».

«وكما أنه من بذارِ عرقِ الصومِ ينبتُ سنبلُ العفةِ، كذلك أيضاً يتولد من الشبعِ الفسقُ، ومن الامتلاءِ النجاسةُ، أما الأفكارُ المشاغبة (الشهوانية) فلا تجسر على البطنِ الجائعةِ المتذللة قط. كلُّ مأكولٍ يتحصل داخلنا يتسبب عنه زيادة كيموس الزرع الطبيعي المجتمع في جسدنا، وإذا امتلأت الأعضاءُ التي هي أواني الزرع من السائل الذي من جميع الجسدِ، فإنه يسيل إلى هناك، إذا عرضَ له أن ينظرَ جسداً ما، أو تحرَّك فيه ذِكرُ شيءٍ من غيرِ الإرادةِ مع ما يتحرك بالفكرِ في ساعتهِ من مادةٍ بلذةٍ، تتحرك من هناك وتنطلق في جميع الجسمِ، حتى ولو أن الفكرَ يكون شجاعاً جداً وعفيفاً ونقياً بحركاته، ولكن بسببِ ذلك الإحساس في الأعضاءِ، فلوقته يضطرب إفرازه، وعفة أفكاره النقية تتسخ وطهارته تتنجس، لأجل اضطراب تلك الآلام التي تتحرك في القلبِ من توقد الأعضاء، وفي الحالِ تذهب نصفُ قوته، ويوجد مغلوباً مخصوماً بغير قتالٍ. ولن يتعب عدوه في الجهاد معه لأنه غُلب تحت إرادة الجسد المشاغب، وهكذا يجمع أفكاراً متلبسة بأشكالٍ مشاغبة محيطة به، أثناء رقاده وحده، ويبقى سريره الطاهر فندقاً للزواني، وتتدنس أعضاؤه الطاهرة من غير أن تدنو

منه امرأةٌ. أيُّ بحرٍ يضطربُ هكذا، ويتسجس من الراموز، مثل اضطراب العقل المتقن السديد، بقوة الأمواجِ الثائرة عليه في جسمهِ، من امتلاءِ البطنِ».

أيتها العفةُ، ما أنقى حسنك بالرقادِ على الأرضِ، وأ لم الجوع الذي يشتت النومَ عنه لأجل نشوف الجسد، وخلو البطن. من كلّ مأكولٍ، تصدر داخلنا أشكالٌ مرذولةٌ، وصورٌ مشاغبةٌ تتشكل منه، فتخرج وتظهر لنا في بلدِ عقلنا الخفي، جاذبةً إيانا إلى مشاركتها بأفعال الفسق، أما خلو البطنِ فإنها تكون كمثل بريةٍ مقفرةٍ للضمير، هادئة من سجس الحسيات؛ والبطن الملآن، فهو بلد الفُرجات والمناظر، حتى نحن الذين في البريةِ والقفرِ، وجدنا الشبعَ يسبب الكثيرَ من أمثالِ ذلك».

قال شيخٌ: «إذا جلستَ في قلايتك، فلا تكن مثلَ قبرٍ مملوءٍ من النجاسات، ولكن كن مثل إناءٍ مملوءٍ ذهباً كريماً، ولك حافظُك، حافظُ النهارِ والليلِ، التي هي قوةُ الربِّ، التي تحفظ عقلَك».

وقال أيضاً: «الذي يريدُ الاختصاصَ بالملكِ، لا يفعل أمورَ السوقةِ والعوام، ومن يختارُ المقامَ في معركةِ الأبطالِ، لا يفعل أمورَ الصبيانِ والأطفالِ».

وقال أيضاً: إذا مدحك الفكرُ قل له: «لماذا تمدحني؟ إنَّ السائرينَ في البحرِ، حتى ولو هدأ عنهم هيجانه، فما داموا بعد في اللجّةِ، فإنهم يتوقعون رَجَفَاته وغرقه. كما لا يتنعمون بذلك الهدوء الذي كان له أولاً، لأنهم لا يطمئنون جملةً، حتى يصلوا إلى الميناءِ»، نعم لأن كثيرين كانوا على فمِ الميناءِ، ولكنهم عطبوا.

وقال أيضاً: «إذا نال إنسانٌ طِلبتَه، فلا يُعجب بنفسِه، بل يتضع بالأكثرِ، ويتعجب من رحمةِ اللهِ».

وقال كذلك: «إن الذي يلتقي بالناسِ، أما بوجههِ فيجبُ أن يكونَ باشاً، وأما بقلبهِ، فليتنهد».

قال شيخٌ بخصوصِ قبولِ الغرباءِ: «إن كنتَ نبياً وصدّيقاً، ولا تقبل من يأتيك مثل

نبيٍ وصديق، فليس لك أجرٌ، وإن لم تكن نبياً ولا صدِّيقاً، ولكنك قبلتَ من أتاك مثلَ نبيٍ وصديق، فأجرُ نبيٍ وصديقٍ تأخذ».

وقال أيضاً: «إذا تقدمتَ لأخذ القربان لا تفكر أنك أهلٌ لذلك، ولكن اعتبر أنك خاطئٌ، واجعل في نفسِك أن الخاطئَ إذا تقدم إلى المخلصِ بإيمانٍ، وتحفَّظَ كنحوِ قوّتِه، استحق أن ينالَ مغفرةَ خطاياه. فتقدم بتوبةٍ، واعتقد في نفسِك أنك مريضٌ وغيرُ مستحقٍ، بل مثل مجروحٍ ومحتاجٍ إلى الشفاءِ، وآمن أنك تتقدَّس بأخذ القربان، إذا كنتَ على توبةٍ، لأن كلَّ الذين تقدموا إليه بإيمانٍ شُفوا».

قال القديس غريغوريوس: «إن كنتَ غيرَ مذنبٍ عند الإله، فلا تغفر للمذنبين إليكَ، وإن كنتَ تعلم أنك مذنبٌ، فَسَلِّف الرحمةَ وقدِّمها قدامك، فإن اللهَ يضاعف الرحمةَ للرحومين».

قال القديسُ فم الذهب: «إن أردتَ أن لا يتأتى لك حزنٌ فلا تُحزن إنساناً ما».

قال مار أفرام: «إنَّ أعظمَ الناسِ قدراً من لا يبالي بالدنيا، في يد من كانت؟».

وقال أيضاً: «ازهد في الدنيا فيحبك اللهُ، وازهد فيما بين أيدي الناسِ، فيحبك الناسُ».

كما قال: «خبزٌ وملحٌ مع سكوتٍ وراحةٍ، أفضل من أطعمةٍ شريفةٍ مع همومٍ وأحزانٍ».

من أقوال مار إسحق بخصوص التوبةِ: «التوبةُ هي أمُّ الحياةِ، تفتح لنا بابَها بواسطة الفرارِ من الكلِّ. نعمةُ المعموديةِ التي ضيعناها بانحلال سيرتنا، تجددها فينا التوبةُ بواسطةِ إفرازِ العقلِ. من الماءِ والروحِ لبسنا المسيح ولم نحس بمجدِهِ، وبالتوبةِ ندخلُ نعيمَهُ، بنعمةِ الإفرازِ التي بنا تظهر. العادم من التوبةِ، خائبٌ من النعيمِ المزمع أن يكونَ. القريبُ من الكلِّ بعيدٌ من التعزيةِ، أما المبتعدُ من الكلِّ بإفرازٍ، فهو تائبٌ بحقٍّ. بدءُ التوبةِ هو الاتضاع الذي بلا (   ) ولا زيٍّ كاذبٍ مسجس. التوبةُ هي لِباس الثياب الحسنةِ الضوئية. طريقُ الحكمةِ

هي ترتيب الأعضاء. طموحُ الجسدِ هو تخبط الحكمة.

الحكمةُ الحقيقيةُ هي النظرُ باللهِ، والنظر بالله هو صمتُ الأفكارِ. الإحساس بالله هو عمقُ الاتضاعِ. ثاؤرية تصور الحق، هي ميتوتة القلبِ. القلبُ الذي بالحقيقة مات عن العالمِ فباللهِ يتحركُ جميعُه، الذي يبني نفسَه أخْيَر له من أن ينفعَ المسكونةَ جميعَها، أخْيَر له أن يأخذَ هو الحياةَ، من أن يقسمَ الحياةَ لآخرين. من قد ماتت أعضاؤه الخارجية، فقد عاشت أعضاؤه الداخلية. التواضع بإفرازٍ هو بمعرفة الحقِ، ومعرفةُ الحقِ هي ينبوع الاتضاع. المتضعُ بقلبهِ متضعٌ بجسدهِ أيضاً، والمتوقح بجسدِهِ متوقحٌ كذلك بقلبهِ. والمضطرب بجسدِهِ، مضطربٌ أيضاً بقلبهِ، والمضطربُ بقلبهِ جاهلٌ بعقلهِ، ومن هو جاهلٌ بعقلهِ رديئةٌ هي طرقهُ، ومن كانت طرقهُ رديئةً فهو مائتٌ بالحياةِ.

إن كنتَ محباً للتواضعِ فلا تكن محباً للزينةِ، لأن الإنسانَ الذي يحبُ الزينةَ، لا يقدر أن يحتملَ الازدراءَ، ولا يسرع إلى ممارسةِ الأعمالِ الحقيرةِ، ويصعب عليه جداً أن يخضعَ لمن هو دونه، ويخجل من ذلك. أما المتعبدُ للهِ، فإنه لا يزيّن جسدَه. واعلم أنَّ كلَّ من يحبُ زينةَ الجسدِ فهو ضعيفٌ بفكرتِه، ولا تَرى له حسناتٍ. وكل من يحبُ الربحَ المنظورَ، لا يقدر أن يقتني محبةً حقيقيةً مع أحدٍ، وكل من يُسرع إلى الكرامةِ، فإنه متعبدٌ لهذا العالمِ، إن كنتَ تكره فاعلي هذا، فابعد عن فعلهم.

الاتضاع والعفة يتعاضدان بالمحقرةِ، والذي يحب الزينةَ والكرامةَ لا تسأله عن حقيقتهما. إن كنتَ محباً للعفةِ فلا تكن محباً للطياشةِ، لأن الملاقاة التي تعرض لك بواسطةِ الطياشةِ، لا تتركك أن تمسكَ العفةَ في نفسِك باحتراسٍ، لأن كلَّ من يحبُ الطياشةَ، لا يكون عفيفاً، وكلُّ من يشتبك بالعلمانيين، لا تصدق بأنه متواضعٌ، وكلُّ من هو محبٌ للهِ، فهو يحبُ الحبسَ والجلوسَ في القلايةِ، إنسانٌ طياشٌ لا يمكنه أن يحفظَ الحقَ في نفسِه من غيرِ دنسٍ.

التوبةُ كثيرون يَعِدُون ويتظاهرون بها، وليس من يقتنيها بتحقيقٍ إلا المحزون. وكثيرون يُسرعون نحو الحزنِ، فلا يجده في الحقيقةِ، إلا الذي قد اقتنى الصمتَ على الدوامِ، كلُّ من

هو كثيرُ الكلام، ويخبر بأمورٍ عجيبةٍ، اعلم أنه فارغٌ من الداخلِ، الحزن الجواني هو لجامُ الحواسِ.

إن كنتَ محباً للحقِّ، فكن محباً للصمتِ، لأنه كمثلِ الشمسِ، يجعلك الصمتُ تنير باللهِ، ويخلِّصك من تخايل المعرفةِ، والسكوت يجعلك في عشرةٍ مع اللهِ. الذي يحبُ الحديثَ مع المسيحِ، يجبُ أن يكونَ وحده، والذي يريد أن يكونَ مع كثيرين فهو محبٌ لهذا العالمِ. إن كنتَ تحبُّ التوبةَ، فأحبَّ السكوتَ لأنه بدونهِ لن تَكْمُلَ التوبةُ، ومن يقاومك على هذا فلا تلاججه، لأنه لا يعرف ماذا يقول، لأنه لو كان يعرفُ ما هي التوبةُ، لكان يعرفُ أيضاً موضعها، إنها لا تَكْمُل في السجسِ. إنَّ من قد أحسَّ بخطاياه، لأخيرَ له من أن ينفعَ الخليقةَ بمنظره، والذي يتنهد على نفسِه كلَّ يومٍ، أخير له من أن يقيمَ الموتى بصلاتهِ، والذي أُهِّل لأن ينظرَ خطاياه، أخير ممن ينظر الملائكةَ، والذي بالنوحِ يطلبُ كلَّ يومٍ المسيحَ بالوحدةِ، أخير من الذي يمدحونه في المجامعِ».

وقال أيضاً: «إذا ما أفرزتَ نفسَك للتوبةِ، فكلُّ يومٍ لا تصادفُك فيه محقرةٌ لا يكون له حسابٌ عندك، وكلُّ يومٍ لا تجلس فيه ساعةً بينك وبين نفسِك، متفكراً بأيِّ الأشياءِ أخطأتَ، وبأيِّ أمرٍ سقطتَ، لتقوِّم ذاتَك فيه، فلا تحسبه من عِدادِ أيامِ حياتك. الويلُ لمن لا يبكي، ولا يتضايق، ولا ينقي عيوبَ نفسِه، مادام هناك وقتٌ للتوبةِ، لأنه هناك بغيرِ إرادته، بأمواجِ النارِ ينقيها، حتى يوفي آخرَ فلسٍ عليه، الذي هو الزلة الصغيرة.

الذي يتهاون بالصلاةِ ويظن أن هناك ثمة بابٍ آخر للتوبةِ، فهو محلٌ للشياطين، والذي لا يداومُ قراءةَ الكتبِ، ففي التيه سائرٌ، لأنه إذا أخطأ لا يحس. ومن هو متنسِّكٌ من المآكلِ وفي قلبهِ حقدٌ وأفكارٌ رديئةٌ على أخيه، فإنه آلةٌ وأرغن للشيطانِ. احذر من هذه الخِلةِ أن تكونَ جالساً وأنت تدينُ أخاكَ، لأن هذا يقلعُ جميعَ بُنيانِ برجِ الفضيلةِ العظيمِ.

مَن اقتنى الفضائلَ العظيمةَ، مثلَ الصومِ والسهرِ وخلافه، ولكنه لم يقتنِ حراسةَ القلبِ واللسانِ، فإنه في الباطلِ يتعبُ ويعملُ. إذا وضعتَ كلَّ أعمالِ التوبةِ في ناحيةٍ، والحفظ في

ناحيةٍ أخرى، فإن الحفظَ يرجح، فإن المسيحَ وضع فأسَ الوصايا على أصلِ الأفكارِ القلبيةِ، وموسىً على الأعمالِ المحسوسةِ. الويلُ لمن له وقتٌ واستطاعةٌ، ويساعده جسده، ويتهاون بأعمالِ التوبةِ، لأنه يبكي وينتحب عندما ينتبه، ويطلب زمانَ الراحةِ فلا يجد. سمادُ وماءُ التوبةِ هما الضيقات والمحقرات والتجارب، وموتها حبُّ الأرباحِ والكرامةُ والراحةُ، لأنه من الضيقاتِ الخارجية تتولد الراحةُ الداخلية، ومن الحزنِ والكآبةِ اللذين من أجلِ اللهِ، يتولد الفرحُ وعزاءُ النفسِ، وبإيجازٍ فإن السلامةَ التي لم تتولد من هذه الأعمالِ، فهي ضلالةٌ.

أساس تدبير الوحدةِ، هو الصبرُ والاحتمالُ بالتغصبِ، وبها يبلغ الإنسانُ إلى كمالٍ تامٍ، وهي تُصلح قدامه سُلَّماً، يصعد به إلى السماء. رباطات النفس هي العوائد، التي بها يعتاد الإنسانُ، إن كانت بالجيد أو بالرديء».

سُئل شيخٌ: «بماذا تشبِّه رهبنةَ القدماءِ، ورهبنةَ زماننا هذا»؟ فأجاب قائلاً: «كان إنسانٌ غنياً وحكيماً، وكان يطلبُ المِسكَ الخالصَ، فلما لم يجد المسكَ الحقيقي الذي يريده، قطع المسافات براً وبحراً حتى وصل إلى الصينِ، حيث قدَّم هدايا للملكِ الذي هناك، وسأله أن يعطيه مِسكاً، وطلب إليه أن يقطعَه هو بيدِهِ، فلما أخذ المسكَ ورجع، أعطاه لأولادِهِ، وأولادُه بدورِهم أعطوه بعضُهم لبعضٍ، وقليلاً قليلاً غشُّوه وخلطوه بما يُشبه المسكَ الحقيقي في اللونِ، ويختلف عنه في الرائحةِ، ومع تمادي الزمن بقي الزَّغلُ (أي المغشوش) موضعَ المسكِ الحقيقي، وعدمت رائحتُه، وبقي الشكلُ والاسمُ فقط.

كذلك الآباء القدماء، فإنهم جسروا على الحياةِ والموتِ، وذاقوا كلَّ التجاربِ، واحتملوا الضيقات، وقدموا ذواتهم ذبيحةً حيةً روحانية، ووُهبت لهم المعرفةُ الروحانية، وصاروا مسكناً للهِ، وأحسُّوا بالأسرارِ. واتصل السرُّ شيئاً فشيئاً، حتى انتهى إلينا نحن الذين بالاسمِ والشكلِ فقط. إن أمورَ سيدنا مراراتٌ تعقبها حلاوات، مظلماتٌ تعقبها نيرات، محزناتٌ تعقبها مبهجات، أما أمورُ العالمِ فهي حلاواتٌ تعقبها مرارات، نيراتٌ تعقبها مظلمات، مبهجاتٌ تعقبها محزنات. يعرفُ الحقَّ، ذاك الذي ذاق تجربةَ هؤلاءِ، لا من سماعِ الآذان فقط».

قال القديس برصنوفيوس: غرباءُ نحن، فلنكن غرباءَ بالكمالِ، ولا نحسب أنفسَنا شيئاً، ولا نشاء أن يحسبنا أحدٌ فنتنيح. جاهد أن تموتَ في القبرِ من كلِّ إنسانٍ، وقل لفكرِك: «لقد متُّ ووضعتُ في القبرِ»، وأنت تخلص. وليس غلق الباب هو الموت، بل غلق الفم والطاعة هي أيضاً مُطفِئةٌ لجميعِ سهام العدو المحماة. أما الذرور العظيمة (أي الأربطة والأعصاب التي تشدِّد كلَّ الأعضاءِ، وتشفي كلَّ مرضٍ واسترخاء، فهي المحبةُ التي أعطانا الآبُ وأحيانا بها.

وقال أيضاً: «هذا هو الوقت الذي فيه نفتشُ عن أوجاعِنا وننوحُ ونبكي ونلومُ أنفسَنا في كلِّ شيءٍ، ونُلقي ضعفَنا قدام الله، وهو يعيننا ويقوينا».

وقال كذلك: «إن كنتَ تحب أن تخلصَ من الأوجاعِ النجسةِ، اقطع منك الخُلطةَ والدالةَ مع كلِّ إنسانٍ، ولا سيما من ترى قلبَك مائلٌ إليه بشيءٍ من الأوجاعِ، وهكذا يُعتق من السبحِ الباطل، لأن السُبحَ الباطل ملتصقٌ بالرياءِ، والرياءُ يلدُ كلَّ الأوجاعِ، لأن المجاهدين، إن لم يحرصوا فلن يُكلَّلوا، والفرسان إن لم يجاهدوا في معركةِ الحربِ، فلا يُمدحون من الملكِ».

وقال أيضاً: «لا تأخذ ولا تعطي مع إنسانٍ يُقاتلك به العدو، بل انظر لنفسِك، واعلم أن مصيرَك أن تموتَ وتلقى الديانَ».

كان شيخٌ لا يأوي تحتَ سقفٍ، بل كان يقيمُ في حرِّ الشمس وبردِ الليل، فقال له أحدُ الإخوةِ: «لماذا يا أبي، لا تأوي تحت سقفِ بيتٍ، فتستريح قليلاً من هذا التعبِ»؟ فأجابه الشيخُ: «إن لصوصاً أخذوا مالي وسلبوني سُترتي، ولهذا لا آوي تحتَ ظلالِ بيتٍ، بل تائهاً، أبيتُ تحت الحرِّ والبردِ، وأصرخُ إلى إلهي ليلاً ونهاراً، ولا أهدأ حتى يتحنن عليَّ وينتقم لي من أعدائي، ويردَّ لي ما قد سلبوه مني».

قال أنبا سرابيون: «كما أن أجنادَ الملكِ وقوفٌ بين يديه، ولا يقدرُ واحدٌ منهم أن يلتفتَ يميناً أو شمالاً، كذلك الإنسانُ، إذا كان واقفاً قدامَ اللهِ في الصلاةِ، يجبُ عليه أن يكونَ عقلُه مجموعاً بخوفٍ، وإذا كان كذلك، فلا يستطيع العدو أن يضرَّه أو يُرهبه».

قال شيخٌ: «لتكن همَّتُكَ في ملكوتِ السماواتِ، وأنت سريعاً تخلص، وترثها».

وقال أيضاً: «إن لم يحفظ الإنسانُ التعليمَ الروحي، ولم يُنقِ قلبَه من الأفكارِ القذرةِ، فكلُّ تعليمٍ ينساه ويذهب عنه. وعند ذلك يجدُ العدو فيه مطمعاً فيسقطه، لأن النفسَ تشبه مصباحاً مضيئاً، إن توانيتَ عنه ولم تتعهده بالزيت انطفأ».

قال شيخٌ: كما أنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يؤذي رفيقَه وهو واقفٌ معه قدام السلطانِ، كذلك العدو لا يقدر أن يؤلمنا بشيءٍ من الشرِّ، ما دامت نفوسُنا قريبةً من اللهِ، كما هو مكتوبٌ: «اقتربوا من اللهِ، يقترب الله منكم»، ولكننا إذا كنا في كلِّ حينٍ نتنزه، ونشتغل بما لا ينبغي، فإن العدوَ يتمكن منا، ويُلقي بنا في أوجاعِ الخطيةِ.

قال دوروثاؤس: «من يضجر من شدائدِ هذا الدهرِ، فهو جاهلٌ بشدائدِ الدهرِ العتيد، وافتراقِ النفسِ من الجسمِ، والصعوبات التي تنالها. وكيف ننسى تصرف هذا الدهرِ (العتيد)، ونستمر في تذكر الأعمالَ التي نُدان عليها، بلا نسيانٍ».

من أقوال مار إسحق: الراهب الذي في زمانِ الطاعةِ والخضوعِ، يختارُ لنفسِه الراحة والحريةَ، فإنه في زمانِ الراحةِ الحقيقية، بالعدلِ يبكي ويجوع ويشقى بالندامة. الراهب الذي في وقتِ الحصادِ والفرحِ، يملك عليه الندمُ والكآبةُ، فهو شاهدٌ على ذاتهِ أنه في أوانِ الزرعِ والخضوعِ والعملِ، لم يُغصب نفسَه على أن يصبرَ ويحتملَ حدة البردِ والجليد، ليشقَّ بالمحراثِ خطوطاً عميقةً في بابِ قلبِهِ، ويطمر فيها زرعَ خبزِ الحياةِ، لذلك فهو الآن يشقى بالجوعِ في وقت الحصادِ. أعمالُ التوبةِ والصلوات والدموع باتضاعٍ وكسر القلبِ، لا تغلب الآلام من النفسِ فقط، بل ومن الموتِ يقيمونها. حفظُ الحواسِ يقلعُ الخطايا، وحفظُ القلبِ يقطعُ الآلامَ التي تلدُ الخطايا. الراهبُ الذي يحاربُ قبالة الآلام، يحفظُ الوصايا لكي تُقطع الآلام من القلبِ، ولا تهدأ النعمةُ، إذ تساعده خفيةً. بالقراءةِ المفروزةِ اجمع قلبَك من الكلِّ، وقم للصلاةِ، وفي وقتِ الصلاةِ ألفِت نظرَك إلى البشارةِ، وانظر الصليبَ والمساميرَ والحربةَ، واحزن وتنهد، وابكِ وأنصت إلى الجموعِ الصارخة: «اصلبه»، واعجب من مخلصِ الكلِّ كيف يصرخُ بنوعِ الصلاةِ: «يا أبتِ، لا تحسب عليهم هذه الخطيةَ»، وتشبَّه به بأكثرِ قوتِك، وابدأ بالصلاةِ والدموع.

وقال أيضاً: الاتكالُ على البشرِ، يمنع كليةً الاتكالَ على المسيحِ، والعزاءُ الظاهرُ يمنع العزاءَ الخفي، وهكذا بقدر ما يكون الراهبُ منفرداً، وفي وحشةٍ، بقدر ما يُخدم من العناية الإلهية. كن

حقيراً ومزدرى في عيني نفسِك، فيكون رجاؤك عظيماً باللهِ. محاسن الصلاةِ هي: الاغتصاب والصبر والاحتمال وطول الروح والتجلد، والصلاة هي صراخ العقل الذي يصرخ من حرقةِ القلبِ. يا ابني إن أسلمتَ ذاتَك لجميعِ التجاربِ، فاصلب ضميرَك وأفكارَك مقابل الآلامِ بواسطةِ عملِ الوصايا بتغصبٍ وقسرٍ. بدء تدبير سيرةِ الصلبِ هو الصبر بتغصبٍ والانقطاع من كلِّ محادثات الوجوه، على أن يكون بغيرِ اهتمامٍ، وعدم ذِكرِ كلِّ جيد ورديء، وبغضة الكرامة، والصبر بشجاعةٍ على الظلمِ والعار والهزءِ، متمثلاً بذلك الذي هزءوا به بالصلبِ، وهو الذي يعطي الحياةَ للعالمِ. إن كنتَ مشتاقاً لسلامةِ القلبِ، ونياح الضميرِ الذي هو أثمار شجرةِ الحياةِ، فاخلع من قلبك شجرةَ تمييز الجيد والرديء، تلك الشجرة التي أُمر مبدأُ جنسنا (آدم) ألا يتذوق منها لئلا يموت، لأنها تولِّد سجساً في النفسِ وتقلع السلامةَ من القلبِ.

وقال كذلك: الإنسانُ الذي قد عرفَ ضعفهَ وعجزهَ، فقد حصل إلى حدِ الاتضاع. مرشد أنعام الله إلى الإنسانِ، هو الشكر المتحرك في القلبِ على الدوام، ومرشد التجارب إلى النفسِ هو التذمر. إنَّ اللهَ عز وجل يحتمل كلَّ ضعفٍ من الإنسانِ، ولا يحتمل إنساناً يتذمَّر دائماً، إن أدَّبه. فمٌ يشكر دائماً، إنما يقبلُ البركةَ من اللهِ تعالى؛ وقلبٌ يلازمُ الحمدَ والشكرَ، تحلُ فيه النعمةُ.

الاتضاع يتقدمُ النعمةَ، والعظمةُ تتقدم الأدبَ. إن المتعظمَ بالمعرفةِ بضميرِه، يسقط بالتجديفِ، والمبتهجَ بفضيلةِ العمل، يسقطُ في الزنى، والمترفعَ بالحكمةِ يسقط في فخاخِ الجهلِ المظلمة. إن الإنسانَ البعيدَ عن ذِكرِ اللهِ، لا همَّ له إلا في قولِ السوءِ على قريبِهِ. الذي يُكرمُ كلَّ إنسانٍ، من أجلِ اللهِ تعالى، يجدُ معونةً من كلِّ إنسانٍ بإشارةِ الله الخفيةِ. المعتذرُ عن المظلومِ، يجدُ الله تعالى مناضلاً عنه. من عاضدَ قريبهَ يعاضده الله سبحانه بذراعِه، ومن سبَّ أخاه برذيلةٍ، كان له الله ساباً ومبكِّتاً. التاجر إذا أكملَ وأتم ما يخصه، فإنه يجتهد في أن يمضي إلى منزلِه، والراهب بمقدارِ ما يعوزه من زمانِ العملِ، على ذلك الحدِّ يحزن أن يفارقَ نفسَه. وإذا أحسَّ في نفسِه، أنه حصل على الوقتِ وأخذ العربونَ، فإنه يشتاق إلى العالمِ الجديدِ. إن التاجرَ ما دام في البحرِ، فالخوفُ منبثٌ في أعضائه، لئلا تتعالى عليه الأمواجُ فيغرقَ ويخيبَ أملُه من عملِهِ، والراهبُ ما دام في بحرِ هذا العالمِ، فالخوفُ يستولي على سيرته لئلا تثب عليه أذيةٌ وراموز (أي اضطراب)، فتُهلك عملَه منذ الشبابِ حتى الشيخوخةِ. التاجرُ عينُه نحو البحرِ، والراهبُ يرمُقُ ساعةَ الموتِ.

إنَّ السابحَ يغوصُ غائراً في البحرِ، إلى أن يجدَ اللؤلؤَ، والراهبَ الحكيمَ يسيرُ في الدنيا عارياً، إلى أن يصادفَ فيها الدرةَ الحقانيةَ، التي هي يسوع المسيح، وإذا ما وافاه، فلن يقتني معها شيئاً من الموجوداتِ.

إن الجوهرَ يُصانُ في الخزانةِ، ونعيمَ الراهبِ يُصانُ في السكونِ والهدوءِ. إن العذراءَ لتتأذى بالمجامعِ والمحافلِ، كذلك فكرُ الراهبِ، تضره المحادثةُ مع الكثيرين، والنظرُ إليهم. إن الطائرَ يُسارعُ إلى وكرِه، بعيداً عن كلِّ مكانٍ، وذلك ليفرخَ، كذلك الراهبُ ذو الإفرازِ، يبادرُ إلى قلايته، ليصنعَ فيها ثمرةَ الحياةِ. إن السحابَ يحجبُ نورَ الشمسِ، والأقوالُ الكثيرةُ تبلبل النفسَ. إن الشجرةَ إن لم ترمِ أولاً الورقَ العتيق، فلن تأتي بأغصانٍ جديدةٍ، كذلك الراهبُ، إن لم يرمِ من قلبهِ ذكرَ الأمورِ والأعمالِ السالفةِ، ويبعد عن ملاقاةِ الكلِّ، فلن يقدِّم ليسوعَ المسيحِ أثماراً جديدةً. إن الهواءَ يُسمِّن الأثمارَ، والاهتمامَ بأمورِ الله عز وجل، يُسمِّن أثمارَ النفسِ. إن أثمارَ الشجرةِ فجةٌ ومرةٌ، ولن تصلحَ للأكلِ حتى تقع فيها الحلاوةُ من الشمسِ، كذلك أعمال التوبةِ الأولى فجةٌ ومرةٌ جداً، ولا تفيدُ الراهبَ حتى تقع فيها حلاوةُ الثاؤريا، فتنقلَ القلبَ من الأرضياتِ. حلاوةُ الكلامِ من غيرِ أعمالٍ لا تنفعُ، لأنه إذا ما انتقل عنها الإنسانُ، يخزى بالأكثرِ. كما أنه لا يمكنُ أن يشربَ الشابُ الخمرَ، ولا تفوح رائحتُه من فمِه، هكذا لا يستطيع الإنسانُ أن يؤهَّل للنياحِ الروحاني بتدبيرِ سيرتهِ، ولا تظهر مغايرات أمورهِ لحكماء القلب. إن الذي قَبِلَ الزرعَ السمائي مغايرٌ بكلامِه، ومغايرٌ بضميرِه، ومغايرٌ بسيرتِه، ومغايرٌ بحواسهِ، ومغايرٌ في كلِّ شيءٍ لبقيةِ الناسِ. وهو كإنسانٍ كان نائماً وانتبه من نومِه، إن الراحةَ والبطالةَ هلاكٌ للنفسِ، وهما يؤذيان أكثرَ من الشياطين.

وقال أيضاً: إنسانٌ مماحكٌ لا يظفرُ بسلامةِ الفكرِ، والعادمُ من السلامةِ، هو العادمُ من الفرحِ. الإنسانُ الذي يطلِقَ لسانَه على الناسِ بكلِّ جيدٍ ورديءٍ، لن يُؤهل للنعمةِ من اللهِ. توبةٌ مع أحاديث تشبه خابيةً مثقوبةً. عفةٌ ومحادثةٌ مع امرأةٍ، كلبؤةٍ وخروفٍ في بيتٍ واحدٍ. أعمالٌ مع قساوةٍ قدام الله تعالى، كإنسانٍ يضحي ولداً (أي يذبح ولداً) قدام أبيه. المريضُ الذي يقوِّم رفاقَه، يشبه إنساناً أعمى يُري آخرينَ الطريقَ، إن الحقودَ يستثمرُ من صلاتهِ ما يستثمره الزارعُ في البحرِ من الحصادِ، وكما أن شعاعَ النار لا يمكن إمساكه عن الطلوعِ إلى فوق، هكذا صلاة الرحومين

لا يمكن إلا أن ترقى إلى السماءِ. وكما أن جريانَ الماء يتجه إلى أسفل، هكذا قوةُ الغضبِ إذا ما ألِفَت موضعاً في فكرِنا. من واضَعَ قلبَه، فإنه قد مات عن العالمِ، ومن مات عن العالمِ، فقد مات عن الآلامِ، ومن مات بقلبهِ عن أصحابهِ، فقد مات المحتالُ عنه. ومن وجدَ الحسد، فقد وجد معه الشياطين الذين أوجدوه منذ القديم. إنَّ جمعَ المتواضعين لمحبوب عند الله تعالى كجماعةِ السارافيم. إن الجسمَ العفيفَ لكريم عند الله تقدس اسمه أكثر من الضحية الطاهرة، وذلك أن هذين، أعني الاتضاع والعفة، ضامنان للنفسِ بحلولِ الثالوثِ المقدس فيها.

تخوَّف من العاداتِ أكثرَ من الأعداءِ. إن من يربي عنده عادةً، هو كإنسانٍ يربي (أي يُشعل) ناراً بكثرةِ الوقود، وذلك لأنَّ قوةَ الاثنينِ تتقوَّم بالمادةِ، أما العادةُ فإنها إذا ما طالبت دفعة، ولم تُجبها إلى طلبها، فإنك تجدها في وقتٍ آخر ضعيفةً، أما إن صنعتَ مرسومها دفعةً، فإنها تتقوى عليكَ في الثانيةِ أكثر مما سلف. لا تكن صديقاً لمحبِّ الضحكِ والمؤثرِ أن يهتكَ الناسَ، لأنه يقودك إلى اعتيادِ الاسترخاء. لا تُظهر بشاشةً في وجهِ المنحلِّ في سيرتِهِ، وتحفَّظ من أن تبغضَه. عبِّس وجهكَ لدي من يبدأ في أن يقعَ بأخيه قدامك، فإنك إن فعلتَ هكذا، تكون متحفظاً لدي الله تعالى ولديه. صديقٌ ليس بحكيمٍ يشبه سراجاً في شمسٍ. صلاة الحقودِ كبذارٍ على صخرةٍ. ناسكٌ غيرُ رحيمٍ كشجرةٍ لا ثمرَ فيها. ورعٌ صادرٌ عن حسدٍ كسهمٍ مسمومٍ. مشيرٌ أحمقُ كضريرٍ مرشدٍ. تَفتُّت القلبِ في مجالسةِ غير الحكماءِ. فخٌ مخفي هو مدحُ الغاش. ينبوعٌ عذبٌ، محادثةُ الفضلاءِ. والمشيرُ الحكيمُ كسورِ رجاءٍ. صديقٌ جاهلٌ، ذخيرةُ خسرانٍ. مشاهدة النادبات في منزلِ البكاءِ، أفضلُ من رؤية حكيمٍ تابعٍ لأحمقٍ. جالس الضباع ولا تجالس الشره الذي لا يكتفي. التحدث مع الخنازير ذات الحمأةِ، أفضل من فم الأكولين. جالس المجذومين ولا تجالس المتعظمين. كن مطروداً لا طارداً. وكن مظلوماً لا ظالماً. أبسط سربالك على المذنبِ، واستره إن كنتَ لا تقدر أن تحتملَ وتضعَ على نفسِك أوزارَه، وتقبل الأدبَ وتتجشَّم الأتعابَ من جرائهِ. لا تماحك ولا تخاصم من أجلِ البطنِ، ولا تبغض من أجلِ أن تُكرَّم، ولا تحب الرئاسةَ. التمس فهماً لا ذهباً. البس الاتضاع ولا تلبس الأرجوان. اقتنِ سلامةً لا مُلكاً.

كما قال: «إن أردتَ أن تعرفَ رجلَ اللهِ، فاستدل عليه من سكوتِهِ ومن بكائِهِ ومن انقباضِ نفسِه على ذاتِه، وإن أردتَ أن تعرفَ الرجلَ السائبَ القلبِ، فاستدل عليه من كثرةِ

كلامهِ ومن تخبط حواسهِ ومن مقاومته لكلِّ شيءٍ، يقول ويريد أن يغلبَ».

سأل أخٌ شيخاً: «لماذا أضجر في قلايتي؟»، فقال له: «ذلك لأنك لم تحس بعد بنعيمِ القديسين وعذابِ الخطاة، ولو عرفتَ ذلك لصرتَ بلا ضجرٍ حتى ولو كنتَ منغمساً في الدودِ والنتنِ في قلايتك لحد حلقك، لأن قوماً بسببِ ضجرِهم يتمنون الموتَ، ولا يعلمون شدةَ الصعوبةِ عند ملاقاة الله مع خروجِ القضيةِ اللازمةِ عليهم، وشدة العقوبةِ الحالةِ بالخطاةِ».

قال راهبٌ لشيخٍ: «لي ثلاثونَ سنةً لم آكل لحماً». فأجابه الشيخُ: «وهل لك ثلاثون سنةً لم تخرج من فمِك لعنةٌ، تلك التي نهانا اللهُ عنها؟». فلما سمع الأخُ ذلك قال: «بالحقيقةِ هذه هي العبادة المرضية لله».

قال القديس مكسيموس: «من غلبَ الحنجرةَ فقد غلبَ كلَّ الأوجاعِ، ومن أحكمَ الاتضاعَ، فقد أحكم كلَّ الفضائلِ».

قال أنبا إشعياء: «ينبغي للراهبِ أن يقتني له مخافةَ اللهِ، وما دامت ليست فيه مخافةُ اللهِ، فهو بعيدٌ من رحمةِ اللهِ، فإذا كان يميلُ إلى الخطيةِ ويستأنس بها، فليعلم أن مخافةَ اللهِ ليست فيه».

قال أنبا بيمين: «الإنسانُ يحتاج إلى خوف الله كمثل احتياجه إلى نسمته ليتنفسَ بها».

قال إقليمس: «من لا يجد في نفسِه خوفَ اللهِ، فليعلم أن نفسَه ميتةٌ».

قال مكسيموس: «الخوفُ الإلهي هو غايةِ اهتمام الإنسانِ بأن لا يقعَ في عقوبةِ الآخرةِ بسببِ خطاياه».

سأل أخٌ شيخاً: «يا أبي إني أشتهي أن أحفظَ قلبي». فقال له الشيخُ: «كيف يمكنك أن تحفظَ قلبَكَ، وفمُكَ، الذي هو بابُ القلبِ، مفتوحٌ سائبٌ».

كذلك سأل أخٌ شيخاً: «كيف يخلص الإنسانُ؟»، فقال له: «يخلص الإنسانُ بالاتضاعِ، لأنه كلما وضع الإنسانُ نفسَه إلى أسفل، ارتفع إلى فوق ومشى إلى قدام».

قال شيخٌ: «لا يوجد أنتن من الإنسانِ الخاطئ، لا الخنزير ولا الكلب ولا الضبع، لأن هذه بهائمٌ وقد حفظت رتبتها، أما الإنسانُ الذي خُلق على صورةِ الله ومثالِه، فإنه لم يحفظ طقسَه. فالويل للنفس التي اعتادت الخطيةَ، فإنها مثل الكلبِ الذي اعتاد زهومات الجزارين، وقاذوراتهم،

فهو يُضرب ويُطرد، فإذا تخلى قليلاً، عاد ثانيةً إلى الزهوماتِ، ولا يزال كذلك حتى يُقتل».

قال القديس إبيفانيوس عند خروجِ نفسِه: «لا تحبوا متاعَ الدنيا فتستريحون وتفرحون في الآخرةِ، تحفَّظوا من لذَّات العالمِ، فلا يقوى عليكم وجعُ الشيطانِ، تحفَّظوا بأفكارِكم، لأنه ربما يكون الجسدُ هادئاً ولكن الأفكارَ تهتم بالأمورِ الباطلةِ. أيقظوا قلوبَكم بذِكرِ اللهِ، فتخف قتالاتُ الأعداءِ عنكم».

قال شيخٌ: «ليست الحاجةُ إلى كثرةِ الكلامِ، لأن كثرةَ الكلامِ غريزةٌ في الناسِ، وإنما الحاجةُ ماسةٌ إلى العملِ».

وقال آخر: «إذا كان للراهبِ كلامٌ بغيرِ عملٍ، فإنه يشبه شجرةً مورقةً لا ثمرَ فيها، أما من له كلامٌ وعملٌ، فهو مثلُ شجرةٍ مورقةٍ مثمرةٍ».

أبصر شيخٌ أحدَ الإخوةِ يضحك، فقال له: «لا تضحك يا أخي: وإلا بعدت عنك الطوبى التي أعطاها الربُّ للحزانى».

سأل أخٌ شيخاً: «كيف أخلص؟»، فقال له الشيخُ: «هو ذا أنا مصورٌ لك دِين اللهِ، وأريك إياه: أنت تقول ارحمني، فيقول لك ارحم أخاك وأنا أرحمك؛ وإن قلتَ له اغفر لي، يقول لك اغفر لأخيك وأن أغفرَ لك؛ ألست ترى أن العلةَ هي منا؟».

قال شيخٌ: «سمجٌ هو بالراهبِ إن شتمه أخوه أو أهانه ألا يكون تاماً في محبتِهِ له قبل أن يلقاه».

سأل أخٌ الأنبا مقاريوس الكبير قائلاً: «قل لي كلمةً للمنفعةِ»، قال له: «اجلس في قلايتك، ولا تكن بينك وبين أحدٍ خلطةٌ، وابكِ على خطاياك، وأنت تخلص».

قال شيخٌ: «أرفعُ الصلاحِ كلِّه أن يمسكَ الإنسانُ بطنه ولسانه».

وقال آخر: «احرص أن تقلعَ هذا العشبَ الذي هو التواني، قبل أن يصيرَ غابةً».

في أثناءِ جهادِ الأسقف أنبا كيرادوس لما كان يُعذَّب على اسمِ المسيحِ، قال مثلاً: «إن الأرضَ التي تُشقَّق بالسكةِ، وتقلَّع بالمحراثِ، تثمر ثمراً مضاعفاً، كذلك الجسدُ إذا انكسر وانحل بالتعبِ، حينئذ ينبت للنفسِ أجنحةٌ, وتتعالى إلى المسيحِ الذي قُتل من أجلها، وهي حاملةٌ ثمرَهُ

مائة ضعف».

قال أحدُ القديسين: «النفس تشتهي أن تخلصَ، إلا أنها مشتبكةٌ بالأشياء الباطلةِ، وعند اشتغالها بالأمور الدنياوية، يصعب عليها تعبُ الآخرة، حتى أنها لا تقدرُ حتى على أن تُصلِّب على وجهها بغيرِ طياشةٍ. فصلاة كهذه، ليست لها قوةٌ فعالةٌ، ولكنها قد صارت عادةً».

قال أنبا أوغريس: «مهما أراده الإنسانُ، بلا شك يشتهيه، وما يشتهيه، يجهد نفسَه حتى يقتنيه. فإذا اقتناه، فقد أكمل الشهوةَ، وإذا أكمل الشهوةَ فقد أرضى جميعَ حواسِه ولذذها، وكلُّ من ليست فيه شهوةٌ حسنةٌ، فهو جرنٌ للأوجاعِ».

قيل عن تلميذٍ كان مع أبيه في زمانِ قتلِ المؤمنين، فأراد أبوه هذا أن يُجرِّبَ فكرَه، فقال له: «يا ابني لعلك تشاء أن تصيرَ شهيداً فاذهب». وكان الأخُ يهوى ذلك، ولكنه لم يُطع هواه فيذهب، بل قال للشيخِ: «يا أبي، حتى ولو صرتُ فوق رتبةِ الشهداءِ، لكن بركتَك لي كلَّ يوم أفضل». فلما نظر الله إيمانَه في شيخهِ، جعل صوتاً يقول له: «لأجل إيمانِك في أبيك، ها أنا أحسبُك في مجمعِ الشهداء وطقسِ القديسين».

سأل أخٌ شيخاً: «يا أبي، إن لي خمساً وعشرين سنةً أخدمُ فيها شيخاً، ولكنه قد ثقُل عليَّ الآن، لذلك فإني أريدُ أن أتركَه». فقال له الشيخُ: «هو ذا قد صار لك خمسٌ وعشرون سنةً تحت شجرةِ الحياةِ، وأنت تأكل من ثمرِها، وتريد الآن أن تأكلَ من الزوانِ، إذا كنتَ تريد ترك الشيخ. لأن شجرةَ الحياة التي بها تعيش، هي كلمةُ اللهِ التي تسمعها من أبيك، والزوان هو أفكارُ إبليس، تلك التي إذا قبلتها، تجعلك غريباً من شجرةِ الحياةِ».

قيل عن أخٍ: إنه كان تحت طاعةِ شيخٍ، فأقام ثمانيَ وعشرينَ سنةً يخدمه ولم يُغضبه يوماً واحداً ولا عصي له أمراً. وأخيراً، تدبَّر له إبليس في ضميرٍ رديء وقال له: «إن أباك خاطئٌ، ولن تخلصَ على يديه». فلما أقنعه، مضى وسكن في قلايةٍ وحده. وفي كمالِ ثلاثة أيامٍ مات وأخذوه إلى العذابِ، فسأل الشيخُ اللهَ من أجلِهِ، إن كان قد وجدَ رحمةً أم لا، فعرف بواسطةِ ملاكٍ أنه قد أُلقيَ في العذابِ، فسأل الشيخُ اللهَ قائلاً: «يا سيدي، لا تضيع تعبي فيه من أجلِ هذه الثلاثة أيامٍ». فقال له الملاكُ: «إن هذه الثماني والعشرين سنة التي خدمك فيها، كان يؤمن بك فيها، ولكنه الآن أطاع الشيطانَ وافترق منك وأقامَ هذه الثلاثة أيام معادياً لك في قلبِهِ، فلما

أخذه اللهُ، أصاب العداوةَ فيه، من أجلِ هذا، ألقاه في العذابِ».

قال أنبا مقاريوس: «نفسُ الإنسانِ غير الكامل في الفضائلِ نجدها نقيةً كالشمسِ من قبل أن تلحقه كلمةٌ رديئةٌ، فإذا سمع كلمةً رديئةً أو نميمةً، للوقت تغطي الشياطين على عقلِه، وتحجب عنه النورَ، وتصيِّره شقياً، بسبب أن نفسَه متزعزعةٌ، وفضائلَه ناقصةٌ».

قال أنبا أبرام: ساعةُ الموتِ مرهوبةٌ، وهي تأتي على الإنسانِ مثل الفخِ، حينئذ يلحق النفسَ ندمٌ عظيمٌ، وتقول: «كيف جُزتُ أيامي وأنا مشغولةٌ بالأعمالِ الفارغة التي لا منفعةَ فيها»؟

قال أنبا بيمين: «إذا أخذ الإنسانُ حيةً ووضعها في قارورةٍ، وغطى فمها، فإنها تموتُ، هكذا الأفكارُ الرديئةُ، إذا قامت على الإنسانِ فالصبرُ والجهادُ يهلكانها».

أخان ذهبا إلى مدينةٍ ليبيعا شغلَ أيديهما، فلما دخلا المدينةَ، افترقا بعضُهما عن بعضٍ بحيلةٍ من إبليس، فوقع أحدُهما في الخطيةِ، ولما فرغا من شغلِهما، التقيا، فقال الذي لم يخطئ للآخرِ: «هيا بنا نمضي إلى الديرِ»، فقال ذاك: «لستُ أريدُ المضي الآن». فلما سمع أخوه ذلك انزعج وقال له: «لماذا لا تريد المضي الآن؟»، فأجابه: «إني لما افترقتُ عنك وقعتُ في الخطيةِ». فأراد أخوه أن يربحَ نفسَه، فقال له: «أما أنت فلم تبقَ عليك خطيةٌ لأنك اعترفت بخطيئتك، وأما أنا، فإني وقعتُ في الخطيةِ، ومن عظمِ الكبرياءِ، امتنعتُ عن أن أقولَ لك، ولكن امضِ بنا إلى الديرِ لنطلبَ التوبةَ». فأتيا إلى الديرِ ومضيا إلى الشيوخِ، وأعلماهم بما أصابهما، وطلبا التوبةَ، فوُضع عليهما قانونٌ متعبٌ، وكان الأخُ الذي لم يخطئ، يصنع القانونَ ويقول: «هذا التعب ليس لي فيه شيءٌ، بل احسبه يا ربُّ بدلاً من خطيةِ أخي». فلما نظرَ اللهُ محبتَه، وما يقاسيه من التعبِ عنه، كشفَ لأحدِ الشيوخِ أمرهما، وقيل له في الرؤيا: «من أجلِ محبةِ الأخِ الذي لم يخطئ، غفر اللهُ للذي أخطأ».

عُملت في بعضِ القلالي أغابي، وتفسيرُها المحبة، وتقال بلغة القبط إفراشي، وتفسيرها الفرح، وجلسوا يأكلونَ، وكان بينهم أخٌ لا يأكلُ طبيخاً، فقال أحدُ الإخوةِ للخادمِ: «إنَّ ههنا أخاً لا يأكلُ طبيخاً قط، وهو يريدُ قليلاً من الماءِ والملح». فرفع الخادمُ صوتَه ونادى خادماً آخرَ وقال له: «إن الأخَ فلان لا يأكلُ طبيخاً، فأحضر له قليلاً من الماءِ والملح». فقام أحدُ الشيوخِ

عن المائدةِ وقال له: «لقد كان خيرٌ لك لو جلستَ في قلايتك وأكلتَ لحماً، من أن تَصدر عنك هذه القضيةَ هكذا على رؤوس الملأ».

قال أحدُ الإخوةِ لقومٍ من الرهبانِ: «هل رأيتم قط أكذَبَ من شقوتي؟»، قالوا: «وما السبب؟»، قال لهم: «إذا أنا وقفتُ أصلي فإني أرفعُ يدي ونظري إلى فوق وأبكي وأقول إنه يسمعَ الطلبةَ ويرحم البكاءَ؛ وفي الوقتِ الذي أخطئ فيه، أقول: إنه لا يراني، وبهذا السببِ نَبَتَ عندي كذبٌ نفسي».

كان لأحدِ المتوحدين في البريةِ خديمٌ علماني يبيع له عملَ يديه، ويُحضر له ما يحتاجه، وكان في المدينةِ بالقربِ منه رجلٌ غنيٌ جداً، ولكنه كان مذمومَ الطريقِ، قليلَ الرحمةِ. وفي أحدِ الأيامِ، سار العلماني إلى المدينةِ كعادتِه ليبيعَ شُغلَ المتوحدِ، فوجدَ جنازةً عظيمةً، والأسقف يتقدمها، وجماعةُ الكهنةِ وكلُّ أهلِ المدينةِ، فاستخبرَ عن ميتِ تلك الجنازةِ، فقيل له إنه فلان الغني كبيرُ المدينةِ، فمشى مع الجنازةِ إلى القبرِ، وكان معهم شموعٌ وبخورٌ بكمياتٍ كبيرةٍ، فعجب لذلك. وبعد أن رجع، أخذ حاجةَ المتوحدِ ومضى إليه، فوجده ملقىً على وجههِ ميتاً، والضبعة تجرُّه من رجليه، فبكى بكاءً مراً، وألقى بنفسِه على الأرضِ وقال: «إني لن أقومَ حتى تعرِّفني هذا الحكمَ، فذلك الغني القليل الرحمةِ، كان له كلُّ ذلك المجدِ والكرامةِ في موتِه، وهذا المتوحدُ الذي لم يزل متعبداً لك ليلاً ونهاراً، تخرجه هذه الضبعةُ هكذا وتجرُّه من رجليه»؟! وفيما هو يقولُ ذلك، ظهر له ملاكٌ قائلاً: «ومن أنت حتى تعارضَ الربَّ وتُعيبَ حكمَه، ولكن لأجلِ تعبك مع هذا المتوحد القديس، وخدمتك له، ها أنا أعرِّفك السببَ. إنَّ ذلك الغني مع قلةِ خيرِهِ، وقلةِ رحمتِهِ، فقد عَمِلَ في عمرِهِ كلِّه حسنةً واحدةً مع الأسقفِ، والربُّ ليس بظالمٍ، فأراد أن يعوِّضه عنها في هذه الدنيا، حتى لا يكون له عنده شيءٌ؛ أما هذا المتوحد القديس، فقد كانت له زَلَّةٌ صغيرةٌ، صنعها في كلِّ عمرِهِ، فجوزي عنها ههنا بهذه الميتة، حتى يكونَ قدام اللهِ نقياً»، فنهضَ الرجلُ شاكراً اللهَ، قائلاً: «عادلةٌ هي أحكامك».

من أقوالِ مار أفرام: يا أخي تفكَّر بأنَّ ربوات الأقوال نهايتها السكوت، محبُ السكوتِ لا يتألم بشيءٍ من أمورِ الدنيا. أحب الناسَ يا من لا يحبُّ شيئاً لما هو للناسِ. أيها الحبيب اتخذ الصمتَ، فإنه يريحك من أدناسٍ كثيرةٍ، اقطع بحكمةٍ الأحاديثَ الضارةَ، ليكون الإنسانُ الباطن

حسناً. إذا رأيتَ نفسَك منصدة عن الأقوال الإلهيةِ، متهاونةً بالمواعظِ الروحانيةِ، وتحب الخلطةَ ومحادثةَ الناسِ، فاعلم أن نفسَك قد سقطت في مرضٍ رديءٍ، فاحرص أن تجعل حديثَك مع الربِّ وحده، اسقِ نفسَك المياه الإلهية فتزهر، وتثمر ثمرَ العدلِ.

بدءُ الصالحات وكمالها هو حدُّ الاتضاعِ بمعرفةٍ حقيقيةٍ، لأن المعرفةَ مقترنةٌ بالمتواضع، الإنسانُ مصنَّفٌ من نفسٍ وجسدٍ، إن لم يستعمل الجسدُ خبزاً فلن يعيشَ، كذلك النفسُ إن لم تتغذَّ بالصلاةِ والمعرفةِ الروحانيةِ، فهي مائتةٌ.

إذا ضُربَ البوقُ يستعدُ الجيشُ للحربِ، ولكن في أوانِ الجهادِ، لا يكونُ الكلُّ محاربين، كثيرون رهبانٌ بزيهم، وقليلون هم المجاهدون. في وقتِ التجربةِ يظهرُ تدريبُ الراهبِ وخبرته. الطبيبُ الحاذقُ، من تجربةِ الآلام صار مدرَّباً. يا أخي في كافةِ أعمالِك تذكَّر أواخرك فلا تخطئ أبداً.

من يُكثر أقوالَه، يُكثر لنفسِه الخصومات والبغضاء، ومن يحفظ فمَه يُحَبُّ. إن أحببتَ الصمتَ، ستقطعُ سفينةُ حياتِك مسيرَها بسكوتٍ. إن تهاونتَ بالأشياءِ الباليةِ، تنال الأشياءَ التي لا تبلى. ليكن عقلُنا إلى فوق، لأننا بعد مدةٍ يسيرةٍ ننصرفُ من ههنا، فالأشياءُ التي جمعناها، لمن تكون؟ بغير طينٍ لا يُبنى البرجُ، وبغيرِ معرفةٍ لا تقومُ فضيلةٌ. مَسكُ البطنِ وصيانةُ اللسانِ، ولجامُ العينين، هي طهارةٌ للجسدِ. فإن أمسكتَ بطنَك، وصُنتَ لسانَك، ولم تحفظ ناظريْكَ ألاَّ يطمحا، فلستَ ممسكاً بالطهارةِ بالكاملِ. بمقدارِ ما للتواني من مضارٍ، بمقدارِ ما للتيقظِ من منافع تسبب كلَّ صلاحٍ، لأن المتيقظَ في كلِّ حينٍ، ذِكرُ اللهِ حاضرٌ عنده، وحيثما يتلو ذِكرَ الله، تكفُّ كلُّ أفعالِ الخبيثِ.

مثلُ الماءِ للسمكِ، هكذا السكوتُ للراهبِ، بتواضعِ لبٍّ ومحبةٍ. ومن يشاءُ أن يعيشَ في كلِّ موضعٍ عيشةً سلاميةً، فلا يطلب نياحَه، بل نياحَ رفيقِه بالربِّ، فيجدَ النياحَ. إن شئتَ ألا تخطئَ، احفظ مخافةَ اللهِ. ليخطر ببالِك أن القديسينَ كلَّهم بمكابدةِ الآلام، أرضوا اللهَ. لأن الأحزانَ والمحن هي موافقةٌ للإنسانِ، لأنها تجعلُ النفسَ مختبرةً وصلبةً منتظرةً بإيمانٍ لا ارتيابَ فيه، الفداءَ من لدن المسيح ورحمته. الراهبُ العاجزُ لا ينفعُ لا لذاتِه، ولا لقريبِه، وغيرُ العاجزِ يستنهضُ المتوانين جداً إلى الفضيلةِ.

تفهَّم يا أخي أنَّ من أجلِك أَقبلَ من السماء الإلهُ الأعلى والأقدس، ليرفعكَ من الأرضِ إلى السماءِ. مغبوطٌ في ذلك اليومِ، الذي قد حرص من ههنا، كي يوجَدَ مستحقاً لتلك السعادةِ، وإذ أنه لا يمكن أن تُباعَ الأدويةُ السماويةُ والقدسيةُ، لأن ما لها ثمنٌ، ولكن بالدموعِ توهبُ للكلِّ. تُرى مَن لا يعجب ومن لا يُذهل، من لا يبارك كثرةَ تحننِك أيها المخلص لنفوسِنا، لأنك ارتضيتَ أن تأخذَ الدموعَ عوض أشفيتك، فيا لقوةِ الدموعِ! إلى أين بلغتِ؟! حتى إنكِ تدخلين إلى السماءِ بمجاهرةٍ كثيرةٍ بلا مانعٍ، وتأخذين طلباتك من الإله الأقدسِ.

يا أخي، أحضر إلى ذهنِك النارَ التي لا تُطفأ والدودَ الذي لا يموت، ففي الحالِ يَخمُد التهابُ الأعضاءِ، لئلا تسترخي وتُغلب، وتدركك نارُ حزنِ الندامةِ، وتعتادَ أن تخطئَ فتندم. اقتنِ صرامةً منذ الابتداءِ مقابل كلِّ شهوةٍ، لئلا تُغلب لها، ولا تتعود الهزيمةَ في الحربِ، لأن العادةَ طبيعةٌ ثانيةٌ، لأن اعتياد الهزيمةِ لا يُبيِّن أن هناك صرامةً وشهامةً، بل كلُّ حينٍ يبني وينقض، وفي كلِّ وقتٍ يُخطئ ويندم. أيها الحبيب، إن اعتدتَ أن تتراخى إن قوتلتَ، فسوف يكونُ تسطيرُ كتابةِ ندامتِك لا يُمحى إلى الأبدِ. من اعتادَ أن يُغلب لبعضِ الشهواتِ، فذاك يصيرُ موبَّخاً كلَّ وقتٍ من ضميرِه، فتحرز بكلِّ نفسِك من الخطرِ، حاوياً في ذاتِك المسيحَ في كلِّ وقتٍ، لأن المسيحَ هو للنفسِ حلاوةٌ لا تموت، فله المجد إلى الأبدِ آمين.

من أقوالِ مار إسحق: «برُّ المسيحِ عَتَقَنا من برِّ العدالةِ، وبالإيمان باسمِهِ تخلَّصنا بالنعمةِ مجاناً بالتوبةِ. لا تثبت مع أيِّ فكرٍ كان، حتى ولو كان حقيراً، لئلا تتأسسَ فيك عاداته، واضطرارُ العادةِ يجعلُك عبداً لذاك الألم. المتوحدُ الذي يخدمُ الآلامَ، هو تلميذٌ للآلامِ، واضطرار عادة معلمِهِ، تغصبه ليكونَ كمثلِ معلمِهِ بغير إرادتِهِ، حسب الكلمةِ السيدية. كلُّ ملكٍ ولو أنه حقيرٌ، لكنه فاتكٌ في بلدِهِ وقويٌ، وكلُّ ألمٍ ولو أنه حقيرٌ، ولكن في بلدِهِ يُظهر سلطانَه. العاداتُ تشجعُ الآلامَ، والأعمالُ تؤسِّسُ الفضيلةَ. سلاحُ الآلامِ والفضائلِ هو تغيير العوائد والخاصيات، فالعوائدُ تطلبُ ما يُقدم لها، وهي رباطاتُ النفسِ، وبالسهولةِ تقتنيها وبصعوبةٍ تنحلُّ منها.

إن الآلام والفضائلَ التي لم تؤسَّس بالاعتيادِ مدةً من الزمنِ، فهي كالشجاع العاري من سلاحِه. لا تترك عادةً تتأسس فيك، وتزيدُ الأفكارَ بغير قيامٍ، لئلا تتجدد فيك الآلامُ التي قد هدأت قليلاً. الأنواعُ والعوائدُ التي قد عتَّقت في الإنسانِ، تُكمِّل له موضعَ الطبعِ. كلُّ عادةٍ إذا

سلَّمتَ لها باختيارِك، تجد لها في الآخرِ سيداً، تسير قدامه مضطراً بغير اختيارك. الهذيذُ بأمورٍ كثيرةٍ، غذاءٌ للنفسِ، سواءً كان صالحاً أم طالحاً أم خليطاً منهما. الهذيذُ بالواحدِ هو الانحلالُ من الكلِّ، والانحلالُ من الكلِّ هو الارتباطُ بالواحدِ. الطبعُ المخلوقُ الميال، إذا بَطُل من العملِ اليميني، لا يثبت هادئاً، بل يرجع إلى الأمورِ اليسارية. البطّالُ من الاهتمام بالفضيلةِ، والتسير بها، بتخيل الخطيةِ يهذي. ذاك الذي لا يريد أن يعملَ البرَّ، فيضطر أن يفعلَ أفعالَ الإثمِ».

وقال أيضاً: «الإنسانُ الذي يُغصبُ ذاتَه دائماً، ليتدبَّر بمقتضى حكم النيةِ، لن يخطئَ بلا توبةٍ. من كان ضميرُه دائماً يهذي بالصالحاتِ، لا ينظرُ إلى نقائصِ قريبِه. الذي يُعَوِّد لسانَه ليقولَ الصالحات على الأخيارِ والأشرارِ، يملكُ السلامُ في قلبهِ سريعاً. الذي فَرَشَ مراحمَه بلا تمييزٍ على الصالحين والأشرارِ، بالشفقةِ، فقد تشبَّه باللهِ. الذي يُبغضُ صورةَ اللهِ، لا يمكن أن يكونَ محبوباً من اللهِ.

من يغلبُ دائماً خُلُقَ مشيئتهِ، فهو مجاهدٌ نشيطٌ، والنعمةُ تفعلُ به بزيادةٍ. الذي يُحكَمُ عليه مرةً ويُلام من نيتهِ، ولا يُقوِّم نوعَ عوائدِه، ترتفع منه النعمةُ ويُترك في التجاربِ ويتبهدل. الذي قد أحسَّ بالراحةِ التي من محقرةِ الذات، أخيَر من الذي وجدَ تكريماً من تاجِ المملكةِ. الذي قد ضُرِبَ بحبِ المديحِ والكرامةِ من الناسِ، ليس لجُرحهِ شفاءٌ، حتى ولو كان بأعمالِ سيرتهِ يقوِّم كثيرين، ففي العالمِ المزمعِ، يكون تدبيرُ سيرتِه مبكِّتاً له بعذابِ الجحيمِ. من كانت في كلِّ وقتٍ طرقُ سيرتِهِ منحلةً، فإن ضميرَه بعيدٌ من الإله، ومن كان قلبُه غيرَ منسحقٍ، وغيرَ محزونٍ، فلن يُعتقَ من الطياشةِ. من زلَّ وأخطأ، وعرف سببَ مرضِهِ، فإنه بسهولةٍ يُشفى بالتوبةِ.

الذي يُصوِّم فمهَ من الغذاءِ، ولا يُصوِّم قلبَه من الحنقِ والحقدِ، ولسانُه في الأباطيلِ، فصومُه باطلٌ، لأن صومَ اللسانِ، أخيَر من صومِ الفمِ، وصومُ القلبِ، أخيَر من صومِ الاثنينِ. من لا ينشقُّ قلبُه بالتحسرِ والتنهدِ، وهو فارغ من صلاةِ الدموعِ، وعادمٌ من القراءةِ، فهو سائرٌ في التيه، لأنه إذا أخطأ فلن يحسَّ. إنَّ الذي يمزجُ قراءته بالتدابيرِ والصلاةِ، يُعتقُ من الطياشةِ.

قوتُ الجسدِ المآكلُ، وغذاءُ النفسِ الكلامُ والحكايات. وكما أن شَرَه كثرةِ الحكايات، هو رغبةُ النفسِ، هكذا السكوتُ هو ثمرةُ الحكمةِ المزمعةِ. من يزيل من ضميرِه هفوات قريبِه، يزرع السلامَ في قلبهِ. الساذجُ الحكيمُ باللهِ، أخيَر من الفهيم الغاش بضميرِه. الذي استعبد بطنَه

ولسانَه، أخيَر من الذي استعبد الأسدَ. والذي قَمَعَ الكلمةَ في قلبِه، أخيَر من الذي طَمَرَ وزنتَه في الأرضِ. الإنسانُ العادمُ من الصلاةِ، ويجادلُ على الفضائلِ، لا فرقَ بينه وبين الأعمى العادم النورِ، ويجادلُ على حُسنِ الفصوصِ الكريمةِ، والألوان الكثيرةِ. الذي يماحك قبالةَ التأديبِ تبعد عنه المراحم الأبويةِ. الذي يتذمَّر مقابل التجاربِ، تتضاعف عليه. الذي لا يتأدب ههنا، ويمقت التجاربَ، يتعذَّب هناك بلا رحمةٍ. العادم من الأصدقاءِ المغرورين، عادمٌ من الضنكِ. من يصالحُ نفسَه، أخيَر ممن يصالح شعوباً، وهو مُغضَبٌ منقسمٌ على ذاته.

كما أنه لا يمكن أن تتعلمَ الصنائعَ من حكمةِ الكلامِ، هكذا لا يمكن أن تتعلمَ الفضائلَ التي للسيرةِ من قراءة الكتبِ وحِدَّةِ الحركات ودِقة الفهم، من دونِ تجربةٍ طويلةٍ بذواتنا، نستطيع بهما احتمال فلاحة الأعمالِ. أبله يصنع صناعة البحريةِ من ذاته، أخيَر من عارفٍ يتعلم سيرةَ الروحِ من أسطرِ الكتبِ، وبالتسليم من آخرين، من غير تجربةٍ محكمةٍ بذاته. الذي يعمل التوبة ويفلح في النسكِ بل وفي ممارسةِ الأعمالِ والفضائلِ، ولكنه يتكل على برّه، لا على النعمةِ، فهذا لا فرقَ بينه وبين من يجمع حجارةً (ليفرقها). هناك مَن صومُهُ أبعَدَه من الحقِّ، وآخر بنسكه، وآخر بتجرده، وآخر بسهره، وآخر بعمله، وآخر بصدقتِه، وآخر باحتماله، وآخر بكمال أعماله الإلهية، وكم نريد أن نقول، لأن ربنا جزم: بأنه من دوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً، أي بالهدوء وتواضع القلبِ اللذين بهما أنا غلبتُ العالمِ».

قال شيخٌ: «لا تطلب حوائجَ كثيرةً، لأنك عاهدت المسيحَ أن تعيشَ معه بالفقرِ، لأن المسيحَ هو حياةُ النفسِ، وكلُّ من اقتناه في قلبِهِ وفي فكرِهِ وكلِّ تصرفاته بامتدادِ عقله إليه، فهو ذاك الذي ينجحُ في سيرةِ هذا العمرِ، وينال الحياةَ التي لا تزول».

وقال أيضاً: «من يخافُ من مرضِ الجسدِ، فهو عادمُ الفضيلةِ، وإذا عُتِقَ بالكمالِ من الآلام، فحينئذ يسيرُ بغيرِ مانعٍ. القلبُ النقي ينظرُ كلَّ الناسِ أطهاراً، وهو وحده النجس. كن ملازماً للمشايخ الروحانيين، وتعلَّم سيرتهم وابعُد عن الأحداث والصبيان. أحبَّ السهر فإنه ينقي العقلَ، ولا تظن في نفسِك، أنك تنالُ سيرةً فاضلةً، أو خلاصاً لنفسِك بغير تعبٍ. لا تضعف عن مقاومةِ التجارب التي توافيك، بل اطلب من اللهِ المعونةَ. قد سمعنا اللهَ يقول: أنا معكم فلا تجزعوا، ومن ذلك تحققنا أنه ليس بقوتِنا نقاتِلُ، بل بقوةِ اللهِ الذي ألبسنا سلاحَ الظفر وأعطانا

الروحَ القدس.

الضجرُ إنما يعرض لنا من أن خوفَ اللهِ لم ينغرس بعدُ في فكرنا، ولم ننسَ إلى الآن أكلَ خبزِنا من صوتِ تنهدنا. فحبُّ الجسدِ، لا يدع عقولنَا تسيُر إلى فوق. إذا لم تتحرك الأوجاعُ على الإنسانِ، فلن يكونَ مجرَّباً. النسيانُ هو هلاكُ النفوسِ، وقد يكون من التهاونِ. تحفَّظ من النظرِ والحديثِ، لأنهما أسبابُ الخطيةِ. النوحُ يغسلُ الخطايا، وبتعبٍ كثيرٍ يصلُ الإنسانُ إليه، إذ لا يأتي البكاءُ إلا بكثرةِ الهذيذ، وبذكرِ الموت، والدينونةِ المرهوبة، والعذابِ الدهري، وأن تكفرَ بنفسِك وتقطعَ هواك وتحمل الصليبَ».

من أقوالِ أنبا برصنوفيوس: «كلُّ شيءٍ من أمورِ العالمِ هو فانٍ وليس بشيءٍ، فاسبق وصوِّر الله بين عينيك، وكن حريصاً في أن تتوبَ، لأن زمانَك في هذا العالمِ قليلٌ. كن وديعاً بقلبك واذكر الخروفَ الوديعَ وكم صبر، ورغم أنه لم تكن له خطيةٌ، لكنه احتملَ الشتمَ والضربَ وسائرَ الأوجاعِ حتى الموت. اتعب وجاهد ليبعدَ عنك الغضبُ والحردُ بمعونةِ اللهِ الحق، إلهك المسيح الذي أحبك له المجد دائماً إلى الأبدِ آمين».

وقال أيضاً: لا تنم يا أخي، لئلا يفوتك القائل: «هو ذا الختن قد أقبل، اخرجن للقائِه». وكيف تستطيع أن تقول في ذلك الوقتِ إني مشغولٌ، وهو قد صيَّرك بلا همٍّ، ولكنك تلقي بنفسِك في الهمومِ، فلن ينتظرك الزمانُ لتنوحَ على خطاياك. انتقل بفكرِك من هذا العالمِ البطال إلى العتيد. اترك الأرضيات واطلب السماويات. مت بالكمالِ لكي تحيا بالتمامِ بالمسيح يسوع ربنا. كلُّ من لا يحتمل المحقرةَ والتبكيتَ والإهانةَ، فإن الإنسانَ العتيقَ لا زال حياً فيه بعد. إن أردتَ أن تتلذذَ بنِعمِ اللهِ، احرص بكلِّ جهدِك على أن تُبعدَ عنك كلَّ لذةٍ جسديةٍ. إنسانٌ ساكتٌ، يجبُ عليه ألا يحسبَ نفسَه شيئاً. إن زلَّ الجاهلُ في كلامِه فهو معذورٌ من الكلِّ، وإن زلَّ الراهبُ فلن يقدرَ أحدٌ أن يعذرَه.

من أقوال الأنبا أوغريس: «من يقول إنه قد اقتنى فضيلةً بغيرِ جهادٍ، فهو إلى الآن ممسوكٌ في الآلامِ، لأن شرَّ الأعداءِ هو قبالة أتعابِ الفضيلةِ، والقلبُ الذي ليس به قتالٌ، ليست فيه فضيلةٌ ولا شجاعةٌ. وكما أنَّ الإنسانَ البراني يعملُ شغلَ اليدِ كي لا يحتاج، هكذا الجواني يعملُ لئلا يثقل العقل، لأن الأفكارَ إذا وجدت النفسَ بطالةً من تذكارِ اللهِ، حينئذ يُذكِّروها بالأفعالِ

الرديئةِ. الوديعُ ولو صنعوا به الشرَّ، فلن يتخلى من المحبةِ. الذي ليس فيه قنيةٌ، له حياة بلا اهتمامٍ، أما المحبُ القنية، فله تنغيصٌ في قلبهِ، الذي هو الاهتمام.

لا تنسَ أنك أخطأت، حتى ولو أنك قد تُبتَ، بل اجعل النوحَ وتذكارَ الخطيةِ اتضاعاً لك، لكي بالاتضاعِ تتقي الكبرياءَ. اختم بابَ أتعابك بالصمتِ، لئلا يقلعه اللسانُ، فينتج المجدُ الفارغ الذي ينزعها. كما أنك تُخفي خطاياك عن الناسِ، كذلك أخفِ أتعابك أيضاً، فإن كنتَ للهِ وحده تُظهرُ نقائصَك، فلماذا تُظهرُ للناسِ تلك الأتعابَ التي تصنعها لأجلها، بقلةِ رأيٍ. ممدوحٌ هو الإنسانُ الذي يربطُ النسكَ بالفهمِ، لكي تُروى النفسُ من هذين النوعين، وتُظهر النسك بقتلِ الاعضاءِ التي على الأرضِ، أعني: الزنى والنجاسة والأغراض الشريرة. إنَّ من كان همُّه في تذكارِ الموتِ، فذلك يهديه بخوفِ اللهِ. الذي يجمعُ كلامَ الكتبِ المقدسة إلى قلبه، يُلقي الأفكارَ براحةٍ، لأننا نحتاجُ إلى أتعابٍ كثيرةٍ لكي نقطعَ كمالَ الأفكارِ».

قيل عن أنبا يحنس الذي كان من أسيوط، إنه أقام ثلاثين سنةً في مغارةٍ، ضابطاً السكوت، والبابُ مختومٌ عليه، وكانوا يعطونه حاجتَه من طاقةٍ، والذين كانوا يأتون إليه، كان يكتب لهم ويعزيهم. فحدث مرةً أنَّ أربعةَ لصوصٍ نظروا كثرةَ الجموعِ التي كانت تأتي إليه، لأنَّ اللهَ قد منحه موهبةَ الشفاءِ، فظنوا أن عنده أموالاً في مغارتِهِ، فأتوه بالليلِ لينقبوا بابَ المغارةِ، فضُربوا بالعمى جميعاً، وبقوا هكذا واقفين خارج المغارةِ إلى الصباحِ، حيث أتى الناسُ وأمسكوا بهم، وأرادوا أن يسلموهم للوالي فيقتلَهم، فتكلم معهم القديس قائلاً: «إن لم تتركوا هؤلاء الناس، فنعمةُ الشفاءِ تذهب عني»، فتركوهم، وهذه هي الكلمةُ الوحيدةُ التي خرجت من فمِهِ خلال مدةِ الثلاثين سنةً.

قال أخٌ لشيخٍ: «أجيدٌ هو أن أُمجِدَ أخي؟»، فقال له الشيخُ: «إنَّ السكوتَ أفضل». ثم قال له: «لو أنك ملأتَ جرةً بحشراتٍ ضارةٍ، وسددتَ فوهتها، ألا تموت جميعُها؟ ولكنك لو تركتَ فوهتها مفتوحةً، فإن الحشراتَ سوف تخرجُ وتضرُّ من تصادفه، هكذا الذي يسكتُ، فجميعُ الأفكارِ الرديئةِ التي داخل قلبه تموتُ».

قال شيخٌ: «إنَّ اللسانَ مملوءٌ ناراً، وهو يُدنسُ جميعَ الجسدِ، فالذي يحبُ حياتَه، فليشفق على لسانِه، احرس شَفَتيك يا رجل اللهِ، والجم لسانك كي تنتفعَ بجميعِ أتعابك، فالذي يحفظ

لسانه، له كراماتٌ كثيرةٌ، فطوبى لمن يسود على لسانهِ، فإنَّ أهراءَه تمتلئ من الخيراتِ».

حدَّثوا عن عذراءٍ حرةٍ عفيفةٍ هادئةٍ في منزلها، فأحبها شابٌ رديءٌ، ولم يكن يكف عن الترددِ على منزلها، فلما شعرت العذراءُ بتردده وقتاله، شقَّ ذلك عليها جداً وحزنت. فحدث في يومٍ من الأيامِ أنه جاء كعادتِهِ يدقُّ البابَ، وكانت العذراءُ حينئذ جالسةً على المنسج، فلما علمت أنه هو الذي يدقُّ على البابِ، خرجت إليه ومعها كركدنها (أي مخرازها)، وقالت له: «ما الذي يأتي بك إلى ههنا يا إنسان؟». فقال لها: «هواكِ يا سيدتي». فقالت: «وما الذي تهواه مني؟»، فقال لها: «عيناك فتنتاني، وإذا أبصرتُك يلتهبُ قلبي»، فجعلت مخرازها في إحدى عينيها، وقلعتها بصرامةٍ ورمتها له، وشرعت في قلعِ الأخرى، فأسرع الشابُ وأمسك بيدها، فدخلت إلى منزلِها وأغلقت بابَها. فلما رأى الشابُّ أن عينها قد قُلعت حزن جداً، وندم على ما كان منه، وخرج إلى البريةِ من ساعته وترهب.

قيل إنه لما نُهب بيتُ المقدس، وقعت عذراءٌ راهبةٌ شابة جميلة في قسمِ أحدِ الفرسان، الذي أراد إفسادها. فقالت له: «تمهَّل قليلاً لأن بيدي مهنةً تعلمتُها من العذارى، ولا تصلح لعملِها إلا عذراء، وإلا فلا نفع لها». فقال لها: «وما هي؟»، فقالت له: «هي دُهنٌ، إذا دُهِنَ به إنسانٌ، فلن يؤثرَ فيه لا سيفٌ ولا أيُّ نوعٍ من الأسلحةِ البتة، وأنت تحتاجُ إلى ذلك، لأنك في كلِّ وقتٍ تخرجُ للحربِ». فقال لها: «وكيف أتحقق ذلك؟»، فأخذت زيتاً ووجَّهت إليه الكلامَ قائلةً: «ادهن رقبتَك، وأعطني السيفَ كي أضربَك به». فقال لها: «لا، بل ادهني أنتِ رقبتَكِ أولاً، وأنا أضربُ بالسيفِ»، فأجابته إلى ذلك ببشاشةٍ، وأسرعت فدهنت رقبتَها وقالت: «اضرب بكلِّ قوتِك». فاستلَّ سيفَه، وكان ماضياً جداً، ومدت القديسةُ رقبتَها، وضربَ بكلِّ قوةٍ، فتدحرج رأسُها على الأرضِ، ورضيت عروسُ المسيحِ أن تموتَ بالسيفِ، ولا تدنس بتوليتها. فحزن الفارسُ جداً، وبكى بكاءً عظيماً، إذ قتلَ مثلَ هذه الصورةَ الحسنة، وعرف أنها خدعته لتفلتَ من الدنسِ وفعل الخطيةِ.

قيل عن شيخٍ إنه كان جالساً في البريةِ سنين كثيرةً، وكان يُتعِبُ نفسَه بأتعابٍ كثيرةٍ، فلما رآه الإخوةُ هكذا، قالوا له: «لماذا تعاني هذه الأتعابَ الكثيرةَ، في هذا الموضعِ القفر»؟ قال لهم الشيخُ: «هل رأيتم عذابَ جهنم؟»، قالوا له: «لا»، فقال لهم: «اغفروا لي، فإن هذا التعبَ

جميعَه الذي نكابده ههنا، لا يعادلُ عذابَ يومٍ واحدٍ في جهنم».

قال شيخٌ: «الدلالُ والمزاحُ والضحكُ، هذه تُهلك، إذ تُشبه ناراً تشتعلُ في قصبٍ».

وقال شيخٌ: «إن السيرةَ اليابسةَ المقرونةَ بالمحبةِ، تُدخل الراهبَ إلى ميناءٍ غَلَبَةِ الآلامِ بسرعةٍ».

قال أنبا بيمين: «من أدلةِ الرهبانيةِ الشدةُ والمسكنةُ والمعرفةُ، لأنه مكتوبٌ عن هؤلاءِ الثلاثة رجال: نوح وأيوب ودانيال، إن نوحاً يشبه المسكنة، وأيوبَ يشبه الشدة، ودانيال يشبه المعرفة، فإن كانت هذه الخصال الثلاثة موجودةً في إنسانٍ، فالله ساكنٌ فيه».

وقال أيضاً: «إنه لأخيَرَ للراهبِ أن يفرَ من الجَسَدانيات، لأنه ما دام الإنسانُ قريباً من الجَسَدَانيات، فإنه يشبه إنساناً جالساً عند فوهةِ جبٍّ عميقٍ، ففي أيِّ ساعةٍ أراد العدو دفعَه فيه، هان عليه طرحُهُ فيه، أما إذا كان الراهبُ بعيداً عن الجسدانيات، فإنه يشبه رجلاً بعيداً عن الجبِّ، ففي الوقتِ الذي يعملُ العدو على جرِّه إليه، يكونُ اللهُ قد بعث إليه بمن يخلِّصه».

سأل أخٌ شيخاً: «هل تحبُ يا أبي أن أحبسَ لنفسي دنانيرَ فتكونَ عندي لئلا يصيبني مرضٌ». فلما رأى الشيخُ أن فكرَه قد هوى إمساكَ الدنانير، قال له: «نعم». فلما مضى، أزعجته أفكارُه قائلةً له: «أترى بحقٍ قال لك الشيخُ أم لا»؟ ثم قام أيضاً، ورجع إلى الشيخ وطلب إليه قائلاً: «من أجلِ اللهِ، قل لي الحقَّ، لأن أفكاري تحزنني جداً من أجلِ الدنانير». فقال له الشيخُ: «إني لما أبصرتُ أنك تحبُّ إمساكَ الدنانير، قلتُ لك أمسك أكثرَ من حاجتك، أما إن أمسكتَ بالدنانير، فسوف يكون رجاؤك عليها، فإن هي نفذت، فإن اللهَ لن يهتمَ بك ولن يعينك».

قال أنبا ماطوايس: «إني أحبُ العملَ الخفيفَ الدائم، أكثرَ من عملٍ شديدٍ في بدئه، لا يلبث أن ينقطعَ سريعاً».

قال أنبا بيمين: «علامةُ الراهبِ إنما تُعرف من البلايا».

سأل أخٌ شيخاً قائلاً: «أيَّ شيءٍ أصنعُ، فإن أفكاراً كثيرةً تقاتلني، ولستُ أدري كيف أقاتلها»؟ فقال له الشيخُ: «لا تقاتل مقابلَ الكلِّ دفعةً واحدةً، ولكن قاتل واحداً، لأن أفكارَ

الراهبِ إنما لها رئيسٌ، فاجعل بالَك إلى رئيسِها، ونحوه اجعل قتالَك، فإذا هزمتَ ذلك الفكرَ، فقد انهزمت البقيةُ».

قال شيخٌ: «كما أن الفارسَ إذا خرج للقتالِ لا يهتمُ بأحدٍ من الناسِ، ولا يفكرُ إن كان هذا قد طُعِنَ أم ذاك، أو إن كان هذا قد خلص أو ذاك، وإنما همُّه كلُّه يكون في نفسِه كيف يخلص، هكذا ينبغي أن يكونَ الراهبُ».

عبر راهبٌ براهبٍ، فقال له: «ما هو تمامُ الحكمةِ؟»، فأجابه: «ليس الحكيمُ التامُ هو ذاك الذي يفرحُ بشيءٍ من لذاتِ هذه الدنيا، أو يحزنُ بشيءٍ من مصائبها أو يغتمُّ به، وإنما الحكيمُ التامُ هو ذلك الذي لا تُفرحه السراءُ، ولا تحزنه الضراءُ، بل يكون عارفاً الابتداء، وما يؤول إليه الانتهاءُ».

حدَّثنا أحدُ الآباءِ قائلاً: إني في بعضِ الأوقاتِ كلَّمتُ الإخوةَ كلاماً نافعاً، فغرقوا في النومِ غرقاً، انتهوا فيه إلى أنهم ما استطاعوا أن يحركوا جفونَهم، فأردتُ أنا أن أبينَ فعلَ الشيطانِ، فأوردتُ حديثاً باطلاً، فانتبهوا للوقتِ وفرحوا، فتحسرتُ وقلتُ: «إلى هذا الوقتِ كنا نتكلم في أشياءٍ سماويةٍ، فكانت أعينُكم كلُّكم غارقةً في النومِ، فلما أوردنا أقوالاً باطلةً، قمتم كلُّكم بنشاطٍ، فلهذا أسألكم يا إخوتي، أن تعرفوا فعلَ الشيطانِ الخبيثِ، وتصغوا إلى أنفسِكم، محترسين من النعاسِ، متى علمتم وسمعتم شيئاً روحانياً».

أخبروا عن راهبين قديسين، كانا أخوين وسكنا البرية، فحرص الشيطانُ على أن يُفرِّقَ بينهما، ففي بعضِ الأيامِ أوقدَ الصغيرُ منهما سراجاً ووضعه على منارةٍ، وبحيلةٍ من الشيطانِ وقع السراجُ وانطفأ، فحينئذ حرد الكبيرُ وضربه، فصنع الصغيرُ له مطانيةً، وقال له: «لا تضجر يا أخي، طوّل روحَك عليَّ، وأنا أوقدها مرةً أخرى»، فلما أبصر الربُّ صبرَ الأخِ، عذَّبَ ذلك الشيطانِ إلى الصباحِ، ثم ذهب ذلك الشيطانُ فأخبرَ رئيسَ الجنِّ بما كان، وكان كاهنُ الأوثانِ، الذي يخدمهم موجوداً، فلما سمع هذا الكلامَ، ترك كلَّ شيءٍ وآمن وترهبَ؛ ومن بدء رهبانيته، كان يستعملُ الاتضاعَ الكاملَ، وكان يقولُ: «إنَّ الاتضاعَ يقدرُ أن يقهرَ ويحلَّ ويُبطلَ كلَّ قوةِ العدو، وقد سمعتهم يقولون بعضُهم لبعضٍ: إنه كلما ألقينا السجسَ بين الرهبانِ، نجدهم يتلقونه بالاتضاعِ، ويعمل بعضُهم لبعضٍ مطانيات، فكانوا بذلك يُبطلونَ قوّتنا».

أخٌ من الإخوةِ سأل شيخاً وقال: «يا أبتِ أعني فقد أهلكتني أفكارُ الزنى؟»، فقال له الشيخُ: «يا ابني، إن كنتَ تستطيع، فلا تترك الفكرَ يسكن عندك»، قال: «وكيف أستطيع ذلك يا أبتِ؟»، قال: «كلما بدأ الفكرُ، فلا تدعه يصعد إلى دماغك، بل ألحقه بذكرِ الموتِ، وخوفِ الله، واذكر نَتنك، وكيف تصيرُ في القبرِ، لأن هذا الفكرَ الرديء، إن غَلب الإنسانَ يقوده إلى قطعِ الرجاءِ واليأس من الخلاصِ، وكمثل السفينةِ التي تصدمها الأمواجُ، والعواصفُ الشديدةُ، وأهوالُ البحرِ، فإن أنزل عنها قدراً من الرملِ أو مما تحملُ ليخفَّ حملها، فإنها لن تعطبَ سريعاً، بل تسبح، وإن انكسرت قربتُها أو شيءٌ منها، فلا زال لها أملٌ صالحٌ في السلامةِ. أما إن أصيبت بثقبٍ من أسفلِها، وامتلأت ماءً، فقد عطبت. هكذا تكون حالُ الراهبِ، فإنه إن توانى قليلاً في بعضِ الأشياءِ، فهو يؤمل أن يغلبَ بالتوبةِ، أما إن سقطَ دفعةً واحدةً في الزنى، فقد عَطِبَ ويوشِكُ أن يُقادَ إلى اليأسِ في هذا الغرقِ».

قال أحدُ الآباءِ: «إن لم تهزّ الريحُ الشجرةَ، فلن تنشأ لها أغصانٌ، ولن تنمو فروعُها، هكذا الراهبُ إن لم تنله محنٌ، فيصبر شاكراً، فلن يصيرَ متجلداً ولا شجاعاً».

سأل أحدُ الإخوةِ شيخاً وقال: «ما هي فِلاحةُ النفسِ؟»، فقال الشيخُ: «إنَّ فِلاحةَ النفسِ هي السكوتُ، وضبطُ الهوى، وشقاءُ الجسدِ، والصلاةُ الكثيرةُ، والامتناعُ عن معاتبةِ زلاتِ الناسِ، وتأمل الإنسان في هفواتِهِ وحده، فمتى ثبت الإنسانُ في هذه الفضائل، فإن نفسَه لا تبطئ في النجاحِ والنمو حتى تثمرَ». ثم سأله الأخُ: «وما هو نجاحُ الراهبِ»؟ فقال: «هو التواضع، لأنه بمقدارِ تواضعه كذلك يكون صعوده إلى علو الفضيلةِ». وسأله كذلك: «كيف تقتني النفسُ الفضيلةَ»؟ فقال: «إذا هي اهتمت بزلاتِها وحدها».

قال أنبا مطايوس: «إن الشيطانَ لا يعرفُ في أيِّ الأوجاعِ تنهزمُ النفسُ، ولكنه يزرعُ، ولا يعلم هل سيحصدُ أم لا؛ إنه يزرع زنىً، ودينونةً، ووقيعةً، وقتلاً، وجميعَ الأوجاعِ والشرِ، فأيُّ وجعٍ يرى النفسَ مائلةً إليه، ففيه يشغلها».

قال قائلٌ من الإخوةِ الرهبان لشيخٍ من الشيوخ: «يا أبي، لستُ أجدُ في قلبي قتالاً»، فقال له: «إنك تُشبه القبةَ المرتفعةَ في وسطِ السوقِ، فكلُّ من أرادَ جازَ تحتها، كذلك قلبك؛ أما إن أغلقتَ بابَ قلبك، ولم تدخله الأفكارُ الرديئةُ، لنظرتَ الأعداءَ يقاتلونك قتالاً شديداً».

سُئل شيخٌ من الرهبانِ: «ما هو الاتضاعُ؟»، فقال: «إنه عملٌ كبيرٌ إلهي، وطريقةٌ متعبةٌ للجسدِ، وأن تَعُدَّ نفسَك خاطئاً، وأقلَ الناسِ كلِّهم»، فقال له الأخُ: «وكيف أكونُ أقلَ الناسِ؟»، أجابه الشيخُ: «ذلك بأن لا تنظرَ إلى خطايا غيرك، بل تنظر إلى خطاياك، كما تسأل الله دائماً أن يرحمَك».

قال أحدُ الإخوةِ لشيخٍ مجرَّبٍ: «قل لي يا أبتاه أمراً واحداً لأحفظَه وأخلصَ به»، فقال له الشيخُ: «إن شُتمتَ فلو أمكنك أن تحتملَ، فذلك من أشرفِ ما يكون»، وقال الشيخُ أيضاً: «كلُّ من استطاع أن يحتملَ محقرةً، أو شتيمةً، أو خسراناً جسدياً، فإنه يخلص».

سأل أخٌ شيخاً: «كيف أعلمُ وأنا في القلايةِ، إن كنتُ قاطعاً لمشيئتي، وكذلك إذا كنتُ بين الناسِ، وما هي مشيئةُ الله، وما هي مشيئةُ الشيطان؟». فأجابه: «أما قطعُ الراهبِ لمشيئته في قلايته، فذلك بتهاونه بالنياح الجَسَدَاني في جميعِ الأحوالِ والأمورِ، أما إذا كان بين الناسِ، فليكن كالميتِ بينهم، أو كالغائبِ عنهم. أما مشيئةُ الله فهي ألا يهلكَ أحدٌ، كما كُتب في الإنجيل، وأن يقبلَ الكلُّ إلى معرفةِ الحقِ، كما قال الرسول بولس؛ وألا يموتَ الإنسانُ وهو خاطئٌ، بل أن يتوبَ ويحيا، كما قال النبي حزقيال، وأما مشيئةُ الشيطان فهي: ثقةُ البارِ بنفسِه، وعدمُ توبةِ الخاطئ عن خطيئتِهِ».

قال أنبا إشعياء: «اكتفوا من القوتِ باليسيرِ الحقيرِ، ولا تطيعوا العدوَ في مشورتهِ في الضيافةِ باللذيذ، الكثيرِ، فقد نهى الربُّ (مرثا) تلك التي أضافته عن الاهتمامِ والقلقِ. ولما أضاف الذين تبعوه، لم يُحضر لهم أصنافاً كثيرةً، وإنما أحضر لهم ما كان حاضراً عند أحدِ التلاميذ. تشبهوا أيضاً بالأرملةِ التي أضافت النبي بما وُجد عندها من الخبزِ والماءِ، ولا تشتهوا الإكثارَ من القنيةِ، من أجلِ ضيافةِ الغرباءِ ورحمة المساكين، فإن هذا أيضاً من خداعِ الشياطين، الذي يقود إلى الاشتغالِ بالاهتمامِ، وإلى السُبح الباطل، فاليسيرُ الحاضرُ ممدوحٌ كفلسي الأرملةِ».

سؤال: «بأيِّ فكرٍ يُخرجُ الراهبُ إبليسَ من قلايته».

الجواب: «إنَّ إبليسَ مثل الراقي، فعلى مثال الراقي الذي يُخرج الحيةَ من عشِها بكلامٍ لطيفٍ، فإذا أخذها فإنه يطوفُ بها ويطرحها في شوارعِ المدينةِ يلاهي بها الناس، حتى إذا شاخت معه، فإما أن يحرقها بالنارِ، أو يغرقها في الماءِ، وعلى هذا المثال يكونُ الراهبُ، إذا سحبته

الأفكارُ وترك قلايته».

سؤال: «كيف ينبغي للراهبِ أن يمارسَ خدمتَه في الترتيلِ وتقديرِ الصوم».

الجواب: «سبيلُه أن لا يعملَ شيئاً يزيدُ على المرسومِ، وذلك لأن كثيرينَ أرادوا أن يزيدوا على ما رُسم لهم، فما استطاعوا فيما بعد أن يعملوا حتى ولو أقل منه».

سؤال: «إن ارتابَ فيَّ أخٌ من الرهبانِ، أتؤثرَ أن أسجدَ له سجدةً؟».

الجواب: «اسجد له سجدةً واقطع ذاتك منه، فإن أنبا أرسانيوس قال: أحب الكلَّ وأنت بعيدٌ عن الكلِّ».

سؤال: «ما هي خطية الوقيعة»؟

الجواب: «إن خطيةَ الوقيعة من شأنها أن لا تتركَ صاحبها يحضرُ قدامَ اللهِ، لأنه مكتوبٌ: إني كنتُ أطردُ مَن كان يعاتبُ صديقَه سراً».

سؤال: «إن ألزمني أخٌ أن أشربَ معه قدحاً من النبيذِ في قلايته، فهل جيدٌ لي أن أذهب معه؟»

الجواب: «اهرب من شربِ الخمرِ، تَسلم سلامةَ الغزالِ من الأوْهاق (أي من حبل الصياد)، وذلك لأن كثيرين بسببِ هذا الأمرِ، اندفعوا إلى السقوطِ بالأفكارِ».

سؤال: «إني أريد أن أستشهد من أجل اللهِ».

الجواب: «من احتمل رفيقَه في وقتِ الشدةِ فذاك قد أصبح داخل أتون الثلاثة فتية».

سؤال: «ما بال الزنى يؤذي الإنسانَ، ويلح عليه كثيراً»؟

الجواب: «لأن الشيطانَ قد عرف أن الزنى من شأنِهِ أن يجعلنا عراةً من الروحِ القدس، واسمع ربنا قائلاً: لا تَثبت روحي في هؤلاء الناس بسببِ كونهم زناةً».

أخٌ من القلالي بلَّ خوصاً، فلما جلس يعمل، قال له فكرُه: «اذهب إلى فلان الشيخ»، فقال هو لفكرِه: «اصبر، سوف تذهب بعد أيامٍ»، فقال له فكره: «فإن متَّ، فكيف تذهب؟ اذهب لتسأله عن الحصادِ»، فرد على فكرِه: «لما يأتي زمانُ الحصادِ»، كما ردَّ على فكرِه قائلاً: «لما أفرغ من هذا الخوصِ المبلول، سوف أذهبُ». ثم عاد فكرُه وقال له: «الهواء طيبٌ اليومَ»،

وإنه من ساعته نهض، وذهب إلى الشيخِ، وكان لهذا الأخِ جارٌ قديس يرى الغيبَ، فلما رآه ذاهباً، صاح به قائلاً: «يا مسبي، ارجع وتعال»، فلما رجع قال له: «ارجع إلى قلايتك»، فحدَّثه بقتالِه كلِّه، وصنع له مطانية، ورجع إلى قلايته، فصاحت الشياطين بصوتٍ عالٍ: «غلبتمونا يا رهبان»، وصارت الحصيرةُ التي كانت تحته تلتهب كلُّها ناراً. ثم بادوا مثل الدخانِ. وهكذا تعلَّم ذلك الأخُ خُبثَ الشياطين وحيلهم من هذا الأمرِ.

قال شيخٌ لأنبا بيمين: «إن رأينا أحدَ الإخوةِ يخطئ، فهل ينبغي لنا أن نبكِتَه»؟ فقال أنبا بيمين: «إني إذا كنتُ ذاهباً لقضاءِ مصلحةٍ ما وعبرتُ عليه ورأيتُه يخطئ، حتى ولو جزتُ بجانبِهِ، فما كنتُ أبكته، لأنه، ولو أنه مكتوبٌ: اشهد بما تراه عيناك، ولكني أقول لكم: إن لم تجسُّوا بأيديكم، فلا تشهدوا. لأنه حدث مرةً أن لعبَ الشيطانُ بأحدِ الإخوةِ في هذا الأمرِ، فنظر وإذا إخوة مع امرأةٍ في خطيةٍ، فلما قام عليه القتالُ جداً، لم يصبر، فذهب إليهم وقال لهم: كفى، حتى متى؟ فبغتةً نظرهم تلاليسَ قمحٍ. فمِن أجلِ ذلك أكررُ لكم وأقول: إن لم تجسُّوا بأيديكم، فلا تبكتوا أحداً».

ذهب أخٌ إلى أنبا بيمين وقال له: «ماذا تأمرني أن أفعله؟»، قال له الشيخُ: «كن صديقاً لمن يحكي عنك بالشرِّ، وهكذا تجيز أيامك بنياحٍ».

قال أنبا زوسيما: إني بينما كنتُ في الدير بمدينةِ صور، جاءنا رجلٌ شيخٌ فاضلٌ. وبينما كنا نقرأ فصولاً مما قاله الشيوخُ، لأن الطوباوي كان يحبُ قراءتها دائماً، ولذلك استثمر منها الفضيلةَ. فاتفق أننا وصلنا في قراءتِنا إلى خبرِ ذلك الشيخ الذي طرقه اللصوصُ وقالوا له: «جئنا لنأخذ جميعَ ما في قلايتك»، فقال لهم: «خذوا ما شئتم أيها الأولاد»، فلما أخذوا جميعَ ما وجدوه مضوْا بعد أن نسوا مخلاةً، فأخذها الشيخُ وجرى وراءهم صارخاً قائلاً: «أيها البنون خذوا مني ما قد نسيتموه في القلاية». فتعجبوا من سذاجة الشيخِ، وأعادوا إليه سائرَ ما أخذوه، وندموا قائلين بعضُهم لبعضٍ: «بالحقيقةِ إن هذا الإنسانَ رجلُ اللهِ». ففي قراءتنا هذا الفصل، قال لي الشيخُ: «هل علمتَ يا أبانا أن هذا الفصل قد نفعني منفعةً كبيرةً»؟ فقلتُ: «وكيف نفعك أيها الأب»؟ فقال لي: «لما كنتُ في نواحي الأردن قرأتُه وعجبتُ من الشيخ، وقلت في نفسي: يا ربُّ أهلني لأن أسلكَ في سبيلِه، يا من أهلتني لأن ألبسَ زيَّه. ولما كان هذا بشوقٍ مني، فقد حدث بعد

يومين أن طرقَ بابي لصوصٌ، فلما قرعوا البابَ، وعلمت أنهم لصوصٌ، قلتُ في نفسي: المجدُ للربِّ والمنة منه. ها قد جاءني الوقتُ لأظهرَ ثمرةَ شوقي. ففتحتُ لهم واستقبلتُهم ببشاشةٍ. وأوقدت السراجَ وبدأتُ أقولُ لهم: لا تُقلقوا ثقتي باللهِ، إني سوف لا أخفي عنكم شيئاً، فقالوا لي: ألك ذهبٌ؟ قلتُ نعم، لديَّ ثلاثة دنانير. وفتحت القفةَ قدامهم، فأخذوا وانصرفوا بسلامٍ».

أما أنا فقد تباحثتُ مع الشيخِ وقلتُ له: «ألم يعودوا كأولئك الذين طرقوا ذلك الشيخ»؟ فقال بسرعةٍ: «لا يغفل اللهُ عن ذلك. لأني ولا هذا اشتهيتُ، أعني رجوعهم»، وقال: «ها شوق الشيخ. فماذا منحه وماذا أعطاه؟ إنه ليس فقط لم يحزن، ولكنه يفرح بالحري كمن استحق هذه الموهبة». وقال دفعاتٍ كثيرةٍ: «إننا في أمسِّ الحاجةِ إلى استيقاظٍ كثيرٍ، وعقلٍ غزيرٍ، نلقى به فنون الشيطان، لأنه يسببِ لنا الانزعاج من لا شيء، ودفعاتٍ بسبب حجةٍ واجبةٍ، كمن قد حَرَدَ بسببٍ واجبٍ في موضعهِ، فهذا الأمرُ غريبٌ جداً، وأجنبيٌّ عن المشتاقين إلى سلوكِ طريقِ اللهِ، حسبما يقول القديس مقاريوس، إذ قال: الحَرَد غريبٌ عن طبقةِ الرهبان، كما أن حزنَ الأخِ أيضاً، غريبٌ عن طريقةِ الرهبانِ».

وقال: «إنني في وقتٍ ما، استحسنتُ مصحفاً (أي إنجيلاً) عند أحدِ النساخِ، الذي كان ماهراً (في النسخِ)، وبعد أن فرغ من نسخهِ، أرسل إليَّ يقول لي: ها قد فرغتُ من نسخهِ، متى تشاء أن أُرسله لتأخذَه؟ فلما سمع أحدُ الإخوةِ ذلك، مضى باسمي إلى الناسخِ، ودفع له دنانير عن نسخهِ وأخذه، ولم أكن أنا عارفاً بذلك، فأرسلتُ أخاً من إخوتي ومعه دنانير، وكتبتُ إلى الناسخِ ليسلِّمَه المصحفَ، فلما تحقق الناسخُ أنه قد لَعب به وخدعه، ذاك الذي سبق فأخذه، انزعج لذلك، وقال: ها أنا ماضٍ إليه لأوبخَه أولاً، لأنه غرَّر بي، وأخذ ما ليس له. فلما سمعتُ بذلك، أرسلتُ إليه أقولُ له: أنت تعلم يا أخي أننا نقتني المصاحفَ كي نتعلمَ منها المسكنةَ، والمحبةَ، والوداعةَ، فإذا كانت فاتحةُ اقتناءِ المصاحف بحردٍ وخصومةٍ، فلستُ أريد اقتناءَه، ولن أحاربَ أحداً، ولن أخاصمه بسبب ذلك، لأن الخصومةَ والمنازعةَ لا تليقُ بعبيد اللهِ، وها أنا قد طرحتُ عني أمرَ هذا المصحفِ، فلا تُقلق الأخَ بسببه بالكليةِ. ولما تذكرتُ حالَ الشيخِ الذي كان الأخُ جارهُ يسرق ما يجده له، وأنه علم ذلك ولم يوبِّخه، بل صار يعمل أزيدَ من رسمِه الأول قائلاً: ربما يكون الأخُ محتاجاً، تعجبتُ من تحنن القديسين، وتذكرتُ الشيخَ الذي سُرقت آنيته،

ولما وجدها في قلايةِ الأخ، احتشم الشيخُ، واختفى إلى أن خبأها الأخ وسترها. ولما ضُبط الأخُ من الوالي، مضى الشيخُ ولاطفَ الوالي، حتى أخرجه من الحبسِ».

وقيل عن هذا الشيخِ أيضاً، إنه مضى وقتاً ما إلى السوقِ ليبتاعَ له ثوباً، فدفع ثمنَه ديناراً واحداً، وأخذه ووضعه تحته، إلى أن يتمم عددَ الدراهم الباقية من ثمنِه، ثم بعد السدادِ يلبسه، فعبر به من أراد أخذ الثوبَ، وأحسَّ الشيخُ بذلك، فتحنن على آخذِه، وتنحى في جلستهِ قليلاً عن الثوبِ الذي تحته، حتى أخذ الثوبَ ومضى، وما وبَّخه الشيخُ على ذلك.

وقال الطوباوي: «كم كانت تضحيته بالأوعيةِ التي تضيع أو الثوب؟ ولكن مروءته كانت عظيمةً، لأنه أظهر بما فعله، أنها في حالِ كونها له، كانت كأنها ليست له، وكذلك لما أُخذت منه، بقي غيرَ مغمومٍ عليها، ولم ينزعج لضياعها، لذلك أقول: ليس امتلاكنا الشيءَ مؤذياً، ولكن ميلنا وانصبابنا إلى امتلاكه، هو المؤذي، فمثل هذا، لو كان له كلُّ العالمِ، لكان حالُه كحالِ من لم يمتلكه، لأنه أظهر بتصرفِه، أنه معتوقٌ من كلِّ الأشياءِ».

وقال: «إن الشياطينَ متى رأوا إنساناً غيرَ مائلٍ، ولا منصبٍ إلى الأمورِ، فلا يحزن لفقدِها، حينئذ يعلمون أن هذا الإنسانَ الذي صفتُه هكذا، يمشي على الأرضِ، وليس له هوىً أرضي، وذلك يرجع إلى الميولِ والحركاتِ الخاصة بالنياتِ والإرادات، لأنه يمكن لإرادةٍ وحركةٍ صادرةٍ عن نيةٍ واحدةٍ، إذا كانت شديدةَ الحرارةِ، أن تُقدمَ لله في ساعةٍ واحدةٍ، ما لا تقدمه حركةُ نيةٍ أخرى في خمسين سنةً».

وقال الطوباوي أيضاً: إن إنساناً أخبره بأنه كان له معلمٌ وديعٌ جداً، وقال إنه لعظمِ فضيلتهِ، والآيات التي كان يعملها، اعتقدتْ فيه تلك الكورةِ إنه ملاكُ اللهِ، فدخل عدوُنا في وقتٍ ما في أحدِ الناسِ، وجاء إليه وشتمه شتيمةً كثيرةً، في غايةِ القبحِ، بمشهدٍ من الكلِّ، والشيخُ ناظرٌ إلى فمِ شاتمه لا غير، وقال له: «إن نعمةَ اللهِ على فمِك يا أخي»، فأجابه ذاك: «يا أيها الشيخُ الرديء، يا من كلُّ شيبتِه تقولُ هكذا، حتى متى تتصنع بذلك أمامَ الناسِ»؟ فقال له الشيخُ: «بالحقيقةِ يا أخي، ما تقوله هو حقٌّ». وبعد ذلك سأله سائلٌ: «الآن، أما انزعجتَ يا راهب»؟ فقال: «لا، بل كنتُ أحسُ في نفسي أن الله يسترها». وكان هذا الطوباوي يقول مراراً كثيرةً: «ما قد عرفنا نحن البشريين لا المحبةَ ولا الإكرامَ، بل قد ضيعنا عقولَنا، لأنه لو

احتمل الإنسانُ أخاه قليلاً وقت حردِهِ وغضبِهِ، ثم عاد بعد قليلٍ إلى نفسِه، وعرف كيف احتمله أخوه، فإنه يضع نفسَه من أجلِه».

وقال أيضاً: «إنه يجب على الإنسانِ أن يشكرَ هؤلاء، ويعتقد فيهم، إن كان ذا ألمٍ وانفعالٍ، كأطباءٍ يداوون جراح نفسِه؛ وإن كان عديمَ الانفعالِ والألمِ، إنهم محسنون يسببون له مُلك السماواتِ».

وسئل أيضاً: «كيف السبيل للإنسانِ كي لا يحرد وقت شتمِهِ وتعييره من بعضِ الناسِ»؟ فقال: «إن ازدرى الإنسانُ بنفسِه وحقَّرها فلن يقلقَ ولن يضطربَ، وذلك حسبما قال القديس بيمين: إن ازدريتَ بنفسِك وحقَّرتها، فقد أرحتَ نفسَك ونيحتها».

وقال أيضاً: في بعضِ الأوقاتِ جاءني أحدُ الإخوةِ الآخذين منه الإسكيمَ، وكنتُ ألاطفه، لأنه كان من الشبان المترفين، فقال لي: «يا معلم، إني أحبك»، فقلتُ له: «إني لم أجد بعدُ من يحبني كما أحبه، أنت قلتَ إنك تحبني، وصدقتُ قولَك، ولكنك إن عرضَ لك مني أمرٌ لا تريده، فإنك سوف لا تَثبت على ما أنت عليه الآنَ، أما أنا فلا يغيرني عن المحبةِ عارضٌ ما». وحَدَثَ، بعد أن عبرَ زمانٌ يسيرٌ، أن انفصل مني، وصار يسبُّني كثيراً، ويقول عليَّ أقوالاً قبيحةً، وكانت تبلغني، فكنتُ أقول لمن يخبرني هذا الكلام: «إنه إنما يقول بما رأى من شروري التي كانت ظاهرةً له، أما قبائحي الخفية فلا يُحصى عددُها».

وبعد زمانٍ، التقي بي في قيصرية، وسلَّم عليَّ كعادتِه، أما أنا فقبلته ببشاشةٍ، كأن لم يبدُ لي منه قبيحٌ، أما هو فسجد لي وقال: «يا معلم، من أجلِ الربِّ اغفر لي، فقد تقولتُ عليك بمثالب رديئةٍ كثيرةٍ»، فقلت له بطلاقةِ وجه: «هل تذكر محبتك عندما قلتَ لي إنني أحبك كثيراً؟ وقلتُ لك وقتئذ: إني ما وجدتُ من يحبني كما أحبه، وليتحقق قلبُك أنه ما خفي عني ما قلتَه، ولمن قلتَه، وفي أيِّ وقتٍ قلتَه، وإن أردتَ قلتُه لك، ولم تقل شيئاً إلا وسمعتُه، كما هو، كما قيل، ولم يقنعني أيُّ مقنعٍ أن أقولَ فيك قولاً رديئاً، ولم أترك ذِكركَ في صلواتي، ولكي تعلم صحةِ محبتي لك، فقد حدث لي في بعضِ الأوقاتِ، أن أوجعتني عيناي وجعاً شديداً، فصليتُ وأنا منكبٌّ على وجهي وقلتُ: يا ربي يسوع المسيح اشفني بصلواتِ الأخِ فلان، وفي الحالِ شُفيت»، هذا هو جميعُ ما قلتُه للأخِ.

وقال أيضاً: علامةُ طرحِ العالمِ هي عدم اضطراب الإنسان بشيءٍ من أمورِه، وقد يوجد إنسانٌ يتهاون بمالٍ كثيرٍ، ولكن بسببِ إبرةٍ ولمحبته لها، ينزعج بما لا يزعجه ضياع جملة أموالٍ كثيرةٍ، وتقوم له تلك الإبرةُ مقامَ بدرة (أي وثن) فيتعبد لها بأكثرِ مما يتعبد للإسكيم الكبير، فمَن هذه صورته، ليس عبداً لله، وأنعم بما قاله أحدُ الفلاسفة: «إذا كان عددُ مواليك كعددِ أسقامِ نفسِك، فكفى بذلك شقاءً لها وبؤساً». وقد قال بطرس الرسول: «فما انقهر له الإنسان، فله يكون عبداً». وقال أيضاً: «إن النفسَ تريد الخلاص، لكن لمحبتها الأشياء الباطلة وانشغالها بها، تهرب من الأتعاب، أما الوصايا الحقيقية فإنها تحفظها متثاقلةً بخلاف السيئات التي هي رديئة وخبيثة».

وقال أيضاً: إنّ قائلاً قال لي: «يا معلم، إن الوصايا التي أُمرنا بها كثيرةٌ، وربما يظلم عقلي، فلا أدري أيها أحفظُ»؟ فقلتُ له: «لا يزعجك هذا، لكن اعلم أنك متى كان لك عدم تأسف على الأشياءِ، فقد سهل عليك إحكام الفضيلةِ، فلا تعتني بالأمورِ البشريةِ، لتُعتق من العالمِ».

من كلام الأب الروحاني المعروف بالشيخ بخصوص التوبة

فمُ العفيفِ يتكلمُ بالطيباتِ، ويلذِّذ صاحبَه، ويُفرِّح سامعيه. مَن كان كلامُه مرتباً وعفيفاً، وهو طاهرٌ بقلبِه، فهو ابنُ ميراثِ المسيحِ، ومن كان كلامُه بقلقٍ ومعكَّر بالحردِ، فهو شيطانٌ ثانٍ. فمُ الطاهرِ النفسِ يتكلمُ كلَّ ساعةٍ على خالقِهِ، ومن يسمعه يفرحُ ويقتدي به. فمُ الجاهلِ يفيضُ مرارةً، ويقتلُ صاحبَهُ، ويُسكِرُ الذين ينصتون له، وما أوفق ذلك اللقب الذي أعطاه له سليمان، إذ لقَّبه بالخنزير، يا ربُّ خلصني من لقائهِ.

من يترحم على إنسانٍ، فإنَّ بابَ الربِّ مفتوحٌ لطلباتِه في كلِّ ساعةٍ. ذو الإفراز، بكسرةِ خبزٍ يشتري لنفسِه الملكوتَ، ومن يفرق مالَه بغير إفرازٍ، فباطلٌ هو عمله. من يُكثِر كلامَه، ويرفع صوتَه، فهو ناقصُ الرأي. الذي يلطِّف كلامَه ويتماكر ليضرَّ فهو شيطانٌ ثانٍ. من يصنع صلحاً بين الحرودين، ابن الله يُدعى، ومن يسجس ويعكِّر ويوصِّل كلاماً شريراً من واحدٍ إلى واحدٍ، فهو رسولُ الشيطانِ، وهذا تبيده النار.

من يفرحُ بحسناتِ كلِّ الناسِ، تفيضُ عليه الحسناتُ من الربِّ، ومن يَحزن بصلاحِ حالِ الآخرين، فليس بعد ذلك من شرٍّ، وبسرعةٍ يكون انكساره. الذي يتوب عن سيئاته، ولا يعود إليها أيضاً، حتى ولو كانت قبيحةً سمجةً، أكثر من خطايا السدوميين، ويُظهر من أجلِها وجعَ قلبٍ وندامةً ودموعاً، وبالجملةِ يقطعُ منه كلَّ الشرورِ، فمن ساعتِه يُولدُ من الروحِ القدس، ويكونُ من أحباءِ الله الخصوصيين، وبدالةٍ يأخذُ طهارةً معتوقةً من خزي المجرمين، وتُعادُ إليه بتوليةٌ لم تتدنس البتة، ويُدعى زرعاً إلهياً لم يخطئ قط، ويقبل في قلبهِ عربوناً بثباتِ رجائهِ، وتعطيه الرحمةُ الأبويةُ ثقةً واتكالاً ونسياناً للخطيةِ بالكمالِ من قلبهِ كأنها لم تكن.

أيتها الرحمةُ الفائضةُ، ما أوفرك يا مَن أَعطيتِ لنا نحن الموتى بالخطايا رَحِماً مقدساً الذي هو التوبةُ، يلد بنينَ جدداً من عتقٍ، أطهاراً من أنجاسٍ، منيرين من مظلمين. من لا يعجب من رحمتِك يا ربنا؟ ومن لا يعترف لنعمتِك؟ يا من أتيتَ إلى الميلادِ لتلدنا من بطنِ التوبةِ على شبهك كشبه مريم والدتك. السُبح لك يا آب الكلِّ، يا من أعطيتنا أمًّا جديدة بالميلادِ الجديد، وإن كنا بصبوتنا قد تنجسنا بكل نتنٍ، لكنها تُجلِّي وتطهِّر، وتحسِّن، وتغطي تحت أطرافِها مثل المربية، أولئك الذين وُلدوا منها حتى يصلوا إلى عندك محبوبين وأحباء، ليكونوا آلهةً وملوكاً، بنينَ لربوبيتك.

وإن كنتَ يا أخي تقول: «كيف تقدرُ التوبةُ أن تجددَ الإنسانَ الذي قد تدنس وفسد بالخطيةِ؟» فأقول لك: «اذكر تكوينَه الأول، ومِن أيِّ شيءٍ صار، أعني من شيءٍ حقيرٍ وسمجٍ في البطنِ الضيقِ المظلمِ، وكما رَكَّبت نعمةُ إلهنا المادةَ المنتنة في البطنِ المظلمةِ مكملةً تكوينَه، وأخرجته إلى نورِ هذا العالمِ. كذلك الذي أفسدَ طهارتَه بعد المعموديةِ بفعلِ الشيطانِ، واتسخ بجميعِ جراحاتِ الخطيةِ النجسةِ، بالميلادِ من حِضْنِ التوبةِ الكئيب المظلم، يخرجُ لنورِ عالمِ الروح، الذي أخذ سرَّه بالمعموديةِ المقدسةِ».

«وكما أن ذلك المني السمج، إن رُمي في أرضٍ واسعةٍ مضيئةٍ، ولم يدخل البطنَ الضيقَ المظلم، يكون بلا منفعةٍ ولا يتشبه بالذي ولده، هكذا الذي تسمج بالخطيةِ، إذا لم يدخل البطنَ (أي التوبة) الضيق المظلم، فإنه يكون بلا منفعةٍ، وغيرَ متشبه بمن ولده في المعموديةِ المقدسةِ. وكما أن آدم الجَسَدَاني، من حواء يُولد له بنون بشبههِ لعالمِه الجسدي، كذلك المسيح، آب العالم

الروحاني، من المعموديةِ والتوبةِ، يُولد له بنون بشبهِه للعالم الروحاني، كما ينادي لهم رأسُ حياتهم قائلاً: توبوا، فقد اقترب ملكوتُ السماوات».

«فكيف نجدها إن كانت قريبةً؟ يا أبانا أرنا إياها». «إنها على البابِ اللطيفِ الضيق، وكلُّ من يصبر لصعوبته المظلمة، ويخرج منه، لوقته يلقَى ملكوت النورِ ويتنعم، وذلك الباب الذي لمدخل الحياة، فإنه في أيِّ بلدٍ يوجد داخلكم، وبابها هذا، هو التوبةُ. إن التوبةَ تعيد حياةَ المعموديةِ التي للغفرانِ، وكما أن المني الحقير بالبطنِ المظلمةِ يقتني شبه أقنوم آدم، كذلك والإنسان السمج بالخطيةِ، إن كان يدخلُ لكورِ غليان التوبةِ، يَجلَى ويَطهُر ويقتني بالنعمةِ المجدَّدة، شبهَ حُسنِ المسيح شعاع الآب».

«التوبةُ هي أمُ الحياةِ، وطوبى لمن يُولد منها، فإنه لا يموت. وكما ينادي المسيحُ لخواصِّه بالتوبةِ، كذلك يُبعدُ الشيطانُ الناسَ عن سماعِ هذا النداءِ، وبالشطارةِ واللهو يغطي قلوبَهم».

«التوبةُ هي ترياقٌ لأوجاعِ الخطيةِ القاتلة، وعذابٌ عظيمٌ للشيطانِ مضادها. إنها تُخلِّصُ وتعتق المسبيين الذين سُبوا بشرِّه، وأتعابُه التي تعبها في سنين كثيرةٍ، تُضيِّعها التوبةُ في ساعةٍ واحدةٍ، والعبيدُ الذين بمشيئتِهم أخضعوا حريتَهم له، تعيدُهم إلى ميراثِهم، وتعذِّب مَن خدعوهم. زرعُ الشوكِ الذي زُرع بأرضنا، ورُبيَ بحرصٍ في سنين كثيرةٍ، في يومٍ واحدٍ تحرقه، وتطهِّر أرضَنا، حتى تعطي أثمارَ زرعِ فلاح المسيح ثلاثين وستين ومائة. الحصون التي بناها في زمانٍ طويلٍ، ليسجنَ فيها أسراه، الذين سُبوا في الظلمةِ، بقمرٍ صغيرٍ يشعُّ فيها فتُهدَم، ويشرق النورُ في وجوهِ الجالسين في الظلمةِ، ورباطاتهم تنقطعُ، وأحزانُهم تُستبدل بالسرورِ، ودموعُهم بالفرحِ، أما رابطهم، فإنه يُربط بسيورِ الظلمةِ، ويُسلَّم بأيديهم للعذابِ. كلُّ فلاحتِهِ تفسدُ، وكلُّ الأوجاعِ التي صنعها بغيرِ عبيدِه، تطيبُ وتُشفى، وكلُّ قتلاه يقومون، وكلُّ فخاخهِ تنكسر، وكلُّ أشراكِهِ تقطع، وتهيئ الطريقَ قدام محبيه، حتى يمشوا بلا عثرةٍ في طريقِ المسيحِ واهبها».

«إنها (التوبةُ) تجعل الزناةَ بتوليين، كما تَجلي النوراني الذي علاه الصدأُ. إنها من الماخورِ إلى البريةِ تجتذبُ لعملِ الملائكةِ، والمضيئون الذين حقَّروها تركتهم، فنزلوا إلى الجحيم السفلي. هي تَدخلُ إلى مخادع الزانياتِ، وتجتذب الزناة، وتلدهم من حضنها بتوليين للمسيحِ. تردُّ الكافرين إلى الرسوليةِ، والرسل الذين نزعوها لبسوا الظلمةَ. إنها لِباسُ العالي، وللابسيه تُلبس مجدَ يسوعِ رداءً.

هي تجتذبُ من الطرقاتِ إلى الملكوتِ، ومن بين السياجات تُدخل إلى العرسِ. إنها من السوءِ تصونُ المضيئين، وتجعلُ العميان مبصرين. هي تقلع الشجرةَ التي أثمارُها سمُّ الموتِ، وشجرةُ الحياةِ تُغرس بفردوسنا. هي حاملةٌ براحتِها طيبات النعمةِ، والذين نتنوا بالنجاسةِ، إن قبلوها تطيب. إنها قائمةٌ ببابِ الختن السماوي، وكلُّ من عبر بها استقبل وجهَه بيدِها، ووضعوا إكليلَ العرسِ، وكلُّ من تطامن قدامها، جعلته متكئاً في الحَجلةِ، بيدها وضعوا مفاتيحَ ملكوت السماواتِ، فكلُّ من أحبها وعشقها جعلته أميناً».

«هي هي أمُّ النورِ، وكلُّ من وُلد منها، أنبتت له أجنحةً من نارٍ، ومع الروحانيين يطيرُ إلى العلا، وكلُّ من نَتَفَ الصيادون ريشَه، واستتر تحت أحضانها أياماً قلائل، أخذ منها ريشاً طياراً نارياً، أفضل وأخف من الأول».

هي هي ملحمةُ الطبِ السماوي، ومن وضعها على وجههِ برئ لوقته، لا تقطع بموسى ولا تُصعِّب الأوجاعَ بالكي. بالرحمةِ مخلوطٌ أدويتها، وباللين تجبرُ الانكسارَ. سمُّ الموتِ واللهو والشغب، هذه بيديْ الشيطان، أما التوبةُ فهي ترياقُ الحياةِ بيد اللهِ، وكلُّ من سبق وشرب من كأسِ القاتلِ، يتقدم ويشرب من كأسِ المحيي للكلِّ، فيعيش بلا نهايةِ. إنها تزورُ الأمواتَ، وكلُّ من بلعَه الموتُ، ودنا من أحضانِها، شقَّت الموتَ وأخرجته من جوفِه. ترى العُمي كلَّ يومٍ يبكون على بابها، فتجتذبهم وتريهم نورَ الفرحِ. ترى القتلى الذين قتلهم الشيطانُ، وتستدعيهم لتقيمهم قيامةً متقدمةً. هي خزانةُ بني مخلصنا، وفيها يحفظُ جميعَ غنى أعمالهم. هي بحرٌ لغسلِ جميعِ النجسين، وكورٌ، غليانُه يجلي كلَّ من علاه الصدأ. هي نارٌ محرقةٌ للزوان، ومياهٌ تربي الزروعَ المقدسةَ. هي فردوسٌ يطيب الخواص، وتخرِّب وتهدم جميعَ العُصاة. إنها أرضٌ تربي بني النور، والمطهرةُ بيدِها الذي يتنجس. هي مولِّدةٌ لأجنةِ بني العلي، ومربيةٌ لتابعي المسيح. إنها حصنٌ تحفظُ كلَّ ما بداخله، وجبارٌ يردُّ كلَّ ما سُبي. هي هيكلٌ للأممِ الطاهرةِ، ومنها يأخذون قدساً لقدسهم. هي بيتٌ وملجأٌ للأشقياءِ، فتجعلهم وارثين للملكوتِ. هي خزانةٌ لجميعِ الكنوزِ، فكلُّ من قرع بابها، أخذ منها حاجتَه. هي والدةٌ لم يجف حضنها، وكلُّ من كان عاقراً وقرب منها، أخذ له منها أولاداً محبوبين. هي بوابةٌ قائمةٌ ببابِ الخالق، وكلُّ من وجب عليه الحكمُ وتقرَّب سائلاً إياها، دخلت وحلَّته. بيدها موضوع رشاش الماء، وبلوغ إدرار المطر، فمن دخل والتجأ

بها، فتحت ورَوَتْهُ. إنها تقوم ببابِ الله، وكلُّ الخيرات التي تخرج من عنده، تجتذبها لخواصها. هي شفيعةُ المسبيين، فإذا تقدموا وسألوها تقوم لحمايتهم وتعتذر عنهم».

«فمن ذا الذي لا يحبك أيتها التوبة، يا حاملة جميع التطويبات، إلا الشيطان، لأنك غنمت غناه، وأضعت قناياه، وجعلتِهِ فقيراً معذباً من كسبهِ، وفارغاً من الإرثِ الذي سباه بغير حقٍ. ذاك هو مبغضُك بالحقِ، لأنك دائماً تضادينه، فما من إنسانٍ وقع بين يديه، ولحقتِ به، وصار فريسةً لغذائه؛ وما من إنسانٍ دعاكِ وهو بين أسنانه، إلا وتكسرين أسنانه، وتخلصيه. كما أنه ما من أحدٍ بلعه، فصرخ نحوك، إلا وشققتِ بطنه وأخرجتِهِ، وما من شخصٍ ربطه، إلا وعاجلاً قطعتِ أغلالَه وحللتِهِ. وما من إنسانٍ صاده وأنت بعيدة، ودعاك، إلا وبسرعةٍ لحقتِ به وخلصتِهِ. من أجل هذا، هو يبغضُكِ، لأنك بالأكثر أبغضتِهِ، يبغضُكِ لأنك كلَّ حينٍ تقفين ضده. يبغضُكِ لأنه مبغضٌ لمعطيكِ، وأنتِ أيضاً ضده كما أن صاحبَك ضده كذلك».

«ليس مَن تمسَّك برجائِك، ونزل إلى الجحيمِ، ولا مَن صعد إلى السماءِ بدونِك. من يرى اللهَ بغيرِك؟ مَن تمسَّك برجائك ووقع في يدِ الشيطانِ؟ ومَن تطهَّر ولم تكوني أنت التي غسلتِهِ؟ مَن تقدم لمطهرتك، ووُجدَ فهي نجاسةٌ؟ مَن الذي سقى زرعَه من مطرِك، ولم يحصد منه أثمارَ الفرحِ؟ مَن ذا الذي تقدَّم لطبك، ولم يكن بعيداً من كلِّ العاهات؟ ومن صبغَ كلَّ ساعةٍ وجهَه بقطراتك، ولم يبصر اللهَ في قلبِهِ؟ مَن ذا الذي عدم تذوق مشروبك ولم يبصر قلبُه ينبوعَ الظلامِ؟ من نال طلباته ولم تكوني أنتِ التي رفعتِ من شأنه؟ مَن اتخذك شفيعةً ولم تفتحي أمامَه أبوابَ خزائنِ الله؟ ليس مَن أخذك معه في القتالِ، إلا وأسلمت أعداءَه تحت حربتِهِ. ليس من لبسك مقابل مضاديه، إلا وانهزم قدامه مبغضوه».

«أنتِ خلصتِ داودَ من الخطيةِ، وأنتِ التي وقفتِ في وجهِ أخآب الكافر. صعد الحكمُ على أهلِ نينوى بالهلاكِ، ولكنكِ تجبرتِ وقمتِ وخلصتِهم. مباركةٌ أنت يا أمُّ الغفرانِ، يا من أعطانا إياك الآبُ المملوءُ رحمةً، لا يغضبك إذا طلبت إليه، لأنه أعطاك أن تكوني شفيعةً للخطاةِ، لا يغلق بابه إن سألتِهِ، سلَّم لكِ مفاتيح الملكوت».

«لقد اقترب الملكوت، فتوبوا فها هو الخاتم الذي يأخذه معه الوارثون للملكوتِ، توبوا فقد قَرُبَ الملكوت. الجيلُ القديم الذي لم يشرب مشروبك خنقه سَخطُ الطوفانِ، سادوم التي لم تُرِد

أن تَقبلكِ، أحرقتها النارُ السماوية. فرعون الذي طردك من عنده، تعذَّب في الأمواجِ الخانقةِ».

«إنها تردُّ الأتعابَ التي ضيعها الشيطانُ، وتعطي العطايا السماوية. هي التي تجدد البتوليةَ التي اتسخت، وتحفظ بلا عيبٍ تلك التي لم تفسد بعد. المسيحُ جاء وخلَّصنا، وبصوتِه نادانا قائلاً: توبوا فقد اقتربَ الملكوت. له المجد إلى الأبد آمين».

وقال أيضاً: «من يَحذَر بلسانهِ، فلن يُسلَب كنزُه منه إلى الأبدِ. فمُ الساكتِ يُترجمُ أسرارَ اللهِ، ومن يتكلم بسرعةٍ، يُبعد عنه خالقَه. من يستهين بذاته ويرذلها، يتحكم من اللهِ، ومن يَحسبُ نفسَه حكيماً، ترتفع منه حكمةُ الخالقِ. المسكينُ من متاعِ الدنيا، يستغني باللهِ. وصديقُ الأغنياءِ يتمسكن مما للربِ. من اعتاد كلامَ اللعبِ مفرِّجاً عن جسدِه ونفسِه، فذاك زانٍ، ومن يستأنس به فهو فاسق. المحبةُ المفرِزة للصبيان، هي زنى سمج أمام الربِّ، ولا يوجد جبرٌ لانكسارهِ. شابٌ يصاحب شاباً، فليبكِ عليهما ذوو الإفرازِ. الشيخُ الذي يحبُ صُحبةَ الصبيانِ، اعلم أن أوجاعَه أنجس من الصبيانِ النجسين؛ وإن كان يكلمهم بالأعاجيب، لكن قلبَه بالحمأةِ غارقٌ. يا أخي، إن عشتَ للعالمِ، فسوف تصبح حياً للعالمِ. واحدٌ بواحدٍ، فإن اثنين لا يوجدان مثل الكلمة الوحيد الذي له المجد إلى الأبد آمين».

وقال كذلك مما سَمِع من الشيوخِ، أن واحداً منهم قال له: «في أيامٍ كثيرةٍ يَظهرُ لي أنّ استعمالَ الأطعمةِ زيادةٌ وفضولٌ، لأن حبَّ ربي يُكمِّل لي حاجتي، ويُنسيني الاهتمام بها».

كما قال أيضاً: «محبةُ المسيح غرَّبتني عن البشر والبشريات».

وقال آخر: «في خدمتي وصلاتي لستُ أعرفُ تعباً، لأنه ليست فيها حركةٌ من هواي، بل أظلُّ منصتاً للروحِ الساكن فيَّ وأتلذذ، وهذا هو المقصود بما قيل: إنّ الروحَ يصلي بدلاً عنا».

وقال شيخٌ آخر: «إن كان لسانُك غزيراً بحركاتِه، فقد انطفأت من قلبك الحركاتُ الطاهرةُ، أما إن كان لسانُك ساكتاً، وقلبُك يغلي بالحركاتِ الطاهرةِ، فطوباك، لأن حركتَه بالروحِ ترفعُك إلى هدوءِ الحياةِ. سكِّت لسانَك ليسكت قلبُك، وسكِّت قلبَك ليتكلم فيه الروحُ».

وقال آخر: «جاهلٌ، ذاك الذي يوجد في ذِكرِه شيءٌ من العالمِ، ما خلا الميراث الذي يأخذه، أعني القبرَ فقط»، كما قال أيضاً: «إن كنتَ بالمسيحِ وُلدتَ، فكذلك أخوك، وعلى

ذلك فأكثر من أخيك لا تحب نفسَك في شيءٍ ما».

وقال أيضاً: «إن كانت شهوتُك عالميةً، فهذه أيضاً كالكلابِ والخنازير، أعني بذلك (شهوةَ) البطنِ والزواج. أما إن كانت شهوتُك باللهِ، فهذه هي شهوةُ الملائكةِ».

كذلك قال: «إنه هوى شيطاني بالراهبِ، الذي يحتفظُ لديه بقوتٍ غير قليل، ذلك لأنه يذخر ما لا حاجة به إليه، أما الصدِّيقُ فإنه يُلقي على الربِ همَّه، وبغيرِ همٍّ يفرقُ، من أجلِ ذلك فَيَدُ الربِ مفتوحةً قدامه وهي ممتلئةً، فيأخذَ ويعطي بسذاجةٍ بغيرِ فكرٍ. من يحفظ شيئاً زائداً لينيِّح به المحتاجين فهو حكيمٌ بحقٍ. من أجلِ هذا، إذ تَفرُغ يده، تجدها تمتلئُ كلَّ ساعةٍ، لأنه إذ أعطى، فله أن يأخذَ أيضاً. من ينيح آخر في ضيقته، فله هو أيضاً من يَهَبه نياحَ الحياةِ».

كما قال أيضاً: «الاتضاعُ هو أرضٌ حاملةٌ للفضائلِ، فإن هي عدمت الفضائل، فبالكمال قد هلكت».

ثم قال أيضاً: «وكما أن حمارَ المسكينِ، لكونه لا يجدُ قوتاً لَيَشبعَ به، يُصبحُ هزيلاً ضعيفاً فتنطفئ منه شهوة الجماع، وإذا ركبه صاحبُه، سار به ذليلاً سهلَ الانقيادِ بسببِ خساسةِ مركوبه، هكذا الراهبُ الذي يقمعُ جسدَه بنقصِ القوتِ وخساسةِ الملبس، فإن الشهوةَ العالميةَ تنطفئ من جسدِه، ونفسُه تتضع بلا افتخارٍ».

«ليس هناك شفاءٌ لوجعِ المفتخر، لأنه بقدرِ ما يتعالى بأفكارِه بقدر ما ترتفع معرفةُ الله عن نفسِه، وإلى عمقِ الظلمةِ يهبطُ».

مقارة الكاتب

قال مقارة الكاتب: أردتُ الدخولَ إلى مدينةِ الإسكندريةِ لقضاءِ بعض حوائجي، ولما دخلتُ إلى المدينةِ قابلني رجلٌ لا أعرفه خارجاً من المدينةِ، وعلى كتفِه وعاتقهِ آلةُ صناعةِ البستانِ ومعه من ثمارِه، فقال لي: «من أين أتيتَ يا أبي، وإلى أين تذهبُ»؟ فقلت له: «أنا من الوادي المقدس، وأنا طالبٌ هذه المدينةَ». فقال: «أنا أسألك أن تبيتَ عندي الليلة في منزلي، وعند الصباحِ تمضي حيث تريد».

وكان ذلك الوقت مساءً، وسألني باسم يسوع المسيح، فأجبتُه إلى ما سأل، وكنتُ لا أعلمُ

معبودَه، ولا مذهبه، إلا أنه يعرفُ كلامَ أهلِ الجبالِ، وهي اللغة القبطية، فمضيتُ معه إلى منزلِه، فأخرجَ مفتاحاً، وفتح البابَ، ودخلنا، فنظرتُ يميناً وشمالاً، فلم أجد شيئاً سوى حصيرةٍ، قد مضى عليها مدةٌ من الزمنِ، ووعاءً فيه ماء، وحبلاً مشدوداً في سقفِ البيتِ، وكتاباً موضوعاً على كرسي، وسراجاً فيه زيت، ومنديلاً فيه رغيف من الخبزِ اليابسِ لا غير. فقدَّم لي ماءً أولاً، فغسلتُ وجهي ورجليَّ، ثم بعد ذلك انتصب إلى الصلاةِ، فوقفتُ وصليتُ معه إلى حينِ أتم صلاتَه، وأنا معه، فأحضر ذلك الرغيف اليابس وقليلاً من الملحِ، وسألني أن آكلَ، فأخذتُ وأخذ معي، وأكلنا جميعاً.

أما أنا، فلما وقع ذلك الطعامُ في فمي، وإذا طعمُه مثل شهدِ العسلِ، وأحلى منه، والملحُ أيضاً كان كأنه مثل ذلك، فتداخلني العَجَبُ، وأكلنا من رغيفِ الخبزِ هذا، نحن الرجلين، ولم يذهب منه شيءٌ، فقلت: «يا ليت شِعري، ما هذا الرجل»؟

وبعد أكلِ الطعام بدأ يسألني عن الكتبِ المقدسةِ، وما فيها من آلام المسيح، ويشرحُ تفسيرها، ورغم أني كاتبٌ جميعُ أيامي كلِّها، ومطَّلع في الكتبِ المقدسةِ، إلا أني لم أكن عارفاً بما أوضحه لي. فقلتُ: «هذا من اللهِ، هذا الرجل هو ملاكٌ، وإن الله سهَّل طريقي، إذ جمعَ بيني وبينه». وكنتُ أسمع منه، ولا أقدر أن أجيبه، لأجلِ ما فيه من الروحِ الناطقةِ.

ولما كان الصباحُ، وهو لم ينم، أخذ آلتَه، وأراد الخروجَ إلى المكانِ الذي فيه الكرم الذي كان له، وأنا لا أعلمُ بذلك، وقال لي: «أنا أريدُ أن أخرجَ إلى عملي باكراً حتى أنصرفَ باكراً»؛ وإنما كان يشيرُ بذلك إلى الآخرةِ، وأنا لا أعلمُ. ودفع لي مفتاحَ منزلِه، وقال لي: «اخرج أنت واقضِ ما تريده من حوائجك، وعد إلى منزلي، فإنك تكون عندي إلى عشرةِ أيامٍ»، فأخذتُ المفتاحَ، وتوجَّه هو إلى عَمَلِهِ.

أما أنا فقد مضيْتُ إلى البيعةِ والصلاةِ وتناول الأسرار، فوجدتُ فيها رهباناً قديسين كنتُ أعرفهم، فلما رأوني، فرحوا بي وقالوا لي: «يا مقارة، متى أتيتَ إلى هنا»؟ فقلتُ: «بالأمسِ». فقالوا: «أين أنت نازلٌ»؟ فقلت لهم عن صفةِ ذلك الرجلِ، فتعجبوا، ولم يعرفوه، فسألوا عنه الرجلَ الذي كان قيِّماً بالبيعةِ، وهو خبيرٌ بجميعِ سكانِ المدينةِ، فلم يعرفه، وكان ذلك عجيباً.

ولما فرغتُ من الصلاةِ والقداس، عدتُ أريدُ المنزلَ، فلم أجده، وتعبتُ متحيراً، لا أدري

كيف أذهبُ، فتفكرتُ وقلتُ: «لعل الذي رأيتُه كلَّه كان مناماً، أمضي وأجلس على الطريقِ في المكانِ الذي اجتمعتُ به فيه أولاً، لعلي أراه».

وكنتُ قد وضعتُ في المنزلِ قبل خروجي منه بعضَ حوائجي، فخرجتُ إلى خارجِ المدينةِ، وجلستُ على الطريقِ في المكانِ الذي اجتمعتُ به فيه أولاً، فلم أجلس إلا قليلاً، وإذا بذلك الرجلِ قد أقبلَ عليَّ، على تلك الحالةِ الأولى، فتطلَّع وأبصرني، وقال لي: «لِمَ خرجتَ إلى ها هنا»؟ فأعلمتُه بجميعِ ما نالني في ذلك اليوم. فقال لي: «أسأتَ إليَّ اليومَ لَمَّا فعلتَ هذا، إني رجلٌ مُطَالَبٌ بما قدمته يداي، وكنتُ لا أريدُ أن يعرفَ موضعي أحدٌ»، وهذا كان تعليماً حسناً.

ثم إنه مشى، وأنا أتبعه، حتى دخلنا إلى المنزلِ، وفعل مثلَ المرةِ الأولى، وأقمتُ عنده ثلاثةَ أيامٍ، وذلك الرغيف لم يذهب منه شيءٌ، وقضيتُ بعضَ حوائجي في هذه المدةِ، وأردتُ الانصرافَ، فقال لي: «ألم أقل لك إنك ستقيم عندي عشرةَ أيامٍ»؟

وأخذ آلتَه، وأراد الخروجَ إلى كرمِهِ، فقلتُ له: «أنا أمضي معك اليومَ إلى كرمِك لأبصرَه، وأنظرَ عملَكَ». فقال لي: «قم وامشِ»، وأخذ بيدي، وخرج أمامي، وأنا أتبعه حتى خرجنا من بابِ المدينةِ. وإذا بثلاثةِ رجالٍ، لابسين لِباسه، ومعهم أداةً مثلَ أداتِه، وقالوا له: «قد أبطأتَ علينا، انهض»، فنهضَ وهو يقول لي: «يا مقارة، امشِ خلفَنا». فمشيتُ وأنا أريد أن أكلِّمهم، وهو وإياهم لا يلتفتون إليَّ، وهم مجدين في المسيرِ، وأنا لا أعلمُ أين يريدون إلى وقتِ صلاة الثالثةِ من النهارِ؛ وإذا نحن قد أشرفنا على عينٍ جاريةٍ ونهرِ ماءٍ لا يعرفُ أحدٌ آخِرَه، وحوله شجرٌ من النخيلِ والعنب والزيتون والتين والرمان؛ فصلوا، وأخذوا الأداةَ التي معهم، وجعلوا يكرمون في تلك الأشجار، ولا يأكلون من ثمارِها، وأنا كنتُ متفكراً.

فدنوتُ إلى الرجلِ الذي كنتُ نازلاً عندَه، وقلتُ له: «هؤلاء القوم شركاؤك في هذه الروضةِ، لم يكلموني»، فقال لي: «هم يعرفونك، لكنهم يقولون إنك لا تريدُ أن تكونَ معهم مقيماً». فقلتُ: «إنهم يعملون أعمالاً لا أعرفها، وأنا مشغولٌ بما أنت عارفٌ، فإني أكتبُ كتبَ البيعةِ، وأريد بذلك عمارتها، فأجدد ما قدم منها».

وأقمتُ ذلك النهارَ كلَّه معهم، وعند صلاة التاسعةِ أكلتُ من ثمرةِ ذلك الشجرِ، وكنتُ أُكثرُ من الأكلِ منه ولا أملُّ، وهي لا تُشبعني، فقلتُ لذلك الرجلِ: «إن ثمرات هذا الشجرِ لا

تُشبع الجائعَ». فقال كلاماً، وهو تعليمٌ روحاني: «إنّ اهتمامَك هو بطعامِ العالمِ، وتركتَ الاهتمامَ بالعملِ الصالحِ، والطعام الروحاني»؛ وللوقتِ علمتُ أن القومَ صالحون، فدنوتُ إليهم أريدُ أن أتباركَ منهم، وطلبتُهم فلم أجدهم.

وبقيتُ في الروضةِ وحدي، أطوفُ فيها يميناً وشمالاً، ولا أدري أين أذهبُ، وأقمتُ على هذه الحال عاماً كاملاً، آكُلُ من ثمرِ الشجرِ، ولا أدري من يجاوبني، ولا القوم الذين رأيتُهم، وقلتُ: «لقد فعل الله معي، مثل قديسيه، وأسكنني هذا الجنان، وهو الذي بعثَ لي هؤلاء القوم الذين رأيتُهم».

وبينما أنا في آخرِ العامِ، وإذا بي أرى ركاباً يريدون المسيرِ إلى حاجتهم، فتقدمتُ إليهم، وقلتُ لهم: «إلى أين تقصدون»؟ فقالوا: «مدينةَ الإسكندريةِ». فقلتُ لهم: «هل لكم أن تأخذوني معكم؟ فإني ها هنا في هذه البريةِ لا أعلمُ أين أذهبُ»، حدث هذا لما داخلني الفكرُ بحبِ العالمِ بينهم، فظهر لي الشيطانُ وجنودُه في هذه الهيئةِ، ليخرجوني من الموضعِ الرحبِ إلى الضيقِ والتعبِ. وحملوني وأنا لا أعلمُ أنهم الشياطين؛ وفي أسرعِ وقتِ مضيتُ إلى مدينةِ الإسكندرية، وكان رجلٌ من الركابِ يقول: «قد ربحنا هذا، وأخرجناه من النعيمِ إلى التعبِ».

وفيما أنا متفكرٌ في كلامهِ، إذا بالرجلِ الذي كنتُ نازلاً في منزلِه، وكنتُ قد جعتُ، فمشى أمامي وأنا أتبعه إلى منزلِه، فأحضر لي ذلك الرغيفَ بعينِه، وأكلتُ، وأكل معي كالعادةِ، وقال: «يا مقارة، أين كنتَ في هذه المدة»؟ فقلتُ له: «إني في الروضةِ، ومنذ فارقتُك انتظرتُك عساك تعودَ إليّ، فلم أنظرك إلا في هذه الساعةِ»؛ ثم أقبل عليَّ، وقال لي: «يا مقارة، اخترتُ لك مكاناً تكون فيه، ولكنك لم ترغب فيه؛ لكن الشيطانَ العدو، هو الذي أخرجك منه ولم تعلم». فقلتُ له: «يا أبي، مَن هؤلاء القوم الذين كانوا معك»؟ فأخبرني بأنهم قديسون عظام، يسكنون هذه المدينةَ، ومنازلهم مثل منزلي هذا، ونحن كلّ يومٍ نمضي مع بعضنا سراً إلى هذه الروضةِ، نصلي فيها، ونُصلح أشجارها، ونعودُ إلى منازلنا، وأهلُ هذه البلادِ لا يشعرون بنا، فلو صبرتَ قليلاً، لكنتَ لنا رفيقاً. هل تعرف هذه البريةَ والروضةَ؟ فقلت: «لا». فقال لي إنها من الجنانِ التي وعدَ الله بها أتقياءه وأصفياءه، ولا يعرف أحدٌ من الناسِ بُعدَ المسافةِ بين العالمِ الكوني وبينها.

وللوقتِ صرتُ نادماً، وكلح وجهي، وأطرقتُ وجهي إلى الأرضِ، ولم أستطع رفعَ رأسي، ثم

رفعتُ صوتي وبكيتُ نادماً، فقال لي: «قم ارجع إلى مكانِك، فإنّ اللهَ جعلَك لتمجيدِ اسمه فيما تكتبه، وستصير راعياً، وأخبرني بأشياءٍ كثيرةٍ، وأقمتُ عنده بقيةِ العشرةِ أيامٍ التي ذكرها، ولم تكن المدة التي كانت، وكنتُ فيها في الروضةِ، إلا مثل منامٍ رأيته، وإني سألتُه في عدةِ مسائل وأبوابٍ، فأخبرني بها، وقد كتبتُها في كتابٍ آخر.

ولما أردتُ المسيرَ، أخرج لي ذلك الرغيف، وأعطاه لي، وقال لي: «استعمل منه وقتَ حاجتك، فإنه يُغنيك عن كثيرٍ من الطعامِ، واحذر أن تُعلِمَ أحداً بما رأيتَ، وسطِّره في كتابٍ، ولا يقرأه أحدٌ إلا بعد وفاتِك، وإني أُعلمك أنك ستكونَ رئيساً، وتدوم رئاستُك اثنتين وعشرين سنةً، وتكتب كتباً كثيرةً، فيها عجائب وبراهين، وهي تكون بعدك ذِكراً لك».

ولما خرج يريدُ أن يودعني عند مسيري، قال لي: «يا ولدي أوصيك إذا انتقلتْ إليك الرياسةُ، فلا تَكبُر نفسُك على أخيك، بل كن متواضعاً، رحوماً جداً، عفيفاً، وطوباك لأنك تقدس قرابين كثيرة، وتصبغ شعباً كبيراً بالمعموديةِ. وفي العام التالي، تأتي إلى هذا المنزلِ، وتطلبني، ويهديك الله إليه».

ثم إني انطلقتُ، وفي تلك الساعةِ وصلتُ إلى مسكني بدير برموس، ولم يمضِ إلا خمسةٌ وعشرون يوماً، وإذا بالأب البطريك البابا ديمتريوس يدخل إلى الدير، ويأخذني ويرسمني أسقفاً على كرسي نقيوس، وسلم إليَّ رعايةَ شعبٍ كثيرٍ، كما ذكر لي الأب القديس؛ ولما كان في العام الثاني، أتيتُ إلى مدينة الإسكندرية، واجتمعتُ بذلك الأب القديس، فوجدتُه على حالِه، وعندما رآني، قبلني وقبلته، ونزلتُ بمنزلِه، ووجدتُ عنده القومَ رفقاءَه، فسلموا عليَّ، وسلمتُ عليهم، وقالوا: «يا مقارة، اليوم تحصنتَ من الشيطانِ، احفظ هذه، فهي حصنٌ عظيمٌ»، وتباركتُ منهم، وودعوني، فلما أرادوا المسير، سألتهم هل لي وصولٌ إلى تلك الروضةِ؟ فقالوا: «لا، فهو ذا أنت ترعى شعباً كثيراً، إياك أن تحيفَ في الحكمِ أو تحابي».

وأما أنا، فإن ذلك الرغيفَ الذي أعطاني إياه القديس، فقد كنتُ آكل منه في اليومِ ما يغنيني عن ثلاثةِ أيامٍ، وسألتُ القديس عنه، فلم يخبرني ما هو.

وأنا مقارة، كتبتُ هذا جميعَه، وكنتُ قد سألتُ الله أن يحلَّ هؤلاء القوم في منزلي ويصلُّوا في بيعتي بنقيوس، فرأيتُ أحدَهما قائماً أمامي، وقال لي: «يا مقارة، إنك لن ترانا إلى اليوم الذي

تمضي فيه إلى ربك، فنكون حاضرين الصلاةَ عليكَ».

فنسأل الله أن يجعلنا من العاملين بطاعتِه، ويكفينا شرّ الشياطين، آمين.

كان شابٌ اسمه مقارة، اتفق له وهو يرعى ويلعب مع صديقٍ له، فقتله بغيرِ تعمدٍ، ولم يعلم به أحدٌ. فمضى لوقته إلى البريةِ وترهب، وأقام ثلاث سنين في البردِ والحرِ، في أرضٍ ليس فيها ماءٌ. وبعد ذلك بنى كنيسةً داخل البريةِ، وأقام فيها خمساً وعشرين سنةً، واستحق نعمةً من الله، حتى إنه قويَ على الشياطين، وفرح في نسك الرهبنةِ. وأقمتُ بالقربِ منه زماناً، ولما صار لي عليه دلالٌ، فتشتُهُ عن فكرِهِ بسبب خطيةِ القتلِ، فقال: «أقمتُ أياماً كثيرةً متعباً، لأجلِ هذا الفكر، وهو يلازمني ليلاً ونهاراً، ويقلقني جداً، وآخر الأمرِ أراحني الربُّ من حزنِ القلبِ بسببه، حتى لقد شكرتُ القتلَ الذي فعلتُه بغيرِ اختياري، لكونه كان سبباً لخلاصي، وبنعمةِ الربِ صرتُ، إذا تعرضتْ إليَّ الشياطينُ، بفكرِ تعظيم القلبِ، ويقولون لي: قد صرتَ رجلاً عظيماً أكثرَ من الرهبانِ كلِّهم، فأجيبهم قائلاً: «والقتل الذي فعلتُه، ما أشد عذابي في الجحيم بسببه». فيمضون عني. ومرةً أخرى يقولون لي: «أيها القاتل، لماذا تقعد في هذه البريةِ، وليست لك توبةٌ، فتتعب في الباطلِ، امضِ إلى العالمِ واصنع إرادتك لئلا يفوتك الأمران»، فأقول لهم: «الربُّ الذي صنع الرحمةَ مع عبدِه موسى، يرحمني أنا أيضاً»، وكنتُ أعزي نفسي وحدي بأن موسى لم يستحق أن يرى الله، إلا بعد أن هرب من مصر، ودخل البريةَ، لأجلِ الذي قتله بغيرِ اختياره.

وما قلتُ هذا ليطيبَ قلبُ أحدٍ بالقتلِ، بل ليعرفوا أن أسباباً كثيرةً مختلفةً تجتذبُ الناسَ إلى الفردوس؛ فواحدٌ يهربُ لأجل الفقرِ والاستدانةِ، وآخر يهربُ من جورِ المتسلطين، وآخر بسببِ زنى زوجته، وآخر من شرِّ أسياده، وبالجملةِ فإن قوماً يهربون من الخوفِ الدنيوي، وقوماً يحبون الله، ويؤثرون خلاصهم، فيصيرون رهباناً بإرادتهم.

قال دورثاوس: «إن الأوجاعَ هي غيرُ الخطايا، فالخطايا هي عملُ الأوجاعِ بالفعلِ، والأوجاعُ هي أسباب الخطايا، فقد يوجد إنسانٌ فيه الأوجاع كالغضبِ الضار، وشهوةِ الشرِّ، ولا يستعملها.

والقديسون ما اكتفوا بأن لا يفعلوا الشرورَ فقط، بل واجتهدوا في أن يقلعوا من نفوسِهم

الأوجاعَ التي هي أصولُها، ولما صَعُبَ عليهم ذلك وهم بين العلمانيين، تغرَّبوا في البريةِ، ولازموا الصوم والصلاةَ والسهرَ، فقاموا بما قُرر عليهم من الوصايا، من عفةٍ، ومسكنةٍ، ونافلةٍ، وغربةٍ، لتكميل وصايا الربِّ. وزيادة العفةِ، وهي عدم الجماع البتة. والمسكنةِ، وهي عدم القنيةِ بالكمالِ. والنافلة، وهي ما زاد على الفريضةِ، وهي الرهبنة. وفرزوا للرهبنة شكلاً (أي زيًّا) فيه رموزٌ على غرضها. أما القلونية التي ليس لها كُم، فإذا أردنا أن نعملَ بأيدينا شراً، إما بالسرقةِ، أو الضربِ، أو غيرِهِ، فإن ذلك يُقصِّر أيدينا كتقصيرِ كُمِّنا. وأما الاشتداد بالمنطقةِ، فللتشمر والاجتهاد في خدمةِ اللهِ، وكونها من جلدٍ ميت، لنميتَ أوجاعَنا. وأما الأباليون بشبهِ الصليب، فإشارة إلى حملِ الصليبِ واتِّباع سيدنا. وأما القوفلية، فهو شبه الخنق، وهو لباس الأطفال، والأطفال لا مكر عندهم، ولا حقد ولا نجس، ولا إقامة هوى، وذلك هو أكبر أغراض الرهبنةِ».

قال شيخٌ: «الرهبنة هي غربةٌ، وفقرٌ، وصبرٌ على البلايا والظلمِ».

وقال أيضاً: «إن لم تبغض الإثمَ، فلن تستطيعَ أن تحبَّ البرَّ، كما كُتب: حِدْ عن الشرِّ واصنع الخيرَ».

كذلك قال: «النيةُ هي المطلوبةُ في كلِّ موضعٍ، لا الموضعَ، فإنَّ آدم كان جالساً في الفردوسِ، وأطاع مشورةَ الشيطانِ، وتبعَ هواه وعصى وصيةَ اللهِ، وأيوبَ كان جالساً على المزبلةِ، وقاوم الشيطانَ، وضبطَ هواه، وحفظ وصيةَ الإله».

كما قال: «إنَّ المسيحيين الحقيقيين، هم أفضلُ الأممِ، والرهبان (الحقيقيين) أفضل المسيحيين».

كان رئيسُ ديرٍ أباً لمائتي راهب، هذا زاره السيد المسيح بصورةِ شيخٍ مسكينٍ، فسأل البوابَ أن يقولَ للمعلمِ عنه، فدخل، فوجده يخاطب آخرين، فصبر، ثم عرَّفه، فقال له: «دعنا في هذا الوقتِ»، فتأخر البوابُ. وعند الساعةِ الخامسةِ زارهم رجلٌ مُوسِرٌ، فتلقاه رئيسُ الديرِ بسرعةٍ، فتقدم ربنا سائلاً قائلاً: «أريدُ يا معلم أن أكلمَك»، والرئيسُ دخل مع ذلك الغني مسرعاً ليصلحَ له طعاماً، بمعنى أنه غريبٌ، وبعد الأكلِ شيَّعه إلى البابِ، ونسي المسكين إلى المساءِ، ولم يَقبل الغريبَ المسكين. ثم انصرف الربُّ، بعد أن راسله على لسانِ البوابِ قائلاً: «قل للمعلمِ إن كنتَ ترى كرامةً وتشريفاً، فذلك لأجلِ سالفِ تعبك، إني مرسلٌ لك أقواماً يزورونك

من أربعِ جهات الدنيا، وأما خيرات ملكوتي، فلا تذوقها». فعرف حينئذ أن الشيخَ المسكين، هو الربُّ، وتندم وتألم.

اتفق اثنا عشر من القديسين الحكماء، واجتمعوا على رأيٍ واحدٍ، ورغب بعضُهم إلى بعضٍ في أن يَذكُرَ لهم طريقةَ نسكِهِ، لينتفعوا:

فقال الأول:« أنا منذ بدأتُ بالانفرادِ، صلبتُ ذاتي عما هو خارج عني، وجعلتُ فيما بين نفسي وبين الأشياءِ الجسمانيةِ سوراً، وصرتُ في بيتي، كمن هو داخل السورِ، فلا ينظر إلى ما هو خارج عنه، فكنتُ أتأمل ذاتي فقط، منتظراً الرجاءَ كلَّ وقتٍ من اللهِ، وصوَّرتُ الأفكارَ الخبيثةَ بصورةِ العقاربِ والحيات، فمتى أحسستُ بها متحركةً فيَّ، طردتُها وأبعدتُها بالغيظِ والتهويل، وما كففتُ في وقتٍ من الأوقاتِ من الغضبِ على نفسي وجسمي، لكي لا يعملا عملاً شريراً».

وقال الثاني: «أنا منذ زهدتُ في العالمِ، قلتُ في نفسي، اليومَ وُلدتَ، فاترك ما مضى وابتدئ بالعبادةِ لله. وأنزلتُ نفسي منزلةَ الغريبِ في المكانِ الذي من شأنهِ أن ينصرفَ غداً».

وقال الثالث: «أنا من باكرِ النهارِ أطرحُ ذاتي على وجهي أمامَ ربي، وأقرُّ بجرائمي، ثم أتضرعُ للملائكةِ أن يسألوا اللهَ العفوَ عني، وعن الناسِ جميعاً، ثم أطوفُ أماكنَ العذابِ بعقلي، وأبكي وأنوح إذ أرى أعضائي مع الذين يُعاقبون ويبكون».

وقال الرابعُ: «أنا أتصور نفسي جالساً في جبلِ الزيتون مع ربنا وملائكتهِ، وأقولُ لنفسي، منذ الآن لا تعرف أحداً بالجسدِ، بل كن مع هؤلاءِ دائماً، بمنزلةِ مريم الجالسةِ عند قدمي السيدِ، لتسمعَ أقواله سماعاً مطيعاً، كقولِ ربنا: كونوا أطهاراً لأني طاهرٌ، كونوا كاملين مثل أبيكم الذي في السماءِ، فإنه كاملٌ، تعلَّموا مني فإني وديعٌ ومتواضعٌ بقلبي».

وقال الخامس: «وأنا أتصورُ الملائكةَ صاعدين ونازلين، في استدعاءِ النفوسِ، وأتوقعُ وفاتي كلَّ يومٍ، وأقول: مستعدٌ قلبي يا إلهي».

وقال السادس: «أنا أستشعرُ كلَّ يومٍ أنني أسمعُ من ربنا هذه الأقوال: اتعبوا من أجلي فأُنيِّحَكم، إن كنتم أولادي فاستحوا مني كأبٍ محبٍ، وإن كنتم إخوتي فوقروني، إن كنتم أحبائي فاحفظوا وصاياي، إن كنتم رعيتي فاتبعوني».

وقال السابع: «أنا أذكِّرُ نفسي بهذه: وهي الإيمان والرجاء والمحبة، حتى أنجح بالإيمانِ، وأفرح بالرجاء، وأكمل المحبة لله والعبادة».

وقال الثامن: «أنا أرى المحال طائراً طالباً واحداً يبتلعه، وأرفعُ نظري العقلي إلى إلهي واستنجدُ به عليه في أن لا يدعه يتقوى على أحدٍ، وخاصةً على الخائفين منهم».

وقال التاسع: «إني أرى كلَّ يومٍ كنيسةَ القواتِ المعقولةِ، وأعاينُ ربَّ المجدِ، في وسطِها، لامعاً جداً، وأسمعُ نغماتهم في تسابيحهم التي يرفعونها إلى الله، بمنزلةِ من قد فَهِمَ ما هو مكتوبٌ: إن السماواتِ تخبر بمجدِ الله، فأحسبُ كلَّ ما على الأرضِ رماداً وكُناسةً، ويزولُ عني الضجرُ والتعبُ والغم».

وقال العاشرُ: «أنا أرى الملاكَ الذي معي قريباً مني، وصاعداً بأعمالي وأقوالي، فأحفظُ ذاتي، وأتذكرُ قولَ النبي: سبقتُ فرأيتُ الربَّ أمامي في كلِّ حينٍ، لأنه عن يميني لكي لا أتزعزع».

وقال الحادي عشر: «أنا أضعُ وجهي على ضبطِ الهوى، والعفةِ، وطولِ الروحِ، والمحبةِ، وأقولُ لنفسي: لا ننم».

وقال الثاني عشر: «أما أنتم فلكم أجنحةٌ من السماءِ، طالبين ما في العُلا، فقد انتقلتم بالنيةِ من الأرضِ، وتعريتم من هذا العالمِ، فأنتم أناسٌ سمائيون أو ملائكةٌ أرضيون. وأما أنا، فإذا قايستُ نفسي بكم، أكونُ غيرَ مستحقٍ الحياةَ، لأني أُعاينُ خطاياي أمامي في كلِّ حينٍ، وأينما توجهتُ تتقدمني، وقد حكمتُ على ذاتي أني في جملةِ الذين تحت الأرضِ قائلاً: سأكون معهم، إذا كنتُ مستوجباً أن أكونَ قريبهم، وأُبصرُ هناك الدودَ والحسراتِ والعبراتِ المتصلةَ المرةَ، أقواماً تُقعقع أسنانُهم، ويقفزون بجملةِ جسمِهم مرتعشين، من رؤوسهم إلى أرجلهم، وأطرحُ ذاتي على الأرضِ، وأنثرُ الرمادَ عليَّ، متضرعاً إلى اللهِ، في أن لا أباشرَ تلك العقوباتِ، وأنظر أيضاً بحرَ نارٍ يغلي، ويعجّ، يتوهم من يُبصرُه، أن أمواجَه تبلغُ إلى السماءِ، وملائكةٌ متنمرين يطرحون أناساً لا يُحصَون في ذلك البحرِ المريع، وكلهم يعجُّون بولولةٍ عظيمةٍ، ويحترقون كالقشةِ، وقد ارتدَّتْ عنهم رأفاتُ اللهِ، لأجلِ آثامهم، وأنتحبُ على جنسِ البشرِ، وأتعجب كيف يجسُرُ أحدٌ أن يتكلمَ كلمةً أو ينظرَ نظرةً بمخالفةٍ، وقد أُعدتْ هذه العقوبات، لكلِّ من لا يؤمن بالإلهِ ويطيع وصاياه، وبهذا أضبطُ النوحَ في نفسي، والدموعَ في عيني، وأحكمُ على ذاتي بأني لستُ أهلاً

للسماءِ، ولا للأرضِ، متشبهاً بالنبي القائل: صارت دموعي لي خبزاً نهاراً وليلاً».

فهذه أقوالُ وسيرةُ الآباءِ المغبوطين، فطوبى لمن اهتدى بأقوالِهم، واقتدى بأفعالِهم، ومِن ربنا نسألُ العفوَ والعونَ، وله نقدمُ التسبيحَ والشكرَ، ولأبيه الصالح، وروحِ قدسِه، الآن ودائماً، آمين.

كان شيخٌ قديس، إذا قام بخدمةِ القداسِ، يرى ملاكين واقفين، واحداً عن يمينِه، والآخرَ عن اليسارِ، هذا كان قد أخذ نسخةَ القداسِ، من واحدٍ من ذوي البدع في الإيمانِ، وإذ كان ساذجاً، لا يعرفُ تحريرَ الآراءِ الإلهيةِ في تقديسهِ بسذاجةٍ، فقد كان يقولُ كما في النسخةِ، ولا يعلم أنه يغلط. وبتدبيرٍ من اللهِ، زاره شماسٌ، راهبٌ، عالمٌ، فلما خدم الشيخُ القداسَ بحضرتِه، قال له: «هذا ليس قولَ أصحابِ الأمانةِ الصحيحةِ»، وإذ كان الشيخُ يبصرُ الملاكين في قداسِه، فإنه لم يلتفت إلى قولِ الشماس. أما الشماسُ، فإنه لبث يقول له: «غلطتَ يا أبي، والكنيسةُ الأرثوذكسية، لا تقبلُ هذا القولَ». ولما رآه الشيخُ لا يكفُّ عن توبيخهِ، التفتَ إلى الملاكين، وقال لهما: «ما معنى قول الشماس»؟ فقالا له: «اقبل منه، فقد قال لك الصوابَ». فقال لهما الشيخُ: «وأنتما، ما بالكما لم تقولا لي»، فقالا: «إنَّ اللهَ رسمَ هذا التدبيرَ، أن يُصلحَ الإنسانَ، إنسانٌ مثله». فانصلح رأيُ الشيخِ من ذلك اليوم، وشكر اللهَ تعالى، والشماسَ.

قال القديس يوحنا ذهبي الفم: «إذا ما أخطأنا، فإن اللهَ قد يُنهض علينا أعداءَنا ليؤدبونا، وعلى هذا فلا ينبغي أن نحاربهم، بل يجبُ أن نحاسبَ نفوسَنا ونثقفها، ولكونه أطلقهم علينا لأجلِ خطايانا، فمتى حاربناهم، نصرَهم علينا، ولهذا أمرنا أن لا نكافئَ أعداءنا، فلنقبل الامتحانات، كقبولِ الأدويةِ من الحكيمِ لنخلصَ، وكقبول التأديب من الأب لنتشرف، فلهذا قال الحكيمُ ابن سيراخ: أيها الولدُ، إن تقدمتَ لخدمةِ ربك، فهيئ نفسَك للتجاربِ».

قال القديس باسيليوس: «إن النصارى قد مُنعوا من محبةِ المجدِ الباطلِ، ومن إرضاءِ الناسِ، ومن المباهاة، أما العلمانيون فإنهم يخزون من المسكنةِ، ويهيئون أنواعَ المأكولات للضيفِ، وأما نحن، فلا نرذل المسكنةَ التي طوَّبها الربُّ. وكما لا يليق بنا إعداد الآلات الكريمة الثمينة في الضيافات، وإحضار البُسط فيها، كذلك لا يحسن بنا الاحتفال بالمأكولات اللذيذة الثمينة، الخارجة عن مأكولاتنا.

فإن قَصَدَك أيها الأخُ غريبٌ، فإن كان حالُه كحالِك، قدم له الخبزَ، فإنه يعرفُ فائدته

ويجد عندك ما تركه في قلايته، فإن كان قد أتعبه، فقدم له ما يزيل تعبَه.

وإن قَصَدَك علمانيٌ، فإنه يأخذُ من عندِك رسماً للقناعةِ في المأكولاتِ، وتذكاراً لموائد النصارى، ونموذجاً للمسكنةِ المسيحيةِ.

إذا كنا نُغيِّر ملابسنا لمن يتلقانا، فلا نُغيِّر أيضاً موائدنا للذي يطرقُ بابَنا. والرسولُ يقول: إن أكلتم وشربتم، أو مهما عملتم، فاعملوه لتمجيدِ اللهِ. وما يُعمل للمباهاةِ، ليس هو لتمجيدِ اللهِ. ويعقوبُ اكتفى في مطلوبهِ من اللهِ، بخبزٍ يأكله، وثوبٍ يلبسه. والرسول قال: يكفينا القوتُ والكسوةُ. وسليمان سأل اللهَ قائلاً: رتِّب لي الكفافَ، الذي يقومُ بالأَودِ. والكفافُ هو عدم الفضلةِ، وعدم الحاجةِ الضرورية معاً، والغذاء الضروري هو اليسير الثمن، والسهل الموجود، فبهذا يجبُ الاهتمام، وتقديمه لكلِّ محتاجٍ إليه.

ولما كان قوتُنا إنما نحصلُ عليه من شغلِ أيدينا، يوماً بيومٍ، فلا نصرفه في تنعيمِ غير المحتاجين، لئلا نضيِّق على نفوسِنا، ونُسببُ لهم المضرةَ الحادثةَ من التبذيرِ حيث يجب التقشف».

وقال أيضاً: «لما شاهدتُ قوماً أماتوا أجسادَهم بالنسكِ، مدحتُهم، لأني رأيتُ ضبطَ الهوى قاهراً للشياطين، إذا كان مبنياً على ناموسِ الربِّ. ولما رأيتُهم بعد ذلك كذابين حلافين، سألتُهم قائلاً: إذا كنتم عاملين بوصايا الناسِ، فاهتموا أولاً بوصايا الربِّ، وتجنبوا الكذبَ، واليمينَ الحقَ، وباقي ما نَهى عنه، وتوعَّد بالعقابِ عليه. فلمَّا لم يقبلوا مشورتي، بان لي أن الذي يعملونه، إنما هو من أجلِ تمجيدِ الناس، لأن ضبطَ الهوى، يحتاجُ إلى تعبٍ كثيرٍ، أما تركُ الكذبِ واليمين، فلا يحتاج إلا إلى تأملٍ فقط».

كان شيخٌ ببريةِ الإسقيط اسمه يوساب، وكان شيخاً كبيراً، متقدماً في الأيامِ، هذا قد فرغ (أي ضمر) جسمُه وبقى يُظَنُ أنه خيالٌ، من كثرةِ الصومِ، والصلاةِ، والسهرِ، والتعبِ، والصبرِ على حرِّ الصيفِ وبردِ الشتاءِ، وكان طعامُهُ من عقاقير البريةِ، ولِباسُه الليفَ الخشن، وكان لا يفتر من التسابيح والقداديس، وتناهى في العبادةِ حتى بقى يركبُ على السحابِ، ويغتذي من طعامٍ يأتيه من السماءِ، في أوقاتٍ معلومةٍ، وحصل له من العبادةِ الربانيةِ قوةٌ تمنع عنه البردَ والحرَّ، وكان يزداد في فضائلِهِ، مزدرياً بنفسِه متيقناً بأنه غيرُ مستحقٍ لِما صار إليه.

ومع هذا، اشتهى من اللهِ فكراً طلع على قلبهِ، وهو أن يريه إنساناً يماثله في نعيمِ الآخرةِ،

وطلب من اللهِ بخشوعٍ وتضرعٍ كثيرٍ، فجاء إليه صوتٌ يقول له: «يا يوساب، يا يوساب، الملكُ الذي في إنطاكية». واستجاب الربُّ طلبتَه واختطفته سحابةٌ، وأنزلته خارج مدينة إنطاكية، وأخذ جريدته بيدِهِ، وقصد باب المدينةِ، فلما انتهى إلى البابِ وجد الملكَ قد ركبَ في ذلك اليوم، وهو خارجٌ من المدينةِ، وحوله عسكرٌ كبيرٌ بالتبجيل العظيم، فبعضهم يمشي في ركابِهِ، وبعضهم على خيلهم. فاستند الراهبُ إلى باب المدينةِ حتى يشاهدَ الملك وجهاً لوجه، وإذا الملكُ قد أقبلَ راكباً، وفرسُه مثقلٌ بالحلي والمجوهرات التي عليه، وكان شعاعُ الجواهر المختلفة الألوان التي في التاج الذي على رأس الملكِ يضيءُ.

فحينئذ ندم الشيخُ وحزن لما أبصر هذه العظمةَ التي للملكِ، وقال: «من يكون هذا الملك العظيم، كيف يكون له إرثٌ في ملكوتِ السمواتِ»؟ وصار حزيناً باكياً، ووقع الازدحامُ في البابِ وصار الشيخُ من الازدحام في بلبلةٍ وتعبٍ عظيم، ولما وصل الملكُ إلى البابِ خفَّ الازدحامُ. حينئذ التفت الملكُ إلى الشيخِ وقال له: «يا أنبا يوساب، لقد اشتهيت لنفسِك تعباً ما كان إليه حاجةٌ»، وأمر بأن يمضي به إلى القصر، حتى يعود.

فلما سمع الشيخُ قول الملكِ فرح جداً، وقال: «لولا أن اللهَ ساكنٌ في ذلك الإنسانِ، لما عرفني، ولا عرف قصدي». فلما وصل الشيخُ إلى الدارِ، جلس في الدهليزِ، حتى نزل الملكُ من الركوبةِ، فأخذ بيدِ الشيخِ ودخل إلى مجلسٍ عظيمٍ، وقد هيئ فيه طعامٌ للعسكرِ، فجلس في ناحيةٍ من العسكرِ، ودخل العسكرُ جميعُهم، فلما أكلوا وشبعوا من ذلك الطعامِ، انصرفوا.

حينئذ قام الملكُ والشيخُ، ودخلا إلى ذلك القصر، وإذا بالملكةِ زوجة الملكِ، تلتقي بهما وعليها من الحلي والجواهر، ما يفوق الوصف، وحولها من الجواري جمعٌ كبيرٌ، يفوق الوصف في حسن الصورةِ وجمال اللِباس، والحلي. فلم يزالوا في خدمةِ الملكِ حتى جلس على سريرِه، وحينئذ انعزلت الملكةُ وجواريها عنهما، وبعد ساعةٍ عادت إليهما، وهي لابسةٌ مِسحَ شعرٍ، وعند ذلك انعزل الملكُ أيضاً، ولبس مسح شعرٍ وعاد، ثم نهضا، وخرجا من ذلك الموضعِ، والسائح معهما، وأتوا إلى مكانٍ في القصرِ، فيه راهبٌ جالسٌ، يعمل في شغلِهِ.

فلما رآهم الراهبُ، وقف وقبَّل السائحَ، وسلما بعضُهما على بعضٍ، وصلوا جميعهم، وقالوا البركةَ، وجلسوا، وإذا خادمٌ صغيرٌ قد جاء إلى الملك والملكةِ بشغلِ أيديهما، فتناول كلٌّ واحدٍ

فواحدٍ صنعتَه، ليعملَ فيها.

فقال الراهبُ للسائحِ، من حيث لا يعرفه: «يا يوساب، إن الربَّ أراد بك خيراً عظيماً، لأنه أوقفك على سيرةِ الملكِ والملكةِ»، وبدءوا يتحدثون بعظائمِ الله إلى وقتِ الساعةِ التاسعةِ، حيث أتى خادمٌ بمائدةٍ عليها خبزٌ وطعامٌ يوافق الرهبانَ، فصلوا، وأكلوا، ورُفعت المائدةُ.

فلما عزم السائحُ على الانصرافِ، تباركوا منه، وقال له الراهبُ: «امضِ بسلامِ الربِّ، وعظ بهذه السيرةِ، فإنها عظيمةٌ جداً، لأنك قد نظرتَ عظمةَ الملكِ وزوجته، وها أنت ترى عيشتهما الآن، والتواضع الذي هما فيه، حتى إنهما لا يتناولان شيئاً من طعامِ المملكةِ البتة، إلا من شغلِ أيديهما، وفي هذا كفايةٌ»، ثم إن السائح ودَّعهم وركب على السحابةِ، وعاد إلى بريةِ الإسقيط، وهو متعجبٌ مما رأى من مجدِ الله، الذي له التسبيح والعظمة والإكرامُ إلى الأبدِ، آمين.

أخبروا إنه كان في البريةِ بالديارات، راهبٌ كبيرُ السنِ، طالت أيامُه، وكان له تلميذان، وكان أحدُهما غافلاً عن نفسِه، عن الصلاةِ في أوقاتها، عاجزاً متوانياً فيما يُقرِّبه إلى الله سبحانه، وكان الشيخُ معلِّمُه يعاتبه كثيراً ويعظه، ويوصيه أن لا يتركَ الصلاةَ، قائلاً له: «يا ابني، ليس شيءٌ أضرَ بالراهبِ من تركِ الصلاةِ، وليس شيءٌ يحبه المجرِّب مثلَ تركِ الصلاةِ، فاحذر يا ابني أن تُقوِّي الشيطانَ على هلاكِك».

بهذا الكلامِ ومثلِه، كان الشيخُ يعظه، ويؤدبه، وهو لا يسمع، ولا يرجع عن التواني، وأقام على ذلك مدةً.

ثم إن الراهبَ تنيح، فأحبَّ الشيخُ أن يَعلمَ مصيرَ التلميذ، فقام وأغلق بابَ قلايته، وأتعبَ نفسَه بالصومِ والصلاةِ والسهرِ الدائم، ولما طال تعبُه، أحبَّ اللهُ أن يُظهرَه له، فطرح عليه سُباتاً، فنام، وبينما هو نائمٌ، رأى ملاكَ الربِّ أخذ بيدِه، يدور به ويريه مواطنَ الأبرارِ، ومساكنَ الصديقين، وهو متعجبٌ من الراحةِ التي هم فيها، وكان الملاكُ يقول له: «هؤلاء هم الذين أرضوا المسيحَ»، كما أراه الملاكُ مواضعَ أصنافِ العذاب، وأهوالاً عظيمةً، ففزع مما رأى، فقال له الملاكُ: «لا تخف، حتى تعلمَ ما أتعبتَ نفسَك بسببِهِ»، فقويَ قلبُه، وبقيَ متفرساً.

وبينما هو كذلك، إذ رأى بركةً عظيمةً شبه الموضع الواسع، وفيها نيرانٌ متقدة، ولهيبُها يصعدُ، وإذا بجماعةٍ، قيام فيها، بعضُهم في النارِ إلى عنقِهِ، وبعضُهم إلى صدرِهِ، وبعضُهم إلى

بطنهِ، وبعضُهم إلى ركبتيه، فلما رآهم، جعل يتفرس فيهم، وبينما هو كذلك، إذا به يرى تلميذَه المتواني قائماً في وسطِ النارِ، إلى سُرَّتِه، فقال له: «أليس هذا ما كنتُ أخشى عليك منه؟ وقد كنتُ أحذِّرك يا ابني»، وصار الشيخُ يبكي عليه، فقال له تلميذُه: «من شأنِ اللهِ يا أبي، ارفع عني القربانَ، واطلب من اللهِ بسببي. يا أبي، إنَّ تحت رجليَّ أقواماً آخرين، وأنا واقفٌ على رؤوسِهم».

وبينما الشيخُ كذلك، انتبه من نومِه وهو مرعوبٌ، فصنع الشيخُ عن تلميذِه قرابينَ كثيرةً، وسأل الربَّ أن يريه حال التلميذِ، فخُطف عقلُه في نصفِ النهارِ بسهوٍ، فرأى تلك البركةَ المنتنةَ، ورأى تلميذَه وقد تركته النيران، وبقيت فقط على أمشاطِ رجليه، وهو يصرخُ، فناداه الشيخُ قائلاً: «يا ابني، ويا نور عينيَّ، ها قد صنعتُ عنك القربانَ، فكيف حالُك الآن؟» فقال له: «يا أبي، قد زالت النارُ عني، ووجدتُ راحةً ما خلا رجليَّ، فلا زالتا في الأتونِ، فتصدَّق عليَّ بقربانٍ آخر».

فلما انتبه الشيخُ، صنع عنه القربانَ، وأكثَرَ الطلبَ بسببهِ، وسأل أن ينظرَه دفعةً أخرى، فرأى في الرؤيا، وقد زالت النارُ عنه، فسأله قائلاً: «يا ولدي، كيف حالُك اليوم؟»، فقال: «يا أبي، قد زالت عني النارُ، ولستُ أريد شيئاً سوى أن أنظرَ لأني أعمى».

وعندئذ انتبه الشيخُ من نومِه، وسبَّح الله قائلاً: «يا رب، ما أكثر تحننك على جنسِ البشرِ»، وهمَّ الشيخُ أن يطلبَ من الربِّ بسببِ التلميذِ كي ينظرَ، ولكن في أثناءِ ذلك، تنيح الشيخُ بشيخوخةٍ حسنةٍ مُرضيةٍ.

قيل إن إنساناً تاجراً، خبيراً بالفصوصِ والخرز، عارفاً بجوهر اللؤلؤ؛ هذا ركب في سفينةٍ مع غلمانِه، وكانت معه جواهر جزيلة الثمن، وأشياء أخرى ثمينة، وكان في السفينةِ عدة نواتية. وكان بين النواتيةِ صبي، حسنٌ، هادئُ الحركةِ، هذا شكا لذلك التاجرِ بأنه يبغضُ صناعةَ البحرِ، كما يبغض معاشرةَ رفقته، لما هم عليه من العوائدِ الذميمةِ. ثم إن التاجرَ قال له: « لا يضيق عليك الأمرُ، فإذا سَهُلَتْ طرقُنا بمعونةِ الربِّ، وصعدتُ من هذه السفينةِ، أخذتُك معي، واعتنيت بمصالحك». فطاب قلبُ الصبي بالكلامِ.

وحدث في بعضِ الأيامِ، أن تشاورَ النواتيةُ فيما بينهم على أن يقذفوا بالتاجرِ وبغلمانِهِ إلى

البحرِ، ومن أجلِ ما معه من المالِ، فلما أعلموا ذلك الصبيَ الذي كان صديقاً لذلك التاجرِ، أسرع وأخبرَه بما تشاوروا عليه، فقال له التاجرُ: «هل أنت متحققٌ من ذلك»؟ قال له: «نعم».

حينئذ قام الجواهري بسرعةٍ واستدعى غلمانَه، وقال لهم: «كلُّ ما آمركم به، افعلوه بسرعةٍ، لأنه إن تهاونتم، فسوف أموتُ أنا، وسوف تموتون أنتم أيضاً». ثم بَسط إزاراً في وسطِ المركبِ، وقال لهم: «هاتوا ربوات الجواهر كلِّها»، فقدموها إليه، ففتحها وأفرغها قدام كلِّ من في المركبِ، وبدأ يقول: «هذا عدوي، وأنا أشفقُ عليه، هذا قاتلي، وأنا أحبُه، هذا مبعدي من الحياتين، فما انتفاعي به؟ احملوا معي»، فحملوا معه، وبسرعةٍ طرح جميعَ الجواهرِ في البحرِ، فلما رأى الملاحون ذلك تحيروا في أمرهم، وانحلت مشورتهم، ثم أصبح يتصدق منهم الخبزَ، فالملاحون لما أبصروه على تلك الحالِ، رحموه، وبدأ هو يقول: «أشكرك يا ربُّ، لأنك أنهضتني لخلاصِ نفسي وجسدي، اليوم زالت عني قساوةُ القلبِ، وربحتُ تلك النفوسَ الهالكة، أولئك الذين بعمى قلوبهم تشاوروا، وبسببي طلبوا أن يسكنوا الجحيمَ المخلدَ».

قال شيخٌ: «حدث أني كنتُ دفعةً سائراً في الصعيدِ مع رجلٍ إسماعيلي، وأمسى علينا الوقتُ، ولم نستطع أن نصلَ إلى مسكنٍ لنلتجئَ فيه إلى باكرٍ، وفيما نحن محتارون، خائفون من الوحوشِ، صادفتنا بربا عتيقةٌ، فدخلناها لنستريحَ إلى باكرٍ. وإني وقفتُ ورشمتُ علامةَ الصليبِ المقدسةِ من ناحيتي هذه، وهذه، ثم رشمتها أيضاً تحتي وفوق رأسي، ورقدتُ.

وفي نصفِ الليلِ، إذا بنا نسمعُ صهيلَ خيلٍ، وصياحاً، وخيالاً عظيماً، وقلقاً من الجنونِ، ورأيتُ واحداً أجلسوه على كرسي مثل والٍ، وأمر القيامَ بين يديه، وهم كالرقاصين، أن يدخلوا البربا حيث كنا راقدين، وأخرجوا الراقدَ معي، وضربوه حتى شارف الموتَ، وكانوا يقولون له: «أين هو الراقدُ معك»؟ فيقول لهم: «إنه في الموضع الذي كنتُ راقداً فيه».

أما أنا فصرتُ كالميتِ من الخوفِ الذي لحقني، وهم كلما اقتربوا مني ونظروا علامةَ الصليبِ، يهربون إلى خلفٍ، ويقعون على وجوههم. وكان الجالسُ على الكرسي يقول لهم: «ما بالكم لا تحضرونه»؟ فكانوا يقولون له: «إذا نحن دنونا منه، ننظرُ علامةَ الصليبِ، فلا نقدر أن نقفَ، بل نهرب إلى خلف، ونسقط على الأرضِ». فيقول لهم: «اصعدوا إلى الهواءِ، وانزلوا عليه من فوق، وائتوني به». فكانوا لما يأتون إليَّ، ينظرون العلامةَ على رأسي، فيهربون إلى خلف.

ومكثتُ هكذا في هذا الانزعاج العظيمِ، حتى أشرق النورُ، حيث ذهبوا خائبين، تاركين ذلك الرجلَ قريباً من الموتِ. وقد عجبتُ إذ لم يقدروا الدنو مني وقلتُ: «سبحان السيد المسيح صاحب العلامة».

أما ذلك الرجل الذي ضربوه، فقد تعجب مني لما رآني، وقال: «لماذا لم يقدروا أن يضربوك، وقتلوني أنا (ضرباً)»؟، فأعلمتُه بعلامةِ الصليبِ المخلص الذي لسيدنا يسوع المسيح، فعندما سمع مني هذا، مضى وتعمَّد، وصار مسيحياً مختاراً، وأكمل عمرَه وهو لابسٌ السلاحَ، والمثال الذي لإلهنا يسوع المسيح».

أخبر بعضُ الشيوخِ عن رجلٍ كان يعملُ فاعلاً في البساتين، ويتصدق بجميعِ أجرتِهِ، خلا قُوتَه، هذا خطر له فكرٌ من العدوِ قائلاً له: «ها قد قضيتَ عمرَك جميعَه وأنت تتصدق بأجرتِك، فهل ضمنتَ لنفسِك عوارضَ الزمان؟ اجمع أجرتَك واحفظها تنفعك». فجمع ما استطاع جمعه من أجرتِهِ.

وحدث بعد قليل، وهو في البستانِ يعملُ، أن ضربت شوكةٌ في رجلِهِ، وعمَّلت عليه، فأنفق جميعَ ما كان معه، ولم ينتفع بشيءٍ منه، وبعد ذلك ابتدأ يسألُ ويتصدقُ من الذين كان يتصدق عليهم، وأخيراً... أنتنت رجلُه جداً، فأشار عليه الأطباءُ بقطعِها، لئلا يَسْوَدَّ الجلدُ جميعُه ويُسَوِّس، وأوصوا بسرعةِ قطعها سَحَراً.

وفي تلك الليلةِ، بينما كان يبكي ويتنهد، رجع إلى نفسِه وندم، لأنه أخطأ بجمعهِ الصدقةَ التي كان يتصدق بها، وكان يقول: «أخطأتُ يا ربُّ، اغفر لي من أجلِ محبتِك لجنسِ البشرِ». فظهر له ملاكُ الربِّ قائلاً له: «أين هي الفضةُ التي ادخرتَها، وتوكَّلتَ عليها، لتعينك في مرضِك، لقد راح ما جمعتَه باطلاً، والصدقةُ التي كنتَ تصرفها، قد رجعتَ وأخذتَها»؟ فبدأ يبكي ويقول: «أخطأتُ إليك، اغفر لي، وإن رجعتُ معافى قوياً، عُدتُ إلى ما كنتُ عليه أولاً». ففي ساعتِها مسَّ الملاكُ رجلَه، وشُفيت للوقتِ، وقام من ساعتِه، ومضى إلى البستانِ الذي كان يعمل فيه.

وباكراً حضر إليه الطبيبُ، ومعه المنشار ليقطعَ رجلَه، فقالوا له: «لقد مضى إلى البستانِ يعمل فيه»، فمضى إليه الطبيبُ، فوجده واقفاً يحفرُ في الأرضِ، وهو صحيحٌ، فتعجَّب وسبَّح الله، وحينئذ عرَّفه سببَ مرضِ رجلِه وعافيتها، فمجَّد الله، وانصرف عنه.

قيل عن أنبا لونجينوس، إن أفكارَه قاتلته بالخروجِ إلى البريةِ الداخليةِ، لكي يستريحَ، فجاء صوتٌ سمعه سماعاً بليغاً وهو يقول: «قلايتك أعظم من خروجِ البريةِ، وهي صخرٌ أكثر من البريةِ».

فنهض بسرعةٍ، وأخذ بيدِه عصا، وبدأ يمشي في القلاية ويقول: «من هذه الجهةِ الشرقيةِ، يمضي الناسُ إلى القدسِ. والقدسُ هذه، هي المدينةُ المقدسةُ وفيها صُلبَ الربُّ، وأيضاً قُتلَ فيها الأنبياءُ، وذُبح فيها زكريا بن برخيا بين الهيكلِ والمذبحِ، فما أعظم ما في هذا المشرقِ، الذي منه المجوسُ أقبلوا كذلك». وانتقل إلى غربِ قلايته، وهو يقول: «وأما هذا الغربُ، فهو الجبلُ المقدس، وهو المعروف بالإسقيط، وأسماه أنبا بلاماي جبل شيهات، الذي هو ميزان القلوب، فما أعظمه من جبلٍ، فالربُ وعد بالمغفرةِ لجميعِ من يسكنونه، ويموتون فيه، وبالراحةِ لهم يوم الدين. وأما الجهة القبلية، فما أعظمها، فقد كان يسكن فيها رأسُ الآباءِ البطاركة إبراهيم أبو الأممِ، وعلى رأس هذه الجهةِ القبليةِ، تكلم الله مع إبراهيم، واستضافه وملائكته، وفي هذه الجهةِ القبليةِ، صعد إبراهيم على رأسِها، وربط ولدهَ إسحق بيديه ورجليه، فقال له ولدُه إسحق: يا أبتاه، هوذا الرباط، وها هي النارُ والحطبُ والسكين، فأين هو الحمل، ألعلي أنا هو الضحية اليوم؟ فنادى الربُّ إبراهيم قائلاً: لا تمد يدَك إلى الغلامِ، قد قبلتُ ضحيتَك». ثم صار يمشي في القلايةِ إلى الجهةِ البحريةِ، وفكَّر قليلاً: «هذا شرحٌ يطولُ، هذه القلايةُ أعظم وأوسع من البرية».

ولما أعيي من الفكرِ والمشي، جلس، ثم أدركه المساءُ، وبدأ يقول لأفكارِه: «لقد دخلنا في البريةِ، ووصلنا إلى المشرقِ والمغربِ»، ثم قال لنفسِه: «إنّ الذين يبتغون سكنى البريةِ، خبزاً لا يأكلون، وماءً لا يشربون، فافعل أنت هكذا».

وخرج على بابِ قلايته، وأكل قليلاً من نباتِ الأرضِ، ثم قال لنفسِه: «والذين في البريةِ، لا ينامون تحت سقفٍ، بل تحت السماءِ»، وفعل كذلك، بأن ألقى بنفسِه على الصخرةِ ونام متعباً.

وأقام على هذه الحال ثلاثة أيامٍ، يمشي من باكر إلى عشية في جوانب قلايته، ويأكل البقل الأخضر، ويضطجعُ قليلاً تحت السماءِ، حتى أعيي وضجر، وبدأ يخاصمُ نفسَه بجردٍ، ولطم على خديه قائلاً: «ادخل بعد إلى قلايتك، وابكِ على خطاياك، ولا يطيش عقلُك بقولِك: البرية، قد

دخلتَ البريةَ. أما سمعتَ داود يقول: عينُ الربِ على خائفيه، وأذناه ينصتان إلى تضرعهم، ولا يخفى عنه شيءٌ من أفكارِنا»، فلما نظره المجرِّب هكذا، خاف منه، وانصرف عنه.

أخبروا عن شيخٍ قديسٍ، إنه كان داخلاً إلى مدينةٍ لها أميرٌ كبير، وكانت له ابنةٌ، قد قاربت الموتَ، فلما رأى القديسَ، أمسكه وأعاقه من السفرِ قائلاً له: «لن أُطلقَك حتى تصلِّي على ابنتي فتعافى»، فتبعه الشيخُ إلى موضع الصبيةِ، ووقف فوق رأسِها، وبسطَ يديه قائلاً: «أيها الربُّ العارف بخيرة النفوس، يا علام الغيوب، يا من لا يشاء أن يَهلكَ أحدٌ من جنسِ البشر، أنت تعلم خيرة هذه الصبيةِ، إرادتك افعلها معها». وللوقتِ أسلمت الصبيةُ روحَها، فصاح أبوها على الشيخِ قائلاً: «وا ويلاه منك يا شيخُ، فإن كنتَ لم تقدر أن تقيمها، فلا أقل من أن تعطيها لي كما كانت، وإلا فلن أطلقَ سبيلَك»، فطلب الشيخُ من اللهِ، فعادت نفسُها فيها بطلبةِ الشيخ دفعةً أخرى.

ولما عوفيت، لم تَلبَث أن سارت سيرةً رديئةً، فأفسدت جلالَ أبيها، فمضى إلى موضعِ الشيخِ، وطلب منه قائلاً: «أريدُ أن تموتَ، فقد عاشت عيشةً رديئةً، وأنا أحتشمُ أن أمشي بسببها»، فقال له الشيخُ: «أنا قد طلبتُ من اللهِ الخيرَ فيما يريد، وقد علم الله أنَّ موتَها أصلح، لكنك لم تُرِد، والآن لا شأن لي معك»، ومضى الشيخُ وتركه.

وقال هذا القديس: «إني أعرفُ امرأةً بأورشليم اسمها ستروتين، هذه كانت خاطئةً، وتابت بحرقةِ قلبٍ، ورجعت إلى الله، وتنسكت، وعملت فضائلَ كثيرةً، حتى إنها من كثرةِ الفضائل التي عملتها، ونعمةِ الربِّ يسوع المسيح التي معها، صارت مدبرةً لدير عذارى.

ولما صارت مدبرةً للديرِ، زادت على نسكِها وصبرِها، حتى إنها من كثرةِ نسكِها وصبرِها، ضعفت قوَّتُها، فسألتها العذارى قائلات: يا أمنا كلي قليلاً من الطعامِ، كي يكونَ في جسدِك غذاءٌ قليل، وتستطيعين أن تمشي إلى داخلِ الموضع المقدس. فقالت لهن: يا بناتي، لا تتعبنني لأجلِ طعامٍ قليل، بأكلِهِ أرجعُ إلى عاداتي القديمة، فلأجل هذا أنا أخافُ من الأكلِ».

القديس الأنبا دانيال

كان أنبا دانيال، سائراً مرةً مع تلميذِه في طريقٍ، فلما قربا من موضعٍ يقال له أرمون المدينة،

قال لتلميذِه: «امضِ إلى هذا الدير الذي لهؤلاء العذارى، وعرِّف الأم، أني ههنا». وكان الدير يُعرف بدير أنبا أرميوس، وكان فيه ثلاثمائة عذراء.

فلما قرع التلميذُ البابَ، قالت له البوابةُ بصوتٍ خافتٍ: «من هذا، ماذا تريدُ يا أبي؟» قال لها الأب: «أريد أن أتكلمَ مع الأم». فقالت له:«إن الأم لا تتكلم مع أحدٍ، فعرفني بما تريده، وأنا أعرِّفها»، فقال لها: «قولي لها، هو ذا راهبٌ، يريدُ أن يتكلمَ معكِ»، فمضت ودعت الأم، فجاءت إلى عندِ البابِ، وتكلمت معه على لسانِ البوابةِ، فقال لها الأخُ: «اصنعي محبةً، واقبلينا إليكِ هذه الليلة، أنا وأبي، لئلا تأكلنا الوحوشُ». فأجابت قائلةً: «ليست لنا عادةٌ أن يبيتَ عندنا رجلٌ، والأصلح لكما أن تأكلكما وحوشُ البريةِ، ولا تأكلكم السباعُ الجوانية، الذين هم الأعداءُ الشياطين»، فقال لها الأخُ: «إنه أبونا دانيال، أرسلني إليكِ».

فلما سمعتْ أنه أنبا دانيال، خرجت مسرعةً إلى البابِ الثاني، والعذارى يجرين خلفها، وهن يفرشن بلالينهن في الطريقِ إلى موضع الشيخِ، فما أن دخلَ الديرَ حتى قدمت له لقّاناً فيه ماء، وغسلت رجليه، ولما فرغت من غسلهما، جعلت العذارى يأخذن الماء ويغسلن وجوهَهن، ما خلا أختٌ واحدةٌ، كن يقلن له الهبيلة، مطروحةً عند البابِ، بخرقٍ زريةٍ جداً، فلما فرغوا من الغسل، خرج الأب أنبا دانيال عند البابِ، فنظر إلى تلك الأختِ، فلم تسلِّم عليه، ولا التفتت إلى كلامِه، فصرخت عليها الأخواتُ، أن تقبِّل يدي أبينا أنبا دانيال، فلم تقف، فقالت الأم للأنبا دانيال: «يا أبانا إنها مجنونةٌ، وطلبتُ مراراً كثيرةً أن أطرحها خارجَ بابِ الديرِ، ولكني خشيتُ من الخطيةِ».

ثم إنهن قدمن للأنبا دانيال طعاماً ليأكلَ، وبعد ذلك أكلن، ثم قال لتلميذِه: «اسهر معي الليلةَ، لتنظرَ عِظم فضائل هذه القديسةِ التي يدعونها مجنونةً».

ولم تمضِ هجعةٌ من الليل، وإذا بالمجنونةِ قد قامت، وانتصبت، ورفعت يديها نحو السماءِ، وفتحت فاها وباركت الله، وصنعت مطانيات كثيرةً، وكانت دموعُها تجري مثلَ ينبوعٍ يجري، من أجلِ حُرقة قلبها في اللهِ، وكان هذا عملها في كلِّ ليلةٍ، وإذا سمعت حساً نحوها، طرحت نفسَها على الأرضِ، وتظاهرت بأنها نائمةٌ. وهذا كان تدبيرُها جميعَ أيامِ حياتِها. فقال لتلميذِه: «استدعِ الأم بسرعةٍ». فلما أتت ونظرت الأختَ عبدة المسيح، والنورَ بين يديها، والملائكة تسجدُ معها،

بكت وقالت: «الويل لي أنا الخاطئة، فكم صنعتُ بها من الشتمِ والإهانةِ والتعيير».

فلما ضُرب الناقوسُ، واجتمعت الأخوات للصلاةِ، عرفتهن الأم بما عاينت. فلما علمت (القديسة) أُهن علمن بخبرِها، كتبت ورقةً وعلقتها على قصبةٍ عند بابِ الدير، وخرجت من الديرِ، وكان مكتوبٌ في الورقةِ: «أنا الشقيةُ، لشقوتي، ومعاندة العدو، أخرجني من بينكن، وأبعدني من وجوهكن المملوءة حياةً. إهانتكن لي كانت قرة نفسي، وضحِركم عليَّ كان ثمرةً تُجمع كلَّ يومٍ، استقلالكن لي كان ربحي، ورأس المال يزداد كل يوم وساعة، فمباركةٌ تلك الساعةِ التي قيل لي فيها: يا هبيلة، يا مجنونة، وأنتن محالالات من جهتي، بارئات من الخطيةِ، وإني قدامكن، قدام المنبر، سوف أجاوب عنكن لأجلي؛ ليس فيكن مستهزئةٌ، ولا من هي محبةٌ للحنجرةِ، ولا للِّباس، ولا للشهوةِ، بل كلكن نقيات».

وهذه هي آخرُ رسالةٍ لها، فلما قرأها أنبا دانيال قال: «ما كان بياتي البارحة هنا، إلا لهذا السببِ».

وإن جميعَ الأخوات، أقررن له بما كنَّ يهينوها، ويفترين به عليها، فحينئذ حاللهن الأب أنبا دانيال وعرَّفهن بأن لا يستهزئن بخليقةِ اللهِ، فهذه أعظم الخطايا، حتى ولو كان هبيلاً، لأن توراة موسى النبي تقول: «خُلق الإنسانُ على صورةِ الله ومثالِه بالوقار، والإكرامِ، وطولِ الروحِ، والتأني»، ثم إنّ الأب صلى عليهن، وتوجه إلى ديرِه.

كان بالقربِ من جبلِ شيهات، الذي تفسيرُه ميزانُ القلوب، ديرٌ فيه كثيرٌ من العذارى، وكان لهن رزقٌ قليل، وكن يفرقن منه على المساكين والغرباء، وإنَّ مبغضَ الخير، لم يحتمل البرَّ الذي يصنعنه، فدخل في قلبِ مقدمِ قبيلةٍ بالقربِ منهن، وأغراه بسرقةِ الديرِ، وكم كان فرحُ رجالهِ لما عرَّفهم بعزمِهِ.

فلما جاءوا إلى الديرِ، تحايلوا كيف يجدون السبيلَ لأخذهِ، لكنهم لم يقدروا، لأن حصنَ الديرِ كان منيعاً، فقال لهم مقدمُهم: «ما أقوله لكم افعلوه، امضوا واحضروا لي ثيابَ راهبٍ، وبليناً أسودَ، وقلونية منقوشةً كلها صلبان، مثل شكل أنبا دانيال، الذي من شيهات، فإذا أمسى الوقتُ، لبستُ كلَّ ذلك، وآخذ بيدي جريدةً، وأقرع البابَ، فإذا نظرن إليَّ يفتحن لي من أجلهِ، وبذلك أهيئ لكم الموضعَ لتنهبوه براحةٍ». فلما سمعوا فرحوا، وأحضروا الثيابَ الذي طلبه.

ولما أمسى الوقتُ، قام المقدمُ، لابساً الثيابَ، وأخذ في يدهِ جريدةً، وقرع البابَ، فجاوبته البوابةُ: «من أنت يا سيدي وأبي؟»، فقال لها: «امضِ وعرِّفي الأم بأن المسكينَ دانيال القسيس، الذي من شيهات، قائمٌ على البابِ، ويقول: اقبلنني عندكن إلى الغداةِ لكي أستريحَ». فأبلغت البوابةُ الأم بالكلام، وما أن سمعت الأم أن أنبا دانيال قائمٌ على البابِ، حتى قامت مسرعةً، والأخوات يتبعنها، وقبّلن رجلي ذلك الإنسان. ولأن الوقتَ كان مساءً، فإنهن لم يتحققن شخصَه، بل أسرعن، وأحضرن ماءً في لقانٍ، وغسلن رجليه، ولما أردن أن يفرشن له في علو الديرِ، منعهن قائلاً: «لن أفارقَ هذا الموضعِ».

وإن الأم والأخوات أخذن الماء الذي غسل فيه رجليه، ووضعوه قدامه، وبدأت كلُّ واحدةٍ تغسل وجهَها منه، وهو يُصَلِّب عليها. وكانت بين الأخوات بنتٌ عذراء عمياء من بطنِ أمها، فحدث لما أمسكن بيديها، وأحضرنها إلى ذلك الإنسان، أن كان الأب أنبا دانيال قد حضر عندهن بالروح في تلك الساعةِ، وأمسك بيد العذراء وأحضرها إلى ذلك الإنسان، وقلن له: «يا أبانا، نطلب من قدسِك أن تصلّب على عينيها»، فقال لهن: «قدِّمن لها فضلةَ الماءِ الذي في اللقان». وكان قولُه هذا استهزاءً بالماءِ، واستقلالاً لعقولهن، فلما أخذت الأختُ الماءَ، ورشمت عليه باسمِ المسيحِ قائلةً: «بصلاة القديس أنبا دانيال»، فللوقتِ انفتحت عيناها، وذلك الإنسانُ ينظرُ.

فيا للخوفِ الذي لحقه ويا للرعدةِ، وما أعظم الصراخ الذي صرخن به في تلك الساعةِ وبدأن يقبِّلن رجلي ذلك اللص، قائلات له: «يا أبانا، مباركةٌ الساعةُ التي دخلتَ فيها إلينا».

أما اللصُ، فقال: «يا ويلي، ويا غربتي من اللهِ، إذا كان باسمِ أنبا دانيال، تُفتح أعينُ العميان، فكم تكون عظمة ذلك الذي يعمل عملَ الربِّ، ويلي، كيف ضيعتُ زماني في عملِ النجاسات، وحق صلاة أنبا دانيال، من الآن، لن أرجعَ أسلك الطريقَ التي كنتُ أسلكها»، وكان يقول هذا، وهو يبكي، وينتف شعرَ لحيته.

أما العذارى، فكن يكررن عليه القولَ: «مباركةٌ الساعةُ التي حضرتَ فيها إلى ههنا»، وأما هو فكان يقول: «بالحقيقة إنها ساعةٌ مباركةٌ».

وأما الرجالُ الذين كانوا ينتظرونه، ليفتحَ لهم البابَ، فقد كانوا قياماً، وسيوفُهم بأيديهم،

وهم قلقون على فتحِ البابِ، وقد سمعهم، وهو في الداخلِ، يقولون: «لقد أزف الليلُ، لعله يريدُ أن يترهب ويسكن عندهن»، وآخر منهم يقول: «لعل راهبةً منهن جعلته نصرانياً»، وكانوا يقولون هذا الكلامَ باستهزاءٍ، فكان يسمع ذلك ويقول: «حقاً، لقد نطقَ نبيُ الله على أفواهِهم، بأني أترهب، وأن راهبةً منهن جعلتني نصرانياً».

ولما أنار النورُ، وانقطع رجاؤهم فيه، خافوا وانصرفوا إلى مكانِهم محزونين، وأسنانُهم تصرُّ على مقدِّمهم. ولما كان الصباحُ سَحراً، بسط ذلك اللصُ يديه نحو المشرقِ قائلاً: «يا ربُّ، إنك لم تأت لتدعو الصديقين، لكن الخطاةَ، فاقبلني إليك بصلاةِ الذين تعبوا على اسمِك». ثم إنه ودعهن، وخرج وهن متحققات من أنه أنبا دانيال.

فلما توسط الطريقَ، خرج عليه رفقاؤه، وقالوا له: «ما الذي أصابك؟ إنما قعودك كان لأنك وجدتَ جواهرَ حسنةً، وأنت تقصد أن تبدِّي نفسَك علينا. أرنا ما معك». فلما فتشوه، وجدوه بأسوأ حالٍ، وقد تغير وجهُه، وتورمت عيناه، من عِظم البكاء، وقد تغيَّر كلُّه، وخرجت منه النفسُ السبعية، وعند ذلك خافوا وارتعدوا، وبدءوا يسألونه بخوفٍ وحشمةٍ، أن يُعرِّفهم ما السبب في تغيير جميعِ حياته.

وعند ذلك بدأ يعرِّفهم من وقتِ دخولِه عندهن، وأمرُ العذراءِ العمياء، حتى الساعة التي هو فيها. أما هم فلما سمعوا، داخلهم الخوفُ وسكتوا.

ثم إنه توجَّه نحو البريةِ، إلى عندِ الأب دانيال، وتبعه بعضُ رفقائه، وقصَّ عليه ما جرى بدير العذارى، فقال له أنبا دانيال: «أنا الذي أحضرتُ إليك العذراءَ العمياء، ومن وقتِ دخولك إليهن، أنا كنتُ حاضراً بينكم بالروحِ». ومن بعد ذلك رهبنه، وأقام عنده بالعبادة الحسنةِ، والزهد الزائد، إلى يومِ وفاته، وعمل هذا اللصُ معجزاتٍ عظيمةً، وبصلاته سكن فردوس النعيم، بركة صلاته تكون معنا آمين.

++++++++++++++++++++++++++++++++

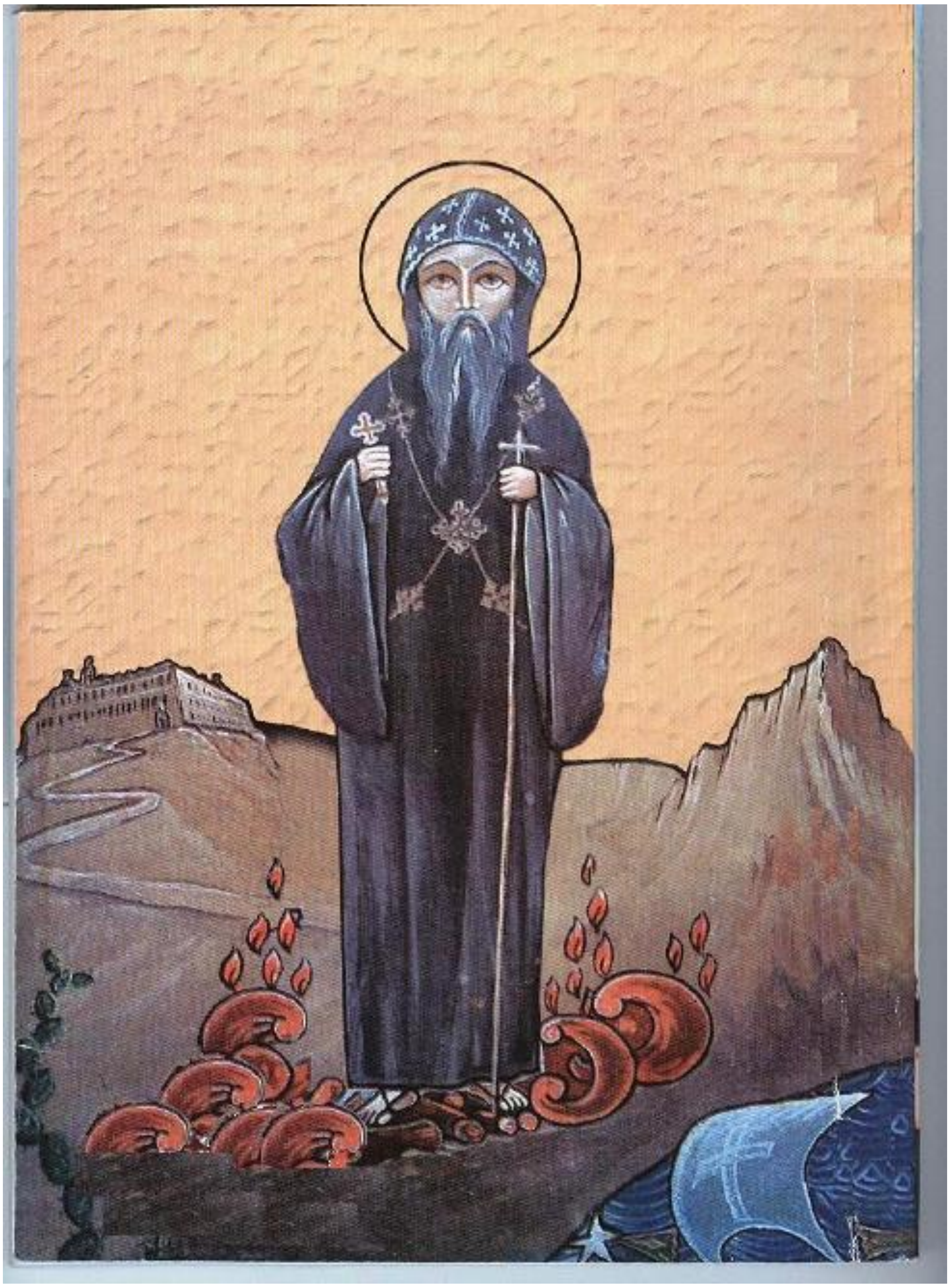

القديس مار اوكين المصرى

لمعرفة سيرة القديس زورو موقع القديس على النت

www.okeen.net

www.saintokeen.com